

موسيقى التمرد

هشام العايدي



ترجمه: سماح جعفر



موسيقى التمرد

الكتاب: موسيقى التمرد

المؤلف: هشام العايدي

ترجمة: سماح جعفر

التصنيف: أدب

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: مايو 2019

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 8 - 813 - 429 - 614 - 978

Copyright © 2014 by Hisham D. Aidi

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع
محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو
نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

"منزول" ... في انتظار مواردهم حجة تقدموا مدارك
بجهود الزملاء، من خلال الفاعل، الذي اختار أن يكون
الذكور والجهد، هدية لأمة، منزلة محمد بن عبد الله، حيث كانت ترفع
كالسحابة، وتغيب كالطير، وتجب العلم بسيف.

ترقي الدخيل

٢٠١٨/٩/٢٥

الفهرس

استهلال 11

الضواحي تحترق 14

السلام عليكم - مرحباً بكم في أمريكا 19

"الإسلام، وليس الهيب هوب؟" 24

"أوديو توبيا" 28

الفصل الأول: الموريسكية المسحورة 37

التصوف الحسي 42

القصة التي كسرت كل القواعد 48

مواطنة السامبا 56

الفصل الثاني: أسرار الشكر 65

أنبياء المدينة 72

الموريسكي الأطلسي 83

الفصل الثالث: غيتوات في السماء 91

لبس الثوب، مضغ المسواك 96

حباً لفيلي 100

استيقظوا أيها البناة، 103

الرسالة في الموسيقى 105

جلب الله للتجديد الحضري 113

تحية، ما شاء الله 120

الفصل الرابع: تسعة آلاف ميلٍ ... من الروك الصوفي 127

القوة الصوفية 130

طالبان والغيتار 137

الفصل الخامس: خلافة الجاز 149

الشمس لا تغيب أبداً 152

أحلام الحرية 162

تحولوا نحو الشرق 169

موسيقى الجاز للإنقاذ 176

بحثاً عن نوبل درو علي 180

الله أكبر 185

الفصل السادس: الروح الزرقاء اختارتني 191

من هارلم إلى القصبة 201

طنجة إلى تاهيتي 207

معلم النوتة الزرقاء 214

الفصل السابع: في الغُشية نضع ثقتنا 221

الحالة الكناوية 226

قمة الكناوة 229

طبيب الأشباح 234

سياسة الغشية المنصهرة 238

الفصل الثامن: لسنا بيض البَشرة 249

جيم كرو العربي 256

إِختَر الإِجابة الصحيحة (لست أبيض تماماً)! 262

النيل الأزرق واشنطن 266

رمضان لا يُنسى 270

جنّ وعصائر 281

قوةٌ في الهوامش 286

الفصل التاسع: الضواحي الأمريكية 295

إدارة التنوع 297

حرب ثقافية على الإرهاب 302

الجهادي الرائع 309

الحمد لله بخير 312

السلفيون المسالمون 317

"سننتصر" 325

الفصل العاشر: العامل إكس 331

الدبلوماسية السليمة 335

إدارة المعرفة 341

أمريكا ضد السرد 345

أنا مالكوم إكس 348

نشر الإيمان 352

- "لقد عادت باندونغ، يا عزيزي!" 362
- موسيقى تصويرية للنضال 366
- "إمبراطورية التنوع" 373
- الفصل الحادي عشر: عندما بكى الكمان 379
- "العشرينيات الهادرة" 384
- "أنساب الأندلس" 387
- "عرب الإيمان اليهودي" 391
- ليلة في تونس 394
- زخرفة العالم 397
- أركيولوجيا الصدمة 404
- توقفت الموسيقى في الجزائر 410
- العصر الذهبي 414
- "شيندلر مسلم؟ فالنبرغ عربي؟ 422
- "أبناء زرياب" 426
- الفصل الثاني عشر: متلازمة شمال أفريقيا 433
- قلق مؤكد 438
- إنهاء الاستعمار الأوروبي 446
- بلوز الصحراء 452
- "الكثير من التاريخ" 471
- شكر وتقدير 479

استهلال

ذات ظهيرة رطبة في يوليو 2003م، توجهت إلى جنوب برونكس لحضور "كروتونا بارك جامز"، وهو مهرجان صغير ومغمور، نجح في جذب معجبي الهيب هوب من جميع أنحاء العالم. يتم تنظيم هذا الحدث السنوي بواسطة مؤسسة "أدوات الحرب"، وهي مؤسسة للفنون الشعبية تدعو قنانين من جميع أنحاء البلاد وأوروبا لتقديم عروض في برونكس، مسقط رأس الهيب هوب، ولقاء بعض رواد هذا النوع، مثل أفريكا بامباتا وكورتيس بلو. وصلت إلى المتنزه وسألت عن كريستي زد، إحدى المروجات والنشطاء المحليين. لكريستي عينا زرقاوان، بشرة محمرة وترتدي حجاباً أبيض، وهي مؤسسة "أدوات الحرب" ومجموعة صغيرة تسمى "مسلمين في الهيب هوب". كريستي متزوجة من خورخي بابون (المعروف باسم فاييل)، راقص مشهور ومغني راب ظهر في فيلم "Beat Street" الشهير في ثمانينيات القرن الماضي، وهو يدرس حالياً أساليب الرقص "البوبنغ" و"اللوكينغ" في جامعة نيويورك. كريستي زد وفاييل، كما هما معروفان - زوجان محترfan على مسرح الهيب هوب في الساحل الشرقي، لكنهما أصبحا عنصرين بارزين على المستوى الدولي كذلك، وينظمان عروضاً في أوروبا ويحضران فنانين من الخارج لتقديم عروض في أمريكا.

لكريستي قصة غير عادية. تقول ضاحكة، "يسألني الناس دائماً، كيف أصبحت فتاة بيضاء من وسط ولاية بنسلفانيا مسلمة تدعي عزيزة وتنظم معارك القرص الدوار في برونكس؟ وأقول إن كلمات الأغاني أتت بي إلى هنا. "كنت في المدرسة الثانوية عندما سمعت (الرسالة)"، تقول مشيرة إلى أغنية "غراند ماستر فلاش" التي ظهرت عام 1982م، والتي وصفت بوضوح الحياة في الغيتو خلال حقبة ريغان، وكانت إحدى أولى الأغاني الرائجة في موسيقى الهيب هوب. "سمعت الأغنية وتبعت الصوت إلى نيويورك".

وصلت مبكراً آملاً بإجراء مقابلة مع فرقة الراب الفرنسية 3ème Eil "العين الثالثة"، التي أتت من مارسيليا لتقديم أداء ذلك المساء. اشتهر الثلاثي في فرنسا بكلمات أغانيهم الواعية اجتماعياً. أصبحت المجموعة سياسية أكثر منذ غزو أفغانستان والعراق، وغنوا حول ما أسموه "القبضة الخانقة" للغرب على الشرق. وقفت بجانب المسرح في انتظارهم. تشكلت دائرة لمجموعة من الأولاد يصفقون ويرقصون، بينما قام منسق الموسيقى الذي كان يعمل في ذلك المساء -وهو رائد آخر، دي جي توني تون من "كولد كرش برازرز"- بتشغيل موسيقى الراب وكلاسيكيات السول اللاتينية. من ثم ظهرت كلودين

مديرة أعمال "العين الثالثة"، وهي امرأة ذات شعر بني في أوائل العشرينيات من عمرها وقادتني وراء الكواليس. شرحتُ لها أنني باحثٌ في جامعة كولومبيا وأكتب عن الهيب هوب العالمي. أشرق وجهها. قالت وهي تقودني خلف المسرح، "كنا نود التحدث إليك منذ فترة". اكتشفت لاحقاً أن كلودين اعتقدت أنني ممثل لشركة "كولومبيا ريكوردز"، على وشك أن أعرض على فرقته عقد تسجيل.

غربت الشمس، ولف توهجُ أزرق الحديقة، مشيت نحو أربعة شبان مسترخين على مقعد يطل على البحيرة الهندية المذهلة، التي تقع وسط الحديقة. بدأتُ أتحدث إلى مغني الراب -بوس ون (محمد) وجو بوبو (محمد)، ولدا في جزر القمر قبالة سواحل شرق أفريقيا، ونشأ في مرسيليا- ومنسق أغانيهما ريبيل (مصطفى). كانوا يرتدون ملابس متطابقة (برمودا من الدينم، قمصان بياقات عالية على غرار الثمانينيات، وقبعات بيسبول). قدم لي جو بوبو نسخة من أغنية (Si Triste So Sad). أخبرته بأنني رأيت نسخاً مقلدة على مناضد الموسيقى الأفريقية في هارلم. هز رأسه ومنحني ضربة قبضة. تحظى الأغنية بشعبية كبيرة بين شباب غرب أفريقيا في نيويورك، لأنها تقدم نقداً اجتماعياً يشجب وحشية الشرطة والسجن الشامل (مع تحية خاصة للسجين الأمريكي المحكوم عليه بالإعدام موميا أبو جمال). سألتهم عن رد الصحافة الفرنسية على كلماتهم، وعن زعم زعيمة الجبهة الوطنية المناهضة للهجرة جان ماري لوبان أن الهيب هوب شكلٌ موسيقي خطيرٌ نشأ في قصبات الجزائر.

هز بوس ون رأسه، "بالنسبة للوبان فإن كل شيء سيئ -الراب، الجريمة، مرض الإيدز- يأتي من الجزائر أو الإسلام". كان هذا في منتصف عام 2003م؛ كانت الحرب على الإرهاب في بداياتها. قال بوس ون، "كلما زاد هجوم بوش وشيكاغو على الإسلام، كلما اعتقد الشباب أنه جيد، وكلما ازداد توجه المظلومين نحو الإسلام والوعظة المتطرفين". أصبحت لهجته دفاعية قليلاً حين تحدث عن الضواحي، الضواحي الفقيرة التي تحاصر المدن الفرنسية الكبرى، مشيراً إلى أن الحياة في الضواحي الفرنسية أفضل من الغيتوات الأمريكية. "الحياة صعبة في فرنسا، لكن لدينا شبكة أمان اجتماعي. هنا لا يوجد شيء من هذا القبيل" -ووقف للتأكيد على هذه النقطة- "وسوف يزداد الأمر سوءاً مع بوش، راعي البقر، الثرثار!".

اختفى حماسهم عندما سألتهم عن رأيهم في برونكس. يدا عليهم الحزن وهم يتحدثون عن مكة الهيب هوب. ابتسم جو بوبو واصفاً اجتماعهم في اليوم السابق مع أسطورة الهيب هوب أفريكا بامباتا. "بام"، كما هو معروف،

محبوب بشكل خاص في فرنسا، حيث كان له دور أساس في إدخال الهيب هوب في أوائل الثمانينيات". بدأ دي جي ريبيل بالتحدث بعد أن ظل صامتاً لوقت طويل، "لقد حلمت بزيارة برونكس طوال ستة وثلاثين عاماً من حياتي. هذا هو المكان الذي بدأت فيه موسيقى الهيب هوب، الموسيقى التي حررتنا وأنقذتنا"، قال بجدية واضحة. "لقد التقينا بالأمس بامباتا وكول هيرك. شكرتهم شخصياً على ما قاموا به لأجل السود والمسلمين في فرنسا - فقد أعطونا لغة، ثقافة ومجتمعاً". تحشرج صوته قليلاً.

ذهلت بعاطفة كلماتهم وإخلاصها. كان لدي بعض الأسئلة الأكاديمية لأطرحها: لماذا كانت برونكس مركزية للغاية بالنسبة "للجغرافيا الأخلاقية" لأطفال الطبقة العاملة في مرسيليا؟ من أين أتت هذه النظرة الرومانسية للغيتو الأمريكي؟ لماذا كانوا مسحورين بفولكلور برونكس وهارلم أكثر من ثقافات بلاد آبائهم الأصلية؟ عادت كلودين فجأة إلى الظهور وطلبت منهم العودة إلى الخيمة. وصل المنسق الموسيقي الأسطوري غراند ماستر فلاش وشخصية بارزة أخرى لموسيقى الهيب هوب العالمية، وكان من المقرر أن يلتقوا بهما. قال دي جي ريبيل وهو يهيم بالمغادرة، "لقد اخترع فلاش ال [scratching] - وأنا أتقاضى أجراً لتعليمه في فرنسا". ودعني ثلاثي الراب ومنسق أغانيهم، "نراك قريباً". بعد نصف ساعة، كانوا على خشبة المسرح وهم يلوحون بأذرعهم: "Sautez! Sautez! Sautez!" وترجمها بوس ون، "هذا يعني، اقفز! اقفز! اقفز!"

الضواحي تحترق

لا تعد زيارة المسافرين الأوروبيين لبرونكس ظاهرة جديدة. في أوائل عام 1980م، قامت مجموعات من المهندسين المعماريين الفرنسيين والمخططين الحضريين بجولات بالمناطق الخربة التي تحوي مباني محترقة وحرب العصابات، في محاولة لتجنب تطور المشاكل نفسها في الضواحي الفرنسية. في تسعينيات القرن العشرين، اصطف الشباب الفرنسي والألماني للمشاركة في جولة "من مامبو إلى هيب هوب" الشعبية، والتي أخذت الزوار خلال المواقع الرئيسية من الماضي الموسيقي لبرونكس. لقد تعرفت على رائدي أعمال شباب صباحاً في مطار كينيدي، اندفعوا إلى برونكس، اشتريا حقيبتين من معدات الهيب هوب (le streetwear)، وعادوا إلى أوروبا في المساء. خلال عام 1990م وأوائل عام 2000م، كان الشباب الفرنسي في هارلم وبرونكس سياحاً ثقافيين إلى حد كبير وبدوا متفائلين: لقد أحبوا برونكس، فقد كانت المكان الذي بدأ به الهيب هوب، لكن موسيقى الراب الفرنسية كانت أكثر

سياسية وأكثر إزعاجاً؛ ونعم، كانت الضواحي الفرنسية منعزلة، ولكنها لم تكن عنيفة أو انفصالية مثل المدن الداخلية الأمريكية.

إن الشبان الفرنسيين الذين نلتقيهم في هارلم اليوم -مرتدين قمصاناً عليها صورة أوباما- لا يبدوون مبتهجين جداً؛ أدت أحداث الشغب في عام 2005م، الطفرة اليمينية، حظر غطاء الرأس، الأزمة المالية للاتحاد الأوروبي وانتخاب باراك أوباما، إلى التشكيك في الذات والبحث عن النفس. في نوفمبر 2005م، هزت أعمال شغب المدن الكبرى بفرنسا لعدة أسابيع. بثت صور حرق السيارات وإلقاء الشبان قنابل المولوتوف على الشرطة في جميع أنحاء العالم، وفهم الفرنسيون أن العالم يرى أن ضواحيهم هي التي تحترق وليس برونكس. استحوذ باراك أوباما -زعيم من أصول أفريقية ومسلمة- على المخيلة الفرنسية، لا سيما في محيط المدينة الحضرية الثقيل. كان من المألوف رؤية كتابات عربية لدعم المرشح أوباما على الجدران في مشاريع الإسكان خلال حملته الانتخابية. تبدلت المواقف تجاه الولايات المتحدة -التي توترت خلال سنوات بوش - بسرعة. وكما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في سبتمبر 2010م، "يبدو أن المشاعر المعادية لأمريكا، التي كانت ذات يوم منتشرة في هذه الأحياء، قد تم محوها منذ انتخاب أوباما، الذي أثبت أنه رمز قوي للأمل هنا وأداة دبلوماسية قوية". بدأ الزعماء المسلمون يستشهدون بأمريكا كنموذج -يوتوبيا- لضرب أوروبا. إن كان انتصار أوباما قد ولد نوايا أوروبية حسنة تجاه الولايات المتحدة، فقد أوضح بشكل مؤلم، مدى تقدم الولايات المتحدة في مسائل العرق: لقد أصبحت أمريكا أول دولة في الغرب تنتخب أقلية كرئيس للدولة، بينما بدأت الحكومات الأوروبية للتو في معالجة قضايا الاختلاف العرقي وعدم المساواة. قال باتريك لوزيز، الذي يرأس مجلس ممثلي جمعيات السود في فرنسا: "أوباما تجسيد للحلم الأميركي. ولكن أين الحلم الفرنسي؟" وغير الطيف السياسي، سأل النقاد: هل سيكون ماضي أمريكا العرقي مستقبلاً لأوروبا؟ هل على أوروبا الغربية أن تمر بمرحلة أعمال الشغب الحضرية والسيارات المحروقة في الستينيات للحصول على أوباما؟

قامت مجموعة من الشباب المقيمين في بلدية بوندي الشجاعة في شمال شرق باريس، بإنشاء مدونة لتوثيق الأحداث في ذروة الاضطرابات. أصبحت مدونة بوندي مصدراً مهماً لفهم الأزمة الحضرية في الجمهورية. في سبتمبر 2011م، أقادت مدونة بوندي بأن تدفق المسلمين الفرنسيين إلى الولايات المتحدة قد ازداد في العقد الماضي: "غادر العديد من المسلمين العرب فرنسا بعد أن أغوتهم الحرية الدينية للعم سام". غالباً ما يقدم مراسلو أمريكا الشمالية بالمدونة مقالات حول سكان الضواحي الشباب الذين غادروا فرنسا.

تقول هاجر، وهي شابة فرنسية من أصل تونسي، استقرت في أستوريا، كوينز في عام 2009م، "أنا أقاطع فرنسا. الولايات المتحدة هي بلدي الثاني، الحمد لله. المسلم يعيش هنا أفضل من فرنسا. هناك حرية تعبير وحرية فكرية وحرية دينية. [في المسجد] يصلي رجال شرطة معنا. ويمكن للمرأة أن ترتدي نقابها وتقود السيارة".

ينظر هذا الكتاب إلى بحث الشباب الأوروبي والأمريكي المسلم عن مدينة يوتوبية غير عنصرية. قاد هذا المسعى سابقاً الشباب الأوروبي أو الأمريكي المسلم - الذي غالباً ما كان من معتنقي الإسلام الجدد - نحو أفريقيا أو الشرق الأوسط بحثاً عن الإسلام الأصيل؛ لا زال الطالب المسافر الذي يتجه شرقاً - مسافراً عبر الفضاء والزمان - بحثاً عن المعرفة الروحية موجوداً، ولكن من الشائع اليوم أيضاً أن نرى الشاب المسلم (الأوروبي) يتجه غرباً عبر المحيط الأطلسي، إلى شمال شرق البرازيل أو نحو مدينة أمريكية، بحثاً عن الحرية الدينية أو للانغماس في التاريخ الأسود. سجل المسلمون الأوروبيون الذين التقينا بهم في نيويورك ومدن أمريكية أخرى استياءهم من السياسة الخارجية الأمريكية - قبل الإشادة بحركة الحقوق المدنية والنموذج الأمريكي للتكامل. وهم ليسوا وحدهم. اليوم، وبينما يتجول المسلمون الفرنسيون والهولنديون الشباب في أعالي مانهاتن والجانب الجنوبي من شيكاغو، ليس من المستغرب رؤية السياسيين والصحفيين والناشطين الأوروبيين في المناطق الحضرية نفسها، يزورون المساجد والمراكز الاجتماعية لتحديد "أفضل الممارسات" التي يمكنهم أخذها إلى الوطن. صدرت أوراق عمل وتقارير دون أجر في السنوات القليلة الماضية باللغة الهولندية والألمانية والفرنسية عن الاستيعاب "الناجح" للمسلمين الأميركيين، موضحة لماذا لم تشهد الولايات المتحدة الاضطرابات الحضرية التي ابتليت بها المدن الأوروبية مؤخراً. يبدو أن هناك إجماعاً سهلاً على ذلك: وهو أن سياسة أمريكا الخارجية تجاه العالم الإسلامي قد تكون معيبة بشكل خطير، إلا أنها نجحت محلياً في دمج سكانها المسلمين بشكل كامل، في حين أن أوروبا قد يكون لها تهج "أكثر توازناً" تجاه شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، لكنها أخفقت في دمج مهاجريها على المستوى المحلي، وتواجه الآن شباب مسلماً من الطبقة الكادحة. تهمل هذه النظرة بالطبع تأثير التشابكات الأمريكية الخارجية سلباً على وضع المسلمين الأميركيين، وكيف يعمل النظراء الأمريكيون ضد السياسات الأمنية وانتهاكات الحقوق المدنية للعقد الماضي، في الوقت الذي يتبنى فيه المسلمون الأوروبيون "النموذج الأمريكي" بحماس. يختلف الناس حول صحة مقارنة وضع المسلمين الأوروبيين، المهاجرين الحضريين من الطبقة الكادحة، بالمهاجرين الأميركيين المسلمين الأغنياء. ستكون مقارنة هجرة اللاتينيين إلى الولايات المتحدة أكثر ملاءمة. لكنني مهتم في هذا الكتاب بـ

"الحلم الأمريكي" الموجود في محيط أوروبا الحضري، كيف ينظر المسلمون الأوروبيون والأمريكيون إلى نضال الحقوق المدنية الأمريكي ويعتمدون على التاريخ الأسود، كيف تقوم الدبلوماسية الأمريكية بنشر العرق والتنوع، بدلاً من التساؤل ما إذا كان المسلمون الأمريكيون أفضل حالاً من المسلمين الأوروبيين، أو كيف يمكن للحكومات الأوروبية تكرار السياسات الأمريكية.

إن الشباب المسلم الأوروبي الذين نلتقي بهم في المدن الأمريكية اليوم -لحضور المؤتمرات، زيارة المساجد، الظهور عند قبر مالكوم إكس على بعد بضعة أميال شمال برونكس- هم جزء من التعبئة العابرة للحدود الكبيرة للشباب المسلم في أوروبا وأمريكا الشمالية. إن حركة الشباب المسلم داخل الحدود الوطنية وعبرها، هي رد فعل على سياسات الحرب على الإرهاب، والتحولات الجيوسياسية التي تثيرها قوة الدولة الأمريكية، التي وضعت ضغوطاً هائلة على المجتمعات الإسلامية في أوروبا وأمريكا. يجادل المؤرخ تشارلز ماير من جامعة هارفارد في كتابه "بين الإمبراطوريات: الصعود الأمريكي وأسلافه"، بأن الإمبراطوريات لا تعتمد فقط على الحدود الإقليمية، ولكن أيضاً على الحدود الاجتماعية السياسية، التي تحمي التقسيم الطبقي في الداخل والخارج، وتفصل "الداخل" عن "الخارج". تسعى الإمبراطوريات إلى الدفاع عن الحدود الاجتماعية والسياسية الداخلية بالإضافة إلى الحدود الخارجية"، محذراً من أن هذه الحدود تصبح خطوط صدع نزاعية.

في السنوات التي تلت عام 2001م، أطلق المسلمون مجموعة من الحركات الاجتماعية -الاندماجية، الانفصالية، اليوتوبية، الديستوبية، العلمانية والإسلامية - لتحدي السياسات المتعددة، السرد وحدود الإمبراطورية الأمريكية. إنهم يخوضون الحدود المادية بين الدول القومية؛ الحدود العرقية-المكانية بين المدن وأطرافها "ما بعد الاستعمارية"؛ الحدود الاستطراذية بين المسلمين "المهاجرين" و"الأصليين"؛ مؤسسات التصنيف العرقي التي تفصل البشر في فئات عرقية وإثنية مختلفة؛ الجغرافيا الرسمية وتخطيطات العالم التي ترسم الخطوط بين الإسلام والغرب وأفريقيا والشرق الأدنى والشرق الأقصى، وهلم جرا... تظهر هذه الحركات في سياق العولمة، حيث تترابط الأحياء المحلية والأقاليم الأجنبية بشكل متزايد، وتتنافس الدول على السيطرة على الإسلام الذي أصبح عالمياً.

بالنسبة للمسلمين الأوروبيين، فإن الانكماش الاقتصادي، وصعود اليمين المتطرف، وانتشار الحرب على الإرهاب قد زاد من حدة الأسئلة المتعلقة بالانتماء. يبحث هؤلاء الشباب المسلمون في البلدان الأوروبية التي ولدوا فيها عن هوية وحرية تتجاوز حدود فرنسا وألمانيا وهولندا. ينضم البعض

إلى حركات عابرة للحدود مثل حزب التحرير؛ يتوجه آخرون إلى باكستان أو اليمن بحثاً عن الإسلام "الحقيقي". ولكن هناك أيضاً حركة باتجاه الغرب، نحو الأطلسي الأسود، وثقافات وحركات أفارقة الشتات. يوجد حلم أمريكي في غيتوات المسلمين في أوروبا، وهو حلم أمريكي أسود إلى حد كبير. بالنسبة لأولئك الشباب الأوروبيين، فإن أمريكا هي موطن للإسلام الأفرو-أمريكي، وأقدم حضارة إسلامية في الغرب، إسلام مآلكوم إكس ومحمد علي، الإسلام الذي لعب دوراً حاسماً في حركة الحقوق المدنية وفي جعل أمريكا أكثر توافقاً مع التنوع من أوروبا. وسواء عبر الهجرة الفعلية أو سواها - عبر الإنترنت ووسائل الإعلام الاجتماعية - فإن الشباب المسلم يصلون عبر المحيط الأطلسي للاستفادة من حركة الحرية السوداء وإسلام المجتمعات المنحدرة من أصل أفريقي في العالم الجديد.

السلام عليكم - مرحباً بكم في أمريكا

شكل الرجال الثلاثة الذين يرتدون السترات البنية، وجوارب السيقان الطويلة، والعمامات البيضاء الكبيرة حول رؤوسهم مشهداً فضولياً وهم يسرون على الدرجات البيضاء لمبنى "Rayburn House Office" في شارع الاستقلال في واشنطن العاصمة. وبينما شقوا طريقهم إلى قاعة الرخام الكبيرة، انحنت ضابطة من شرطة الكابيتول للتحقق من بطاقات الهوية ورقع الأسماء. قالت بابتسامة، "ما هو موطنكم؟" ابتسم أحد الرجال، "باكستان!". سار رجال الدين الباكستانيون الثلاثة نحو ممر رايبورن الضيق الذي تتخلله أعلام الدولة. نظر الموظفون بفضول بينما مر "ثلاثة من طالبان" - كما قال أحد المتفرجين - إلى الطابق السفلي وأخذوا قطار الأنفاق إلى مبنى الكابيتول. تم توجيه الضيوف إلى غرفة HC-F عند الوصول: غرفة في الطابق السفلي من المبنى، حيث يقيم مسلمو الكونغرس صلاتهم. خلع الرجال صنادلهم الجلدية وتوضؤوا، ثم جلسوا على السجادة الحمراء الكبيرة، جنباً إلى جنب مع الموظفين، المتدربين ومجموعات الضغط، في انتظار خطبة الإمام.

كان الرجال الثلاثة علماء دين من إسلام آباد، ينتسبون إلى المعهد الدولي للفكر الإسلامي، ودُعوا إلى واشنطن في أبريل 2010م، كجزء من برنامج "القيادة للزوار الدوليين" في وزارة الخارجية لتعريف المسلمين من جميع أنحاء العالم بأمريكا. كان جهاد صالح هو عضو الكونغرس المسؤول عن هذا البرنامج في وزارة الخارجية، وهو مساعد تشريعي ورئيس "رابطة موظفي الكونغرس المسلمين"، وهي مجموعة تضم 45 عضواً تنظم أحداثاً ثقافية في كابيتول هيل وتشجع المسلمين على المشاركة في الحكومة. نشأ صالح في

جنوب وسط لوس أنجلوس، وهو شاب ممتلئ الجسم، يتكلم بسرعة، يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، شعره طويل، واعتنق الإسلام في الكلية. تجول معي في أرجاء الكابيتول، وابتسم عندما ناداه زملاؤه من الموظفين، "مرحباً جهاد"، أو "صباح الخير جاي!"

قال، "أفضل جزء في هذه الوظيفة هو تقديم جولة للوفود الإسلامية في الكونغرس. لدينا أربعة أو خمسة موظفين يجتمعون مع المجموعة، وننقلهم إلى روتوندا، ثم نأخذهم إلى قاعة الصلاة الخاصة بنا في مبنى الكابيتول فيصيبهم الاندهاش. لا يمكنهم أن يصدقوا أنه في كل ظهر يوم جمعة يأتي مائة مسلم للصلاة في الكونغرس".

مع انتهاء صلاة الجمعة، قام المتدربون بوضع طاولات في الجزء الخلفي من قاعة الصلاة، وبدأوا بتمرير النشرات المتعلقة بحدث قادم - سيزور طلاب المدارس الثانوية المسلمين من ولاية ماريلاند مبنى الكابيتول. تقدمت موظفة لدى السناتور ديك دوربين، وأعلنت عن جلسة استماع قادمة. فوجئ الضيوف الثلاثة باختلاط الجنس في مكان الصلاة. قال إخلاق منصور أحد رجال الدين وهو يبتسم بطريقة دبلوماسية، "لكل شعب قواعده". ضحك صالح، "إنهم يتساءلون لم لا يوجد فاصل بين الرجال والنساء".

قدم صالح جولات لسياسيين من العراق، صحفيين من باكستان، طبيبات من جميع أنحاء الشرق الأوسط؛ لكن الوفود التي التقاها في الآونة الأخيرة، تكونت من مسلمين شباب من فرنسا، إيطاليا وهولندا. "قمت بجولة لمجموعة من الشباب المسلم من إيطاليا العام الماضي - طلاب جامعيين من خلفية صومالية وسنغالية وتونسية. تحدثنا عن المشاركة السياسية الإسلامية، ثم ذهبنا إلى قاعة الصلاة، وبالطبع سألوا: "لم لا يوجد فاصل؟" وأخبرتهم، "هذه ليست المملكة العربية السعودية". بعد الصلاة، صعد شاب سنغالي دافعاً، وقال إن هذا لن يحدث أبداً في أوروبا. أن يصلي المسلمون في البرلمان؟ أبداً".

يقول صالح: "أعرف أننا ندعم وزارة الخارجية من نواح عديدة، وإنهم يستخدموننا ليظهروا للمسلمين في أنحاء العالم ثراء المسلمين الأميركيين، ومدى تسامح أمريكا، لكنني لا زلت أحب القيام بذلك. أنا أجمع مجموعة من الموظفين المسلمين - السنة، الشيعة، معتنقي الإسلام الجدد، المهاجرين، السود، البيض والآسيويين - لنلتقي بهذه الوفود ونظهر لهم أن أمريكا هي مكان التقاء العالم الإسلامي. بعد الصلاة، أخذهم لمقابلة عضو الكونغرس الذي أعمل لديه - ثم يذهبون لزيارة مدن أخرى.

كانت أعمال الشغب في فرنسا عام 2005م نقطة تحول. ألقت الاضطرابات بظلالها على الصورة الذاتية لأوروبا، وأعادت الفكرة القائلة إن الشباب المسلم يمكن أن يزعج بشكل خطير التحالف عبر الأطلسي. مع ظهور غيتوات الضواحي في فرنسا، حذرت الصحافة الأوروبية من "عدم القابلية على التكيف" لدى بعض المهاجرين، وعن دور المساجد في الضواحي -هل تبعد الشباب عن المشاكل أم تؤدلجهم؟ وحول الطريقة التي تطور بها فرنسا، وعلى الأغلب أوروبا، "مشكلة العرق" بطراز أمريكي. في الولايات المتحدة، من جهة أخرى، بدأت الأخبار الكاذبة عن الكيفية التي أدت بها أعمال الشغب إلى فقدان النموذج الفرنسي للاندماج ("المسمار الأخير!"), وسرعان ما أفسح المجال للمناقشات المضطربة حول ما قد يحدث إذا وصلت الاضطرابات إلى الشواطئ الأمريكية. أشار المعلقون إلى أن زكريا موساوي، "الخاطف رقم عشرين"، وريتشارد ريد، "مفجر الحذاء"، كانا يزوران المسجد نفسه في لندن. بدأ المسؤولون الأميركيون يحذرون من أن عزل العرب الأوروبيين وفصلهم يمكن أن يضعف الحلفاء الأوروبيين بشكل خطير. يذكر تقرير مجلس الاستخبارات القومي الأمريكي "الاتجاهات العالمية 2025م" أعمال الشغب الفرنسية ويحذر من أن التباطؤ الاقتصادي في أوروبا يمكن أن يؤدي إلى عدم الاستقرار و"تعميق الانشقاقات العرقية": "على الرغم من وجود شريحة كبيرة من المسلمين المندمجين، فإن عدداً متزايداً -مدفوعاً بشعور من الاغتراب والتظلم والظلم- من المرجح أن يقدر الفصل في مناطق ذات ممارسات ثقافية ودينية خاصة بالمسلمين".

سرعان ما بدأت الحكومة الأمريكية في التواصل مع الشباب المسلم في أوروبا، فأرسلت أميركيين مسلمين بارزين للحديث عن مزايا التعددية الثقافية الأميركية، ونظمت حلقات دراسية حول العمل الإيجابي، الإحصاءات العرقية وتمويل المنظمات غير الحكومية (NGO) في الأحياء الإسلامية الفقيرة في جميع أنحاء أوروبا. كما بدأ الدبلوماسيون الأمريكيون بدعوة المسلمين الأوروبيين الشباب لتجربة التنوع الأمريكي، وليعرفوا أن المسلمين الأمريكيين "ليسوا مضطهدين"، أملين أن تخفف هذه الرحلات من مواقف المسلمين تجاه الولايات المتحدة، وأن "تقلل من جاذبية مجندي الإرهاب". في يونيو 2008م، دعت السفارة الأمريكية في فرنسا هيئة تحرير مدونة بوندي لزيارة الولايات المتحدة. كان محمد حمدي أحد الرجال الثلاثة الذين استقبلوا عرض وزارة الخارجية، وهو مدرس في السادسة والثلاثين من العمر من باريس. زار حمدي حياً مضطرباً في واشنطن العاصمة، و"عيادة إسلامية" في لوس أنجلوس. جال مع ضباط الشرطة في جاكسون، ميسيسيبي، وقام بجولة في جامعة ولاية جاكسون (مؤسسة سوداء تاريخياً)، واجتمع مع الموظفين المسلمين في الكونغرس، منهيّاً رحلته بعقد اجتماع مع أوباما نفسه. قال حمدي لصحفي أمريكي، "أعلم الآن أن الأمور

أكثر تعقيداً مما نعتقد. عندما أناقش الوضع الأمريكي، أستطيع أن أقول ما رأيته في أحياء لوس أنجلوس. رأيت شعوباً إسلامية، رأيت حالة السود والإسبان".

إن التحدي الذي تواجهه جميع الحكومات ذات المجموعات السكانية المختلفة هو كيفية ربط المجتمعات التي تعيش داخل حدودها بالدولة القومية. فاقمت الهجرة المتزايدة هذه المشكلة بالنسبة للساسة الغربيين، الذين يشعرون بالقلق من أن أقلياتهم المسلمة أكثر عرضة للتماهي مع "سفارة الإسلام" - أي مع بعض الدول في إفريقيا أو الشرق الأوسط - أو مع حركة عابرة للحدود مثل الإخوان المسلمين من البلد الذي يعيشون فيه. كانت الأطروحة الأكثر مبيعاً لصموئيل هنتنغتون "من نحن؟" التي حذرت من أن هجرة اللاتينيين تشكل تحدياً فريداً لأنها تقوض الولاء للدولة القومية الأمريكية؛ فقد جادل العالم السياسي الراحل أن الوافدين الجدد ينسجمون مع دول مختلفة في أمريكا اللاتينية وحركات عموم أمريكا اللاتينية أكثر عن حكومة موطنهم المعتمد. كان لكتاب هنتنغتون أصداء في أوروبا، حيث ساور القادة قلق عميق بشأن ولاء سكانهم المهاجرين. (أدى ادعاء روبرت بوتنام، وهو عالم آخر من جامعة هارفرد، بأن التنوع يقوض الحياة المدنية بالمثل إلى ارتجاف دوائر السياسة الأوروبية). ورغم أن تماهي الشباب المسلم الأوروبي مع أمريكا أفضل من تماهيه مع الحركات الإسلامية العابرة للحدود الوطنية، إلا أن المسؤولين الأوروبيين ينزعجون عندما يخبر الشباب المسلمون الفرنسيون الإذاعة الوطنية العامة بأنهم "أكثر انفتاحاً لقبول مساعدة من السفارة الأمريكية من حكومتهم".

إن المبادرات الأمريكية الرامية إلى كسب النوايا الحسنة للمسلمين الأوروبيين من خلال المساعدات المالية والدبلوماسية العامة تشير إلى حقبة جديدة. تتمتع الدول الغربية بتاريخ طويل من التدخل في العالم الإسلامي لحماية الأقليات الدينية وتمكينها، ولكن من غير المسبوق بالنسبة للدول الغربية المتحالفة أن تتودد إحداها لأقليات الأخرى. ومع ذلك، تنفق الولايات المتحدة ملايين الدولارات لكسب قلوب وعقول المجتمعات المسلمة الأوروبية الساخطة، وغالباً ما تتنافس مع جهود التوعية المحلية الخاصة بالدول الأوروبية (فتثير غضب المسؤولين المحليين والأحزاب اليمينية، الذين يرون في ذلك انتهاكاً للسيادة). يبدو أن جهود الدبلوماسية العامة الموجهة إلى الأطراف الحضرية في غرب أوروبا تشكل نتيجة أكثر لطفاً واعتدالاً للمبادرات الأمريكية لمكافحة التمرد في العراق والصومال وأفغانستان.

لكن السفارات الأمريكية ليست الوحيدة التي تتبع استراتيجيات التواصل مع المسلمين. تقوم المملكة العربية السعودية وإيران وتركيا وباكستان ومجموعة من الدول الأخرى بمراقبة مغتربيهم في أوروبا، ويروجون بشكل قوي لتفسيرهم للإسلام. تروج المملكة العربية السعودية للسلفية؛ تحاول إيران جذب المجتمعات الشيعية؛ تدعم تركيا حركة "غولن"، وهكذا. تُظهر مبادرات القوة الناعمة التي تحركها الدولة شيئين: لا تزال الدول القومية أقوى الجهات الفاعلة التي تشكل الخطابات والهويات والحركات الإسلامية في أوروبا، رغم كل الحديث عن صدام الحضارات والإسلام "الذي لا حدود له"، خاصة بعد الثورات العربية في عام 2011م. وثانياً، إن اللعبة الكبرى في القرن الواحد والعشرين -الصراعات الأيديولوجية والجيوستراتيجية التي تتمحور حول أفريقيا ما بعد الاستعمار والشرق الأوسط- تلعب دوراً متزايداً في المحيط الحضري لأوروبا، وفي الجهود الرامية إلى تشكيل ثقافة الشباب المسلم.

"الإسلام، وليس الهيب هوب؟"

تعتبر العولمة بكثير من الأشكال أمركة - من خلال انتشار أفكار واتجاهات ومنتجات القوة العظمى الوحيدة. ولكن في ضوء استيراد الثقافة الأفريقية الأمريكية للولايات المتحدة، فإن العولمة الثقافية غالباً ما تكون نشر الأنماط الأفريقية الأمريكية. لقد أصبحت أشكال الفن الأسود [مثل شعر الكلمة المنطوقة] والأزياء [مثل الجينز المتدلي] -الذي ظهر في نظام السجون في نيويورك، عندما حظرت السلطات الأحزمة بعد أعمال الشغب في أتيكا عام 1971م- شعبية لدى الشباب في كل مكان. تزامن انتشار الثقافة الأمريكية مع عولمة الإسلام: فالزيادة في تقنيات الاتصالات والهجرة تعني أن تعاليم الإسلام وأشكاله الفنية منتشرة في جميع أنحاء العالم، وتتدفق إلى الغرب من خلال التدفقات الإعلامية ومجتمعات الأقليات. وقد أوجد هذا بعض الاندماجات الثقافية المثيرة للاهتمام: الموسيقى الريفية العربية في ألاباما، موسيقى البانك روك في باكستان ودمى باربي المسلمة. لكن اللقاء بين الهيب هوب، لغة الشباب، والإسلام هو ما أنتج أحد أكثر القوى ديناميكية وجذرية في ثقافة الشباب اليوم.

شقت الأشكال الإسلامية والعربية طريقها خلال نسيج الأنواع الموسيقية منذ نشأتها في أوائل السبعينيات. تم نقل هذه الإشارات لجميع أنحاء العالم مع انتشار موسيقى الهيب هوب في منتصف القرن العشرين، ونشرت كلمات الراب أفكار مختلف فروع الإسلام الأميركي الأفريقي للجماهير البعيدة - أمة الإسلام، أمة الخمسة بالمائة، السنيين، إلى آخره. يجسد الفيلم الوثائقي الرائع

"عبر الجسر (Across the Bridge)"، المشهد الموسيقي في اسطنبول، وردود الفعل المتباينة على موسيقى الهيب هوب في إحدى المدن المسلمة: من فنانين أترك شباب يعلقون ملصقات توباك في غرف نومهم ويرسمون جداريات لماكوم إكس على جدران الشوارع، إلى شعارات بحروف سوداء على واجهة مبنى تُقرأ، "No Hip Hop، Yes Müslüm". يشجب المحافظون الدينيون والنشطاء المناهضون للعولمة "الهيب هوب" في ثقافتهم، ويرثون تهميش أشكال الفن المحلي، لكن بالنسبة للمسلمين الشباب، فإن التاريخ الأميركي الأفريقي الذي انتشر عبر الموسيقى والتدفقات الإعلامية الأخرى يمثل التضال، فكرة بديلة عن الحداثة والكوسموبوليتية، وبالمثل علاقة مختلفة بالغرب.

ومع ذلك، نادراً ما يتم تضمين الإسلام الأميركي الأفريقي في المحادثات حول عولمة الإسلام. سيتحدث العلماء عن التمدد العابر للحدود لجماعة الإخوان المسلمين وحزب الله، وليس عن الحركات الإسلامية وشبه الإسلامية التي تصدرها أمريكا. يقول عالم الاجتماع "أوليفيه روي" على سبيل المثال، إن الإسلام "الذي لا حدود له" أصبح بديلاً أيديولوجياً للشباب الغربي بعد نهاية الحرب الباردة. وشرح كيف اعتنق متهم "القنبلة القذرة" خوسيه باديلو و"مفجر الحذاء" ريتشارد ريد الإسلام، كتب روي، "منذ عشرين عاماً، انضم هؤلاء الأفراد إلى حركات يسارية راديكالية اختفت الآن أو أصبحت (برجوازية)... الآن هناك حركتان فقط من الحركات الغربية ذات الاحتجاج الراديكالي تدعي أنها "أممية": الحركة المناهضة للعولمة والإسلاميين المتطرفين. إن اعتناق الإسلام اليوم هو وسيلة للمتمردين الأوروبيين لإيجاد قضية. إن هذا التصور للإسلام كمنفذ لما بعد الحرب الباردة للمجاهدين السياسيين في الغرب يتجاهل الجاذبية القوية التي مارسها اللاهوت الإسلامي والتاريخ على الأقليات في أوروبا وأمريكا منذ منتصف القرن التاسع عشر. كما يهمل العناصر الحاسمة للعرق والعرقنة. في ذروة الحرب الباردة، عندما كانت الشيوعية لا تزال رائجة، كانت صفوف المنظمات الإسلامية الأفريقية تتنامى، مما جذب الناس الذين تعاطفوا مع نهاية الاستعمار في "الدول الأفريقية" ودول العالم الثالث إلى إنشاء حركة عدم الانحياز.

وبالمثل، فإن الباحثين الذين يرون الإسلام السياسي كخطاب للمعارضة التي تتحدى الهيمنة الغربية، غالباً ما يقللون من شأن إحباط الشباب المسلم من الحركات الإسلامية المسيطرة. في المحيط الحضري في أوروبا، هناك شعور بالسخط من محنة المسلمين في جميع أنحاء العالم، وحاجة ماسة إلى سرد للعدالة الاجتماعية يمكن أن يفهم الظلم المحلي و"الحروب في الخارج".

النهج الاندماجي للإخوان المسلمين، أو الحركة السلفية - مع دعواتها إلى فك الارتباط السياسي تحسباً للخلاص الإلهي - قد يقدم العزاء لبعض الشباب المسلمين، لكن آخرين يرون ضعف وجهات النظر العالمية المحافظة لهذه الحركات. غالباً ما يفكر الناشطون الشباب في هيمنة "اليمين الإسلامي"، متسائلين ما الذي سيبدو عليه "اليسار الإسلامي". إن المسلمين الشباب الذين يبحثون عن لاهوت تحرر إسلامي سوف ينجذبون تجاه كتابات عالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي أو الفيلسوف المصري حسن حنفي، لكن الإسلام الأفريقي الأمريكي (كما يمثلها مالكوم إكس) والأفريقي الأسود على نطاق أوسع هو ما يسبب القلق السياسي. إن النشاط الأوروبيين الشباب الذين يأتون ويقفون في صمت أمام تمثال مالكوم إكس البرونزي في قاعة أودوبون - حيث اغتيل - سيقولون إن نقد زعيم الحقوق المدنية للعنصرية وعنف الدولة، وربطه بالعرق والإمبراطورية، هو بالضبط ما يحتاجه المسلمون الأوروبيون اليوم. يربط الإسلام الأميركي الأفريقي بين المحلي والعالمي بالنسبة لهم، ويربط الغيتو بنظام الدولة العالمي بطريقة لا تقوم بها أي حركة إسلامية؛ كما أنه يمثل مزيجاً من النضالات، ضد الاستعمار والحقوق المدنية معاً، عصر باندونغ وستينيات القرن العشرين، عندما أشاد ديليو. إي. بي. دو بوا بالاستقلال الهندي والمصري، وأعلن سكان العالم الثالث تضامنتهم مع القومي الإفريقي بول روبسون. اكتشف المسلمون العرق كأداة سياسية، والغيتو كمكان للنضال، خلال العقد الماضي؛ توفر الأممية السوداء بشكل متزايد أرشيفاً يمكن للمسلمين الشباب في أوروبا والولايات المتحدة الاعتماد عليه لتنشيط الفكر الإسلامي. وهكذا، فإن ما يلفت النظر في العقد الماضي ليس ظهور الإسلام على أنه "يسار جديد بعد الحرب الباردة"، ولكن استياء الشباب من الحركات الإسلامية الحالية ومحاولات بناء يسار إسلامي من خلال إعادة النظر في عصر باندونغ، التفاعلات التاريخية بين الأطلسي الأسود والإسلام والصراعات المعادية للاستعمار. اعتمد المفكرون والقادة الأميركيون الأفارقة على الموارد الثقافية للإسلام والشرق، بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر، لإعادة صياغة الهوية السوداء، بناء الحركات الاجتماعية، والمساومة مع الحكومة الأمريكية. والجسور الثقافية التي ألقوا بها على العالم الإسلامي تحديداً يتم عبورها اليوم من قبل مسلمين شباب يحاول إيجاد مدخل نحو الغرب.

"أوديو توبيا"

تعد ضاحية بروندي ستراند في جنوب شرق كوبنهاغن مدهشة في عاديته. تشبه مجموعة المباني المرتفعة الشائكة "مشاريع بروندي" التي تقف في وسط هذه "البلدية" - كما تسمى هذه المناطق في الدنمارك - مشاريع الإسكان

العام المنتشرة الآن في المدن الأوروبية. تُعد الضاحية موطناً للمهاجرين من أفريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، ويشار إليها باسم "الغيتو" بواسطة وسائل الإعلام المحلية وباسم "الجنوب" بواسطة المقيمين الشباب. استحوذ هذا الحي في السنوات الأخيرة على اهتمام عالم البوب، بسبب ابتكاره لنوع موسيقي جديد سمي "ريذم أند بلوز المسلم" أو "النشيد الحضري"، وأنتج مجموعة من الفنانين المحليين، مثل المغني ذي الأصول التركية "برهان جي"، الذي يتبع أسلوباً نجم البوب الأمريكي "أشتر". اعتمد برهان جي الرأس الحليق وأرتدي القمصان الضيقة بلا أكمام تيمناً بملهمه الأمريكي؛ ظهر شريط الفيديو الأكثر شعبية لهذا المغني وهو واقف تحت المطر الغزير في ليلة مظلمة، وتتألق عضلاته بينما ينظر إلى السماء متسائلاً لماذا تركته حبيبته. ومن ثم يهمس: "من هو؟ ما اسمه؟"، قبل أن يصيح، "أنت خائنة وسلوكك قاسٍ!"

لكن الثلاثي "أوتلانديش" هم من وضع هذه الضاحية الدنماركية على خريطة الموسيقى العالمية. تتكون المجموعة من مغربي، باكستاني وهندوراسي، جميعهم دنماركيو المولد لمهاجرين استقروا في بروندي ستراند، وتعكس موسيقاهم التركية الديموغرافية للحي مع كلمات تغني باللغات الدنماركية، الإنجليزية، الإسبانية والأردية، وتمزج الريذم أند بلوز مع الإيقاعات "الإسلامية" واللاتينية. شكلت شعبية هؤلاء الفنانين وخلطهم السهل بين المحلي والعالمي جاذبية "أوتلانديش". يوضح المغنون الثلاثة أنهم دنماركيون وطيون - قاموا بتسجيل ألبومات باللغة الدنماركية فقط - لكنهم يوازنون بعناية مواطنتهم وولاءهم للدنمارك بالتزامن مع "الأمة"، المجتمع الإسلامي العالمي. يقدم أعضاء الفرقة أداءات في مسيرات لأجل دارفور وفلسطين، يكتبون الأغاني عن "فيروس نقص المناعة البشرية" بين الشباب المسلم، ويتعاونون مع فنانين مسلمين أقل شهرة حول العالم. رسالتهم هي شكل غريب للشمولية الإسلامية، أو بشكل أدق، الإنسانية الأندلسية. اثنان فقط من أعضاء المجموعة مسلمين - الثالث، ليني مارتينيز، كاثوليكي - لكن الثلاثة يصفون أنفسهم بـ "المور"، وقد احتضنوا (وسوقوا) هوية مغاربية جديدة تضع الهيب هوب في تعايش إسبانيا الموريسكية، عندما كان المسلمون، اليهود، المسيحيون والمجموعات الأخرى يتعايشون في سلام نسبي.

الحديث عن عام 1492م -السنة التي سقطت فيها إسبانيا الإسلامية في حروب الاسترداد، وأبحر كولومبوس إلى العالم الجديد- والماضي الأندلسي المشترك، وظهور الاتجاهات الثقافية الموريسكية الجديدة هي جزء من اتجاه أكبر يمكن أن يظهر عندما يواجه المهاجر المسلم المهاجر الإسباني

ويواجه المهاجر المسلم اليهودي في أوروبا وأمريكا؛ لكن لم يتوقع الكثيرون ظهور مثل هذا الخطاب من مشروع سكني قرب كوبنهاجن. إن سابقة "إيبيريا المسلمة" - مثل تاريخ حركة الحرية السوداء في العالم الجديد - هي ينبوع ينهل منه الشباب المسلمون. ترى جماعات مثل "المرابطين"، ومقرها في ولاية تشياباس، المكسيك، أو "اليانزا إسلاميك"، النشطة في برونكس وشرق هارلم خلال 1990م، الاتصال بين إسبانيا الإسلامية والعالم الجديد، وتربط روايتهم أندلسياً بالأطلسي الأسود. تمجد الالفة المعلقة في مركز اليانزا في جنوب برونكس الجذور الأفريقية والإسلامية لأمريكا اللاتينية.

في أوروبا اليوم، يعتمد الشباب المسلمون إلى نسج العناصر الإسلامية والأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية لإنتاج هويات وحركات جديدة في مثال على ما وصفه عالم الأنثروبولوجيا في جامعة ييل أرجون أبوراوري "بالثقافة": "حشد المواد الثقافية والاختلافات الثقافية في خدمة سياسة وطنية أكبر أو عابرة للحدود الوطنية". هذه الثقافة رائعة ومثيرة للقلق بالنسبة للأوروبيين. تميز الغيتو الأمريكي منذ فترة طويلة بتعددته الثقافية. (في عام 1929م، وصف عالم الاجتماع هاري زورباو الغيتو في الجانب الشمالي الأدنى في شيكاغو بأنه واحد من "أكثر المناطق كوزموبوليتانية في مدينة كوزموبوليتانية مميزة"). ولكن التنوع الثقافي في "غيتو" المسلمين الأوروبيين "الغيتو المسلم"، هو فكرة متنازع عليها، وجديدة نسبياً. تفاجأ المعلقون الأوروبيون عندما قام فنانون وقادة شباب في هذه المناطق الحضرية بدمج روايات تتبنى قضايا مختلفة (دارفور، كشمير وموميا أبو جمال) وربط المناطق المحلية - بأحياء محددة ومشاريع إسكان - بعصور سابقة (تمبكتو، إسبانيا الإسلامية ونهضة هارلم) والمناطق الجغرافية البعيدة (أفريقيا، الشرق وجنوب المحيط الأطلسي) لإظهار أن مجتمع الأقليات يمكن أن يتجاوز عزلته المحلية وأن يكون جزءاً من أغلبية عالمية.

الموسيقى هي عدسة قوية يمكن من خلالها رؤية الهويات والحركات الناشئة في المجتمعات الإسلامية. لطالما استخدم الشباب الموسيقى للاحتجاج، الإعلان عن الهوية، بناء المجتمع ولتأويل العالم. لكن الحركة السلفية المهيمنة - بمعارضتها للموسيقى - جعلت للنقاشات حول الموسيقى وجوازها وغايتها أهمية قصوى في ثقافة الشباب المسلم المعاصرة. يلاحظ مارك أنتوني نيل في عمله "ما تقوله الموسيقى"، أن حلبة الرقص هي المكان الذي استعاد فيه أفارقة الشتات ذاتهم خلال السبعينيات. أود أن أزعج أن الموسيقى اليوم هي المجال الذي يتم فيه التعبير عن وعي المسلمين في الشتات وسياسات الهوية على نحو مثير للإعجاب. يمكن للموسيقى تقديم

لمحة سريعة عن الحركات والاتجاهات المحلية بالإضافة إلى السياسات الثقافية الأوسع نطاقاً لتلاقي أمريكا مع الشباب المسلم وعلاقة أوروبا بمواطنيها بعد الاستعمار. علاوة على ذلك، في حين أن الموسيقى قد لا تسهم في حدوث تغيير سياسي اجتماعي أكبر كما يدعي جاك أتالي، إلا أنها آلية للسيطرة الاجتماعية، تنشرها الدول بشكل متزايد لضمان "اعتدال" الشباب المسلم. وكما يجادل عالم الأعصاب الكندي ستيفن براون حول الموسيقى والتلاعب، من خلال قوتها "العاطفية" وقدرتها على توصيل الأفكار، يمكن للموسيقى أن تشكل الهوية والأيدولوجيا والتضامن الجماعي؛ وتهدف الدول إلى التحكم في تدفقات الموسيقى كطريقة لمجانسة السلوك الجماعي. في أوروبا، مع وصول الأشكال الثقافية المصغرة للإسلام إلى التيار الرئيسي، يراقب مسؤولو الدولة والدبلوماسيون والمسؤولون في مكافحة الإرهاب عن كثب، ويتساءلون عما إذا كانت هذه التدفقات الموسيقية تقوض التماسك الوطني وكيف يمكن دمجها في سياسة مكافحة التطرف.

بعد أن التقيت بثلاثي الراب الفرنسي "العين الثالثة" في برونكس في يوليو 2003م، كتبت أن الإسلام يقدم بصورة متزايدة تعبيراً معادياً للإمبريالية ومجتمعاً متخيلاً من الانتماءات للمجموعات المهمشة في الغرب. لاحظت أيضاً أن المسؤولين الفرنسيين كانوا قلقين من انتشار موسيقى الهيب هوب - وبشكل أوسع، الثقافة السوداء - بين الشباب المسلم الفرنسي. ألقى المراقبون الفرنسيون والأمريكيون باللوم على الهيب هوب لجلب العلل الاجتماعية المرتبطة بالغيثو الأمريكي إلى فرنسا، بما في ذلك "أنماط الحياة الأفرو-أمريكية النزاعية"، و"الأفرقة الأمريكية" لأنماط خطاب الشباب الفرنسي. في عام 1994م، أصدرت الحكومة الفرنسية قانوناً يحد من كمية الهيب هوب الأمريكية التي يمكن تشغيلها على محطات الراديو الفرنسية.

تصاعد القلق بشأن التأثير المشترك للإسلام والهيب هوب فقط بعد اضطرابات عام 2005م. قبل انتهاء أعمال الشغب، قدم مائتان من أعضاء البرلمان التماساً إلى وزارة العدل الفرنسية تدعو لمقاضاة سبعة فرق هيب هوب زعم أن كلماتها أثارت الاضطرابات. سيقوم نيكولا ساركوزي، وزير الداخلية في ذلك الوقت، بإقامة دعوى قضائية ضد الفنان الفرنسي الجزائري محمد بورقبة بسبب كلمات الفرقة المناهضة للشرطة. غادر مغني الراب باريس إلى نيويورك بعد ظهوره الأول في المحكمة، والتحق ببرنامج الماجستير في "جامعة نيويورك للأفلام". تعقبت الحكومتان الألمانية والهولندية فناني موسيقى الراب ذوي الميول الإسلامية في الآونة الأخيرة، لكن حكومات أوروبية أخرى استخدمت الموسيقى للترويج للهوية الإسلامية "المعتدلة". أصبح المسؤولون في الدولة يعتقدون أن قبول أو رفض الموسيقى هو طريقة سريعة لفصل "المعتدلين" عن "المتطرفين"، وأصبحت الموسيقى محورية في السياسات الرامية إلى تعزيز الصوفية، ومكافحة

الخطابات السلفية والإسلامية، والتخلص من الأصولية لدى الشباب. تقوم الولايات المتحدة بنشر الموسيقى في الخارج لأجل الدبلوماسية العامة، لأجل مكافحة الإرهاب، وتعزيز الديمقراطية. يدرك المسؤولون الأميركيون بشدة رغبة الأقليات الأوروبية في التاريخ الأفرو-أمريكي، والجاذبية العاطفية للموسيقى السوداء؛ تم إطلاق العديد من مشاريع القوة الناعمة التي تستغل هذا الرعب من حركة الحرية السوداء. في خطابه حول الاستعمار، الذي نشر لأول مرة في عام 1950م، كتب الشاعر الفرنسي-الكاربيبي الراحل- إيمي سيزير أن أوروبا كانت مدمرة سياسياً ومحرومة ثقافياً بعد الحرب العالمية الثانية، وغير قادرة على التعامل مع المشكلتين الرئيسيتين اللتين تواجههما: تحدي الاستعمار المتأخر (تهاوي الإمبراطوريات الأوروبية، على الرغم من محاولات التمسك بالأراضي في أفريقيا وآسيا) ومسألة البروليتاريا وعدم المساواة الاجتماعية. في الوقت الذي أطلقت فيه إدارة ترومان خطة مارشال لإعادة بناء قارة ممزقة بالحرب، سعى الأوروبيون، حسب رأي سيزير، إلى تجديد ثقافتهم بأنفسهم من خلال استيعاب الثقافات الأفرو-أمريكية - موسيقى الجاز والأدب والفن - التي ظهرت في غيتوات أمريكا، وصاحبت تاريخ الهجرة الكبرى، نهضة هارلم، وحركة الحقوق المدنية الأولية.

واليوم، هي أقليات أوروبا، الطبقة الدنيا المسلمة - ذرية المهاجرين من المستعمرات السابقة - الذين يتطلعون إلى التجربة الأفريقية الأمريكية لتجديدها. دائماً ما احتُضنَ الفنانون الأميركيون الأفارقة وفنونهم في أوروبا باعتزاز أخلاقي: في النهاية، فإن العرق "معضلة أميركية". الآن، بينما ينشر المسلمون الساخطون في القارة نفسها تلك الأشكال الفنية الأمريكية الأفريقية المذهلة لنقد أوروبا والتعبئة السياسية، فإنها تضخ التنافر في التحالف عبر الأطلسي. قبل أربعين عاماً، وجد الفنانون السود والراديكاليون ملجأ في الدوائر الفكرية في باريس. في عام 1978م، رفضت فرنسا تسليم أربعة من الفهود السود الذين كانوا مطلوبين في الولايات المتحدة بتهمة الاختطاف. أصبح المناضلون قضية شهيرة للمثقفين الفرنسيين الذين أقاموا قضية قانونية لمقاومة تسليمهم، وجمعوا كتاباً في دفاعهم بعنوان "Nous, Noirs américains évadés du ghetto" (نحن الأميركيون السود الذين هربنا من الغيتو).

يفر المسلمون الفرنسيون الشباب إلى الولايات المتحدة اليوم ويكتبون خطابات تدين فرنسا كدولة تُرى فيها الأقليات كـ "تجار مخدرات، أئمة، لاعبي كرة قدم، كتاب ناشؤون يروون قصصاً عن الغيتو، أو مهرجين على تلفزيون الكابل". أصبح "الفهود السود" اليوم شباباً مسلمين في أنتويرب

وأثينا وستوكهولم ينتظمون للدفاع عن أنفسهم ضد الجماعات اليمينية المتطرفة، ويعيدون إحياء الخطابات الراديكالية السوداء لانتقاد حكوماتهم. وكما حدث في فترة ما بعد الحرب، أطلقت الولايات المتحدة في وقت سابق من هذا العقد مشروعاً جديداً - ما يسميه الصحفيون الفرنسيون "خطة مارشال للضواحي" - لدعم البنوك الأوروبية، ومكافحة "صعود الأهلانية"، والمساعدة في دمج مسلميها.

إن الهياج الثقافي والسياسي في محيط أوروبا الحضري في الوقت الحالي يذكرنا بفترة كانت قبل قرن تقريباً، في عشرينيات القرن الماضي، عندما بدأت الحركات الإسلامية والوطنية الإسلامية في الظهور في المدن الأمريكية. أرسلت الهجرة العظمى مئات الآلاف من الأمريكيين الأفارقة إلى المدن الشمالية. التصادمات السحيقة للغيثو الأمريكي "الجديد" وحالة السود المحبطة في جميع أنحاء العالم (أفريقيا ومنطقة البحر الكاريبي بحلول عام 1920م) أنتجت شعوراً عميقاً بالضييق والبحث عن الخلاص في المجتمع الأفرو-أمريكي. أنتج الهياج الأيديولوجي لهذه الغيتوات الشمالية ذات الكثافة السكانية العالية مجموعات وحركات متنوعة - ماركوس غارفي "الرابطة العالمية لإنماء الزنوج" (UNIA)، معبد العلوم الموريسكية وأمة الإسلام - التي ظهرت بين عامي 1910م و1930م، حيث وفرت الخدمات والأمن، نظمت المجتمعات، وطوّحت روايات لفهم وضع عالمي يبدو فيه السكان المنحدرون من أصل أفريقي وكأنهم محاصرون في كل مكان.

بعد مرور قرن من الزمان، يمر المسلمون في أوروبا والأمريكتين بعملية مماثلة، من خلال الانتقال إلى أطراف المدن الغربية الرئيسية بوحي عرقي ناشئ. إذا كان التقاء العمليات المحلية والعالمية - صعود الغيتو الأفرو-أمريكي، والتدفق العابر للحدود الوطنية من الأفكار والأشخاص - التي غدت صعود الإسلام في المدن الشمالية في أمريكا، فإن عمليات مماثلة تنتج غيتو المسلمين في أوروبا. هناك شعور بالحصار: المجتمعات المسلمة في الغرب، التي سحقتها الأزمات الاقتصادية، تجد نفسها عالقة بين دول المراقبة والحركات المرتفعة لكراهية الأجانب. لقد كان الوضع الدولي خلال العقد الماضي مثبطاً على نحو مماثل: الحروب في العراق وأفغانستان. ضربات الطائرات بدون طيار في الصومال وباكستان واليمن؛ الصراع المستمر في السودان وسوريا. وموجة الثورات التي اجتاحت شمال أفريقيا والشرق الأوسط في عام 2011م والتي تم قمعها من خلال الثورة المضادة الهائلة التي أطلقتها المملكة العربية السعودية وحلفاؤها. تظهر الحركات لفهم "المأزق الإسلامي العالمي"؛ ومع تحرك هؤلاء الشباب، فإنهم يعتمدون على ثقافات وتقاليد من جميع أنحاء العالم، لا سيما المحفوظات الثقافية والتاريخية

لهارلم وبرونكس. واليوم من الشائع أكثر أن نسمع عن مالكوم إكس والفهود السود في أوروبا أكثر من أمريكا.

ترابط هذه التواريخ ليس مفاجئاً. فقصة الإسلام الأمريكي متعلقة بالعرق والإمبراطورية والتعمير. إنها قصة أحفاد العبيد الأفارقة الذين جنحوا للمدن الشمالية والتقوا بالمهاجرين من مختلف أركان العالم الاستعماري. تعكس تجربة المسلمين الأوروبيين هذا التاريخ: إنها قصة مجتمعات المهاجرين الوافدين حديثاً من المستعمرات السابقة ليستقروا في مناطق حضرية متداعية، دون أن يحسوا بانتماء تامٍ للدول القومية التي يقيمون فيها. مع تقدم الجيل الأوروبي المولد في السن، فإن بحثهم عن الحرية والهوية الإسلامية الحديثة يقودهم عبر القارات والمحيطات. يبني الشباب المسلم على جانبي المحيط الأطلسي، سوية مع نظرائهم غير المسلمين، حركات وروايات تتقاطع بشكل عرضي مع التاريخ والجغرافيا ليتخيلوا مستقبلاً مثالياً لأنفسهم.

الفصل الأول

الموريسكية المسحورة (1)

تتشبث آلاف المنازل الصغيرة المشيدة من الطوب المتداعي والأسطح المعدنية بسفوح تلال شمال شرق ريو دي جانيرو، في منطقة تعرف باسم المجمع الألماني [C mplexo do Alem o]، أحد أكبر الأحياء الفقيرة في البرازيل، والذي يبعد 20 دقيقة بسيارة الأجرة عن شواطئ كوبا كاباتا وإيبانيما. تأوي مجموعة مدن الصفيح تلك أربعمائة ألف شخص، وتواجه الجنوب نحو تمثال ضخم للمسيح المخلص وهو يراقب ريو. يمزح سكان هذه المنطقة بحزن أن الرب قد أدار ظهره عن الضواحي الشمالية، وذراعه ممدودتان لاحتضان المدينة الغنية "المنطقة الجنوبية". كان المجمع الألماني يدار بواسطة العصابات المتنافسة حتى عام 2010م، "القيادة الحمراء" و"أصدقاء الأصدقاء". تعمل هذه المنظمات الإجرامية في الإتجار بالمخدرات، ولكنها توفر الحماية أيضاً، وتفصل في النزاعات وتمول جمعيات الأحياء. علانيةً تتحدى العصابات سلطة الدولة، وكثيراً ما يبتدر الجيش البرازيلي عملية "تهدة"، فيرسل مئات الجنود في مركبات مدرعة لمطاردة المتجرين واستعادة السيطرة على المنطقة. ولكن بعد ظهر يوم الجمعة الماضي في أواخر أكتوبر 2012م، لم تكن المركبات المدرعة في طريقها إلى تلال المجمع الألماني، بل شاحنات التبريد.

تطلع السكان والمتسوقون بفضول عند توقف الشاحنات، وبدأ المتطوعون الذين يرتدون القمصان التي كتب عليها "البرازيل-تركيا" بتفريغ الصناديق ومناولة الأكياس البلاستيكية للمارة. كانت المناسبة هي عيد الأضحى، عيد التضحية عند المسلمين، وهو العيد الذي تذبح فيه الخراف أو الماعز. وزع المتطوعون من المركز الثقافي البرازيلي التركي اللحوم الحلال لسكان المجمع الألماني.

يقول مصطفى غوكتيب بينما يساعد في توزيع الأكياس: "كمية اللحم ليست كبيرة. وقد تكفي لبضع وجبات فقط، ولكن لفتة التضامن هي ما يهم". يدير مصطفى المركز الثقافي البرازيلي-التركي في ريو، والذي أقامته "غولن"، حركة صوفية تدير مدارس وجمعيات خيرية في جميع أنحاء العالم. يقول مصطفى: "نحن لا نعظ، لا نقيم حملات دعائية؛ نحن نخدم فقط. ويوفر مركزنا دروساً ومنحاً دراسية ومساعدة للمحتاجين". وزع مركز مصطفى عشرين ألف كيلو من اللحوم الحلال لعشرة آلاف شخص في المجمع الألماني،

في حين وزع المتطوعون أربعون ألف كيلو في الأحياء الفقيرة الأخرى في ريو وساو باولو كان أحد أسباب هلع سكان المجمع الألماني من رؤية المتطوعين الذين يرتدون القمصان الموضوع عليها الأعلام التركية ويوزعون الطعام، أن الأمر بدا كما لو أن الحياة تحاكي الفن، كما لو أن شخصيات من المسلسلات الدرامية قد خرجت من الشاشة واتجهت نحو حيهم. فقبل أيام قليلة فقط، بدأت قناة غلوبو، القناة التلفزيونية الرئيسية في البرازيل بعرض المسلسل الذي تسبب بضجة كبيرة، سالفى خورخي (Salve Jorge)، وهو مسلسل درامي تم تصويره في البرازيل وتركيا. تدور أحداث سالفى خورخي حول قصة حب بين ثيو، ضابط في الجيش البرازيلي أرسل لتهديئة أحد الأحياء الفقيرة، ومورينا فتاة الحي الفقير التي تبلغ من العمر 18 عاماً ولديها طفل، والتي ينتهي بها المطاف بالهجرة إلى أوروبا ثم تركيا بحثاً عن عمل. يذهب ثيو إلى تركيا للعثور على مورينا، وتتداخل قصتهما مع قصة حب أخرى، قصة بيانكا، التي تأتي إلى تركيا كسائحة وتقع في حب مرشد سياحي. لم يكن سالفى خورخي بأي حال المسلسل الدرامي الأول الذي يدور جزء من أحداثه في "الشرق"، ولكنه أول مسلسل يتم تصويره في أحد الأحياء الفقيرة، في المجمع الألماني. تظهر الحلقة الافتتاحية ثيو، ضابط الجيش، وهو يركب على ظهر حصان ويزيل أعلام عصابات المخدرات، ويرفع العلم الوطني البرازيلي، تماماً كما فعل الجيش على أرض الواقع بعد عملية نوفمبر 2010م.

تنتقل أحداث القصة من محيط البرازيل إلى الشرق الأوسط ومن ثم تعود. يناقض ضجيج الحياة اليومية في الأحياء الفقيرة اتساع وهدوء جبال الأناضول؛ تتقاطع لقطات من ساحل ريو المبهر مع مشاهد المناطق المكتظة وأزقة البازار الكبير في اسطنبول؛ يفسح نبض الأحياء الفقيرة المجال لصور دراويش المولوية والرقص الأناضولي. يُقدّم المشرق في التفاصيل الحسية، في الرقصات والنساء اللاتي يقمن بعجن الخبز وحتى دخان النرجيلة؛ تُصور الأحياء الفقيرة على أنها شعبية، خصبة ثقافياً وصاعدة. يبدو أن الهدف هو الإشارة إلى أن البرازيل وتركيا دولتان صاعدتان تمتلكان الكثير من القواسم المشتركة. فالقديس خورخي، الذي سمي باسمه المسلسل الدرامي - والذي هو شفيغ ثيو- قد ولد في كبادوكيا في شرق تركيا.

أطلقت تلك التيلينوفيل(2) التي استمر عرضها -قصة الحب والخيانة والجريمة المنظمة- الهوس بالموسيقى والأزياء التركية، وحتى اللوحات "العثمانية" وأدوات المائدة؛ بدأ المشاهدون بإدراج التعبيرات التي يستخدمها الممثلون "مرحباً" و"ما شاء الله"؛ وقدمت وكالات السفر جولات خاصة في تركيا.

تقوم المسلسلات في البرازيل بدور أكثر من مُجرّد الترفيه، كما هو الحال في دول نامية أخرى: فهي تعكس طبيعة المجتمع وتحاول تغيير السلوكيات العامة. يلمس سالفى خورخي الظروف المحسنة في أحياء فقيرة "مسالمة"؛ مشكلة الإتجار الجنسي؛ التوترات بين الإنجلييين البرازيليين ومريدي الديانة الأفرو-برازيلية؛ العلاقات العميقة بين الدولة وتركيا والشرق الأوسط؛ وبالطبع المسلمين، وكيف أنهم جزء من الأمة البرازيلية. هناك غياب كامل لقضية الإرهاب، أو المسلمين كتهديد في المسلسلات البرازيلية التي تتعامل مع الإسلام، على عكس المسلسلات التلفزيونية الأمريكية الشهيرة مثل: "الوطن"، "24" و"الخلايا النائمة". ويبدو أنها تهدف أساساً إلى تثقيف الجمهور حول تزايد أعداد المسلمين في البرازيل، وتبسيط الضوء على العناصر الثقافية في العالم الإسلامي التي يمكن استعارتها وجعلها برازيلية.

هذا التمثيل الثقافي ليس من قبيل الصدفة. فقد سعت البرازيل منذ فترة طويلة إلى إظهار اختلافها عن أوروبا وأمريكا في علاقتها بالعالم النامي. وأوضح الرئيس لويز إيناسيو لولا دا سيلفا(3) أن البرازيل في القرن الحادي والعشرين ستتبع "سياسة خارجية مستقلة"، وأكد على علاقات بلاده التاريخية مع أفريقيا وإسلام، من خلال تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي وإرث إيبيريا الإسلامية. هذا النوع من خطابات الوحدة الإسلامية من قادة أمريكا اللاتينية والقوميين ليس جديداً. ففي مختلف اللحظات السياسية في تاريخ أمريكا اللاتينية، وعندما غرقت دول أمريكا الجنوبية تحت السيطرة الإسبانية أو الأمريكية، أعلن القادة التضامن مع العالم العربي وأفريقيا. والحجة القائلة بأن البرازيل مديونة ثقافياً لأفريقيا وإسلام، كانت قد قدمت لأول مرة في الثلاثينيات من القرن العشرين من قبل غيلبرتو فرييري(4)، أحد المفكرين البارزين في البرازيل، وإعْتُمدت كسياسة رسمية من قبل النظام الشعبي لغيتوليو فارغاس(5) (1930-1945). وقد تم إحياء هذا الخطاب اليوم، حيث سعت الحكومة البرازيلية، بقيادة لولا وديلما روسيف(6)، إلى إقامة علاقات أوثق مع أفريقيا والشرق الأوسط. هذه المناورة الدبلوماسية خلقت تموجات ثقافية في الداخل. يزداد تمثيل العناصر الشرقية والإسلامية في كرنفال ريو الذي يعتبر مجازاً للأمة، كالعربات الكرنفالية التي تُعرضُ الراقصات المحجبات يرتدين البرقع والراقصون يرتدون اللحي المزيفة. زينت ملكات السامبا اللاتي يُعتبرن الرموز الممتدة للهوية الوطنية، أجسادهن بالحلي الشرق أوسطية، وكأنهن يُشرن إلى انغماس البرازيل المتزايد في العالم الإسلامي وقدرتها على إغواء أي شخص. تظهر "الموريسكية المسحورة"، والتي تُعتبر مجازاً قديماً في الفولكلور البرتغالي والإسباني، بمظهر جديد في الحياة العامة البرازيلية.

تُظهر تجربة المسلمين في البرازيل مدى ارتباط مصير المجتمعات الإسلامية في الغرب بالسياسة والجغرافيا السياسية؛ وقد خلقت السياسة البرازيلية الخارجية والداخلية- وضعاً لا يواجه فيه مسلمو البلد عداءً يذكر ولا قمعاً من الدولة. ولكن من المفارقات أن نمو الإسلام في البرازيل اليوم- من خلال الهجرة والدخول في الإسلام- يعكس صعود الإسلام في الولايات المتحدة في أوائل القرن العشرين، رغم كل ما يبذله من جهود من أجل أن ينأى بنفسه عن الحرب على الإرهاب وبناء تحالفات لمواجهة السلطة الأمريكية، إلا أنه في الواقع متأثر بعمق بالسياسة الثقافية الأمريكية. ومع دخول الديمقراطية البرازيلية عقدها الثالث، فإن الحركات الأفرو-برازيلية تستعيد الإسلام الذي جلبه العبيد الأفارقة في القرن الخامس عشر، تماماً كما فعل الأمريكيون الأفارقة منذ قرن مضى. يظهر كرنفال باهيا، في شمال شرق البرازيل، الوعي الأسود الإسلامي الحافل بالذكريات في أمريكا الشمالية. إن الدولة البرازيلية، مثل الحكومة الأمريكية، تكتشف أن تاريخها الإسلامي المبكر هو قيمة دبلوماسية مفيدة. وقد صار الشباب المسلم في أوروبا وأماكن أخرى مسحورين بهذه الأمة البهيجة.

التصوف الحسي

في أكتوبر 2009م، دشّن الرئيس لولا حملة لجلب الألعاب الأولمبية إلى ريو. وعدد رئيس الدولة مزايا البرازيل أمام اللجنة الأولمبية وملايين المشاهدين في خطاب تلفزيوني. قال الرئيس لولا، "نحن شعب يحب الرياضة، يحب الحياة. رجالنا ونساؤنا يأتون من كل قارة -نحن جميعاً فخورون بأصولنا. نحن لسنا شعباً مختلطاً فقط، بل شعب يحب كثيراً أن يكون مختلطاً، هذه هي هويتنا". وفي معرض إبراز اختلاط البرازيل، استند لولا إلى فكرة أساسية للهوية الوطنية البرازيلية: إذ يمكن للبرازيل أن تمتص أي ثقافة و"توطنها"، وأن البرازيل بلد يحظى فيه المهاجرون دائماً بالترحيب، وكما قال مسؤول في الدولة في الأربعينيات من القرن الماضي "سوف نجعل الأمة؛ أكبر وأقوى وأكثر احتراماً".

لم يكن الحال هكذا دائماً. ففي أواخر القرن التاسع عشر، رأت النخب البرازيلية أن الاختلاط العرقي بين السكان الأصليين والأوروبيين والأفريقيين كان عائقاً للبرازيل، وتسبب في العديد من الآلام، وأدى إلى الفساد والفقر والانقسام الوطني. وقد جادل مثقفون بارزون مثل المؤرخ سيزار ماغلهانز بأن: "تخلف البرازيل" كان متأسلاً في "السلبية الإسلامية" الموروثة عن البرتغاليين. وقد عكست سياسة الهجرة البرازيلية هذه الآراء، فقد شجعت الحكومة منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر حتى

العشرينيات من القرن العشرين، الهجرة الجماعية من أوروبا على أمل أن يساعد ذلك في "تبييض" البلاد.

نشر الأكاديمي البرازيلي الشاب غيلبرتو فريري، الذي درس في جامعة كولومبيا مع الأنثروبولوجي فرانز بواس، كتابه "Casa-grande e senzala" (ترجم لاحقاً باسم السادة والعبيد) في عام 1933م. قلب فريري الحكمة التقليدية على رأسها. وقال إن البرازيل هي مزيج غني من السكان الأصليين والأفارقة والبرتغاليين؛ وإن البلد مشبع بالثقافة الأفريقية، وإن داخل "روح" كل برازيلي بصمة الأفارقة والسكان الأصليين. صاغ فريري مصطلح "الحميمية البرتغالية"، معتبراً أن البرتغاليين، على عكس الأوروبيين الآخرين لديهم تقارب مع الشعوب من أصحاب البشرة الداكنة وقدرة على التكيف في المناطق المدارية. قال فريري إنه ولكي نفهم القدرة البرتغالية الكاملة على الاختلاط، يجب أن ننظر إلى تأثير الموريسكيين في إيبيريا، لأن الوجود الإسلامي المتدفق هو الذي أنقذ شبه الجزيرة الإيبيرية من "طمس الشمال"، كما ذكر أن "تأثر البرتغال بأفريقيا مشروط بالمناخ الأفريقي، ومقوض بالتصوف الحسي للإسلام". لقد كان هذا "التداخل" بين الإيبيريين والموريسكيين هو ما جعل البرتغاليين شعباً توفيقياً، قديراً وحيوياً، عصرياً وفي الوقت ذاته شرقياً في شهوانيته وتوقه.

وفقاً لفريري، فقد استمرت الديناميات الجنسية لإيبيريا الإسلامية في العالم الجديد. كان حب الرجال البرتغاليين لـ "الفتاة الموريسكية السمراء"، وخيال "الموريسكية المسحورة"، هو ما دفعهم عبر المحيط الأطلسي. "الاتصال الطويل مع الشرقيين ترك لدى البرتغاليين تصوراً للشخصية المثالية؛ المرأة الموريسكية المسحورة، ساحرة سمراء البشرة بعينين سوداوين، مغلفة بتصوف جنسي، دائماً ما تقوم بتمشيط شعرها أو الاستحمام في الأنهار أو في مياه النواقر المسكونة"، كتب فريري في الصفحات الافتتاحية لكتاب السادة والعبيد: "وكان المُستعمرون البرازيليون يقابلون نظيراً من هذا النوع في النساء الهنديات العاريات بشعرهن المنسدل... لكنهن كن أقل احتشاماً وبإمكانهن أن يبعن أنفسهن لأجل قطعة حلي أو مرآة مكسورة، ويباعدن بين أرجلهن بسهولة لأجل (الكاريبيين)، الذين كانوا شرهين جداً للنساء". كان العصر الموريسكي حاسماً لفهم البرازيل: خفف الإسلام العبودية البرتغالية، وأعطى الحياة في مزارع السكر طابعها الحسي؛ شعر مُلاك العبيد بأخويتهم مع الأرقاء لأن كلاهما يحمل الدم "الزنجي" و "الموريسكي".

لم تكن هذه النظرة المثالية والشبقية للاستعماري غير عادية، لأنه لطالما كان هناك هذا "الخيال التأسيسي" في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية، والذي يحدد

ولادة الأمة في اتحاد رومانسي بين الرجل الأوروبي ونساء الشعوب الأصلية. لكن نظرية فريري كانت متميزة، لأن اللقاء الذي ينتج البرازيل لا يبدأ في الأمريكتين، ولكن في الإمبراطورية الموريسكية؛ وأن الماضي الموريسكي ليس "بذرة" فقط للحضارة البرتغالية-البرازيلية بل هو سابقة بالنسبة للوحدة الوطنية البرازيلية والتعايش. سبب كتاب فريري ضجة في البداية، فقد كان يُنظر إلى المؤلف أيضاً على أنه جريء وثوري. استخدم الباحث الشاب نظرية اجتماعية متطورة (تميز بين العرق والثقافة) لمواجهة خطاب تحسين النسل وإعطاء الروح الوطنية البرازيلية الدعم الذي هي بأمس الحاجة إليه. وقد أصبح تاريخ البرازيل الآن قصة للانتماءات الثقافية وإنتاج السكر؛ واعتبر طابعها الهجين فضيلة وطنية وميزة نسبية تربط البلاد بأفريقيا والشرق. استخدم غيتوليو فارغاس، الرجل القوي الذي حكم البرازيل لمدة خمسة عشر عاماً ابتداءً من عام 1930م أفكار فريري وجعلها أفكاراً مركزية للدولة الجديدة التي كان يبنها. وأصبح مفهوم "الديمقراطية العرقية" و"الحميمية البرتغالية" أيديولوجيا الدولة، ونُشر في وسائل الإعلام، الفصول الدراسية وفي التصريحات الرسمية.

لفت كتاب فريري انتباه نشطاء في الولايات المتحدة أيضاً لأنهم اعتقدوا أن اختلاط البرازيل كان "أكثر إنسانية" من عزل جيم كرو ومن الأكاديميين الذين كانوا يقومون بعمل ميداني في باهيا في الثلاثينيات من القرن الماضي، ورأوا أفكار فريري كترياق للأيديولوجية النازية. نظر الدبلوماسيون الأمريكيون للأمة البرازيلية كحليف يمكن أن يحتوي النفوذ الألماني في أمريكا اللاتينية. ناقش مجلس النواب في عام 1942م أهمية المثال البرازيلي و"الامتزاج الثلاثي الرائع في البرازيل". وأثنى المتحدثون على أعمال "فريري" الضخمة، وقالوا إن هناك حاجة ماسة إلى ترجمتها للإنجليزية لإثبات أهمية "الزواج في الحياة والثقافة والدفاع" لكل من البرازيل والولايات المتحدة؛ وفي عام 1946م، تم إصدار نسخة من Casa-grande e senzala، بعنوان "السادة والعبيد"، ونشرت أخيراً في الولايات المتحدة. كان المشرعون الأمريكيون مفتونون بـ "الحل البرازيلي"، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن فارغاس، الذي كان ينفذ أفكار فريري، كان مناهضاً للشيوعية.

تبنى نظام فارغاس رؤية فريري القومية للبرازيل تماماً، باعتبارها مختلطة وغربية وأفضل من رؤي القوى العظمى. ومنذ منتصف 1930م فصاعداً، ستصبح أشكال الثقافة الأفرو-برازيلية- من السامبا، الكرنفال والكابويرا - ثقافة وطنية. سيصبح الدم الخلاسي الذي يجسد تزاوج الأجناس رمزاً وطنياً. من الجدير بالذكر أن الدم الخلاسي كان في صميم تحليل فريري للبرازيل؛ كان التجسد الجديد لـ "الفتاة الموريسكية السمراء"، حاملة الثقافة،

مثل الرّم أو دبس السكر، المنتجات الثمينة لاقتصاد السكر، والتي بسببها صار لدى جميع البرازيليين بصمة أفريقية. يقول فريري: "عملياً كلنا نحمل البصمة السوداء، من العبد أو المربية الذين ربونا. الذين رعوننا. الذين غذونا... الدم الخلاسي... الذي لقننا مبادئ الحب الجسدي وقدم لنا على مهد الطفولة الإحساس الأول بكوننا رجالاً". سوف يجعل نظام فارغاس الدم الخلاسي رمزاً لهجنة وفحولة البرازيل. سيوظف النظام السامبا أيضاً، وهي موسيقى ولدت في مدن الصفيح في ريو، ويبت من خلالها أغان مزيّنة بالكلمات الوطنية في جميع أنحاء البلاد. سَيُعَبِّرُ الكرنفال من خلال قارعي الطبول وراقصي السامبا-الذين يكونون عادة ذوي دم خلاسي-عن الكنز البرازيلي. فتح نظام فارغاس في عام 1935م المراكز الثقافية في نيويورك والعواصم الأوروبية لتحسين مكانة البلاد؛ وبشكل تدريجي-مع مغنية السامبا كارمن ميراندا وقبعة توتي فروتي خاصتها-سوف تُرى البرازيل كجنة استوائية.

خلقت صور "الديمقراطية العرقية" البرازيلية في أفلام مثل "أورفيوس الأسود" و"الأصوات الناعمة من بوسا نوبا" التي انتشرت عالمياً في 1950م تناقضاً حاداً مع صور التدهور المنبعث من الجنوب الأمريكي. بدأ الدبلوماسيون والمفكرون البرازيليون يصورون بلادهم كأول قوة عظمى مختلطة عرقياً بإمكانها أن تنافس الولايات المتحدة. كانت البرازيل على كل حال، على الجانب الأيمن من "الستار العرقي"، الجانب المضاد للاستعمار الأوروبي والفصل العنصري الأمريكي. في أوائل الستينيات جرب القادة البرازيليون "سياسة خارجية مستقلة"، وقاموا بغزوات دبلوماسية في أفريقيا؛ لكن البلاد، الضعيفة نسبياً والتابعة، لم تستطع مقاومة الضغوط من سيدها الاستعماري السابق، وانضمت في نهاية المطاف إلى الاستعمار البرتغالي في أفريقيا، مما نفر عشرات الدول الأفريقية المستقلة حديثاً. اعتمد أنطونيو سالازار، الديكتاتور البرتغالي، في الواقع نظرية فريري حول "الحميمية البرتغالية"، مستخدماً أفكار الأكاديمي لتبرير الحكم الاستعماري على أنغولا وموزمبيق.

بحلول منتصف السبعينيات، كان فريري مشهوراً في العالم الناطق بالبرتغالية، وعمل مستشاراً للقادة البرازيليين والبرتغاليين. تمت ترجمة كتابه (السادة والعبيد) إلى تسع لغات ونشر في أربعين طبعة، واستلهم منه كتاب هزلي ومسلسل تلفزيوني؛ حتى إن منصات العربات في الكرنفال كانت تحتفل برسالة الكتاب. ولكن دفاع الأكاديمي عن الاستعمار البرتغالي جلب له انتقادات شديدة. ففي الثلاثينيات من القرن العشرين، استخدمت أفكار فريري لمواجهة سيادة البيض؛ وبحلول السبعينيات من القرن الماضي،

استخدم المجلس العسكري الحاكم اسمه لإسكات الناشطين الأفارقة البرازيليين، وتصويرهم على أنهم مسلحون يعارضون الاختلاط.

في الوقت نفسه بدأ الأكاديميون البرازيليون في إنتاج أبحاث تبين أن التفاوت العرقي راسخ في البرازيل، وبدأت النسويات قى الطعن في التصوير المثالي والإيزوتيكي للعنف الاستعماري. حتى إنه بحلول منتصف السبعينيات، كان عدد قليل من صناع السياسة الغربيين يتحدثون عن "الحل البرازيلي".

ومع ذلك ظل فريري يتأرجح بين التقديس والعزل، كما قال أحد الأكاديميين. ولا زال يُعْتَرَف به كـ "مخترع البرازيل"، كأحد أعظم المثقفين في أمريكا اللاتينية في القرن الماضي. وفي العقد الأخير أو نحو ذلك، كان يتمتع بالتقديس. في عام 2000م، أثنت الرئيس فرناندو هنريكي كاردوسو (7) على فكرة "الديمقراطية العرقية"، وأعلن ذلك العام الذكرى المئوية لولادة فريري، "السنة الوطنية لغيلبرتو فريري"، مشيراً إلى أنه من خلال الانتقال إلى الديمقراطية سوف تقترب البرازيل كثيراً من الهدف. وقد أدى ظهور علم الجينوم واختبار الأنساب أيضاً إلى تجدد الاهتمام بأفكار فريري، حيث اكتشف البرازيليون الذين يصنفون على أنهم بيض البشرة أن لديهم دماً أفريقياً. ولكن الأهم من ذلك، فإن العديد من البرازيليين (وغير البرازيليين) اعتقدوا أن أفكار فريري عن الاختلاط والأسلاف الموريسكيين يمكن أن تتصدى للحديث عن صدام الحضارات، وأنه في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر يمكن للبرازيل أن تقدم حلاً.

القصة التي كسرت كل القواعد

يوجد في البرازيل ما يقارب مليون مسلم، منتشرين في مدن ساو باولو وريو وكوريتيبا (في ولاية بارانا الجنوبية) وفوز دو إيغواسو، وهي مدينة تقع في المنطقة الحدودية بالقرب من باراغواي والأرجنتين في الشرق. معظم المسلمين البرازيليين هم أحفاد المهاجرين من الشرق الأوسط، على الرغم من أن هذا تغير الآن بسبب دخول بعض البرازيليين الإسلام والهجرات الأخيرة من أفريقيا وجنوب آسيا. قال رشيد أبو السمح، وهو مراسل لصحيفة "غلوبو" في برازيليا: "لم يكن هناك رد فعل مناهض للمسلمين هنا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ينظر إلى المسلمين في البرازيل بشكل إيجابي. وأعتقد أن ذلك يعود جزئياً إلى أنهم يتشكلون من المجتمع السوري اللبناني. فقد كان اللبنانيون هنا لأكثر من قرن من الزمان، وهم متحدون، ومُتَأَلُّون في الفنون والسياسة. وقد مهدوا الطريق للمسلمين".

المجتمع السوري اللبناني، الذي يقدر بسبعة ملايين نسمة، مجتمع ثري ومتنوع ومسيحي إلى حد كبير. يمتلك البرازيليون العرب أعمالاً تُقدر قيمتها بملايين الدولارات، مثل مجموعة "مونايزا" و "سي بي تي"، وهي ثاني أكبر شبكة تلفزيونية في البرازيل، ويشكلون حوالي 10% من مجلس المدينة في ساو باولو والمؤتمر الاتحادي في برازيليا. كان العرب والمسلمون في البرازيل أكثر ارتباطاً تاريخياً بالأعمال التجارية من العنف السياسي في التصورات العامة. ومع ذلك، في الأسابيع التي تلت الحادي عشر من سبتمبر شعر مسلمو البرازيل بالضعف. تلقت غرفة التجارة العربية البرازيلية تهديداً بوجود قنابل؛ تم تأجيل حدث ثقافي في مدينة غوارولوس، خارج ساو باولو مباشرة. أجريت المقابلات مع المسلمين البرازيليين في نشرات الأخبار المسائية. في أكتوبر 2001م، بدأت شبكة "سي إن إن" وصحيفة "نيويورك تايمز" في الادعاء بأن الجالية المسلمة في فوز دو إيغواسو يجري رصدها بسبب أنشطة إرهابية، وهي ادعاءات كررتها وسائل الإعلام البرازيلية. وكانت جذور هذه المزاعم صورة فوتوغرافية: فقد وجدت القوات الأمريكية في أفغانستان صورة لشالات إيغواسو - وهي من المعالم السياحية الرئيسية في شرق البرازيل - في معسكر تدريب للقاعدة.

تساءل البرازيليون المسلمون بعصبية كيف ستؤثر الادعاءات التي ظهرت على شاشات التلفزيون عليهم؟ تقول ليلي شمعة، الزعيمة المجتمعية اللبنانية البرازيلية في ساو باولو: "كنت قلقة ليلاً ونهاراً. اشتريت كاشفاً لهوية المتصل، جعلت ابنتي تتغيب عن المدرسة لمدة يومين، لأنني قلقت من أنها ستعرض للمضايقات". تذكرت الأسابيع التي تلت الحادي عشر من سبتمبر بوضوح وقالت مبتسمة: "كنت قلقة حقاً، ولكن بعدها بدأ المسلسل الدرامي".

تشير ليلي إلى مسلسل (المستنسخ)، وهو مسلسل درامي شهير بدأ بثه في الثاني من أكتوبر 2001م. يحكي المسلسل قصة جاد، وهي شابة برازيلية مسلمة تعود إلى وطنها المغرب بعد وفاة والدتها في البرازيل، وتحاول التكيف مع الحياة في محيط العائلة الممتدة في مدينة فاس القديمة. تقع في حب لوكاس، البرازيلي المسيحي الذي ولد بعد وفاة شقيقه (ديوغو). يستنسخ عراب ديوغو الحزين خلايا الصبي الميت ويزرعها في رحم امرأة مغربية فتلد لوكاس، الذي يبدو تماماً مثل أخيه المتوفى. تم تصوير المسلسل في ريو وفاس وميامي، وتم عرض الكثير من الصور الاستشرافية - من الرقصات الشرقية اللاتي يغطين وجوههن ويتميلن خلف ستائر شبكية مزخرفة، إلى لقطات مبهرة من مراكش وفاس مدمجة مع لقطات لنساء شبه عاريات على شواطئ ريو - وبالطبع، الأدعية المتواصلة لجبران جاد في المدينة: "أه، رحمتك يا الله!".

كان من المقرر أن يبدأ عرض مسلسل (المستنسخ) على تلفزيون غلوبو البرازيلي في سبتمبر 2001م. تم تأجيل الحلقة الأولى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بينما كان المنتجون يناقشون كيفية تصوير الشخصيات الإسلامية. بعدها قرروا أن هذا المسلسل، الذي كان من المقرر أصلاً أن يعالج مسألة الاستنساخ والهندسة الوراثية (والتي كانت موضوع اهتمام في البرازيل)، سيتم إعادة صياغته لتثقيف الجمهور حول المسلمين في البرازيل والإسلام بشكل عام. وقالت كاتبة السيناريو غلوريا بيريز في العرض الأول: "نحن بحاجة إلى أن نقول لا للتحامل، وأن نتوقف عن تغذية الجهل". وأضافت: "إننا نبين للأشخاص العاديين أن هناك إرهاباً في جميع الدول وبين جميع الشعوب، والمسلمين شعب مثلنا".

أسر مسلسل (المستنسخ) المشاهدين، واستمر عرضه لمدة عامين (250 حلقة) خلال غزو العراق. تأهب خمسة وثمانون مليون برازيلي، والملايين في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية أسبوعياً لمشاهدة قصة الحب المغربية-البرازيلية التي كانت تُعرض خلال مشهد الحرب الأمريكية على الإرهاب، والتي كانت تتسرب في بعض الأحيان إلى خط السرد. تم بث أولى الحلقات بينما كانت وسائل الإعلام الأمريكية تثير ادعاءات حول المجتمع الإسلامي في فوز دو إيغواسو. في أكتوبر 2002م، نشر مقال كتبه الصحفي الأمريكي البارز جيفري غولدبرغ في صحيفة النيويورك (8) يزعم أن "الجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط" لها قواعد في المدينة الشرقية من البرازيل. وقد تصاعدت هذه الادعاءات، حيث ادعت واشنطن بوست أن أسامة بن لادن قضى بعض الوقت في البرازيل في منتصف التسعينيات.

حوّل المسلسل الدرامي الأنظار نحو موضوع مقلق في البرازيل: الزواج اللحمي (9). في الموسم الأول، تُقيم جاد علاقة مع لوكاس المسيحي البرازيلي، ولكن عمها يجبرها على الزواج من شاب مسلم يدعى سعيد. فتزوجت قسراً من هذا الأخير، ولكن دون حب. قام سعيد بنزع نعال جاد وهو يرتدي جلبابه الأبيض في ليلة زفافهم ومن ثم قام بغسل قدميها وجففهم ببتلات الورود ونسيج قماشي؛ لكنه لم يستطع الفوز بقلبيها. كانت تحاول الهرب منه عاماً بعد عام. وبعد عشرين عاماً، وفي خاتمة تذكرنا برواية (الحب في زمن الكوليرا) لغارسيا ماركيز، يلتئم شمل جاد ولوكاس مجدداً في البرازيل. بدأ أن المنتجين مهتمون على مدى أربعة مواسم بالبحث في الحياة الأسرية للمسلمين، وإظهار أن المهاجرين المسلمين كانوا يتزاوجون مع البرازيليين تماماً مثل المهاجرين المسيحيين من الشرق الأوسط قديماً.

ولمعرفة مدى التأثير الثقافي للبرازيل عبر المسلسل، فإن "المستنسخ" ترجم وُبث في ثلاثة وخمسين بلداً. قام العاملون الاجتماعيون في البرتغال ببث المسلسل في ورشات العمل المتعلقة بالهجرة والزواج؛ في قبرغيزستان، حيث قُمع الإسلام على مدى سبعين عاماً خلال الحكم السوفياتي. رأى المشاهدون (المستنسخ) كدورة تمهيدية لمعرفة الإسلام. في تركيا والعالم العربي، أحبت النساء جاد، البطلة. وبينما سخر المشاهدون على المدونات وغرف الدردشة على الإنترنت من القصة المبتذلة للفتاة المسلمة الأسيرة التي تحاول الهروب لكي تكون مع أمير مسيحي، إلا أنهم استمتعوا بمشاهدة الممثلات البرازيليات المزدانات اللاتي يرتدين البرقع وأزياء الرقص الشرقي ويتضرعن إلى الله، والاجتماعات الأسرية التقليدية التي تتحول إلى مسابقات رقص. في البرازيل، دافع المنتجون عن الحبكة باعتبارها إنسانية، متحدين الفكرة السلبية حول المرأة المسلمة. قالت غلوريا بيريز إن مسلسليها الدرامي يهدف إلى إظهار أن: "النساء المسلمات يقعن في الحب أيضاً. وأن المسلمين ليس لديهم أي شيء ضد الجنس... وإذا ما عرفنا النساء المسلمات، نجد أنهن يخالفن القواعد طوال الوقت". كان المسلسل رداً على النقاشات الأمريكية حول الإسلام، وبين أن المسلمين البرازيليين كانوا جزءاً من البرازيل، وأكثر أماناً من نظرائهم الأمريكيين (كانت هناك حلقة تتحدث عن الهجمات الانتقامية ضد المسلمين في الولايات المتحدة على وجه التحديد). رحب المجتمع الإسلامي البرازيلي عموماً بالمسلسل؛ فعلى الأقل لم يربط المسلمين كان التأثير الثقافي لمسلسل (المستنسخ) مذهلاً، وأثار ما أطلقت عليه مجلة التجارة اللاتينية "حمى الشرق الأوسط". أصبح الرقص الشرقي والمجوهرات ذات الطراز الشرق أوسطي "أمراً رائجاً في ريو وساو باولو" بالبرازيل. بدأ البرازيليون يقيمون حفلات "ألف ليلة وليلة"؛ وينشئون غرف دردشة على الإنترنت أطلقوا عليها "التحدث إلى الشيخ"؛ وازدادت السياحة في المغرب بنسبة 300%. كما اكتشف صحفي زار كيتو في الإكوادور أن المشاهدين: "مفتونون بكل ما هو عربي". في الولايات المتحدة، تم اختيار المسلسل من خلال شبكة تيلموندو الأمريكية التي تبث برامجها باللغة الإسبانية (ترجم وأطلق عليه اسم El Clon)، ولكنهم أوشكوا على إلغاء عرضه تقريباً بسبب الجدل المحتمل. لكن عندما تم أخيراً بث الحلقات وصفتها شبكة تيلموندو التلفزيونية بـ "القصة التي كسرت كل القواعد". تابع المسلسل ما يقدر بـ 2.8 مليون أسرة من أصل إسباني في الولايات المتحدة وترك تأثيراً ملموساً على ثقافة الشباب اللاتيني. في إحدى الحلقات التي لا تنسى، قامت جاد بأداء رقصة للوكاس: رفعت شموغاً مشتعلة بأطراف أصابعها من الخلف، وهي ترتدي الحجاب وتتمايل وتتلوى، بعدها وازنت سيفاً على رأسها؛ ثم وضعت السيف بثبات على وركها الأيمن، ثم على صدرها، ومالت تجاهه. من ثم انحنى نحو الأسفل وحدثت في حبيبها المسيحي، بينما يهتز النصل

بخطورة على بطنها العارية وقالت: "لماذا حبيبي؟" شحرت هذه الرقصة المشاهدين. كتبت صحيفة نيويورك هيرالد التي مقرها ميامي، "صنع في البرازيل مع نفحات من الماضي الموريسكي". وأصدرت صحيفة "إل دياريو-لا برينسا" الإسبانية في نيويورك تقريراً عن أن مسلسل "المستنسخ" أشعل موضة المجوهرات العربية وأوشحة الورك، وتسبب في انتشار دروس الرقص الشرقي التي تدرس رقصة "جاد للوكاس"، كما تم افتتاح صالون تجميل حديثاً في كوينز وأطلق عليه (المستنسخ).

كان المسلسل الذي يحتفي بالتأثير الشرقي على البرازيل، جزءاً من حملة أكبر ضد التصويرات الغربية للإسلام والبرازيل أيضاً. عانت صورة البرازيل في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين. ومع تصاعد العنف في الأحياء الفقيرة وظهور أفلام مثل مدينة الله، كانت القصص الإخبارية تبين البرازيل على أنها ديستوبيا (10). حضرية، حكاية تحذيرية لدول أخرى. ومع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، غدت وسائل الإعلام الدولية فكرة البرازيل الفوضوية، وتحدثت عن الإرهاب على حدود البلاد. بدأت الجماعات الناشطة البرازيلية في مواجهة هجمات وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية. وعندما نشرت شبكة "سي إن إن" في نوفمبر 2001م تقريراً تزعم فيه أن هناك نشاطاً إرهابياً في المنطقة الحدودية، رفع المدعي العام في فوز دو إيغواسو دعوى قضائية بدعوى التشهير ضد الشبكة التي مقرها أتلانتا. احتشدت مجموعات مثل "سلام بلا حدود" و"الحركة الثقافية البرازيلية" لأجل حماية البرازيليين المسلمين من "العدوان الثقافي". قررت وكالة إعلانية في فوز الرد بسخرية على التقارير التي تفيد بأن ابن لادن زار مسجداً محلياً، قطعت ملصقات بها وجه ابن لادن كتب عليها: "عندما يأخذ استراحة من تفجير العالم، فإنه يقضي بعض الوقت اللطيف في فوز؛ تعال أنت أيضاً". بدأ وجه زعيم القاعدة في الظهور في أماكن غير متوقعة في جميع أنحاء البرازيل. افتتحت حانة في نيتيزوي تدعى كهف ابن لادن ("حيث تتجمع طالبان!") مع ملصق ترويجي لأسامة وهو مستلق على فراش عائم في بركة سباحة. في فبراير 2002م، في كرنفال ريو، ظهرت فرقة الرقص التي تسمى حريم ابن لادن، وقد كن يرفعن البرقع أثناء الرقص لإظهار ملايسهن الداخلية المثيرة. أصبح الكيتش الساخر الاستشراقي، والاندماج الثقافي وسيلة لشن الحرب على الحديث عن الإرهاب.

عززت الدولة البرازيلية فكرة التضامن مع المسلمين. وأبعد الرئيس لولا البلاد عن سياسات "الحرب على الإرهاب" التي تتبعها الولايات المتحدة لدى توليه منصبه في يناير 2003م. لم تصدر البرازيل مشروع قانون مكافحة الإرهاب الذي طلبته الولايات المتحدة. ووفقاً لدبلوماسيين أمريكيين، فإن البرازيليين

يخشون أن يستخدم القانون لاستهداف البرازيليين العرب و"أعضاء ما يعتبره [المسؤولون البرازيليون] حركات اجتماعية مشروعة تقاتل من أجل مجتمع أكثر عدلاً". كذلك رفضت البرازيل "عدة طلبات" تهدف لإيواء أشخاص أطلق سراحهم من سجن غوانتانامو -مسلمي الأويغور- لأن الولايات المتحدة لم تكن ترغب في عودتهم إلى الصين. كما رفض المسؤولون البرازيليون "بشدة" الادعاءات الأمريكية بوجود أنشطة إرهابية في بلادهم، وأرسلوا برقية في عام 2009م إلى السفارة الأمريكية في برازيليا ذكر فيها: "عادة ما تقوم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بشكل منتظم بإطلاق تصريحات غير مؤكدة ومؤذية لسكان منطقة الحدود الثلاثية (11)، ولها تأثير سلبي على السياحة في المنطقة". تواصل لولا مع البرازيليين العرب والمسلمين وظهر في مناسباتهم الخاصة، ليؤكد لهم أنهم فخر "الديمقراطية العرقية" في البرازيل. وقد كان الرئيس يرتدي غطاء الرأس التقليدي ويؤدي رقصة الدبكة اللبنانية وهو يدير العصا فوق رأسه خلال مناسبات المجتمع العربي.

أطلق لولا عدداً من المبادرات بين بلدان الجنوب. وهي مبادرات وصفتها لجنة الشؤون الخارجية كمحاولة لـ "إعادة التوازن إلى النظام العالمي لأجل العالم النامي". وبدأ لولا ببناء علاقات مع الدول الأفريقية والآسيوية للضغط من أجل إصلاح البنك الدولي وقوانين صندوق النقد الدولي. وفي ديسمبر 2003م قام بجولة استمرت تسعة أيام في الشرق الأوسط، ليصبح بذلك أول رئيس برازيلي يزور العالم العربي منذ الإمبراطور دوم بيدرو الثاني، الذي قام بزيارة مماثلة في عام 1876م. زار لولا سوريا، لبنان، الإمارات العربية المتحدة، مصر وليبيا، مع وفد من رجال الأعمال اللبنانيين البرازيليين. قال لولا لمضيفيه: "إذا لم نتحد لن يكون بإمكان أي منا التنافس مع الدول الغنية، لكن معاً سيكون لدينا الكثير من القوة". كان وزير الخارجية سيلسو أموري، أكثر وضوحاً عندما قال إن الهدف من الرحلة هو خلق: "جغرافيا اقتصادية عالمية جديدة"، وبذلك "لن يحتاج إلى المرور خلال واشنطن وباريس للانتقال من البرازيل إلى القاهرة". في عام 2005م، استضاف لولا أول قمة لدول أمريكا الجنوبية والدول العربية في برازيليا. أصبحت البرازيل أيضاً راعية لـ "تحالف الحضارات"، وهي مبادرة للأمم المتحدة أطلقتها إسبانيا وتركيا الدولتين اللتين تريان أنفسهما كجسر بين الإسلام والغرب. وفي مايو 2010م، توسطت البرازيل وتركيا في اتفاق مع إيران لتأجيل عقوبات الأمم المتحدة عليها.

لكن تركيا كانت حذرة من مبادرات القوة الناعمة البرازيلية في فنائها الخلفي وبدأت في التراجع. في أوائل 2000م، كانت المسلسلات البرازيلية والمكسيكية تعرض في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وبحلول عام 2008م،

تفوق المسلسل التركي غوموس (المعروف خارج تركيا باسم نور) على المسلسلات الدرامية في أمريكا اللاتينية. ركز المسلسل على العلاقة بين نور وزوجها الشغوف الذي يتحدى كل الصور النمطية للزوج المسلم "التقليدي"؛ إن استقلالية نور وقصة انتقالها من الفقر إلى الثراء تدل على نمو المجتمع التركي المتزايد وتغير أدوار الجنسين. كما ركز المسلسل الذي تلاه والذي سمي بـ (القرن العظيم) على المؤامرات الجنسية والسياسية لحريم سليمان الأعظم، وأظهر المسلسل مجد الإمبراطورية العثمانية للمشاهدين من غرب أفريقيا إلى باكستان، وتفوق على منافسة الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، والدول العربية. قال الناقد التلفزيوني التركي سينا كولوغلو: "لقد انتهت الإمبريالية الثقافية الأمريكية. قبل سنوات أعدنا صنع مسلسل دالاس وذا ينغ أند ذا رستلس (12)". لكن الكتاب السينمائيين الأتراك قد تعلموا الآن كيف يكيفون هذه المسلسلات مع الموضوعات المحلية للثقافة الإسلامية. يشتري الآسيويون وسكان شرق أوروبا المسلسلات التركية، ولا يشترون الأمريكية أو البرازيلية أو المكسيكية. إنهم يحصلون على قصص الخداع والأطفال نفسها الذين يتم إنجابهم خارج إطار الزواج والعلاقات المحرمة، ولكن مع صلصة تركية فوقها".

مواطنة السامبا

وقفت أنا باولا مينيراتو أمام سرب من الصحفيين والكاميرات خلال موكب سامبودرومو في ساو باولو في فبراير 2011م. كانت ترتدي تاجاً مرصعاً باللؤلؤ، مع حذاء المصارعين ذي الأربطة، وسلاسل ذهبية حول عنقها، ولا شيء آخر. قالت: "أنا أمثل تقاليد الزفاف العربي؛ حفل زفاف من دبي"، ثم ابتسمت بينما يضع فنانٌ طلاءً أسود على بطنها. كان ثدياها مغطيان باللونين الأسود والأحمر، مزينان بالألماس والياقوت؛ وغطت طبقة من الطلاء الأسود على شكل حلقات قطرية فحذيها وأردافها. زين خط أرابيسك بطنها وساعديها. قالت: "سأعرض لكم الآن سامبا دبي"، قفزت وقامت ببضع خطوات سريعة، ثم اختفت في حشود الراقصين وقارعي الطبول.

تدرس أنا باولا البالغة من العمر تسعة عشر عاماً في مدرسة (صقور الإيمان)، وهي مدرسة سامبا رفيعة المستوى، كما أنها ملكة سامبا طموحة. (لقبها الآن هو (الملهمة)، ولذلك هناك أجنحة ريشية ضخمة معلقة على كتفيها). قدمت مدارس السامبا في الكرنفال مواضيع وحبات مختلفة، وسردوا القصص عن البرازيل. في عام 2011م، كان موضوع صقور الإيمان هو الاحتفال على طريقة دبي، "الدورادو الشرق"، نظموا عرضاً بصرياً رائعاً ومذهلاً دمج الحميمية البرتغالية والاستشراق. ضمت هذه التظاهرة الرائعة أربعة آلاف من

قارعي الطبول والراقصين، ستة وعشرون شركة رقص وخمس عربات كرنفالية تتبختر عبر سامبودرومو، كانوا يصيحون "مدينة المستقبل" و"حلم الملك مكتوم". عزف مغنو السامبا -الذين كانوا يرتدون الملابس الحريرية وأغطية الرأس العربية، ويضعون نظارات داكنة- على الماندولين، وهتفوا: "الثروة، الجمال، والثقافة العربية!". تبختر البدو الراقصون على الإبل المحشوة، والغلمان في سترات مطرزة، والمتشبهون بالنساء الذين تخرج فروع نخيل من عماماتهم بين عربات الكرنفال.

صورت عربات الكرنفال ارتقاء دبي من مملكة قديمة إلى قوة اقتصادية حديثة بطريقة ساحرة وصارخة: طفل حديث الولادة يستكشف العالم، صقر ذهبي ضخم يرتدي سماعات الأذن، أبو الهول يتأرجح على دولاب هوائي ملتب، ومجموعة من ناطحات السحاب اللامعة التي تمثل قوة دبي المالية. آخر عربة كرنفالية كانت تمثل قصراً شرقياً به مآذن وأقواس ذهبية. يلوح في الأفق فوق الأبراج تمثال للشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، الحاكم الحالي لدبي. كانت رؤية ملكات السامبا شبه العاريات -بملابسهن الداخلية المثيرة، الريش، وأغطية الرأس المفكوكة- وهن يرقصن فرحاً أسفل تمثال الشيخ مكتوم الملتحي، بينما ذراعه الروبوتية تلوح للناس مشهداً صادمًا. ولكن لم يبد الحشد مندهشاً. ثلاثون ألف متفرج -كثيرون منهم يرتدون زي الشيوخ أو النساء المحجبات- كانوا يرقصون ويضربون الدفوف، ويهتفون لـ "الربيع العربي"، كما أسموه.

لكن على بعد آلاف الأميال، تم الإطاحة بمبارك في مصر وأسقط ابن علي في تونس. والآن سيبدأ الشرق في التقدم كالبرازيل؛ أو أن الأمر بدا كذلك.

منذ الثلاثينيات مثّل الكرنفال مجازاً للبرازيل. تروي العربات الكرنفالية ومدارس السامبا فيه وضع البلاد في الوقت الحاضر. يقول باحث برازيلي: "إن النساء العاريات والمغريات يمثلن تحول الفضاء العام إلى منزل كبير". تمتزج طبول ورقص الأفرو-برازيليين وأزياء السكان الأصليين في عائلة رمزية واحدة لمدة أربع ليالٍ قبل الصوم الكبير واحتفال الكنيسة الكاثوليكية. يرى المسؤولون البرازيليون - والنخب الثقافية - السامبا كصوت للأمة، صوت يمتص ثقافات جديدة ويحافظ على السلام الاجتماعي. ليس من المستغرب أن جنون ما بعد الحادي عشر من سبتمبر للأشياء الشرق أوسطية وجد طريقه إلى الكرنفال. الآن يرى المرء التشابكات الاستشراقية، المزيد من الإشارات إلى الأشياء العربية والإسلامية، سواء كانت أوشحة الرأس والعصيان أو الراقصات اللاتي يطلق عليهن "حبيباس"، وهو اسم يمزج السامبا مع الرقص الشرقي. كان تسليط الضوء على الإسهامات العربية

والإسلامية في الكرنفال جزءاً من الاستجابة المحلية لخطاب الحرب على الإرهاب. في يونيو 2010م، نشرت مجموعة من ناشطي الرقص في ريو دراسة حول التأثيرات "العربية الإسلامية" في "الثقافة الجسدية" للمدينة، وذكروا أصلاً مغرباً للآلات الموسيقية المختلفة المستخدمة في السامبا، وأشاروا إلى أن أغاني المسيرات في الكرنفال (مثل أغنية المغني اللبناني أنطونيو غابرييل ناسارا في عام 1941م "الله / لقد عبرنا الصحراء / كان علينا أن نصلي / يا الله")، تُظهر أن المسلمين كانوا حاضرين في ولادة السامبا في الأحياء الفقيرة في ريو.

حفزت هذه المحبة للإسلام الدبلوماسية الجديدة في البرازيل. أعلن الرئيس لولا في أول خطاب له حول السياسة الخارجية في عام 2003م، أن: "التراث الغني للحضارة العربية الإسلامية كان حاضراً عند ولادة البرازيل، نظراً لتأثيره القوي على شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث بشر البرتغاليون". أصبح فرييري جزءاً من الحوار الوطني مرة أخرى. أقيمت احتفالات لفرييري وأعماله في السفارات البرازيلية في أفريقيا والشرق الأوسط. وخلال إطلاق الترجمة العربية لكتاب فرييري "العالم الجديد في المنطقة الاستوائية"، أشاد سفير البرازيل في المغرب بالمتقف الذي: "شكل الطريقة البرازيلية للوجود". وفي الداخل بدأ البرازيليون - كما يحدث كل بضعة عقود - يبحثون عن "الوجود الموريسكي" في دماهم. تم النظر إلى فرييري الآن باعتباره متبصراً. وقال الباحث أنطونيو كامبوس في افتتاح مهرجان أدبي في نوفمبر 2011م تكريماً لعالم الأنثروبولوجيا الراحل: "رأى فرييري النمط الشرقي في البرازيل، وتوقع عودة ظهور الإسلام في العالم. وتوقع ظهور برازيل جديدة ومتقدمة، برازيل هجين، بها قدرٌ أكبر من التسامح والعرقية والتعايش الثقافي". ازداد ظهور الموريسكية المسحورة "الشخصية الفولكلورية البرتغالية" التي ظلت تنجرف داخل الخيال البرازيلي على مر القرون: في الهيئة الخلاسية البديعة (التي تزين الآن بالوشم العربي)؛ في فتاة محجبة تقدم أداءً مغرباً في مسلسل درامي؛ عندما تؤدي الحبيباس الرقصات في ساحة مدينة ساو باولو؛ وكروح يتم استدعاؤها في القراءات الشعرية.

ظهرت أسطورة الموريسكية المسحورة في الفولكلور البرتغالي والإسباني منذ 1500م حتى أوائل القرن العشرين. لا نعرف كيف أو متى ظهرت المسحورة؟ يقول بعض المؤرخين إنها ظهرت في جنوب إيبيريا خلال العصر الموريسكي. ويدعي آخرون أنها ولدت خلال سقوط الأندلس، بعد أن وقعت الأميرة الموريسكية في حب فارس مسيحي. شوهدت الموريسكية في كثير من الأحيان في البرتغال وفي المناطق الجنوبية والغربية من إسبانيا، ويحدث ذلك عادةً عشية عيد سان خوان (القديس يوحنا المعمدان). يتم

رصد الفتاة ذات الشعر الداكن، بالقرب من نهر أو كهف وهي تسرح شعرها بمشط ذهبي. تنادي للحصول على المساعدة، وتحدث البرتغالية (أو الإسبانية) بلكنة الموريسكيين. سُمِّل الموريسكية بواسطة المستوطنين الإسبان والبرتغاليين إلى الأمريكتين وسرعان ما سيتم مشاهدتها في العالم الجديد، وستجد طريقها إلى الشعر الكوبي والخيال البرازيلي.

لم تكن الموريسكية المسحورة مجرد شخصية من خيال الذكور البرتغاليين. أظهرت دراسات جديدة أن محاكم التفتيش (13) قد وصلت إلى العالم الجديد واستهدفت الموريسكيين. وفي عام 1501م وبعد أقل من عقد من نزول كولومبوس في جزيرة هيسبانيولا، أصدرت الملكة إيزابيلا في إسبانيا مرسوماً يأمر حاكم هيسبانيولا بحظر اليهود والموريسكيين "المسيحيين الجدد"، والزنادقة من دخول الأمريكتين. كانت الملكة قد طردت المتمردين الموريسكيين من ألبوغاراس (1499-1501م)، وبينما هرب المسلمون واليهود شرقاً نحو الإمبراطورية العثمانية، خشي الملوك الإسبان أن يتسلل هؤلاء المنبوذون الدينيون إلى السفن في إشبيلية ليهربوا إلى الأمريكتين. آخر شيء أراده فرديناند وإيزابيلا هو أن تتواصل معركتهم التي امتدت لقرون طويلة مع الإسلام في العالم الجديد. وقد اتخذوا تدابير كبيرة لحظر استقدام المسلمين. تم إصدار العديد من المراسيم الكنسية، (في الأعوام 1501، 1532، 1543، 1550، 1577م) لوقف تدفق "العبيد البيض" (Esclavos blancos)، كما كانوا يسمون الموريسكيين، وتم ترحيل أولئك الذين تسللوا إلى العالم الجديد. رأى الغزاة الإسبان والبرتغاليين الموريسكيين كـ "عملاء للإسلام، عنيدون ومتمردين"، وكانوا يخشون تأثيرهم المتطرف على العبيد من غرب أفريقيا.

لم تواجه النساء الموريسكيات الاضطهاد نفسه. أصدر الملك فرديناند في عام 1512م أمراً بإرسال الموريسكيات إلى الأمريكتين من أجل تجنب "العلاقات الجسدية بين المستعمرين ونساء الأمريكيين الأصليين". وأصدر المسؤولون الإسبان والبرتغاليون تراخيص بأن تنقل هؤلاء المواطنات من إيبيريا إلى الأمريكتين للعمل في بيوت البغاء. وحالما وصلن بدأ المستعمرون بإنشاء بيوت البغاء في جميع أنحاء الأمريكتين. وفي عام 1526م، أذن تشارلز الأول بإنشاء بيت بغاء للموريسكيات في سان خوان، بورتوريكو، وكان الداعي مرة أخرى تجنب الاختلاط بين الإسبان ونساء الشعوب الأصلية. عمل ازدیاد الطلب على المرأة الموريسكية على جعل تنفيذ قرارات الكنيسة صعباً على أرض الواقع. في عام 1543م، وعندما أصدر أمرٌ يدعو إلى ترحيل الموريسكيين المستعبدین، طلب المستوطنون في هيسبانيولا إلغائه، "لأن

العبيد والأحرار من هذه الخلفية كانوا قليلين ومفيدة جداً في مجموعة متنوعة من المهن". وألغى الأمر في عام 1550م.

لعب هذا الخيال الاستشراقي دوراً حاسماً في تشكيل الهوية الوطنية البرازيلية. من الجائز بالتأكيد، كما إدعى فريري، أن نساء الشعوب الأصلية ذكروا المستعمرين البرتغاليين بالموريسكية، أو الفتاة المغاربية. فقد اعتقد الغزاة أنهم كانوا بالقرب من "الشرق"، وغالباً ما فسروا ما رأوه في العالم الجديد بخبرتهم مع العدو الإسلامي. كثيراً ما تم الخلط بين نساء الشعوب الأصلية والموريسكيات. في نيو ميغسيكو. وصف الفاتح الإسباني هيرناندو دي ألفارادو أكواخ الهنود الزونيين (kivas) بأنها "مساجد" وزوجاتهم بأنهن "نساء موريسكيات". لكن الغزاة لا قوا نساء الشعوب الأصلية في وقت كانت فيه النساء الموريسكيات متواجدات ويلعبن دوراً اجتماعياً محدداً. تم استيعاب الموريسكيات اللاتي جُلبن إلى العالم الجديد تدريجياً -من خلال الزواج- في الفئة الإسبانية والبرتغالية، ولم يواجهن العنف الذي عانت منه المرأة الأفريقية؛ بحلول القرن السابع عشر، عني مصطلح الموريسكية (المغاربية) ببساطة ابنة امرأة خلاسية ورجل إسباني. ومع ذلك، فإن الإغواء الموريسكي ظل جزءاً من الأساطير الكاثوليكية والأساطير الوطنية في أمريكا اللاتينية.

أحب المسلمون البرازيليون فريري ومفهومه للاستمرارية الموريسكية عبر المحيط الأطلسي لفترة طويلة. لكن المهاجرين المسلمين قدموا هذه الحجج قبل أن يبدأ فريري في الكتابة؛ ففي عام 1929م، عندما كانت جمعية المسلمين المُحَسِّنِينَ تجمع الأموال لبناء مسجد في ريو، وصف قادة المجتمع البرازيل بأنها "الأندلس الثاني". خلال سنوات فارغاس، عندما جربت الحكومة لأول مرة أفكار فريري، اتبع البرازيليون العرب الخط الرسمي الذي يقول بأنهم مألوفون ولكنهم غريبون، لأن "الثقافة العربية القديمة أدمجت نفسها في البرازيل من خلال البرتغالية والإسبانية". هناك قادة اليوم في المجتمع العربي والإسلامي يرون الكرنفال باعتباره أمراً حيوياً لمزيد من الاعتراف بهم، ويتحدثون جدياً عن وجودهم الاجتماعي داخل تقاليد السامبا.

يقول أوزوالدو تروزي، عالم الاجتماع في جامعة ساو كارلوس: "يمكنك سماع تأثير موريسكي في الكرنفال. المندولين البرازيلي (Bandolim) المستخدم في السامبا هو سليل آلة العود، ونحن نسميها Alaúde باللغة البرتغالية. هذه الآلة لها سلالة في جميع أنحاء الأمريكتين - التريس الكوبي، شارانغا الأنديز". يتحدث تروزي بفخر عن العناصر العربية التي تناولها

الكرنفال: "الدف كذلك: الدف المربع المستخدم في السامبا يأتي من الدف العربي. فقد سافرت الآلة من شمال أفريقيا إلى إيبيريا، ثم عبرت المحيط الأطلسي لتختلط مع كل شيء آخر".

ولكن هذا الخطاب عن تمازج الأجناس وودية السامبا يثير قلق آخرين. رغم أن الإيروتيكية العامة ليست ما يسبب الخلاف. معظم المنظمات الإسلامية الرئيسية في البرازيل محافظة أو سلفية أو من جماعة التبليغ ورغم ذلك لم تكن هناك احتجاجات للمسلمين حول تصوير الإسلام في الكرنفال؛ حتى بعد أن ألغت الحكومة البرازيلية في عام 2010م، قانوناً يحظر الرموز الدينية من الظهور على منصات العربات الكرنفالية وبدأ ظهور رموز دينية أكثر في المهرجان. كان المسلمون البرازيليون المحافظون مثلهم مثل أمثالهم الإنجيليين والأرثوذكسيين اليهود يمتنعون من فكرة أن البرازيل تشكل "الديمقراطية المثيرة"، وقاموا بمغادرة المدينة خلال أيام الكرنفال، آخذين معهم أطفالهم إلى "المعتكفات الحلال" و"التخييم الإسلامي".

أوضح سامي أدغيرني مراسل فولها دي باولو، الذي نُقل من فرنسا إلى البرازيل في منتصف ديسمبر من عام 2000م: "إنه لأمر غريب حقاً. الأشياء التي تجعل المسلمين يحتجون في أوروبا - الجنس، الرسوم الكاريكاتورية، وما إلى ذلك. هذه الأمور لا تسبب أي ضجة في البرازيل، السبب هو أن المسلمين مرتاحون جداً هنا. أعتقد حقاً أن البرازيل هي أفضل مكان للإسلام في الغرب. لقد ازداد عدد السكان المسلمين، وهناك القليل جداً من العداء. لكن المشكلة هي أن السرد الاحتفالي لتقدم البرازيل وازدياد المظاهر الشرقية يتجاهل صعود الإسلام بين الطبقة الفقيرة هنا".

يقوم المسؤولون البرازيليون والنخب الثقافية بنشر ثقافة السامبا، والكرنفال، والثقافة الأفرو-برازيلية لخلق روح الود الاستوائية، لكنهم يمحون خلال ذلك الكثير من التاريخ وهذا هو ما يزعج المسلمين الأصغر سناً. إن مجاز الفتاة الموريسكية السمراء - التي قال فريري إنها تشكل محور الأساطير الوطنية البرازيلية، وتظهر المكونات الإيبيرية والشرقية والأفريقية والأمريكية الأصلية - متجذرة في الموريسكا كشكل للتسامح الجنسي، وقد تحول المجاز إلى شخصية شهوانية أخرى، وهي ذوو الدم الخلاسي، الذين تم استغلالهم بالمثل من قبل المستعمرين.

يتساءل النقاد النسويون، لماذا حول الأب المؤسس والمفكر البرازيلي "الموريسكية المسحورة"، التي عادة ما تجلس على الضفاف وساقبها معقودتين كدليل على الاحتشام الإسلامي إلى امرأة "تباعد بين ساقبها"؟

في روايته، يستكشف ألبرتو موسى الباحث اللبناني البرازيلي، وأحد الروائيين البارزين في البلاد، مفارقات الأساطير الوطنية البرازيلية، ويبحث في العنف، بيوت البغاء، والجرائم الجنسية، التي شكلت الأمة؛ كما يجادل المؤرخ المحترم للكرنفالات منذ زمن طويل أن السامبا هي الشكل الملحمي الحقيقي الوحيد الذي تم إنشاؤه في البرازيل، وأنها شكلت أمراً حاسماً في نشر التاريخ الأفرو-برازيلي. لكنه ينتقد علناً "السامبا الوظيفية" في كرنفالات ريو وساو باولو الكبرى، معرباً عن أسفه لـ "الشعر المفقود" للكرنفال الذي ساعد على النهوض بالمجتمعات المهمشة.

يبدو أن هذا هو الرأي المتزايد بين المسلمين في البرازيل: تصوير الكرنفال للمسلمين مهم للاندماج الثقافي، ولكن التصوير الذي يتركز على التأثير السوري اللبناني، والتزاوج الإسلامي، ونهوض تركيا أو دبي، هو محاولة لتلطيف الماضي.

الفصل الثاني

أسرارُ الشُّكر

أبحرت باخرتان إلى ميناء ريو دي جانيرو في خريف عام 1865م. وقد انطلقتا من القسطنطينية في سبتمبر من العام نفسه، متجهتين إلى البصرة في العراق الحديث، لكن الرياح القوية دفعتهما بعيداً عن الساحل الأفريقي نحو أمريكا الجنوبية. رحب الإمبراطور البرازيلي دون بيدرو الثاني (14) بالسفن البحرية العثمانية ببروتوكول رسمي مفصل ومسيرات عسكرية ومدافع في شوارع ريو، ذلك أنه كان مسحوراً بالشرق وكان يدرس اللغة العربية والسنسكريتية. في اليوم التالي نزل ضباط البحرية العثمانيين إلى الشاطئ لمشاهدة معالم المدينة يرافقه العالم الديني عبد الرحمن البغدادي المولود في بغداد والذي عينه السلطان العثماني لإقامة الصلاة للبحارة.

بينما كان البغدادي يتمشى عبر ريو، ويتجول في "حدائق ومنتزهات" المدينة الجميلة، قابلة برازيلي أسود وحيّاه قائلاً: "السلام عليكم". كتب البغدادي، "لقد وجه لي هذه التحية على وجه التحديد لأنني كنت أرتدي الجلباب والعمامة، لأبين وضعي كعالم، لكنني لم أرد تحيته، لأنني اعتقدت أنه تعلم هذه الكلمات لأصر الرجل البرازيلي على تحيته، ولكن حاجز اللغة منع أي اتصال آخر بينهما. في وقت لاحق من ذلك اليوم، أتى العديد من البرازيليين إلى السفينة للترحيب بالزوار العثمانيين، بما في ذلك بعض "السودانيين" (15)، وقد حيوهم أيضاً بتحيةة الإسلام. عندما حان وقت صلاة العصر، كتب البغدادي: "لقد قمنا لأداء الصلاة وكلهم وقفوا إلى جانبنا... أصبحنا مقتنعين بأنهم مسلمون وأنهم يؤمنون بوحدانية الله. كنا مسحورين جداً ومندهشين أيضاً. ورحبنا بهم وأظهرنا لهم الكثير من الاهتمام".

عرف البغدادي من خلال مُترجمه- يهودي مغربي استقر في ريو- عن وضع "السود في أمريكا". وعلم أن أكثر من خمسين مليون أفريقي جلبوا من غرب أفريقيا في "سفن فرنجية" إلى شمال وجنوب أمريكا؛ وأن العبودية تسببت في نشوب حرب بين الولايات المتحدة الشمالية والجنوبية انتهت بتحرير عبيد أمريكا؛ وأن معظم العبيد في البرازيل أحرار، بينما ظل آخرون قيد العبودية. أخبره أيضاً أن المسلمين في ريو - والذين يقدر عددهم بخمسة آلاف - قد نسوا تقاليدهم الإسلامية ويريدون تعلمها منه مرة أخرى. زار البغدادي منازلهم، وشعر بالفرح لأن هؤلاء المسلمين الذين كانوا صغاراً جداً

عندما أتوا إلى البرازيل، لا يؤدون الصلاة بشكل صحيح ويشربون النبيذ بانتظام.

قرر البغدادي أن من واجبه إعادة تعريف البرازيليين بأسس إيمانهم. لكن ربان السفينة رفض خوفاً من التسبب بأزمة دبلوماسية بين الإمبراطوريتين، العثمانية والبرازيلية. قال الربان للبغدادي: "يجب أن تعرف أن البروتوكول بين الدول واضح ويحدد أن كل بلد تسيطر على الدين في أرضه، وبين مناطقهم ووديانهم"، وأن المسلمين من البرازيل "يخفون دون تعمد معتقداتهم الإسلامية، ويخافون جماعات الفرنجة كثيراً لأنهم يعرفونهم علناً كمسيحيين". وحذر الربان العالم: "إذا سمحت لك بالذهاب إلى هؤلاء الناس وقبض عليك قادة هذه المجموعات المسيحية، لن أستطيع تجنب اللوم من السلطات العثمانية".

قرر البغدادي البقاء على أي حال. وتعلم قليلاً من البرتغالية وخلال الأشهر الستة اللاحقة ترحل الإمام في جميع أنحاء البرازيل، زار المجتمعات الإسلامية المختلفة، وطرح ملاحظاته. اكتشفت مؤخراً المخطوطة التي كتبها البغدادي في عام 1871م، بعنوان تسليّة الأجانب - في مكتبة ولاية برلين وتمت ترجمتها - وتعتبر وثيقة مهمة للغاية، تقدم نظرة نادرة لأمريكا اللاتينية من خلال عيون رحالة عربي في القرن التاسع عشر، فتن بالهندسة المعمارية البرازيلية، وقطار البخار، والمناظر الطبيعية، و"خمسون نوعاً من الفواكه التي لا وجود لها في الشرق"، بالإضافة إلى أصناف الطعام (كانت الفارينها التي يأكلها البرازيليين تذكره بـ"العصيدة" التي نشأ علي تناولها)، وطرق معيشة الأمريكيين الأصليين. كما قدم النص مقلاً غنياً عن حياة المسلمين في البرازيل بعد ثورة العبيد عام 1835م وفي أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية، بينما كان بيدرو الثاني يفكر في إلغاء العبودية.

عددٌ كبيرٌ من العبيد - ما يقدر بـ 7% إلى 8% - الذين جلبوا إلى العالم الجديد مسلمين. وقد كشف المؤرخون عن نصوص كتبها العبيد المسلمون باللغات العربية والإنجليزية والبرتغالية في العقود الماضية، لتسلط الضوء على العدد الكبير من السكان الأفارقة المسلمين المستعبدين عبر الأمريكتين. كثير من هؤلاء الأفراد كانوا يعرفون اللغة العربية وكافحوا للحفاظ على إيمانهم، من صيام رمضان، وكتابة القرآن من الذاكرة، وأحياناً حتى إعلان الجهاد ضد ملاكهم. منذ أواخر الثمانينيات، تركزت معظم الكتب البحثية عن العبيد المسلمين حول أمريكا الشمالية؛ ولكن في العقد الأخير، يعيد علماء أمريكا اللاتينية - وهو أمر استلهم جزئياً من المناقشات الأكاديمية الأمريكية - النظر في فترة الاستعمار المبكرة في منطقتهم. ويشير المؤرخون إلى أنه كثيراً ما

مُنح العبيد المسلمون في منطقة البحر الكاريبي وفي أمريكا الشمالية مناصب متميزة نسبياً في المزارع، بينما وسمت حياة العبيد المسلمين في أمريكا اللاتينية بـ"القمع السياسي الشديد". وقد ذكر أن المستعمرين الأيبيريين يواجهون صعوبة في التعامل مع العبيد المغاربة على وجه الخصوص، وأنهم سوف يبدؤون في استيراد العبيد من غرب أفريقيا. ولكن حتى هؤلاء تعرضوا للاضطهاد عندما كان يشتبه في أنهم مسلمون. من ناحية أخرى، نظر المستوطنون الفرنسيون والإنجليز للمسلمين الأفارقة بشكل إيجابي؛ وقد كان لقاءهم مع الإسلام في الأمريكتين جديداً، وليس استمراراً لسقوط الأندلس (16).

يعود افتتاح الجنوب الأمريكي (ما قبل الحرب) بالمسلمين الأفارقة لتعلمهم اللغة العربية. ترك بيلالي محمد، وهو عبد من جزيرة سايبلو قبالة ساحل جورجيا، علامة دائمة في الخيال الثقافي الأمريكي. ونظراً لقدرته على الكتابة وصفاته القيادية ثم تعيينه مديراً لمزرعة سيده، وأشرف على ما يقرب من خمسمائة عبد؛ اكتسب بيلالي شهرة بعد حرب عام 1812م، التي نجح خلالها هو وثمانون عبداً يقتال البريطانيين ومنعهم من غزو سايبلو. ولقد اشتهر أيضاً لكتابته نصاً عربياً عن الشريعة الإسلامية، ووضعه في تابوته مع مصحفه وبساط الصلاة. كانت قدرة بيلالي على الكتابة دائماً مصدراً للدهشة؛ أصبح بيلالي موضوعاً لكتب الأطفال، وأشيد به في مذكرات المعاصرين، وشكلت قدرته على الكتابة تحدياً للأيدولوجية التي يقوم عليها نظام العبودية الذي رأى الأفارقة فاقدين للمنطق.

أنفق كتاب ما قبل الحرب ومالكو المزارع قدراً كبيراً من الطاقة في التوصل إلى سلالة "شرقية" مسالمة من العبيد المسلمين. وصفوا بيلالي من جزيرة سايبلو بأنه رجل عربي - صحراوي - عمل نخاساً للعبيد". كما أوضحت مجلة بروفيدنس في عام 1846م أن عمر بن سعيد - وهو عبد مسلم من ولاية كارولينا الشمالية، كتب سيرة ذاتية رائعة في عام 1831م - كان (مشرقياً) أيضاً: "إنه عربي بدم ملكي"، استعبده الأفارقة، "الذين كان يكرههم دائماً". ولهذا تم فصل العبيد المسلمين - ومعظمهم من الولوف (17) - أو من أصول فولانية (18) - عن غيرهم من الأفارقة، ليس جسدياً فقط، ولا من خلال العمل والمناصب التي أعطيت لهم، ولكن أيديولوجياً ومعرفياً أيضاً. في أمريكا الشمالية، كتبت سيلفيا ضيوف في عملها الكلاسيكي (عبيد الله) (19): "كان ينظر إلى المسلمين الأفارقة على أن تفوقهم المتصور ليس لجيناتهم، وليس حتى لثقافتهم أو قربهم من العالم العربي، ولكن بسبب دم أجنبي".

كانت تجربة العبيد المسلمين في أمريكا اللاتينية مختلفة اختلافاً جذرياً. لم يكن هناك افتتاح شعبي بكتابات العبيد المسلمين؛ لم يتم إعلاء شأنهم. يقول المؤرخ الكولومبي خايمي بورجا، الذي وصف اضطهاد المسلمين الأفارقة في الساحل الشمالي للبلاد: "كان الإسباني معتاداً على وجود الإسلام كتهديد. لكن مزيج الإسلام والسود مزيج خطيرٌ بحق". مع ذلك فإن القمع باسم النقاء الكاثوليكي لم يغذ سوى التحدي.

تجمع العبيد المسلمون الذين يرتدون (العباءات)، والقلائد، والحلقات الفضية في الطابق السفلي لمنزل مكون من طابقين في سلفادور، شمال شرق البرازيل في الساعات الأولى من يوم 25 يناير 1835م، وفي اليوم الأخير من شهر رمضان. وكانوا يجرون استعدادات اللحظات الأخيرة للانتفاضة التي ستبدأ في غضون ساعات قليلة. كان الاستياء قد تعاظم بين المسلمين في باهيا لسنوات، وجعلت الأحداث الأمور تغلي: ألغت الشرطة البرازيلية قبل شهرين تجمعاً إسلامياً للاحتفال بليلة المعراج، الليلة التي صعد فيها النبي إلى السماء؛ ثم دمروا علناً مسجد فيتوريا المجتمعي المؤقت، واعتقلوا اثنين من قادة المجتمع المحترمين. كان من المقرر إعلان تمرد في اليوم التالي لـ "ليلة القدر" التي تقع في نهاية شهر رمضان، الليلة التي أنزل فيها القرآن. تم تنبيه السلطات البرازيلية إلى المخطط في وقت سابق، واقتحموا المنزل وهاجموا المتمردين. اندلع العنف في جميع أنحاء مدينة سلفادور، مما أسفر عن مقتل سبعين شخصاً، من بينهم خمسون عبداً، وجرح العشرات.

كانت باهيا في شمال شرق البرازيل الوجهة الرئيسية للعبيد المجلوبين من أفريقيا، كما الجنوب الأمريكي. تم استيراد الآلاف من المسلمين خلال عام 1800م، وكان معظمهم من الهوسا (20). الذين أسروا خلال الحروب المستعرة في شمال نيجيريا، وتم جلبهم من خليج بنين إلى باهيا. ومع زيادة أعدادهم تشبع المسلمون بحماسة دينية قتالية قادمة من تأثير الحروب السابقة في أرض الهوسا، ونما الاضطراب في أوساطهم. اندلعت انتفاضات كثيرة، وبلغت ذروتها في تمرد عام 1835م. قُتل تمرد مالي كما كان معروفاً، ولكن طابعه الإسلامي استحوذ على اهتمام الصحف الأمريكية والأوروبية، كصحيفة التايمز في لندن. كشفت المحاكمات وجلسات الاستماع التي عقدت في سلفادور بعد ذلك عن تعقيد الحياة المجتمعية الإسلامية في باهيا في القرن التاسع عشر. وأظهرت الأشياء المصادرة - التماثيل، والوثائق، وعشرات من ألواح الكتابة الخشبية - أنه كان لدى المسلمين مساجد ومدارس، حيث درس الطلاب على يد شيوخ المجتمع الذين كان يطلق عليهم "ألفا". احتفل المسلمون البهائيون بنهاية شهر رمضان من خلال التضحية بالخراف، ومثل نظرائهم في أمريكا الشمالية، كانوا يتبادلون كعك الأرز الذي يطلقون عليه

اسم ساكا. وكما لاحظ المؤرخ مايكل غوميز، فإن المواد التي تم جمعها بعد تمرد مالي كشفت عن أوجه الشبه في الممارسة الثقافية بين المسلمين في البرازيل، وبين نظرائهم الذين يعتنقون الإسلام في أماكن أخرى من العالم الجديد، وتبين أن "اللباس الإسلامي والنظام الغذائي في باهيا كان مميزاً أيضاً، كما هو الحال في ساحل جورجيا وكارولينا الجنوبية".

كانت العقود التي تلت الثورة المالية صعبة. فر كثيرٌ من المسلمين من سلفادور إلى ريو؛ ونفي آخرون إلى لاغوس، نيجيريا. وخلال هذه الفترة وصل البغدادي إلى البرازيل. ورأى العالم العثماني أن المسلمين يعمدون أطفالهم بينما يمارسون دينهم سراً. ناشد الرجال المسلمون "العالم العثماني" بعدم ارتداء الملابس الشرقية بصحبتهم، حتى لا يجذب الانتباه. وقد صدم البغدادي بدوره بالملابس التي ترتديها زوجاتهم. وكتب: "إنهن يفعلن ما يردن تماماً مثل النساء المسيحيات اللاتي يقضين وقتهن في النوم. ويذهبن إلى الأسواق دون تغطية أنفسهن؛ ويشربن الخمر". رفضت النساء البرازيليات التغييرات التي أراد البغدادي إدخالها على الممارسات التقليدية.

عندما سافر البغدادي شمالاً إلى باهيا، لاحظ أن هناك المزيد من المسلمين، وأن الرجال "يخلقون شواربهم ويتركون لحاهم"، ولكل "فصيل" مسلم إمام يلقبونه "ألفا". ولكنه ارتعب من التسامح الجنسي، وتأسف أن المرأة المسلمة في سلفادور تعطي الصدقات للكنيسة ولا ترتدي الحجاب. وذعر بشكل خاص من عادة الرجال في "تجربة" الزوجات المحتملات من خلال العيش معهن قبل الزواج، وذكر أنه أنهى بنجاح هذه الممارسة. سافر العالم العثماني من سلفادور متوجهاً نحو بيرنامبوكو، حيث وجد المزيد من المسلمين، الذين لاحظ أنهم يصلون بشكل صحيح ويصومون رمضان. وقد دفع مسلمو البرازيل الذين استضافوه واستفادوا من علمه خلال إقامته التي استمرت ستة أشهر ثمن رحلة عودته إلى القسطنطينية.

واليوم، عندما يُستعاد المشرق مرة أخرى، بسبب هجرة المسلمين من أفريقيا والشرق الأوسط إلى البرازيل، واحتشاد البرازيليين الأفارقة سياسياً، كثيراً ما يتم ذكر مخطوطة البغدادي عن الحياة الإسلامية. استمر الإسلام بين البرازيليين من أصل أفريقي حتى 1920م، واختفى تماماً عند نشوء الحركات الإسلامية وشبه الإسلامية بين الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة. وعاد للظهور مرة أخرى بين البرازيليين الأفارقة في البرازيل من خلال حركات بنيت على التاريخ الأدبي المالي.

أنبياء المدينة

قال الشيخ المجتمعي فالتر غوميس، الذي يبلغ من العمر 62 عاماً، من ساو برناردو دو كامبو في تّواحي ساو باولو: "ذكر الله في القرآن أن لكل شعب نبياً يتحدث لغته. لذا من يدري؟ ربما يظهر شاب أسود مليء بالاختيال والقوافي في الأحياء الفقيرة؟"

تعد هذه البلدة موطن لحوالي مليوني شخص، يعمل بعضهم في فروع فوردي وفولكس وغن القريبة، ويعيشون في آلاف المنازل المبنية من الطوب الأحمر الممتدة على التلال. غوميس، الذي يعمل في مسلخ حلال، متفائل بشكل مفهوم. وهو ناشط مخضرم في السياسة البرازيلية الأفريقية في ساو باولو، وقد عمل خلال التسعينيات على حث الفصائل المتصارعة على الانضمام إلى حركة إسلامية واحدة. واليوم يقول غوميس الذي يعد جزءاً من مجموعة من المسلمين الأفارقة البرازيليين جذبت الكثير من اهتمام وسائل الإعلام: "إن الإسلام قد سقط في قلب البريفيريا(21)"، مشيراً إلى المحيط الحضري، "ونحن لا نعرف ما سيحدث لاحقاً".

يتركز مجتمع ساو برناردو حول مركز أبو بكر الصديق الإسلامي، الذي أسسه أحمد علي الصيفي، وهو خيّر لبناني برازيلي وصديق مقرب من الرئيس لولا، بنى ثروته من تصدير لحوم البقر البرازيلية الحلال إلى الشرق الأوسط. وقد ارتبطت مجموعة فنية تأسست في منتصف التسعينيات بالمركز الإسلامي "بوس هوسا(22)" في الوقت الذي أصبحت ساو باولو عاصمة الهيب هوب البرازيلي. ويلاحظ الأعضاء عرضاً أنهم اكتشفوا الإسلام والماضي البرازيلي من خلال الهيب هوب الأمريكي - وخاصة الراب الأفروستريست في أوائل التسعينيات.

يقول أونوري الأمين أوكد، مؤسس المنظمة: "تعلمت السياسة عن طريق الراب. واكتشفت مالكوم إكس وتاريخ الماليين. عن طريق الموسيقى. وقد عرفت أن العبيد المسلمين كانوا على مستوى مختلف، كانوا متعلمين، ولم يشربوا، ولم يدخنوا، وكانوا يعرفون كيفية الكتابة. لقد أسلمتُ وذهبت إلى الحج عندما كنت في الحادية والعشرين. وما زلت أعتقد أن الماليين لو تمكنوا من السيطرة على باهيا في 25 يناير عام 1835م، لأصبحت هذه البلاد تحت سيطرتهم، ولأصبحت البرازيل دولة إسلامية".

رُيّن مركز بوس هوسا بلوحات لنساء باهيا في القرن التاسع عشر- وهن يرتدين أغطية الرأس البيضاء، رجل يرتدي طربوشاً وهو يصلي - وجداريات تحتفل بالانتفاضة. توفر المنظمة خدمات اجتماعية، ولكنها تحاول أيضاً إنشاء هوية جديدة للبرازيليين السود. يعتقد أونوري أن بإمكان الإسلام خلق

التضامن، لأن "الهوسا الذين قادوا التمرد كانوا على جوانب مختلفة خلال الحروب في نيجيريا، لكنهم اجتمعوا في باهيا". النشاط في المركز يتعلمون اللغة العربية ويقيمون ورش عمل عن تاريخ باهيا، ويروون لشباب المنطقة كيف حاولت مجموعة من مالي قيادة أسطول من السفن والإبحار إلى غرب أفريقيا عام 1807م؛ كيف استلهمت ثورة 1835م من ثورة هاييتي في 1799-1804م؟ وكيف يمكن للتاريخ أن يمنحهم الكرامة والقوة. إنهم يدركون كيف يتحدى سردهم خطاب "الديمقراطية العرقية"؛ يوضح علي جمال شبار، وهو فنان انتقل من شرق البرازيل للانضمام إلى المجموعة في ساو باولو، قائلاً: "نحن لا نشجع الخطاب العنصري. ولكن لدينا عدد لا يحصى من أمثال ترايفون مارتينز الذين يقتلون كل يوم في هذا البلد، ولدينا شباب سود قتلوا بسبب عنف الشرطة، عنف العصابات - ولا أحد يتحدث عن ذلك. لدينا مشاكل تعود إلى فترة العبودية في المزارع. وبصراحة أولئك الذين يموتون مبكراً في البرازيل هم أولئك الذين لم يعرفوا تاريخهم".

للسكر معنى حلو ومر في هذا المجتمع. في سرد فريريان، يجسد السكر الحسية الشرقية للمزارع البرازيلية. يرتبط السكر بالشرق بالنسبة لمعتنقي الدين الإسلامي الجدد، ولكن بطريقة مختلفة: كان السكر "açúcar" هو جوهر عبودية المزارع، ولكنه كان يربطهم أيضاً بالتاريخ والعالم الأوسع. إنهم يتحدثون بحماس عن الكيفية التي خدم بها السكر الإسلام؛ وأن الغزاة المسلمين في بلاد فارس هم من جلبوا المحصول إلى غرب البحر المتوسط وإيبيريا. (في كتابه الكلاسيكي "الحلاوة والسلطة" (23)، يكتب المؤرخ سيدني مينتز: "يجلب العرب السكر أينما ذهبوا، وقد قيل لنا إن طريقة عمل السكر والتكنولوجيا المستخدمة في إنتاجه؛ نابعة من القرآن الكريم"). استذكرت كلمات الإمام الهافاني أوريستيس فونسيكا، الذي قال لجماعته: "في كل مرة نسمع الكوبيين يقولون بفخر، أنا كوبي مثل قصب السكر، يجب أن نبتسم كمسلمين لأن قصب السكر ليس كوبياً، بل هو عربي، جاء من الشرق الأوسط إلى الأندلس ثم إلى منطقة البحر الكاريبي". يردد أعضاء بوس هوسا هذا الرأي: السكر هو إرث موريسكي، جلبه الغزاة إلى الأمريكتين، حيث كان يزرعه المسلمون المنحدرون من أصول أفريقية. السكر في سرد المسلمين الأفرو-برازيليين - واللاتينيين الأفارقة "مستعاد" بشكل عام - وبالتالي ليس مرادفاً للألفة بين الأعراق، ولكنه تذكير لتاريخ القمع والهوية الإسلامية المفقودة، حيث يمكن استرجاع الأخيرة والتعويض عن آثار الأولى.

يقول عبد الله مالك شبار، الذي يرأس مركز تطوير الإسلام البرازيلي (NDIB) في ساو برناردو: "منذ أن أصبحت مسلماً، لا أشرب أو أدخن ولأطفالي أب

وأم وتعليم وحياة منظمة. يعطينا الإسلام أدوات لمكافحة المشاكل الاجتماعية التي تصيب الأغلبية بيننا، والذين يكونون أفقر من الباقين".

كان نمو الإسلام في البرازيل ملحوظاً. يقول باولو بينتو، عالم الأنثروبولوجيا في جامعة فلوميننسي الاتحادية في ريو: "في عام 2000م، كان هناك 32 مسجداً في البرازيل؛ والآن هناك 150 مسجداً في البلاد. الحرب على الإرهاب، والحرب في العراق، والمسلسلات الدرامية -التي تعرض شخصيات إسلامية إيجابية- أثارت جميعها الاهتمام بالإسلام. وأصبح ينظر إليه على أنه شكل من أشكال مقاومة العولمة والسيطرة. وقد قرر كثير من الناس أن يعتنقوا الدين الإسلامي - وخاصة الذين يصوتون تاريخياً لليسار- التروتسكيين، والاشتراكيين، الذين رأوا الإسلام كعولمة ثالثة جديدة. غالبية المسلمين الموجودين في ريو اليوم من معتنقي الدين الجدد".

كان هذا الرأي عن الإسلام باعتباره "يساراً جديداً" نادراً في الأحياء الفقيرة في البلاد، فعلى مدى السنوات الثلاثين الماضية كانت الحركات الإنجيلية هي التي حققت نجاحات. نشرت مجلة إيبوكا في يناير 2009م تغطية بعنوان "الإسلام ينمو في محيط المدن البرازيلية"، وتساءلت: "أصبح الشباب السود نشطاء مسلمين كاستجابة لعدم المساواة العرقية. ما الذي يفكرون فيه؟ وماذا يريد مسلمو الأحياء الفقيرة؟". كما ذكرت السفارة الأمريكية في برازيليا أن "التحول إلى الإسلام أخذ في الارتفاع بين المواطنين غير العرب". ومن المثير للسخرية هنا أن التدفقات الثقافية الأمريكية - (الهييب-هوب) وفيلم (سبايك لي) عن مالكوم إكس- هي التي أثارت اهتماماً بالإسلام بين شباب الأحياء الفقيرة.

يقول أونوري، وهو يبتسم: "ليس من المستغرب أن ترى الإسلام في الأحياء الفقيرة لساو باولو، هذا هو مسقط رأس الهييب هوب (24) البرازيلي، وفي هذا البلد، الهييب هوب لديه ميزة أخلاقية على الفنانك (25)".

ظهر الهييب هوب والفانك كصوت للأحياء الفقيرة مع التحول الديمقراطي في البرازيل في أواخر 1980م، مما شكل تحدياً لهيمنة السامبا. كانت جذور الراب في ساو باولو، بينما تطور الـ "فانك كاريوكا" في ريو؛ سخر النوعان من الأداء الديمقراطي الممثل في الكرنفال، موسيقىو الفنانك، على وجه الخصوص، انتقدوا عنف العصابات واللجان الأهلية من خلال كلمات أغانيهم الفخر. استُحدث الفانك البرازيلي من نوعين من الموسيقى الأمريكية: نوع من الراب يسمى ميامي باس (المعروف أيضاً باسم "باس المؤخرات" بسبب كلماته الجنسية الصريحة) ورقص البوب الإلكتروني المعروف باسم الأسلوب

اللاتيني الحر، والذي ولد أيضاً في جنوب فلوريدا في منتصف عام 1990م، سافر منسقو الموسيقى من ريو إلى ميامي لجلب أحدث ألبومات الراب، وأنشؤوا موسيقى هجينة تختلف عن الفانك التقليدي الذي قدمه المغني جورج كلينتون في 1970م. بدأ الفونكيروس بإقامة الحفلات في الهواء الطلق في الأحياء الفقيرة في ريو، فأتاهم الشباب من مختلف الأماكن البعيدة وألهموا كثيراً من الراقصين الجدد. في عام 2001م، أصبح "رقص القطار" (ترينزنيو) شائعاً، اصطف الشبان والشابات وتمايلوا وهتفوا وهزوا أردافهم مع الإيقاع.

أصبح الكريو هو الصيحة الأحدث في عام 2008م: حيث يغني مطرب راب بينما تتمايل راقصة أو اثنتان في سراويل صغيرة لإظهار السرعة التي يمكن أن يبلغنها، "كريو، كريو، كريو!".

هذه الخطوات الراقصة - والتي غالباً ما يرافقها الصياح والقرع - بعيدة كل البعد عن السامبا الإغرائية. بدأ رد الفعل العنيف عندما أصبح شباب الطبقة الوسطى يمارسون رقصة القطار، وصارت أغاني مثل "صغيرتي مار" و "صفعة صغيرة لا تؤذي" تذاع أكثر على الراديو. تم إلقاء اللوم على الفانك، كسبب للاضطرابات المدنية والانحياز الاجتماعي. "لقد أصبحت حاملاً خلال رقصة القطار"، كان هذا هو العنوان الرئيس في مجلة فيجا المحافظة. عنوان آخر، "الفانك مع سجل إجرامي". كان من بين المشكلات أن عصابات المخدرات تمول حفلات الفانك الأسبوعية والأشرطة المسجلة لتجذب المزيد من المجندين الشباب؛ كما حيا بعض منسقي الموسيقى بشكل علني عصابات مثل "القيادة الحمراء". بدأت الشرطة بمداهمة الحفلات في الأحياء الفقيرة. وتم إطلاق قانون في عام 2007م -تم إلغاؤه لاحقاً- جعل إقامة حفلات الفانك في الهواء الطلق في الأحياء الفقيرة مستحيلاً.

يظهر الهيبة هوب والفانك التصدع في المجتمع البرازيلي ويسلط الضوء على الشقاق في الوداد الوطني الذي كان من المفترض أن يثبت السامبا. كان فنانون الهيبة هوب سياسيون أكثر، ولذلك فقد بنوا المنظمات وعملوا مع مسؤولي الأحزاب. اعتقد نشطاء بوس هوسا حقاً أنه من خلال الهيبة هوب المتأثر بالإسلام، وبدعم من حزب العمال الذي يمول منظمات الراب فإن بإمكانهم توجيه الانتباه نحو عدم المساواة العرقية، "هداية الفونكيرو" (26)، بل وحتى تحدى الإنجيليين في الأحياء الفقيرة والسجون. عقد أونور وفريقه ورش عمل حول تاريخ مالي في السجون على الصعيد الوطني؛ أرسلوا الكتب والعباءات والعمائم إلى السجناء الذين اعتنقوا الإسلام؛ وأنشؤوا غرف صلاة (Musallas) في مختلف الأحياء الفقيرة؛ وصاروا

يضغطون على الحكومة المحلية للاعتراف بـ "أغسطس الأسود" كشهر للاحتفال بالتاريخ الأفرو-برازيلي.

لاحظ مراقبو البرازيل أن معتنقي الإسلام الجدد من الطبقة المتوسطة يتعرفون على الإسلام من خلال المنظمات الصوفية، في حين أن ثقافة الشباب الأمريكيين الأفارقة هي التي تثير الاهتمام في الأحياء الفقيرة. الثقافة الأمريكية - الدينية والوثنية - تلعب دوراً لا يمكن إنكاره في الحياة الدينية البرازيلية. الحركة الخمسينية - التي نشأت من كنيسة أمام متجر في لوس أنجلوس قبل قرن من الزمان - لديها الملايين من الأتباع في البرازيل، وواحدة من نجومها الإنجيليين هي الفنانة الحائزة على جائزة الغرامي ألين باروس. لكن من دواعي السخرية أن الدبلوماسيين الأمريكيين قلقون من ظهور الإسلام بين المجتمعات المنحدرة من أصل أفريقي في البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي، في حين أن الصادات الثقافية الأمريكية هي التي أثارت هذا الاهتمام. مثل هذه الروايات الأمريكية التي تركز على الإسلام في الأحياء الفقيرة تتجاهل عاملاً محلياً حرجاً: وهو الإصلاحات التعليمية التي قام بها الرئيس لولا والحراك السياسي في باهيا اليوم.

بيدو بيلورينيو (الاسم الذي يطلق على مركز سلفادور التاريخي) مبهرراً في الشفق الصيفي. مجموعة من المباني الاستعمارية المنخفضة تطل على المياه الزرقاء الصافية لخليج باهيا. تضاء الممرات المرصوفة بالحصى بلمبات معلقة؛ تشع منازل المدينة الجصية الملونة وواجهات الكنيسة الباروكية بعقب التاريخ. بينما ترفرف الأقنعة الأفريقية مع الريح، وتتعالى أصوات الترومبون والأبواق. يعتبر الكرنفال في مدينة سلفادور القديمة هادئاً مقارنة بريو أو ساو باولو. يحاول الموكب استحضار عصر سابق: الفرق النحاسية تمشي في الأزقة؛ يقرع المراهقون طبولاً مربوطة حول خصراتهم؛ تحمل الفتيات الصغيرات اللاتي ترتدين العصابات البيضاء دمي لمختلف الآلهة -آلهة أفريقية- "متخفين" كقديسين كاثوليك. لا يسمح بدخول أي عربات كرنفالية أو شاحنات إلى المنطقة التاريخية. كذلك تختفي ملكة السامبا المغربية. فالبطلة في هذا الكرنفال هي المرأة البيانية، بغطاء رأسها المميز والتنورة البيضاء. دائماً ما ترتدي المرأة البيانية ملابسها المطرزة وغطاء الرأس في كل مكان في شمال شرق البرازيل سواء كانت تمشي بموكب؛ أو تبيع المياه والغذاء ودمى البيانا؛ أو تعلم السياح كيفية لف غطاء الرأس حول رؤوسهم.

ليس من المستغرب أن غيلبرتو فريري رأى البيانا كرمز هام. فقد كان عالم الأنثروبولوجيا، الذي ولد بعد فترة وجيزة من إلغاء العبودية في بيرامبوكو، شمال باهيا مبهوراً بالماليين ومؤسستهم. في كتابه "الظلام في أكواخ

الرقيق"، كتب أنهم كانوا يديرون المدارس والتعاونيات لشراء حرية بعضهم البعض. ولذلك فسوف تُشكل ثورة عام 1835م رؤيته للهوية البرازيلية. يعتقد فرييري أنه إذا كانت أمريكا الشمالية قبل الحرب أعطت العبيد المسلمين الأفارقة أصلاً "شرقياً" فإن الوجود الإسلامي في باهيا منح الأمة البرازيلية كلها نسباً شرقياً. جلب المالئون، بـ "نارهم المحمدية"، لقاحاً آخر من الحضارة المغربية إلى البرازيل. سحرت المرأة المسلمة الأفريقية في باهيا الرجل البرتغالي - كما فعلت "الفتاة الموريسكية السمراء"، وستبقى كتذكير على النفوذ الإسلامي. أشاد فرييري بالبيان - "طوال القامة، الذين ينم مظهرهم عن الأرستقراطية" - مع شالاتهم البيضاء الطويلة و"عمامة المسلمين على رؤوسهم". لقد عادت هذه العمامة - الروديلا - بشكل كبير في شمال شرق البرازيل. تشكلت فرقة إيلي أبي (27) في سلفادور في عام 1974م. كان هدفها "إعادة أفرقة" كرنفال المدينة، الذي أصبح يهيمن عليه السياح وراقصو السامبا، وهكذا أقاموا عربات كرنفالية احتفلت ببلدان أفريقية مختلفة وحملوا لافتات كتب عليها "القوة السوداء". يقول أنطونيو كارلوس فوفو، مؤسس المدرسة والبالغ من العمر سبعين عاماً: "لقد أردنا أن ندعو مجموعتنا القوة السوداء، ولكن الشرطة الاتحادية والجيش قالوا لا، فقد رأوا أننا راديكاليون جداً، وأمريكيون جداً". تمكنت إيلي أبي وغيرها من الكتل الأفرو-برازيلية من خلال نشاطها من إحياء بيلوريتيو -الذي تم إهماله منذ فترة طويلة من قبل الحكومة- ودفعوا اليونسكو إلى الإعلان عن مركز سلفادور كموقع تراث عالمي في عام 1985م. ولكن رغم ريادتهم وجرأتهم لم تقرر إيلي أبي الاحتفال بالثورة المالية في الكرنفال سوى في عام 2002م. في فبراير من ذلك العام، تجمعت جمهرة من أعضاء المدرسة، نساء يرتدين شالات بيضاء فاتحة وتنانير طويلة يحيط بهن شباب في جلابيب بيضاء، وهم يمشون خلف عوامة معلق بها أقواس مغربية حمراء وبيضاء، ويرددون "ليلة للمجد ربما... باسم الله". تصور الأغنية التي أعدت لهذه المناسبة كيف كان العالم "ليتغير" لو لم تتم خيانة ثورة 1835م. ما فعلته مجموعة إيلي أبي كان سابقة من نوعها. تلقى النشيد علامات عالية من محكمي المهرجان، وسرعان ما بدأت كتل أفريقية أخرى مثل أولودوم ومالي ديبالي، في إعادة سرد الثورة الإسلامية. تجلّى اهتمام البرازيل بالإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بشكل مختلف في باهيا عنه في كرنفالات ريو وساو باولو. في عام 2012، وقف قادة مالي ديبالي على شاخنة كرنفالية، وهم ينشدون: "نحن السود والمسلمون/ المحاربون والثوريون - Somosnegros, Muçulmanos - Guerreiros e revolucionários". من الصعب أن نتصور صرخة حرب مماثلة تتصاعد في كرنفال ريو.

ترجع الإشارات المتزايدة إلى الماضي الإسلامي في باهيا أيضاً إلى إصلاحات لولا. ففي عام 2003م، أصدر الكونغرس البرازيلي القانون رقم 10/639 الذي طالب المدارس العامة والخاصة بتدريس "النضال الأسود في البرازيل والثقافة البرازيلية السوداء، ودور السود في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تاريخ البرازيل"، ونص القانون على أن تحتفل المدارس "باليوم الوطني للوعي الأسود". أثارت المبادرة موجة من البحوث والدعوات لوضع الشخصيات الأقرو-برازيلية في كتب التاريخ المدرسية. كما أن النشاطاء حاولوا مذاك أن يعرفوا المزيد عن حياة أشخاص مثل لويزا ماهين، البيانا المسلمة التي قاتلت في ثورة 1835م. تم حفظ ذكرى هذه "الملكة البرازيلية" في أغنية وثرنية: كانت لويزا تعمل كبائعة نهاراً وناسخة ليلاً وفقاً للقصص المحلية، وقد شاركت في التمرد ولكنها اختفت بعده، وربما تم ترحيلها إلى أنغولا. انتشر الحراك السياسي من باهيا إلى مدن أخرى أيضاً. واليوم في البرازيل، كما هو الحال في الولايات المتحدة، هناك اهتمام كبير بالإسلام القادم من المزارع: يدرّس الأفرو-برازيليين وأطفال المهاجرين المسلمين كتابات العبيد وطقوس الدين الأفرو-برازيلي، ويبحثون في "احتجاجات المسلمين". هل القماش الأبيض الذي تم وضعه في منتصف الغرفة خلال حفل كاندومبلي إرث إسلامي؟ هل تستمد الأنشودة "باريكا باريكا" معناها من كلمة "بركة" العربية، والتي تعني "نعمة"؟ هل عقد احتفالات أومباندو يوم الجمعة هو من موروثات المسلمين؟ هل انعدام ثقة الأفرو-برازيليين في الكاثوليكية - وانجذابهم إلى البروتستانتية - هو تمسك إسلامي، كما اقترح فريري؟

جعلت الحكومة البرازيلية ماضي باهيا مركزياً في الدبلوماسية الثقافية. احتفل لولا بتاريخ الشمال الشرقي عندما خاطب الجماهير المسلمة: "المسلمون الذين جاؤوا إلى البرازيل كعبيد وضعوا الأساس لهذه البلاد". استقبل الرئيس الفلسطيني محمود عباس في باهيا في نوفمبر 2009م، وأشاد الأخير بالبرازيل كمثال للتعايش يمكن أن يتعلم منه العالم. كذلك فإن باهيا محورية للسياسات البرازيلية الجديدة نحو أفريقيا. افتتح لولا - وخليفته ديلا روسيف - المزيد من السفارات في أفريقيا، ووسعوا العلاقات التجارية، وأقاموا كابل ألياف بصرية رمزياً يمتد من باهيا إلى غرب أفريقيا. تهدف مبادرات لولا وروسيف في أفريقيا والشرق الأوسط إلى إظهار مدى تقدم البرازيل في تحقيق "الديمقراطية العرقية"، وأيضاً لدمج الإسلام المتزايد من خلال الهجرة المتصاعدة - الممثل في كرنفالات ريو وساو باولو - مع الإسلام الاحتجاجي الذي نراه في احتجاجات شوارع سلفادور.

تجذب باهيا نوعاً غريباً من السياحة، كما هو الحال في الولايات المتحدة، حيث توجد الآن جولات في جزر جورجيا البحرية يهدف مرتادوها لرؤية أحفاد بيلالي محمد ومشاهدة آثار المسلمين في التقاليد المعمدانية المحلية. أصبح من المألوف هذه الأيام أن نرى المسلمين الهولنديين أو الفرنسيين داخل كنيسة السيدة العذراء في لابينها في وسط مدينة سلفادور، وهم ينظرون بتعجب إلى الكنيسة التي تشبه المسجد: الزخرفة الموريسكية ذات الألوان الزاهية والأنماط الزهرية؛ ومنحوتات للمسيح المفتدي وتمثال للسيدة العذراء في أقواس محفورة. فوق أحد الأقواس يوجد نقش عربي باللونين الأسود والأبيض عكس اتجاه عقارب الساعة حول حافة السقف: "أنتبه، هذه معجزة الله وهذا هو باب السماء". يقول كتيب الكنيسة أن بيت العبادة هذا تأسس في عام 1771م؛ ويروي الدليل السياحي لزوار الكنيسة كيف أن المكان استُخدم كملجأ للعبيد المسلمين الفارين بعد عام 1835م؛ وتقول مصادر أخرى إن الكنيسة تم تصميمها وبنيت في 1860م بواسطة مسلم (من مالي) يدعى مانويل فرياندس. وهذا هو كل ما نعلمه: هل النقش العربي هو مقولة إسلامية وضعها فرياندس داخل نماذج موريسكية؟ أو آية من الكتاب المقدس ترجمت إلى لغة القرآن؟ وهل تواجه الكنيسة الشرق باتجاه مكة المكرمة، اتجاه الصلاة، أو نحو غرب أفريقيا؟

الموريسكي الأطلسي

قُسِمَت الذاكرة الثقافية لإسبانيا الإسلامية (حول مسألة التأثير المغاربي في العالمين الناطقين بالإسبانية والبرتغالية) المثقفين والقادة في أمريكا اللاتينية إلى قسمين منذ فترة طويلة. ابتهج الروائي المكسيكي كارلوس فوينتس بالموروث الثقافي الذي جلبته إسبانيا لأمريكا اللاتينية، و"نهر الأصوات" الذي يسمع في أغنية كاندي جوندو التي استوعبت قروناً من التأثيرات "من أذان الصلاة إلى الرومبا الاستوائية الحديثة". لكن مواطنه أوكتافيو باز الحائز على جائزة نوبل رأى التأثير المغاربي - وتحديدًا "الفكرة الإسبانية-عربية" لكوديلو- باعتبارها جذر العسكرة التي عصفت بأمريكا اللاتينية خلال السبعينيات. في البرازيل، لم يؤمن الاقتصاد والمفكر السياسي المحافظ روبرتو كامبوس بنظريات فريري، وعبر عن أسفه لاستبداد العرب في المجتمع البرازيلي. لكن طوال القرن الماضي، لا سيما خلال الحرب الباردة، دعا زعماء أمريكا اللاتينية من فيدل كاسترو الكوبي إلى خوان بيرون الأرجنتيني للتضامن الإسلامي اللاتيني في مواجهة الهيمنة الإمبريالية، مبرزين العلاقات التاريخية مع الشرق. من جهة أخرى دعا خصومهم السياسيين إلى الابتعاد عن أفريقيا والشرق الأوسط. يكون هناك حديث عن التضامن مع الشرق عندما يكون اليسار القومي صاعداً في أمريكا

اللاتينية، كما كان الحال بعد الثورة الكوبية، ويظهر الموريسكيون (أو الموريس) دائماً.

كان الخلاسيون مركزيين في القومية الكوبية منذ الحقبة الاستعمارية. وقد كان هناك ارتباط بين السكر والشهوانية والجلد الداكن (لون البشرة) كما هو الحال في البرازيل. وضع المصدرون صور خلاسيات على حزم السيجار والسكر لجذب الزبائن الأجانب في القرن التاسع عشر، وكان يتم الإشارة إلى الخلاسيات ذوات البشرة الفاتحة كسكر "من الدرجة الأولى" أو بيض "من الدرجة الثانية". وقد أصبحت الخلاسية رمزاً للاستغلال الاستعماري ومصدراً للفخر عندما بدأ القومبيون الكوبيون يثورون ضد الحكم الإسباني؛ فقد مثلت واقع تمازج الأجناس الذي ميز الجزيرة عن مضطهدها الإسباني. عبّر الوطنيون الكوبيون عن تضامنهم مع المسلمين الذين كانوا يناضلون ضد الحكم الاستعماري. وعندما انتفضت ثورة البربر في شمال المغرب ضد الحكم الإسباني في عام 1893م، قال الشاعر خوسيه مارتى: "لنكن مغاربة! لنكن مغاربة... نحن [الكوبيين] الذين من المحتمل أن نموت على يد إسبانيا". ألغيت السيادة الإسبانية في عام 1898م، ولكن الولايات المتحدة سيطرت على اقتصاد السكر في الجزيرة، وأصبحت هافانا وجهة سياحية، وملعباً للفنانين الأمريكيين ورجال العصابات. كتب الروائي والدو فرانك قصيدته حول الخلاسيات في عام 1926م: "المؤخرة والكعب العالي كموسيقى الجاز؛ الذراعان والثديان يجعلانها ترقص في النعومة الأندلسية؛ وتحت دوي أحمر شفاهها تدندن أفريقيا". سوف تصبح المرأة المهجنة تذكيراً للاستغلال الجنسي والاقتصادي للجزيرة مرة أخرى.

قام كاسترو بإغلاق الكازينوهات التي تديرها العصابات في هافانا عندما جاء إلى السلطة في عام 1959م ووعد بتوفير فرص عمل قانونية لعاملات الجنس. لكن الموسيقى الهافانية في الخمسينيات - موسيقى الدانزو، مثل "لا مورا" لإليسيو غرينت (والتي تحدثت عن الجمال المغاربي والعيون الساحرة - كانت قد انتشرت بالفعل في جميع أنحاء العالم. هزّ المغني السوداني سيد خليفة آله الموسيقى وقرع أعضاء فرقته بربطات أغنقهم على طبول الكونغو بينما غنى "المambo السوداني" في القاهرة؛ أصبح هذا اللحن اللاتيني الخفيف ناجحاً حين وصلت الحماسة الثورية لكاسترو وتشى غيفارا إلى العالم العربي. جعل كاسترو الفلسفة الإفريقية الإسلامية مركزية في أيديولوجية نظامه ومبادراته السياسية. وفي خطابه الشهير حول العرق في عام 1959م، أكد الزعيم على الأصول الموريسكية لكوبا، وهو يستعيد ما قاله فريري: "جميعنا نملك بشرة فاتحة أو غامقة. تشير البشرة الأفتح إلى نسب الإسبان الذين استعمروا من قبل المغاربة الذين جاؤوا من أفريقيا. ومن هم

أكثر دكنة جاؤوا مباشرة من أفريقيا. علاوة على ذلك، لا يمكن لأحد أن يعتبر نفسه نقياً ومن عرق أرقى".

بعد حوالي نصف قرن من الثورة الكوبية، كان هناك مزيج جديد من الاستوائية والاستشراق. في عام 2002م، ظهرت على الساحة الموسيقية الدولية فرقة تسمى "Hanine y Son Cubano" حنين والابن الكوبي. كان ألبومهم الأول مجموعة من المؤلفات العربية الكلاسيكية التي وضعت على إيقاعات الغواخيرا وسون مونتونو -مستحضرين الحقبة الجميلة الكوبية وما قبل الحرب الأهلية في بيروت- احتل الألبوم أعلى المراكز بين ألبومات موسيقى البوب العربية؛ وقد أنتجه السياسي اللبناني ومروج النوادي، ميشال ألفتر يادس، الذي نفي إلى هافانا في أواخر التسعينيات، وكان صديقاً لأليدا ابنة تشي غيفارا. ظهرت الفرقة بينما بدأ النظام الكوبي بإعادة الكازينوهات السابقة للثورة لجذب السياح، وظهر خطاب تضامن عربي-لاتيني مجدداً. استخدمت عروض حنين والابن الكوبي الفولكلور الكوبي بشكل مبتكر: تلعب المغنية حنين أبو شقرة دور مورييسكية متكلمة باللغة العربية تغني عن المنفى والوطن في مقطع فيديو داخل قصر مشيد على الطراز الاستعماري. يرتدي الكوبيون من أصل أفريقي ملابس بيضاء ويدعون شانجو "إله الرعد" ومن ثم يبدؤون بالعزف على البوق وهم يرتدون بدلات بيضاء وفيدورا. تحرك المورييسكية ذراعيها فوق رأسها، وتمايل جذعها بينما يرقصون ويدورون حولها.

افتتح "ألفتر يادس"، المعروف بنزعته الفوضوية -والذي يحب أن يطلق عليه "إمبراطور نويرستان" (28)، كازينو كوبي في بيروت يدعى "الحب والحرية" عقب عودته إلى لبنان، كان موضوعه الثورة: زينت الجدران باقتباسات من كاسترو وتشى غيفارا، ومُمر السيجار والنشرات حول الظلم الواقع على كوبا بسبب الحظر على مرتادي المكان. أخذت الموجة الاستوائية-الاستشراقية في فترة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر مظاهر مختلفة، لكنها مثلت الأثر الثقافي لرد أمريكا اللاتينية على الحرب على الإرهاب.

للحادي عشر من سبتمبر -كما للعام 1492م- معنى ذو حدين في أمريكا اللاتينية. أدى انقلاب الجنرال أوغستو بينوشيه المدعوم من وكالة المخابرات المركزية (CIA) في 11 سبتمبر 1973م إلى مقتل الرئيس الماركسي التشيلي سلفادور الليندي. أطلق بينوشيه "عملية كوندور"، وهي جهد مشترك سمح لأجهزة المخابرات في الأرجنتين والبرازيل وأوروغواي وباراغواي وتشيلي بمطاردة اليساريين في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية. أدت العملية خلال العقد التالي إلى تعذيب واختفاء عشرات الآلاف. وعند انتهاء الحرب الباردة، بدأت

الديمقراطيات في أمريكا اللاتينية مهمة شاقة لتفكيك السجون السرية وإنشاء لجان الحقيقة. عندما ذهب دونالد رامسفيلد في نوفمبر 2002م إلى سانتياغو في تشيلي لإقناع وزراء دفاع أمريكا اللاتينية بمزايا سياسة أمنية منسقة - لدمج "مختلف القدرات المتخصصة في قدرات أكبر" - تلقى استجابة باردة. أحب بعض المسؤولين العسكريين فكرة دمج الحرب على المخدرات مع الحرب على الإرهاب، لكن الزعماء ذوي الميول اليسارية - والذين كان الكثير منهم سجناء سياسيين سابقين - كانوا حذرين من حرب قارة على "إرهاب المخدرات". تولى لولا منصبه في البرازيل عام 2003م، وتم انتخاب نيكستور كيرشنر رئيساً للأرجنتين؛ وعلى مدى السنوات القليلة التالية انتخبت الإكوادور وبوليفيا وباراغواي وأوروغواي الزعماء اليساريين الذين قرروا رفض عرض رامسفيلد.

صوتت أغلبية دول أمريكا الجنوبية ضد غزو العراق. وقادت البرازيل حملة لمعارضة الجهود الأمريكية لإنشاء نسخة إقليمية من قانون باتريوت (29) ونظام الترحيل السري. في فبراير 2013م، نشرت صحيفة واشنطن بوست خريطة مدهشة تبرز (باللون الأحمر) الدول الأربع والخمسين في العالم التي ساهمت في البرنامج الأمريكي المسمى "التسليم الاستثنائي"، إما عن طريق استضافة سجون وكالة المخابرات المركزية (CIA) أو السماح باستخدام مجالها الجوي للرحلات الجوية السرية، وبدا أن المنطقة الوحيدة في العالم التي لم تشارك كانت أمريكا اللاتينية. حتى كولومبيا، الدولة الوحيدة في أمريكا الجنوبية التي صوتت لحرب العراق، وحليف أمريكا القوي في الحرب على الإرهاب، لم تكن ملوثة. بدأ اللون الأحمر الوحيد في المنطقة على الساحل الشرقي لكوبا، في القاعدة البحرية في خليج غوانتانامو، التي ادعى تيدي روزفلت "ملكيتها" للولايات المتحدة في عام 1903م. أدى المنعطف اليساري في أمريكا اللاتينية إلى إحياء خطاب جنوب-الجنوب من حقبة الستينيات. أسس إيفو موراليس "وزارة القضاء على الاستعمار" في بوليفيا. وتواصل قادة أمريكا اللاتينية مع آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، خاصة عندما ظهر أن الولايات المتحدة كانت تستخدم أساليب مكافحة التمرد التي طورت بأمريكا الوسطى (خيار سلفادور) في العراق، من خلال نشر فرق شبه عسكرية تم تدريبها من قبل قدامى المحاربين في عهد ريغان في "الحروب القذرة" في أمريكا الوسطى. قادت برازيليا عددًا من دول أمريكا اللاتينية للاعتراف بدولة فلسطين في الأمم المتحدة في ديسمبر 2010م. كذلك تحدثت ديلا روسيف في مجلس الأمن في سبتمبر 2012م وانتقدت الدول الغربية بسبب "التحيز ضد الإسلام".

في الحقيقة، كان هوغو شافيز الفنزويلي، الذي تم انتخابه عام 1998م، أول قائد تبني خطاب التضامن العربي-اللاتيني في هذه المجموعة، وحث مواطنيه على "العودة إلى جذورهم العربية". ولكن دعمه للأنظمة القمعية في إيران وليبيا وسوريا نفرت الكثيرين. تمتعت البرازيل بالقدرة الناعمة على السحر والقوة الصارمة لإعادة ترتيب التحالفات الإقليمية. سحب صعود البرازيل عدداً من دول أمريكا الجنوبية خارج مدار الولايات المتحدة، مما أحبط استراتيجيات واشنطن الأمنية. وتراجعت إدارة بوش الثانية بدورها وحولت "ممرها الأمني" إلى الشمال، الذي يمتد من كولومبيا عبر أمريكا الوسطى إلى المكسيك. ظهرت كولومبيا كمرساة لسياسة واشنطن الأمنية في أمريكا اللاتينية. لكن كولومبيا أنتجت أيضاً المغنية شاكيرا، التي تمثل الأيقونة الثقافية العالمية لعقد الحادي عشر من سبتمبر، و "الموريسكية المسحورة".

جلبت المغنية اللبنانية الكولومبية ثقافة شرق أوسطية - وإن كانت بنبض لاتيني - إلى الملايين. وقد نصحتها البعض بالتخلي عن الرقص الشرقي والموسيقى العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لأنها تضر بالمبيعات، لكنها رفضت التعبير عن رعبها من الكره الموجه نحو "كل شيء عربي أو يبدو عربياً". كانت ترقص في عشرات الأماكن حول العالم - في الحفلات الموسيقية والأحداث الرياضية، وإم تي في - وهي معصوبة العينين وتزحف داخل قفص مثل ذئبة؛ كما أنها غنت على خشبة المسرح أمام ثلاث مليارات مشاهد في نهائيات كأس العالم 2010م. نشرت المغنية الشهيرة الأوشحة المزينة التي تربط بالخصر في أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط. وفي فحص عشوائي للملاهي الليلية في القاهرة في عام 2003م، صادر مسؤولو الحكومة المصرية 26 قطعة ملابس مقلدة لشاكيرا، وكان وزنها لا يزيد عن 150 غراماً (خمس أوقيات)، واعتبرتها "فاضحة".

يعود نجاح شاكيرا لموجة الاهتمام بكل ما هو شرقي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في بعض النواحي، وقد كان أداؤها غالباً ما يحمل نغمة سياسية صريحة؛ لكنها تمكنت من تجاوز الصفوف السياسية التي لمست غيرها من المغنيات العالميات. خلال فترة الاستعداد لحرب العراق، كان راقصوها على المسرح يرتدون أقنعة لوجه توني بليز وجورج بوش. لمعت الشاشات الخلفية بصور بوش وصادام حسين كدميتين يلعبان لعبة الشطرنج الشريرة، بينما "غريم ريبير" هو محرك الدمى. لكن بينما كانت بيونسيه وماريا كاري تعتذران عن أداء عروض خاصة لمعمر القذافي (حيث اضطرت الأخيرة إلى إلغاء جولة في ماليزيا بسبب الاحتجاجات) كانت شاكيرا تتجول في الأهرامات وتدندن باللغة العربية. كما أنها قامت بجولة موسعة في الشرق

الأوسط، حيث زارت قرية أجداد والدها في سهل البقاع في شرق لبنان. وتم تعيينها سفيرة للنوايا الحسنة بواسطة الأمم المتحدة ودعيت لتقاسم المنصة مع الرئيسين سانتوس وأوباما في قمة الأمريكتين في عام 2012م.

وبصرف النظر عن الدبلوماسية العامة، فإن تأثير شاكير الأكر- كجاد في التيلينوفيل البرازيلية - كان يهدف إلى تعميم جمالية تمازج الأجناس (mestizaje)، الذي تم تجسيده بواسطة فتاة رشيقة ترتدي شالاً على وركها وحلياً في الجزء العلوي من ذراعها؛ وخلق توافقية أغاني بوب استوائية- مستشرقة - قدمت منذ فترة طويلة في حفلات مثليي الجنس السرية - داخل الاتجاه السائد. بعد عام 2002م، بدأت الحفلات العربية اللاتينية و "1001 ليالي فالنتينو" في الظهور من لوس أنجلوس إلى بيروت كعرض جانبي مثير للحرب على الإرهاب.

سواء كان ذلك بسبب "المثال البرازيلي" أو سياسة التضامن أو مخططات العبيد المسلمين التي لا تزال تظهر في أماكن مثل بنما وترينيداد وباهيا، فإن أمريكا اللاتينية ينظر إليها هذه الأيام بحفاوة من قبل المسلمين، كمنطقة تقدمية، مكان تحمل الإسلام بهدوء بعد خنقه في إيبيريا في عام 1492م. فالمسلمون الشبان الذين يبحثون عن مكان ليكونوا مسلمين بشكل علني هم الذين يقدرّون البرازيل، كمثال نادر لدولة غربية ليس لديها مشكلة مع الإسلام. تكثر التوترات العرقية والإثنية في البرازيل، ولكن ما يوضحه عملاق أمريكا الجنوبية، على نحو غني، هو المدى الذي تفهم به الدول الغربية الإسلام من خلال هويتها الخاصة. في فرنسا، ينظر إلى الإسلام على أنه تهديد للعلمانية. في هولندا، يمثل خطراً على التعددية الثقافية. في النمسا يتحدث الناس عن "أبواب فيينا" والفتح العثماني. ولكن في البرازيل، الدولة التي تنظر إلى نفسها كهجين معادٍ للإمبريالية، فإن الحكمة المعيارية هي أن "التمازج" مع الإسلام سيجعل البلاد أكثر اختلاطاً وحماساً ومغادرة للإمبريالية. لو زرت البرازيل خلال حقبة الحادي عشر من سبتمبر ستفاجأ بغياب العداء المنظم تجاه المسلمين وغياب الصراع حول الإسلام والموسيقى الذي احتدم في أوروبا والولايات المتحدة. لكنه وضع مشروط، ونتاج للحظة السياسية، ويمكن أن يتغير مع تغيير الحكومة أو حدوث حدث عنيف؛ عندها ستدير البرازيل ظهرها للشرق، وسوف تختفي الموريسكية مرة أخرى.

الفصل الثالث

غيتوات(30) في السماء

اصطف مئات الشباب المغاربة، التونسيون، الأتراك والكونغوليون، خارج مسرح إكركلي في وسط مدينة أنتويرب خلال يوم أحد بارد من يناير 2011م. دخل إلى القاعة من خلال أبواب منفصلة، شبان يرتدون سراويل جينز، قبعات وسترات تصل إلى الكاحل، وأحذية تيمبرلاند، بينما ارتدى بعضهم زياً عسكرياً ولفوا كوفيات حول رؤوسهم، وشابات محجبات وقليلات منقبات. أقيم هذا الحدث تحت عنوان "De Terugweg" (طريق العودة)، كان نقاشاً حول الهيب هوب والإسلام أقامته منظمة محلية تدعى "الإحسان". كان مغني الراب الهولندي الشهير صلاح الدين وفنان الريغي البريطاني المسلم بلال، ونازيون عضو قرقة توباك شاكور(31). "أوت-لوز"(32) من بين الفنانين المدرجين في القائمة.

كان مُقدم الحدث أحد الناشطين المسلمين الهولنديين، والمعروف باسم الخطاب. صعد على خشبة المسرح مرتدياً ثوباً أبيض، بلحية صغيرة على وجهه، وبعد أن رحب بالجميع، اعتذر عن غياب مغني الراب صلاح الدين الذي لم يستطع الحضور. ومن ثم قَدَّمَ أول عمل: صعد على خشبة المسرح شابٌ جامايكي من جنوب لندن اعتنق الإسلام في سن المراهقة وغير اسمه من أشلي تشين إلى المسلم بلال، كان يرتدي ثوباً أسود اللون، عمامة حمراء وصندلاً جلدياً. وصف تربيته الصعبة في بريكستون وهو يتحرك جيئةً وذهاباً على المسرح، كيف ترك الراب من أجل القرآن، وكيف يؤدي أكابيل راب(33). الآن للدعاء؛ بعدها غنى بصوت ملحن وجميل ما يمكن وصفه بالنشيد على طريقة الريغي روتس(34)، واصفاً رحلته الروحية، "أنا رجل في مهمة / نجح في تحقيق التغيير".

عاد الخطاب إلى خشبة المسرح، وتكلم بلغة هولندية سريعة شرح فيها سبب تركه لأسلوب حياة الهيب هوب. تكلم بلا توقف لمدة عشرين دقيقة، وأطلق عظات مستعملاً عبارات الهيب هوب الأمريكية ("فهمتكم!"), "سوف يكون هناك حفففلة!", و"أوه أوه أوه أوه!",(35)، وكان يتوقف فجأة لتلاوة آيات من القرآن الكريم بأسلوب رخم لتأكيد وجهة نظره.

وأخيراً، جاء نابليون:

مرتدياً ثوباً بنياً، قبعة بيضاء، وحذاءً عسكرياً. بدأ حديثه بدعاء بلغة عربية سليمة لا تشوبها شائبة ومن ثم جلس ليتحدث. تحدث عن المسؤولية الشخصية والحاجة الملحة للعودة إلى الإسلام. "كل الشرور التي تحدث للمسلمين في بلجيكا أو هولندا نتيجة لأفعالنا وما نقوم به. لا تلقوا باللوم على شخص آخر، لا تلوموا اليهود في فلسطين". ثم شرح كيف ترك العمل الموسيقي، "كان توباك صديقاً عزيزاً، لكنه مات على ضلالة". وحين صفق الجمهور عند ذكر توباك قاطعهم نابليون، "لماذا تصفقون لتوباك، ولا تصفقون للصحابة؟" مشيراً إلى صحابة النبي محمد. وبدأ يسأل الجمهور حول مغني الراب المفضلين لديهم، "كم من الحاضرين هنا يحبون ناز(36)؟" أعقب سؤاله هتاف حاد من الجمهور. "هل تعلمون أن ناز قال، (أنا ابن الله وأنتم أولادي)؟، هل تعلمون أنه قال، (هناك جنة للملحدين)". ثم تابع قائلاً، "كم من الحاضرين هنا يحبون بيغي سمولز(37)؟". تصفيق من الجمهور. فقال، "لا أريدكم أن تظنوا أنني أحاول النيل من بيغي لأنه كان عدوي، لكن هل تعلمون أن بيغي قال، (عندما أموت، أريد أن أذهب إلى الجحيم!). وجاءي زي(38) هل تعلمون أن جاي زي يقول، (أنا رب مع آلحن. واسمي يهوه)".

هز نابليون رأسه وقال، "إن المسلمين يكررون هذه الكلمات، والملائكة تسجل".

واصل نابليون بلهجته الوعظية، "كل عام يهاجر الآلاف من جميع أنحاء العالم إلى فيغاس بانتظار ظهور توباك مرة أخرى". هز رأسه وقال، "يجب أن نقتدي بالصحابة، وليس بهؤلاء المغنين! فقد أشاد الله بالصحابة في القرآن، ولم يمدح ناز أو جاي زي!". ثم سأل مغني الراب السابق جمهورة، "لم نعدل الإسلام؟ كانت القبائل العربية مهتمة بالموسيقى، لكن النبي لم يقل، (يو، أبو بكر، اذهب وأحضر طبلًا! واذهب أنت وأبو وقاص وغنوا القرآن لتلك القبيلة!) لم يفعل النبي ذلك!".

ثم خفف لهجته وقال، "والله يا رجل كان لدي ملايين الدولارات عندما كنت في صناعة الموسيقى، لكنني كنت أنام مكتئباً كل ليلة". ووصف صحوته الدينية وانتقاله إلى المملكة العربية السعودية، "في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى الحج، أحببت الدين والشهادة" - ابتسم وقال - "اعتقدت أنني كنت منتشياً بماء زمزم ولكن بعدها أدركت أنه الإيمان". أنهى نابليون خطبته موجهاً النصح للشباب. "الشباب هنا رائعون، لكن في هذه المدينة لدينا مسلمون يقتحمون المتاجر"، في إشارة إلى الاضطرابات الأخيرة في أنتويرب وبروكسل. "أنتم لا تريدون أن يقول الناس، (لماذا يأتي هؤلاء المسلمون إلى هذا البلد؟) يجب أن يكون لديكم حياء تجاه الله ودينه" انتهى الحدث، وخرج

الجمهور بهدوء. لكن الشبان والشابات الذين تجمعوا في دهايز المسرح بدوا مذهولين. قال أحد الشباب، "إنه يدعمنا، لكنني لا أعرف بماذا يجب أن أفكر؟". كان حديث نابليون الحماسي شغوفاً وبارعاً ومصمماً خصيصاً للجمهور، مع مزيج من اللغة العربية الكلاسيكية والعامية الحضرية. لكن أولئك الشباب لم يتوقعوا أن يكون "العرض" خطبة ضد فناني موسيقى الهيب هوب المفضلين لديهم وضد الموسيقى نفسها.

نُقلت معتقدات المتحدثين السلفية من خلال نداءاتهم للجمهور بالعودة إلى إسلام الصحابة النقي، والعزوف عن الموسيقى وازدراء السياسة، وخاصة اعتقاد نابليون بأن المسلمين الشباب وضعوا رموز موسيقى الهيب هوب كأنداد لصحابة النبي. كان مغني الراب السابق يقوم بجولة في أوروبا ويقدم محاضرة بعنوان "هل هناك غيتو في الجنة؟" توقف في أنتويرب، حيث كانت هناك معارك أيديولوجية حادة بين المتصوفة والإسلاميين والشيعة، وقد استخدم ميزة أنه مغني هيب هوب سابق للتحقير من الموسيقى والترويج للسلفية. انتهت جولته في أوائل عام 2011م مع تفاقم الاحتجاجات من تونس إلى مصر، وسرعان ما غاد إلى قاعدته في الرياض وبدأ الحديث - والتغريد - ضد الانتفاضات ودعم النظام السعودي.

ظهر الأميريكيون الذين اعتنقوا مبادئ السلفية على القنوات الدينية السعودية منذ أوائل التسعينيات. لكن صعود نجوم سلفيين -دعاة- مثل نابليون أحد أعضاء فرقة توباك (أوت-لوز)، ولون العضو السابق في باد بويز ريكوردز (39)، وشون كروس من رَف رايدرز إنترتينمت (40) ليجوبوا أوروبا والدول ذات الأغلبية المسلمة، ويتحدثوا ضد موسيقى وثقافة الهيب هوب هو أمر حديث، يظهر كيف أن الأنظمة المختلفة تحاول توجيه ثقافة الشباب المسلم.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بدأت كل من حكومتي بوش وبلير الترويج للتصوف بوصفه آلية لمواجهة تأثير الإسلاميين في أوساط الشباب المسلم البريطاني، وأقامت الحكومتان مؤسسات صوفية، وجلبتا الباحثين والموسيقيين المتصوفة الأمريكيين ليتحدثوا في إنجلترا. كان هذا جزءاً من استراتيجية أوسع للحرب على الإرهاب امتدت من غرب أفريقيا إلى جنوب آسيا، حيث سعت إدارة بوش وحلفاؤها إلى تعبئة الطرق والمؤسسات الصوفية المحلية لمواجهة مد الحركة السلفية العابرة للحدود. كانت الموسيقى في قلب هذا "الحل الصوفي"، وبالنسبة لأنظمة مختلفة -الولايات المتحدة وبريطانيا وباكستان- كان نشر الممارسات الموسيقية الصوفية من موسيقى القوالي (41) إلى "الهيب هوب الإسلامي"، طريقة لتغيير المفاهيم، تهدئة المشاعر، تحدي روايات الإسلاميين المتشددین وجذب الشباب بعيداً

عن التطرف. لكن ظهور مغني الراب الذي تحول إلى سفير سلفي في أواخر عام 2000م، ومعارضة السلفية الراسخة للهييب هوب، تروي قصة أكبر عن العلاقة بين الإسلام وإحباط المناطق الحضرية، الهوية السياسية والموسيقى، ومرونة الحركات الإسلامية في مواجهة "التصوف الذي ترعاه الدولة".

لبس الثوب، مضغ المسواك

تكمّن جذور الفكر السلفي في الحركة الوهابية التي ظهرت في المملكة العربية السعودية في القرن الثامن عشر؛ وتحاول الحركة السلفية اليوم العودة إلى الإسلام "النقي" لصحابة الرسول، ولعصر الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين شهدوا صعود الإسلام. يرى السلفيون أنهم يدافعون عن الإسلام الصحيح "للسلف الصالح" ضد التغيير والابتكار، وعلى هذا النحو فهم ينافسون سلطة المذاهب الأربعة للفقهاء السني، والتي تشكل مجتمعة قروناً من الاجتهادات. بدأت الدولة السعودية في نشر الفكر السلفي على المستوى الدولي في أوائل الستينيات من القرن العشرين، مع تأسيس رابطة العالم الإسلامي (42). تم تعزيز هذه الجهود في أعقاب الثورة الإيرانية. فقد قام النظام السعودي بالرد على التشيع الثوري للخميني عن طريق تصدير الإسلام السني المحافظ للغاية من خلال وسائل الإعلام، تمويل المساجد والمدارس، وتقديم المنح الدراسية للطلاب.

كانت التسعينيات عقداً حاسماً في تشكيل حركات الشباب المسلم في الغرب؛ في ذلك العقد بلغ الجيل الثاني من المسلمين -أبناء المهاجرين- سن الرشد، وبدؤوا ببناء المنظمات، الدفع من أجل الحقوق، وإثارة نقاشات علنية جداً (خاصة في فرنسا وبريطانيا) حول الاندماج والإسلام. قام النظام السعودي بتصعيد الجهود الرامية إلى نشر السلفية بعد حرب الخليج في تسعينيات القرن الماضي. لكن قرار الملك فهد باستضافة الجيش الأمريكي في عام 1990م أدى إلى قيام حركة مناهضة للحكومة في المملكة قسمت المؤسسة الدينية في البلاد، مما وضع من يؤيدون ومن يعارضون قرار السماح للقوات الأمريكية بالتواجد في الأراضي المقدسة في صراع تردد صداه بين المسلمين حول العالم. أدى هذا الانشقاق في النهاية إلى ظهور القاعدة (التي انبثقت على هامش الجهادية السلفية). استمرت الأيديولوجية السلفية في تحقيق التقدم في أوروبا وأمريكا، وقام النظام السعودي بتصدير رجال الدين المعارضين، وعاد الطلاب الذين حصلوا على منح دراسية للدراسة في جامعة المدينة المنورة إلى ديارهم، وأقاموا مساجد ومراكز لنشر رسالتهم الخاصة بالنقاء العقائدي. وبحلول أواخر التسعينيات، أصبح الملثحي الذي يرتدي ثوباً

عربياً (جلباباً) ينتهي في منتصف الساق، والمرأة المنقبة مظاهر مألوفة في محيط المدن الأمريكية والأوروبية.

يلاحظ العالم الهولندي رويل ماير فيما يتعلق بالسلفية العالمية أن السلفية ليست ثورية صريحة؛ فهي لا تهدف إلى قلب نظام سياسي، بل هي "تمردٌ باسم المحافظة"، تهدف إلى بناء نظام أخلاقي متفوق من خلال إعادة الدمج المجتمعي للفرد والأسرة والمؤسسات المجتمعية. تظهر السلفية عادة في المناطق التي انهارت فيها العلاقات الاجتماعية. في أجزاء أخرى من العالم النامي، حيث تكون قضايا القوميين قوية، تحاول جماعة الإخوان المسلمين بميولها الاستحواذية السيطرة على الدولة القومية؛ لكن في المناطق التي تكون فيها الدول قد فشلت أو حدث انهيار اجتماعي، كما هو الحال في فترة ما بعد الحرب الأهلية في الجزائر أو الصومال، تظهر مجموعات سلفية محاولة وضع النظام السياسي في حالة من الفوضى. ولأسباب مماثلة، فإن السلفية لديها جاذبية في أحياء أوروبا وأمريكا. تميل السلفية إلى السيطرة على المناطق التي ترتفع فيها نسبة البطالة والعنف في المدن، حيث تغيب مؤسسات الدولة وتتشاشر العائلات. يُنظر إلى السلفيين على أنهم قوة للنظام والاستقامة الأخلاقية، بقانونهم الاجتماعي الصارم وقدرتهم على تطبيق الأعراف الإسلامية.

بينما هناك جهادية سلفية هامشية تكونت في الواقع من فوضيين ثوريين يؤمنون باستخدام العنف للإطاحة بنظام اجتماعي أو سياسي (القاعدة هي أكثر منظمة جهادية-سلفية معروفة)، فالسلفية هي "مجموعة نشطة ولكن في (الغالب) هادئة". معظم السلفيين في أوروبا وأمريكا يتفادون السياسة والمشاركة السياسية، ويقولون إنها تؤدي إلى الفتنة والتحزب وفقدان الهوية. لكن الكثيرين منهم ينشطون في الدعوة وفي محاولة إدماج الأعراف الإسلامية في الأماكن التي يسكنونها. وهذا التركيز على المجتمع بدلاً عن الدولة، وعلى إعادة دمج الشباب، هو الذي أعطى للسلفيين ميزة على المجموعات الأخرى مثل الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين (الذين يركزون أكثر على كسب سلطة الدولة). على سبيل المثال، في أوائل التسعينيات، بدأ النشطاء السلفيون في بريطانيا في التنافس على قلوب وعقول الشباب مع منظمات أخرى، مثل الجماعة الإسلامية، منظمة الشباب المسلمين (YMO)، وجمعية مسلمي بريطانيا المستوحاة من الإخوان المسلمين، وحزب الوحدة الإسلامية- حزب التحرير (HT). استطاع السلفيون بسهولة استقطاب "الشباب المعتدلين" من حزب التحرير ومنظمة الشباب المسلمين بفضل تمكنهم من اللغة العربية والنصوص الدينية، والدعم الذي حصلوا عليه من كبار العلماء السعوديين.

ركزت الجماعات السلفية البريطانية على "التطهير والتعليم"، بناء المؤسسات وأسلمة مجتمعاتهم بدلاً عن الضغط على الدولة. فقد قاموا بتوصيل الخدمات، وتوفير الأمن، وواجهوا تجار المخدرات والجماعات اليمينية المتطرفة (مثل رابطة الدفاع الإنجليزية) في برمنغهام ولوتون على سبيل المثال. (حارب بعض القادة السلفيين في أفغانستان بعد الانسحاب السوفياتي، وصاروا يعتبرون مدافعين عن الأمة). كما دعوا للعودة إلى الإسلام "النقي": حثوا الشباب والشابات على الصيام والصلاة واللباس الإسلامي؛ وتحدثوا عن الاختلاط بين الجنسين، شرب الكحول، والاختلاط بغير المسلمين؛ وشجّبوا ممارسات "الإسلام الشعبي"، من تبجيل الشيوخ إلى استخدام الموسيقى للتعبّد. وقد نجح هذا النهج. قال الشباب الذين انجذبوا إلى السلفية في أواخر سن المراهقة وأوائل العشرينيات كانوا مهتمين أكثر ببناء هوياتهم ومجتمعاتهم الجديدة أكثر من اهتمامهم بالسيطرة على الدولة أو إسقاطها. كان للإسلام الثابت "الأصيل" الذي يُدرّسه النشطاء السلفيون صدى وسط أبناء المهاجرين الذين كانوا منفصلين ثقافياً عن الإسلام المتصوف لآبائهم. كان الشباب الذي تحولوا إلى السلفية في بريطانيا وأماكن أخرى في صدام منذ البداية مع آباؤهم، الذين كانوا غارقين في التقاليد الصوفية القديمة. رأى الشبان إسلامهم أصيلاً وخالياً من أي ابتكار "فولكلوري"، وكانوا يستخفون بشكل علني بممارسات الطقوس الصوفية، وأشاروا إلى المسلمين المتصوفة -غالباً آباؤهم وشيوخ المجتمع- الذين يزورون المقابر أو أضرحة الشيوخ كهراطقة و"متعبدية أضرحة".

اشتبك السلفيون في جميع أنحاء أوروبا مع منظمات إسلامية أخرى لأنهم عارضوا المشاركة السياسية. بينما استجاب الإخوان المسلمون في فرنسا إلى دعوات المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية (CFCM)، والتي طالبت المسلمين الفرنسيين بالتصويت والاندماج، دعا السلفيون إلى الانفصال ومقاطعة الانتخابات، وعدم التفاعل مع الجمهورية الفرنسية. وفي بريطانيا وهولندا، ادّعى السلفيون الفرنسيون أنهم مسلمون أولاً، وتبنّوا وجهة نظر عابرة للحدود تتجاوز الحدود الوطنية، وتعيد تعريف الجيرة مع الأمة العالمية. إن نفور السلفية من المشاركة السياسية والدولة القومية يشبه حركة حضرية أخرى هي أمة الإسلام (NOI). وقد ارتبط صعود السلفية بانحدار حظ أمة الإسلام (NOI) في الولايات المتحدة، كما هو الحال في بريطانيا.

حباً لفيلي

يقود أمان علي الكوميدي الهندي الأمريكي والصحفي العامل برويترز كل رمضان سيارته عبر الولايات المتحدة -كتقليد سنوي- ليزور المجتمعات

الإسلامية النائية من ألاسكا إلى فلوريدا، ويكتب عن المساجد المختلفة، وطرقها المختلفة للاحتفال برمضان. (يتابع الشباب في الولايات المتحدة وبريطانيا مدونته التي تدعى "30 مسجداً في 30 يوماً"). في 15 أغسطس 2010م، لاحظ الكوميدي الذي يدرس علم الأصول العرقية بينما يقود سيارته في جنوب فيلادلفيا، "يبدو من المألوف في فيلادلفيا رؤية عاملات مواقف السيارات اللاتي يغطين وجوههن بالكامل بالنقاب. وكأنهن يقلن "أنا مسلمة، عليك التعامل مع الأمر"، وهذا منعش جداً بالنسبة لي".

غالباً ما يندهش الزوار من ثقافة الشباب في فيلادلفيا التي تأثرت بالإسلام: من المراجع القرآنية التي يستشهد بها الفنانون المحليون في أغانيهم، مثل نجمة الريذم أند بلوز (43) جيل سكوت، وحتى ما أسمته مجلة فيلادلفيا "الملابس الرجالية المستوحاة من الزي الإسلامي". من المألوف في مدينة الحب الأخوي رؤية شبان يربون لحية وشارباً خفيفاً -ويدعون "سنة فيلادلفيا"، أو "لحية قبلي" - ويرتدون سراويل تصل لمنتصف الساق وقمصان طويلة. يسخر المسلمون المحافظون من هؤلاء الشباب الأنقيين، باعتبارهم "مقلدين" و"متأسلمين"، لكن هؤلاء الشباب ينظرون إلى الإسلام على أنه رائع، عصري، وواع سياسياً. يقول أحد الشباب، وهو يبتسم ويمسك بلحيته: "أنا لست مسلماً، لكنني ورع". حتى السنة الذين لا يشذبون لحاهم -اشتبهوا في ثقافة الهيب هوب بواسطة مغني الراب المحلي "فريواي" - أصبحوا قضية سياسية في أوائل عام 2006م، عندما تم طرد ضابط شرطة محلي لرفضه تشذيب شعر وجهه لربع بوصة كما هو مطلوب. عندما استأنف الضابط، أعلن مفوض شرطة فيلادلفيا، سيلفستر جونسون -قائد الشرطة المسلم الوحيد في البلاد- "لا ترتد الدين على وجهك، بل ارتده في قلبك وعقلك". غالباً ما علق الفلادلفيون على أنماط اللباس الإسلامية -أرجل البناتيل المطوية للأعلى واللحية وما إلى ذلك- بأنها تأثيرات سلفية على ثقافة الشارع، (رغم أن أرجل البناتيل المطوية يجب تمييزها عن ساق البنطلون المطوية الواحدة التي ترتبط أسلوبياً بعصابات البلوود والكريس (44) والتي اكتسبت شعبيتها بسبب مغني الراب إل إل كول جي (45)).

أحد الثياب التي أدهشت أمان هو الإزار الكيرتليكي (46)، الذي يصفه بـ "تنورة الرجل المسلم". وقد لاحظ أن الشباب يرتدونه في منطقة وسط المدينة. قال الممثل الكوميدي في زيارته للمسجد الإسلامي المتحد، "كنت لأرتدي اللبلة تنورة أيضاً، لكنني لم أحصل على فرصة لحلق ساقِي". سأل أمان الحاضرين في المساجد -وهو سؤال غالباً ما يُطرح- لماذا الجماليات الإسلامية أكثر وضوحاً في شوارع فيلادلفيا من المدن الأخرى؟ يشرح أحد شيوخ المجتمع

أن جاذبية الإسلام مرتبطة بوجود حركة أمة الإسلام في المدينة منذ عقود طويلة. كتب أمان، "في الستينيات من القرن الماضي، حصلت حركة أمة الإسلام في فيلادلفيا على الاحترام من كامل الحي، لأنها ظهرت الأحياء من العنف والمخدرات، لذلك عندما انتقلت حركة أمة الإسلام لتصبح الممثلة [للإسلام] السائد في فيلي، تبنت الحركة تلك الآراء المطالبة بالاحترام وعدم التسامح [مع أشياء] مثل المخدرات والعنف". يختتم أمان جولته قائلاً: "كنت جالساً بين بعض المسلمين الأقوياء. ربما لو تمكنت من الوصول إلى مثل قوتهم، يمكنني أن أرثي التنورة الرجالية أيضاً".

ليست فيلادلفيا المكان الوحيد الذي تتصادم فيه السلفية وتمتزج مع موسيقى الهيب هوب بطرق غير متوقعة، لكن المدينة هي صورة مصغرة لنقاش أكبر حول الإسلام والموسيقى واللفحة الحضرية.

استيقظوا أيها البناة،

حان الوقت لبناء أرض جديدة

أعرف أن بإمكاننا فعلها

لو اتحدنا معاً..

كتبها لقمان عبد الحق

المعروف بـ كينيث غامبل (47)

تستقطب فيلادلفيا الشباب المسلم الشغوف، إضافة للمخططيين الحضريين من أوروبا، ليس فقط لأن المدينة هي موطن أكبر مجتمع سلفي في البلاد، ولكن أيضاً لأنها تفتخر بنموذج فريد للتنمية الحضرية يستخدم الموسيقى والأسس الدينية. قام المطور العقاري لقمان عبد الحق بتسخير طاقات مجموعات إسلامية متنوعة لتنشيط منطقة جنوب شرق المدينة. عندما يسير لقمان في الشارع الخامس عشر، مرتدياً ثوبه الأسود التقليدي، مع لحيته البيضاء الواضحة وقبعته، ويسلم على الناس، يصعب تصديق أن هذا الشيخ هو أحد آباء موسيقى الديسكو والريذم أند بلوز، وبشكل أكثر تحديداً، نوع فرعي يدعى صوت فيلادلفيا. اسم لقمان الحقيقي هو كينيث غامبل. وهو مؤسس شركة فيلادلفيا إنترناشيونال ريكوردز (PIR)، وفي سبعينيات القرن الماضي، سجل هو وشريكه ليون هوف العشرات من أغاني الريذم أند بلوز والديسكو لفنانين، أمثال أو جيز وديلفونكس وتيدي بندرغراس وباتي

لابيل، وفازوا بالغرامي، وأنتجوا ما يقارب مائتين من التسجيلات الذهبية والبلاتينية.

كانت موسيقى غامبل تحمل رسالة اجتماعية حتى قبل أن يصبح اسمه لقمان عبد الحق. في عام 1977م، كتب "دعونا ننظف الغيتو"، التي سجلتها فيلادلفيا إنترناشونال أول ستارز، داعياً المجتمعات المحلية إلى "الإصلاح الذاتي" بدلاً عن "الاعتماد على المسؤول الرسمي". لذلك ربما لم يكن مفاجئاً أن هذا المغني الموسيقي انتقل إلى جنوب فيلادلفيا في أوائل التسعينيات، وساهم في تنظيم المجتمع. أسس لقمان يونيفرسال كومبانيز، وهي منظمة غير ربحية تضم مبادرة لتطوير المساكن، المدارس ووكالة خدمات اجتماعية. وبالتعاون مع غرفة تجارة فيلادلفيا، بدأ بشراء قطع أراضٍ شاغرة في المنطقة الجنوبية الوسطى من المدينة، وبناء المنازل والمدارس والعيادات وبيوت للمسنين. قامت يونيفرسال منذ تأسيسها بتجديد أكثر من ألف منزل، وإنشاء مناطق يعمل ويعيش فيها المسلمون بالقرب من المساجد.

يحمل مشروع لقمان للإسلام والتجديد الحضري تأثير حركات مختلفة. من الواضح أن مسألة ملكية الأرض ومنظور "الإصلاح الذاتي" كانت مستمدة من حركة "أمة الإسلام". يقول لقمان، "إننا نواصل الثورة الثقافية التي بدأت بين الأمريكيين من أصل أفريقي في الستينيات، وهي ثورة ثقافية قائمة على الإسلام. كانت أمة الإسلام أداة تلبية حاجة الأمريكيين من أصل إفريقي، وتعلمهم العمل من أجل الذات". كان توجهه الاقتصادي المحافظ (في خطابه خلال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري عام 2000م) جاذباً للمسلمين الذين يصوتون للحزب الجمهوري، وكذلك السلفيين، الذين لا يريدون الاعتماد على الدولة، رغم أن لقمان يشترك مع حكومة المدينة ويحث مجتمعه على التصويت.

اعتقاد لقمان أن الإسلام بإمكانه رفع الغيتو أكسبه معجبين من جميع أنحاء العالم، وجذب المحافظين الذين يعتقدون أن الدين يستطيع "تنظيف" الشوارع. لكن مبادراته الموسيقية سببت الكثير من الارتباك للمسلمين. يهدف لقمان كجزء من مشروع إحيائه الحضري إلى جعل جنوب فيلادلفيا، وهي منطقة مسلمة بشكل كبير، مركزاً للريذم أند بلوز -على غرار ما تمثله ممفيس لموسيقى البلوز- أقنع لقمان مؤسسة الريذم أند بلوز بالانتقال من نيويورك إلى مسقط رأسه، واشترى قطعة أرض حيث يخطط لبناء مركز وطني للريذم أند بلوز قيمته خمسون مليون دولار، إلى جانب مجمع يضم قاعة للحفلات الموسيقية وأكاديمية للموسيقى وقاعة للمشاهير. بالنسبة لهذا الزعيم الإسلامي، فالإيمان والموسيقى والارتقاء الاقتصادي يسرون معاً. وهو لا

يرى أي تناقض. يقول لقمان: "أنا حساس تجاه الشؤون الإنسانية، بسبب حساسيتي الموسيقية". تساعد الجاذبية العالمية لموسيقاه في مواجهة النقد الذين يعتقدون أنه انفصالي، يبني مقاطعة إسلامية. لكن مشروعه الاجتماعي، وجهوده لتكراره بمدن أمريكية أخرى، أثار أسئلة دينية شائكة.

الرسالة في الموسيقى

بعد ظهر يوم الجمعة رطب من يونيو 2010م، ترك عشرات الفنانين - بريك دانسرز(48) من باريس، فنانو غرافيتي من لندن ومونتريال، مغنو قوالي من باكستان، وعازفو طبول من الجزائر - بروفاتهم وقدموا إلى صالة ألعاب رياضية غير مكيفة في ماركيت بارك في شيكاغو. توضع الراقصون الفرنسيون - أعضاء فرقة بوكيمون المشهورة - وأرتدوا عباءات بيضاء فوق ملابسهم. كانوا يجلسون على الأرض فوق سجاجيد الصلاة وصناديق من الورق المقوى المسطح، بجانب أعضاء تنظيم "العمائم الحمراء"، وهو تنظيم متصوف أمريكي إفريقي محلي، معروف بعماماته الحمراء ووشم "الله" باللغة العربية على الجانب الأيمن من أعناق أعضائه. وسرعان ما كانوا يستمعون إلى الإمام طالب، إمام جامع الإخوان المسلمين في هارلم وهو يحدثهم عن مسؤوليات الفنانين المسلمين.

قال الإمام، "ما تقومون به عمل مبارك، نبوي ولا غنى عنه لمستقبل الإسلام؛ يمكن أن يكون للإسلام دور تطهيري في دولة الهيب هوب العالمية". سافر طالب -المعروف باسم "إمام الهيب هوب"- من نيويورك لإلقاء خطبة الجمعة عشية مهرجان (تحدث إلى الشارع)، وهو مهرجان للفن الحضري يجلب الفنانين من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى الجانب الجنوبي من شيكاغو. المهرجان -وهو حدث مدته ثلاثة أيام، يضم أكثر من مائة فنان موزعين على خمسة مسارح- يتم تنظيمه من قبل الشبكة الداخلية للمسلمين (IMAN)، وهي منظمة خدمات اجتماعية تحاول استخدام الإسلام والموسيقى لبناء المجتمع والتنمية الحضرية. ترعى المجموعة معارك موسيقية بين عصابات متنافسة، وتجلب منسقين موسيقيين، وتنظم أداءات موسيقية وحفلات شواء في زاوية شارع يديره تجار المخدرات، لإظهار كيف أن الموسيقى والإسلام الإيجابيين -"جمالية الإسلام الحضرية"- يمكن أن يعكسا النفحة الحضرية.

يتعين على الناشطين المسلمين الذين يقومون بهذا النوع من العمل أن يناقشوا الجدل الذي دام قرناً حول ما إذا كانت الموسيقى مسموح بها في الإسلام. في جذر الجدل مسألة التلاوة القرآنية -سواء أكانت التلاوة الرقيقة

للقرآن مقبولة أم لا- والتي تطورت إلى نقاش حول الاختبار الموسيقي (السماع) بشكل أعم. ظهرت مجموعة كبيرة من التعليقات عبر القرون بشأن الاستماع، وما إذا كانت الموسيقى مناقضة للمثل العليا للإسلام، مع آراء وتوجيهات من القانونيين والحرفيين والعلماء المتصوفة حول كيفية تنظيم قوة الموسيقى. لتبسيط هذا النقاش المعقد، هناك موقفان حول الموسيقى والإسلام، مع مجموعة من الآراء في كل جانب. الموقف الأول يرفض رفضاً قاطعاً الموسيقى على أسس متضاربة، قائلاً إن السعي وراء المتعة لا يسهم في الخلاص ويصرف الانتباه عن التركيز على الله. سوف يستثني هذا الجانب التعزيم التعبدي، لكنه يحذر من الغناء "دون جدوى". السلفيون اليوم هم أكثر المؤيدين شهرة لهذا الرأي؛ ومن مالي إلى أفغانستان، عُرفت الجماعات السلفية بمداهمتها حفلات الزواج، وإحراق متاجر الموسيقى، وتدمير الأقراص المدمجة ومشغلات الإيم بي ثري، وحظر الموسيقى تماماً (كما حدث في شمال مالي في عام 2012م).

يعترف الموقف الثاني بمتعة الاستماع للموسيقى، لكنه يحذر من أنه يجب التعامل معها "بعناية، وبصورة متقطعة"، لأنها قد تؤدي إلى سلوك غير مقبول في الإسلام. وقد كان الفقيه القانوني الإمام الغزالي من القرن الحادي عشر الممثل الموثوق لهذا الرأي، حيث قال إن السياق الاجتماعي هو الذي يحدد شرعية السماع. وقد حذر هو والمعلقون اللاحقون من استخدام الآلات الوترية، مثل الدف والمزمار لأنه من الممكن أن تؤدي إلى شرب الخمر. بالتالي، من الشائع اليوم حضور حفلات زفاف إسلامية تُقدم فيها فقرة أكابيللا ترفيحية صارمة؛ أو أداء صوتي وطبول، لكن دون آلات وترية؛ أو بدلاً عن ذلك آلات نفخية دون طبول، والتي يحذر المحافظون من أن بإمكانها دفع الجسد للرقص. تستمر هذه المناظرات حتى يومنا هذا، فعندما أطلق المغني والمنشد البريطاني المحبوب سامي يوسف ألبومه الموسيقي "أمتي" (2005م)، أصدر نسختين -واحدة بإيقاع وأخرى "صوتية فقط"- لمعجبيه الأكثر محافظة.

كان المفكرون المتصوفة هم الأكثر قبولاً للموسيقى، لأنهم يرون الموسيقى والرقص كطريقة للعبادة وتحقيق الاتحاد مع الله، على الرغم من أنهم يحددون مجموعة من القواعد -أدب الموسيقى- ويزعمون أن الوضع الاجتماعي والحالة الذهنية هما المحددان لمتى يتم السماح بالموسيقى. وكما صرّح الدرويش الدراني في بغداد في القرن التاسع: "لا تثير الموسيقى في القلب ما هو غير موجود". يربط أكثر المعلقين الليبراليين، وأغلبهم من المتصوفة، بين الموسيقى والشعر، مشيرين إلى أن النبي محمداً استمتع بالشعر، حتى لو لم يمارس الموسيقى، ويرون أن الأغنية تُعتبر مشروعة أو

محرمة اعتماداً على معنى النص، وليس بالضرورة الآلات الموسيقية. أدى استخدام المتصوفة للموسيقى لتحقيق السمو الروحي لعقود، إن لم يكن لقرون، إلى غضب المحافظين. لكن الهيب هوب اليوم يشغل السلفيين وغيرهم من المحافظين المسلمين أكثر من أي نوع آخر. ليس فقط بسبب هيمنة وعولمة هذا النوع، ولكن بسبب دور الإسلام المركزي في تطور موسيقى الهيب هوب.

يعود ارتباط الموسيقى الأفريقية الأمريكية بالإسلام إلى عام 1910م وظهور حركات (شبه) إسلامية في المدن الأمريكية. في العشرينيات من القرن العشرين، استخدمت الترانيم المكتوبة لـ "الرابطة العالمية لإنماء الزنوج"، التي أنشأها ماركوس غارفي رموزاً إسلامية. كان أحد الألحان الموسيقية بعنوان "الله أكبر"، ويقول، "قد أعلّنت حقوقنا / في ذلك الاسم المقدس / الله - إله واحد، هدف واحد، مصير واحد". كانت العناصر الإسلامية ومفاهيم التضامن الأفريقي تسمع في موسيقى الجاز والسول منذ أربعينيات القرن العشرين، وهو انعكاس لتأثير الأحمدية وحركة أمة الإسلام. وفي ستينيات القرن العشرين، عندما اعتنق أعضاء مجموعات الريذم أند بلوز مثل ديلفونكس وفايف ستايرستيب وذا مومنتس، إيرث، ويند أند فاير و كوول أند ذا غانغ الإسلام، وجدت الأفكار والتوترات بين الإسلام السني وأمة الإسلام طريقها إلى موسيقاهم. كان كينيث غامبل في طليعة هذا الاتجاه. كتب الناقد نيلسون جورج في كتابه (موت الريذم أند بلوز) "بحلول منتصف السبعينيات، لم يعد غامبل يرى [فيلادلفيا للتسجيلات العالمية] كمؤسسة موسيقية، ولكن كمنصة تبشيرية تتبنى وجهة نظر عالمية، تكشف بشكل غير مباشر إيمانه الخاص بمبادئ الإسلام". سرعان ما أصبح شعار فيلادلفيا للتسجيلات العالمية، "الرسالة في الموسيقى"، عنوان أغنية لفرقة الـ 'أو جيز'؛ عبر غامبل في الأغاني والمذكرات عن آرائه حول كل شيء، من بنية العائلة إلى الإجهاض، مشيراً إلى إيمانه بـ "تأخي الرجال وأبوة الرب العظيم".

انعكس الانتقال من حركة أمة الإسلام إلى الإسلام السني أيضاً في موسيقى فرق مثل كوول أند ذا غانغ بعد وفاة إليجا محمد في عام 1975م. نشأ الأخوان اللذان بدأ الفرقة، عازف الغيتار روبرت "كوول" بيل وعازف الساكسفون رونالد بيل، في نيوجيرسي، حيث حضرا "البازارات الإسلامية" التي تقيمها حركة أمة الإسلام في مدينة جيرسي. وسرعان ما أدرجا أفكار أمة الإسلام حول الشرق والروحانية الأفريقية في تسجيلاتهما الغنائية، مثل أغاني "Open Sesame" و "Ancestral Ceremony". لكن مراجع الأخوين بيل تغيرت عقب اعتناقهما الإسلام السني. في صباح أحد الأيام، وبعد قراءة سورة من القرآن الكريم تحتفل بالحياة وخلق الإنسان، كتب رونالد بيل

(المعروف أيضاً باسم خالص بايان) أغنية "Celebration". يقول رونالد بيل، "جاءت الفكرة الأولى من القرآن. كنت أقرأ الآية { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } (49). لقد ألهمني ذلك لكتابة اللحن الأساسي، (تعالوا من جميع أنحاء العالم للاحتفال)". أصبحت هذه الأغنية المستوحاة من الإسلام شهيرة وكانت تُسمع بانتظام في مباريات كرة القدم الأمريكية والتجمعات السياسية في الولايات المتحدة، ومن المفارقات أن إدارة ريغان في 7 فبراير 1981م شغلت الأغنية للترحيب بالرهائن الذين كانوا محتجزين لدى جمهورية إيران الإسلامية.

اندمجت العناصر الإسلامية والعبارات العربية في نسيج الهيب هوب منذ نشأته في عام 1973م، عندما أسس أفريكا بامباتا (50) أمة الزولو، مما عكس مجموعة من الأيديولوجيات والثقافات الإسلامية وشبه الإسلامية التي تعايشت على مدى عقود في المراكز الحضرية في أمريكا. ولأن الهيب هوب أدى إلى تهميش الديسكو والريذم أند بلوز فقد تم توجيه المراجع الإسلامية إلى أغاني ومقاطع الراب. وقد أظهر مقطع الفيديو الذي تم عرضه عام 1987م لأغنية إيريك بي وراكيم "Fully Paid" صوراً للخميني وصلاة الجماعة الإسلامية. في أغنية لاحقة، يقول راكميم، "أسيطر على الكثيرين، مثل آية الله الخميني... أنا في حالة حرب دائمة، مثل أنور السادات". في مارس 1991م، كرست مجلة ألبي هوب "ذا سورس" (51) موضوعاً كاملاً بعنوان "القمة الإسلامية"، للعلاقة بين الإسلام والهيب هوب. في ذلك العصر الذهبي لـ "الهيب هوب الواعي سياسياً"، قام راكميم وبيليك إنيمى (52) بإضافة بعض العبارات العربية الإسلامية في أغانيهم - "الحمد لله"، و "السلام عليكم" - مع مقتطفات من أقوال مالكوم إكس وإليجا محمد. ومع اكتساب "أمة الخمسة في المائة" (53)، وهي فرع من فروع "أمة الإسلام"، لسطوة في التسعينيات بين الشباب في الشمال الشرقي، وجدت كلمات الحركة طريقها إلى أغاني غانغ ستار، وبور ريشيوس تيتشرس، وبراند نوبيان. ومع انتشار موسيقى الهيب هوب في الوقت نفسه تقريباً، تم بث هذه العبارات حول العالم، مما أدى إلى تغير الثقافات والهويات. تعرف الشباب المسلمون من خلال الهيب هوب على التاريخ الأسود، وتم إدخال غير المسلمين إلى الإسلام. بالإضافة إلى أن تقبل بعض المغنين البيض في أمريكا وأوروبا في مجتمع الهيب هوب كان بسبب دخولهم في الإسلام (تصريح دخول الغيتو). يدعي مغني الراب الأبيض "إفرلاست" (54)، المعروف سابقاً باسم إريك شرودي، من "هاوس أوف باين"، أن اعتناق الإسلام يسمح له بزيارة منازل الجيران التي لا يستطيع دخولها كأبيض غير مسلم. (من الغريب أن اعتناقه للإسلام قد جعله

في خصومة مع مغني الراب الأبيض الآخر، إيمينيم، الذي اتهمه بأنه أصبح مسلماً لكي ينكر أنه مغني راب مثلي أبيض وإيرلندي مشوش).

ما هو شعور الزعماء المسلمين حيال ما تسميه وسائل الإعلام اليوم "الهييب هوب الإسلامي"؟ تعود الآراء إلى الجدل الكلاسيكي حول الإسلام والإصغاء الروحي. بشكل عام، ينتقد رجال الدين المسلمون الهييب هوب لأسباب لا تختلف عن تلك التي ذكرها المحافظون غير المسلمين، إن هذا النوع الموسيقي يعزز قيم المادية والغرور والعنف؛ إن أشرطة الفيديو التي تظهر "نساء شبه عاريات" مهينة. يعارض السلفيون بشكل خاص الهييب هوب، ويرون الثقافة بكلماتها الخام وصورها وكتابات الغرافيتي خاصتها باعتبارها ملوثاً ثقافياً يلطخ أحياء المسلمين المتداعية أصلاً. ينمو هذا الرأي من إيمانهم بالنقاء العقائدي. يعارض الأئمة السلفيون هرطقة أمة الخمسة في المائة وحركة أمة الإسلام التي تحمل في كلمات الراب، ويقولون إنها تعلم الكفر وعبادة الشيطان. يقول أحد النقاد، "إنه في الأساس شعر جاهلي مترجم إلى الإيبونية(55)"، ويقارن ثقافة الهييب هوب اليوم بـ "أيام الجاهلية" قبل ظهور الإسلام.

ينصدم المتحولون السلفيون -الذين يقضون سنوات في الدراسة في الخارج للتحديث باللغة العربية الفصحى الرفيعة التي كانت يستخدمها صحابة الرسول- أمام فلسفة الشباب التي تمزج بين المراجع العربية والإسلامية، والعامية الحضرية. يقول عمر كوين، وهو إمام من ريتشموند، "الشعراء المذكورون في القرآن يتكلمون العربية بشكل مثالي؛ لكن هؤلاء الناس يغيرون لغتهم كل يوم". يطالب كوين، الذي تنتشر خطبه على نطاق واسع عبر الإنترنت، المسلمين بعدم دعم "وحش" صناعة الهييب هوب الذي يتعدى على كل جانب من جوانب حياة المسلم. ويذكر أنه كان يصلي في المسجد النبوي في المدينة المنورة، والذي شيد منذ القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري)، عندما سمع أغنية لجاي زي على رنة هاتف شخص ما. يقول كوين، "كنت جالساً بالقرب من باب المسجد، وكنت أسمع الشباب وهم يؤدون البيت بوكس(56) في الخارج". يرى السلفيون هيمنة الهييب هوب علامة على أن المسلمين ضلوا طريقهم بشكل خطير. يسأل نابليون، "ما الذي يحدث، عندما تترك العصابات الحقيقية الهييب هوب لأجل الإسلام، بينما يترك المسلمون دينهم لأجل ثقافة العصابات؟" وقد طور رجال الدين المحافظون برنامجاً لمساعدة الشباب "الذين ينتشر في قلوبهم النمل الأبيض للهييب هوب" لترك الموسيقى والعودة إلى الحق، عن طريق جعل الصلاة أولوية، تجنب الإذاعة التجارية والتوجه إلى الصوم عن سماع الموسيقى بشكل منتظم، و"الانتقال" ببطء إلى الهييب هوب "المفيد".

لكن هنالك آراء أكثر دقة. لا يتجاهل الأئمة والنشطاء (مثل بوس هوسا في ساو باولو) الذين يعتقدون أن مشروعية الموسيقى تعتمد على نية الفنان والثقافة التي تروج لها موسيقى الراب بهذه السرعة. ذكر الإمام طالب، في إحدى خطبه في شيكاغو، حديثاً لم يعترض فيه النبي على أداء الموسيقى، وجادل بأن المسلمين يستطيعون ممارسة الهيب هوب اعتماداً على شكله ومحتواه الموسيقي. ورد مباشرة على السلفيين الذين يقتدون بصحابة النبي بإعطاء مثال لأحدهم وهو الشاعر حسان بن ثابت المعروف ببلاغته. يقول طالب، مشيراً إلى رائد موسيقى الهيب هوب من البرونكس، "كان ابن ثابت بامباتا من السلف! كان الشعر مصدر راحة للنبي، وقد كان يدعو بالخير لابن ثابت، حتى إنه بنى له منبراً صغيراً في المسجد". كانت مهارات حسان بن ثابت فائقة لدرجة أن النبي استدعاه "في خضم حرب دعائية ضد المسلمين، وسأله أن يرد على الاتعاءات". هكذا دافع الإمام طالب عن "الهيب هوب الإسلامي" باعتباره تعبيراً ثقافياً عن هوية مسلمة "أمريكية أصيلة"، معتبراً أن المراقبين المسلمين في أمريكا يمكنهم لعب دور مماثل لشعراء القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية، رداً على الهجمات الخطابية ضد المسلمين. وقال للفنانين الشباب الذين تجمعوا أمامه: "كفنانين مسلمين، أنتم الحراس لأمة الهيب هوب، ولديكم وظيفة يجب القيام بها، لإدخال (النقاء) إلى مصفوفة الهيب هوب. يمكن للموسيقى أن تحقق الارتقاء والتنوير، إذا كانت مشبعة بالقيم الإسلامية".

جلب الله للتجديد الحضري

ليست المفارقة أن العديد من المبشرين السلفيين الذين صاروا اليوم دينيين وتبليغيين ضد الهيب هوب دخلوا الإسلام من خلال موسيقى الراب، ولكن كما قال الناشط عمر لي، فإن موسيقى الراب مهدت الطريق لصعود السلفية في الولايات المتحدة. لقد كانت موضة فيلم مالكوم إكس في أوائل التسعينيات -التي أثارها الهيب هوب الأفروسنترست وفيلم سبائك لي- هي ما قاد العديد من الشباب الأميركيين لقراءة سيرة حياة زعيم الحقوق المدنية، والاهتمام بالتاريخ الأفريقي والإسلامي. يلاحظ الناشط عمر لي، الذي اعتنق الإسلام في أوائل التسعينيات، "كان هناك توق شديد لأن نكون جزءاً من شيء إيجابي". لكن كما يقول فإن الضجة السياسية التي أثارها الراب الأفروسنترست و(موضة مالكوم إكس)، انتهت "بخيبة أمل" في أعقاب مسيرة المليون عام 1995م (57). ومع انحدار "أمة الإسلام"، انجذب هؤلاء المسلمون الشباب نحو السلفية، التي كان يتم تدريسها في بداية التسعينيات من قبل متدربين أمريكيين مدربين على يد سعوديين، يتحدثون الإنجليزية الأمريكية ويفهمون قضايا الانهيار الاجتماعي والإقصاء الحضري الذي جذب

المتعصبين داخل المدينة إلى الإسلام. كانوا قادرين على عرض السلفية كأكثر أشكال الإسلام أصالة، وليس باعتبارها "شيئاً من الخليج العربي".

تراجع تأثير أمة الإسلام لصالح الإسلام السني كانت نتيجة للهجرة التي تمت بعد عام 1965م من الدول ذات الأغلبية المسلمة، وجيوستراتيجية الشرق الأوسط. خلال أوائل الستينيات، كانت هناك فترة من التنافس الأيديولوجي بين التحالف القومي الاشتراكي بقيادة مصر، والملكيات الإسلامية المحافظة بقيادة المملكة العربية السعودية. وقد كانت أمة الإسلام متحالفة بقوة مع مصر، وتلقى الدعم السياسي والاقتصادي من عبد الناصر. وجد إليجا محمد نفسه محروماً من دعم عبد الناصر بعد حرب عام 1967م، وتحت ضغط موجة انتقادات متزايدة من المسلمين السنيين بسبب هيمنته، في حين بدأ مبعوثو رابطة العالم الإسلامي التي ترعاها السعودية بنشر الإسلام السلفي في أمريكا. بعد وفاته في عام 1975م، قام ابنه وارث محمد بتفكيك أمة الإسلام واحتضان العقيدة السنية. حصلت المنظمات السنية في الولايات المتحدة على نفوذ أكبر بعد اتفاقية كامب ديفيد في عام 1978م وصعود "المحور المصري-السعودي".

أعاد لويس فاراخان (58) إحياء ذكرى أمة الإسلام في عام 1981م، في اللحظة التي بدأت سياسات ريغان تعيث فساداً في المدن الداخلية الأمريكية المتعثرة، وشكك في ما إذا كان المهاجرون المسلمون يفهمون أو يهتمون حقاً بمحنة الأمريكيين من أصل أفريقي. أعاد فاراخان رسالة إليجا محمد حول التمكين الاقتصادي الأسود (تنمية العديد من السود الأشد فقراً) وبدأ في إعادة بناء إمبراطورية أعمال أمة الإسلام. خلال الثمانينيات وحتى منتصف التسعينيات، نشأت منافسة شديدة في المدن الأمريكية - خاصة على الساحل الشرقي - بين أمة الإسلام والنشطاء المسلمين السنة من أجل "قلوب وأرواح الشباب". وعلى الرغم من أن أمة الإسلام قدمت خدمات ومزايا اقتصادية، إلا أنه وبعد فترة قصيرة من مسيرة المليون بدأت المنظمة في التراجع، ويرجع ذلك جزئياً إلى الاقتتال الداخلي وسوء الإدارة وخطاب فاراخان غير المتسامح. وقد انجذب الشباب الأمريكيون الأفارقة واللاتينيون الذين كانوا متأثرين سابقاً برسالة أمة الإسلام حول التضامن والاعتماد على الذات - التي تضخمت بواسطة موسيقى الهيب هوب في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات - نحو القيم السلفية بشكل متزايد.

إن أقلية صغيرة جداً - تُقدر بـ 8 في المائة من المسلمين الأمريكيين - تفضل السلفية على مدارس الفقه الإسلامي الأخرى، وغالبية هؤلاء من الأمريكيين الأفارقة، الذين يثنون على محاولات السلفية لجلب النظام إلى المناطق

الحضرية المحطمة والتركيز على الاعتماد على الذات. وفي معظم التقارير يُظهر النشطاء السلفيون اهتماماً أكبر بتوجيه الشباب الذين اعتنقوا الإسلام، وتعليم "الاعتدال الذاتي"، وشرح ممارسات الإسلام "الأصيل"، وصولاً إلى التفاصيل حول كيفية ارتداء الملابس مثل الصحابة، وكيفية تنمية اللحية والشارب الخفيف، وكيفية التأكد من أن خطوط الصلاة مستوية. السلفيون، الذين كانوا أيضاً رواداً في استخدام وسائل الإعلام الاجتماعية (البريد الإلكتروني Listservs، المحاضرات المسجلة، الأقراص المدمجة وما إلى ذلك)، كان لهم علاقة أفضل مع الشباب الذين اعتنقوا الإسلام من المنظمات الإسلامية الكبرى مثل الجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية، التي أسسها الإخوان المسلمون الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة. كتب لي "إن مساجد الإخوان" لم تكن مهتمة بمعتنقي الدين الجدد إلا إن كان بإمكانهم المساعدة والتحدث عن قضايا مثل فلسطين".

بحلول أواخر التسعينيات، كانت المنظمات السلفية، مستفيدة من الدعم الفكري والمالي الثابت من المملكة العربية السعودية، وتقود الحركة الإسلامية الأكثر نفوذاً في أمريكا الشمالية بواسطة أتباعها في أنحاء الولايات المتحدة. وقد تركزت أكبر المجتمعات التي تضم المساجد والمراكز الاجتماعية والمكتبات على الساحل الشرقي، في شرقي أورانج، نيو جيرسي؛ فيلادلفيا واشنطن العاصمة؛ ونيويورك. غالباً ما تم وصف مجتمع شرقي أورانج، موطن المركز الإسلامي في أمريكا، كمركز للحياة السلفية في الولايات المتحدة، واعتبرت مجتمعات فيلادلفيا ونيويورك كامتدادات. لكن الصدع السياسي في السعودية -بين رجال الدين المؤيدين والمناهضين للنظام- سرعان ما وصل إلى شواطئ نيو جيرسي. هاجم الأئمة الذين كانوا أكثر ولاءً لعرش السعودية (والذين افتتحوا خطبهم بالتشديد على "أهمية طاعة الحُكام") أولئك الذين انتقدوا آل سعود. يقول أحد أفراد المجتمع: "لم أكن معادياً للسعودية سابقاً وحتى الآن، لكنني سئمت من الإخوة الذين كانوا يحاولون إجباري على تقبل العرش السعودي".

بدأ الاقتتال الداخلي والسجلات الدائرة بإحداث الأضرار. انشقت جماعة شرقي أورانج بحلول عام 2000م، قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبدأ تأثير السلفية في الولايات المتحدة بالتلاشي. كما أنهت الملاحقة الحكومية هيمنة السلفية بعد سبتمبر 2001م. أغلقت قوات تطبيق القانون عدداً من المنظمات السلفية في شمال ولاية فرجينيا. كما ألغت وزارة الخارجية أيضاً التأشيرات الدبلوماسية لأكثر من عشرين شخصاً في السفارة السعودية يعملون في مجال التوعية الدينية استناداً إلى "الخطاب غير المتسامح". رداً على الضغوط الأمريكية، أعلن المسؤولون في الرياض أن الحكومة السعودية

خططت "لإغلاق قسم الشؤون الإسلامية في كل سفاراتها". ومع قمع المراكز في واشنطن العاصمة وفيرجينيا وتفكك مجتمع شرقي أورانج، هاجر الأعضاء إلى فيلادلفيا، التي تفتخر اليوم بأكبر تجمع سلفي في الولايات المتحدة. وفي فيلادلفيا، كما في مدن أخرى، ملأت السلفية فراغاً سياسياً نتج عن انحدار حركة أمة الإسلام.

ترسم التفاعلات وأوجه التشابه بين أمة الإسلام والسلفية صورة أكبر للحركات الدينية، تقليل الخدمات الاجتماعية، وتدني خدمات الدولة في أمريكا. غالباً ما يوصف المعلقين السلفيين بـ "الإصلاحيين البروتستانتيين للإسلام" بسبب زهدهم الاقتصادي ومحاولاتهم لـ "تنقية" المجتمع؛ لكن المقارنة الأكثر ملاءمة ستكون مع أمة الإسلام. تتشابه رسالة السلفية حول المحافظة الاجتماعية، التصحيح الذاتي، الانسحاب السياسي والانفصالية الجغرافية مع رواية "أمة الإسلام" عن المساعدة الذاتية، والانفصال العرقي، والخلاص المنسق إلهياً. عملت أمة الإسلام تحت حكم إايجا محمد بشكل أساس كمنظمة تنمية تركز على الاقتصاد والاستقلال الاقتصادي بين الأمريكيين الأفارقة الفقراء، ومع نجاحها في مسعاها، تحول العديد من أتباعها إلى رجال أعمال أثرياء. لدى الحركة السلفية رسالة مشابهة عن الادخار الاقتصادي والخلاص، يشير مفهوم الهجرة ليس فقط إلى الهجرة (إلى الجزيرة العربية)، ولكن أيضاً إلى الصعود الاقتصادي. لكن وجه التشابه الأكثر إثارة بين الحركتين هو ازديادهم للمشاركة السياسية والدولة القومية، واحتضانهم لمجتمع عابر للحدود يتجاوز الدولة ويتجه نحو الشرق. يتجه أتباع أمة الإسلام نحو المكان الأسطوري الذي يجمع آسيا وأفريقيا؛ ويدعي السلفيون أنهم ينتمون إلى "مجتمع مضاد" يتجاوز الدولة القومية، ويدين بالولاء للأمة العالمية المقامة في المملكة العربية السعودية، "أرض الحرمين الشريفين".

تذكرنا النقاشات العامة حول السلفية في أوروبا وأمريكا اليوم بنقاشات القرن الماضي حول أمة الإسلام. لم ينظر إلى السلفية كتهديد قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. في الواقع، نشرت الحركة السلفية بواسطة الدول الغربية خلال الحرب الباردة كرد على الجماعات اليسارية والشيوعية. في الولايات المتحدة، كان يُنظر إلى السلفيين والجماعات المرتبطة بالإخوان المسلمين كقوة لخطر الجماعات القومية السوداء كأمة الإسلام. نظر صانعو السياسة في الولايات المتحدة وبريطانيا وفي أماكن أخرى في أوروبا منذ أواخر السبعينيات حتى 2001م، إلى "القيم التقليدية" للسلفيين كطريقة لإعادة بناء المجتمعات وتنظيف الشوارع؛ كانت محافظتهم الاقتصادية طريقة لإحياء المناطق الحضرية المتداعية. نجحت المساجد اليمينية

المحافظة في ضواحي ديترويت على سبيل المثال في تغيير الأحياء المجاورة خلال تسعينيات القرن الماضي - فقد قاموا بدوريات في الشوارع أثناء انتشار وباء الكوكايين، وحاولوا تنشيط سوق المساكن الخامل - مما دفع مسؤولي المدارس العامة في البلديات المجاورة إلى التنافس على جذب الطلاب المسلمين، اعتقاداً منهم بأن الأعراف الاجتماعية المحافظة والأسرة السليمة يمكن أن تساهم في التحركية السعودية، تملك المنازل، و"الشراكة السكنية العرقية القوية".

يتفق الموقف السياسي التحرري للسلفيين، وعدم مطالبة الدولة بأي شيء تماماً مع الفكرة الريغنية والتأثيرية للسوق الحر في الثمانينيات والتسعينيات. فعندما تتوقف الدولة عن توفير الخدمات والمراقب العامة، هنا تتدخل الجماعات الدينية لملء الفراغ، بما في ذلك الإسلاميون. وقد قُدمت حججٌ مماثلة في الستينيات للدفاع عن محافظة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية. أعرب ناثن غليزر ودانيال باتريك موينيهان في بحثهم الرائد، "ما وراء بوتقة الانصهار" (59)، عن أسفهم للميل "القومية والعنصرية" التي تتبناها منظمة "أمة الإسلام"، بينما أشادوا "بالقيم التقليدية" للحركة وروح المبادرة الـ "هوراشيو ألجرية" (60)، قائلين إنه "لا يوجد استثمار للوكالات العامة والخاصة في برامج الجنوح ومنع الجريمة يساوي العائد من الاستثمار بواسطة الوكالات التي يقودها أو يمولها الزنوج". في التسعينيات، كان ينظر إلى قدرة الجماعات السلفية على القيام بدوريات في الشوارع وإعادة تأهيل الشبان، وتقييد المشاعر المناهضة للدولة، وتعبئة رأس المال من خلال شبكاتهم الاقتصادية، على أنها مصدر قوة لحكومات المدن التي تعاني من ضوايق مالية. ولكن بعد الحادي عشر من سبتمبر أصبح من الواضح أن السلفيين الأكثر اعتدالاً لم يتمكنوا من السيطرة على الفوضويين العنيفين في وسطهم، لذلك قامت حكومات بوش وبلير بقمع المنظمات السلفية وبدأت تبحث عن إسلام بديل.

تحية، ما شاء الله

لا توجد حركة مسلمة في أوروبا تعتمد على الحساسيات الليبرالية بالطريقة التي تعمل بها الحركة السلفية. فعلى الرغم من أعدادهم الصغيرة، إلا أن محاولة السلفيين إضفاء طابع إسلامي على الأماكن العامة في المدن الأوروبية - من خلال حظر الموسيقى والرقص وشرب الكحول، والاختلاط بين الجنسين - تجذب الإعلام والاهتمام العام بشكل مكثف. يقول مايكل بريفتوت، وهو مؤرخ شاب، ومدير الشبكة الأوروبية لمناهضة العنصرية ومقرها بروكسل: "السلفيون معرقلون ثقافيون؛ فبالنسبة للشباب الهش، تقدم

السلفية بديلاً سهلاً، خصومة مع الماضي. فبالأمس كانوا يستمعون إلى موسيقى الراب ويتاجرون في المخدرات، واليوم يقاطعون الموسيقى ويصفون الناس بالكفر، ويوزعون منشورات تطلب من المسلمين ألا يتمنوا عيد ميلاد سعيداً للكفار، ويخبرون أمهاتهم بعدم مصافحة غير المسلمين، وعدم طهي الطعام للمسيحيين".

في فرنسا، تقدر السلطات أنه لا يوجد سوى خمسة آلاف شخص يتبعون الحركة السلفية (أقل من 0.1 % من السكان المسلمين)، لكن وجود نساء يرتدين النقاب أثار موجة من الذعر وأدى إلى قانون 2011م الذي يحظر النقاب في فرنسا. إن فكرة السلفيين حول عدم الاختلاط مع غير المسلمين (الذين غالباً ما يطلق عليهم الكفار)، وعدم الخروج من أحيائهم إلى أجزاء أخرى من المدينة خوف أن يصبحوا ملوثين أخلاقياً، واجهت انتقادات قوية من المسلمين الآخرين الذين فكروا في أن هذه النزعة الانفصالية تعيق اندماج جميع المسلمين. يقول الشيخ موسى أدماني، إمام جامعة لندن متروبوليتان والناقد القوي لهذه الحركة، "إن هدف [السلفية] هو دق إسفين بين المسلمين الشباب والمجتمع البريطاني الأكبر".

يستفيد السلفيون من التناقض الشعوري العميق حول الدولة القومية الموجود بين الشباب المسلم. لا تعود هذه الشكوك إلى السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية تجاه "الأراضي الإسلامية" فحسب، بل هي رد فعل أيضاً على السياسات الداخلية التي تشمل تعامل الشرطة والخدمات الاجتماعية والعمالة والإسكان. يستمر علماء الاجتماع في مناقشة ما إذا كانت الأحياء الإسلامية في المدن الأوروبية تشكل مقاطعات - فضاء ينتقل إليه المهاجرون طواعية للشعور بالمجتمع والهوية، و"يتخرجون" منه في النهاية بعد تحقيق مستوى من النجاح الاقتصادي - أو غيتوات، والتي تعتبر المناطق الأكثر وصمة حيث لا يكون التركيز الإثني أو العرقي طوعياً، ولكن نتيجة للقيود الخارجية والسياسة الحضرية التمييزية، وحيث يتوقف الحراك الاجتماعي. مع ذلك، بالنسبة للشباب المسلم، تم حل النقاش بعد الحادي عشر من سبتمبر، فقد كانت المناطق المهجورة التي يسكنونها، والمشاريع السكنية الكئيبة ("العقارات" في إنجلترا، "إتش إل إم" في فرنسا) التي نشؤوا فيها - الحضور الكثيف للشرطة وقوانين مكافحة النقاب والقضاء على المساجد، وضربات الطائرات بدون طيار في الصومال - هي نتيجة لسياسة الدولة العدائية. يعتمد المسلمون الفرنسيون والهولنديون مصطلح "غيتو" ويستخدمونه في كثير من الأحيان - بشكل حاد، بفخر، بهجة وحنان - للإشارة إلى الفصل الجغرافي للمسلمين الأوروبيين؛ لإحراج السياسيين (الذين يكرهون المصطلح)؛ للمطالبة بقرابة عابرة للحدود الوطنية مع

أشخاص مشابهين في الأحياء الفقيرة في البرازيل أو في المدن الداخلية في أمريكا، والذين يشاركونهم عدم الثقة في سلطة الدولة وجمالية الهيبة هوب المتمحورة حول الغيتو. يتحدث مغني الراب الفرنسي كيري جيمس بفخر عن تراث الغيتو، والذي هو ثقافة ووعي يمتد من منطقة البحر الكاريبي إلى أوروبا.

يرى الداعون للتوحد الإسلامي مثل هذا الحديث عن الغيتوات والهوية العابرة للحدود طفولياً: فمن خلال المشاركة السياسية يمكن عكس السياسات الضارة. أخذت الحركة السلفية الجدل حول تكامل المسلمين في اتجاه جديد فقد أعطت المشاعر المعادية للدولة دفعة لاهوتية. يسخر النشطاء السلفيون بالطبع من كل حديث عن القومية في الغيتو. لكنهم لا يدعون إلى التوحد، بل لنوع مختلف من النزعة الانفصالية، ومناهضة النظام التي لا تعتمد على فئة مغمورة في الهيبة هوب أو تضامنية عرقية، بل على أممية إسلامية محافظة. يرفض الإسلاميون مصطلح "الشتات"، وهي كلمة أخرى مستخدمة بكثرة في المجتمعات الإسلامية. وكما هو الحال مع "الغيتو"، يتحدث الشباب المسلم عن "الشتات الإسلامي" للتعبير عن حس خاص بالإقصاء، والمطالبة بالتضامن مع المجتمعات المهمشة الأخرى. سيقبل اللاهوتيون المسلمون الأوروبيون والأمريكيون وجود مجتمعات الشتات العرقية والقومية، لكنهم يشيرون إلى أن مصطلح "الشتات" النابع من التجربة اليهودية، هو لعنة للإسلام. يشرح البروفيسور محمود أيوب، أستاذ الإلهيات في كلية هارتفورد، "ليس هناك نظرية لاهوتية حول الأرض في الإسلام، إن النظرة الإسلامية هي أن الأرض كلها ملك لله، وكل أرض الله الواسعة هي مسجد، لذلك لا يوجد شتات في الإسلام". بالنسبة للسلفيين يتسبب مفهوم الشتات، خاصة عندما يتحدث الناس عن العرقية أو الشتات الوطني، في تمزق المجتمع المسلم. إنهم يفضلون كلمة الأمة ويحاولون توجيه كل الولاءات والمشاعر المعادية للنظام تجاه هذا المجتمع العالمي من الانتماء، والذي يتعدى أي إقليم.

على عكس ما حدث في أمريكا، حيث كانت سلطات الدولة هي التي بدأت تعرب عن قلقها من التطرف السلفي، بدأ "ائتلاف" بالتشكل في أوائل عام 2000م ضد تأثير السلفية في بريطانيا وهولندا، حيث يوجد للسلفيين أتباع أكثر. وشمل الائتلاف النسويات والعلمانيين، ونقاد التعددية الثقافية، والمسلمين الليبراليين، وقد جادلوا بأن "علم اللاهوت الانفصالي" للسلفيين يُلهم كراهية الأجانب.

شكلت الحركات السلفية البريطانية والأمريكية بعضها البعض (كما فعلت ردود الفعل تجاه هذه الحركات). فالنضالات الأيديولوجية التي تحدث على

الساحل الشرقي للولايات المتحدة كانت تلعب دوراً حاداً أيضاً في بريطانيا العظمى، وشكّلت التحالفات عبر المحيط الأطلسي. في برمنغهام، خاض المعسكر الموالي للسعودية بقيادة "الصفائي" أبو خديجة معركة مع أبي منتصر، الذي كان متعاطفاً مع حركة الصحوة التي عارضت النظام الملكي السعودي. اصطف أبو خديجة، الذي أسس المعهد السلفي والمنشورات السلفية في برمنغهام، مع المجتمع الإسلامي لأمريكا الشمالية في شرقي أورانج. هاجم أبو خديجة علانية مسلمين آخرين، واصفاً إياهم بالأنحراف، وانتقد بعنف المسلمين الشيعة والمتصوفة. ازداد الصراع بين المعسكرين في بريطانيا بشكل كبير وعاد إلى الولايات المتحدة بينما صارت الجماعات السلفية البريطانية مثل "المهاجرون" أكثر حزماً، وظهر فرع لها في كوينز، نيويورك. كما اجتمع أعضاء المجموعة التي تسمى "المفكرين الإسلاميين" في شوارع جاكسون هايتس، كوينز، في نهاية كل أسبوع لحرق الأعلام الأمريكية والإسرائيلية، ودعوة المسلمين من خلال المكبرات الصوتية إلى مقاطعة الانتخابات تظهر معسكر سلفي-جهادي في إنجلترا بعد غزو العراق، وقام بتحريض المسلمين البريطانيين علانية على العنف. كانت هذه المجموعة متمحورة حول المسلم الجامايكي عبد الله الفيصل (المعروف سابقاً باسم تريفور وليام فورست)، وذي اليد الواحدة أبو حمزة المصري (الذي أطلقت عليه الصحافة البريطانية لقب "الكابتن هوك")، وعمر بكري محمد، القائد السابق لحزب التحرير. تعهد بكري في خطبة الجمعة في عام 2004م بأنه إن لم تغير الدول الغربية سياساتها الخارجية، فإن المسلمين سيعطونهم "أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يوماً بعد يوم، بعد يوم". دفع هذا الخطاب -وتفجيرات لندن في يوليو 2005م- حملة حكومية مدعومة من قبل ائتلاف موسع من سياسيي حزب المحافظين والعلمانيين، وكذلك المسلمين العلمانيين والليبراليين المستائين من نفوذ السلفية المتنامي بين الشباب المسلم. سجنّت حكومة بليز أو طردت رجال الدين الذين دعوا إلى العنف، بما في ذلك تريفور وليام فورست، الذي تم ترحيله إلى أرض ميلاده في جامايكا. توضح قصة فورست (اعتنق الإسلام كمراهق في جامايكا، ودرس في ترينيداد بمنحة علمية سعودية قبل أن ينتقل إلى المدينة، ثم يستقر في إنجلترا في أوائل الثمانينيات) الجانب الأطلسي للحركة السلفية، والدور الذي لعبه الإسلام الأمريكي، والهجرة الكاريبية في تطور الإسلام البريطاني.

بينما كانت المنظمات السنية في أمريكا تتنافس على النفوذ مع حركة أمة الإسلام في أواخر الثمانينيات، كانت هناك منافسة مماثلة في المدن البريطانية. انخرطت المنظمات السنية البريطانية -ولا سيما حزب التحرير والمساجد السلفية- في حرب عصابات مع أمة الإسلام، وبدرجة أقل مع

الحركة الرستفارية(61)، التي ظهرت في جاماكا في الثلاثينيات من القرن الماضي، وتم جلبها إلى المملكة المتحدة بواسطة المهاجرين الهنود في 1950م. طوّرت "أمة الإسلام" مجموعة صغيرة في بريطانيا في أوائل الستينيات، لكن سرعان ما طغت عليها الحركة الرستفارية. يقول عالم اللاهوت الإنجليزي روبرت بيكفورد: "كان المسلمون السود هم الذين وضعوا منصة لحركة دينية سياسية ما بعد الحرب بين مواطني الشتات الكاريبي في بريطانيا قبل ظهور الرستفارية". ولكن في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، أصبح "الرستفاري" و "الريغي" الثقافة المضادة المسيطرة بين الشباب السود والآسيويين في إنجلترا، حيث شكّلوا وتفاعلوا مع حركة البانك(62) التي ظهرت في منتصف السبعينيات. بدأت الحركة الرستفارية بالانحدار كما حدث للريغي روتس(63) في السبعينيات عندما توفي بوب مارلي في عام 1981م. لكن الإسلام سيظهر مرة أخرى كخيار للهوية مع ظهور موسيقى الهيب هوب.

إن قامت موسيقى الريغي بنشر ثقافة الراستا، فإن موسيقى الهيب هوب عرفت البريطانيين الشباب على تعاليم أمة الإسلام، والخمسة في المائة، والإسلام السني. تقول ياسمين محمد، وهي امرأة بريطانية المولد من إنفيلد انضمت إلى أمة الإسلام في أوائل التسعينيات: "كنت رستفارية منذ فترة. كانت الرستفارية ديناً بالنسبة لي، لكن عندما أدركت أنه كان مجرد مظهر للتميز أمام الآخرين، شعرت بخيبة الأمل". سرعان ما سيخلق العشرات من الراستات ضفائرهم، ويعتنقون الإسلام، وللأسباب الموضحة أدناه، سينتقدون بشدة اللاهوت الرستفاري. وبينما نجد أن السلفيين الذين أصبحوا دعاة شهيرين في الولايات المتحدة كانوا في الغالب من مغني الهيب هوب، فإن الدعاة السلفيين البريطانيين في الغالب كانوا رستفاريين في شبابهم، مثل أبو حكيم بلال ديفيس من بزمغهام، الذي يقوم الآن بجولة في منطقة الكاريبي ليتحدث إلى الجمهور حول مخاطر الريغي وعنف العصابات، والتحريفات الرستفارية لقصة يهوذا. بحلول أوائل عام 2000م، برزت السلفية كخضم للريغي، والهيب هوب، والجانغل، والبانك روك، ومعظم الثقافات الفرعية الموسيقية في بريطانيا، وهي حقيقة لم تغب عن مسؤولي الدولة الذين كانوا يفكرون في كيفية استرجاع النفوذ الإسلامي.

الفصل الرابع

تسعة آلاف ميل ... من الروك الصوفي

في مارس 2004م، نظّم مركز نيكسون للأبحاث السياسية بواشنطن مؤتمراً حول "الدور المحتمل" للصوفية في السياسة الخارجية الأميركية، برئاسة المؤرخ برنارد لويس (64)، الذي عمل لاحقاً كمستشار لإدارة بوش. أشاد المشاركون -أكاديميون ووكلاء سياسيون وممثلو وكالات حكومية مختلفة- بتسامح الصوفية، وتحدثوا عن العداء السلفي للصوفية، وتأملوا حول كيفية تحالف الولايات المتحدة مع الطرق الصوفية. لاحظ أعضاء لجنة المؤتمر كيف أن المتصوفة يقدرّون الولاءات المحلية والوطنية وليس لديهم نظرة متمحورة حول الأمة العالمية كالسلفيين والوهابيين. وحذر أحد المشاركين أنه: "من الصعب تخيل تأييد صناع السياسة في الولايات المتحدة بشكل صريح للقيم الصوفية، بسبب الطبيعة العلمانية للنظام السياسي الأمريكي؛ مع ذلك، فقد تم طرح العديد من التوصيات المتنوعة حول إمكانية اتخاذ الولايات المتحدة "موقفاً استباقياً" في دعم إحياء الصوفية. من تمويل مشاريع الحفاظ على الأضرحة الصوفية، إلى دعم مراكز التعلم الصوفية التي يمكن أن تساعد في "إعادة تدريب" الشباب المتأثر بالسلفية. أثنى لويس في الخطاب الرئيس على انفتاح الصوفية على الأديان الأخرى، وجادل بأنه وبرغم أن الطرق الصوفية ربما قادت صراعات معادية للاستعمار في أفريقيا وآسيا -وحتى اليوم يحارب المتصوفة الشيشانيون روسيا- لكن من "المستبعد جداً" أن يستخدم المتصوفة العنف ضد الغرب اليوم.

لفكرة التصوف كحليف للغرب تاريخٌ طويلٌ في الفكر الاستعماري الأوروبي. فالمثقفون الفيكتوريون المتأخرون، مثل السير وليام جونز، ألباحث في التاريخ الهندي في القرن الثامن عشر، رأوا المتصوفة "كوجوديين عالميين"، مارسوا إسلاماً باطنياً شاملاً على عكس المسلمين الآخرين. تصف الأطروحات الاستعمارية المكتوبة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الصوفية على أنها نقيض للأرثوذكسية الإسلامية، ومتجذرة في الثقافة المحلية (غير العربية). هذه النظرة للصوفية كحليف تم تشجيعها جزئياً بحقيقة أنه وبرغم أن المتصوفة قاوموا التوسع الاستعماري المبكر -سيدي عبد القادر الجزائري الذي حارب ضد التوغل الفرنسي في الجزائر، ومحمد السنوسي الذي واجه الإيطاليين في ليبيا، وعثمان دان فوديو الذي قاتل القوات البريطانية في نيجيريا- لكن ما إن هُزمت هذه الحركات الصوفية، حكم المستعمرون الفرنسيون والبريطانيون من خلال الطرق

الصوفية، وفي المقابل ساعدت هذه الطرق القوى الغربية على تأسيس "إسلام رسمي". وصف عالم الأثنوجرافيا الفرنسي إدموند دوت سياسة فرنسا الإسلامية في غرب أفريقيا في عام 1900م، "كان الأعوان المتصوفة في خدمتنا في المسائل الإدارية البحتة: لقد رأيناهم يأمرّون أتباعهم باسم الله، ويوجهون موظفاً في مجتمع محلي، لينفذ قراراً إدارياً".

جادل برنارد لويس لفترة طويلة بأن الولايات المتحدة يجب أن ترى الطرق الصوفية كرفاق سلاح. قبل أكثر من خمسين عاماً، وفي سبتمبر 1953م، دعت وزارة الخارجية لويس، الذي كان لا يزال يُدرّس في جامعة لندن، إلى مؤتمر في برينستون، حيث قدم ورقة -محفوظة في أرشيف مجلس الأمن القومي، في مكتبة الرئيس أيزنهاور- تقول بأن النقشبندية (65) الذين يعيشون في منطقة القوقاز يمكن أن يستخدموا كطابور خامس داخل الإمبراطورية السوفياتية. كانت واشنطن أكثر انفتاحاً على أفكار لويس حول التصوف بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وبالتزامن مع حملة قمع السلفية في الداخل، بدأ المسؤولون الأميركيون يفضلون الحركة الصوفية المتمركزة في تركيا "غولن". برزت الحركة الصوفية التي تضم ملايين من الأتباع وتدير مدارس ومستشفيات ومراكز ثقافية في 140 دولة، كلاعب مؤثر بشكل كبير في المشهد الإسلامي العابر للحدود. وقد مُنح قائد الحركة فتح الله غولن، الذي كان يعيش في المنفى الطوعي في الولايات المتحدة منذ عام 1998م، الإقامة الدائمة. سعت الحركة لتوسيع تواجدتها المؤسسي في جميع أنحاء البلاد بعد عام 2001م، واستمرت في التنمية العمرانية التي كان السلفيون يقومون بها على نطاق أوسع وبدون القيام بأي نوع من التبشير الديني. وكما قال أحد كبار المسؤولين الأميركيين لنيو ريبابليك: "ظهرت تلك الحركة الإسلامية العالمية التي تبدو منفتحة على الحداثة والعلوم وتركز على التعليم في عام 2003م، بعد عامين من أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ وفي بدايات حرب العراق. بدأ الأمر جيداً لدرجة يصعب تصديقها".

بدأت الوكالات الحكومية ومراكز البحوث الرائدة في إنتاج أوراق ومذكرات سياسات، حول كيفية تعبئة الصوفية ضد السلفية في آسيا وأفريقيا وحتى أوروبا. أصدرت مؤسسة راند تقريراً في عام 2004م بعنوان "أركان الديمقراطية الخمس، كيف يمكن للغرب أن يشجع الإصلاح الإسلامي؟"، دعم التقرير حجة أنه يجب على الغرب أن يدعم أولئك الذين يمارسون "الإسلام الشعبي" ضد "الأصوليين" من خلال تشجيع الصوفية التي تمثل "شكلاً تقليدياً من أشكال التصوف الإسلامي الذي يمثل تفسيراً فكرياً منفتحاً للإسلام"، وعن طريق إثارة "الخلافات بين التقليديين والأصوليين".

بالإضافة إلى دراسة نشرتها وكالة استخبارات الدفاع الأمريكية تحدثت بالمثل عن الصوفية بوصفها، "فجوة قابلة للاستغلال في حصن الإسلام".

قبلها بعام في 2003م أنشأ مجلس الأمن القومي برنامجاً أطلق عليه اسم "العالم الإسلامي للتواصل"، بميزانية قدرها 1.3 مليار دولار، يهدف البرنامج إلى "تحويل الإسلام من الداخل" من خلال دعم المنظمات "المعتدلة" والمتوافقة مع الديمقراطية في البلدان الإسلامية. تم توزيع جزء كبير من هذه الأموال من خلال الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وتم إنفاقها على برامج لتدريب رجال دين جدد، وإصلاح المناهج الدراسية، وإنشاء المدارس لمواجهة ما تعلمه المدارس القرآنية، وتشكيل الخطاب العام من خلال القنوات الإذاعية والفضائية. كان هذا المشروع الأيديولوجي يشبه استراتيجية الحرب الباردة التي أطلقتها وزارة الخارجية الأمريكية، والتي دعمت فيها تيارات المعارضة في الاتحاد السوفياتي السابق، إلا أن حملة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر كان لها "أجندة لاهوتية علنية"، وأنشئت بغرض إصلاح الفكر والممارسات الدينية الإسلامية. وعندما أصبح الترويج للتصوف هو حجر الزاوية في هذه الحملة اللاهوتية، بدأت الولايات المتحدة بدعم القادة والمؤسسات الصوفية في البلدان النائية، من إثيوبيا إلى إندونيسيا. لكن في باكستان وبريطانيا، نفذت "الاستراتيجية الصوفية" بعمق أكبر، وجذبت معارضة أكثر.

القوة الصوفية

بحلول خريف عام 2005م، وبعد بضعة أشهر من تفجيرات لندن، كانت حكومة بلير تناضل من أجل سياسة إسلامية جديدة. بدأت سلطات الدولة تبحث عن محاورين جدد في المجتمع البريطاني المسلم بحجة أن بريطانيا كانت تخسر "معركة الأفكار" لصالح القاعدة، وأن المسلمين البريطانيين كانوا ينجرفون نحو "الفصل العنصري الطوعي". لم يعد يُنظر إلى النشاط السلفيين، الذين تأثروا بحرب العراق، على أنهم قوة هادئة وتقليدية؛ خاصة بعد ظهور جماعات متطرفة مثل "المسلمين ضد الحروب الصليبية" و"إسلام فور يو كي" (66) تحتج على الاستعراضات العسكرية وتحرق الخشخاش في يوم الذكرى. نُظر إلى "المجلس الإسلامي البريطاني" الراسخ (MCB) باعتباره يتمرّد سياسياً ولا يقوم بما يكفي لمكافحة التطرف. في أغسطس 2006م، وبعد وقت قصير من الحرب اللبنانية الإسرائيلية، قدّم المجلس الإسلامي البريطاني رسالة مفتوحة إلى توني بلير مفادها أن سياسته الخارجية في العراق ودعّمه لإسرائيل قدّما "ذخيرة للمتطرفين". رُفضت الرسالة، وخُفضت العلاقات مع المجلس الإسلامي البريطاني. وأعلن بلير أنه من واجب

المسلمين المعتدلين أن يقفوا أمام أولئك الذين لديهم "شعور زائف بالظلم" ضد الغرب. بدأ داوونغ ستريت (67) بتمكين القادة المتصوفة لمواجهة النفوذ الإسلامي، وتمويل مختلف المنظمات، بما في ذلك "المجلس الصوفي الإسلامي"، "راديكال ميدل واي" (68) ومؤسسة "كويليام"، وهي "مؤسسة فكرية لمكافحة الإرهاب" يقودها عضوان سابقان من حزب التحرير.

قدمت هذه المنظمات الجديدة سرداً مضاداً يرفض الأفكار السلفية الرئيسية. يروي الإسلامي إد حسين -أحد مؤسسي "كويليام"- في مذكراته التي أصبحت من الكتب الأكثر مبيعاً، كيف ترك الإسلام الصوفي الذين كان يعتنقه والداه عندما كان شاباً وانضم إلى المتشددین في حزب التحرير، وكيف أنه عاد إلى التصوف، رفض المؤلف فكرة "الأمة" باعتبارها "كذبة كبيرة" تنص على أنه يجب على المسلمين البريطانيين أن يصبحوا جزءاً من الأمة الإسلامية في المملكة العربية السعودية أو باكستان، بدلاً من الدولة القومية البريطانية، ووصفها بأنها حماقة. بدأ البريطانيون البارزون الذين اعتنقوا التصوف في الظهور على شاشة التلفزيون بقوة وانتقدوا الحركة السلفية في بريطانيا. قال عبد الحكيم مراد (تيموثي وينتر)، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة كمبردج، "أظن أن ما يفعله السعوديون في غيتوات الإسلام البريطاني سلاحٌ مميّثٌ موجه ضد مستقبل المجتمع". كما انتقد هجمات السلفية على الممارسات الصوفية، "التي تشبه تماماً رغبة البروتستانت في التخلص من القديسين والمزارات، وأرسطو والإكويني في التخلص من اللاهوت في القرون الوسطى، كذلك حكم السلفيين "بالكفر" على معظم الممارسات المعيارية للإسلام في شبه القارة الهندية". نظم برنامج الحكومة "منع التطرف العنيف" عرضاً للباحثين البريطانيين والأمريكيين المتصوفة جابوا خلاله جميع أنحاء بريطانيا ليتحدثوا إلى الشباب المسلم.

كانت المنظمات الصوفية التي تم تأسيسها حديثاً مثل "كويليام" و"المجلس الصوفي الإسلامي" مقربة من واشنطن، وتدعمها وزارة الخارجية علناً. تشاور رئيس المجلس الصوفي الروحي الشيخ هشام قباني -ممثّل الطريقة النقشبندية الحقانية- مع الرئيس بوش بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتحدث إلى مراكز الأبحاث في واشنطن عن الإمكانيات السياسية للصوفية. بعدها سافر رجال الدين الأمريكيون الذين يملكون ميولاً صوفية، مثل حمزة يوسف ونوح كيلر، إلى لندن وبدؤوا العمل مع "راديكال ميدل واي" لتقديم إسلام بديل. سافر يوسف، وهو إمام أمريكي بارز ومستشار للرئيس الأمريكي بوش، إلى بريطانيا في أكتوبر 2001م وتحدث أمام مجلس اللوردات. وردت انتقادات مارغريت ثاتشر بأن المسلمين البريطانيين لم يدينوا المتطرفين بصوت عالٍ بما فيه الكفاية. ووجه يوسف حديثه إلى الشباب المسلمين

الذين انتقدوا الغرب قائلاً، "أقول لهم، إن لاموا الغرب وهاجموه، فينبغي عليهم الهجرة إلى بلد مسلم. وإلا فعلى المسلمين أن يعترفوا بحسن نية البلدان الغربية تجاه المهاجرين".

أقنع الهجوم الصوفي الذي قاده رجال الدين الأمريكيون -إلى جانب الملاحقة الحكومية- بعض السلفيين البريطانيين المتشددين لإعادة النظر في فهمهم للإسلام. لكن الأهم من ذلك، أنه شجع الطرق الصوفية الأخرى على الكلام. قدم حمزة يوسف على وجه الخصوص ما وصفه أحد علماء الاجتماع بأنه "شكل فكري نشط من أشكال الصوفية الكلاسيكية" التي لاقت استحسان عدد كبير من الشباب المسلم: وكانت إحدى نتائج هذا "الرد الصوفي المضاد" أنه شجع الطرق الصوفية التقليدية في جنوب آسيا، والتي كانت خاضعة حتى ذلك الحين للإسلاميين. بحلول منتصف عام 2000م، تخلى عدد من القادة السلفيين البريطانيين عن خطاباتهم النارية، وتوقفوا عن مهاجمة الممارسات الصوفية مثل المولد، وأسقطوا لقب "أبو" المفضل لدى السلفيين واعتمدوا اللقب التشريفي "سيدي" بدلاً من ذلك. كما اعتذر أبو منتصر، المعروف آنذاك بـ "السلفي الخارق"، علانية وبحزن عن خطاباته النارية السابقة عقب تفجيرات لندن. وبدأ هو وغيره من السلفيين البارزين في مشاركة المسرح مع يوسف، في محاولة لعكس الاستقطاب السياسي لفترة التسعينيات.

كان دور الموسيقى -والموسيقى في المجال العام- منذ البداية عنصراً أساسياً في الهجوم الصوفي المضاد. كان حمزة يوسف ينتقد الموسيقى الشعبية بشدة في التسعينيات، مشيراً إلى أن الثقافة الشعبية هي "ثقافة زومبي"، وهاجم كفراً وانتقد الهيب هوب. خفف يوسف معارضته للثقافة الشعبية والموسيقى في عام 2000م، ربما لأنه لاحظ مدى أهمية الهيب هوب كآلية للوصول إلى الشباب. بدأ برنامج "المنع" في تمويل الفعاليات والبرامج الموسيقية، من "الهيب هوب الإسلامي" في "راديكال ميدل واي" وحتى جماعة "أولفاه" (69). في برمنغهام، بالإضافة إلى رعايته لجولات الأئمة المتصوفة. كانت الموسيقى بالنسبة للنشطاء المتصوفة، وسيلة لإعلان اختلافهم عن السلفيين، الفوز بالرأي العام والتقرب من الشباب "المعرضين للخطر". ظهرت الموسيقى بشكل بارز في المناسبات العامة للمجلس الصوفي، مع عروض فرقة النقشبندية، الذين كانوا يسافرون غالباً مع الشيخ قباني. سعى المجلس الصوفي في مؤتمر "الطريقة"، ومؤتمر "الألوان المتحدة للمتصوفة" (70) في لندن عام 2009م، لبناء تحالف مع الطرق الأخرى، كانت العروض تشتمل على فنانيين من الذكور والإناث، بما في ذلك شيكو سليمان، فنان البوب والمتعري السابق (الذي تم اكتشافه في برنامج المواهب

البريطاني أكس فاكتر (The X Factor)، مع مجموعة من الرجال تدعى "عاشق الرسول"، وفرقة مكونة من فتاتين تدعى "لآلئ الإسلام"، وتغنيان بمصاحبة درامز وغيتار.

ليس من الواضح لمَ اعتقد صانعو السياسة البريطانيون والنشطاء المتصوفة أن الموسيقى قادرة على مواجهة التشدد، والوصول إلى الشباب المعرض للخطر؛ كانت التجمعات الدينية التي تقدم فنانات إناث يعزفن على الآلات موسيقية طريقة ناجحة لإبعاد المسلمين المحافظين الذين ينتابهم الحذر دائماً من الموسيقى في المناسبات الدينية، أو تعرضهم لسماع الموسيقى بالقوة. (في يوليو 2010م، سحب مئات الآباء والأمهات في لندن أطفالهم من دروس الموسيقى في المدارس الابتدائية حتى لا يقوموا بالعزف على الآلات الموسيقية خلال شهر رمضان). لم يتأثر الشباب الساخط الذي استهدفه المجلس الصوفي بالمنظمة أو خطب الأميركيين الذين دخلوا الإسلام. كانت الصوفية بالنسبة للشبان المسلمين في المناطق الحضرية، في بريطانيا والولايات المتحدة، "بيضاء للغاية"؛ نسخة الإسلام نفسها التي قدمها معتنقو الإسلام البيض منذ القرن التاسع عشر. استاء العديد من الشباب المسلمين بشكل خاص من حمزة يوسف الذي طلب منهم مغادرة بريطانيا. ووصفت مجلة "IslamOnline" رجل الدين الأمريكي بـ "الشيخ الأبيض العظيم، المدافع عن "قيادة الشاحنات الصغيرة، والتلويح بالأعلام، وصياح الأولاد البيض الصالحين بكلمات مثل (أمريكا، أحبها أو اتركها)". (لكن للإنصاف، سينهي حمزة يوسف بعد فترة وجيزة تحالفه مع إدارة بوش، ويبدأ في التعبير علانية عن عدم ارتياحه للمجاورة الصوفية -السلفية).

بدأت المعارضة بالعمل ضد سياسة حكومة بلير الصوفية والمنظمات الصوفية الجديدة. اتهم المنتقدون الحكومة بأنها تفضل التحدث إلى المؤسسات الصوفية الهامشية التي لا تحظى بتأييد شعبي كبير، بدلاً من منظمات أكثر رسوخاً مثل "المجلس الإسلامي البريطاني" الذي أدان التطرف وانتقد السياسة الخارجية البريطانية. تحدث ناشطون محليون مثل سلمي يعقوب، عضو مجلس مدينة برمنغهام، بشكل علني عن أن أموالاً ذهبت فقط إلى من لم يعلنوا أن السياسة الخارجية البريطانية تحرض على التطرف الداخلي. وأبدى آخرون القلق من أن تعبئة الصوفية كـ "إسلام صالح" كانت تزرع الخلاف أكثر، ويمكن أن تثير "حرباً أهلية" داخل المجتمع البريطاني المسلم.

امتدت سياسة بريطانيا الرامية إلى تعزيز الصوفية إلى جنوب آسيا، حيث قيل إن المسلمين البريطانيين كانوا يتعلمون التطرف في المدارس الدينية

الباكستانية والأفغانية. صعدت المعارضة خطابها ضد "الصوفية التي ترعاها الدولة" عندما بدأت حكومة برويز مشرف والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية دعم المؤسسات الصوفية في باكستان. أسس مشرف المجلس الصوفي الوطني في أكتوبر 2006م لتحقيق "اعتدال مستنير" في السياسة الباكستانية ولتحسين صورة البلاد خارجياً. وفي يونيو 2009م أنشأ خليفته رئيس الوزراء يوسف غيلاني، مجلساً استشارياً صوفياً مؤلفاً من سبعة أعضاء لمواجهة ظهور طالبان من جديد عن طريق نشر الفكر الصوفي من خلال المؤتمرات والمهرجانات. كان أساس هذه المبادرات محلياً ودولياً هو الترويج للموسيقى والمعاهد الصوفية مثل SayArts التي تنتج "القوالي". في يوليو 2010م، بعد شهرين من محاولة مواطن باكستاني تفجير قنبلة في ميدان التايمز، نظمت البعثة الباكستانية في الأمم المتحدة مهرجان قوالي في ساحة الاتحاد في نيويورك ليظهروا للعالم باكستان "الحب، السلام والمسامحة". جادل مسؤولون باكستانيون بأن إحدى طرق دحر طالبان والمتطرفين الوهابيين الذين كانوا يهاجمون الأضرحة ويشجبون الموسيقى (قامت طالبان بمصادرة آلات موسيقية وحرقتها علانية في عام 1998م) هي حشد شعر السادة المتصوفة العظماء. حيث يمكن للشعر والموسيقى نشر خطاب الإسلام الصوفي. ظهرت التوترات بين المتصوفة والإسلاميين والنظام الباكستاني في ثقافة الشباب الباكستانيين منذ أواسط التسعينيات، لكن عندما قرر مشرف نشر الموسيقى الصوفية للتطهير، اتخذ هذا التفاعل منعطفاً غير متوقع.

طالبان والغيتار

جونون (باللغة الأردية "هوس") هي فرقة روك باكستانية رائدة، أسسها سلمان أحمد، الذي قضى مراهقته في نيويورك يستمع إلى لد زبلين (71) وفان هالين (72) قبل عودته إلى لاهور في عام 1981م. جرب سلمان في شبابه مزج شعر شعراء المتصوفة أمثال الرومي وبلهي شاه مع موسيقى الروك التي سمعها في أمريكا، ومزج عزف الغيتار المنفرد مع القوالي "التعزيم التعبدي الذي تصاحبه طبلية وتصفيق يدوي". كان سلمان، الذي نشأ خلال الحرب السوفياتية-الأفغانية وشاهد صعود الوهابية في باكستان، يحلم بإطلاق "جهاد ثقافي" ليعيدنا إلى جذورنا الصوفية المتمثلة في التعايش والقبول والنشوة الموسيقية". عندما أصبح ألبوم أزادي (الحرية) لفرقة هوس الأكثر مبيعاً في عام 1997م، قفزت الفرقة إلى دائرة الضوء العالمية؛ رأى سلمان تأثيره ينمو، لكن "الروك الصوفي" جذب غضب المسؤولين الحكوميين.

رأى جونون أنفسهم جزءاً من التقليد الباكستاني القديم المتمثل في الاحتجاج بواسطة الشعر، فهم كمقاتلين موسيقيين، يستخدمون الأبيات لتحدي حكومة نواز شريف. ولكنهم أغضبوا الحكومة والملا عندما أطلقوا تسجيلاً حول الفساد والمحاسبة، وغنوا أشعاراً للشاعر الباكستاني العظيم محمد إقبال، بغيتار كهربائي يستخدم فيه مضخم صوت. بدا أن استخدام الشعر الصوفي سبب غضباً أكثر من كلمات المحاسبة. كتب سلمان أحمد في كتابه "جهاد الزوك أند رول (73)"، "كنا نعزز التراث الصوفي الأصيل لباكستان، نقيض الوهابية التي نحتها في البلاد الجنرال ضياء الذي كان عراب شريف". كانت الفرقة تحتفل بالإسلام الصوفي غير التقليدي الذي اصطدم بالتفسير الضيق للإيمان الذي استخدمه مسؤولو الدولة لتعزيز الدولة القومية الباكستانية واسترضاء الجماعات الإسلامية التي لا تعد ولا تحصى والتي ظهرت خلال الحرب الباردة. بعدها، تم منع جونون من الظهور على المحطات التلفزيونية والإذاعية، واتهمتهم الحكومة بـ"التقليل من مفهوم أيديولوجية باكستان". كما قام نواز شريف بمنع كل موسيقى البوب من الإذاعة على موجات الأثير في عام 1997م كتنازل مقدم للمتدينين المحافظين في البلاد.

تم رفع الحظر عن جونون في أكتوبر 1999م، عندما أطاح الجنرال مشرف بشريف وبدأ عملية الإصلاح السياسي. وكبرهان على انفتاح النظام الجديد وجدت فرقة جونون نفسها فجأة على عدة قنوات محلية. دعا مشرف جونون لتقديم عرض في ضريح مؤسس باكستان محمد علي جناح في ذكرى ميلاده. عينت الأمم المتحدة سلمان سفيراً للنوايا الحسنة ودعت المجموعة للعزف في "حفلات السلام" حول العالم. أصبحت الدبلوماسية الثقافية الصوفية هي الرد على "صراع الحضارات" بعد الحادي عشر من سبتمبر. كان "تحالف الحضارات" الذي أطلقته تركيا وإسبانيا والبرازيل يستمد الإلهام من الشاعر المتصوف جلال الدين الرومي الذي عاش في القرن الثالث عشر. أعلنت الأمم المتحدة عام 2007م عام مولانا والتسامح تكريماً لذكرى ميلاد الرومي الثمانمائة. تولت فرقة جونون دوراً دبلوماسياً أكبر في ظل هذا المناخ، فأصدروا أغنية باللغة الإنجليزية تدين العنف السياسي، وقدموا أداءً في الجمعية العامة للأمم المتحدة مع فرقة هندية.

بدأ الشباب الآسيويون الباكستانيون والبريطانيون ينقلبون ضد جونون مع مرور سنوات مشرف. أصبح هؤلاء الرواد الذين كانوا ملهمين ومعارضين في التسعينيات جزءاً من "الاستراتيجية الصوفية" لبوش وبليز الآن. عندما دعت وزارة الداخلية ومؤسسة "كويليام" سلمان أحمد لتقديم أداء في الجامعات البريطانية وأخبروا الصحافة، "يمكنك أن تجابه التطرف من خلال قول الحقيقة، وإذا أتى ذلك من قوة الغيتار، فلم لا"، بدا أن تلك كانت القشة

الأخيرة للكثيرين. كتبت مدونة London Muslim "" الشهيرة، "آخر حماقة تخرج من (برنامج المنع) هي استخدام نجم مسلم باكستاني لأداء بضع أغان وكان ذلك سيحل المشكلة... يا لهم من مجموعة من البلهاء، وليس من المستغرب أن المهرجين في "كويليام" لهم يد في الأمر. بدلاً عن توضيح السبب الصريح للكراهية التي ولدتها مغامرات السياسة الخارجية لهذا البلد في الأراضي المسلمة، فإن النصيحة التي حصل عليها الرجال الذين يرتدون البدلات من "كويليام" كانت أن يقدموا لنا بضع أغان". حتى الأطفال البريطانيون الذين لم تكن لديهم مشكلة مع الموسيقى أو الصوفية كانوا يشكون في نشر الحكومة للموسيقى الصوفية، ويرون أنه تكتيك تضليلي. لا تزال تصريحات بلير "المظالم الكاذبة" لاذعة بالنسبة لظهرت ثقافة مضادة جذابة في مشهد الشباب المسلم العابر للحدود رداً على هذه السياسة الصوفية. امتدت من أمريكا الشمالية إلى بريطانيا وباكستان. ظهرت حركة تدعى تقواكور (التي تجمع بين التقوى (piety) و"hardcore")، تتكون من صغار مغني البانك -نحو 12 فرقة أو أكثر- سئموا من عداء الإسلاميين للموسيقى واستخدام الحكومة للموسيقى، سواء للدبلوماسية أو للتعذيب. على الرغم من استخدامهم لمصطلح "التقوى" الإسلامي، إلا أن مغنو البانك هؤلاء يتمتعون بسلوك إحدادي، فوضوي، مناهض للمؤسسات يذكرنا بمجموعات البانك في السبعينيات في إنجلترا. يقول باسم عثمانى، عازف الغيتار الرئيس والمغني في كوميناس ("الأوغاد" بالبنجابية)، وهي أشهر فرقة من ثقافة تقواكور الفرعية، "تعني التقوى في الإسلام (الخوف من الله)، لكن بالنسبة لنا، فإنها تعني "الإرهابيون متكيفون تماماً - Terrorists Are Quite Well-Adjusted!"

تتكون فرقة كوميناس من ثلاثة أمريكيين من أصول باكستانية نشؤوا بين بوسطن ولاهور في التسعينيات، وتجمعوا معاً -مثل "الباكستانيين" (74) الآخرين- للتعبير عن مواقفهم تجاه الموسيقى في المجتمع الأمريكي المسلم. وقد تم طردهم من المؤتمر السنوي للجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية في عام 2007م لغنائهم أغنية عن عائشة زوجة النبي. لكن سرعان ما وجه هذا الثلاثي المنخرط سياسياً اهتمامه نحو نشر الحكومات الأمريكية والباكستانية للشعر الصوفي؛ وحنقوا على جونون. كان أسلوب حياة جونون البذخ وارتباطهم برؤساء الدول والعبث بالتراث الصوفي الثمين للبلاد لأغراض دبلوماسية، أمراً لا يمكن احتماله بالنسبة لأولئك الصبية من الطبقة العاملة من بوسطن. وصلت الأمور إلى ذروتها عندما أطلقت الكاتبة المحافظة والمتبرعة الجمهورية من كولورادو أسماء غول حسن، ابنة عم مؤسس جونون سلمان أحمد، حملة باسم "مسلمو بوشي" لدعم حملة إعادة انتخاب الرئيس السابق في عام 2004م، واستخدمت ألبوم جونون "الروك

الصوفي" في حملتها. كان اعتراض كوميناس: أن الأبيات الصوفية الباكستانية الثمينة تُستغل لحشد الدعم للرئيس بوش. كتب باسم عثمانى، الذي يقدم عموداً لصحيفة الغارديان في لندن، مقالاً يستنكر "استغلال" التصوف. أصدرت المجموعة أغنيتين هجومتين "Diss Songs" ضد جونون وأسماء حسن؛ الأولى ("أريد الجنس الفموي") لتوبيخ جونون، والثانية ("أريد الجنس اليدوي") متهمين حسن بتقديم جنس يدوي "قذر جداً". (قدمت حسن دعوى قضائية ضد الفرقة لكنها لا تزال معلقة). سافر كوميناس إلى بريطانيا أيضاً، وتحدثوا عبر إذاعة بي بي سي آسيا، حيث حاولوا الرد على المعارضة السلفية للموسيقى، وحدثوا الشباب عن كيف أعطى البانك والريغي صوتاً للشباب البريطاني الفقير في المناطق الحضرية. كانت الفرقة تكتب أغان ضد النخبة والنظام الأبوي في باكستان. كما كتب باسم عموداً غاضباً ضد الطريقة التي دفع بها المتصوفون في باكستان "ثمناً باهظاً" بسبب احتضان مشرف لهم.

بعيداً عن الاحتجاج الموسيقي، تعجب المعلقون السياسيون في باكستان حول الاستراتيجية الأمريكية التي استهدفت المتشددین الإسلاميين من السماء، بينما كانت تحاول إقامة إسلام صوفي متسامح على الأرض، وتروج للمهرجانات وتبني جامعة صوفية. اتفق المؤرخون بشكل عام على أن الصوفية يمكن أن تساعد في مواجهة السلفية؛ كانت المقامات وأضرحة الشيوخ المنتشرة في جميع أنحاء باكستان مبعلة بواسطة السنة والشيعة، ويمكن أن تسد الفجوة بين السنة والشيعة وتثبط التطرف الطائفي بسبب "طبيعتها العابرة للحدود"، دون ربطها بالسياسات الأمريكية؛ لأن هذا الارتباط يعرض الصوفية ببساطة لأعمال انتقامية عنيفة. وقد ذكرت صحيفة "تايمز أوف إنديا" أن المتصوفة الباكستانيين أصبحوا ضحايا "توقعات الغرب الكبيرة"، عندما فجر شابان نفسيهما في مزار في ولاية البنجاب في أبريل 2011م.

تم انتقاد المحاولات الأمريكية لصياغة المعتقدات والممارسات الإسلامية عبر أفريقيا وآسيا. تحدثت وزارة الخارجية علناً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عن حشد "المعتدلين من السكان الأصليين"، وأقام جون برينان قيصر مكافحة الإرهاب علاقات حميمة مع الإمام فيصل عبد الرؤوف زعيم الرابطة الصوفية الإسلامية الأمريكية، وأرسله في بعثات دبلوماسية حول العالم. لكن على الصعيد الداخلي، وعلى الرغم من الانفتاح على "غولن"، لم تؤيد الولايات المتحدة صراحة الإسلام الصوفي على فروع أخرى من الإسلام، وذلك بسبب التعديل الأول وبند التأسيس، الذي ينص على حياد الدولة أمام جميع الأديان. دعمت السفارات الأمريكية ووكالات التنمية في الخارج بشكل

سري (وعلني) تفسيرات الإسلام المواتية للمصالح الأمريكية، ضد تلك التي لم تكن كذلك. وكما شرح أحد المسؤولين الأمريكيين، "إذا اكتشفت أن الملا عمر يعظ في زاوية شارع ما، جهز الملا برادلي في زاوية الشارع الأخرى لمواجهته". عندما تم إرسال رجال الدين المتصوفة الأمريكيون، مثل حمزة يوسف وفيصل عبد الرؤوف إلى الخارج، تم اختيارهم وفقاً "لمعايير لاهوتية". وبالمثل، عندما قام مسؤولون أميركيون في العراق بقيادة الجنرال دوغلاس ستون، بتجميع وتوزيع "أكثر الأحاديث اعتدالاً في العالم" على المساجد في بغداد، قاموا بتأسيس تفسير كتابي متوافق مع الأهداف الاستراتيجية الأمريكية. تساءل النقاد، إذا كانت هذه التدخلات اللاهوتية محظورة في الولايات المتحدة، فلم تحاول الحكومة الأمريكية "ترسيخ" الدين في أوروبا وآسيا؟ جادل الباحث القانوني جيسي ميريام تعليقاً على قيام الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بتمويل منظمات إسلامية مختلفة في إندونيسيا، بأنه "إن كانت الولايات المتحدة قد منعت هذه الأنواع من المنظمات في الداخل، فإن التمويل الخارجي يعتبر غير دستوري".

حتى في بريطانيا -التي لا تملك بند التأسيس نفسه مثل الولايات المتحدة- تعرضت حكومة بلير للانتقادات لمحاولتها فرض التغيير اللاهوتي. عندما قطع هازل بليرز، عضو حكومة بلير، العلاقات مع المجلس الإسلامي في بريطانيا بسبب تصريحات أدلى بها نائب سكرتيرها بشأن حرب غزة في يونيو 2009م، وحاول إجبار المسؤول لتقديم استقالته، اتهم النقاد الحكومة بأنها كانت تحاول تأسيس "إسلام رسمي"، وأن الإلهيات لا ينبغي أن تكون جزءاً من سياسة مكافحة الإرهاب. انتقد المسؤولون الأمنيون البريطانيون أيضاً "السياسة الصوفية"، وإن كان ذلك من زاوية مختلفة، بحجة أن السلفيين لديهم صداقية في الشارع وقدرة على السيطرة الاجتماعية تفتقر إليها المنظمات الصوفية التي تمولها الحكومة. شجب روبرت لامبرت، رئيس وحدة الاتصال الإسلامية في ميت في جنوب لندن، والذي عمل عن قرب مع مسجد ابن تيمية في بريكستون، التشهير بالمسلمين السلفيين في الخطاب العام، وسياسة تشجيع المتصوفة على القيام بأعمال لـ "مكافحة التطرف" ضد السلفيين والإسلاميين، قائلاً إنه ليس أمراً مجدياً ويقدم ببساطة الذخيرة لأولئك الذين يزعمون أن المملكة المتحدة والغرب يستخدمان التكتيكات الاستعمارية الجديدة مثل (فرق تسد) عند التعامل مع المجتمعات الإسلامية. لم يساعد ارتباط المنظمات الصوفية بدوائر المحافظين الجدد في الولايات المتحدة أيضاً. ولا تزال الشائعات تنتشر بين المسلمين البريطانيين بأن المجلس الصوفي المسلم هو واجهة لوكالة الاستخبارات المركزية.

أعادت الحكومة تأسيس العلاقات مع المجلس الإسلامي البريطاني مع وصول ديفيد كاميرون إلى السلطة، وخفضت تمويل "كويليتام" التي أثقلت زعماءها إلى واشنطن. على نحو مماثل، تم وضع "الاستراتيجية الصوفية" على الرف في الولايات المتحدة، بحلول الوقت الذي وصل فيه أوباما إلى السلطة؛ استمر نشر رجال الدين والموسيقيين المتصوفة كسفراء للنوايا الحسنة، لكن الحكومة الأمريكية لم تعد تحرك المتصوفة ضد السلفيين.

الliche جميلة

كصبي كانت لحييتي خجولة

والآن تصرخ بوجهك أويبي!!

أنت منزعج

لأنك لا تستطيع تجاهل الأمر

الشعيرات!

إنها رسمية،

إنها في كل مكان

من برادفورد إلى بريستول!

تومي إيفانز(75)

(أبو صفا) مغني هيب هوب سابق

تذكرنا الأنماط الجمالية في شوارع برمنغهام بفيلا دلفيا (الشباب الذين يرتدون السترات البيضاء وأحذية الركض "أديداس"، والنساء اللواتي يرتدين الجلباب الملون والحجاب). ما هو مختلف حول المقاطعة السلفية في وسط برمنغهام هو تنوعها المدهش، فهي موطن الأتباع من جميع أنحاء العالم - من الهنود الغربيين، الأميركيين، البربر، الصوماليين، السويديين والبنغال وغيرهم - الذين انجذبوا إلى هذه المدينة في غرب ميدلاندز، والتي برزت كمركز أوروبياً للفكر والحياة السلفية.

"كيف نخلق روحانية إسلامية حضرية؟" يقول محمد علي الذي يرأس معرض "هَبّ" الفني في برمنغهام، وهو يسير في شارع كوفينترى، وهو شارع تصطف على جانبيه دكاكين ومحلات تجارية على الطراز الإسلامي، بما في ذلك محل الكتب السلفية الأشهر على مستوى العالم. حتى في برمنغهام، يفكر ناشطون شبان في كيفية التعامل مع تجاوزات ثقافة الهيب هوب، والقيود الإسلامية ضد الموسيقى، وجهود الحكومة لاستخدام الفن الصوفي. يقول علي، الذي تنتشر صورهِ الجدارية الملونة -التي تمثل آيات من القرآن الكريم عن التعاطف والمرونة، مرسومة بالخط العربي المزخرف- في مدينة برمنغهام، "لم أعد فخوراً بأعمالي السابقة". يتوقف عند حائط كتبت عليه كلمة "المعرفة" فوق مشهد ناطحات سحاب ملونة بشدة، ومطلية باللون الأصفر والبرتقالي والأسود ويقول، "اعتدت القيام برسوم جدارية بطريقة الهيب هوب؛ وذات يوم كنت أرش حائطاً بأحرف فقاعية، عندما جاءني شقيق أمريكي وقال لي: "لماذا تحول منطقتنا إلى برونكس؟" وكان محقاً. كانت أعمالي السابقة مبهجة جداً، ولم تحترم البيئة. بالإضافة إلى ذلك، فإن زخرفة الجدران على طريقة الهيب هوب هي صوت الغيتو الأمريكي، وهذا ليس غيتو أمريكي". تعرض رسومات على الجدارية اليوم ألواناً أكثر نعومة وتصاميم موزيسكية خفية -دون نغمات متضاربة وأحرف فقاعية- مما يعكس إنهاكاً شديداً بعد عقدين من الصراع.

قد لا تكون السلفية خفت أو نظفت موسيقى الهيب هوب، لكنها أجبرت بعض الشباب المسلمين على التفكير في تجاوزات هذا النوع. ويبدو أن ثقافة الهيب هوب قد استوعبت ببساطة التأثير السلفي، لأنها بالفعل ارتجالية. يوجد في المدن الأوروبية بصورة شائعة ما يسميه الصحفي ريتشارد ريدي "المظهر الورع" -اللباس غير المبهمة، القبعة والقميص ذو الأكمام الطويلة الذي كتب عليه باللغة العربية- وغالباً ما يقترن ذلك ببعض المجوهرات والأنشطة التي لا يؤيدها المسلمون. وهكذا، على النقيض من ادعاء أوليفيه روي أن السلفيين يرفضون جميع "الاختلافات الثقافية"، فحتى المبشرين السلفيين الذين يعارضون بقوة الهيب هوب يخونون التأثيرات الثقافية في اللغة واللباس وسوق ريادة الأعمال. ومن المفارقة أن الانتفاعية هي إحدى السمات المشتركة بين السلفيين وثقافة الهيب هوب السائدة. عاد نابليون إلى المملكة العربية السعودية بعد الانتهاء من جولاته الأوروبية للترويج لماركته التجارية للملابس الإسلامية "Trendz" على الرغم من كل نقده للثقافة المادية المريضة. هذه الحملات الريادية المبتكرة -مثل البيتزا الحلال، وماكدونالدز الحلال، والبيرة الحلال، ومكة-كولا، و"الملابس الإسلامية"- وارتباط السلفيين مع الشبكات الاقتصادية العابرة للحدود تجعلهم جذابين لمسؤولي

الدولة، الذين يرون أن هذه المجموعات مهمة للغاية لإعادة إحياء الأحياء الفقيرة واحتواء الشباب المسلم.

بحلول أواخر القرن الحادي والعشرين، لم نعد نسمع الخطابات النارية التي تركز على العنف أو تكفير المسلمين الآخرين في المساجد في أوروبا أو أمريكا، وتم تفكيك الشبكات الجهادية إلى حد كبير؛ لكن السلفية ما زالت تؤثر في غيتوات المسلمين في أوروبا، وخاصة في بريطانيا. لم ينجذب الشباب المسلم الصاحب في برمنغهام وبرادفورد إلى المجلس الإسلامي الصوفي في بريطانيا، أو خطب المتصوفة الأميركيين. لا يختلف المزاج السياسي اليوم عن ذلك الذي كان عليه في أوائل القرن العشرين، عندما جادل الإصلاحيون الإسلاميون بأن الهيمنة الإمبريالية وتقسيم الأمة إلى دول قومية مختلفة، كانا عقاباً للانحراف عن الطريق الصحيح. أدى الاستعمار إلى نفور الزعماء المتصوفة، الذين تعاون الكثير منهم مع الحكام الإمبراطوريين. ومع صعود الحركات المعادية للاستعمار، بدأ المفكرون الإصلاحيون مثل الأفغاني ورشيد رضا في الدعوة إلى العودة إلى الأسس الكتابية والنبوية للإسلام - القرآن والحديث - وطمس كل الطقوس الثقافية و"البدع" التي تراكمت منذ القرن السابع. لدى السلفيين اليوم قراءة مماثلة للتاريخ: يعيش المسلمون في جميع أنحاء العالم في ظل دول ظالمة وهيمنة غربية لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وسمحوا للممارسات الثقافية - من الاحتفالات بالمولد إلى الهيب هوب - بتلويث الإسلام.

لكن هذا العداء للتصوف - إلى جانب العداء تجاه الشيعة، الليبرالية، الاشتراكية والنسوية - هو الذي يعزل الكثير من الشباب المسلمين عن الحركة السلفية. فالحقيقة، أنه وعلى الرغم من كل هيمنتها الأيديولوجية، لا تزال السلفية لا تفي برغبة المسلم الشاب في تبني سرديّة للعدالة الاجتماعية تعالج عدم المساواة والعنصرية والإمبريالية. يزعم المسلمون اليساريون أن الحركات السلفية، في انعزالها وانفصالها السياسي، هي في الأساس آلية للسيطرة الاجتماعية تسمح للحكومات باحتواء الشباب المسلم؛ والادعاء بأن السلفية تتجاوز الدولة القومية أو ثقافة معينة يكذبها ارتباطها بالمملكة العربية السعودية واحتضانها هوية عربية خليجية. أدت الجهود الأمريكية والبريطانية لتعبئة الصوفية ضد السلفية إلى الكثير من البحث عن الذات بين الشباب المسلم. ستقوم الحكومات الغربية بتعبئة الإسلام في الخارج - كما يحدث في ليبيا وسوريا - ولكنها تتخذ إجراءات صارمة عندما تصل هذه التيارات المحافظة إلى المدن الأوروبية أو الأمريكية، في حين تمنح مساحة في المجتمع لجماعات مسيحية أو يهودية متشددة للغاية وذات ميول محافظة وانفصالية.

سألت مجلة "الساموسا" المحلية في لندن، "كيف صارت الصوفية (عميل الإيمان للإمبراطورية الأمريكية؟)" كيف يمكن للإسلام السلفي المتشدد الذي يعارض السياسة، ويكره الآلات الوترية، ويمول من قبل النظام الأكثر رجعية في الشرق الأوسط، أن يصعد بوصفه ثقافة مضادة للشباب المسلم؟".

تم إظهار عبثية هذا الوضع ببراعة من خلال الكوميديا الجهادية السوداء "أربعة أسود" (2010م)، والتي تتبع قصة أربعة مهاجمين انتحاريين يسافرون من شيفيلد بإنجلترا إلى باكستان ومن ثم يعودون إلى إنجلترا، حيث يفجرون أنفسهم عن طريق الخطأ. يسخر الفيلم من شعور السلفيين بالتفوق الأخلاقي، وعلاقة الجهاديين المحبة والكارهة للهيبة هوب، والمنظمات الصوفية البريطانية. أحد هؤلاء الصبية الأربعة، مسلم أبيض غاضب يغني الراب ويصرخ فجأة، "الإسلام يتصدع! النساء يتواقحن، ويعزف الناس على آلات موسيقية!" وعندها بدأ أنفه ينزف، فضحك أصدقاؤه وسألوه، "أيهرول المجلس الصوفي داخل أنفك؟!".

الفصل الخامس

خلافة الجاز

المؤرخ الإنجليزي الراحل إريك هوبسباوم (76) هو الوحيد بين نقاد موسيقى الجاز الذي لاحظ الروابط المعقدة بينها وبين الإسلام والتوسع الأمريكي. كان هوبسباوم أحد هواة موسيقى الجاز طوال حياته، ومؤرخاً استثنائياً لسياسات القوى العظمى في ثلاثينيات القرن العشرين، والاتجاهات الثقافية والصراعات الناجمة عن صعود أمريكا. تأمل هوبسباوم في سيرته الذاتية "أوقات مثيرة للاهتمام" (77) فيما تعنيه موسيقى الجاز بالنسبة له -كشاب هرب من مدينة فايمار في ألمانيا، وأصبح معزولاً ومهاجراً في لندن- وللأوروبيين الآخرين الذين كانوا يشاهدون تدهور الأوضاع في جميع أنحاء القارة. كتب هوبسباوم: "بعد ما حدث في برلين، كانت إنجلترا حتماً هي التالية. افتقرت لندن في أوائل الثلاثينيات إلى أي (شحنة عاطفية)". ولكن كان هناك شغف واحد اكتشفه في العاصمة الإنجليزية، "موسيقى الجاز المنعشة". كانت الموسيقى بمثابة تذكير مؤثر لحياة برلين التي تركها، حيث كانت أمه وخالته تدندن وترقصن الفوكستروت على نغمات غيرشوين (78) الصادرة من الغرامافون، بالإضافة إلى أنها كانت إنذاراً قوياً لقوة أمريكا وإمكاناتها. ترمز موسيقى الجاز لأمريكا بالنسبة للأوروبيين من أبناء جيله: كانت الموسيقى في الأفلام، وكان لها جاذبية ديمقراطية، كانت حديثة وعالمية -ربما في أوروبا أكثر من الولايات المتحدة، حيث كانت الموسيقى لا تزال مرتبطة بالجنوب. أن تكون من محبي موسيقى الجاز بالنسبة لعضو شاب في الحزب الشيوعي (انضم هوبسباوم إلى التنظيم في برلين في سن الرابعة عشرة)، يعني أنك تقدمي، "ضد العنصرية وداعم للزواج" وتؤيد شعارات روزفلت الليبرالية، الصفقة الجديدة (New Deal) بالتحديد. سهل روزفلت وموسيقى الجاز للشيوعي المراهق "التصالح مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي" في الوقت ذاته.

عمل هوبسباوم كناقذ موسيقي لموسيقى الجاز في صحيفة "نيوستيتسمان" (79) على مدى عقد من الزمن في 1950م، يستكشف انتشار موسيقى الجاز في أوروبا ما بعد الحرب. كان يكتب تحت الاسم المستعار فرانسيس نيوتن، وفي عام 1959م نشر كتابه "مشهد الجاز" (80)، والذي يعد دراسة تاريخية لأصل وصعود هذا النوع من الموسيقى، تتبع فيه صحوة موسيقى الجاز بعد الحرب العالمية التي شهدتها. قارن فيه بين غزو الجاز لأوروبا وانتشار الإسلام: "وُلد الجاز. لكن الشيء الفريد في هذا الأمر ليس وجوده - فقد كان

هناك الكثير من الأشكال الموسيقية المتخصصة - بل توسعه الاستثنائي، الذي لم يكن له أي تواز ثقافي آخر في السرعة والنطاق، باستثناء التوسع المبكر للمحمدانية(81) قال هوبسباوم إن الجاز انتشر في جميع أنحاء العالم من خلال أفلام هوليوود، ودعم الحكومة الأمريكية، وقد أدرك المسؤولون الأمريكيون قوة موسيقى الجاز باعتبارها "عامل الدعاية لأسلوب الحياة الأمريكي" خلال الحرب الباردة.

كان دور الإسلام في عالم موسيقى الجاز أحد أفكار هوبسباوم التي لم تكن معروفة بشكل كبير. ما كان يتقاسمه موسيقيو الجاز الذين درّسهم "مع زنوج المدن الشمالية الكبرى الأخرى، هو التحول الجماعي إلى المحمدانية". لقد شاهد موسيقيي الجاز يعلنون إسلامهم، ويقرؤون القرآن، ويحاولون التحدث باللغة العربية، ورأى ذلك على أنه "ثورة ضد الدونية"، وجزء من "عقلانية جديدة" تحاول إعادة صياغة أشكال تقليدية من موسيقى الجاز التي تم ربطها بالجنوب ("موسيقى العم توم"). حاول المؤرخ الإنجليزي أن يحترم عملية اعتناق الإسلام ("سيكون سهلاً أن تسخر من مثل هذه البوادر الثورية، لكن ذلك خاطئ")، لكنه رأى أيضاً أن اعتناق الإسلام شكل مضلل للتمرد، يبعد هؤلاء الفنانين عن جذورهم الجنوبية، حيث تكمن أصول الجاز و"وضعه الثقافي"؛ وتكهن أنه مثلما رفض اليهود الصهاينة الثقافة اليديشية لارتباطها بظلم الشتيتل ومن ثم أعادوا اكتشافها لاحقاً، ورفضت النسويات الأوائل "الأغراض الأنثوية" ليتصالحن لاحقاً مع الفساتين الجميلة، سيعيد موسيقيو الجاز الذين رفضوا أصولهم الجنوبية باختيارهم "المحمدانية" احتضان الجنوب، بمرور الوقت وبفعل البعد، وسيكون هناك نهضة لنيو أورلينز في النهاية.

لكن الأمر لم يحدث بهذا الشكل تماماً. فكما لاحظ هوبسباوم، كان انتشار الإسلام في مجتمع الجاز الأمريكي منذ أربعينيات إلى ستينيات القرن الماضي سريعاً بالتأكيد وبدا كمحاولة لفك الارتباط مع الماضي الجنوبي؛ لكن تبين أنه ليس انتفاضة قصيرة بل جزءاً هاماً من حركة تحرير السود. كتب هوبسباوم عن شبابه في مذكراته: "لقد تبين أن الجاز هو المفتاح الذي فتح الباب لمعظم ما أعرفه عن واقع الولايات المتحدة، وجزئياً لما كانت في السابق تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا واليابان، والنمسا ما بعد الحرب، ولأجزاء غير معروفة من بريطانيا". لعب الإسلام دوراً مماثلاً لعازفي الجاز الأفارقة منذ أربعينيات القرن العشرين فصاعداً، ووفر هروباً نفسياً وثقافياً من قسوة الغيتو الشمالي، كـ "المفتاح" الذي فتح العوالم الثقافية والسياسية لإفريقيا وآسيا وبقية العالم المستعمر ومن ثم كافح لتقرير مصيره. لكن قصة الإسلام والجاز بدأت مع الهجرة الكبرى(82) في عام 1910م.

الشمس لا تغيب أبداً

اجتمعت فروع الغرب الأوسط للجماعة الأحمدية الأمريكية في ميلووكي في 20 سبتمبر من العام 2008م، في اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك وفق التقويم الإسلامي الهجري، للاحتفال بمرور مائة عام من الخلافة. الأحمدية (83) هي حركة إسلامية مبتدعة ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في البنجاب، في الجزء الغربي من الهند البريطانية. رأى مؤسسها الميرزا غلام أحمد القادياني نفسه كمجدد، أرسله الله من أجل إعادة إحياء الإيمان وتعزيز وحدة كل الأديان من خلال الإسلام. أعلن غلام أحمد نفسه مهدي الإسلام، المسيح الموعود للمسيحية والإسلام، وصورة رمزية من كريشنا للهندوس، فقدم رسالة شاملة عالمية ظهرت كاستجابة للتشيع الطائفي في الهند. ومن خلال التوعية التبشيرية اكتسب الكثير من الأتباع بحيث إنه وبحلول عشرينيات القرن العشرين، كان قادة الأحمدية يقومون بمهام في أجزاء مختلفة من أفريقيا وأستراليا والصين والولايات المتحدة.

ظل مقر جماعة الأحمدية في باكستان لعقود طويلة - أولاً في مدينة قاديان البنجابية ثم في ربوة، لكن المجموعة كانت هدفاً للاضطهاد دائماً. فادعاء المؤسس بأنه المهدي - شخصية ستظهر في نهاية الزمن - وإيمانه بـ "النبوة المستمرة"، وأن النبي محمداً لم يكن الأخير وخاتم الأنبياء، جعل جماعته هرطقية في عيون التيارات الإسلامية السائدة. وعندما عدلت الحكومة الباكستانية دستورها في عام 1974م لتعريف المسلم بأنه: "الشخص الذي يؤمن بأن النبي محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين"، فقد أعلنت الأحمدية كجماعة غير مسلمة. عانت الجماعة من القمع المتزايد. أصدر اللواء محمد ضياء الحق مرسوماً في عام 1984م يجعل من الممكن حبس الأحمديين "لتظاهرهم" بأنهم مسلمون؛ فتم نقل مقر الجماعة إلى إنجلترا.

تجمع مئات المسلمين الأحمديين من مختلف المساجد في أنحاء الغرب الأوسط، داخل حرم جامعة ويسكونسن في ميلووكي، لتناول الإفطار معاً والاحتفال بالذكرى المئوية للخلافة خلال تلك الظهيرة الدافئة ليوم السبت. كان الجو ممتعاً: يركض صبية يرتدون عمامات ملونة على سلالم قاعة الطلاب؛ يحمل مراهقون أطباقاً من الأرز بالزعفران ودجاج التندوري وأباريق الحليب وصناديق التمور والحلويات ذات الألوان الزاهية. كان تنوع عمامات الرأس مذهلاً، فكل عمامة تمثل إعلاناً لهوية ما، مؤشراً عن العمر، الحالة الاجتماعية، الخلفية القومية، مستوى التقوى ودرجة الحكمة: ارتدى الصبية قبعات ذهبية مطرزة مقدمتها مفتوحة لتظهر قصات شعرهم؛ وارتدت الشابات (حسب العمر) أوشحة ملفوفة بطرق متنوعة ذات ألوان غامقة أو من

الباستيل؛ ارتدى الآباء قبعات الباكول المصنوعة من الصوف الأفغاني، وارتدى الأجداد عمام بيضاء، بعضها ملفوفة بشكل فضفاض، وأخرى ملفوفة بإحكام مع نهاية مرتفعة.

قدّم الحضور إلى القاعة الرئيسية للاستماع إلى رسالة متلفزة من لندن للخليفة الخامس الميرزا مسرور أحمد، (الذي انتخب في عام 2003م)، كان معظمهم من الباكستانيين والأمريكيين الأفارقة. قدّم الزعيم الروحي لجماعة الأحمدية رسالة دعم لجماعة أمريكا، وهنأهم على عملهم وتمنى لهم رمضاناً كريماً. ثم تحدث الإمام حسن حكيم الذي يرأس فرع إيلينوي في المجتمع، وقام بتهنئة مساجد الغرب الأوسط على مبادراتها المختلفة والجهود التوعوية في أحيائها، من المخازن الغذائية إلى الإرشاد الصحي؛ وقدم جوائز أكاديمية لطلاب المدارس الثانوية الذين يجلسون في الصف الأمامي. خيم جو من الحزن على القاعة حين أخبر حكيم الحضور أنه قبل أسبوع قتل اثنان من أفراد مجتمعهم - وهما طبيبان باكستانيان عادا إلى أرض ميلادهما لخدمة الفقراء. حدثت أعمال القتل في أعقاب خطاب ألقاه رجل دين باكستاني يقدم برنامجاً تلفزيونياً شعبياً، أعلن فيه على الهواء أنه من واجب المسلم قتل الأحمديين. أشار حكيم إلى إخفاق الحكومة الباكستانية في حماية الطائفة الأحمدية. وقال: "لم يسبق لمجتمعنا أن أنتج إرهابياً واحداً للعالم. ومع ذلك فنحن مضطهدون ومعذبون بسبب معتقداتنا". ثم قدم التعازي، وطلب من الحضور دعم عائلات الأطباء القتلى. وقال بنبرة قوية وهو يمسك بنسخة من مطبوعة "شروق شمس المسلم" (84) التي يعود تاريخها إلى قرن من الزمان، "لقد اعتنقنا الإسلام لأن الخليفة تواصل معنا؛ ستلاحظون أن العبارة تقول: (لا تغرب الشمس أبداً على حركة الأحمدية). لذا سنواصل عملنا. لدينا مبشرون مسلمون في جميع أنحاء العالم - فالتبشير ليس مجرد مفهوم مسيحي" توجه العديد من المتحدثين إلى المنصة، بما في ذلك ممثل الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين (85)، رئيس تحرير صحيفة ميلووكي كوميونيتي، وزعيم فرع الجماعة الأحمدية في سانت لويس. ركزت الخطب دائماً على العنف في باكستان والمشاكل التي تحدث في المدن الداخلية لميلووكي. ذكر أحد المتكلمين معدل التسرب من المدارس الثانوية، البطالة، وانهميار الأسر في المدن الداخلية لميلووكي. "إن مهمتنا هي دعم الأمريكيين الأفارقة المسلمين. نحن نسعى لدعم جميع الأميركيين، ولكن بشكل خاص الأميركيين الأفارقة الذين لا يتمتعون بأي امتيازات".

تمّ تمرير خطاب ليتم توقيعه وإرساله إلى شبكة ديش (86)، التي تبث القناة التلفزيونية التي دعا فيها المقدم إلى قتل الأحمديين في السابع من سبتمبر. دعا حكيم لأجل باكستان؛ فقد أدى انفجار في وقت سابق من ذلك اليوم إلى

مصرع أربعين شخصاً: "دعونا نصلي من أجل بلد يعيش في اضطراب". أحنى الحاضرون رؤوسهم.

تعود العلاقة الغربية بين أمريكا السوداء وباكستان إلى أوائل القرن العشرين، قبل عقود من إنشاء باكستان، ولها أصولها في المجتمعات الإسلامية التي ظهرت في الغرب الأوسط - ديترويت وشيكاغو وميلووكي - في عام 1910م، والتفاعل بين الأميركيين الأفارقة الذين وصلوا مؤخراً من الجنوب والمهاجرين الأحمديين من الهند. كان هذا اللقاء بين مجتمعين مهمشين - أميركيين أفارقة وطائفة صغيرة مضطهدة من الإسلام - على هامش المدن الأمريكية، هو ما أدى إلى اختلاط ثقافي وسياسي تظهر آثاره حتى يومنا هذا.

الطائفة الأحمدية هي أول من أرسل مبشرين مسلمين إلى الولايات المتحدة. وصل مفتي محمد صادق (87) إلى نيويورك في فبراير 1920م، على أمل تأسيس بعثة أحمدية عالمية في أمريكا. ولكن تقاطعه مع رجال القانون، الفصل العنصري وقانون الاستبعاد الآسيوي سيجعله أكثر وعياً بالقضايا العرقية. فبدأ بتطوير وجهة نظر عالمية تجمع القومية الهندية، الإسلام العالمي والأفريقية، وأقام إرسالية تبشيرية في هارلم في عام 1920م ليربط بين المسلمين في الولايات المتحدة وبين الأقليات المستبعدة الأخرى وبين الشعوب المضطهدة في الخارج. بدأ صادق بالتحدث ضد التمييز العنصري وقوانين الهجرة - وقال ذات مرة، لو أن يسوع ظهر في جزيرة أليس، فسيتم إبعاده لأنه: "جاء من أرض خارج المنطقة المصرح بها".

أسس صادق مساجد في نيويورك وديترويت، وبنى مجتمعات صغيرة لمعتنقي الإسلام في هذه المدن، قبل إنشاء مقره الرئيس في جادة واباش على الجانب الجنوبي من شيكاغو. ظهرت إصدارات "شروق شمس المسلم" في عام 1921م، لمناهضة الطريقة التي تصور بها الصحف الأمريكية الإسلام. قدمت مطبوعة شروق شمس المسلم الإسلام كإيمان لا يفرق بين الألوان ومجتمع متعدد الأعراق من المؤمنين الذين وقفوا على النقيض من المجتمع العنصري الذي يعيش فيه الآن. وقد تنبأت إحدى مقالاته بالصحة العرقية التي سيجلبها مالكوم إكس (88) بعد أربعين عاماً تقريباً، وقارنت بين الحياة الدينية التمييزية في أمريكا ومراكز العبادة الشرقية المتعددة الأعراق: "يا لها من أخبار حزينة عرفناها... حول الصراع بين السود والبيض في هذا البلد... هناك أناس أكثر بياضاً من أهل شمال أوروبا يعيشون بصورة ودية مع ذوي بشرة داكنة في الهند والجزيرة العربية وغيرها من البلدان الآسيوية والأفريقية".

لم تغضب الطائفة الأحمدية من الجماعات السوداء شبه الإسلامية التي واجهوها، على عكس نظرائهم الشَّنة المتشددین، ويرجع ذلك لوضعهم كأقلية داخل الإسلام. لا تختلف نظرة الأحمدية العالمية ورسالتها المسكونية (التي ظهرت استجابة للطائفية الدينية في الهند) عن الحركات - "معبد العلوم الموريسكية" لنوبل درو علی و"الرابطة العالمية لإنماء الزنوج" (89) التي أسسها ماركوس غارفي (90) - التي ظهرت في المدن الشمالية، لترسم أوجه الشبه بين الغيتو الناشئ والعالم المستعمر، ولتُعرف هوية هذه المجتمعات الحضرية السوداء الجديدة بشروط حرية الإرادة والأُممية. لم يختلف ادعاء نوبل درو علی النبوة عن مزاعم غلام أحمد. وبدأت رسالة حركة غارفي "الرابطة العالمية لإنماء الزنوج" متوافقة بشكل خاص مع رؤية الأحمدية. خلال بواكير عام 1914م، دعا غارفي "كل الناس من أصل زنجي أو أفريقي" للانضمام إلى الحركة "لاستعادة قوتهم العرقية. للإدارة ومساعدة المحتاجين..."، بالإضافة إلى منظمة الرعاية الاجتماعية التي أسسها، دعا غارفي أيضاً إلى إنشاء جمهورية سوداء عابرة للحدود في ليبيريا لتوحيد الأفارقة وجمعهم بـ "الأجناس الداكنة في العالم".

لاحظ الأحمدية أيضاً أن صحيفة "نيغرو وورلد" (91) التي أسسها غارفي، كان لها ارتباط واضح بالعالم الإسلامي. كان غارفي قد تعرّف علی الإسلام عندما انتقل إلى لندن في عام 1912م من موطنه الأصلي جامايكا أملاً في الدراسة في كلية بيركبيك. والتقى في العاصمة الإنجليزية بالصحفي المصري السوداني دوسة محمد علی (92)، الذي أنشأ صحيفة "أفريكا تايمز" و"أورينت ريفيو" (1912-1920م). كرست تلك المنشورات الشهرية المناهضة للاستعمار "لصالح الأجناس الملونة في العالم"، وانضمت للحوارات الأفريقية والإسلامية، وتم توزيعها من الهند إلى مصر إلى جزر الهند الغربية.

عمل غارفي لصالح صحيفة "أفريكا تايمز" لفترة وجيزة (كمراسل)، قبل أن يتوجه إلى نيويورك في عام 1918م ويؤسس "نيغرو وورلد". انتقل دوسة إلى الولايات المتحدة عام 1921م، وانضم إلى الرابطة العالمية لإنماء الزنوج كرئيس لقسم الشؤون الأفريقية، وكتب بانتظام لـ "نيغرو وورلد" قبل أن ينتقل إلى ديترويت، ويؤسس "الجمعية الإسلامية العالمية" و"جمعية أمريكا-آسيا".

لم يعتنق غارفي الإسلام رسمياً أبداً، لكن خطاب "الرابطة العالمية لإنماء الزنوج" كان مخضباً بالمواضيع والأفكار الإسلامية. أشارت "نيغرو وورلد" إلى غارفي علی أنه "طفل الله" وقارنته بالنبي محمد "بطاقته المتوهجة التي لا تنضب". دعمت الصحيفة مناهضة الاستعمار في الهند ومصر والمغرب علی

مدار عام 1920م، ورأت الانتفاضات كذير للنصر القادم للإسلام. لذا لم يكن مفاجئاً أن صادق بدأ في تركيز جهوده التبشيرية على الأمريكيين الأفارقة: تحدث في تجمعات الرابطة العالمية لإنماء الزنوج، قائلاً إن اللغة العربية هي لغتهم الأصلية، وقدم الإسلام كحل للمشاكل العرقية الأمريكية. ذكرت مطبوعة "شروق شمس المسلم" في أبريل 1923م أن، "انتشار الإسلام لا يمكن إلا أن يفيد الرابطة العالمية لإنماء الزنوج. حيث سيجد الزنوج حلفاء قِيَمين في ملايين المسلمين في الهند والصين والعرب وبلاد فارس وأفغانستان وتركيا". في المقابل، انجذب الأمريكيون الأفارقة بشكل متزايد لرسالة صادق حول التسامح الإسلامي. معظم الأمريكيين الذين دخلوا إلى الحركة بين عامي 1921 و1925م -والذين بلغ عددهم 1025 عضواً- ذو أصول أفريقية، من شيكاغو وديترويت وسانت لويس ونيويورك. وجد أتباع غارفي خطاب صادق الأفريقي المعادي للإمبريالية جذاباً. تزايدت عضوية حركة الأحمدية الهندية من الأمريكيين الأفارقة، واحتل العديد منهم مناصب رفيعة في المنظمة. تضرر الحركة بشكل لا يمكن إصلاحه بعد سقوط غارفي كان متوقعاً. أوقف صادق نشر مطبوعة "شروق شمس المسلم" بين عامي 1924 و1930م، وهي الفترة التي سجن فيها غارفي ومن ثم تم ترحيله. عاد صادق إلى الهند في سبتمبر 1923م، لكن المجتمع الأحمدية واصل انتشاره بين الأمريكيين الأفارقة.

يمكن رؤية تأثير صادق الكبير على حركة ظهرت بعد وقت قصير من رحيله - أمة الإسلام. كان فرد محمد (93) أحمدياً لأب باكستاني وأم إنجليزية، وقد ساعد في تأسيس "أمة الإسلام". عندما وصل إلى شيكاغو، كان يذهب إلى مسجد أحمدية على الجانب الجنوبي من المدينة قبل أن ينضم إلى "معبد العلوم الموريسكية" (94). توفي نوبل درو علي (95) قبل فترة قصيرة من انتقال فرد محمد إلى ديترويت. أسس فرد محمد "أمة الإسلام المفقودة" -كما سميت الحركة في البداية- في الرابع من يوليو في عام 1930م. وكانت رسالته موجهة إلى أتباع زعيم "معبد العلوم الموريسكية" الراحل، والذين يقدر عددهم بثلاثين ألف شخص. في أغسطس 1931م، سمع إايجا بول (96)، المهاجر من جورجيا وعضو الرابطة العالمية لإنماء الزنوج فرع شيكاغو، حديثاً لفرد محمد، وبعد ذلك بوقت قصير انضم إلى أمة الإسلام. ترك بول "اسم العبودية" وأصبح اسمه إايجا محمد، (تبنى لفترة قصيرة اسم غلام بوغانس تكريماً لمؤسس الفكرة الأحمدية) وصار في نهاية المطاف النائب الأعلى لفرد محمد. توصلت الروابط بين الحركة الأحمدية وأمة الإسلام، على الرغم من أن المجموعتين تنافستا للحصول على أتباع. تعلم إايجا محمد أن السود هم أهل الأرض الأصليون وهم أحفاد قبيلة شيباز الذين سكنوا مدينة مكة المكرمة، قبل أن يتم إخضاعهم بواسطة العرق الأبيض. وأن دبليو د. فرد

هو المهدي، "الله في شخصه"، الذي ظهر في عام 1930م "لإعادة إحياء" عقل الرجل الأسود وإعادته إلى الإسلام. من المؤلف أن تقابل أناساً اعتنقوا الإسلام في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين وكانوا في البداية أعضاء في "أمة الإسلام" قبل الانتقال إلى مجتمع الأحمديّة.

يتذكر المجتمع الأحمدي الأمريكي "د. صادق" بتقديس كبير اليوم، كأول مبشر أحمدي، ورجل أضاء شعلة الإسلام في أمريكا. مقابلة شيوخ المجتمع هي أحد أسباب حضوري للمؤتمر في ميلووكي، وخاصة راشد أحمد، الشيخ الجليل للطائفة الأحمديّة، البالغ من العمر ستة وثمانين عاماً، والذي حصل في عام 2007م على جائزة المفتي محمد صادق للالتزام مدى الحياة، كما أنه عرف صادق شخصياً.

أحلام الحرية

بعد أن انتهت الخطبة، أخبروني أن راشد أحمد - "الأخ راشد"، كما يدعونه - كان ينتظر رؤيتي. مشيت عبر القاعة إلى غرفة ندوات كبيرة في مركز الطلاب، وتم تقديمي إلى رجل مسن نحيف جالس في نهاية طاولة طويلة. كان يرتدي قميصاً أبيض اللون تعلوه سترة نيهرو بنية قاتمة و"قبعة جناح" بيضاء ضاربة إلى الصفرة، (قبعة من الفراء سميت على اسم مؤسس باكستان محمد علي جناح). كان لباسه يُفصل تأثير الأيديولوجيات التي شكّلت جيله، كالتضامن الأفرو-آسيوي وعصر إنهاء الاستعمار وباندونغ (27). ولد أحمد في شرق سانت لويس، بمدينة إلينوي، وانضم إلى جماعة الأحمديّة في شيكاغو في عام 1945م؛ وكانت حينها تحت قيادة المتصوف رحمن بنغالي، خليفة صادق.

يتذكر راشد: "في فترة الأربعينيات في شيكاغو، كنت شاباً، ذكياً، ارتديت أرقى الملابس وتجوّلت في الحانات. ظننت أنني أعرف كل شيء. كنت رجلاً استعراضياً - تعلم أننا نحن الأفارقة رجال استعراض، وأن الأداء يجري في دمنا- سمعت أتباع غارفي يخطبون في الشارع، ورأيت أتباع إايجا محمد وأخبرونا عن تفوق السود، وزودونا بفلسفات تقول إن السود يتمتعون بصفات متفوقة، لكنهم لم يعطونا سوى القليل. كانت حركة غارفي تتداعى. أخذ الرجل المعدات ليبنى ليبريا لكنه لم يستطع فعل ذلك. في أحد الأيام كنت أسير في الشارع وسمعت داعية يقول: "يسوع لم يمّت على الصليب!" توقفت وذهبت لأتحدث معه؛ أخبرني أن أذهب إلى شروق شمس المسلم في شارع ساوث ستيت 220 - المقر الرئيس - "أو إلى المسجد في 4448 جنوب واباش". هز راشد كتفيه، "ذهبت إلى هناك. لم أكن أعرف ماذا أفعل؟ كنت

أتطلع إلى كسب بعض المال. فتح رجل يرتدي قميصاً قطنياً أبيض باب المسجد وأخبرني أن أعود لاحقاً. اشتممت رائحة طهي الكاري. لم يسبق أن شممت هذه الرائحة - ظننت أنهم يدخنون الأفيون في الداخل - ولكن بعد ذلك عدت مراراً وتكراراً. ذهبت إلى هناك بانتظام لمدة ثلاث سنوات، وقرأت فقط".

اكتسب الأخ راشد سمعته بفضل صدقه وموهبته في الدعوة. وعندما دعا الخليفة بشير الدين أحمد - من مقره في البنجاب - الأميركيين الذين دخلوا الإسلام للمجيء إلى ربوة لدراسة الإسلام في عام 1949م، كان راشد البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً أحد الذين تم اختيارهم للذهاب. يتذكر راشد، "كنت متوجهاً إلى باكستان. غيرنا الرحلات الجوية في العراق؛ تم اعتقالي في بغداد. لم يكن لدي تأشيرة دخول للعراق، ورأى مسؤولو الأمن في حقيبتي جهاز راديو، ومعطفان، ومجموعة من الأقلام - جميعها هدايا كنت أحملها لأشخاص في باكستان. لذا ظنوا أنني كنت جاسوساً يحمل راديو لاسلكي - ليتجسس لصالح أمريكا! بعد أيام، وصلت أخيراً إلى كراتشي. لم يكن هناك أحد بانتظاري، لذلك ذهبت إلى جماعة كراتشي. مكثت في باكستان لمدة خمس سنوات. كانت البلاد قد نالت استقلالها مؤخراً. خسر المبشرون الأحمديون مخصصاتهم لأن الحكومة خفضت أموالهم. بقيت للمساعدة. تعلمت الأردية وتزوجت هناك وتعلمت كل العادات والطقوس - لقد حثتهم على معاملتي بشكل جيد.

سألته عن صادق، فقال: "كان الدكتور صادق في الولايات المتحدة بين عامي 1920 و1923م. التقى به ماركوس غارفي، ثوبل درو علي، وإليجا محمد - وجميعهم تأثروا بأفكاره. كنت أتمشى لمسافات طويلة معه خلال إقامتي في ربوة في عام 1950م. ابتسم رشيد بحنان، "كان صادق رجلاً عجوزاً عندما التقيت به؛ عندما رأيته أول مرة في باكستان ورأيت ابنه المولود حديثاً، كانا متشابهيْن - كلاهما أصلع ولديه سن واحدة فقط! كان صادق رجلاً حازماً جداً. كان يرتدي دائماً رداءً أبيض وعمامة ملونة. لقد كان - والأحمديين عموماً - مرتاحاً جداً مع الأمريكيين الأفارقة؛ واعتقدنا من جهتنا أن لدى الأحمدية شيئاً يمكن أن ينقذنا. كان العرب في شيكاغو في ذلك الوقت منطوين، ولم يهتموا إلا بجني المال - لم يعلموا أي شخص، ما لم يكسبوا المال. غير العرب أسماءهم أيضاً - أصبح رحمان (ريمون)، دخیل (دايكيل)، وصار داوود (ديفيد). قال راشد، وهو يردد الحروف الأبجدية، "كان الباكستانيون هم من علمونا الألف باء تاء في عام 1947م. لقد أخذنا دروساً بخمسين سنتاً في الساعة، حتى نتمكن من تعلم اللغة العربية".

لا زالت ذكرياته حية حول شيكاغو قبل ستين عاماً. "كثيراً ما ظن البعض خلال الأربعينيات والخمسينيات، أن الباكستانيين هم أمريكيون أفارقة بسبب لون بشرتهم- فبشرتهم ليست أكثر إشراقاً من بشرتنا. لكنهم أرادوا أن يتم قبولهم كبيض. توقفوا عن تغطية شعرهم، ولم يرتدوا أي قبعة - حتى لو كانت سُنّة - لإظهار أن شعرهم كان مختلفاً، وكى لا يتم خلطهم مع السود المحليين". هز رأسه وأكمل، "وفي ذلك الوقت كنا نقوم بتمليس شعرنا، ووضعنا عليه الشحوم، لنحاول أن نبدو كأجانب".

غربت الشمس، وانتهت الصلاة، ودخل الناس إلى الغرفة بأوعية الطعام وجلسوا حول طاولة الندوة. سألت الأخ راشد إذا أراد أن يحل صيامه. قال مبتسماً، "لا تقلق، لدي بعض الكعك. ولكن بإمكانك الذهاب للحصول على بعض الطعام. وأخرج كيساً صغيراً من الورق به كعك رقائق الشوكولاتة وبدأ يقضم منه. ثم جاء حفيده للدرشة معنا.

تحول الحديث إلى موسيقى الجاز، وأيام راشد في مشهد الجاز في شيكاغو. "انجذب موسيقيو الجاز إلى الأحمديين، لأنهم علّموهم حياة المساواة. كان عازفو موسيقى الجاز مستقلين أيضاً. كان استقلال باكستان مصدر إلهام للفنانين. قبل أن أبدأ العمل في تجارة التجزئة والجملة وبيع المجوهرات، كنت أعمل لصالح أحمد جمال"، مشيراً إلى عازف البيانو الشهير من بيتسبرغ. "لقد كنت مسؤولاً عن الدعاية، والعلاقات العامة، وعرض الكتب، وحجوزات الفنادق". بدأ راشد بتسمية موسيقيي الجاز الذين عرفهم ممن اعتنقوا الإسلام الأحمدي. وقال: "لقد علمت يوسف لطيف مبادئ الأبجدية العربية، وسور القرآن. عرفت مايلز ديفيس. لم يكن مسلماً. ذهبنا إلى المدرسة الثانوية نفسها في شرق سانت لويس - كان أصغر مني. كنت أتسكع مع الصبية الكبار، وبدأ مايلز بتبني أسلوبى. كنت أكثر شعبية منه"، ابتسم مرة أخرى.

دخل بعض الرجال والفتية إلى الغرفة وكانوا يستمعون إلى حديث الأخ راشد عن تاريخ مجتمعهم. هاجر معظم الرجال الأكبر سناً من الجنوب، تاركين جورجيا وميسيسيبي وتينيسي في سن المراهقة، واعتنقوا الإسلام في شيكاغو أو ديترويت أو ميلووكي. بدأوا بتذكر طفولتهم في الجنوب، وكيف غادروا، ووصلوا إلى المدن الشمالية قبل نصف قرن.

قال عبد الكريم، صانع أثاث يبلغ من العمر 67 عاماً، يرتدي أيضاً قميصاً بلا ياقة وسترة نيهرو، "الحياة في الجنوب مختلفة، صعبة وبطيئة، مختلطة ومنفصلة. كنت أجنى القطن حتى بلغت السادسة عشرة، وجئت بعدها إلى شيكاغو. توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة وبدأت بالوقوع في المشاكل

بسرعة. كان كل شيء زائفاً للغاية". هز رأسه. "كان حلاقي سلطان مسلماً، وكان يتسكع مع عازقي موسيقى الجاز. لذا بدأت بالتسكع معهم أيضاً -آرت بليكي، مصطفى ديل، سليمان سعود و"أمين لاكان" الذي كان أحمدياً معزولاً. أحب فنانون الجاز الإسلام لأنه ساعد الناس على التفكير، وقد كانوا يفكرون في طرق للهروب. كان الإسلام بالنسبة لهم أكثر صدقاً. لكن موسيقى الجاز لم تعجب الكثير من المهاجرين". قال ضاحكاً، "أتذكر قول أحد المبشرين الباكستانيين إن موسيقى الجاز كانت أسوأ أشكال الفن".

كانت غرفة الندوات مليئة بالصبية. تجمعت الفتيات والنساء في غرفة عبر القاعة. تدحرج الأطفال على سجاد الصلاة على الأرض، واختبأ بغض الصبية تحت الطاولة. استمع المراهقون لآبائهم وأجدادهم باهتمام وهم يتحدثون عن طفولتهم في الجنوب، ولم يعتنقوا الإسلام؟

واصل عبد الكريم: "انضمت إلى الجيش في عام 1963م. وأخذت نسخة من ترجمة بكتال (98) للقرآن قبل أن نبحر من هيئة الميناء إلى ألمانيا. كنت متمركزاً في فرنسا، وامتلكت وقتاً للقراءة. قمت بكتابة رسالة إلى إليجا محمد، فطلب مني مقابلته بعد عودتي".

جلس الإمام نصر الله، الكوبي الأصل، في طرف المائدة، وتذكر انتقاله من منطقة البحر الكاريبي، إلى ويسكونسن، في سن الرابعة عشرة. "كانت أوقاتاً ثورية". ابتسم وهو يمسح على لحيته الكبيرة. مرتدياً قبعة أفغانية رمادية، وشالوار قميص (99). "كان النضال من أجل الحقوق المدنية في أوجه، ونزل الفهود السود إلى الشارع. انضمت إليهم لبضعة أشهر. قرأنا لينين، ماركس، ماو، نيتشه وأفلاطون، لنرى ما يقدمونه. ذهبت للقتال في فيتنام، قرأت كتاب غلام أحمد لتعاليم الإسلام، وأحببت أفكاره. رأيت الطائفة الأحمدية تدخل إلى الغيتو، وهو ما لم يفعله مسلمون آخرون. ألقى مؤخراً خطبة عن أهمية صادق والقادة أمثاله، الذين يستطيعون جذب جميع الناس. فقد تحدث إلى المحرومين في الغيتو، وتحدث في الجامعات أيضاً. كان بإمكانه التحدث في الغيتو ثم في ساحة التايمز".

قال عبد الكريم: "قام الإسلام خلال عشرينيات القرن العشرين بملء الفراغ. كانت الرابطة الوطنية للنهوض بالملونين تتداعى في ذلك الوقت. جلب غارفي وإليجا الوعي بالعدالة، لكنهم لم يعلمونا الأخوة بين الرجال كما فعل الإسلام. قدم الدكتور صادق النصح لغارفي باستمرار. واشترى مبنى في 4448 جنوب واباش، كأول عقار تم شراؤه في أمريكا من قبل حركة

الأحمدية. تم هدم المبنى وبناء مسجد مكانه، في عام 1993م. وما زال المسجد قائماً على تلك الأسس.

بالاستماع إلى هؤلاء "الرواد"، كما هم معروفون في الجالية الإسلامية الأمريكية، تذكرت رالف أليسون (100)، الذي كتب في عام 1948م أن الأمريكيين الأفارقة قد "انجرفوا من العبودية إلى حالة رجل المصانع في مساحة زمنية ضيقة جداً (بعد مرور ثمانين عاماً فقط) بحيث أصبح بإمكانهم حرفياً أن ينتقلوا من الإقطاعية إلى دوامة التصنيع من خلال التحرك ببساطة عبر خط ماسون-ديكسون (101)". وصل هؤلاء الجنوبيون المسنون الذين يتحدثون الأردية الآن إلى الغيتو الشمالي كشباب فروا من الجنوب بتقاليده ومؤسساته الدينية؛ وهبطوا في مستنقع حضري، تعرضوا فيه لمجموعة متنوعة من الأفكار والثقافات - غالباً الأيديولوجيات الراديكالية للعالم الثالث، التي شددت على التضامن الأفرو-آسيوي وإنهاء الاستعمار. وبإعادة صياغة ما قاله عليّ عبد الكريم، فقد تخيل الجاز أن هناك فسحة يمكن أن يملأها الإسلام: فصلاة المسلمين والقواعد الغذائية يوفران لهم "أساساً"، في عالم متخم بالمخدرات والكحول. كما فتحت اللغة العربية والأردية نصوص وثقافات الحضارات الأخرى، وخلقت اتصالاً بعالم ما بعد الاستعمار. ومن خلال التعرف على العالم الإسلامي، يمكن للمسلمين الأمريكيين الأفارقة أن ينتقلوا من كونهم أقلية مضطهدة إلى كونهم جزءاً من "أغلبية ملونة" عالمية.

تظهر تجربة هؤلاء الرواد مدى تقارب تاريخ الإسلام في الغرب مع الإمبراطورية والاستبعاد العنصري: كانت القوى الاستعمارية الأوروبية هي التي جلبت المسلمين الأفارقة في البداية إلى العالم الجديد. منح قانون العبد الهارب لعام 1850م الوكالات القيدالية "سلطات غير محدودة" للقبض على العبيد الهاربين - كثيراً ما تم تحرير العبيد أيضاً، الأمر الذي دفع العديد من الزعماء الأمريكيين الأفارقة نحو حركة "العودة إلى إفريقيا"، وإلى الإسلام في نهاية المطاف. قيد قانون الهجرة لعام 1917م الهجرة إلى الولايات المتحدة، مما دفع الصناعيين في الشمال إلى اللجوء إلى سود الجنوب كمصدر للعمالة الرخيصة. هاجر الأميركيون الأفارقة بدورهم شمالاً، سعياً وراء العمل، والهروب من قوانين جيم كرو (102). واجه ملايين الأمريكيين الأفارقة الذين تدفقوا على المدن الشمالية مهاجرين من مختلف أنحاء العالم المستعمر - آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا - الذين فروا من الصراع والحكم الاستعماري. دفع "قانون المنطقة الشاذة الآسيوية" (103) كما هو معروف، آلاف المهاجرين المسلمين غير الشرعيين - أمثال الدكتور صادق - من جنوب آسيا وأماكن أخرى، للبحث عن ملجأ في هذه المجتمعات الأفريقية الأمريكية

"الجديدة" في جميع أنحاء الولايات المتحدة (في مشهد غريب ينبئ بما سيحدث بعد الحادي عشر من سبتمبر).

تحولوا نحو الشرق

ساعد الهياج الثقافي الذي أنتجته الهجرة العظيمة ونهضة هارلم، في بروز الإسلام والجاز، وهما قوتان انتشرتتا بسرعة وتزامن في أمريكا الحضرية قبل وبعد الحرب. اعتنق عازفو الجاز الإسلام الأحمدي بعد الحرب العالمية الثانية، في اتجاه لا يزال يثير انتقادات المؤرخين والموسيقيين. في عام 1947م، شكل عازف الطبل ومسؤول الفرقة آرت بليكي، الذي أمضى بعض الوقت في غرب إفريقيا لدراسة الإسلام، مجموعة تسمى "الرسل"، وهو اسم ذو دلالة دينية واضحة. تمركز أفراد الفرقة السبعة عشر المسلمين حول مركز الأحمدية في هارلم. تغير اسم الفرقة في وقت لاحق لـ "رسل الجاز"، لكن في البداية، قادها بليكي (عبد الله بن بهاء)، عازف البوق إدريس سليمان (ليونارد غراهام)، عازف الساكسوفون يوسف لطيف (بيل إيفانز). ومن الفنانين الآخرين الذين اعتنقوا الإسلام عازف البيانو فريتز جونز (أحمد جمال)، عازف الطبله كيني كلارك (لياقت علي سلام)، عازف البيانو ماكوي تاينر (سليمان سعود)، عازف البوق أوليفر ميتشو (مصطفى داليل)، عازف الغيتار جورج جوينر (جميل ناصر)، عازف البوق كيني دورهام (عبد الحميد)، عازف الألتو ساكسوفون إدمون غريغوري (صاحب شهاب)، عازف البيانو والتر بيشوب (إبراهيم بن إسماعيل)، عازف الترومبون هوارد باو (هليل رشيد)، المغنية داكوتا ستاتون (عليا ربيعة)، زوجة عازف البوق ألفونسو نيلسون ريني (طالب داوود). عازفا الساكسوفون أورلاندو رايت (موسى كليم)، ولين هوب (الحاج عبد الله رشيد أحمد) - قدم الأخير أداءً، وهو يرتدي عمامة، وتحدث عن رحلاته إلى مكة.

دفع التحول الجماعي لعازفي الجاز إلى الإسلام، مجلة أيبوني في عام 1953م لنشر مقال عن هؤلاء المائتين أو نحو ذلك من "الموسيقيين المسلمين" بعنوان: "الدين القديم يجذب الحداثة"، ووصف المقال بشكل خاطئ التحول إلى الإسلام بوصفه رداً على الفصل العنصري. كان هذا رأياً شائعاً بين الصحفيين في الخمسينيات من القرن الماضي، وهو أن الهوية الإسلامية ساعدت السود لمواجهة الحواجز العرقية (القانونية) الأمريكية، خاصة في الجنوب.

لم يعتنق ديزي غيليسبي (104) الإسلام، لكنه فهم العمل الثقافي والسياسي الذي أحدثته. ولاحظ أن المسلمين الجدد، الذين غيروا أسماءهم وارتدوا

العمائم نُظِرَ إليهم على أنهم أفارقة أو شرق أوسطيين، وعوملوا بشكل أفضل. في مذكراته "أن تكون أو لا تغني البوب" (105)، كتب عازف البوق أن معتنقي الإسلام من طائفة الأحمدية في أربعينيات القرن العشرين كانوا يقولون: "يا رجل، لن تكون ملوناً حين تعتنق الإسلام، ستغدو أبيض... يمكنك الحصول على اسم جديد، ولن تكون زنجياً بعد الآن". لذا بدأ الجميع باعتناق الإسلام لأنهم اعتبروا إنكار سوادهم ميزة خلال فترة الفصل العنصري. وكتب، "عندما اكتشف هؤلاء المكرة أن إدريس سليمان، الذي اعتنق العقيدة الإسلامية في ذلك الوقت، بإمكانه الذهاب إلى مطاعم البيض، وجلب سندويشات للآخرين، لأنه لا يعتبر ملوناً - رغم شدة سواده - بدؤوا باعتناق الإسلام الأحمدي بأعداد كبيرة". روى غيليسي بطريفة مؤثرة كيف كان لأصدقائه الذين اعتنقوا الإسلام أسماءهم المسلمة، وطبعت على بطاقات الهوية الخاصة بهم التي استخرجتها الشرطة كلمة "أبيض" في خانة "العرق". "كان لـ [عازف الطبل] كيني كلارك بطاقة هوية أراني إياها، وقال: "انظر أيها الزنجي، لستُ شبحاً، أنا أبيض".

على الرغم من عدم اتفاق غيليسي مع مسألة تغيير الهوية، إلا أنه غضب عندما وصف الصحفيون جماعته بـ "الغرباء" و "الدخلاء". "روى هوبسباوم حديثاً مثيراً للاهتمام، بين عازف البوق وموزعه الموسيقى جيل فولر، الذي شعر بالحيرة عندما قامت فرقة "مسلمة" بإيقاف البروقات لأداء الصلاة:

امتلات عيني ديزي بالدموع.

وأوضح: "لقد تم إيذاؤهم، وحاولوا الهروب من الأمر".

قال فولر بنفاد صبر: "إنه الملاذ الأخير لرجال لا يعرفون أي طريق يتجهون إليه".

قال ديزي، "الشرق، اتجهوا نحو الشرق".

فهم غيليسي أن التحول نحو الشرق يمكن أن يحمي المرء من الإهانات اليومية. وأعجب بانضباط المسلمين، ورفضهم قبول معايير الأجور التمييزية، وفخرهم بتاريخ أفريقيا. لقد رأى كيف روج عازفو الجاز الأحمدية للإسلام داخل عالم الجاز، في مدن مختلفة، (على الرغم من رفض بعض الأحمدية من الهنود والباكستانيين للموسيقى)، وجمعوا الأموال لجلب معلمين من باكستان، بل وطُوروا رطانتهم الخاصة -مزيج من البيبوب (106) واللغة العربية. ورأى كيف ساعدت نظرتهم العالمية في توسيع فهم وتجديده، وكيف فتح اهتمامهم بأفريقيا والشرق عوالم موسيقية جديدة،

حيث بدأ الموسيقيون الذين نشؤوا في الكنيسة، دمج الإيقاعات الشرقية في البنية المتزامنة للبلوز والموسيقى الإنجيلية.

إلا أن غيليسبي، ومقال مجلة أيبوني، كانا يركزان على نمط -السود المسلمين الذين عوملوا بشكل أفضل من نظرائهم غير المسلمين- يعود إلى المزرعة. لم تحقق الهوية الإسلامية، ومعرفة القراءة والكتابة باللغة العربية، معاملة أفضل فحسب، بل في عشرينيات القرن التاسع عشر، عندما أسست الولايات المتحدة ليبيريا، وبدأت تغامر في مناطق مسلمة في غرب أفريقيا، اكتسب العبيد المسلمون أهمية سياسية. اعتقدت وزارة الخارجية أن بإمكانهم المساعدة في التفاوض على الإفراج عن الأمريكيين المحتجزين في ساحل البربر، ورأت "جمعية الاستعمار الأمريكية"، التي دعت إلى إعادة السود إلى ليبيريا، أنهم أداة قيمة لفتح غرب أفريقيا على المصالح الأمريكية. كان يُنظر إلى العبيد المسلمين كوسطاء طبيعيين مع المسلمين، والوثنيين، في ساحل غرب أفريقيا، وحصل عدد من العبيد المسلمين الأفارقة الذين يتحدثون العربية -كأيوب بن سليمان، إبراهيم عبد الرحمن ولامين كبا- على حريتهم من خلال التظاهر بالتحول إلى المسيحية، وتقديم خدماتهم للمشاريع الاستعمارية الأمريكية والبريطانية في غرب أفريقيا. شجعت المعاملة التفضيلية -وفي بعض الحالات، الإعتاق- التي تلقاها العبيد المسلمين السود الآخرين لادعاء أصول مسلمة أو شرقية، على أمل الوصول إلى أفريقيا.

أثار ارتباط الإسلام بالمعاملة التفضيلية و"الإعتاق" غضب عدد من القادة السود البارزين، لا سيما أولئك الذين يعارضون حركة "العودة إلى إفريقيا". تعجب بوكرت. واشنطن (107) في سيرته الذاتية "خارج العبودية" (108) "كيف يسمح لرجل ذي بشرة داكنة... مواطن من المغرب بدخول فندق يُحظر عليه كـ "زنجي أمريكي" دخوله. لم يستخدم الإسلام في "الهروب" أو الانفصال عن أمريكا، فقط، ولكنه استخدم أيضاً كوسيلة للاندماج السياسي. أسس نوبل درو علي "معبد العلوم الموريسكية" في نيوارك، في عام 1913م؛ وانتقل إلى شيكاغو في عام 1923م، قائلاً إن الغرب الأوسط "كان أقرب إلى الإسلام". استخدم "معبد العلوم الموريسكية" إسلاماً بدعياً، ونسقاً شرقياً، للتنقل في التسلسل الهرمي العرقي، (الاستراتيجية نفسها التي اعتمدها العبيد المسلمون للحصول على حريتهم) وإعادة بناء الهوية السوداء. كان هدفه بناء حركة تدمج الأميركيين الأفارقة في أمريكا. وهكذا علم تلامذته أنسابهم الحقيقية (الآسيوية)، هويتهم (الموريسكية)، وإيمانهم (الإسلام)، الذي جُرد منهم بفعل العبودية. كان لحركة نوبل درو علي مهمة خدمية اجتماعية قوية مثل "الرابطة العالمية لإنماء الزنوج" التي أسسها غارفي، بإطعام المحتاجين، وإعادة تأهيل المدمنين على المخدرات والكحول. لكنه

وعلى عكس غارفي، لم يؤمن بالعودة إلى أفريقيا -أو المغرب تحديداً- ولم يكن معادياً للأمة.

حض نوبل أتباعه على التصويت، والمشاركة في النظام السياسي الأمريكي، واحترام قانون الأرض، بينما ينتظرون خلاص الله، لأنه كان مؤمناً راسخاً بالمشاركة المدنية والسياسية. لم يرفض نوبل درو عليّ أمريكا كما فعل غارفي. كانت "حركة العلوم الموريسكية" انفصالية ثقافياً للحد الذي يمكن أن يساعد أعضائها على الاندماج فقط.

رأى نوبل درو عليّ مدى سرعة استيعاب المهاجرين من أوروبا في المجتمع الأمريكي، وحسب أنه إذا استطاع إقناع الحكومة الأمريكية والأغلبية البيضاء بأنه وأتباعه مغاربة، فيمكنهم الهرب من التمييز. كانت العلامة العرقية الوطنية "الموريسكية" أكثر تمكيناً وفعالية من التصنيف العنصري "نيغرو". وكما قال: "إن كان لديك أمة، يجب أن يكون لديك اسم وطني، حتى يتم تعريفك من قبل الأمة [الأمريكية] كمواطن أمريكي". وقد استغل يومها خطاب "الأصول القومية"، وعلم مُحَبِّبِهِ أنهم أمريكيون مغاربة، "أحفاد المغاربة الذين ولدوا في أمريكا". حمل أتباع نوبل درو في جميع أنحاء البلاد كنيات عربية أو تركية، ملحقة بأسمائهم، وارتدوا جلباب الحرير، العمام والطرابيش الحمراء، كأسلوب يقلد لباس العبيد المسلمين في القرن السابق. كما حمل الأعضاء بطاقات هوية ("جوازات سفر") شددت على ارتباطهم بالمغرب، لكنهم قالوا: "نحن مواطنون من الولايات المتحدة". بدا الحديث عن المغاربة والقومية المغربية محيراً للبعض. قال أحد أفراد شرطة ديترويت، "يا لهم من عصاة لعينة. لصوص وسفاحون. إنهم لا يجيبون على أي شيء... ويتظاهرون بأنهم لا يفهمونك، وأنهم مغاربة من المغرب. رغم أنهم لم يروا المغرب! لم يَرِ هؤلاء الموريسكيون أي شيء قبيل مجيئهم إلى ديترويت باستثناء فلوريدا وألاباما!"

لكن لغة الأصول القومية كانت استراتيجية. فقبل عقود من سياسات الهوية التي بدأت في الستينيات وقبل أن تبدأ المجموعات في المطالبة بوضع الأقلية، فهم نوبل درو عليّ، أنه إن كان تعبير القومية والفوارق يساعد الحركات المناهضة للاستعمار على تحدي أسيادهم الاستعماريين، فإن تزويد حركته بجوازات السفر، أعلام على الطراز المغربي والأيدولوجية الإسلامية البدائية، قد يساعده على مساومة الحكومة الأمريكية لدمجهم في أمريكا.

يعد "معبد العلوم الموريسكية" مهماً لفهم تطور الإسلام في أمريكا والاتجاهات الثقافية اللاحقة. كان نوبل درو عليّ "الجسر الذي انتقل خلاله

الإرث الإسلامي للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نحو المجتمعات الإسلامية للقرنين العشرين والحادي والعشرين". كانت حركته أول منظمة تظهر في الغيتو الأمريكي، لتدرّس أن الإسلام كان "دين الرجل الأسود"، وتقدم العلاقة بين الإسلام، الهامشية الحضارية والوعي العرقي الذي لا يزال قائماً حتى يومنا هذا في أوروبا والأمريكتين.

يجب أن يُفهمَ فنانون الجاز المسلمين، الذين ارتدوا العمائم، واتخذوا أسماء إسلامية وأنساباً شرقية، من خلال هذا التاريخ. اعتُقدَ لفترة طويلة أن عازف الغيتار البروكليني المولد أحمد عبد الملك (جوناثان تيم)، الذي أصبح عازفاً استثنائياً لآلة العود، كان ابن مهاجر سوداني؛ لكن والديه ولدا في سانت فنسنت في البحر الكاريبي. وبالمثل، زعم الشيخ داوود فيصل (ديفيد دونالد) الذي درس في جويليارد، والذي كان شخصية سنية بارزة في فترة ما بعد الحرب في نيويورك، أنه من أصل مغربي، وتم تعيينه ممثلاً للمغرب في الأمم المتحدة، رغم أنه كان من مواطني ترينيداد. لم يدع ديزي غيليسبي أصلاً شرقياً أبداً، لكنه استمتع بالتلاعب بالهويات الشرقية، وتصورات الناس المسبقة. كان يرتدي العمامة خلال جولاته في أوروبا، ويتظاهر بأنه لا يتحدث اللغة الإنجليزية. كتب عازف البوق الساخر: "كان الناس يرونني في الشوارع ويفكرون بأنني عربي أو هندي. كانوا محتررين حقاً. يظن الأمريكيون في بعض الأحيان أنني من النبلاء المحمدانيين. لن تصدق بعض الأشياء التي يقولونها بجهل". في النهاية اعتنق غيليسبي البهائية، الحركة الدينية التي ظهرت في إيران في القرن التاسع عشر؛ وقد أنشأ أوركسترا الأمم المتحدة، المستوحاة من الإيمان البهائي بوحدة الجنس البشري. كانت المفارقة، أن غيليسبي (المتعاطف مع المسلمين والعضو السابق في الحزب الشيوعي)، تم استغلاله ليصبح أول سفير لموسيقى الجاز الأمريكية في الكتلة السوفياتية.

موسيقى الجاز للإنقاذ

وجدت المستعمرات الفرنسية والبريطانية التي اكتسبت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية نفسها واقعة بين قوتين عظيمتين، متحمستين لتوسيع مناطق نفوذهما. حصلت أربعون دولة على استقلالها بحلول 1960م. لكن جهود واشنطن لجذبهم إلى مدارها تعقدت بسبب الدعاية السوفياتية التي ركزت على التمييز العنصري والصراع في الجنوب الأمريكي. تم بث صور قتل إيميت تيل (109) في عام 1955م، ورد الفعل العنيف على براون ضد مجلس التعليم (110) قبل عام في جميع أنحاء العالم، وبدأ الرئيس دوايت إيزنهاور، الذي كان راضياً عن الحقوق المدنية، في رؤية ذلك على الصعيد

الدولي، وفهم أن العرق كان كعب أخيل أمريكا. بدأت وزارة الخارجية تنظم جولات موسيقى الجاز رفيعة المستوى لتغيير الانطباعات. كانت الجولات من بنات أفكار عضو الكونغرس الديمقراطي من هارلم آدم كلايتون باول، الذي تصور موسيقى الجاز كسلاح حرب باردة، بعد حضوره المؤتمر الأفرو-آسيوي للدول غير المنحازة عام 1955م في باندونغ بإندونيسيا. صعد باول بخطاب ممثلي دول العالم الثالث الذي سمعه، وزعمهم أن الاتحاد السوفياتي كان أكثر تقدمية في مسألة العرق من الولايات المتحدة. لدى عودته، اقترح على وزارة الخارجية أن يتم إرسال الفرق التي يقودها ديزي غيلسبي، كاونت باسي ولويس أرمسترونغ(111)، إلى الخارج لتحسين صورة أمريكا. وكما قال باول لأيزنهاور: "لوجه أسود من الولايات المتحدة قيمة تساوي ملايين الدولارات في المساعدات الاقتصادية".

رحب كبار الدبلوماسيين بالفكرة. كانت الأهداف الرئيسة للجولات هي تعزيز التحالفات، وإقناع الدول غير المنحازة بأن الولايات المتحدة كانت مختلفة عن القوى الاستعمارية الأوروبية والاتحاد السوفياتي. علقت صحيفة نيويورك تايمز في نوفمبر عام 1955م، "في وقت وجيز أصبح الجاز ذراع السياسة الخارجية لهذا البلد، في أماكن مثل الشرق الأقصى والشرق الأوسط وأفريقيا. ذهبت الفرق لدول كانت للشيوعية فيها موطن قدم". شرع غيلسبي، وكوينسي جونز الذي كان ينظم حفلاته، في جولاتهم الأولى في مارس 1956م؛ كان أول ظهور لهم في إيران، حيث أعيد تثبيت الشاه في السلطة قبل ثلاثة أعوام بانقلاب مدعوم من الاستخبارات المركزية الأمريكية. تبنت الولايات المتحدة دور احتواء الشيوعية وحماية الموارد النفطية في هذه المنطقة بعد توسع الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط وتوسع بريطانيا وعدم قدرتها على إبقاء قواتها في اليونان. قدمت فرقة غيلسبي المكونة من ثمانية عشر فرداً حفلاتها في إيران، قبل أن تنتقل إلى سوريا، لبنان وباكستان، وتنتهي في تركيا، اليونان ويوغوسلافيا. استهدفت جولات الجاز مناطق كان للشيوعية فيها موطن قدم، ومناطق غنية بالنفط واليورانيوم. وكما كتبت بيني فون إيشين في دراستها الأساسية "ساتشمو يفجر العالم"، فإن الجولات غالباً ما انتقلت "بالتراصف مع عمليات سرية لوكالة المخابرات المركزية". وكثيراً ما كان يتم إرسال "الجامباسادور"(112) لمواقع الاضطرابات كاستجابة أولى. في عام 1958م، مدد جون فوستر دالاس جولة لفرقة ديف بروبيك إلى العراق، الدولة العربية الوحيدة في حلف بغداد المضاد للشيوعية، على أمل أنه وفيما يؤدي سفراء الجاز فقراتهم، يمكن للمسؤولين الأمريكيين المساعدة في تهدئة الخلاف داخل صفوف الجيش العراقي.

كتب كوينسي جونز في مذكراته، "أرسلونا إلى كل مواقع الاضطرابات، وقبولنا بكثير من الإطراء: كنا فرقة الكاميكازي (113) السوداء. كانت السفارة الأميركية في أثينا تمر بأوقات عصيبة، فقد كان الطلاب القبارصة يرشقونها بالحجارة، ولذلك أحضرونا بسرعة من أنقرة في تركيا، وأحبنا الشعب اليوناني". حصل "الجامباسادور" على مزيج من المرح والمغامرة، فارتدوا أغطية الرأس العربية بالقرب من الأهرامات، واحتفلوا في لبنان وتركيا، بينما تفادوا الشرطة المحلية. في يوليو من عام 1958م، قام بول ديزموند عازف الساكسفون بفرقة ديف بروتيك بتفويت حفل في العراق وذهب للاسترخاء في بيروت، واستيقظ في أحد الأيام ليرى أربعة عشر ألف جندي من مشاة البحرية يهرعون إلى الشاطئ وسط أشعة الشمس. كان أيزنهاور قد أرسل قوات لدعم الرئيس اللبناني كميل شمعون ضد معارضي اليساريين. تعلمت ترامبونا ميلبا ليستون النشيد الوطني السوري في دمشق -وهي إحدى النساء القليلات اللاتي شاركن في الجولات- من مجموعة من تلاميذ المدارس، ثم قامت بإصدار نسختها الخاصة لإمتاع الجماهير المحلية؛ كان ديوك أليينغتون يُمَطِّرُ بالهتافات أثناء أدائه في معرض في دمشق، "عاش الدوق، عاش الدوق". تدور نكتة ساخرة بين السفراء الذكور حول مخاطر مغازلة الفتيات المحليات. يتذكر كوينسي جونز، "التقينا بعدد كبير من النساء الرائعات، وكل ما كنا نرغب بفعله هو لعق مؤخرات أعناقهن؛ لأن ذلك أحياناً هو أكثر ما يمكن أن تحصل عليه في الشرق الأوسط".

قامت الفرق الموسيقية المدمجة بقيادة غيليسبي وأرمسترونغ وإلينغتون وبينني غودمان بزيارة الاتحاد السوفياتي وأجزاء من أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، حيث هدفت عروضهم لإبداء النوايا الحسنة وتعريف المواطنين على "أسلوب الحياة الأمريكي". كان المقصود أن تكون الفرق رمزاً للانتصار الديمقراطية، وتقديم الجاز كتجسيد للمبادئ الليبرالية في أمريكا، في تعدديته الارتجالية، وجودته العالمية وتجاوزه العرقي. المفارقة هي بالطبع أن هؤلاء الموسيقيين السود تم نشرهم لتحسين صورة البلاد وإضفاء الشرعية على السياسات في وقت كانت فيه الولايات المتحدة لا تزال دولة جيم كرو. عارضت قطاعات واسعة من الرأي العام الأمريكي الجولات، مما قاد وزارة الخارجية إلى إخفاء وجودها. مع ذلك، حققت الجولات التي انتهت في السبعينيات من القرن الماضي نجاحاً واسعاً. تحدثت إنغريد مينسون من جامعة هارفرد عن "النجاح غير العادي لجولات الجاز". وأعتقد عازف البيانو بروبيك أن سفراء الجاز ساعدوا في إنهاء الحرب الباردة.

اعتبرت جولات الجاز ناجحة للغاية لدرجة أن وزارة الخارجية حاولت في الآونة الأخيرة إعادة تنشيط البرنامج، وإرسال فنانيين أمريكيين لعزف

موسيقى الجاز الأحمدية للجماهير المسلمة. وصف عازف الساكسفون كريس بيرس، أحد سفراء الجاز الجدد، الاستجابة التي حصل عليها عندما كان يعزف مقطوعات لعازف الساكسفون النيويوركي الذي أسلم في أوائل الخمسينيات، بشير قاسم (جيجي غريس). وقال، "عندما أعلنت أنني سأعزف مؤلفات موسيقية لعازف الجاز الأمريكي بشير قاسم، لفت ذلك انتباههم. وكان العديد منهم ممتنين للغاية، وقالوا بحماس: (شكراً لك على قدومك إلى بلدنا)" في إشارة إلى حفلته في المملكة العربية السعودية في فبراير 2008م.

بحثاً عن نوبل درو علي

خلال ليلة باردة في نوفمبر 2005م، وقفت فرقة البانك البوسطنية "كوميناس" (114) خارج مقبرة بور أوك في جنوب غرب شيكاغو، أول مقبرة للأمريكيين الأفارقة في المدينة، حيث دفنت مغنية البلوز دينا واشنطن، والشاب إيميت تيل، الذي ساعد مقتله على بلورة حركة الحقوق المدنية. وصل هذا الثلاثي الموسيقي إلى شيكاغو عبر طلب توصيلات مجانية، والنوم في مواقف السيارات. رافقهم الكاتب مايكل محمد نايت (الذي ألهم روايته الثقواكورس (115)) حركة الروك التي سميت بهذا الاسم؛ التي شكلها محمد عضو "معبد العلوم الموريسكية" في شيكاغو؛ وزميل آخر، عضو في أمة الخمس في المائة (116). دخلت الفرقة من خلال فتحة في السياج لأن البوابة الرئيسة كانت مغلقة، وبدؤوا بتمشييط المقبرة. قال عضو الفرقة شاه جيهان خان، "كنا نستخدم هواتفنا المحمولة كأضواء". كان هؤلاء الشبان يحاولون تحديد مكان قبر نوبل درو علي. اصطفت الفرقة للصلاة في المقبرة وتلاوة آيات من القرآن الكريم، في ذكرى قائد من أوائل القرن العشرين. كان فارس قد زار المقبرة قبل عام، وأحضر زملاءه من فنانى الروك لرؤية قبر نوبل درو علي. وكتب، "كنا نقف على لوحة مسطحة مع وجه نوبل درو علي. لقد تلوّث الفاتحة على روحه وروح كل شخص آخر في ذلك الفناء".

إن ما يميز كوميناس عن غيرها من فرق الروك على مسرح الشباب المسلم اهتمامهم الشديد بالحركات غير التقليدية للإسلام الأمريكي المبكر، وهو اهتمام يرتبط عادة بالهيب هوب وليس الروك؛ إن الشباب المسلم الذي يستحضر اليوم نوبل درو علي يعيش في سياق مختلف تماماً عما كان عليه الأمر قبل مائة عام، لكن تحديات الاستبعاد والإمبراطورية والقومية الدينية التي أنتجت "معبد العلوم الموريسكية"، ما زالت تواجه المجتمعات المسلمة من لاهور إلى بوسطن، وإن كانت بمظهر مختلف. انقسمت "حركة العلوم الموريسكية" بعد وفاة نوبل درو علي عام 1929م، وأسس فرد محمد "أمة الإسلام" واستوعب العديد من تعاليم نوبل درو علي.

طورت أمة الإسلام "جغرافيا أخلاقية" تتمحور حول الشرق، مع التركيز على اللياقة الشخصية والنظام الغذائي الصحي، وإقامة المعابد في جميع أنحاء البلاد لتدريس الانضباط وإيصال رسالة تقدمية للأتباع. ولكن على عكس معبد العلوم الموريسكية، كانت أمة الإسلام الوطنية تحت حكم إليجا محمد وفراخان انفصالية بشدة، وتعارض الاندماج والمشاركة في الانتخابات. (حاول فراخان تغيير هذه الممارسة في عام 2008م، وحث أتباعه على دعم أوباما الذي كان مرشحاً آنذاك، واضفاً صعود السيناتور بالعلامة الإلهية، وشبهه بـ"فرد" مؤسس أمة الإسلام، "الرجل الأسود من أم بيضاء [الذي أصبح منقذنا]"). لا زال "معبد العلوم الموريسكية" موجوداً، وله معابد في جميع أنحاء البلاد، وداخل نظام السجون. ولا زال أعضاؤه يرتدون أثواباً وطرابيش، ويرفعون العلم المغربي. لكن الحركة تفتقر إلى التأثير الذي كانت تملكه في عشرينيات القرن العشرين، عندما كان لها عشرات آلاف الأعضاء. إلا أن المسلمين الأميركيين الشباب -أبناء المهاجرين- يبدون اهتمامهم بتوفيقية درو علي، ووجهات نظره حول القومية والتكامل، ويستخدمون أفكاره وممارسات الجماعات الإسلامية السوداء المبكرة لتوسيع حدود الهوية الإسلامية المعاصرة.

عاد باسم عثمانى وشاه جيهان خان إلى لاهور في عام 2007م، بعدما درسوا تعاليم "أمة الخمسة في المائة"، و"معبد العلوم الموريسكية"، وزاروا المعابد في جميع أنحاء البلاد. أقاموا فرقة جديدة -هذه المرة مجموعة سكا- بانك (117)- تسمى نوبل درو. كانوا يغنون بالبنجابية فقط، لتصل كلماتهم السياسية إلى المستمع العادي. يشرح باسم: "اخترت اسم نوبل درو لعدة أسباب؛ ولكن بالأخص، لأنني أحببت حقيقة أن الرجل خلق ثقافته الإسلامية الخاصة. قام نوبل درو بتغيير وجهة نظري عن الإسلام. وشعرت بأهمية تسليط الضوء على المسلمين الأميركيين في لاهور. أحب أصدقائي الماركسيين نوبل درو لأنه كان يقاوم الهيمنة. كان بإمكانهم معرفة أن نوبل درو كان ضد الهيمنة؛ كانت الهيمنة كلمة منتشرة بين الطلاب الباكستانيين. لقد كان مقاوماً مسلماً، عاد إلى الماضي لإنقاذ الإسلام الذي إنتزع من العبيد الأفارقة".

حاول باسم كصحفي استخدام أفكار نوبل درو علي لنقد المجتمع الباكستاني. لكن الإسلام الذي بشر به الزعيم الديني الأمريكي كان غير تقليدي إلى حد ما. كان الكتاب المقدس لـ "معبد العلوم الموريسكية" هو قرآن الدائرة السابعة الذي جمعه نوبل درو علي في عام 1927م. ينقسم الكتاب المكون من 139 صفحة، إلى سبعة وأربعين فصلاً، مستلهماً من الكتاب المقدس، القرآن، تعاليم ماركوس غارفي والفكر الصوفي الألماني في العصور الوسطى، وعلى وجه

الخصوص من مجلد كتبه قسيس الحرب الأهلية ليفي هـ. داولينغ يسمى "إنجيل يسوع المسيح". لم يحتوِ قرآن الدائرة السابعة على آية واحدة من القرآن الكريم يقدسها المسلمون حول العالم؛ لم تكن هناك عناصر إسلامية كثيرة في تعاليم معبد العلوم الموريسكية؛ سوى مسألة منع لحم الخنزير. لكن هذا ما أثار حماس الكوميناس. كتب باسم مقالاً لصحيفة "فرايدي تايمز" المحترمة يقارن تأثير قرآن الدائرة السابعة لنوبل درو علي بشعر الشاعر البنغالي بوله شاه في القرن الثامن عشر.

"انتقد الشعراء المتصوفة العظماء مثل بوله شاه رجال الدين طوال الوقت، ورددوا أشياء من قبيل (محبة الله هي عدو الشريعة). وكانوا يقولون إن هناك إلهاً فينا جميعاً - (أنا الحق). حاولت أن أبين في المقال كيف أن الناس في قرية بوله شاه [شيتبورا، التي تبعد ثلاثين دقيقة شمال لاهور] يشيرون إلى مقاطع من شرح الشاه معتقدين أنها من القرآن. يحтар الناس، حتى يومنا هذا، بين كتاباته وبين القرآن. ولأنه كان يكتب بالبنجابية فقد وجدت كتاباته صدى لدى الناس، وظنوا أنها القرآن نفسه. كنت أجادل أن قرآن الدائرة السابعة لنوبل درو، الذي يعتبره المسلمون تجديفاً، فعل الشيء نفسه. تحدث درو بلغة شعبه، فهم ثقافتهم وكيف الإسلام مع جماعته في شيكاغو". امتنع محررو صحيفة فرايدي تايمز عن نشر المقال مستشهدين بفتوى صدرت ضد نوبل درو علي في عام 1930م. "لقد وجدوا الفتوى على شبكة الإنترنت، وقالوا إن المادة تعتبر تجديفاً. لأن قوانين التجديف في باكستان لا يمكن التنبؤ بها".

بحث أبناء المسلمين -الذين هاجروا إلى أمريكا في تلك الفترة وغضبوا من زندقة معبد علوم الموريسكية- عن دراسات نوبل درو علي مثير للسخرية تماماً؛ لكن الصاعق حقاً هو أن محرري الصحف في باكستان في عام 2008م استحضروا فتوى من ثمانين سنة مضت لفرض الرقابة على مواطنيهم الشباب. برزت حركة نوبل درو علي في وقت كانت فيه الجاليات المسلمة المهاجرة في الشمال الشرقي والغرب الأوسط تنمو. وعلى العموم، فإن المهاجرين المسلمين والأمريكيين الموريسكيين كانوا يتجنبون بعضهم البعض. لكن التفاعل بين نوبل درو علي والإمام السوداني ساتي ماجد، عكس تفسيرات المجتمعات المتضاربة للإسلام، وتنبت بطرق عديدة بالمواعظ التي ستحدث لاحقاً بين المهاجرين المسلمين السنة والمسلمين الأميركيين الأفارقة.

ولد ساتي ماجد في السودان وتلقى تعليمه في جامعة الأزهر المرموقة في القاهرة. سافر إلى لندن قبل أن ينتقل إلى نيويورك في سن الحادية

والعشرين لنشر رسالة الإسلام. أسس ساتي مجموعة من المنظمات الإسلامية الرائدة في نيويورك، ديترويت، بيتسبرغ وبافالو. خلال زيارته إلى الغرب الأوسط، رأى مراكز الأحمدية، واستاء من هرطقتهم؛ لكنه كان غاضباً بشكل خاص من "معبد العلوم الموريسكية"، ومن "قرآن الدائرة السابعة" المدنس، وادعاء نوبل درو علي النبوة. كتب ساتي إلى نوبل درو علي يطلب منه إما التخلي عن معتقده، أو القيام بـ "معجزة" -ووفقاً للاعتقاد الإسلامي، يمكن أن يقوم بها الأنبياء فقط. بعد ذلك حاول الإمام السوداني مقاضاة نوبل درو علي في محكمة أمريكية بتهمة "تشويه سمعة العقيدة الإسلامية". لكنه عاد خائب الأمل إلى القاهرة، وطلب فتوى من جامعة الأزهر لمنع منشورات الزعيم الديني في يناير 1929م.

لم يعد ساتي ماجد إلى الولايات المتحدة، لكنه نجح في الحصول على ثلاث فتاوى ضد نوبل درو علي: الأولى صدرت في الأزهر عام 1929م، والثانية في أم درمان عام 1930م، والثالثة في الخرطوم في السنة نفسها. نددت الفتاوى بأنه "كذاب ودجال وكافر يستحق العذاب الأبدي في جهنم". لا يوجد دليل على أن أيّاً من هذه الفتاوى وصلت إلى الولايات المتحدة؛ وعلى أية حال، فقد توفي نوبل درو علي في يوليو 1929م؛ لكن محرري الصحيفة في لاهور استندوا إلى هذه الفتوى -من خلال Google Books- لمنع نشر مقالة باسم، مشيرين إلى أن الملا يمكن أن يستخدم الفتوى لتوجيه اتهامات بالتجديف ضد الصحيفة.

بدأ العداء ينمو تجاه الفرقة. غضب البعض من مدّحهم لفرد محمد، (مؤسس "أمة الإسلام"، والذي يعتقد على نطاق واسع أنه أحمدي)، واستخدامهم للنجم الخماسي ذو الخمس نقاط -رمز معبد العلوم الموريسكية وأمة الإسلام، ولكنه أيضاً الرمز المفضل للوثنيين الجدد والمجموعات الشيطانية. في ديسمبر 2008م، دعت فرقة نوبل درو إلى مهرجان الفنون المسرحية العالمية، في مركز الحمرا للفنون في لاهور. كان باسم يغني على خشبة المسرح عندما سُمِعَ انفجاران خارج الاستاد مباشرة، تبعهما انفجاران آخران. ذكرت تقارير إعلامية أن أسطوانات غاز وضعت خارج المجمع. "لا أعرف إن كانوا يستهدفوننا أو يرسلون لنا رسالة فقط. انفجرت القنابل عندما كنا على خشبة المسرح. بعد ذلك لم نعد نعرف بمن يجب أن نثق". بدأت المجموعة تفكر بمغادرة باكستان. بعد فترة وجيزة، تمت دعوتهم -هذه المرة بصفقتهم كوميناس- لتقديم عرض في مهرجان الجنوب في الجنوب الغربي، الذي يعد واحداً من أكبر مهرجانات الفنون في الولايات المتحدة، ويقام كل عام في أوستن. في أوائل عام 2009م عاد شاه جيهان وباسم إلى أمريكا.

الله أكبر

من المؤلف رؤية المسلمين الأميركيين الشباب وهم يجتمعون حول مشغلات الموسيقى ومكبرات الصوت، محاولين أن يستخلصوا بدقة الكلمات التي يغنيها جون كولترين (118). خلال "التقدمة"، الجزء الأول من العمل الفني المميز الذي يمتد لمدة 32 دقيقة، والمكون من أربع نوتات، يقوم بعزفها على الباس غيتار، وعلى ما يبدو أن كلمات عنوان الألبوم هي الحب الأكبر. لكن المؤمنين يقسمون اليوم أنه بإمكانك سماع كولترين وهو يهتف "الله أكبر" (Allah Supreme) بصوت لاهث يعيد إلى الأذهان الذكر الصوفي، "Allah Supreme، Allah Supreme"، وهي الترجمة الإنجليزية الحرفية للتعبير العربي "الله أكبر".

يعتري المتشككين: يمكنك أن تسمع بوضوح الرجل ينطق بكلمة الحب وليس الله في منتصف الأغنية عندما يبدأ في غناء "الحب الأكبر". بعدها يصف المؤمنون كيف تأثر كولترين بعازفي الجاز المسلمين الأحمديين. واستشهدوا بسيرته الذاتية التي تصف كيف "كان الإسلام قوة إيجابية في فيلادلفيا (1950م)"، المدينة التي عاش فيها كولترين؛ كيف خاض كولترين نقاشات طويلة حول الإسلام مع صديقه عازف البيانو حسن؛ وكيف ساعده الإسلام على التخلص من إدمان الهيروين؛ وكيف شجعه عازف الساكسفون يوسف لطيف على اعتناق الإسلام؛ وحقيقة أن زوجته نعيمة كانت مسلمة، ومعروفة في المجتمع باسم الأخت كولترين؟ يدير المشككون أعينهم: وماذا لو انجذب كولترين إلى التصوف، وإلى الفلسفات الشرقية الأخرى؟ لكن المعسكر الداعم لفكرة أن كولترين قال "الله أكبر" يختتمون مرافعتهم بالإشارة إلى النوتات الموسيقية في التسجيل لإبراز "الصحة الروحية" التي حدثت لكولترين في عام 1957م، ويستخلصون بضعة أسطر قد تثير حماسة أي مسلم. "أياً كان ما يحدث... فهو بيد الرب. إنه رؤوف ورحيم. طريقه في المحبة، هو ما نعبه جميعاً. إنه حقاً الحب الأكبر، الرحمن، الرحيم".

يكتب "كولترين": "الكريم، الرحيم"، وينتهي بـ "التحيات لله"، ترجمة لتعبير إسلامي آخر.

يدرس مسؤولو وزارة الخارجية، والشباب المسلم، الروابط بين الإسلام والجاز لأسباب مختلفة. يدرس الشباب المسلم الأميركي التراكيب الموسيقية للطياف وغيليسبي وكولترين، في محاولة لفهم كيف تأثر أسلوب خطاب مالكوم إكس بإيقاعات الفرق الضخمة في الأربعينيات؟ وكيف أثر خطاب هذا الزعيم الإسلامي على إيقاعات فنائي جاز مثل كولترين، الذي كتب عنه

أميري بركة في إحدى قصائده: "لقد كان مثل مالكوم إكس في موسيقى البوب النازية الجديدة"، فقد أتى بعد عصر البيبوب، رفض الاعتدال السياسي وتماهي مع تمرد مالكوم إكس. لطالما أثارت علاقة كولترين بالجاز هواة موسيقى الجاز، والشيوخ في المجتمع الإسلامي. يقول عازف الطبل راشد علي بصيغة ضمنية: إن عازف الساكسفون كان "فتى ريفياً حقيقياً" و"كان ميالاً إلى أن يصبح مسلماً وما إلى ذلك؛ لكن الفتى كوت أحب خضار الكرنب المطبوخ بدهن الخنزير". بالنسبة للشباب اليوم، من المهم معرفة ما إذا كان كولترين قال "الله" أو "الحب"؟ فإذا قال "الله"، فهذا يعني أن الأغنية التي تعد واحدة من أعظم تراكيب موسيقى الجاز في القرن العشرين -تعتبر مخطوطة الألبوم واحدة من "كنوز متحف التاريخ الأمريكي"- هي تكريم للإسلام أو مستوحاة منه.

آخر عضو حي من رسل الجاز هو عازف الساكسفون يوسف لطيف، من المجموعة التي تأسست في عام 1948م، وهو الناطق الرسمي باسم المجتمع الأحمدى في جميع أنحاء العالم. تعاقد بين عامي 1963 و1966م، مع شركة كولترين إம்பلس (Impulse)، عندما كان كولترين يجرب الأصوات الشرقية في تسجيلات الجاز الحرة. اقترح عليّ كل شاب تحدثت معه في ميلووكي أن أتحدث إلى "الأخ لطيف صاحب"، كما يسمونه، وأن أسأله عن الحب الأكبر. وقد تمكنت من مقابلة لطيف في رمضان 2009م، أي بعد مرور ما يقرب من سنة على رحلتي إلى ويسكنسن. وصلت إلى روليت في تريبيكا، مانهاتن بعد غروب الشمس مباشرة. كانت ساحة الحفلة مليئة بالجماهير. تواجد الموسيقيون، وانتظر الحضور بهدوء، بينما وقف لطيف على الجانب الأيمن من المسرح يردد دعاء الإفطار وهو يرتدي عباءة رمادية وقبعة.

حلل لطيف صيامه بشرب القليل من الماء وصعد على خشبة المسرح. وكما هو الحال دائماً، قام بالعزف على العديد من الآلات الموسيقية، مثل الساكسفون وبعض الآلات الشرقية، مثل العريش (ناي الخيزران). غنى بعض الأغاني الروحانية، بصحبة آلة الكمبري (119)، وهي آلة ثلاثية الأوتار مصنوعة من جلد الإبل.

عندما تكلمت مع لطيف، أدهشني مدى تشابه سيرة حياته مع "الرواد" الآخرين الذين تحدثت معهم في ميلووكي. ولد في تشاتانوغا، تينيسي، في عام 1920م، هاجرت عائلته إلى الشمال، واستقرت في باراديس فالي، جارة ديترويت السوداء التاريخية، حيث جاء الباعة العرب المتجولون لبيع بضائعهم. تعرف على الإسلام بينما كان يعزف مع فرقة والي هايس في شيكاغو، حيث التقى بعازف البوق طالب داوود. بدأ بالذهاب إلى مسجد

الأحمدية التاريخي في 4448 جنوب وabاش. وبينما كان يعمل في مصنع كرايسلر في عام 1955م، أعطاه زميل -رجل من الشرق الأوسط- آلة موسيقية تدعى الربابة، وأخبره أن الملك داؤود عزف عليها خلال صلواته قبل أكثر من خمسة آلاف عام. في مناسبة أخرى، وبينما كان يتجول في سوق التوابل السوري في المدينة، اكتشف آلات مثل ناي الخيزران، والتي أدرجها مع الربابة في موسيقاه. ذهب لطيف في جولة مع فرقة غيليسي ولعب مع كولترين وتشارلز مينغوس. سجل عمليين هما "بلوز وادي النيل" و"الصلاة من أجل الشرق"، ملتقطاً الرياح الثقافية والأيديولوجية لحقبة ما بعد الحرب. يُعترف بلطيف اليوم كرائد لموسيقى الجاز الأمريكية من قبل الصندوق الوطني للفنون، وبنال الفضل على إنشاء النوع الفرعي الذي يدعى "موسيقى الجاز العالمية"، التي تمزج بين الموسيقى الأفريقية والآسيوية مع البيبوب والهارد بوب (120).

سألته عن آلة الكناوة الگمبيري- التي رافقت غناؤه، بينما كان يوقع تسجيلاته للمعجبين. همس "إنها آلة روحية. تنتج موسيقى ذاتية فيزيائية-نفسية -موسيقى من النفس البدنية والعقلية والروحانية- وهذا ما أسميه موسيقى الجاز".

قدم لطيف الإجابة نفسها التي قدمها في ألبومه "العملاق اللطيف" عندما سألته عن الحب الأكبر: أتى الإلهام من زوجة كولترين الراحلة نعيمة. كان كولترين يسمعها تقرأ الفاتحة خمس مرات في اليوم. "أستطيع أن أقول فقط إنني وجون كنا صديقين عزيزين، كنا نحاول تحسين موسيقانا معاً. لا أدري إن كنت قد شجعته على قراءة القرآن الكريم. لكنني أعتقد أن زوجته نعيمة هي من شجعته على قراءته، وقراءة جبران خليل جبران، وكريشنا مورتى. تكرر الأبيات التي كتبها كولترين في "الحب الأكبر" عبارة " الحمد لله في كل حال " عدة مرّات. هذه العبارة لها دلالات الجملة الثانية من سورة الفاتحة. وترجمتها العربية هي "الحمد لله"، وهذا يعني "All praise is due to God".

الفصل السادس

الروح الزرقاء اختارتني

يوماً ما ستخرج موسيقى جديدة رائعة من شمال أفريقيا.

كلود ماكاي (121). 1931م

دخل ستة رجال بهدوء إلى فيلا متواضعة في ضاحية سان دوني شمال باريس. كان مساءً ربيعياً بارداً؛ وقد غربت الشمس للتو. بمجرد أن صاروا خلف الجدران، ارتدوا عباءات -حمراء، صفراء، خضراء، سوداء وزرقاء (فاتحة وغامقة)- تتدلى من أكمائها الأصداف والخرزات. غلق جسد الماعز المذبوح حديثاً في زاوية الفناء، وتجمعت بركة من الدم على الأرض. وضع الرجال أيديهم في الدم وهمسوا بالأدعية. قرع أحد الشبان طبلته معلناً وصولهم. قام قائد المجموعة بتنبيهه، "أخفض صوت الطبل قليلاً". ظهرت أربع شابات ارتدين القفاطين وحملن شموعاً بألوان مختلفة بعد سماع الطبول، ورافقن الرجال إلى داخل المنزل. علت أصوات الطبول عند دخول الموكب غرفة المعيشة. جلست ثلاثون امرأة أو نحو ذلك على الأرض. شكّل الرجال دائرة وبدؤوا بالرقص لمباركة مكان الطقوس. انفصل بعض الراقصين عن الدائرة، اهتزوا، قرفصوا، وركعوا على ركبهم، وقدموا تبجيلهم.

كان الرجال من ممارسي الكناوة (122)، وقد أتوا لتأدية مراسم الشفاء. الكناوة هي طريقة صوفية في المغرب ترتبط بأحفاد سكان غرب أفريقيا الذين كانوا تحت نير العبودية في السابق. يُبجلُ الكناويون بلال الحبشي، العبد الإثيوبي المحرّر الذي أصبح واحداً من أوائل معتنقي الإسلام، ورفيقاً للنبي -كان له صوت جميل- وأول مؤذن ينادي للصلاة. وحتى يومنا هذا، يتكلم الأتباع عن قدرة سيدنا بلال الشفائية باستخدام الموسيقى، ويروون أنه حين كانت فاطمة ابنة النبي وزوجها علي بن أبي طالب يتجادلان ظهر سيدنا بلال مرتدياً زياً شبيهاً بأزياء الكناوة وعزّف على القراقب (123)، بينما حرك خيوطاً طويلة متدلّية من قبعته - وجعلهما يبتسمان.

يُعتقد أن موسيقى الكناوة تشفى الأشخاص الذين يعانون المسّ. ويُقال في الإسلام إن الجن (الأرواح) مخلوقة من البخار أو اللهب. ليس بالضرورة أن يكون الجنّ شريراً، فالأرواح مثل البشر لها شخصيات وأحوال مختلفة - يمكن أن تكون لطيفة أو قاسية. لكن ما تشترك فيه هو القدرة على تعقب البشر وإيذائهم بالجنون والعقم وسوء الحظ مدى الحياة. يَشيعُ في الإسلام

أن الأرواح تسكن الناس؛ في بعض الأحيان يمكن طردهم، وفي أوقات أخرى يجب أن يُستسلم لهم ببساطة. يُطلب من الكناوة استرضاء الأرواح، ويقومون بذلك من خلال التضحية بالحيوانات، البخور والألوان، ولكن خاصة من خلال الموسيقى ومدح الله، والنبى، والشيوخ. لدى إيقاعات الكناوة المُسكرة -ينتجها إيقاع الباص المتكرر الصادر عن الكمبري، والأصوات العالية التي تصدر عن القراقب- القدرة على مصالحة الممسوس مع الروح؛ وبمجرد أن يخضع الممسوس للجنّ، تتلطف تلك الروح ويستطيع الشخص المسكون الاستفادة من قدرات الروح.

احتفال شفاء الكناوة - يُطلق عليه اسم "الليلة"- هو طقس مكثف يستمر طوال الليل، ويبدأ في كثير من الأحيان بعد فترة وجيزة من صلاة العشاء ويستمر حتى شروق الشمس. تقليدياً يكون الموسيقيون رجالاً يقودهم المعلم الذي يعزف على الآلات الموسيقية الوترية، ويكون رجلاً مسناً حافظاً للقرآن وأميناً على تقاليد الكناوة؛ تشرف على الحفل امرأة مسنة تدعى "المقدمة" (وتترجم عادة "Priestess")؛ وتكون أغلب الممسوسات من النساء. ولكن في هذه "الليلة" في شمال باريس، يمكن للمرء أن يرى أن المعلم الجالس ليس رجلاً كبيراً في السن، بل شابٌ يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً بلحية وشعر طويل معقوص. كان اسمه جواد. وكان يعزف مع مجموعة محلية ولا يبدو عليه التوتر. وُضع أمامه كانون وقطعة قماش وأوعية خزفية مملوءة بأنواع مختلفة من البخور - خشب الصندل، المر، اللبان والجاوي. رُشّت قطرات من دم الحيوان المضحي به على القماش. همس جواد بالدعوات والتقط الكمبري. لقد أعدت الآلة للاحتفال: دهنت مقدمة الآلة المصنوعة من جلد الإبل بملعقة صغيرة من الحليب، وزُيّن بالحناء، ووضعت أمام كانون به خشب صندل محترق. ارتفع صوت كونترباس قوي خلال الغرفة بينما بدأ جواد بالعزف على أوتار الكمبري. مدّخ الموسيقيون النبي، دعوا مختلف الشيوخ واستحضروا روح بامبارا، الهوسا والفلولاني، وهي إشارة إلى أسلاف من غرب أفريقيا. نهض أحد الموسيقيين وأدى رقصة تقلّد صياداً أو محارباً، وهي إشارة أخرى إلى أصول كناوة في غرب أفريقيا. جُمع المال من النسوة الجالسات. ألقى جواد البخور في الكانون الساخن. يطالب كل جن ببخور معين؛ ملأ دخان عطري الغرفة ليهيئ المسرح للأرواح التي ستهبط عند سماع النوتات الموسيقية خلال رقبة الكمبري الطويلة نحو بطن الآلة الموسيقية.

عادة ما يتم استدعاء سبعة أرواح في ليلة الكناوة -لن تحضر جميعها "الليلة"، ولكن يمكن معرفة أي روح قد حضرت عبر انفعالات وحركات الممسوسة. ومن بين ملوك الجن، هناك سيدي موسى روح المحيطات ولونه

أزرق -عندما يظهر، يبدأ الممسوسون بالرقص كما لو كانوا يسبحون أو يغرقون- وسيدي حمو، روح المجزر ولونه أحمر. لالة ميرا، لونها أصفر ومشهورة بفرحها وغروّزها -عندما تظهر يبدأ الممسوسون بالقهقهة والضحك؛ سيدي ميمون، لونه أسود ويجرس الغابات. آخر روح تحضر هي عائشة قنديشة(124)، الأكثر استبداداً وترويعاً بينهم جميعاً. تتجول هذه الروح بشجاعة وشهوانية بالقرب من الأنهار وأحواض المياه، وتأسر الرجال بجمالها ليلاً، عندما يؤخذون بمظهرها فلا يتمكنون من رؤية حوافرها؛ وعندما يرون الحوافر يكون الألوان قد فات وتملكت أجسادهم. لونها هما الأحمر والأسود.

يعزف جواد ويغني: "صلّ على النبي.. يا رسول الله!". هذه الليلة هي احتفال بمولد النبي محمد، وهو وقت مناسب للمؤمنين لتجديد صلاتهم مع الشيوخ. تأمر المقدمة التي تبدو كامرأة عابسة متوسطة العمر، ترتدي فقطاناً بيحي اللون وسواراً ذهبياً على كلا الرسغين، امرأة أصغر سناً بالرقص؛ تركع المرأة - في أوائل الأربعينيات من عمرها - وتبدأ بتحريك شعرها ببطء من اليسار إلى اليمين. لكل إيقاع لون، وكل لون يمثل روحاً. اللون أخضر الآن، على شرف مولاي إبراهيم شيخ مراكش. تلقي المقدمة قطعة من قماش باللونين الأبيض والأخضر على رأس المرأة الممسوسة. تتسارع وتيرة الإيقاع فتبدأ المرأة بالاهتزاز. يتصاعد صوت الصنجات، ينبض الكمبري، ويدور رأس المرأة من جانب إلى آخر بينما تدب قدميها بشكل إيقاعي على السجادة. عندما تصل الموسيقى إلى ذروتها، تتوقف الصنجات فجأة وكل ما يمكنك سماعه هو الإيقاع القوي المتكرر لخط الباص الصادر عن الكمبري، بينما يتصاعد عبر سحب البخور. تُسَلَّم المرأة مجموعة من الشموع المضاءة، وتبدأ بتمرير النيران عبر ذراعيها وعنقها. تعالت الأناشيد، جلست النسوة على الأرض وهن يولولن، وانهارت المرأة الممسوسة على الأرض. سحبت امرأتان الممسوسة ووضعنها على مرتبة؛ مسحن وجهها بماء زهر البرتقال وبدأن بالدعاء حتى أفاقت. أومات المقدمة إلى جواد لتغيير الإيقاع والبخور.

التمس الكناوة المال مرة أخرى، أعطوهن البركات، وبدؤوا باستدعاء الروح الصفراء. وضع المزيد من البخور - هذه المرة المسك - لجذب لالة ميرا. طلبت المقدمة من امرأتين أخريين الرقص وألقت عليهما أوشحة صفراء. حركن شعرهن وضربن الأرض بأرجلهن، وبدأن بالضحك - بدأت النسوة الجالسات حولهن بالابتسام: وصلت الروح المغناج لالة ميرا. تشتت بطفولتها وحبها للعبور والحناء والملابس الجميلة؛ أجواء ملتبهة ملأت الغرفة، النساء يرقصن ويضحكن. تغيرت الأجواء عندما بدأ الكناوة باستدعاء سيدي حمو، الروح الحمراء. سيدي حمو هو حارس المجزر الغاضب والمتعطش للدماء. عرفت المرأتان ذلك وسحبتا أوشحتيها الحمراء وخنجريهما، حركتا شعرهما

وبدأتا بالرقص. وبينما ينبني الإيقاع، بدأت إحداهما بضرب ساقها بالخنجر، وتقطر الدم على جانب الشفرة؛ ومن ثم انهارت وحُمِلت إلى غرفة خارجية. أشارت المقدمة إلى جواد مرة أخرى. آخر روح سيتم استحضارها هي عائشة قنديشة، المُستعرة المُستبدة، الشيطان، والشخصية المركزية في أرواح المغاربة. تتجلى قنديشة في "الليلة" قبل شروق الشمس عندما يكون الجميع مُنهكين. تطفئ المقدمة الأنوار عندما يصل الاحتفال إلى ذروته؛ يبدأ خط الباص في التعالي، ويبدأ الكناوة بالإنشاد: "هيا جات، هيا جات!"، وبلغت المزيد من النساء مرحلة الغشية. أولئك اللاتي شعرن بحضور عائشة رقصن بشدة، حركن أطرافهن وأرجحن رؤوسهن من جانب إلى آخر. انهارت ثلاث نساء وبدأن بالتلوي من شدة الألم، وتضرعن إلى الله وطلبن الرحمة، "الله يا الله! الله يا الله". يمكن للمرء أن يرى من خلال الدخان الأجساد مُلقاة على الأرض تتشنج في الظلام. تحتضن "المقدمة" فتاة مغمى عليها وتضع قطعة صغيرة من البخور تحت أنفها. تليت صلوات ختامية لإنهاء "الليلة"؛ قَدِمَ الحليب والتمر، وقَسِمَ لحم القربان ووزع للضيوف قبل مغادرة الكناوة. أشرقت الشمس، وبدأت الحياة في العاصمة الفرنسية.

هذا النوع من مراسم الشفاء ليس خاصاً بالكناوة. هناك طوائف صوفية أخرى -مثل "العیساوة" و"الدرقاوة" و"الحمدشة" وطرق أخرى من شمال أفريقيا- لها طقوس مماثلة تستخدم لشفاء الحالات التي يسميها الأطباء النفسانيون الغربيون اضطراب ثنائي القطب، الفصام والصرع. لطالما احتقر المسؤولون الحكوميون في شمال أفريقيا هذه الممارسات التعبدية، ليس فقط لأنها بعيدة عن التفسيرات الرسمية للإسلام، ولكن أيضاً بسبب تأييد الحكم الفرنسي خلال الحقبة الاستعمارية لهذه الطرق الصوفية ضد الحركات القومية التي تبنت صيغة أكثر تنظيماً للإسلام. شجع الحكم الفرنسي الطقوس الصوفية والمهرجانات للسيطرة على السكان، ولكن أيضاً لتشجيع السياحة: فتنّ الأوروبيون بالهستيريا الصوفية. أقيمت طقوس الغشية الصوفية في المعرض العالمي عام 1867 في باريس. أظهرت لوحة "المتعصبين من طنجة" الشهيرة، التي رسمها "أوجين دولاكروا" بعد زيارته للمغرب عام 1838، المنجذبين "ينتشرون في الشوارع" في "حالة من النشوة سمحت لهم بالسير على الجمر، أكل العقارب، لعق الحديد الأحمر الحامي والسير على شفرات السيوف". استاءت الحركات القومية المتنامية في المغرب من الاستخدام الكولونيالي للصوفية، واستهجنّت "الدجالين الإمبرياليين الذين يستغلون جهل الجماهير وفقدهم". لهذا قام السلطان محمد الخامس -كان يعتبر رئيساً سورياً إلى حد كبير- بدعم الموقف القومي، وأصدر مرسوماً في عام 1946 يحظر مواكب طرق صوفية كالعیساوة، ويحظر إقامة زوايا صوفية جديدة دون إذن منه.

قامت الحكومتان الجزائرية والتونسية إبّان الاستقلال بحظر مجموعة من الطرق الصوفية، بما في ذلك الطرق المنحدرة من غرب أفريقيا – ومنعت طرقات "سطمبولي" في تونس. لكن في المغرب لم تحظر الحكومة الكناوة، ويرجع ذلك جزئياً إلى علاقاتهم الوثيقة بالقصر، لأن العديد منهم كانوا من نسل حراس الملك من العبيد. لم يُنظر إلى الكناوي على أنه داعية ديني، بل معالج يقوم بأداء طقس "الليلة". حظيت موسيقى الكناوة بشعبية خاصة بين الشباب المغربي في السبعينيات، عندما مزجت فرق مثل "ناس الغيوان" (125) إيقاعات الكناوة التقليدية مع أنواع موسيقية شرق أوسطية لخلق صوتٍ احتجاجي قوي.

مع ذلك، لا تزال الغشية هي ما يسحر الغربيين. في أبريل 2005م، عُقد مهرجان السينما الأفريقية في أنجيه بفرنسا، وهي بلدة ساحلية شوارعها مرصوفة بالحصى وترجع بيوتها للقرن الثاني عشر. دُعيت فرقة كناوة لتقديم أداء في موكب المهرجان، ولكنهم تسببوا بضجة بسبب دخول سيدة سنغالية من الحشد في حالة جذب عند سماعها الإيقاعات. يقول سيدو غواي، صاحب مطعم سنغالي ولد في باريس، يعمل مديراً فنياً لمهرجان الفنون السوداء العالمي، والذي شهد رد فعل الحشد، "كانت هذه السيدة مسنة، وفي هذا السن لا تدخل في حالة جذب في الأماكن العامة لمجرد التسلية". لقد ذكرتني الإيقاعات بطقس ندب لدينا في السنغال. احتار الحضور: لمْ انجذبت امرأة سنغالية عندما سمعت إيقاعات مغربية؟ إذا كانت هذه موسيقى دينية مقدسة، فلمْ تم عزفها في مهرجان عام؟

جذبت موسيقى الكناوة المستمعين، سواء بشكلها "التقليدي" أو بمزيجها المتنوع من الكناوة جاز، الكناوة ريغي والكناوة روك. نجد اليوم بعض أغاني الكناوة التي تدور حول المعاناة والظلم ضمن قوائم العديد من عازفي ومنسقي الموسيقى. كما أن احتفالات الشفاء صارت تقام في أماكن مرموقة في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية؛ في معهد العالم العربي في باريس، سيمفونية نيويورك ومهرجانات تدعو للتسامح الديني في سراييفو وتورينو والقدس. وقد دأب النادي الليلي الضخم كباريه سوفاج في بارك دي لا فيليت، في باريس منذ عام 1997، على إقامة حفله السنوي (الليالي البربرية الجنونية)، وهو مهرجان ثقافي يقدم الراقصات الشرقيات، لاعبي الأكروبات، أكلي النار والبهلوانات، ويعد الحضور بـ "رحلة شرقية مبهجة للصغار والكبار!"; كما يقدم العرض "أغاني الكناوة" و"راقصي الليلة" الذين يمثلون حالات الغشية لأجل مئات المحتفلين. وقد صارت منصات عروض الأزياء في باريس تدعو "راقصي الليلة" لتقديم أدائهم على منصة عرض الأزياء بينفا تمر العارضات بسبب نجاح كباريه سوفاج.

ارتعب ممارسو التكناويت(126). الخُص من رؤية موسيقاهم تعزف خارج سياق طقوسها، ومن تسليع ممارساتهم الدينية وتسويقها باعتبارها "ترانس داب" و"إيقاع جذبة". وصنعوا خاصة من تهور الفنانين الغربيين الذين يستهزئون بالأرواح شديدة البأس، ويرددون أسماءها في حفلات الرقص. في عام 2008، لعب الممثل الأمريكي ديفيد كارادين دور البطولة في فيلم فرنسي بعنوان قنديشة، وهو فيلم "إثارة" عن عائشة قنديشة، "الروح الشريرة من القرن الرابع عشر". (تدور أحداث الفيلم حول محام يدافع عن امرأة متهمه بقتل زوجها، بينما عائشة قنديشة هي من قطعت رأس الرجل في الحقيقة). كان هذا الفيلم آخر أعمال كارادين: فبعد بضعة أيام من فوز الفيلم بجائزة في مهرجان المكسيك الدولي للأفلام، تم العثور على الممثل البالغ من العمر 75 عاماً مقتولاً في أحد فنادق بانكوك بحبل مربوط حول رقبته ومعصميه وأعضائه التناسلية. وبينما كان المعجبون والنقاد يتكهنون حول أسباب هذا الموت الغامض، لم يكن لدى المؤمنين أدنى شك: فالعمل كان عن عائشة قنديشة - لقد استهزأ الفيلم وسخر من الروح وقد نفذت انتقامها بشجاعة.

نادراً ما احتفلت النخبة الثقافية والسياسية المغربية بموسيقى الكناوة بعد الاستقلال، فقد اعتبروها تافهة ومحرجة قليلاً - لم تكن تشبه التراث الأندلسي الفخم ("الطرب الأندلسي")، الذي حملته المفكرون والحكومة كشهادة على تهذيب إسبانيا الإسلامية. وبالمثل، جادلت بعض النسويات البارزات مثل فاطمة المرنيسي بأن الاعتقاد الشعبي في عائشة قنديشة، "الشيطنانة البغيضة" ذات "الثديين المتدلين" التي تتلبس الرجال، كان أحد أعراض خوف كارهي النساء الكبير من جنسائية الأنثى. ومع ذلك، ففي السنوات الخمس عشرة الماضية أو نحو ذلك، أصبحت موسيقى الكناوة واحدة من أكثر أنواع "الموسيقى العالمية" شعبية في أوروبا، وارتدت تلك الشهرة مرة أخرى إلى الأرض الأصلية للكناوة، مما منح هذا النوع مرتبة أعلى. جلب المغاربة من الطبقة العليا موسيقى الكناوة إلى تجمعاتهم الاجتماعية وحفلات الزفاف؛ ورعت الحكومة مهرجان الكناوة السنوي، وهو أحد أكبر المهرجانات الموسيقية في العالم؛ ودُعي معلمو الكناوة، الذين كانوا فقراء في السابق، للظهور في البرامج التلفزيونية بعد عودتهم من الجولات العالمية. أثارت شعبية موسيقى الكناوة في الداخل والخارج جميع أنواع الأسئلة في شمال أفريقيا: لمَ سمح المغاربة والجزائريون بأن يغير الهوس الغربي بالجذبة الصوفية الأذواق الوطنية والتسلسل الهرمي الثقافي؟ لماذا ترعى الحكومات الآن الاحتفالات الصوفية؟

يعكس صعود موسيقى الكناوة رؤية واضحة يمكن من خلالها رؤية العلاقات المعقدة - والتقليدية غالباً - بين أمريكا والعالم الإسلامي. ناقش بحاثو

الأنثروبولوجيا والأكاديميون كيف أثرت العولمة على ثقافة الكناوة، وما هو التقليدي وما هو الأصيل في التكناويت حالياً؛ لكن الأهم هو تتبع صعود موسيقى الكناوة، وكيف يتم التنافس عليها حالياً وسحبها في اتجاهات مختلفة: من قبل المسؤولين المغاربة الذين يحاولون مواجهة الإسلاميين؛ ومسؤولي المدن الأوروبية المهتمين بالإدماج؛ والشباب المسلم الأوروبي الذي يحاول بناء مجتمع عابر للحدود. لماذا أصبحت هذه الموسيقى عالمية في المقام الأول؟ من بين عديد الطرق الصوفية التي تستخدم الشفاء الإيماني، ومن بين الكثير من الأنواع الموسيقية ذات الإيقاع المتعدد في شمال أفريقيا، لماذا أسرت هذه الموسيقى المستمعين الغربيين؟ وكما اتضح فإن الجاز هو الذي رفع الكناوة إلى مكانتها العالمية. التقى الجاز بالإسلام في عدة أماكن: في المدن الأمريكية، العواصم الأوروبية وفي المستعمرات الأوروبية في أفريقيا وآسيا. ومن الجدير بالذكر أن واحداً من أوائل الأمريكيين الذين أسرتهم موسيقى الكناوة هو شاعر عصر الجاز كلود ماكاي، الذي شهد احتفال شفاء كناوة في الدار البيضاء في الثلاثينيات من القرن الماضي وكتب بطريقة مؤثرة كيف ذكرته طقوس هؤلاء "المشعوذين الغينيين" بطقس مماثل يمارسه الفلاحون بمسقط رأسه في جامايكا.

مع التوسع الأميركي في فترة ما بعد الحرب، سافر الجاز - الذي يحمله الفنانون والعسكريون والدبلوماسيون - عبر المحيط الأطلسي، إلى أفريقيا وآسيا، ليستوعب نقاشات باندونغ والتضامن الأفرو-آسيوي ويقتص إيقاعات أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي. أسر موسيقى الجاز الأميركيون في الستينيات بصوت الكمبري ومجاله الموسيقي المنخفض، ورأوا فيه قريباً أو سلفاً للكونتراباص، ودمجوه في أعمالهم الموسيقية. يستخدم الشباب المسلمون الأوروبيون الموسيقى اليوم لإقامة ثقافة أفريقية جديدة، معتمدين على إرث الفنانين الأميركيين الأفارقة الذين أخذوا موسيقاهم منذ قرون إلى أوروبا، ثم إلى أفريقيا. ثقافة الكناوة هي قصة ثقافة ما بعد الاستعمار التي وُلدت من اللقاء بين الأطلنطي الأسود والاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا. وقد بدأت خلال عصر الجاز، عندما بدأت كل من فرنسا والإسلام في جذب الأمريكيين

من هارلم إلى القصة (127).

يقال إن باريس في العشرينيات كانت العاصمة الأدبية لأمريكا، وقد جذبت كتاباً كأرنست همنغواي، غيرترود شتاين وف. سكوت فيتزجيرالد. أدى ظهور الراديو إلى إرسال الموسيقى الأمريكية عبر أوروبا، وجلب المسافرون والمغتربون الأمريكيون أحدث الإيقاعات والرقصات إلى فرنسا. ظهر مجتمع

أميركي-أفريقي في باريس بعد الحرب العالمية الأولى، وجلب نهضة هارلم إلى فرنسا. لم تحقق الحرب العظمى مكاسب سياسية كبيرة للأمريكيين الأفارقة، ولكنها أنتجت حركة "نيونيغرو" (New Negro) (128)، كما رأينا في كتابات ماركوس غارفي، دو بوا، زورا نيل هيرستون وكلود ماكاي، وقد ساعدوا جميعاً في إشعال نهضة هارلم. امتد هذا الانفجار الثقافي إلى فرنسا، وأشعل فترة من الازدهار الثقافي لا زال الفرنسيون يطلقون عليها اسم "Les annees folles" - المعادل الفرنسي لسنوات العشرينيات الهادرة. استبدلت موسيقى الجاز موسيقى الراغتايم (129)، التي كانت الموسيقى المهيمنة في هارلم، تماماً مثلما فعلت في باريس. كان الأثرياء من وادي غرينويز في نيويورك يقضون ليلتهم في نوادي وحانات هارلم. أما في باريس، فقد توجه سكان مونبارناس، أو حتى الدائرة السادسة عشرة على الجانب الجنوبي من نهر السين، شمالاً إلى مونمارتر، حي للطبقة العاملة على الضفة اليمنى، وموطن للملاهي الليلية الأسطورية مثل زيلي وبريكوب، التي أصبحت انعكاس هارلم في باريس.

يعود انجذاب الأمريكيين من أصل أفريقي إلى فرنسا إلى القرن الثامن عشر. في عام 1787م، رافقت سالي همينجز توماس جيفرسون إلى باريس، ورأت أنها حرة من الناحية القانونية على الأراضي الفرنسية. رفضت سالي العودة إلى أمريكا، وأمضت ستة وعشرين شهراً في مدينة النور، إلى أن وعد سيدها بتحرير جميع أطفالها عند بلوغ السن المناسب. لكن اهتمام الأمريكيين الأفارقة بفرنسا وافتتان الفرنسيين بالثقافة الأمريكية السوداء ليس قنياً فقط، ويجب النظر إلى الأمر في ضوء ما وصفه الراحل ميشيل فابر "أسطورة عماء اللون الفرنسي" (130). اكتسب مجتمع فرنسا المتسامح شهرة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر - في الوقت نفسه الذي بدأت فيه فكرة الإسلام المتسامح باكتساب نفوذ بين الأمريكيين الأفارقة. اندهش المسافرون السود، كفريدريك دوغلاس، الذي زار فرنسا عام 1859، من المعاملة التي تلقاها، وأشاد بفرنسا واعتبرها تجسداً لـ "الحرية، المساواة والإخاء". وبسبب هذا الاعتقاد فقد تنامي عدد المهاجرين الأمريكيين الأفارقة بعد الحرب العالمية الأولى. وتقريباً نصف الأربعمئة ألف أمريكي-أفريقي الذين خدموا في القوات المسلحة الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى قاتلوا في فرنسا. حارب هؤلاء الجنود السود بامتياز في وحداتهم المعزولة؛ وفي حين حاول الجيش تقييد تفاعلهم مع الفرنسيين، خوفاً من أن يؤدي هذا الاختلاط إلى إغضاب أصحاب المصالح في الجنوب الأمريكي، فقد كان الفرنسيون ممتنون ومرتاحون لهؤلاء الجنود الذين دافعوا عن ترابهم. وقد منحت الحكومة الفرنسية في أكتوبر 1918م "وسام صليب الحرب" لفوج المشاة الأسطوري (369) - وهو فوج أسود من نيويورك، ضم

فرقة جاز مكونة من أربع وأربعين عازفاً بقيادة جيمس ريس أوروبا، أحد أرقى موسيقي هارلم والرجل الذي جلب موسيقى الجاز إلى فرنسا.

بقي بعض الجنود السود في فرنسا بعد توقيع الهدنة. بينما عاد آخرون إلى الولايات المتحدة، مع ارتفاع معدلات البطالة. تعرضت المدن الأمريكية لاضطرابات عرقية عنيفة في عام 1919، بسبب خوف الطبقة العاملة البيضاء من أن يأخذ الجنود العائدون وظائفهم. عززت تلك المعاملة السيئة أسطورة فرنسا المتسامحة (اللاعنصرية)، مما دفع العديد من الجنود الأمريكيين الأفارقة للعودة والاستقرار في فرنسا. وكما كتب تايلر ستوفال في كتابه "باريس الداكنة: الأمريكيون الأفارقة في مدينة النور"، وهو كتاب يوثق تاريخ الأمريكيين الأفارقة في فرنسا، فإن "فكرة فرنسا كملاذ للعنصرية الأمريكية لها علاقة بالأحوال في الولايات المتحدة أكثر الأحوال في باريس". وبالمثل فانتشار موسيقى الجاز في فرنسا له علاقة أكبر بالأحوال في الولايات المتحدة. ففي العشرينيات كان هذا النوع من الموسيقى لا يزال منبوذاً من قبل الكنيسة السوداء وقاعات الحفلات الموسيقية البيضاء؛ أما في باريس، ومع "العشرينيات الهادرة"، وتطوير السوراليين الفرنسيين لاهتمام "بدائي" قوي بالفن الأفريقي، فقد وجد موسيقيو الجاز الأمريكيين الأفارقة مكاناً مضيافاً للعمل والازدهار. وهكذا، وعلى الرغم من سياسات فرنسا الاستعمارية الوحشية -بما في ذلك استجلاب أكثر من نصف مليون عامل مهاجر من ممتلكاتها في شمال أفريقيا والهند الصينية ومعاملتهم بوحشية- فإن فكرة التسامح الفرنسي تمددت على جانبي المحيط الأطلسي. أصرّ القادة والمفكرون الفرنسيون، طوال القرن العشرين، على أن بلادهم محصنة ضد الممارسات العنصرية الموجودة في أمريكا، مُبرهنين على ذلك بالوجود الأمريكي الأفريقي المتنامي في فرنسا. (على سبيل المثال، حظرت الحكومة الفرنسية بشكل علني فيلم "ولادة أمة" الذي يتحدث عن السيادة البيضاء، والذي أثار أعمال شغب في الولايات المتحدة وعُرض في البيت الأبيض للرئيس وودرو ويلسون (131)). ولكن المثير للسخرية حقاً هو أن المهاجرين الأمريكيين الأفارقة الذين عاشوا في باريس هم من زاروا المستعمرات الفرنسية وبدؤوا في مهاجمة الصورة التي خلقوها بأنفسهم للوطن الذي تبنيه.

وصل عصر الجاز الفرنسي سريعاً إلى شواطئ أفريقيا. وفي عام 1933، أنشأ نادي هوت كلوب دي فرانس (132) المكون من عازفي وموسيقي جاز، فروعاً في المغرب، والجزائر، ومصر، والسنغال. صدرت منشورات مثل غازيت دو جاز ونشرة هوت كلوب دي فرانس في جميع أنحاء أفريقيا الناطقة بالفرنسية. وغالباً ما زار المغتربون الأمريكيون الأفارقة المقيمون في باريس

شمال إفريقيا بسبب افتتانهم بالشرق. في عام 1908 قضى الرسام الواقعي الرومانسي المولود في بيتسبرغ هنري أوساوا تانر (133) عدة أشهر في شمال المغرب يرسم الشوارع والمناظر الطبيعية، بما في ذلك قصر العدل (1908)، حيث تجري الرحلة البابلية إلى مصر على خلفية قصر مغربي في طنجة. ثم سافر تانر عبر شمال أفريقيا إلى مصر، ورسم صورة للأمير محمد علي على ظهر حصانه، وتم تكريمه في حفل استقبال من قبل الحاكم. زارت جيسي فوسيت، وهي روائية ومُحررة في ذا كرايسس (مجلة الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين)، وخريجة جامعة السوربون، وإحدى الشخصيات النسائية القليلة في عصر النهضة في هارلم شمال أفريقيا أيضاً. أبحرت جيسي من فرنسا إلى جبل طارق على متن سفينة إيطالية، ووصلت إلى طنجة، "عتبة الشرق"، وأعجبت باختلاف هذه "المدينة غير الأوروبية" عن الجزائر العاصمة "حيث يتذكر المرء باستمرار فرنسا". وكبقية المسافرين الغربيين، رأت فوسيت في المغرب أرضاً تعيش فيها الأرواح حرة. رصدت فوسيت ورفاقها في السفينة حكاة في المدينة يروي حكاية إلى حشد من الناس: "اقتربت مجموعتنا الصغيرة إلى أقرب حد ممكن، وكنا نأمل ونخشى أن ننخرط في بعض الطقوس، مثل طرد الأرواح الشريرة، وغيرها من المظاهر الغريبة المتنوعة للمعتقدات والممارسات الشرقية".

اتسعت عينا الحكاة فجأة وطلب من أصدقاء فوسيت عدم تصويره. في وقت لاحق من ذلك المساء التقت بأصدقاء تعرفهم من وادي غرينويز استقروا في طنجة. استقرت الكاتبة الأمريكية غيرترود شتاين هي الأخرى في طنجة. خلال العشرينيات، كانت تستضيف وشريكتها أليس ب. توكلاس صالوناً أدبياً شهيراً في 27 شارع دي فلوروس في مونبارناس، وكانتا تقضيان الصيف عادة في شمال المغرب. كانت شتاين هي من اقترحت على الروائي الطموح بول تاوولز (134) زيارة الميناء البحري الشمالي المغربي، وانتهى به الأمر ببناء مجتمع أدبي وعاش هناك ما يقرب من سبعين سنة. لكن الشاعر والروائي الجامايكي المولد كلود ماكاي، الذي نشر كتاباً شعرياً قيماً، اعتبر بياناً صريحاً حول الفخر الأسود "ظلال هارلم" (1922)، هو من سيناكش مفهوم فرنسا المتسامحة "اللاعنصرية" ويصبح واحداً من أوائل المؤرخين لموسيقى الكناوة.

لم يصدق ماكاي أبداً أسطورة فرنسا المتسامحة. وبحكم تعاطفه مع الثورة البلشفية، فقد أمضى بعض الوقت في الاتحاد السوفياتي، ولم يجد المواقف العرقية للفرنسيين مختلفة عن تلك التي رآها هناك. عاش ماكاي في مدينة مرسيليا الساحلية بين أناس من جميع أركان الإمبراطورية الفرنسية - أسماهم "عصابة الإنسانية السوداء والبنية" - ورأى كيف ميز الفرنسيون بين

الأمريكيين الأفارقة من جهة وأفارقة غرب أفريقيا وعرب المستعمرات من جهة أخرى. وقد أتاه الإلهام في مارسيليا ليكتب روايته "بانجو"، التي تعد إحدى كلاسيكيات أدب الـ "نيو نيغرو"، والتي صورت مجتمعاً عالمياً أفريقياً يضم عمال رصيف الميناء السنغاليين، ورجال الأعمال الجزائريين الذين قابلهم. سافر ماكاي من فرنسا إلى إسبانيا في عام 1928، وأمضى شهراً في المغرب. عاش ماكاي في طنجة منذ عام 1930م إلى 1934م، وكتب عن نهضة هارلم في الصحف المحلية الناطقة باللغات الأوروبية. بقي ماكاي بعيداً عن الجالية الوافدة، التي سماها "المجتمع الأوروبي"، وفضل المغامرة خارج المنطقة الدولية والاختلاط مع السكان المحليين. يصف بول باولز ماكاي في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين بأنه شخص "بدين ومرح، يرتدي طربوشاً أحمر على رأسه، ويعيش تماماً كمغربي".

شهد ماكاي حفل كُناوة لأول مرة في منزل صديق مارتينيكي (135) في الدار البيضاء في عام 1928م. كتب في مذكراته "الطريق الطويل من المنزل": "كان الكُناوة يعالجون امرأة مريضة، ويرقصون ويهتزون مثل الشياطين. رأيتهم يؤدون شيئاً شبيهاً بالرومبا البدائية، يضربون رؤوسهم قبالة الأعمدة، ويخلعون ملابسهم بحماس. لكنني لم أشاهد النهاية عندما تُطرد الشياطين، لأن امرأة راقصة أخافتني بدخولها في نوبة أمامي. أخبروني أنني روح غريبة وأعيق عمل السحر. لذا اضطررت للرحيل". لم يكن ماكاي التروتسكي يعير الدين أهمية، وربما شعر الكُناوة بعدم إيمانه، لكنه أعجب حقاً بهذه الموسيقى، وبالدور البارز الذي لعبته النساء في هذه الطريقة الصوفية. في عام 1934، وبإيعاز من صديقة الروائي جيمس ويلدون جونسون الذي كتب له: ("نحن الكُتاب الزوج نحتاجك هنا")، عاد ماكاي إلى هارلم ولم يسافر إلى الخارج مرة أخرى، لكن عمله سيكون له تأثيرٌ بعيد المدى على المستوي الدولي. ستشجع رواية "بانجو"، التي اكتملت في طنجة عام 1934، حركة "نيغروتود" بقيادة الشاعرين إيمي سيسير وليوبولد سنغور، وهي المقابل لـ "نيو نيغرو" في العالم الناطق بالفرنسية. تنبأت الروابط التي رسمها هذا الكاتب الأُممي -كما يصف نفسه- بين منطقة الكاريبي وشمال أفريقيا في ثلاثينيات القرن العشرين، ورفضه "للتميزات الدقيقة" التي وضعها المستعمرون الأوروبيون بين شمال أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، بحركة أُممية سوداء أكبر تجاه الإسلام والشرق.

طنجة إلى تاهيتي

يبلغ طول راندي ويستون سبعة أقدام تقريباً؛ لكنه بدا كعملاق طوله اثنتي عشر قدماً بينما يقف على عتبة منزله البروكليني المبني من الحجر البني

ليرحب بضيوفه المغاربة في يونيو 2009م. "لا بأس عليكم" انحنى ليقبل المغنية الفرنسية المغربية ماليا زارا. كانت ترتدي قفطاناً أحمر قصيراً وأقراطاً طويلة مطلية بالفضة، والتي حتى لو أخذنا شعرها الأفرو المنتفخ في الحسبان فلن يتجاوز طولها خمسة أقدام تقريباً. قال ويستون: "تفضلوا أرجوكم. لقد عشت في هذا المنزل منذ أن اشتراه والدي في عام 1946م". ثم قدم زوجته السنغالية فاتو، "مرحباً كيف حالكم؟" نقر على غطاء بيانو أسود كبير في غرفة المعيشة، "إنه بيانو من نوع بوسيندورفر". قال ومن ثم ابتسم، "لندخل إلى المكتب". سار ويستون عبر الدرج نحو الطابق السفلي، حيث يحتفظ بتسجيلاته ومجموعاته الموسيقية. ويستون هو عازف بيانو مشهور وآخر الموسيقيين الأحياء -بالإضافة إلى كوينسي جونز- بين أولئك الذين شاركوا في جولات موسيقى الجاز في الحرب الباردة التي أقامتها وزارة الخارجية الأمريكية.

كذلك كان ويستون أيضاً أول موسيقي غربي يهتم بثقافة الكناوة، ويقدم موسيقى الكناوة إلى عالم موسيقى الجاز وما وراءها. أصبح منزله البروكليني بمثابة محطة على حلبة الكناوة الدولية، حيث يتوقف الموسيقيون من جميع أنحاء العالم لإظهار تقديرهم لهذا السفير الشهير لموسيقى شمال أفريقيا. وزارا واحدة من هؤلاء الزوار. وهي مطربة جاز تغني بالفرنسية، العربية والأمازيغية، ونجمة صاعدة في عالم الجاز الأوروبي، وواحدة من النساء القلائل في مشهد جاز الكناوة. ولدت زارا في قرية في جنوب شرق المغرب، لا تبعد كثيراً عن واحة محمد في طرق الصحراء؛ هاجرت عائلتها إلى فرنسا عندما كانت في الثالثة، ونشأت في حي مانت لا جولي. بدأت بكتابة أغنيات عربية على كلاسيكيات الجاز في سن المراهقة. تقول زارا: "عندما بدأت الغناء باللغة العربية، وكتابة كلمات جديدة لكلاسيكيات موسيقى الجاز، تفاعل الناس بشدة". بدأت زارا عزف موسيقى الجاز في البارات المحلية في باريس، وسرعان ما وجدت نفسها مدعوة للغناء في مهرجانات الجاز في لندن ومونترو. وانتقلت إلى الولايات المتحدة بعد عرض قدمته في قاعة كارنيغي. (صورت سي أن أن نصف ساعة خاصة حول زارا بعنوان "جوهرة الجاز المغربية"). وقد أتت اليوم من نيو جيرسي لتقدم لويستون تسجيلها الجديد.

عاش ويستون -الذي ولد عام 1926م- نضالات الحرية السوداء في القرن العشرين، على الصعيدين المحلي والدولي. كانت هناك صور معلقة على الحائط لعدد من أصدقائه وشخصيات أخرى. أشار ويستون إلى صورة بالأبيض والأسود لزوجين يرتديان ملابس أنيقة: "هذان والداي. جاء أبي من منطقة البحر الكاريبي، من بنما -كان من أتباع غارفي- وأتت أمي من

فرجينيا؛ كانت تتبع تقاليد الكنيسة السوداء، وتذهب إلى القديس كل يوم أحد!". التقط صورة مؤطرة، "هذا صديقي العزيز لانغستون هيوز - ذهبنا معاً إلى نيجيريا في عام 1961. عندما توفي عزفتُ في جنازته مع فرقتي الثلاثية بناءً على وصيته. ولذا فقد عزفتُ ساعة من البلوز". أشار إلى صورة عبر الغرفة، "هذا جيمس ريس [أوروباً]، الرجل الذي أدخل موسيقى الجاز إلى أوروباً". جلس ويستون على كرسي مكتب جلدي. كانت هناك خريطة لأفريقيا وطاقيّة كُناوة مَحبوكة بالخرز وراءه على الحائط.

بدأ ويستون العزف على البيانو في مدرسته الثانوية في بروكلين، برفقة زميله عازف الطبول ماكس روتش. أحبّ ديوك إلينغتون وتطلعاته الأفريقية، وكذلك أسلوب البيانو "الهجومي" لصديقه ثالونيوس مونك. ترك الكفاح ضد الفصل العنصري والاستعمار في أفريقيا بصمته على فنان موسيقى الجاز في ذلك العصر. سجل ماكس روتش ألبوماً عن جنوب أفريقيا وحمل اسم "نحن نُصر!" (136)، وكان عنوانه الفرعي "جناح الحرية الآن" (137). في عام 1960م، سجل ويستون عمله "إفريقيا الحرة" (138)، الذي احتفل باستقلال أفريقيا، وقد كتب لانغستون هيوز كلمات الأغاني ومعلومات الألبوم ورافقه ماكس روتش على الطبول. حظر نظام الأبارتايد الألبوم. وسواء كان ذلك بسبب شهرته المتزايدة، أو شخصيته الغنية، أو وعيه الأفريقي، فسرعان ما دُعي ويستون من قبل وزارة الخارجية للمشاركة في جولات موسيقى الجاز.

يقول ويستون، "ترددتُ عندما تم اختياري للقيام بجولة وزارة الخارجية. كنتُ قد كتبتُ موسيقى عن أفريقيا، ولكنها لم تعن أي شيء حتى عزفتها للأفارقة. لكن ذلك كان في بواكير عام 1967م، وكنا نخوض نضال الحقوق المدنية في الداخل. لم أعرف ماذا أفعل، لذا تحدثت مع أمي وأبي. في النهاية قررتُ أن أقوم بالأمر، بشرط أن أتمكن من تدريس تاريخ موسيقى الجاز". شرع ويستون في جولته في أوائل عام 1967م، ورافقته فرقته الثلاثية وابنه نايلز البالغ من العمر خمسة عشر عاماً. استغرقت الجولة ثلاثة أشهر وزاروا خلالها ثلاث عشرة دولة أفريقية ولبنان. "لقد درّسنا التاريخ خلال الجولة. استعنتُ بعازف طبل أفريقي تقليدي. في بداية كل عرض كنت أخبر الجمهور أن تاريخ موسيقى الجاز يبدأ في أفريقيا وليس نيو أورليانز. كنا نبدأ بالطبل، ثم ننتقل إلى الباص غيتار - من أفريقيا، إلى منطقة البحر الكاريبي، إلى نيو أورليانز. ومن الثلاثينيات وحتى الستينيات. وكنا ننهي العرض بألبومي الموسيقي المَعنون "كتاب الطبخ الأفريقي". كنا نبدأ من أفريقيا وننتهي فيها لنظهر أن (أفريقيا هي الماضي والحاضر والمستقبل)، كما كان أبي يقول".

كنا نسمع مشغل موسيقى بيت موسيقى كناوة بينما ويستون يتحدث. ساهمت جولة ويستون في تعريفه على السياسة المتقلبة لأفريقيا والشرق الأوسط كسفراء الجاز الآخرين. تم إلغاء حفله في نيجيريا بسبب حرب بيافرا (139) الدموية. قدم أداءً في القاهرة قبل اندلاع حرب عام 1967م بوقت قصير. قدم أداءً في بيروت، ودهش بجمال ما كان يسمى آنذاك "جنيف الشرق الأوسط". "البحر، الشعب، الطقس والتنوع. هناك سمعت موسيقى عربية استثنائية". التقى في بيروت بفيروز، التي تعد واحدة من أعظم مغنيات الشرق الأوسط، والأخوين رحباني - زوجها عاصي وأخيه منصور، وهما الملحنان البارزان اللذان أطلقا مسيرتها المهنية. "اصطحبني فيروز والأخوين رحباني إلى حفل خيري، وهناك قابلت صباح"، مشيراً إلى مغنية لبنانية أخرى، لا زالت تقدم عروضاً حتى الآن وهي في الخامسة والثمانين. "كانت ترتدي قفطاناً رائعاً. تناولت العشاء في منزل فيروز، ثم بدأنا جلسة موسيقية". ضحك، "كان لديهم بيانو ربع التنغيم في منزلهم اخترعه شاب لبناني يدعى شمعون. لقد حاولت العزف عليه". تنهد، "لقد أوشت على الاستقرار في بيروت".

استقر ويستون في مدينة ساحلية على الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. انتهت جولات وزارة الخارجية في العاصمة المغربية الرباط، وسرعان ما أخذ أبناءه وانتقل إلى مدينة طنجة الشمالية، التي كانت منطقة دولية حتى عام 1960م، وكان لها مناخ بيروت المعتدل نفسه. عندما وصل ويستون إلى طنجة في عام 1967م، كان هناك مشهد ناشئ لموسيقى الجاز، وعدة ملاهٍ مملوكة لأوروبيين، نتيجة لتسرب هذا اللون الموسيقي من فرنسا إلى مستعمراتها في ثلاثينيات القرن الماضي. كان الجاز بيت عبر إذاعة محلية تابعة لراديو لوكسمبورغ ومحطات إذاعية أخرى. أحضر الجنود الأمريكيون الذين قاتلوا على جبهة شمال أفريقيا الموسيقى معهم. كانت طنجة ساحة معركة أيديولوجية، ومركزاً نشطاً للتجسس بين قوى الحلفاء والمحور خلال الحرب، وقد ظهر الجاز في المغرب والجزائر كتعبير موسيقي عن المقاومة كما كان الحال في فرنسا فيشي.

توقفت الحياة الثقافية عندما احتل النازيون باريس في يونيو 1940م. رأى النازيون الوجود الأسود في فرنسا كرمز لكل ما هو فاسد في البلاد؛ أعلن الجاز كموسيقى منحلة وتم حظره. مُنع الفنانون السود من تقديم العروض في الملاهي الليلية الباريسية. عُزفت موسيقى الجاز بشكل سري، وأصبحت موسيقى المقاومة في الكثير من أنحاء أوروبا المحتلة. عاد كثير من الموسيقيين الأمريكيين الأفارقة الذين عاشوا في فرنسا إلى أوطانهم أو انتقلوا إلى شمال أفريقيا. (في يناير 1941م، انتقلت المغنية والممثلة جوزفين

بيكر، التي لعبت دور فتاة تونسية في فيلم الأميرة تام تام (1935م) إلى الجزائر وأصبحت ملازماً في جيش المقاومة). عقب تحرير باريس في أغسطس 1944م ظهر الجاز، عاد الموسيقيون، واستقر مجتمع جديد من الأمريكيين الأفارقة -معظمهم كُتاب- في المقاهي والنوادي الليلية بالمدينة، لكن هذه المرة في الضفة اليسرى، والحي اللاتيني، وسان جيرمان دي بري. عاش مؤلفون مثل ريتشارد رايت، وليام غاردنر سميث وجيمس بالدوين في باريس، في الوقت الذي بدأ فيه الجزائريون في المطالبة بالاستقلال. أفسد المزاج الاحتفالي الذي اجتاحت فرنسا بعد تحريرها بسبب الكآبة وعدم الثقة بالنفس؛ حيث بدأ المثقفون يتساءلون عن الهزيمة العسكرية، الاحتلال، ومدى التعاون مع الألمان. وجدت فرنسا نفسها متورطة في حربين استعماريّتين لا تستطيع كسبهما - في الهند الصينية أولاً، ثم في الجزائر - لتواجه الواقع الذي لم يقتصر فقط على انهيار الإمبراطورية الفرنسية، بل حقيقة أن فرنسا صارت تعتمد الآن على السخاء والحماية الاقتصادية الأمريكية، وتعاني من إيقاع الأمركة المتسارع.

كانت أمريكا مصدراً للفتنة في فرنسا ما بعد الحرب -أرض التفاؤل والإمكانية التي حررت أوروبا، ولكنها أيضاً سبب القلق الثقافي. مع تدفق الثقافة الأمريكية والمنتجات الاستهلاكية إلى أوروبا، تبنى الشباب الفرنسي كل الأشياء الأمريكية، فارتدوا الجينز وارتادوا نوادي الجاز، بينما استنكر المثقفون ذوو الميول اليسارية النزعة الاستهلاكية الأمريكية وقلقوا من "استعمار الكوكاكولا" لفرنسا (حث أعضاء الحزب الشيوعي الحكومة على حظر مبيعات المشروبات الغازية). قال جان بول سارتر وغيره من المفكرين الذين أعادوا التفكير مرة أخرى في تفجيرات هيروشима وناغازاكي، إن الولايات المتحدة تمثل أكبر خطر على السلام العالمي. أعطى الصراع المتزايد بين اليسار الفرنسي والولايات المتحدة النضال من أجل الحقوق المدنية والثقافة الأفريقية الأميركية جاذبية خاصة: احتضن الهيبيز الفرنسيين موسيقى الجاز في بادرة تضامن مع الأمريكيين الأفارقة، الذين يُنظر إليهم على أنهم ضحايا سلطة الدولة الأمريكية، والذين تعكس تعبيراتهم الثقافية أفضل ما في البلاد. مع ذلك، كانت علاقة الجمهور الفرنسي بالجاز مليئة بالتناقضات. أحب النقاد هذا النوع، ولكنهم تحسروا على جولات وزارة الخارجية الدعائية. (لم يتمكنوا من انتقاد الجولات أكثر من اللازم، لأنها ساعدت في الترويج لموسيقى الجاز في فرنسا، وبسببها حظي الفنانون المحليون بالاعتراف). جادل النقاد الفرنسيون أنه نظراً لأن موسيقى الجاز كانت "سوداء"، فهي لا تهدد الهوية الوطنية الفرنسية، بل يمكن أن تكون وسيلة لإحياء قارة محتضرة. (في عام 1947م، قال سارتر، الذي ساعد في تأسيس مجلة الحضور الأفريقي، إن الثقافة السوداء يمكن أن تشر "القليل

من الدماء الجديدة في جسد [أوروبا] القديم". من المفارقات أن الجاز قد أصبح أداة يستطيع المثقفون الفرنسيون مهاجمة أمريكا من خلالها.

غالباً ما أخذ الموسيقيون الأمريكيون الذين زاروا أو عاشوا في فرنسا موسيقاهم إلى مستعمراتها (مثل عازف الكلارينيت سيدني بيشيت الذي زار الجزائر عام 1952م). بحلول خمسينيات القرن العشرين، ظهرت الكهوف ذات النمط الفرنسي- وهي ملاه في أقبية تعزف فيها موسيقى الجاز- في الجزائر، الدار البيضاء، طنجة و تونس. عندما حظرت السلطات السوفياتية البث الدولي لموسيقى الجاز، أصبحت طنجة محورية في دبلوماسية الجاز الأمريكية. أقامت الحكومة الأمريكية محطتين قويتين لـ "صوت أمريكا" لمتابعة جولات وزارة الخارجية: الأولى في ميونيخ لتبث خلف الستار الحديدي، والأخرى في طنجة -المدينة التي كانت تحت الحكم الدولي، وأصبحت جزءاً من المغرب في عام 1960م- لتبث عبر البحر المتوسط والشرق الأوسط. وقيل إن عدد مستمعي برنامج "ساعة الجاز" الذي كان يقدمه ويليس كونوفر في إذاعة "صوت أمريكا" على الهواء عام 1955م، قد وصل إلى 100 مليون مستمع من شمال أفريقيا إلى بوليفيا.

معلم النوتة الزرقاء

لاحظ الناس اهتمام راندي ويستون بالموسيقى المغربية التقليدية بعد أن عاش في طنجة لبضعة أشهر، وقدموه إلى عبد الله الكورض، وهو مهندس يتحدث الإنجليزية ويبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً ويعمل في قسم برمجة الجاز في إذاعة، "صوت أمريكا"، والذي تصادف أنه معلم كناوة. سمع ويستون الموسيقى وذهل بصوت آلة الكمبري الذي يشبه صوت الكونترباص، كما حدث للكثيرين من فناني الجاز الذين أتوا بعده. "رأيت عبد الله يعزف على آلة الكمبري بطريقة تختلف عن العزف على الكونترباص. وفجأة فهمت الكونترباص بشكل مختلف - رأيت كونترباساً أفقياً يعزف دون قوس. تحوي موسيقى الكناوة خمس نوتات فقط، لكنهم يأخذون نوتة واحدة ويعزفونها مراراً وتكراراً".

اتخذ مجتمع من الكتاب الأمريكيين من طنجة وطناً لهم منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين -بول باولز، وليام بوروز، غور فيدال، ألين غينسبيرغ وإيرا كوهين- واهتم عدد منهم بهذه الموسيقى. أطلق الشاعر كوهين مجلة أدبية تطبع في بروكسل تسمى كناوة، وقد تناولت مؤلفي الإيقاع، رواية القصص وترجمات لأغاني الكناوة. لكن شراكة ويستون والكورض هي التي قدمت الكناوة على الساحة الدولية، وأنشأت النوع الذي

يعرف اليوم باسم الكناوة جاز. بدأ الكورس وويستون بعقد جلسات موسيقية في شقة الأخير. يقول ويستون: "علمني المتصوفة أن الله هو الموسيقار الحقيقي، وأنا مجرد آلة موسيقية. لقد عشت في المغرب، ولم أكن أعرف أي كلمة فرنسية، أو عربية، أو إسبانية، أو بربرية، عشت هناك لأجل الموسيقى والحب فقط. ثم قابلت عبد الله وأدركت أن الخالق قد اختارني لمقابلة السود في شمال أفريقيا، الناس الذين قاموا برحلة مماثلة لتلك التي قام بها أسلافي، والذين حافظوا على تقاليدهم في هذه الموسيقى الرائعة".

"قابلت أساتذة الكناوة المخضرمين الذين بلغوا الثمانين عاماً، وقد أخبروني عن سيدنا بلال. بقيت في طنجة لمدة عامين قبل أن يسمحوا لي بأن أحضر "ليلة". في عام 1969م وبينما كانوا يستعدون لبدء شهر رمضان، توجهت صوب رجل مُسن يدعى فتاح -كان لونه الأحمر- وسألته إذا كان بإمكانني الحضور". ابتسم ويستون وهو يتذكر الحفل. "أوه يا رجل! بدأت في السادسة مساءً. ارتدى الناس ألواناً مختلفة. كنتُ أجلس هناك مرتدياً جلبابي، الذي أصبح أصغر وأصغر مع مرور الحفل". ضحك، "استمر الحفل من السادسة مساءً وحتى السادسة صباحاً - أي حتى شروق الشمس. لم أتمكن من العودة في الليلة التالية، فقد كنت في غشية استمرت أسبوعين". هز رأسه. "لقد سمعتُ أسلافنا، سمعتُ الكون. وأدركتُ أن لوني أزرق؛ لون سيدي موسى روح المحيطات. مسني اللون الأزرق، وفيه سمعتُ موسيقى الجاز، والبلوز، وأغاني الكنيسة السوداء. جميعها في الوقت ذاته". بالنسبة إلى ويستون كان إيقاع سيدي موسى وسيادته على المحيطات لا يستدعيان فقط تاريخ وموسيقى المعابر الأفرو-أطلنطية، ولكن أيضاً مجاز سفر الخروج في الكتاب المقدس، والذي كان له صدى دوماً وسط الأمريكيين الأفارقة، حيث يقود النبي Moses ("موسى" بالعربية) الإسرائيليين عبر البحر الأحمر إلى أرض كنعان. ألف ويستون مقطوعة تدعى "موسى الأزرق"، لكن المعلم الأكبر فتاح، منعه من عزفها في الأماكن العامة.

افتتح ويستون ملهى جاز في طنجة في عام 1969م، وسماه، "ملهى الإيقاعات الأفريقية". كان يعزف على البيانو، بينما يعزف ابنه نايلز على الطبول، وشخص كُناوي على الكمبري، كبديل للباص غيتار، لأنهم افتقدوا إلى أموال لاستئجار عازف باص غيتار. تعلم نايلز عزف ألحان الكناوة على آلة الإيقاع، كأول موسيقي يقوم بذلك. وقد احتفل به مجتمع الكناوة وأطلقوا عليه اسم عز الدين، وصاروا يعاملون ذلك المراهق البروكليني كواحد منهم. كان زبائن ويستون من الطبقة الوسطى المغربية، بالإضافة إلى بول باولز، تينيسي ويليامز، والروائية الإنجليزية إيفلين ووه ("كلهم كانوا زبائن

معتادين في الملهى"). زار أصدقاء ويستون - فنانو الجاز المشهورين مثل ماكس روتش وبونشو سانشيز من فرقة الجاز اللاتينية - المدينة وقدموا عروضهم. قضى العديد من عازفي موسيقى الجاز ممن ينتمون إلى الأحمدية (طائفة تؤمن بميرزا غلام أحمد) وقتاً في طنجة بسبب الثقافة الموسيقية، والمزارات الصوفية ذات القباب البيضاء، والمناظر الطبيعية في شمال المغرب - ومن بينهم أحمد جمال، إدريس سليمان وجميل ناصر.

قرر ويستون وشريكه التجاري المحلي تنظيم مهرجان موسيقى أفريقي كبير في عام 1972. كان المهرجان ناجحاً، وقدمت فيه عروض من أفريقيا والولايات المتحدة، لكنه لم يتلق أي دعم من السفارة الأمريكية أو الحكومة المغربية. "أعتقد أن القومية الإفريقية كانت بالنسبة لهم مجرد مفهوم متطرف". وجد ويستون نفسه غارقاً في الديون وباع ناديه. وعاد "معلم النوتة الزرقاء"، كما كانت الصحافة المحلية تصفه، إلى نيويورك. في العام نفسه أصدر ويستون ألبوم "موسى الأزرق (Blue Moses)" تكريماً لسيدى موسى. روى الألبوم العديد من تجارب ويستون في طنجة، واعتمدت الأغنية المعنونة بـ "كناوة (موسى الأزرق)" على تسلسل النوتة المستخدم في الليلة لاستحضار الروح الزرقاء. "تركت المغرب مديوناً، لكنني سجلت موسى الأزرق وحققت نجاحاً كبيراً. وبسبب عائدات ذلك التسجيل تمكنت من سداد جميع ديوني في المغرب. الله يعمل بطرق غامضة".

دُعي ويستون للمشاركة في مهرجان مونترال للجاز في سويسرا في عام 1974م. "كان موسيقيو الجاز ينتقلون إلى أوروبا في ذلك الوقت. لقد عزفت في إفريقيا قبل أن أعزف في أوروبا، وألوقت الذي قضيته في أفريقيا هو ما جعل حياتي في أوروبا أكثر ثراءً". انتهى الأمر بويستون بالاستقرار في قرية صغيرة شمال شرق فرنسا، قرب الحدود السويسرية. قال ضاحكاً: "كنت أعيش في فرنسا من عام 1974م إلى عام 1985م، على بعد ثلاثة وأربعين كيلومتراً من جنيف، وفي ذلك الوقت بدأت أحضر فرق الكناوة لأداء الحفلات في القرى السويسرية". بدأ بدعوة صديقه عبد الله الكورض، الذي أقام مركزاً ثقافياً لموسيقى الكناوة في طنجة، ليؤديا عروضاً بشكل منتظم في المهرجانات في جميع أنحاء أوروبا، في النوادي المحلية في فرنسا وسويسرا وفي تجمعات ثقافية صغيرة. "أخذنا الموسيقى إلى الضواحي، إلى المدارس والمهرجانات وأحبها الطلاب الذين هاجر أبائهم من أفريقيا، فقد جلبنا لهم ثقافتهم. وعندما عدت إلى نيويورك واصلنا عزف الموسيقى. عندما كانت ميلبا (ليستون) مريضة، أحضرت فرقة كناوة ليعزفوا لأجلها في مستشفى هارلم. وعندما كانت أختي في المستشفى في بروكلين، أحضرت فرقة كناوة أمضوا معها أربعة أيام. لا يزال ويستون يقوم بجولات منتظمة

مع فرقة كُناوة من طنجة. عزف هو وفرقة الكورس في متحف "كاوبويز أوف كولور" الوطني في تكساس - قبل أيام من هجمات الحادي عشر من سبتمبر- حيث استخدم المقلّم المغربي مخططاً بألوان مختلفة لشرح "الليلة" لمجموعة من الطلاب.

أدت زيادة الهجرة من شمال أفريقيا، إلى جانب جدول جولات ويستون والكورس المُزدهم -في مهرجانات جاز كبيرة وفي أحياء المهاجرين في أوروبا- إلى رفع مكانة موسيقى الكُناوة ببطء. توجه غازفون آخرون - أرشي شيب، فاروه ساندرز، دون تشيري- إلى فرنسا أو المغرب للعثور على متعاونين من الكُناوة. وسرعان ما تبعهم فنانون موسيقى الروك مثل روبرت بلانت وبيتر غابرييل. عاد الاهتمام الدولي بهذا النوع إلى المغرب. ومع ظهور جحافل السياح، علماء الأنثروبولوجيا، منسقي الموسيقى، وغيرهم من الهيبستر(140) الذين يبحثون عن "الكُناوة" التقليدية والليلة "الأصيلة"، بدأت الحكومة المغربية بالاستثمار في الموسيقى والترويج للفنانين والمنتجين المحليين لتلبية الطلب الجديد. يُعترف اليوم براندي ويستون بصفته الرجل الذي وضع موسيقى الكُناوة على خارطة الموسيقى العالمية، إلى جانب مع شريكة الكورس. في مايو 2000م، أُعيد إحياء المهرجان الأفريقي الذي نظمته عازف البيانو في عام 1972، وأُعتبر مهرجاناً سنوياً لموسيقى التانجاز(141)، يجذب موسيقيين من جميع أنحاء العالم إلى طنجة. وفي كل عام مع أوائل الخريف، تبدأ جداريات إيلا فيتزجيرالد وبيلي هوليداي في الظهور على جوانب المباني السكنية.

قررت مليكة زارا أن ترفع صوتها بعد أن صمتت لوقت طويل. "ما رأيك في جيل الكُناوة الجديد؟"، أخذ ويستون نفساً عميقاً. "لست سعيداً بالجيل الجديد". هزّ رأسه. "يخبرني الناس الآن عن كُناوة الفرنسية، وألمانية، وصينية. أعلم أنها لا يمكن أن تكون مشابهة للأصل. لا يمكن لأحد إدخال تحسينات على التقاليد التي انتقلت عبر الأسلاف. دائماً ما يحاول الغرب التدخل لتحسين الأشياء".

ابتسمت زارا بتوتر، وسحبت قرصها المُدمج، وهو ألبوم لموسيقى جاز بخلفية من موسيقى الكُناوة. "آمل أن يعجبك". "أنا متأكد أنه سيعجبني". ضحك. "لكنني لست متأكداً من كلمة (دمج "fusion")؛ كل هذا الكلام عن الدمج لم يبد منطقياً بالنسبة لي أبداً - ما فعلته دائماً هو محادثة، حواراً بين عناصر مختلفة من الموسيقى الأفريقية". وصل فنانون آخرون لرؤية أسطورة موسيقى الجاز. ووعده ويستون بالذهاب لرؤية أداء زارا بعد أسبوعين في "لو بواسون روج" في وادي غرينويش.

اتصل بي بعد بضعة أيام ليقول إن ألبومها "مثيرٌ جداً للاهتمام".

الفصل السابع

في الغُشْية نضع ثقتنا

على الأرجح إن "الأخوة الأربعة" هو مطعم الكوسكوس الأكثر شعبية في باريس. يتوسَّط المطعم محلاً لقطع غيار الكمبيوتر، ومتجر المهداوي للأقراص المدمجة في جادة لولفيلت. يبدو المطعم خاملاً ويكافح لأجل بقائه، ولكن بحلول المساء تضجُّ فيه الحياة بواسطة زبائن شباب متلهفين لتذوق السميد المُتَبَّل المطبوخ بالقرع، اللفت، الجزر ولحم الضأن. تسبب المطعم -الذي يقدم المشروبات واللحوم الحلال فقط- بجلبة كبيرة منذ أشهر قليلة بسبب سلسلة "ليالي رمضان" خاصته التي قدمت فُرُق بوب من شمال أفريقيا للترفيه عن حشد الشباب المُتحمّس الذي يتناول إفطاره مع غروب الشمس ثم يغوص في أعماق الليل. ضمّ الافتتاح أوركسترا باريس (142) الوطنية (ONB)، المجموعة التي جلبت "كناوة ديفيوشن" (143) إلى المسرح الفرنسي والعالمي في منتصف التسعينيات. تنحدر (ONB) من حي باريس للطبقة العاملة في الدائرة الثامنة عشرة من المدينة، وهو موطن جالية مسلمة كبيرة وأكبر سوق عربي في العاصمة، مكانٌ ليس بعيداً عن مطعم الأخوة الأربعة- يجدُّ فيه المُتسوقون كل شيء، من الحناء الحمراء والخضراء إلى حساء السمك السنغالي المطبوخ بالفول السوداني. تفخر الأوركسترا بتمثيل مزيج الثقافات الموجودة في حي باريس، والتي يطلقون عليها "عاصمة الأمة الباريسية".

لم تخيب الأوركسترا ظن الجماهير خلال أدائها بالمطعم في الجمعة الثالثة من رمضان 2009م: انتقل المُغَنُّون من أناشيد الكناوة بمصاحبة الطبول والغيتارات إلى أغنية حب (من أغنيات السبعينيات الشهيرة) بمصاحبة الأكورديون، وعادوا مرة أخرى إلى أناشيد الكناوة. "شرونا وباعونا!"، كانت حلبة الرقص ضاجة بالشباب وزغاريد النسوة. ألقى العربي ديدا، مُغَنِّي المجموعة، تعليمات للراقصين، "الأكتاف، هزوا الأكتاف!". امتزجت طبول السناكر، الكمبري مع الغيتارات الكهربائية، الأبواق والساكسوفون لتصنع مزيجاً مُسكرًا. أثناء تعليمات الرقص قام ديدا بتمجيد النبي: "يا رسول الله". تمزج (ONB) موسيقى شمال أفريقيا وغرب أفريقيا مع موسيقى الروك وأغنيات الحب العاطفية. بثت الأمسية بأكملها على الهواء مباشرة في Beur FM، وهي محطة إذاعية مقرها باريس تقدم خدماتها إلى المجتمع المغاربي، وفي اليوم التالي اتصل المستمعون للتعبير عن رأيهم. جادل المدافعون عن (ONB) بأن هذا النوع من الانصهار واختلاط الأنواع ("موسيقى الكسكسي")

والنهج غير الديني مكن الفرقة من إيصال الإيقاعات المغاربية إلى التيار الموسيقي السائد. ولكن هذا المزيج أيضاً أغضب المستمعين الآخرين. بالنسبة لممارسي ومعتقدي التكناويت فإن عزف الكمبري خارج سياقه الطقسي، ذكر اسم الله داخل خلبة الرقص، مزج الأغنيات التي تتحدث عن العبودية بأغاني كباريه، استدعاء الأرواح في ليلة رمضانية داخل ملهى ليلي يجتمع فيه الرجال والنساء، يعدّ استهتاراً بالتقاليد الموقرة وتدنيساً للمقدسات.

هناك لغط حول مصدر أسطورة عائشة قنديشة. يعتقد بعض الفلكلوريين أن الجنيّة جاءت من السودان و"تزوجت" من القديس علي بن حمدوش الذي عاش في القرن الثامن عشر، والذي يقع ضريحه في وسط المغرب. يقول آخرون إنها شخصية من أصل إيبيري، تُعرف باسم عائشة لا كونتيسا، وهي شبيهة بـ "الموريسكية المسحورة"، التي فرّت من البرتغال مع جماعات المور بعد عام 1492، وحاربت إلى جانب المسلمين عندما غزا البرتغاليون المغرب في أوائل القرن السادس عشر. وعلى كل فإن أهمية قنديشة المتغيرة في صميم المناقشات حول الكناوة بغض النظر عن أصلها. لا يخاف الشباب من الجنيّة. فقد أطلقت مجموعة من النسويات المغربيات في عام 2011م مجلة اسمها "قنديشة"، وقدموها كبطلة قوية. تقول محررة المجلة: "الحقيقة أنه في أي وقت تطالب فيه امرأة بحقوقها في المغرب يُطلق عليها اسم قنديشة". يمكن للمرء أن يرى شابات يرقصن متقابلات، يمسكن بأيدي بعضهن البعض ويُحركن شعورهن بقوة من اليسار إلى اليمين كما لو كن ممسوسات حتى يسقطن على رُكبهن، في النوادي الليلية الخاصة بالمنحدرين من شمال أفريقيا بالولايات المتحدة - نادي "طاجيني" في مانهاتن و"قازوزة" في واشنطن العاصمة.

لكن في تلك المدن نفسها، تُعقد الليالي لاسترضاء لالة عائشة. الحقيقة هي أنه عندما يهاجر الناس، يهاجر معهم شيوخهم ورموزهم الروحية. في السنوات الأخيرة شوهدت قنديشة بجمالها الساحر في بروكسل، مدريد، وحتى سان فرانسيسكو. هناك مكان في باريس شوهدت فيه الفاتنة مراراً لدرجة أنه سُمي الآن مكان عائشة، يتوقف عنده المهاجرون من شمال أفريقيا بالطعام والشموع وغيرها من القرابين. في سبتمبر 2005م، بدأت حسنية البديسي، وهي امرأة مغربية في الثالثة والثلاثين من عمرها تعيش في سان فرانسيسكو، تشعر بالحاجة إلى "ليلة". (طقوس ومراسم كناوية تشبه الزار تستخدم الموسيقى في حالات المس والغشية). وبسبب نشأتها في منزل كناوي في الرباط، كانت أسرتها تقيم احتفالاً كل عام قبل رمضان. قالت حسنية لأصدقائها: "كان رمضان على الأبواب، وكنت بحاجة لحمل هدية إلى

بودربالا، لقد شعرت بذلك في عظامي"، في إشارة إلى شيخها. خاطبت حسنية العديد من المساجد الموجودة في منطقة خليج سان فرانسيسكو، لكن أياً من الأئمة لم يعرف كيف يدير جلسات علاج الاستحواذ الروحي. لذلك اتصلت بتيم عبد الله فيوشن المُتخصص بالموسيقى الإثنية في جامعة بيركلي، وهو باحث ياباني-أمريكي اعتنق الإسلام، وأحد كبار الباحثين والممارسين لموسيقى الكناوة في أمريكا الشمالية.

يشرح فيوشن عازف الباص غيتار السابق: "كثيراً ما أقيمت لها "ليلة" خلال نشأتها في شهر شعبان لتجديد علاقاتها مع الملوك (الأرواح)، وقد شاركت في العديد من الليالي، لذلك عرضتُ عليها إقامة واحدة. قلْتُ لها إننا سنتبع النية الحسنة، وإن شاء الله سوف تسير الأمور على ما يرام". نظم فيوشن مراسمَ لحسنية في شقة في الخليج الشرقي. "لم يتم ذبح أي حيوانات!" قال ضاحكاً، "كان بصحبتني عازفا قراقب أمريكيان، أحدهما يعرف مقاطع الاستجابة لحفنة من الأغاني. لكن كان عليّ في معظم أوقات "الليلة" أن ألعب دور المُعلم، المرشد والمستجيب في الوقت نفسه - وتوجيه المساعدين لحرق مجموعة متنوعة من البخور وإعطاء الممسوسة القماش المناسب". لم يبدأ فيوشن مرتاحاً لقيامه بأدوار متعددة. "كل ما حاولنا القيام به تمَّ بصورة جيّدة. فقد انجذبت وانتشت. تم استدعاء لالة ميرا بشكل جيد مع تصاعد صوت الآلات الموسيقية. لكن المؤكد أنها لم تكن "ليلة" مثالية. لقد توليت دور المعلم في هذا الحدث، ودور المشرف كذلك، ولكنها أدوار لست مؤهلاً لأدائها وألقاب لا أودُّ المطالبة بها".

تم تشجيع الممارسة الصوفية في أوروبا، لأنهم رأوا الصوفية أكثر توافقاً مع الليبرالية بشكل عام، بل ومفيدة لما يسميه مسؤولو الحكومة البريطانية "التماسك الاجتماعي". في عام 1999م، أذن عمدة بروكسل ببناء زاوية كناوة في حي مولينبيك، وقد وصفها الخبراء بأنها أول مكان من هذا النوع في أوروبا. يقع المكان في الطابق الأول من مبنى سكني ويقيم "الليلة" مرتين فقط في السنة، ولكنه يعمل بانتظام مع جمعيات الأحياء، ويوفر مساحة للمجموعات الصوفية الأخرى في المدينة. حتى تسببت مأساة وقعت في أغسطس 2004م بجلب انتباه غير مرغوب فيه على جميع الطرق الصوفية ببروكسل. فقد أخذ رجل زوجته التي تحمل اسم لطيفة هاشمي وتبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً إلى شيخ بسبب عدم قدرتها على إنجاب أطفال، وقرر الأخير القيام بطقوس إخراج الأرواح الشريرة. وأثناء ترتيل الصلوات وحرق البخور حاول الإمام حرفياً إخراج الجن المُسبب للعقم من جسد مريضته باستخدام مضرب بيسبول، ما تسبّب في موت لطيفة أثناء الجلسة. "لقد أغرقت وضربت حتى الموت على أيدي طاردي الأرواح"، أعلن القاضي

جان بول تيليمان في المحاكمة بتاريخ مايو 2012م، وبعدها أصدر حكماً بالسجن لمدة ثلاثين عاماً على جميع المتهمين الستة "من طاردي الأرواح" بجرime ممارسة التعذيب. "الرسالة الرئيسية هنا هي أنه بغض النظر عن الذريعة الدينية، فإننا لا ننتهك سلامة إنسان آخر". على الرغم من أنه لم يكن واضحاً ما إذا كانت عملية طرد أرواح لطيفة قد نفذها معلم صوفي أو شيخ سلفي (فقد بدأ السلفيون بالانخراط في طرد الأرواح الشريرة لإثبات أن الآيات القرآنية والتقوى - وليست طبول الوثنية وتوقير الشيوخ - هي التي تطرد الجن)، أو أحد "أخصائيين الجن" الذين يعلنون عن أنفسهم حالياً على الإنترنت؛ ستخضع الطقوس الإسلامية التي تنطوي على التضحية بالحيوان وتعذيب الذات، حيث يحرق الناس جلدهم ويقطعون أجزاء من أجسادهم، لمزيد من التدقيق الحكومي.

في فرنسا على وجه الخصوص، أصبح ذبح الخراف السنوي الذي يمارسه المسلمون خلال عيد الأضحى، أو في مناسبات أخرى نقطة خلاف وجدل. دعت جماعات حقوق الحيوان الدولة إلى تنظيم هذه الممارسة، في حين نددت الجماعات المناهضة للمهاجرين كثيراً بالطقوس بوصفها تبررية. حوكت الممثلة بريجيت باردو وعُزمت خمس مرات منذ عام 1997م بتهمة "التحريض على الكراهية العرقية" بسبب تعليقاتها حول ذبح المسلمين للخراف. تحدث رئيس الوزراء السابق نيكولا ساركوزي في حملته الرئاسية عن تنظيف الضواحي، مشيراً بشكل مباشر إلى المهاجرين الذين يذبحون الخراف في أحواض استحمامهم. لم يقلل الأمر من جاذبية الكناوة. ففي الوقت الذي تقوم فيه أجهزة إنفاذ القانون بدوريات في الأحياء الإسلامية أيام العطل الدينية بحثاً عن الخراف أو الماعز، وجد مسؤولو المدن الأوروبية طرقاً مبتكرة لاستخدام موسيقى الكناوة للاحتفال بـ "التعددية الثقافية". أحب مسؤولو الدولة حضور النساء في "الأخوية"، ورأوا الكناوة مُصلحة للأرواح - والبشر. كانت ثقافة الكناوة في نظرهم مرنة ومفيدة - فهي أفريقية، عربية، مسلمة، بربرية ومتوسطية - لذا دعى موسيقيو الكناوة بشكل منتظم لكل أنواع "مهرجانات التنوع". في يونيو 2010م، قام السياسي الاشتراكي فيليب مورو بتجنيد فرقة كناوة في بروكسل لحملته الانتخابية.

لكن هناك فرعاً جديداً - كناوة ريغي - ظهر في فرنسا وبلجيكا، ينشد أغنيات سياسية بوقاحة وتحدّ، كما يدعو إلى سياسة عابرة للحدود والإثنيات وأكثر راديكالية، ويتحدى التعددية الثقافية الليبرالية التي يدعو إليها مسؤولو المدينة من محبي كناوة.

الحالة الكناوية

تبدو روح التفاعل المستمر منذ عقود بين فرنسا، شمال أفريقيا، وأمريكا السوداء الآن أكثر وضوحاً في "كناوة ريغي"، وهو نوع موسيقي ينتشر عبر قنوات مختلفة بين المناطق الحضرية في فرنسا ومدن شمال أفريقيا. على رأس هذه الموجة مجموعة من الفنانين اليساريين الذين ينحدرون من المغرب، الجزائر، السنغال وجاليات الشتات في أوروبا، وهم في الواقع الأبناء الأيديولوجيون لماكاي، ويستون، وناس الغيوان (الفرقة الموسيقية المغربية) التي اشتهرت في السبعينيات. وصفت فريونييك مورتان، الناقدة الموسيقية لصحيفة لوموند "شباب الكناوة" الذين رأتهم في أوروبا وشمال أفريقيا: "إنهم أبناء اختلاط الأعرق في الإقليم المغربي، أيّ السود، والبربر والعرب، من جامايكا الثائرة وأحياء الطبقة العاملة في الغرب. يستند هؤلاء الشباب على مفهوم لنشأة الكون يمزج تصورات إسلامية وراستفارية، مستحضرين الشيوخ المسلمين ورموز الثقافة الكاريبية باستخدام لغة عالم ثالثة وإثيوبية لشرح موقفهم الواقف على تخوم العالمين الإسلامي والأوروبي.

يُعتبر "أمازيغ كاتب" أشهر فنان كناوة ريغي، وهو عضو في فرقة "كناوة ديفيوشن"، ويعرف أيضاً بلسانه الحاد وتراكيبه وتأليفاته الموسيقية. أمازيغ هو ابن الروائي الجزائري كاتب ياسين (1929-1989)، الصوت المبكر للنضال المناهض للاستعمار الجزائري. (أشهر روايات ياسين هي "نجمة" التي نُشرت في عام 1956، تحكي قصة مجازية عن امرأة غامضة تم اغتصاب أمها، وعند ولادتها يدعي أربعة رجال أبوتها. ترمز هويتها المتنازع عليها إلى الهجين وعنف الصراع الجزائري). إنَّقِدَ ياسين خلال مسيرته بسبب استخدامه الفرنسية في كتاباته، وكان دائماً يردّ على هذا الزعم بأن اللغة الفرنسية هي من غنائم الحرب الجزائرية (butin de guerre). وبحلول نهاية حياته، كان يُشجب بسبب دفاعه عن لغة البربر، معارضته لحجاب الرأس وإلحاده الصريح. سَمَّى ياسين ابنه أمازيغ، وتعني "الرجل الحرّ" في لغة الأمازيغ (144). في شمال أفريقيا.

"لقد منحني والدي اسم أمازيغ لكيلا أنسى أبداً من أنا"، هكذا يشرح الابن البالغ من العمر واحد وأربعين عاماً. "كان اسمي مربكاً للقوميين العرب". يمكن قول الشيء نفسه عن موسيقاه. جاء أمازيغ إلى فرنسا في سنّ السادسة عشرة لتفادي الخدمة العسكرية في الجزائر. ومع اندلاع حرب أهلية طويلة الأمد في وطنه في عام 1992م، أنشأ فرقته "كناوة ديفيوشن"، ومن مدينة غرونوبل، عند سفح جبال الألب الفرنسية، بدأ بكتابة أغاني عن القمع، الأناركية -واضعاً كلمات والده على آلة الكمبري الوترية- وشنّ هجمات موسيقية على الأفكار الإسلامية، القومية العربية وسياسات مختلف دول شمال أفريقيا، مما أثار غضب السلطات الجزائرية. تبنى أمازيغ سياسات

والده المُعادية للاستعمار بتنويعه معاصرة: إذا كان الأب عضواً في الحزب الشيوعي متعاطفاً مع حركة باندونغ لعدم الانحياز - كتب ياسين مقالاً بعنوان "إخواننا الهنود" - نجد الابن يعارض بشكل واضح العولمة (تقرأ: الأمركة) والإمبريالية. وفي حين يشارك والده معارضة التعريب، يتمتع الابن برؤية أفريقية أكثر، تربط الضواحي الفرنسية وأفريقيا ومنطقة البحر الكاريبي.

تماثل نظرة أمازيغ للعالم نظرة جيل الكناوة الجديد. يقول أمازيغ، "نحن جزائريون، نحن أفارقة. لكننا نسينا ذلك، لذا نحن محصورون بين نموذجين لأفكار التفوق - الغرب والشرق. إذا واصلنا النظر إلى الشرق أو الغرب سنفقد توازننا. يجب على الجزائر أن تتجه جنوباً وتنظر داخلها - فقط الكناوة، التقليد الأفريقي لهذا البلد، هو ما يمكنه منح قاعدة صلبة للهوية". تحتفي نزعة أمازيغ القومية كوالده بالثقافات المحلية لشمال أفريقيا، وترفض الهيمنتين الغربية والشرقية. (لديه أغنية عن الأسلوب الذي اعتاد به أسلافه الجزائريون نصب الكمان لجامعي الضرائب العثمانيين). وقد بدأت صحوته السياسية عندما زار تيميمون في جنوب الجزائر في صغره. يتذكر أمازيغ وقوفه على أطراف الصحراء: "كنت أعيش قصيدة ورأيت الجزائر عارية بلا قناع". في تلك اللحظة، تذكر نداءات بوب مارلي الكونية للوحدة الأفريقية، والتقت الصحراء وأفارقة الشتات في ذهنه. "أدركت أن العبيد وأحفادهم هم أفضل من يفهمون الحرية". ومثل باقي الموسيقيين في حركة الكناوة ريغي، ربط أمازيغ خريطة البحر الكاريبي بجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومزج الرستفارية بثقافة شمال أفريقيا (كما يظهر في ألبومه باب العود كينغستون).

يبدو أمازيغ كثير الهذر والمزاح على خشبة المسرح، ولكن مثل الكثير من فناني الكناوة المُسيّسين في جيله ينضح منه سخط واضح. وجّه أمازيغ نيران كلماته صوب إدارة بوش بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر - وقد وصف نفسه بأنه شكّاك "Truther" (الأفراد الذين يؤمنون بوجود نظرية مؤامرة وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر). غنى أمازيغ مواويل عربية طويلة في جولة حول أوروبا - أغنيات مُشَبَّعة بأنين ممتد حول معاناة الجزائر - ثم بدأ في مداعبة آلة الكمبري برفق ثم بعنف، وبعدها دخلت أصوات الطبول والغيتارات، "الرقص هو بداية الانتفاضة". وقد قاد جمهوره اليافع للرقص والهتاف: "للعنة، للعنة، اللعنة على القوة الأمريكية!".

تدفقت موسيقى الكناوة في بدايتها من شمال أفريقيا إلى أندية الجاز وأحياء المهاجرين في أوروبا. أما اليوم فتسير في الاتجاه المعاكس، تحملها وسائل الإعلام الجديدة وما يُطلق عليهم العائدون (أطفال المهاجرين)، بحيث

استبدلت الموسيقى المُنتجة في مرسيليا ولندن تلك الموجودة في شمال أفريقيا. يُسمَعُ مزيج الكناوة ريغي الشهير المعدّ بضواحي فرنسا الآن في المراكز الحضرية المغاربية على نطاق واسع. أثار فنانون الكناوة ريغي زوبعة سياسية في أوائل التسعينيات بسبب انتقادهم لسياسات التعريب، لكنهم اليوم أصبحوا متوافقين أكثر مع موجة الإحياء الصوفي الأكبر.

قمة الكناوة

يخرج صوت مرتفع لإيقاع "الروبodob" من متجر للأقراص المدمجة المقرصنة في مدخل المدينة. يتجول باعة الطرايبش، قَبَّعات الراستا وقمصان عليها وجه مُظلل لبوب مارلي يغوص في سحابة من الدخان، كُتب عليها عبارة "الملك". يُعرَّف رجل بدين أصلع في قميص هاواي نفسه بأنه "الموزع الرئيس" لموسيقى الكناوة في بولندا.

تشكلت دائرة على بعد ياردات حول رجل يلوح بزجاجات صغيرة تمتلئ بشيء ما. "إنها تقف منتصبّة الآن، لكنها ستستوي راقدة"، يقول خليل، وهو يشير إلى ضفائر في شكل مخالب تخرج من رأسه بأسلوب الفنان كوليو. "هذه هي المرحلة الأولى" يصف الشاب -الذي يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ويرتدي فنانة توب تانك بألوان حمراء، وخضراء، وصفراء- نفسه بأنه "مراستا"، وهو الاسم الذي يطلقه الراستا المغاربة على أنفسهم. يتجول خليل وهو يبيع إكسيرا لا يكشف عن محتوياته، لكنه يؤكد للمجموعة التي تتحلق حوله بأن له القدرة على تحويل شعورهم بسرعة إلى دريدلوك (جدائل). من الشائع بالنسبة للشباب المغاربة أن يجدلوا شعورهم بأسلوب الدريدلوك نسبة لانتشار الكناوة ريغي حالياً. يزور مُحَبُّو الكناوة حلاقي أحيائهم المحليين، ليطالبوا بهذا المنتج الغامض، ويبدوون في "القتل" قبل أشهر من مهرجان كناوة السنوي في الصويرة.

ينحدر عشرات الآلاف من الزوار المحليين والأجانب سنوياً، في أواخر يونيو، إلى مدينة الصويرة لحضور مهرجان موسيقى يطلق عليه بصورة غير رسمية اسم "وودستوك المغربي". اشتهرت هذه المدينة الساحلية بين السواح المهتمين باستكشاف أزقة المدينة القديمة الملتوية، فقد قام أورسون ويلز (145) بتصوير فيلمه "عطيل" هناك في أوائل الخمسينيات. وقد أصبحت تجتذب نوعاً جديداً من الزوار بعدما صارت محطة ضمن حلبة الكناوة ريغي الدولية. يمكن للمرء اليوم أن يرى مجموعات صغيرة من الشباب، يمشطون شعورهم بشكل ضفائر أو جدائل، ويتجولون في المدينة، بينما آلة الكمبري الوترية متدلية على أكتافهم. يعقد بعضهم جلسات موسيقية مرتجلة على

أسوار القلعة البرتغالية التي تعود للقرن السادس عشر والموجودة على أطراف المدينة. يندفع المتزلجون أعلى وأسفل الأمواج قبالة الساحل. لقد أصبح شاطئ المحيط الأطلسي المتقلب في مدينة الصويرة وجهة مفضلة للمتزلجين الفرنسيين، والألمان والهولنديين. (يتباهى المرشدون السياحيون المحليون بأن هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي تجد فيه راستات يركبون الأمواج).

يصرُّ خليل، بائع المُنتج، "أنا لست رستفاري، أنا راستا، وهذا ما يعني شيئاً واحداً، الحرية، الحرية!". تحدث شاب يمثل حشد كُناوي من مدينة أغادير، وهي مدينة تقع أقصى الجنوب، "أنا أوُمن بالله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. نحن لسنا رستفاريون، نحن مسلمون - لا نوُمن بهيلا سيلاسي. نحن مثل جيمي كليف - فهو راستا مسلم"، يقول الشاب في إشارة إلى نجم ريغي جامايكي من السبعينيات، يحظى بشعبية كبيرة في شمال أفريقيا. سألته عن رأي والده في شعره الطويل. "لا يستطيع أن يجادلني، فالنبي محمد كان يملك شعراً طويلاً". رغم كل إصرارهم على أنهم "مراستا" وليسوا رستفاريين، فإن شباب الكُناوة استوعبوا قليلاً من الثقافة التي ظهرت في أحياء جامايكا الفقيرة في الثلاثينيات: تصفيفة الشعر، نوع الثياب، اللغة التي تجمع بين المفاهيم الرستفارية واللهجة الجامايكية مثل: ("بابل"، "إنسان ظالم"، "الهجرة"، و"ولد شقي")، والأهم من ذلك، وجهة نظر أفريقانية.

وجدتُ جمال، الذي يدير مقهى "ماما أفريكا" في مراکش على أحد الأسطح، بعيداً عن الزحام. كان يرتدي سترة وقبعة مائلة على رأسه -بطريقة مشابهة لأيقونته مغني الريغي الراحل غريغوري إيزاك- شرح جمال محتويات إكسبر جدائل الدريدلوك: "إنه مزيج من الصابون، الموز، لب جوز الهند ومنتجات شعر تدعى "داكس ويف أند غروم"، نحصل عليها من جبل طارق".

ولدت الحركة الرستفارية في نوفمبر عام 1930م عندما توجَّج راس تافري ماكونين إمبراطوراً لإثيوبيا باسم هيلا سيلاسي. اعتقد عدد من المسيحيين والغارفيين (نسبة إلى ماركوس غارفي) أن سيلاسي هو المُحرَّر الذي تنبأت بمجيئه سفر الرؤيا، والمفتدي الذي سيعيد العرق الأسود إلى جبل صهيون في أفريقيا. يمزج النسق الاعتقادي للراستافاريا تعاليم ماركوس غارفي والعهد القديم، رافضاً قوة المؤسسة العلمانية الظالمة المُسمَّاة بابل، والتي يعتقد أنها أفسدت تعاليم الكتاب المقدس وتمردت على الرب ("جاه"). استوحى الرستفاريون مقاطع من سفر اللاويين وأطالوا شعرهم في شكل جدائل على شاكلة عُرف أسد يهوذا؛ واعتمدوا اللون الأحمر، الأخضر

والذهبي؛ بدؤوا بتناول الأطعمة الخالية من المواد الكيميائية، وتدخين الحشيش ("غانجا") من أجل طقوسهم. بُرر التدخين بالإشارة إلى "العشب" في سفر رؤيا 5: 5، وغالباً ما صاحب دراستهم للإنجيل، واعتُبر ضرورياً للشفاء وتجاوز الظروف الظالمة لبابل.

من الواضح أن الشباب المسلم في أوروبا وشمال أفريقيا الذين يصرون على أنهم راستا أو مراستا وليسوا رستفاريين، يدركون المناقشات اللاهوتية التي تدور على الإنترنت حول ما إذا كان بإمكان المرء أن يكون راستا ومسلماً معاً: يجادل أولئك الذين يقولون نعم بأن الرستفارية هي شعبة من المسيحية، وبالتالي يجب احترام أتباعها كـ "أهل كتاب"، حيث يُعلم الإسلام التسامح تجاه اليهود والمسيحيين؛ بينما يجادل المتشددون بأن الرستفاريين يرون في هيلاسيلاسي تجسيد الرب، مما يتناقض بشكل أساسي مع الإسلام. وعلى ذلك يردّ المسلم راستا أن المسيحية ترى أيضاً في يسوع الرب المُتجسّد، وأن الوصف الرستفاري للمجتمع الغربي على أنه بابل، وأنه نظام سياسي فاسد خال من الرب، قريب من رؤية الإسلاميين للغرب والأنظمة العربية العلمانية. يقول معاذ مصطفى، المنظم السياسي الفلسطيني-الأمريكي، الذي يُصلي في المسجد الإثيوبي الأكبر في واشنطن العاصمة: "لقد كانت هجرة النبي الأولى إلى الحبشة، وفي حال لم يمنح الملك النجاشي الملجأ للنبي محمد والمسلمين الأوائل في عام 614 ميلادية، فلم يكن للإسلام وجود في يومنا هذا. لقد قضيت بعض الوقت مع أعضاء جماعة بوبو أشانتي في أعلى بلو ماونتينز في جامايكا. ووجدتهم لا يشربون الكحول ولا يأكلون لحم الخنزير، ويذكرون اسم الرب مع كل نفس. فإذا وجد النبي ملجأ في الحبشة، فلمَ ليس بمقدورنا أن نجد موطناً في الثقافة الإثيوبية؟". يستمر الجدل حول ما إذا كان الإسلام متوافقاً مع الرستفارية، لكن تظل ثقافة الكناوة ريغي هي أحد المجالات التي اختلطت فيها الإثيوبانية المستوحاة من الكتاب المقدس بالصوفية.

ارتبطت أنواع موسيقية مختلفة بالحركة الرستفارية، ولكن موسيقى الريغي هي التي وضعت الحركة على مستوى العالم وجلبت مئات الآلاف من الأتباع. الريغي مزيج من الموسيقى الشعبية الجامايكية، موسيقى السول الأمريكية والريذم أند بلوز، ولدت في حي ترينشتاون الفقير والبائس في كينغستون. في سبعينيات القرن الماضي كان بوب مارلي وغيره من مطربي الرستفارية (بيتر توش، بيرنينغ سبير، بلاك أوهورو وثيرد وورلد) يتجولون باستمرار حول العالم، وينشرون الريغي في مناطق مختلفة من العالم. زار مارلي الصويرة في أوائل السبعينيات، وحسب القصص المحلية، فقد قدّر قيمة الحشيش المحلي وغنى مع موسيقيي الكناوة. يعتبر بوب مارلي اليوم بطلاً

معبوداً في الصويرة -بغض النظر عن غنائها مع فنانيين محليين من عدمه- ويصفه الشباب بأنه "القمة الكناوي". في "الليلة" و "القُدَّاس" -جلسات غناء غير رسمية ينظمها هواة الكناوة من الشباب- يُضمُّ مارلي إلى بانثيون الشخصيات الروحانية، ويتردد اسمه إلى جانب الشيوخ والشخصيات الروحية الأخرى. قال أمازيغ، مشيراً إلى شاعر الكاريبي الفرنسي وتلميذه الأكثر شهرة. "لقد ترجم بوب مارلي نقاشات إيمي سيزير وفرانز فانون لجعلها في متناول الشباب، إن حديثه عن الزنوجة كان موجَّهاً إلى العالم أجمع". اندمجت الممارسة الرستفارية المتمثلة في الاستغراق في الموسيقى وتدخين القنب بشكل جيد مع الثقافة المحلية، حيث يدخلُ شباب الكناوة لفافات القنب أو يقضمون المعجون (عجينة لذيذة تتكون من اللوز، والجوز، والعسل، وفتات القنب) بينما يعزفون على آلة القراقب.

يُقدِّم مهرجان الصويرة بشكل رئيس نوعين موسيقيين: كناوة جاز، وكناوة ريغي. يتم إعداد مسارح ضخمة في الساحات العامة الكبيرة مرتين في اليوم لجذب الآلاف لرؤية أبرز معلمي الكناوة في البلاد: محمود غينيا، حميد القصري، مصطفى باقبو، وآخرون يقدمون عروضهم مع أشهر فناني الجاز - أرشي شيب، أورنيتي كولمان وفاروه ساندرس - ونجوم موسيقيون من جميع أنحاء أفريقيا وبلاد الشتات. وفي أمسيات باذخة غير مسموح بالكاميرات فيها، تُنصب المسارح للاحتفالات، ويمكن للمرء في بعض الأحيان أن يرى سائحاً أسترالياً أو ألمانياً يدخل في غشية بعد ساعات من البخور والعزف على الكمبري، ويبدأ بالاهتزاز والصراخ. من العادات السنوية أن يغني الويلرز أو أحد أبناء بوب مارلي. في يونيو من عام 2008م، ملأ خمسة عشر ألف شخصاً الساحة العامة لرؤية كيماي مارلي يقدم بضع أغان من ألبومه الأخير. لكن أعلى الصرخات ارتفعت عندما بدأ الغناء بأغنية والده "No women no cry": كانت هناك نسوة من القرى المجاورة، يرتدين الجلباب ولثاماً يغطي وجوههن ويبرز أعينهن فقط، يحملن أطفالاً صغاراً على أذرعهن، ويرقصن جنباً إلى جنب مع السياح الأوروبيين ومئات من المراهقين بقمصان حمراء، خضراء وصفراء، وجميعهم يحتفلون بإرث "القمة الكناوي".

طبيب الأشباح

يمكن القول إن موسيقى الكناوة اليوم هي الموسيقى الأكثر شعبية بين الشباب المغربي، وقد أصبحت جزءاً من النقاشات الدائرة حول هوية البلد ومستقبله السياسي، بعد ازدهارها لعقود من الزمان. يعكس احتضان الحكومة لموسيقى الكناوة وجهاً مذهباً متغيراً، يمثل مرحلة جديدة من تطور البلاد ما بعد الاستعمار. ومثلما جادل العديد من المؤرخين الثقافيين، فإن المندوبين

الاستعماريين الفرنسيين في المغرب روجوا للغة والثقافة الأمازيغية، والطرق الصوفية، بمواكبها وطقوسها، ضد الجماعات السلفية والقومية العربية التي طرحت إسلاماً أكثر تطرفاً وادّعت التضامن مع العالم العربي المسلم الأوسع. كذلك عملت السياسة الثقافية الفرنسية على قمع تراث المغرب الأندلسي، حيث اعتبرته دليلاً غير مفيد على نسب الأرض الحضاري، مفضلة ترويج تقاليد المجتمعات الأمازيغية المحلية، والطرق الصوفية المحلية، كطريقة لإبعاد البلد عن الشرق الأوسط.

بدأ الزعماء الوطنيون المغاربة، الذين أتى معظمهم من المدن الشمالية الناطقة بالعربية، بإلغاء هذا التصنيف الاستعماري للثقافات المغربية بعد أن نالت البلاد استقلالها، وأنشؤوا وزارة للشؤون الثقافية للترويج للثقافة العربية الأندلسية التي أبعدها الفرنسيون. كانت هناك شكوك عميقة إزاء الجماعات البربرية والصوفية، التي تم تضمينها في سياسات فرق تسد الفرنسية، والتي لا زال لديها القدرة على حشد الناس، لذا عمدت الدولة المغربية إلى تهميش هذه المؤسسات - وكذلك موسيقاها. كانت رؤيتهم "للمغرب الجديد" مبنية على تفسير قومي عربي لإسبانيا الإسلامية. وكما لاحظ الإيطالي أليساندرو سيوتشي، الباحث المتخصص في الموسيقى الإثنية: "بدأ الترويج للثقافة [الأندلسية] كثقافة وطنية، وهي الثقافة التي عانت في واقع الأمر أكثر من غيرها خلال فترة الاستعمار لأنها لا تعكس صورة التخلف المغربي". إذا كانت السياسة الاستعمارية قد فضلت تعبئة الثقافة البربرية والصوفية، باعتبارها ثقلاً مقابلاً "أصلياً" للنفوذ العربي "الأجنبي"، فقد قام زعماء ما بعد الاستعمار بإبعاد هذه التقاليد، التي لا يتناسب مزيجها غير التقليدي بين العناصر العربية وغير العربية مع التاريخ والرواية الرسمية للمغرب الجديد الذي يتشارك الماضي والمستقبل مع أمة عربية أكبر. تمت تعبئة الإسلام السياسي ضد الجماعات الماركسية اللينينية المحلية.

بدأت العديد من العمليات لجلب الموسيقى البربرية والصوفية - ولا سيما موسيقى الكناوة - إلى دائرة الضوء ابتداءً من أوائل السبعينيات. أثارت الشعبية العالمية للموسيقى المرتبطة بالنضال من أجل الحرية في الولايات المتحدة والكاريبي - مثل الريغي والجاز - اهتماماً بأفكار وحدة الشعوب الأفريقية وعلاقات المغرب بالعالم الأفريقي، بالتزامن مع نشر موسيقي جاز مثل راندي ويستون للموسيقى الصوفية في أوروبا وأمريكا. أدت زيادة التمدن في المغرب إلى ظهور جماعات تستخدم موسيقى الكناوة للطعن بالتسلسل الهرمي الثقافي الذي تفرضه الدولة، مثل "ناس الغيوان"؛ وأخيراً، فإن تزايد الهجرة من المناطق الريفية في المغرب والجزائر إلى أوروبا عني

أن الإيقاعات التي كان الاستياء واقعاً عليها في البلاد، أصبحت تُعزف فجأة في الحدائق العامة ومشاريع الإسكان في أوروبا الغربية.

"ناس الغيوان" هي المجموعة الموسيقية الأكثر شعبية في مغرب بعد الاستقلال. تأسست الفرقة في عام 1971م واعتمدت على أنواع مختلفة من الموسيقى المغربية والشرق أوسطية، وكذلك على موسيقى بوب مارلي، ليد زيلين، رولينغ ستونز لخلق "موسيقى شعبية" تطرح تعليقات نقدية على قضايا تمتد من القمع في المغرب إلى المعاناة الفلسطينية. كان لأغانيهم صدّى قوياً وسط الشباب في مناطق الطبقة العاملة، وأطفال العائلات التي هاجرت من المناطق الريفية بعد الاستقلال ولم يشعروا بأي ارتباط خاص بالموسيقى الأندلسية التي تبثها وسائل الإعلام الحكومية. استخدم "ناس الغيوان" منذ البداية إيقاعات الكناوة وآلة الكمبري بالإضافة إلى الطبول والبانجو. أصبح تأثير الكناوة أكثر وضوحاً عندما انضم ابن الصويرة عبد الرحمن باكو إلى المجموعة في عام 1974م. كان باكو معلماً موهوباً، وقد أطلق عليه جيمي هندريكس (146) لقب "طبيب الأشباح" عندما زار الصويرة في يوليو 1969م، وشاهد باكو يستخدم مهاراته المدهشة كعازف كمبري لتهذئة رجل كان يتلوى بعنف في حفل. (طبقاً للاعتقاد المحلي فإن أغنية هندريكس "قلاع مصنوعة من الرمال" - وكذلك ألبوم فرانك زابا "نشوة منصهرة" - مستوحاة من ليالي المدينة العامرة بتدخين الحشيش).

اعتمدت مجموعة "ناس الغيوان" على مصادر محلية متنوعة، بما في ذلك أغان تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن استخدامهم للطرق الدينية التي تزدهر فيها الثقافة الرسمية، مثل الكناوة والعيساوة (الطريقة العيساوية)، هي التي جعلتهم ينتشرون وسط الطبقات الدنيا. فقد استحضروا في كلمات أغانيهم وتركيباتهم الموسيقية، موضوعات الكناوة التي تدور حول التضحية والتحوّل، واستخدموها لتحمل اهتمامات وهموم جيلهم بطريقة مؤثرة وحادة. وهذا ما جذب اهتمام الجهات القانونية أيضاً. تزامن الوقت الذي تنامت فيه شهرة "ناس الغيوان" مع فترة من القمع الشديد، تمت خلاله مراقبة الثقافات الصوفية والأمازيغية بإحكام. كانت الشرطة في منتصف السبعينيات تقوم بدوريات في شوارع مدينة الصويرة بحثاً عن شباب يجدلون شعورهم بأسلوب الأفرو أو الدريدلوك -غطاء رأس الراستا كما كان يُطلق عليه. (رفض باكو قص شعره). أكثر ما أزعج سلطات الدولة هو أن "ناس الغيوان" أربكوا بشكل عام التصنيفات الرسمية للثقافات العليا والدنيا: فقد قامت المجموعة بتأدية الموسيقى الأندلسية النخبوية وطربها التقليدي بمصاحبة آلة الكمبري الكناوية والطبول العيساوية، كما أنشدوا أغاني الكناوة بأسلوب جماعي منسجم بمصاحبة الطرب الأندلسي؛

وبدلاً من ارتداء الجلابيب البيضاء المطرزة والطرابيش، كانوا يرتدون بيل تومز (بنطلون ضيق في الأعلى ويبدأ في الاتساع من الركبة حتى الأسفل)، وقمصان مُزهرة ذات عنق مفتوح -اشتهر بها هندريكس- ويتركون شعرهم أشعث. أخذ "ناس الغيوان" موسيقى من أسفل الهرم الثقافي للبلاد -المرتبطة بالكناوة وممارساتها غير التقليدية - وقاموا بغرسها في قلب التراث العربي الأندلسي بكل عظمتها، وبالتالي سلطوا الضوء على عدم المساواة والإقصاء الملحوظ الذي ميز مغرب ما بعد الاستقلال. ألهم "ناس الغيوان" مجموعات كُناوية أخرى، مثل "جيل جلالة" (147) و"لمشاهب" (148). وسرعان ما أصبح من الشائع رؤية فناني الكناوة في احتفالات الشوارع في الأحياء ذات الدخل المنخفض، يضربون طبولهم، ويبرمون الخصل السوداء الطويلة على قبعاتهم، وينشدون للشيوخ والأرواح، وكذلك بوب مارلي، جاكى شان ولاعبي كرة القدم المحبوبين.

سياسة الغشية المنصهرة

وجدت أنماط الموسيقى الشعبية فرصتها لاعتلاء خشبة المسرح، عندما بدأت الحكومة المغربية بالانفتاح السياسي وتنظيم المهرجانات الصوفية والبربرية في أجزاء مختلفة من البلاد في أواخر التسعينيات. كانت أهداف السياسة الجديدة متنوعة: تشجيع السياحة الثقافية والنمو الاقتصادي في مختلف أركان المملكة، تعزيز الصورة الذاتية للبلاد باعتبارها مفترق طرق حضارياً، وكذلك تنشيط أنواع مختلفة من الموسيقى الصوفية والثقافة البربرية ضد الحراك الإسلامي المكثف والتأثير المتزايد للسلفية السعودية والشيعية الإيرانية. عقدت الحكومة أول مهرجان كُناوة في عام 1998م في الصويرة. ويُقام الآن ما يُقدَّر بنحو سبعين مهرجاناً سنوياً في المغرب، وتنظم غالباً باعتبارها إصدارات حديثة للمواسم الصوفية القديمة، بحيث يمكن للأسر أن تحجَّ إليها سنوياً. ومن المؤمل أن تعلو أصوات الانصهار على الدعوة الصفائية للسلفية.

تحول مهرجان الكُناوة ليكون الأكثر شعبية. وكلما ازداد تدفق الهواة إلى المغرب، أصبحت الموسيقى أكثر شعبية في الخارج؛ وبعدها -مما أفزع الكثيرين- بدأ المزيد من الشباب المغربي، النشطاء والجماعات المهمشة، مثل أسمخان في المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد، في تعريف أنفسهم ككُناوة على أمل جذب الانتباه الغربي. يقول محمد أورياغلي، وهو شاعر شاب ومدير جمعية للفنون في شمال المغرب، "يعشق السياح موسيقى الكُناوة لأنها كل ما يمكن أن يرتبطوا به؛ إنهم أميون ثقافياً، ولا يفهمون الأنواع الأخرى. لكن هل يعني هذا أن "علينا" جعل الكُناوة النواة المركزية لهويتنا؟"

ينجذب المستمع الأمريكي إلى موسيقى الكناوة لأنها تتجاوب مع التاريخ الأمريكي ومع الذوق الموسيقي الأمريكي. وينظر إليها على أنها نوع مواز للبلوز الأفريقي الأمريكي: إيقاعية، غرب أفريقية و"شتاتية". لاحظت عالمة الأنثروبولوجيا باولا إيه. إبرون في كتابها "تأدية أفريقيا" كيف يملك الهواة الغربيون فكرة ثابتة عن الموسيقى الإفريقية على أنها إيقاعية، وتملك القدرة على شفاء "خدر" الجسد والعقل الغربيين، بحيث يرقصون على دقات الطبول الأفريقية حتى لو كانت الآلات التي تُعزف هي وتريات أو آلات نفخية: الإيقاع موجود في رؤوسهم. وهذا ما حدث مع موسيقى الكناوة، حيث يميل المستهلكون الغربيون إلى حمل تصورات مسبقة في عقولهم مثل: موسيقى البلوز، "قانون النقاء العرقي"، والتاريخ عبر الأطلنطي، ويؤدي ذلك إلى الكثير من الالتباس: أي صوت إيقاعي محلي يُنظر إليه بالتالي على أنه كناوة، و"ذاكرة أفريقية"، وبالتالي يحتضن دلالة أخلاقية خاصة. وفي هذا السياق لا ينظر إلى شمال أفريقيا على أنها جزء من أفريقيا، ولكن كامتداد للشتات الأفريقي؛ لذا، إذا غنى البربر ذوو البشرة الفاتحة موسيقى الكناوة، فإنهم "يستولون" على الموسيقى السوداء مثلما يفعل البيض في الولايات المتحدة. وعلى نطاق أوسع، يُنظر إلى الصحراء على أنها فاصل حدودي يشبه المحيط الأطلسي يفصل أفريقيا عن شتاتها. وبحلول منتصف تسعينيات القرن الماضي، قادت فكرة "الكناوة" باعتبارها صوتاً إفريقياً بلا حدود، التي طرحها زاندي ويستون في الستينيات و"ناس الغيوان" في السبعينيات، إلى إفساح الطريق إلى الفكرة المنتشرة على نطاق واسع في دوائر "الموسيقى العالمية"، والتي تعتبر الكناوة كأفارقة نازحين، والمغرب باعتبارها "موقعاً أمامياً للشتات الأفريقي".

جلب التحرر الثقافي لأواخر تسعينيات القرن الماضي الجماعات الأمازيغية والكناوة ريغي المسييسة إلى المقدمة -هوباهوبا سبيريت، ودارغا، وباري، وأمارغ فيوجن، وجانجا فاييس- والتي تحدث بوضوح اعتبار الكناوة موسيقى لأفارقة الشتات في شمال أفريقيا. ومثل نظرائهم في فرنسا، كتب فنانون الكناوة المتمركزون في شمال أفريقيا كلمات عن الحب، الفقر والسياسة الخارجية الأمريكية، لكنهم غنّوا في الغالب للتاريخ والجغرافيا، وانتقدوا جميع الفاعلين السياسيين والأيديولوجيات -السياسيين، الإسلاميين والقوميين العرب- الذين أنكروا التنوع العرقي في شمال أفريقيا، وصلاته التاريخية بأفريقيا جنوب الصحراء. تعترف هذه المجموعات بدينها لجماعة "ناس الغيوان"، التي كانت أول من بدأ الاحتفاء بأشكال موسيقية محلية وتحدي هيمنة الموسيقى الشرق أوسطية. وبالمثل، تحتفل فرق الكناوة ريغي أيضاً بالتعددية العرقية واللغوية في المغرب، وتصر على الغناء باللغة العامية

المحلية، مؤكدة على المسافة اللغوية للمغرب عن العالم العربي الأوسع. وهي كلها أشياء أثارت غضب الإسلاميين والعرب.

لكن الكناويون الجدد اليوم أكثر إصراراً على قوميتهم المغاربية، وبالكاد يعترفون بالموسيقى القادمة من الشرق الأوسط. قال أمازيغ كاتب لمحاورة، "في معظم دول الشرق الأوسط ينظر إلى المغاربة على أنهم أفارقة يتحدثون العربية؛ باعتبارنا أقل عروبة. أعرف هذا لأن جزءاً من عائلتي موجود في سوريا ولبنان". يستهدف فنانون الكناوة ريغي بانتظام التاريخ الرسمي لشمال أفريقيا ما بعد الاستعمار. ففي أغنيتهم "قصة أفريقيا"، تدعو فرقة دارغا - وهي مجموعة من الدار البيضاء تغني بأسلوب جامايكي - الشباب إلى عبور الصحراء الكبرى وتجاوز الانقسامات الاستعمارية التي لا تزال تطارد المغرب وتقسّم القارة الأفريقية. ("جميعنا نقف على التربة الأفريقية منقوعين بدماء أجدادنا"). العنصرية داخل العالم الناطق بالعربية هي أيضاً قضية متكررة. كذلك تبرز الاستعارات الشرق متوسطة في خيالهم الموسيقي. بالنسبة لمن هم في أوروبا، فإن البحر الأبيض المتوسط هو الامتداد الأزرق الذي يفصلهم عن أراضيهم الأصلية؛ أما بالنسبة للأفارقة، فهو جسم مائي محفوف بالمخاطر، يتوجب على الشجعان عبوره للفرار من الاستبداد. تشير الأغاني إلى التدفق المستمر لأصحاب القوارب (الحراقة) من شمال أفريقيا، وإلى حطام السفن البشرية التي تملأ السواحل الإسبانية. لكنهم لن يستدعوا سيدي موسى (روح المحيطات) كما فعل راندي ويستون، بل سيستخدمون المفاهيم الرستفارية "الهجرة" و"بايبلون" لتفسير هذه الحوادث المأساوية.

يشجب الإسلاميون بانتظام مكونات ثقافة الكناوة ريغي: صفائر الدريدلوك، القتب والإشارات إلى صهيون التي تعطي نكهة لأغاني الريغي (على الرغم من أن "صهيون" في علم الكون الرستفاري هي فكرة أخرى مستوحاة من الكتاب المقدس، تمثل العالم الطوباوي الذي يؤسسه الرستفاريون عند عودتهم إلى إثيوبيا - وليس فلسطين التاريخية). في يونيو 2006م، عندما أعلن أحمد ريسوني، وهو عضو بارز في حزب العدالة والتنمية الإسلامي المغربي (PJD) -فرع لجماعة الإخوان المسلمين- أن مهرجان الكناوة السنوي قضية أخلاقية و"انحراف فكري"، لم يأت الرد من سياسي آخر أو مسؤول حكومي، بل من رضا علالي، غازف الغيتار في فرقة هوبا هوبا سبيريت، مجموعة الكناوة ريغي الأكثر شعبية في هذا العقد. يتساءل رضا، "من الذي يستاء من المهرجانات التي أعادت إحياء ثقافة الكناوة وأعادت الثقافة الأمازيغية إلى مركز الحياة الثقافية المغربية؟ ما يستاء منه الإسلاميون والقوميون العرب هو أنه لم يعد يوجد احتكار إعلامي للموسيقى. [لفترة طويلة]، كان هناك صوت واحد يذكّرنا بصورة متكررة لدرجة الغثيان بأننا عرب، وأن موسيقانا

الشعبية [المحلية] لا قيمة لها"، وتشجيع تقليد الشرق الأوسط. "لقد ظهر التنوع بعد صمت طويل"؛ لقد حان الوقت للاعتراف "بأننا عرب، لكننا أيضاً أمازيغيون، وأفارقة... معجبون بأم كلثوم [المغنية المصرية الأسطورية] وبوب مارلي أيضاً". إن إصرار مجموعات الكناوة ريغي على استخدام اللغة المحلية في مقابل اللغة العربية المعاصرة - اللغة المشتركة للعالم العربي - هو أيضاً رفض سياسي لسياسات التعريب الحكومية. يقول علالي: "إن الخطاب القائل [إننا جميعاً عرب] ثقيل على القلب. على خشبة المسرح نحاول أن نظهر كيف بنيت موسيقانا الوطنية على إيقاعات أفريقية، ونغني عن عمد بلغة دارجة [عربية المغرب] لأننا نريد الوصول إلى الملايين الذين يعيشون هنا في المغرب ولا يتقنون العربية - قبل أن نجعل أنفسنا مفهومين في العالم العربي".

إلا أن مجموعات الكناوة الجديدة في كل من المغرب والجزائر، تتلاءم تماماً مع سياسة الحكومات في استخدام الموسيقى المحلية والمهرجانات الصوفية لمواجهة التدفقات الإسلامية والإعلامية القادمة من الشرق الأوسط على الرغم من اعتراضهم. ففي المغرب يتم طرح انصهار الأنواع كدليل على الانفتاح والمرونة الثقافية للدولة. ستبدأ الجزائر إلى حد ما بالاحتفال بالموسيقى "الأفريقية" المحلية كجزء من سياسة صوفية أوسع. بعد الحرب الأهلية في تسعينيات القرن الماضي، انتقلت الطرق الصوفية الجزائرية من كونها محظورة لعقود من الزمن، إلى محل إشادة باعتبارها "ملجأ سلام" روحانياً، وحصلت على تصريح لفتح معاهد تعليمية، مثلما تم حشد التسلسل الهرمي للصوفية كقوة مضادة للإسلام السياسي "المستورد" لجهة الإنقاذ الإسلامي. أطلقت الحكومة الجزائرية محطات تلفزيونية وإذاعية صوفية، وفي يوليو 2009م نظمت مهرجاناً موسيقياً لعموم أفريقيا - إحياءً لذكرى المهرجان الأفريقي الأول لعام 1969م - حيث ظهر فنانون الكناوة الجزائريون بشكل بارز.

وبينما ارتحل كلود ماكاي حول المغرب في عام 1933م، لاستيعاب إيقاعات الكناوة، أصدر السلطان محمد الخامس مرسوماً (رمزياً إلى حد كبير) يحظر الطرق الصوفية من أجل "إصلاح السمعة الدولية للمغاربة". عارض القوميون سياسات المستعمر الفرنسي الصوفية لأنها عززت لقرون من الزمن صورة المغرب كأرض السحر في أعين "الشرق العربي". وبعد حوالي ثمانين عاماً، عندما اندلعت الاحتجاجات في فبراير 2011م، استخدم الإسلاميون الحجج نفسها عندما أعلنوا أن الصوفية "أفيونية"، وأدانوا المهرجانات باعتبارها غير إسلامية، تروج صورة للمغاربة باعتبارهم مؤدون يأكلون النيران، وللبلاد باعتبارها ملعباً منحطاً للسياح. هذه الحجة نفسها سيطرحها الناشطون

اليساريون في حركة 20 فبراير المُعارضة، الذين رأوا في المهرجانات تبذيراً للقوارد ووسيلة تكتيكية لإبعاد الشباب عن الاحتجاجات. وهتف المتظاهرون: "عيب، عيب! ماريا [كاري] تأخذ مليار وإحنا تُغرق في البحار". استمرت المهرجانات في عامي 2011م و2012م -مع "فرق" على عشرات المسارح في جميع أنحاء المملكة، بينما تستعر المناقشات في شمال أفريقيا حول الموسيقى، الهوية الوطني والتراتيبات الهرمية الثقافية.

ظهرت محطة إذاعية في مدينة جادو الواقعة في جبال نفوسة شمال غرب البلاد، في ذروة الانتفاضة الليبية في يونيو 2011م، وبثت برامجها باللغة الأمازيغية، التي منعها القذافي لبضع عقود. بدأت المجتمعات الأمازيغية تطالب بحقوقها في المنطقة المغاربية. تصاعدت التوترات بين الصوفيين، الإسلاميين والبربر بوقوف المملكة العربية السعودية وملكيّات الخليج ضد الانتفاضات. هوجمت الأضرحة الصوفية من مصر إلى مالي. وضع السلفيون استثناءات معينة للتعبير عن الهوية قبل الإسلامية. تسبب المتعصبون في إتلاف "لوحة الشمس الأمازيغية" التي يبلغ عمرها ثمانية آلاف عام وتقع في الأطلس الكبير في المغرب. أما الطرق الصوفية الموالية للنظام - مثل طريقة بودشيشية القوية في المغرب، التي شاركت في مسيرة مساندة الإصلاحات الحكومية في يونيو 2011م - فقد تم انتقادها من قبل الطرق الصوفية المناهضة للنظام. كما اندلعت التوترات بين الموسيقيين المؤيدين والمناهضين للنظام (معظمهم من فناني الهيب هوب).

واجهت المملكة العربية السعودية الموسيقى والتعبيرات الاحتجاجية للقومية البربرية والكردية التي أطلقتها الثورات بمجموعة من عروض المواهب العربية. أطلقت قناة MBC المملكة السعودية برنامج المواهب "عرب أيدول" في ديسمبر 2011م. وبعد عام جاء برنامج "ذا فويس"، ثم بدأت روتانا، وهي قناة فيديو وموسيقى يملكها الأمير السعودي الوليد بن طلال، بث "أكس فاكتر". وبالتزامن، كثفت القنوات الدينية المملكة لسعوديين كقناة "اقرأ" برامجها الدينية. (أصبحت النكتة المنتشرة أن النساء المسلمات الشابات اللواتي يرتدين حجاب الرأس مع بنطلونات جينز "لو رايدينغ" (يكون كمر البنطلون ثمانية سنتيمترات أسفل السرة) - أسلوب اشتهر مع الممثلة جنيفر لوبيز - كن يرتدين قنواتهن التلفزيونية المفضلة: قناة اقرأ فوق الخصر وروتانا أدناه). ضاعفت "وحدة مكافحة السحر" السعودية المُكلفة بالقبض على السحرة وعبداء الجن من مساحة عملها، حيث أقامت تسعة مكاتب في جميع أنحاء المملكة في عام 2011م واعتقلت المئات، أغلبهم من العمال الأجانب من أفريقيا وإندونيسيا، متهمه إياهم بممارسة السحر الأسود و"الاستعانة بالجن". وسط كل هذا الاضطراب

والفوضى التي شهدتها وسائل الإعلام، ظهرت الكناوة سالمة مرة أخرى، متجنبة غضب الإسلاميين والاحتجاجات اليسارية، ربما لأن الكناوة اليوم هي ثقافة شبابية أكثر من كونها طريقة، ولأنها تفتقر إلى البنى التنظيمية والعضوية مثل الطرق الصوفية الأخرى. قاد فنانون الكناوة ريغي الحروب الثقافية بحرص، طارحين أنفسهم معالجين سياسيين. في مقابلة مع التلفزيون التونسي بتاريخ يونيو 2011م، قال عبدو عازف الغيتار في "جمعاوي أفريقيا"، وهي فرقة كناوة جزائرية مشهورة: "ما نفعله هو تسليط الضوء على أفريقانية الموسيقى العربية الأندلسية. نريد أن نركز على الجانب الأفريقاني لجميع الأساليب الموسيقية في الجزائر". ومع ارتفاع التوترات العرقية والإثنية - كالهجمات المروعة ضد الأفارقة من جنوب الصحراء في ليبيا - تبنى فنانون الكناوة ريغي أسلوباً تصالحياً لا يستهدف الانقلاب على التسلسل الهرمي للموسيقى القومية، بل لفت الانتباه إلى طابعها الأفريقي. فالكناوي في نظرهم شخص مُرمّم للقومية المغاربية ولمزيج شمال أفريقيا، يستطيع أن يُصالح مجتمعات مختلفة، وأن يُعكّر بمهارة صفو السرديات المهيمنة الثلاث: الخطاب القومي العربي الذي يقمع الهويات الأفريقية في شمال أفريقيا؛ الخطاب الأمريكي والأوروبي الذي يرى أن الصحراء تفصل بين الحضارتين؛ وحديث دبلوماسي أوروباً وشمال أفريقيا عن التعددية الثقافية الليبرالية و"الاندماج".

وبالمثل ترى نخبة الدولة أن الكناوي شخصية تجميعية، كما أنهم يملكون فكرة خاصة بهم عن الاندماج. قررت الحكومة المغربية إرسال وفدٍ ثقافي إلى الولايات المتحدة في أبريل 2011م، مع احتدام الاحتجاجات في جميع أنحاء المنطقة. أرسل المسؤولون خمسة من معلمي كناوة للقيام بجولة -بدلاً عن الموسيقيين الأندلسيين، كما هو الحال في كثير من الأحيان- معتبرين أن الأميركيين سيتماهون بشكل أفضل مع الكناوي عازف الباص غيتار أكثر من الموسيقي الأندلسي المُمل في رداؤه الأبيض وطربوشه الأحمر. وبسبب نشاط الشباب وسياسة الدولة، أصبح الكناوي تدريجياً رمزاً للهجين المغربي - لا يختلف عن ملكة السامبا البرازيلية - ويُمثّل قدرة المغرب على الاندماج مع أي حضارة.

وبينما تتصاعد الاضطرابات في شمال أفريقيا، كانت الكمبري، تلك الآلة الموسيقية المُقدّسة التي عبرت الصحراء في القرن السادس عشر، تستعد للعب دور أكبر. والحقيقة هي أن الجيل الجديد من موسيقيي الكناوة - فنانون الكناوة ريغي - يهتمون بشرح السياسة أكثر من اهتمامهم بالتأمل الميتافيزيقي. وعندما يصيحون "داوينا داوينا"، فإنهم يشيرون إلى سياسات التعسف في المنطقة أكثر منها إلى الروح المُستحوذة. وعلى هذا النحو، فإن

الكمبري، سواء كانت مزينة بالحناء أو مطرزة بألوان الأحمر والأصفر والأخضر، فإنها تُمثّل الآن الذاكرة والوعي. أصبح الكناوي في فرنسا وبلجيكا رمزاً لوعي أبناء الشتات الجديد، ووسماً أفريقيّاً للأممية الإسلامية الأوروبية. أما في شمال أفريقيا، فيمثل الكناوي كل ما تم تجاهله وقمعه من قبل الدولة القومية والقومية المهيمنة. وعلى جانبي البحر الأبيض المتوسط تُعتبر الكناوة موسيقى للسخط ما بعد الاستعماري. في مايو 2011م تم تكريم راندي ويستون وشريكه عبد الله الكورض في مآنهاتن من قبل الحكومة المغربية. وضع القنصل العام المغربي في نيويورك ميداليات حول رقاب الموسيقيين وهنأهما لمساهمتهم في الثقافة المغربية، أمام مئات من محبي الموسيقى، الدبلوماسيين، والنساء اللائي يرتدين القفاطين، وأعضاء معهد العلوم الموريسكية (في بدلات تتكون من ثلاث قطع وقبعات طويلة). تحدث ويستون وعيناه دأمة: "لقد عشتُ مع الكناوة لمدة خمسة وأربعين عاماً، هذه الموسيقى هي تاريخ شعب، وأغان عن الله والشيوخ أثرت وأغنت حياتي. ما فعلته هو وضع هذه الموسيقى على البيانو، لكن الشيء الحقيقي يوجد هناك في المغرب. بإمكانك استيعاب أسلاف الكناوة فقط إذا فكرت بنفسك كأفريقي وليس ككنغولي، أو سنغالي أو مغربي".

يتشارك الجيل الجديد في الرؤية الإنسانية لأجدادهم الكاريبيين - ماكاي وويستون - الذين حملوا الكناوة إلى مسرح الاهتمام الغربي. ينظر الجيل الجديد إلى نفسه كمبدع لما وصفه كلود ماكاي بالعالم "الأفرو-شرقي"، مع اعتمادهم على جغرافيا أخلاقية تتركز في شمال أفريقيا ولكنها تمتد شرقاً، وجنوباً، وغرباً نحو البحر الكاريبي.

الفصل الثامن

لسنا بيض البشرة

بدأت التكهّنات حول هوية وملامح الانتحاري(ين) بعد ساعات من التفجيرات التي ضربت ماراثون بوسطن (149). صلى المسلمون لئلا يكون مرتكب الفعل الشنيع عضواً في مجتمعهم. وعلانية أمل المعلقون الليبراليون ألا يكون المُفجّر من ذوي البشرة الداكنة، لأن ذلك سيؤدي إلى رد فعل عنيف ضد الأقليات. مُوضحين أنه في حال تبين أن الجاني أمريكي "أبيض"، فسيتم النظر إليه كـ "ذئب وحيد" مهووس بالسلاح، وستبقى الجريمة في مجال إنفاذ القانون وعمل الشرطة. أما إذا ارتكب الفعل شخصاً ذا لون داكن، فسيُنظر إليه على أنه جزء من تهديد أيديولوجي ووجودي أكبر، وبالتالي سوف يجتذب المؤسسات العسكرية والأمن القومي؛ ومن شأن التداعيات السياسية أن تشمل المزيد من التنميط وانتهاكات الحقوق المدنية، وربما حتى عمليات عسكرية وتحول في السياسة الخارجية. أعلن جون كينغ في قناة CNN، بعد ثلاثة أيام من المأساة، وبتاريخ 18 أبريل، أن المُفجّرين من أصحاب "البشرة الداكنة" استناداً إلى تصريحات الشرطة. استمر جنون التكهّنات بخصوص لون بشرتهم لأيام، وبلغ أبعاداً سخيفة عندما تم العثور على الأصغر بين الأخوة تسارنايف (150) مختبئاً داخل قارب في فناء خلفي لبيت شخص ما، غرّد أحد المتابعين، "لكن، هل القارب ذو بشرة داكنة؟".

ولكن لما تبين أن الجُناة من البيض الشيشان، من القوقاز -كانوا من أصل قوقازي بصورة قاطعة حرفياً- أصرّ المعلقون على أنهم ليسوا من البيض، على الرغم من ملامح الأشقاء وأصلهم الجغرافي. كذلك فحقيقة أن الأخ الأكبر كان يملك إقامة دائمة في البلاد، بينما كان أخوه الأصغر مواطناً أميركياً، ومُدخّن حشيش متأثراً بثقافة الهيب هوب، وممارساً لرياضة المصارعة في المدرسة الثانوية لم تحدث أي فرق. ذكرت مجلة كومنتري (151)، "أن مرتكبي تفجيرات ماراثون بوسطن ليسوا من (البيض الأمريكيين)". قامت مجلة ذا ويكلي (152) بتعميق جلد الأخوين لقصة غلافها المُخصّصة للتطرف. في هذه الأثناء، قام الصحفيون الليبراليون، كجوان ويلش من مجلة سالون، بالتفكير ملياً ونعوا هذا "التصميم على تعريف الأخوة تسارنايف بأنهم ليسوا بيضاً، بغض النظر عما يقوله مكتب الإحصاء".

جلبت مأساة بوسطن إلى التيار الرئيس تناقضاً أدركه المسلمون في الولايات المتحدة منذ فترة طويلة: فبالرغم من تصنيف مكتب الإحصاء للأمريكيين

القادمين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط وشرائح آسيا الوسطى على أنهم "بيض" بشكل قانوني، لا يعني هذا أن المجتمع والخطاب العام أو الوكالات الحكومية الأخرى تعتبرهم من البيض. مارس النشطاء المسلمون الشباب من خلفيات إيرانية، وتركية، وعربية ضغوطاً عديدة في العقد الأخير لجعل الحكومة الأمريكية تعترف بأميركيي شمال إفريقيا والشرق الأوسط كأقلية. ظهر هذا الدفع نحو وضع الأقلية القانونية حتى خارج حدود أمريكا. حيث قامت المجتمعات المسلمة في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية بالتعبئة فيما يخص التعدادات السكانية في بلدانها، والضغط من أجل إيجاد خانة منفصلة داخل استمارة التعداد، بل والتنافس على الخرائط والخطوط الجغرافية التي تركز عليها الفئات العرقية والإثنية الرسمية.

غالباً ما تُوصف مدينة ديربورن على أنها "عاصمة العرب في أمريكا". تقريباً واحد من كل ثلاثة من سكان ديربورن عربي -من أصل يمني أو لبناني أو عراقي- ويُشكلون قسماً ضمن ما يقدر بنحو 490,000 عربي يعيشون في منطقة ديترويت الكبرى. تُعد ديربورن موطناً لأول مطاعم ماكدونالدز وكنتاكي الحلال. وغالباً ما يتم إرسال الدبلوماسيين الشباب إلى هناك لتحقيق "الكفاءة الثقافية" قبل التوجه إلى الشرق الأوسط. كما تُرسل وفود صانعي السياسة الأوروبيين جولات إلى المدينة ترعاها وزارة الخارجية الأمريكية لمشاهدة كيف يتكامل المسلمون الأميركيون. ويزور المرشحون الرئاسيون الأميركيون المدينة خلال موسم الانتخابات بحثاً عن أصوات العرب الأميركيين. كما تفتخر ديربورن بالمدرسة الثانوية العامة المسلمة الأولى في الولايات المتحدة. وتُعتبر ثانوية فوردسون، الواقعة في القسم الشرقي من المدينة، مزيجاً رائعاً من الإسلام والثقافة الأمريكية. حيث تقدم الكافتيريا الطعام الحلال، وترتدي مُشجّعات الفرق الرياضية حجاب الرأس، ويرافق الآباء أبناءهم إلى حفلة نهاية السنة.

عقدت الشبكة الوطنية للمجتمعات العربية الأمريكية (NNAAC) مؤتمرها السنوي في ديربورن في أوائل شهر أكتوبر من عام 2009م، حيث جمعت القادة من جميع أنحاء البلاد لمناقشة قضايا تؤثر على المجتمع. ولكن في الاستراحات بين الجلسات وفي أروقة مركز المؤتمرات، لم يكن الناس يتحدثون حول التعداد السكاني ولكن عن "ريما المدهشة". فقبل أسبوعين، تمكنت ريما فقيه، وهي فتاة من مدينة ديربورن، وُلدت في جنوب لبنان، من التأهل لتمثيل ميشيغان في مسابقة ملكة جمال الولايات المتحدة الأمريكية لعام 2010م. كان فوزها موضوعاً للنقاش في المطاعم على طول شارع وارن وعلى محطة راديو ديترويت العربية. فكر قادة المجتمع في المؤتمر عن معنى فوزها للنساء المسلمات: هل سيكون وجود فتاة عربية مسلمة في

مسابقة ملكة جمال الولايات المتحدة الأمريكية ذي فائدة للهوية الأمريكية المسلمة؟ هل يُساعد في مواجهة الصور السلبية للمرأة المسلمة؟ انقسمت الآراء: حذّر المعسكر الأول من وضع أهمية كبيرة على مسابقة ملكات الجمال ("أن تبختر النساء بثياب السهرة وملابس السباحة ليس علامة على التقدم")، في حين قال آخرون إن بإمكان مسابقات ملكات الجمال تشكيل الانطباعات، مستدعين إلى الأذهان اختيار "هانا جوزيف" الأمريكية السورية لتكون الوصيفة في المسابقة الدولية لملكات الجمال في غالفستون بولاية تكساس في عام 1927م، وكيف ساعد ذلك نضال المجتمع السوري من أجل الحصول على وضع قانوني كبيض.

كان موضوع مؤتمر (NNAAC) لذلك العام هو إحصاء عام 2010م و"وضع الأقلية" للأمريكيين العرب، وقد كان هذا هو الموضوع الذي يشغل بال هيلين سمحان بينما تسير خلال الممر. كانت ترتدي قميصاً أبيض، وشعرها البني معقود على شكل ذيل الحصان. اندفعت عالمة الاجتماع التي تبلغ من العمر ستين عاماً لمخاطبة مجموعة من متطوعي الحصر السكاني ومنظمي المجتمع (مصريون، فلسطينيون، صوماليون، سودانيون وسوريون) من جميع أنحاء البلاد. تقود سمحان -الناشطة منذ فترة طويلة ونائبة مدير المعهد العربي الأمريكي- حملة التوعية السكانية لعام 2010م، وتطالب الحضور بضرورة حصر مجتمعاتهم المحلية ضمن عملية التعداد. قالت متضرعة في غرفة مليئة بالمنظمين، "يجب أن نحصر أنفسنا ضمن التعداد. لأن هذه البيانات العرقية والإثنية تُستخدم في تنفيذ قانون الحقوق المدنية، تساعد البيانات التي يتم جمعها من المسح على صرف ما يقرب من 400 مليار دولار من التمويل الفيدرالي - يمكننا استخدام بعض من هذا التمويل". أشارت إلى صورة نموذج التعداد الجديد على حائط البروجكتر، ووضعت دوائر حول الفئات والمربعات المختلفة: "رجاءً تحققوا من فئة 'أخرى' واكتبوا عربي داخل المربع". حذرت هيلين الحاضرين من كتابة أصلهم القومي، مثل مصري، موريتاني، أو سوري، حيث سيتم تفسيرها باعتبارها تعني "أبيض" من قبل مكتب الإحصاء.

تقول هيلين: "لدينا فرق من المتطوعين الذين يمكنهم شرح ذلك بالتفصيل، كذلك قمنا بترجمة استمارة تعداد 2010م إلى اللغة العربية. من فضلكم أخبروا دوائركم الانتخابية أن ليس لديهم ما يخشونه فالمعلومات سرية. نعتقد أن الإحصاء الأخير، الذي قدّر المجتمع العربي الأمريكي بـ 1.2 مليون قد تناسى ثلثي مجتمعنا. لا نريد حدوث ذلك مرة أخرى".

إن النشاط المعني بعملية الإحصاء الوطني في الولايات المتحدة يقوم به الأمريكيون المسلمون الأصغر سناً من الذين بلغوا سن الرشد خلال عهد بوش وتأثروا بالقانون الوطني (Patriot Act)، حيث شهدوا تأثير سياسات الترحيل، التسليم الاستثنائي، التمييز، والتنصت على الأقارب والجيران. اعتمد هؤلاء النشطاء الشباب، ومعظمهم من المحامين وطلاب الدراسات العليا، على عمل هوارد وينانت، عالم الأعراق البارز في جامعة كاليفورنيا في سانتا باربرا، والذي قدّم قبل عقدين من الزمان مع زميله مايكل أومي تقريراً قوياً لوضع الأقلية، معتبراً أن القدرة على الحراك حول الأنوية العرقية - أولاً من قبل الأمريكيين من أصل أفريقي، ثم من اللاتينيين والآسيويين - للحصول على اعتراف سياسي ووضع أقلية، قد سمح "بدخول ملايين من أعضاء مجموعة الأقلية العرقية إلى العملية السياسية". وفي مقطع غالباً ما يتم الاستشهاد به من كتابهما الرائد "التشكيل العرقي في الولايات المتحدة" (153)، أوضح وينانت أهمية التصنيف العرقي: "إن الكيفية التي يتم عبرها تصنيف الفرد هي أكثر عن مجرد مادة أكاديمية أو حتى شخصية. مسائل مثل الحصول على عمل أو سكن أو غيرها من السلع ذات القيمة العامة أو الخاصة؛ وتصميم البرامج الاجتماعية وصرف الأموال المحلية والولائية والفدرالية؛ أو تنظيم الانتخابات (من بين العديد من القضايا الأخرى) تتأثر مباشرة بالتصنيف العرقي والاعتراف بالمجموعات "الشرعية". وبالتالي فإن تحديد الفئات العرقية هي عملية سياسية مكثفة".

برزت "عرقنة" المسلمين في أمريكا كموضوع ساخن للنقاش وسط الباحثين والنشطاء وصانعي السياسات. جادل الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو بأن سياسات الدولة كانت حاسمة لـ "عرقنة" العالم. فقد أنشأت الدول القومية الاختلافات وأعادت تشكيلها (ما أسماه فوكو بالحدّ "caesuras") داخل المجموعات السكانية على الصعيدين الوطني والعالمي على مدى قرون بغرض التحكم في إدارة هؤلاء السكان. العرقنة من هذا المنظور هي عملية شديدة المرونة. حيث إن فئات مثل العرق والعرقية ليست نهائية، ولكن يتم إنشاؤها من خلال السياسة، بل ويمكن للمجموعات أن تواجه "تحولات عرقية". وهكذا، في التجربة الأمريكية، يمكن للمجموعات غير المصنّفة على أنها "بيضاء" أن تحصل على وضع قانوني "أبيض"، وتطالب بمجموعة من المزايا الممنوحة إلى البيض، كما حدث مع الإيرلنديين في عام 1878م ثم المهاجرين العرب في عام 1943م؛ وبالمثل، يمكن للجماعات التي اعتُبرت بيضاء في السابق أن تصبح أقلية عرقية "غير بيضاء"، كما حدث مع ذوي الأصول الإسبانية، ثم مع الأمريكيين الباكستانيين والهنود في عام 1978م. لكن العرقنة ليست عملية تتم من أعلى إلى أسفل تقودها سلطة الدولة. هناك

أيضاً "عرقنة من أسفل"، حيث تقوم الحركات الاجتماعية بالضغط من أجل فئات جديدة، وتوسيع أو القضاء على الفئات القديمة.

يجادل الباحثون مؤخراً بأن انتقالاً نوعياً - "تحول عرقي" - يحدث بين من تعود أصولهم إلى شمال أفريقيا والشرق أوسطيين في أمريكا، الذين على الرغم من تصنيفهم قانونياً على أنهم من البيض من قبل الإحصاء السكاني، تعتبرهم الوكالات الحكومية والمجتمع أقلية غير بيضاء. ناشد جون طهراني، وهو أستاذ قانون وناشط في لوس أنجلوس، الإيرانيين، والأتراك، والأفغان، والعرب في الولايات المتحدة بتشكيل حركة هوية أمريكية شرق أوسطية عمومية، والضغط من أجل وضع فئة منفصلة في استمارة التعداد السكاني. وفي سلسلة من المقالات المنشورة في المجلات القانونية بعد الحادي عشر من سبتمبر، وصف طهراني كيف أن التمييز ضد الأمريكيين الشرق أوسطيين قد ارتفع بشكل حاد نتيجة جرائم الكراهية والسياسات المرتبطة بالحرب على الإرهاب، وأن ليس بوسع الأميركيين الشرق أوسطيين فعل الكثير حيال ذلك، لأن البيانات الحكومية الرسمية لا تعتبرهم أقلية. وفي كتابه "عملية التبييض"، الذي صدر في الفترة التي سبقت تعداد عام 2010م، تحدث طهراني بوضوح عن معضلة "البياض الإجباري".

مع ذلك لم تظهر أي حركة عموم إسلامية أو شرق أوسطية، في الولايات المتحدة. ويرجع ذلك جزئياً إلى الاختلافات السياسية والثقافية وسط المسلمين الأميركيين والشرق أوسطيين. لكن ظهرت مجموعة من الحملات المترابطة - حملة لبنانيين من أصول أميركية، حملة نوبية وسودانية، حملة إيرانيين من أصول أميركية - تنادي جميعها باعتبارها أقلية عرقية على المستويين الفيدرالي والولائي. تحاول هذه الحملات الصغيرة والمكثفة، التي يقودها محامون وطلاب شبان، وتجمع معظمها حول حرم جامعة كاليفورنيا، زيادة مسميات فئات الهوية العرقية. وللتهرب من قوانين الهجرة والتجنيس التمييزية، حاول المهاجرون العرب الأوائل لأمريكا -معظمهم من المسيحيين الذين جاؤوا من سوريا في أوائل القرن العشرين- أن يظهروا أنهم من الأصول والحضارة (القوقازية) أنفسهم مثل غيرهم من الأميركيين، وكافحوا من أجل "التشابه". أما جيل اليوم، فينادي بصوت عال من أجل الاختلاف والضغط لئلا يتم اعتبارهم بيض البشر.

إن الوضع المتغير بخصوص المتحدرين من شمال أفريقيا والشرق الأوسط في أمريكا هو نتاج عدد من العوامل: علاقة الولايات المتحدة المعقدة والمتغيرة مع الشرق الأوسط؛ الخرائط والعلامات التي تميز المناطق الإسلامية الموضوعة من قبل رسامي الخرائط الأميركيين في وزارة

الخارجية ومكتب التعداد (حيث، على سبيل المثال، يندرج الشيشان تحت فئة "أبيض" بينما أذربيجان ضمن "عرق آخر")؛ وأخيراً، الدلالة المتغيرة لوضع الأقليات ومعايير العضوية في تلك الفئة داخل أمريكا ما بعد الحقوق المدنية.

جيم كرو العربي

يتتبع الكاتب السعودي عبد الرحمن منيف في روايته الملحمية التي تتكون من ستمائة صفحة بعنوان "مدن الملح" (154)، تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ الثلاثينيات، بدءاً بوصول مُنقبي النفط الأمريكيين. تبدأ الرواية في واحة وادي العيون، وهي منطقة خصبة وفيرة غذت منذ زمن طويل البدو المحليين. تبدلت صورة الفردوس الأرضي فجأة مع وصول مستكشفي النفط الأمريكيين الناطقين بالعربية. عاد الأمريكيون بجرافاتهم ("هياكل الحديد الأصفر") وبدؤوا بتمزيق بساتين الواحات، وكنس سكان الواحة وعائلاتهم. تنتقل القصة من الواحة إلى مدينة حران الساحلية، حيث يقوم رجال النفط ببناء ميناء وخط أنابيب يربط المدينة بالآبار التي قاموا بحفرها. بنى الأميركيون مدينة صغيرة في منطقة أُسميت "حران الأمريكية"، حيث يعيشون، ومنطقة أخرى سُميت "حران العربية"، لإيواء العمال العرب والعدد الكبير من العمال الأجانب الذين تم جلبهم.

تتضمن إحدى المقتطفات المقتبسة كثيراً من "مدن الملح" وصف منيف لمدينة حران التي بُنيت حديثاً والأحياء المنفصلة لحران الأمريكية وحران العربية: "نظر أهل حران إلى وجوههم ثم إلى بعضهم البعض... لماذا كان عليهم أن يعيشوا هكذا، بينما عاش الأمريكيون بشكل مختلف؟ لماذا تم منعهم من الاقتراب من منزل الأميركي، وحتى من النظر إلى حمام السباحة أو الوقوف للحظة في ظل إحدى أشجارهم؟ ... لم يتردد جمعة أبداً في استخدام سوطه في حال وجد أحد العمال في "المناطق المحظورة". لقد أقام الأمريكيون علامات بارزة تحذرهم من التسكع أو الاقتراب من معظم الأماكن، حتى إنهم وضعوا أسلاك شائكة على البحر لإبقائهم بعيدين". منذ فترة طويلة كان يُعتقد أن إشارات منيف إلى الأسلاك الشائكة و"المناطق المحظورة" بمثابة مجازات ورموز للعزل السكاني في عمل روائي مُثقل بالمجاز. لكن الأبحاث الحديثة أظهرت أن الروائي لم يكن ينتمي لتيار الواقعية السحرية.

شرع العالم السياسي روبرت فيتاليس في عمله "المملكة الأمريكية"، في كتابة تاريخ الشركة العربية الأمريكية للنفط (أرامكو)، التي أنشئت في

المملكة العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك لتوضيح كيف أن هذه الشركة -التي كانت وقت تأسيسها أكبر الشركات الأمريكية الخاصة الموجودة في الخارج- كانت حاسمة في تشكيل العلاقات الأمريكية السعودية. وبينما كان يبحث في عمليات أرامكو في مدينة الظهران النفطية خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وجد فيتاليس أن الترتيبات الاجتماعية في تلك المدينة استندت إلى مجموعة من الممارسات والأعراف الإقصائية التي تم اقتباسها من الغرب والجنوب الغربي الأمريكيين، وسرعان ما تحوّل كتابه ليكون "تقريراً عن بناء مقاطعة جيم كرو على الشاطئ الشرقي للمملكة العربية السعودية في نهاية الحرب العالمية الثانية". كانت معسكرات أرامكو السكنية، حسب فيتاليس، نموذجاً مصغراً للنظام الأمريكي العنصري المكيّف لسياق عربي (لا يختلف عن العمليات النفطية الأمريكية في فنزويلا وكولومبيا وإندونيسيا). كانت ثكنات السكن منفصلة، وتم ترحيل الأمريكيين الذين أقاموا اتصالات مع العائلات العربية المجاورة؛ كما حُظر على العمال السعوديين العيش مع عائلاتهم، وحرّموا من دخول سينما شركة أرامكو. وبالمثل، شيدت شيفرون، التي اكتشفت النفط في البحرين في عام 1932، مخيمات "مقسمة إلى حواجز منفصلة للأنجلوساكسون، والبحرينيين، والعراقيين، والهنود". وكما هو موضح في مدن الملح، كانت معسكرات السكن تغلي باحتجاجات عمالية، ومواجهات على مستوى الإدارة بين العرب والإيطاليين والآسيويين، ورؤسائهم الذين كان غالبيتهم من تكساس. بدأت الاحتجاجات ضد نظام جيم كرو في أرامكو تقريباً منذ البداية، مع إضراب عام 1944م، واستمرت بشكل متقطع حتى 14 يونيو 1956م، عندما ثار عمال سعوديون واقتحموا المعسكر -وهو الحادث الذي ألهم رواية منيف وقاد الحكومة السعودية إلى حظر الإضرابات.

بما أن الجدل السياسي الحالي حول التصنيف العرقي لأعضاء مجتمع الشرق الأوسط في أمريكا له جذور في التوسع المبكر للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فقد أصبح تاريخ ممارسات جيم كرو في شبه الجزيرة العربية يُدرّس اليوم عن كثب من قبل المدافعين عن وضع الأقلية الإسلامية.

عندما تم إجراء إحصاء عام 1910م، تم تصنيف السوريين، والفلسطينيين، والأرمن، والأتراك، وغيرهم من القادمين من شرق البحر الأبيض المتوسط كـ "آسيويون" أو غير بيض، وحرّموا من حقهم في التجنس. ذهب الصينيون، والبورميون، واليابانيون، والجنوب آسيويين، والهاواييون، والفلبينيون، جميعهم إلى المحكمة لإثبات أهليتهم العرقية للتجنس، أما السوريون فقد كانوا ممثلين بشكل غير متناسب في القضايا العرقية المسبقة التي قدّمت

أمام المحاكم الفيدرالية الأمريكية بين 1909م و1922م. لكنهم نجحوا في تشكيل قضيتهم، من خلال تسليط الضوء على تأثيرهم الاقتصادي، واستخدام خلفيتهم المسيحية لجعل الحجج الدينية والحضارية لصالح الافتراضات العلمية الزائفة.

كان المهاجرون السوريون الأوائل ناجحين جداً في إظهار بياضهم، بحيث لن يتأثر العرب (والإيرانيون) بقانون الهجرة لعام 1917م، المعروف أيضاً بقانون "المنطقة الآسيوية المحظورة"، حيث حدّد الكونغرس منطقة جغرافية ترسم حدود غرب آسيا، وتحدد المناطق التي تقبل الولايات المتحدة منها المهاجرين. أدرجت أجزاء مما يُعرف اليوم بالعالم العربي في "المنطقة المحظورة"، وتمثل شرائح من المملكة العربية السعودية، الصومال واليمن، بينما استثنيت شمال أفريقيا، والشام، الجزء الأكبر من العالم العربي، إلى جانب إيران. كتب عالم الاجتماع لويس كاينكار، "تم استثناء العرب عن عمد من قانون الهجرة الذي أنشأ الحاجز العنصري لمنطقة آسيا المحظورة". ذلك لأن الولايات المتحدة في عام 1910م كانت أكثر قلقاً بشأن هجرة سكان شرق آسيا ("الخطر الأصفر") من الهجرة العربية، ولكن أيضاً بسبب الضغط الفعال من قبل المجتمع السوري. لقد أثبت السوريون بنجاح أنهم لم يأتوا من "تركيا الآسيوية"، بحيث نُظر التعداد السكاني الأمريكي إلى السوريين، في تلك السنوات الأولى، على أنهم من السكان البيض رسمياً. أكد السوريون على هويتهم المسيحية، وأكدوا أن أرض ميلادهم أقرب إلى أوروبا من أفريقيا أو آسيا. كان للإصرار على هذا الانفصال الجغرافي لسوريا عن آسيا وأفريقيا أهداف محلية كذلك - لمنع تعرضهم لأي من قوانين الاستثناء الموجهة إلى الآسيويين والسود في أمريكا، وهي استراتيجية خلقت توترات بين العرب وهذه المجتمعات الأخرى.

ومع بدء تسلل العرب المسلمين إلى البلاد، ازداد تعقيد الحالة العرقية للعرب في أمريكا. إذ لم يستطع الوافدون الجدد استخدام عقيدتهم لتقديم حجج دينية للبياض. أحد أوائل المسلمين الذين تقدموا بطلب للحصول على الجنسية كان أحمد حسن، الذي وقف في عام 1942م أمام محكمة في ديترويت، وهي مدينة أصبحت تدريجياً موطن مجموعة كبيرة من المهاجرين العرب الذين أتوا للعمل في صناعة السيارات. جادل القاضي آرثر تيتل الذي ترأس الجلسة، أن حسن "العربي"، كان "دون شك بني داكن اللون"، و "أن هناك عبء إثبات قويا يؤول إليه ليثبت أنه شخص أبيض ضمن المعنى الموجود في قانون [التجنس]". وعلى الرغم من مرافعة محامي حسن الذي جادل بأن المدعي ولد في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية - التي تقع خارج منطقة الحظر الآسيوي - فقد تم رفض

التماسه. وجد القاضي تيتل أن هذه الحجة ليست ذات صلة، لكنه وضع في اعتباره الجغرافيا -بعد اليمن عن الحدود الأوروبية، مقارنة مع سوريا- والدين عندما رفض طلبه. كتب تيتل: "بصرف النظر عن بشرة العرب الداكنة، من المعروف جيداً أنهم جزء من العالم المُحمّدي، وأن هناك فجوة واسعة تفصل ثقافتهم عن ثقافة شعوب أوروبا ذات الأغلبية المسيحية".

ومع اندلاع المزيد من المعارك القضائية القانونية حول تجنيس العرب المسلمين، قامت دائرة الهجرة والتجنيس بإجراء مراجعة لموضوع التصنيف العربي الإسلامي. وفي عام 1943م، بعد أقل من عام من قضية حسن، أصدرت الحكومة بياناً شديداً للهِجّة يؤكد أهلية المسلمين العرب للتجنس. ومخالفة لقرار محكمة حسن، أعلن بيان دائرة الهجرة والتجنيس أن "كل شخص من الجنس العربي مؤهل للتجنس". وأعلنت هيئة الهجرة والتجنيس أن العرب -من أي خلفية دينية- هم من البيض ومؤهلين تماماً للهجرة والتجنيس بسبب "الحضارة المشتركة" بين الشرق الأدنى والغرب. عندما قدّم محمد موهريز، الذي وُصف بأنه "عربي مولود في سنهي، بدان، الجزيرة العربية"، التماسه للحصول على الجنسية في عام 1944م، منحته المحكمة حق التجنس. وعلى النقيض من الأحكام السابقة التي أوجت بالمسافة الشاسعة التي تفصل العرب عن الثقافة الأوروبية، جادل رئيس المحكمة تشارلز فيزانسكي، بأنه يمكن اعتبار العرب بيضاً لأنهم استوعبوا ما يكفي من الثقافة الأوروبية من خلال دورهم كناقلين للحضارة الأوروبية: "فالشعوب العربية تقف كواحدة من القنوات الرئيسية التي تم عبرها نقل تقاليد الأوروبيين البيض إلى الحاضر، وخاصة التقاليد اليونانية القديمة"، وبالتالي، "فإن العرب يبرزون أمام الحشود باعتبارهم بيضاً".

يرجع "التحول العرقي" السريع للعرب المسلمين من فئة غير البيض إلى فئة البيض إلى حد كبير إلى سياسات ما بعد الحرب وظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى لها وجود في الشرق الأوسط. دفعت الاعتبارات الجيوسياسية المسؤولين الحكوميين إلى إزالة الشروط العنصرية للهجرة قبل انتهاء الحرب. وفي 11 أكتوبر عام 1943م، ناشد الرئيس روزفلت الكونغرس بإلغاء قانون الاستبعاد الصيني (الذي صدر عام 1882م) اعترافاً بشراكة الصين في الحرب. وأصبح المهاجرون الصينيون مؤهلين للحصول على الجنسية. وفي يوليو 1946م، منحت سلسلة من الإعلانات والقوانين الرئاسية الفلبين استقلالها، وسمحت بهجرة محدودة للفلبينيين والهنود. في السنوات الأولى للحرب الباردة، حيث أصبح من الواضح أن العرق سيستخدم كسلاح أيديولوجي من قبل الصين والاتحاد السوفياتي، انتقلت سياسة الهجرة من كونها مجالاً محلياً للكونغرس إلى أن تكون "مجالاً لعمل الجهاز التنفيذي".

رأى نخب السياسة الخارجية أن معاملة العرب باعتبارهم بيضاً من الناحية القانونية كطريقة لبناء علاقات مع الدول العربية التي تتودد لها الاتحاد السوفياتي. وكما كتب القاضي فيزأنسكي: "لقد تعلمنا كدولة أن سياسات الاستبعاد الصارم ليست خاطئة فقط لمهنتنا الليبرالية الديمقراطية، بل هي مُنفرة لمصالحنا الحيوية كقوة عالمية"؛ كان قراره منح العرب في أمريكا الوضع القانوني كبيض ضرورياً "لتعزيز علاقات أكثر حميمية بين الولايات المتحدة والدول الأخرى". وهكذا ستنقل حكومة الولايات المتحدة المسلمين العرب إلى خانة "البيض" في التعداد السكاني؛ لكنها لم تمنع شركات النفط الأمريكية من تطبيق الفصل في الجزيرة العربية، وربما لم يكن بمقدورها فعل ذلك.

ألغى قانون الهجرة والجنسية في نهاية المطاف جميع الحواجز العرقية التي تحول دون التجنيس في عام 1952م، وأقام أفضليات هجرة لبعض المهن. قاد إصلاح سياسة الهجرة الأمريكية، التي تم تقنينها في قانون الهجرة لعام 1965م، إلى إلغاء حصص الأصول القومية التي تم طرحها في عام 1924م. غيّرت هذه السياسات الجديدة بشكل أساسي من طبيعة الهجرة إلى الولايات المتحدة، بحيث لم يعد غالبية المهاجرين من أوروبا، بل من أمريكا اللاتينية، وآسيا، وأفريقيا، والشرق الأوسط.

اختر الإجابة الصحيحة (لست أبيض تماماً)!

في الفترة التي سبقت التعداد السكاني لعام 2010م، أطلق الكوميديون العرب والإيرانيون حملة على مستوى البلاد تسمى "اختر الإجابة الصحيحة!" - وشرحوا لمجتمعاتهم في مقاطع بصرية وصوتية على الإنترنت لماذا هم ليسوا بيض البشرة، وأنه يجب عليهم اختيار العلامة أمام خانة "أخرى". كان مصدر إلهام هؤلاء النشطاء الشباب دائماً هيلين سمحان من المعهد العربي الأمريكي. نشرت سمحان عشيّة تعداد عام 2000م مقالاً بعنوان "ليس أبيض تماماً"، ساعد في إطلاق حراك من أجل منح وضع الأقلية، وأصبح مانيفستو صريح للأمريكيين الشباب من الشرق الأوسط. في الورقة، أشارت سمحان إلى "تفكك الهوية" الذي يشعر به العديد من الشبان العرب الأمريكيين: لقد تم تصنيفهم كبيض، لكن لديهم إلفة تجمعهم بالملونين، "أي كل مجموعة ذات منشأ غير أوروبي". وكتبت أن "وضع العرب والأشخاص الآخرين الذين لديهم أصول في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الفئة البيضاء نفسها التي تحدد الأغلبية الأوروبية كان مصدراً للارتباك والتحدي". وفي سياق المراقبة المتزايدة للمجتمعات العربية والإسلامية في أواخر التسعينيات، جادلت هيلين، بطريقة مؤثرة، أن بعض فروع الحكومة، ولا سيما أجهزة إنفاذ القانون

- مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الهجرة والتجنيس - كانوا بالفعل يعاملون الأميركيين من شمال أفريقيا والشرق الأوسط كمجموعة يجب تتبعها ومراقبتها، ورغم ذلك استمر التعداد باعتبار العرب مثلهم مثل غيرهم من البيض.

يدعم العاملون في مجال الخدمة الاجتماعية الذين خاطبتهم هيلين سمحان في مؤتمر ديزبورن عام 2009م حملة وضع الأقلية. فهم يعملون ويمثلون مجتمعاً من المهاجرين، يتكون بشكل متزايد من اللاجئين الذين أعيد توطينهم من العراق، السودان والصومال، والذين يحتاجون إلى الخدمات الاجتماعية والمساعدة الحكومية في مجالات التعليم والرعاية الصحية. لكن لا وجود لبيانات تظهر هذه الحاجة. وجد الأمريكيون العرب، الإيرانيون والأتراك، أنفسهم في موقف عبثي، كما يشرح دعاة وضع الأقلية: من أجل الحصول على وضع الأقلية الرسمي ووضع فئة جديدة في التعداد السكاني يلزمهم إظهار أنهم عانوا من التمييز المنهجي، وهذا أمر يصعب تحقيقه بسبب عدم وجود بيانات بشكل منفصل تخص المنحدرين من الشرق الأوسط. يقول راي حنانيا، وهو ناشط من شيكاغو: "عندما يوقف ضابط شرطة سيارة في أورلاند بارك، على سبيل المثال، عليه أن يحدد ما إذا كان هذا الشخص أسوداً أو أبيضاً أو من أصل إسباني أو آسيوي. إذا تم إيقاف وتمييز العرب باستمرار، وهذا ما يحدث عادة، فلن نتمكن من الوصول إلى تلك البيانات، لأنه يحسبون ضمن البيض... إنه كعب أخيل: كيف يمكن أن نتعرض للتمييز عندما نكون بيضاً؟".

استُخدمت الفئات العرقية في الولايات المتحدة في البداية لدعم سياسات الاستبعاد، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد إصدار قانون حقوق التصويت في عام 1965م، تم استخدام البيانات العرقية والإثنية لرصد التمييز ضد الأقليات العرقية وحصولها على فرص متكافئة. من وجهة نظر القانون الاتحادي، لا يأتي وضع الأقلية بسبب الانتماء إلى عرق أو إثنية معينة، ولكن بسبب الاستخدام التاريخي للعرق والإثنية في منح امتياز أو حرمان مجموعة معينة منه. وفي كثير من الأحيان تم منح وضع الأقلية لمجموعات عرقية وإثنية -بالتحديد الهنود الأمريكيين والأمريكيين من أصل آسيوي والسود والإسبان- الذين كانوا تاريخياً ضحايا الإقصاء. لكن الأمر ليس متوقفاً على السلالة أو الخصائص الفيزيائية؛ حتى البيض قد يمنحون وضع الأقلية، كما يُقال في حالات التمييز العكسي. وهذا مصدر الارتباك الكبير: ما يُنظر إليه على أنه "عرق" في الحديث اليومي -أي كيف يبدو المرء- ليس هو ما يحدد من خلاله مكتب الإحصاء العرق ووضع الأقلية.

عندما أنشئت فئات التعداد الحالية في عام 1977م من قبل مكتب الإدارة والميزانية (OMB) الذي يتخذ من البيت الأبيض مقراً له، تم إيلاء اهتمام خاص للفوارق بين السكان السود، اللاتينيين، الهنود الأمريكيين، والآسيويين الأمريكيين بالمقارنة مع السكان البيض اعتماداً على البيانات الموجودة (من تعداد عام 1970م). وفي عام 2000م، قام مكتب الإدارة والميزانية، استجابة للنشاط المجتمعي، بإصلاح نظام التصنيف وقدم "الخماسية العرقية" المشهورة الآن: حيث تم إنشاء خمس فئات هي: الأمريكيون الهنود، سكان الأسكا الأصليين، الآسيويون، السود أو الأمريكيون من أصل أفريقي، سكان هاواي الأصليون أو غيرهم من سكان جزر المحيط الهادئ، والبيض. قدّم المكتب أيضاً صندوقين للبيانات المتعلقة بالعرق: "إسباني أو لاتيني" و"ليس إسباني أو لاتيني". لكن التوجيه استمر في تعريف الأبيض بأنه "شخص له أصل في الشعوب الأصلية في أوروبا، أو الشرق الأوسط، أو شمال أفريقيا".

أثيرت حملات وضع الأقلية مرة أخرى في أواخر عام 2009م. تحرك الطلاب والنشطاء من ذوي الأصول العربية والإيرانية على مستوى البلاد من أجل الحصول على صندوق عرقي منفصل. ارتفعت فرائض آبائهم من لغة الحملة المستندة إلى العرق. دعمت القيادة العربية-الأمريكية القديمة بصورة متردة خانة الشرق الأوسط/شمال أفريقيا، ولكنها اشترطت وجود الخانة الجديدة تحت فئة "البيض"، وعارضت وجود خانة عرق منفصلة، حيث يمكن اعتبار ذلك سياسة انفصالية ومناهضة للاندماج. شعر النشطاء الشباب بواجبهم لأن يكونوا "ناشطين عرقيين" لأن آباءهم "جلسوا متفرجين" أثناء سنوات حركة الحقوق المدنية، وعندما ضغطت مجموعات مختلفة وحصلت على وضع الأقلية. لكن هذا ليس دقيقاً تماماً: كان هناك ناشطون من الشرق الأوسط داخل حركة الحقوق المدنية، لكن الأمريكيين من أصل عربي وإيراني لم يطالبوا بوضع الأقلية، أو تراجعوا لأجل مجتمعاتهم في الستينيات لأنهم لم يعانون بعد من التشهير والتمييز المنهجين. بالإضافة إلى أن التدفق الكبير للمهاجرين من الشرق الأوسط جاء بعد حركة الحقوق المدنية. وفي الواقع، كان تشريع الحقوق المدنية هو ما سمح بإنهاء الحصص الوطنية الأصلية ومنح تأشيرات دخول للمهاجرين.

نشط الأمريكيون العرب في حركة الحقوق المدنية في الفترة التي تلت الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967م، والتي اتفق معظم الباحثين على أنها كانت لحظة مفصلية أثارت نعمة الهوية العربية-الأمريكية القومية. فقد دفعت التغطية الإعلامية، والخطاب العام، والنقاشات القاسية المحيطة بالصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، مجموعة من الباحثين والناشطين لتأسيس رابطة خريجي الجامعات العرب الأمريكيين (AAUG)، وهي مقدمة مبكرة

"اللجنة العربية لمناهضة التمييز"، أكبر مجموعة مناصرة عربية في الولايات المتحدة اليوم. أدت أزمة ما بعد عام 1967م إلى "أثنية (من إثنية)" المجتمع العربي الأمريكي، الأمر الذي حفّز الناطقين باللغة العربية - السوريين، المصريين، الفلسطينيين والعراقيين - وأطفالهم إلى نوع نموذجي من السياسة العرقية الأمريكية. ومع ذلك، لم تطالب بفئة منفصلة في التعداد.

بدأ الاستياء من التصنيف الأبيض في أواخر الثمانينيات، عندما بدأ الناشطون من أصول عربية وإيرانية في التعبير بشكل متزايد عن هويتهم بعبارات عنصرية. ومع تعمّق التواجد الأمريكي في الشرق الأوسط - الثورة الإيرانية، القصف البحري عام 1983م، وحرب الخليج الأولى - والصورة السلبية التي تطرحها وسائل الإعلام، والإدراك العام، بدأ العرب الأميركيون يعيدون النظر في وضعهم العرقي كبيض البشرة. إن الحملة العربية الأمريكية المنادية باكتساب وضع الأقلية هي اليوم صريحة بشكل خاص بسبب موقع العالم الناطق بالعربية في أفريقيا والشرق الأوسط، مما يعني أن سكان أفريقيا السود سوف يحصلون على تصنيف أبيض أيضاً. بدأت موجة جديدة من النشاط بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ وفي هذه المرة، سينضم إلى النشطاء اللبنانيين الأميركيين أبناء المهاجرين النوبيين والسودانيين، الذين تحدوا تصنيف سكان شمال أفريقيا كبيض البشرة.

النيل الأزرق واشنطن

تغيّرت الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة في السنوات العشرين الماضية بشكل كبير بسبب برنامج تأشيرة التنوع (المعروف باسم لوتري البطاقة الخضراء) الذي قدمته وزارة الخارجية عام 1995م. ويمنح هذا البرنامج سنوياً خمسين ألف تأشيرة إقامة دائمة لأفراد من بلدان ذات معدلات هجرة منخفضة إلى الولايات المتحدة. جاء معظم المهاجرين العرب خلال القرن الماضي من سوريا، لبنان، العراق وفلسطين. ومن أجل تعزيز التنوع، وتصحيح هذا "الخلل التاريخي"، منح برنامج تأشيرة التنوع حصة الأسد من تأشيرات "المنطقة العربية" لبلدان شمال أفريقيا الممثلة تمثيلاً ناقصاً مثل المغرب، الجزائر والسودان. إن سياسة الحصة المحددة جغرافياً التي حددها لوتري تأشيرة التنوع يعني أنه منذ تسعينيات القرن العشرين تدفق عشرات الآلاف من السودانيين، النوبيين، البربر والصوماليين الناطقين بالعربية إلى الولايات المتحدة، مما أدى إلى نمو سريع للمجتمعات الناطقة بالعربية من شمال أفريقيا (وفقاً لتقارير المعهد العربي الأمريكي، فإن الجالية المغربية نمت بنسبة 96.5 في المائة بين عامي 1990م و2000م)، وأدت لدفع النقاش حول التصنيف العرقي العربي في اتجاه جديد. إذا كان الناشطون من أصول

لبنانية وسورية يسألون "هل العرب بيض؟"، فإن النشطاء الشباب النوبيين والسودانيين يتساءلون: "هل نحن عرب أم سود، أم كلاهما؟".

للمهاجرين من أصول نوبية أهمية خاصة من وجهة نظر التعداد. النوبة هي المنطقة الواقعة على طول وادي نهر النيل، وغالباً ما توصف بأنها ممر بين أفريقيا الاستوائية والبحر الأبيض المتوسط، وتبدأ في مدينة أسوان في مصر العليا، في الشلال الأول على النيل، وتمتد جنوباً إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق في العاصمة السودانية الخرطوم، مباشرة فوق الشلال السادس. بعد قرون من الحكم العثماني استعمرت بريطانيا النوبة، ومنذ الاستقلال في عام 1956م تم تقسيم المنطقة بحدود فاصلة بين مصر والسودان. نمت الطائفة النوبية في الولايات المتحدة بشكل سريع منذ منتصف الثمانينيات، وتركزت بشكل كبير حول منطقة واشنطن العاصمة، وذلك عندما بدأ المهاجرون من مصر العليا والسودان في الوصول، وأقاموا أكشاكاً لبيع الهوت دوق وقادوا سيارات الأجرة.

تسبب موقع النوبة، الممتد على الحدود المصرية-السودانية، في الكثير من النشاط الذي يدور حول موضوع التعداد؛ فبينما يتم اعتبار النوبيين من الجزء المصري من بيض البشرة (في حال كتبوا بلدهم الأصلي)، فإن النوبيين من السودان يوضعون في خانة "أعراق أخرى". المقاييس الدقيقة لمكتب التعداد فيما يخص وضع "شمال أفريقيا" مقابل "أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى" غامضة؛ وبلاستناد إلى خرائط برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، والقوائم القطرية للمنطقة، يعتبر التعداد مصر، المغرب، ليبيا، تونس وموريتانيا ضمن دول شمال أفريقيا (وبالتالي بيض)، لكنه يضع السودان ضمن كل من شمال أفريقيا ومناطق جنوب الصحراء الكبرى. كان السودان مصنفاً منذ فترة طويلة كأبيض أيضاً، إلى أن تمت إعادة تسميته مؤخراً ضمن "أعراق أخرى". ("البشتونستان" هو إقليم عرقي آخر يتجاوز حدود الدولة، ويحصل على مسميات مختلفة في التعداد؛ يُعتبر البشتون في الولايات المتحدة، وأحياناً ضمن أعضاء العائلة نفسها، آسيويين إذا ولدوا في باكستان، وبيض إذا كتبوا أنهم من مواليد "أفغانستان"). تشكل فئات التعداد تحدياً بالنسبة إلى النشطاء الأمريكيين النوبيين. سيكتب الوالدان اللذان هاجرا من مصر العليا والسودان "مصري" أو "سوداني" أو "عربي" في صندوق "آخر"، دون أن يعرفوا أو يهتموا بأنهم سوف يعتبرون من البيض. أما النشطاء الأصغر سناً، المولودون في الولايات المتحدة، فلا يريدون أن يتم إحصاؤهم كبيض، لكنهم غير متأكدين من خانة العرق التي يجب التحقق منها.

تضحك آية إبراهيم، ابنة رضوان، أحد مؤسسي جمعية النوبة الخيرية التي مقرها العاصمة قائلة: "عندما أخبرتُ والدي أن يضع العلامة في خانة "أسود" في استمارة التعداد، نظر نحوي بطريقة غريبة". آية إبراهيم -تدير مجموعة تدعى WakeUp Somalia، ترسل الكتب إلى الصومال- هي واحدة من النشطاء الأصغر سناً الذين يُنازعون ضد تصنيف سُود أفريقيا الشمالية كبعض. تقول هذه الفصيحة البالغة من العمر تسعة عشر عاماً: "الحقيقة هي أن لدي من الهويات أكثر مما تحويه فئات التعداد. أنا أفريقية أمريكية، نوبية وعربية. كان بإمكانني أثناء ملء الاستمارة كتابة "عربي" أو "مصري"، ولكنني وضعت العلامة على خانة "أسود".

يسافر محامو الحقوق المدنية في المقر الرئيس لشركة ADC الواقع في واشنطن العاصمة بانتظام بين ديربورن حيث يقدمون الدعم للاجئين العراقيين الجدد، ومنيابوليس التي تضم أكبر عدد من الصوماليين في الولايات المتحدة، الذين لجأ معظمهم بسبب النزاعات في وطنهم، وكذلك واشنطن العاصمة التي تضم اليوم عشرات الآلاف من المهاجرين الناطقين بالعربية من مصر العليا، السودان، الصومال وإريتريا. هناك نكتة تجري على ألسن النشطاء العرب الأمريكيين، وتقول إنه إذا كانت ديربورن هي العاصمة العربية لأمريكا، فإن واشنطن العاصمة هي "العاصمة السوداء لعرب أمريكا". تكمن المفارقة أنه في حين يُعتبر عرب ديربورن من البيض بصورة قانونية، فإن جهات إنفاذ القانون نادراً ما تتعامل معهم على هذا الأساس، في حين أن العديد من الأفارقة الناطقين باللغة العربية في عاصمة البلاد يصنفون قانونياً على أنهم عرب وبيض، ولكن ينظر إليهم عموماً على أنهم سُود.

يقول عابد أيوب، المدير القانوني لشركة ADC واشنطن، "الحكومة ليست متسقة عند التعامل مع العرب الأفارقة. فقد تصف الصوماليين الذين يتحدثون العربية بأنهم أفارقة أو صوماليون فقط، لكنهم يواجهون مشاكل في الاعتقال وتطبيق القانون تماثل ما يحدث لمجتمعات عربية وإسلامية أخرى - وهذا هو سبب لجوئهم إلينا. قد لا يحسب مكتب الإحصاء الصوماليين على أنهم عرب، ولكن وزارة التجارة تفعل ذلك - عندما نطلب قروض الأعمال التجارية الخاصة بأقليات المجتمع العربي، فسوف يسألوننا عن الحاجة الاقتصادية داخل المجتمع الصومالي. لهذا السبب الأمر يُحير الجميع".

على المستوى المجتمعي تبدو عبارات "العرب السود" مثلها مثل "مسلمي القوقاز" وكأنها تناقض في المصطلحات، وغير مقنعة ليست فقط كفئات قانونية بل كتصورات ثقافية مُسبقة. لكن مسألة كيفية تصنيف وتسمية

الناس من وادي النيل والأراضي الصحراوية الحدودية سوف تصبح أكثر إلحاحاً في السنوات القادمة مع توجيه السياسة الخارجية الأمريكية انتباهها إلى منطقة الصحراء والساحل. أنشئت القيادة الأفريقية للولايات المتحدة (أفريكوم) في أكتوبر 2007م، وكان لها قاعدة في معسكر ليمونير في جيبوتي، للإشراف على العمليات العسكرية الأمريكية في جميع أنحاء أفريقيا (باستثناء مصر)، والانخراط في "قوس عدم الاستقرار" الذي يبدأ في الصومال، عابراً جنوب السودان ودارفور، وقاطعاً بلدان الساحل في تشاد، النيجر، مالي وموريتانيا، ومتجهاً صوب المنطقة المغاربية. ازداد تدفق المهاجرين من العراق والصومال إلى الولايات المتحدة بسرعة بعد التدخلات الأمريكية في تلك البلدان في عامي 1990م و1993م. أدى التورط الأمريكي في الصحراء -إلى جانب لوتري البطاقة الخضراء- إلى زيادة الهجرة من دول الساحل-الصحراء إلى الولايات المتحدة، مما جعل مسألة تصنيف الأفارقة العرب أكثر إلحاحاً. لذا ليس من المستغرب أن تكون هناك حملة في الوقت الراهن بقيادة الناشط المصري الأصل مصطفى حفني، الذي رفع دعوى قضائية ضد تصنيف الحكومة الأمريكية للعرب الأفارقة كـ "قوقازيين" - وعلى وجه التحديد، ضد التوجيه رقم 15 للتعيين الجغرافي الخاص بمكتب الإدارة والميزانية (OMB)، الذي يحدد البيض بأنهم من "لهم أصول في الشعوب الأصلية في أوروبا، الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، والشود "من لهم أصول في المجموعات العرقية السوداء".

رمضان لا يُنسى

تردد صدي الصيحات من مقاهي وصالات الشيشة في ديربورن وديترويت في وقت متأخر من ليلة يوم الأحد في منتصف مايو 2010م. فقد توجت ربما فقيه ملكة جمال الولايات المتحدة الأمريكية بعد مشيتها الرقيقة في ثوبها المسائي، وإجابتها على سؤال حول تحديد النسل والتأمين الصحي. (قالت صحيفة ديلي نيوز في نيويورك بحماس: "لقد أبهرت المحكمين عندما خطت على المسرح في البيكيني الأحمر المخملي والبرتقالي"). هلل مؤيدوها في مطعم لايتا في ديربورن، وهي قاعة حفلات مزينة بالأحمر والأزرق والأبيض. وبكت امرأة. ارتدت الفتيات المراهقات تي-شيرتات تحمل وجه ريماء، وعبارة مقتبسة عنها تقول: "الجمال هو ما يجذب انتباهك، والشخصية هي ما تجذب قلبك". أشاد النشطاء بفتاة محلية تحولت إلى ملكة جمال. منحها رئيس بلدية ديربورن مفتاح المدينة. تدفقت رسائل التهئة من الشرق الأوسط. وأصدر رئيس لبنان، مسقط رأس ريماء، بياناً يقول فيه: "تهانينا لريماء فقيه لإظهارها صورة لبنان الجميلة للعالم". وتساءل مذيعو التلفاز كيف يمكن لهذا أن يساعد في دمج المسلمين في أمريكا.

لكن الهجوم على ملكة الجمال بدأ قبل انقضاء الليل. وصفها نشطاء حزب الشاي (155) والمعلقون اليمينيون بـ "ملكة جمال حزب الله" و"الوجه الجديد للإرهاب الإسلامي"، مُذكّرين الجميع بأنها وُلدت لعائلة شيعية في جنوب لبنان. استاء آخرون من "ملكة جمال اللباقة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية"، قائلين إنها فازت بسبب تحيُّز ليبرالي، جزء من جهد دبلوماسي أكبر لإظهار أن الولايات المتحدة تتقبل سكانها المسلمين. لكن الأمور ستسوء أكثر. في صباح يوم الاثنين ظهرت صور ريماء وهي ترقص في مسابقة تعرّ في ديترويت، وهي منافسة فازت بها بسهولة، لتأخذ إلى منزلها المجوهرات، وشهادات الفوز، وألعاب جنسية، و"عمود تعرّ للاستخدام المنزلي". بعد فترة وجيزة، ظهر أنها لعبت دور شرطية ترتدي شورتاً قصيراً مثيراً في فيلم قصير بعنوان Throbbing Justice ("فيلم عن نظام العقوبات!"). طلب مسؤولو المسابقة رؤية الصور والفيلم، بعد أوامر من دونالد ترامب (مالك المسابقة في الفترة 1996م - 2015م)، لكنهم قرروا عدم تجريد ملكة الجمال من تاجها. انتشرت صور هذه الفتاة المسلمة التي ترتدي شورتات صغيرة حمراء وأحذية عالية الكعب وهي تمتطي عمود تعرّ، بينما الدولارات محشوة في حمالة صدرها، ورافقتها انتقادات من داخل المجتمع المسلم. استنكر الصحفيون الإسلاميون "سلوكها غير الإسلامي". (أصدر حسن فضل الله، ممثل حزب الله في البرلمان اللبناني، بياناً شديداً الاختصار بشأن انتصار ريماء: "إن المعايير التي نقيم من خلالها النساء تختلف عن تلك الخاصة بالغرب". وفي هذه الأثناء، وجد الكوميديون والمدونون أنفسهم في وسط متعة غير مقيدة. قال الممثل الكوميدي بيل ماهر أثناء عرضه لصورة ريماء بالبيكيني، "إنه بمثابة وضع المؤخرة (ASS) في الاستيعاب الثقافي (assimilation)". وتساءل أحد المدونين: "ما الفقيه؟ What the Fakih?". ومع تعبئة منظمات وجمعيات عربية مختلفة للدفاع عن ملكة الجمال ضد مهاجميها، ردّت ريماء على منتقديها المسلمين: "عائلتي صاحبة إيمان لا يتزعزع، لكنني ليبرالية جداً - أنا أدمر الصور النمطية للإسلام في أمريكا". (أحول الصور، قالت إنها كانت ضمن "حدث صباحي رياضي مع مجموعة من الفتيات"، وتم "اقتطاعها من سياقها").

صادف انتصار ريماء لحظة سيئة في عمل نشطاء وضع الأقلية. فبعد سبعة أشهر من مؤتمر ديربورن بدأ الحصر السكاني، لكن مكتب الإحصاء أعلن أن عرب وإيرانيين أمريكيين بيض البشرة من ناحية عرقية على الرغم من حملتهم المضادة - وهذا يعني، أن الوضع سيستمر حتى لو قاموا باختيار مربع "آخر" في الاستمارة وكتبوا داخله "عربي" أو "إيراني". اكتشف النشطاء الذين قادوا الحملة أن الكثيرين داخل المجتمع المسلم لم يكونوا متحمسين لفكرة وضع الأقلية، قائلين إن الانكشاف السياسي الذي يفرضه تصنيف جديد يفوق

الفوائد بكثير - وأن هناك مزايا للغموض العرقي. يجب على الأمريكيين العرب أن يثبتوا أنهم كانوا ضحايا "الأخطاء العرقية السابقة" للحصول على وضع الأقلية، وهي عملية تستلزم الكشف عن مظالم الماضي ونشرها، بدءاً من ممارسات جيم كرو في الجزيرة العربية، إلى التنصت، إلى الصورة السلبية لوسائل الإعلام، وكلها من شأنها تغيير الرأي العام.

ظهرت هذه المشاحنات السياسية حول تعريف الذات والفئة التي يجب تبنيتها في مجتمعات مسلمة أخرى. فقد دفعت السياسات المستمدة من قانون باتريوت الوطني، بالإضافة إلى خطاب السياسيين الحربي حول "الفاشية الإسلامية" و"الإرهاب الإسلامي" - الذي ثبت أنه يؤدي إلى جرائم الكراهية - الشباب المسلمين للضغط ضد تصنيفهم على أنهم بيض. (يحاول الكوميديان الإيراني الأصل ماز جبراني، التعامل بهزل مع مفارقة كونه أبيض من الناحية القانونية بينما يعاني في الوقت نفسه من مضايقات عنصرية: "لقد تحملت كل الإهانات خلال نشأتي - سائس الجمل، مُرتدي المنشقة، وغيرها من الأشياء الأخرى - وكل ما قتلته هو: "يا صاح، أنا أبيض؟").

هؤلاء النشطاء الذين يدفعون من أجل وضع الأقلية هم مواطنون أمريكيون، محامون في مجال الحقوق المدنية، وطلاب دكتوراه غارقون في النظرية النقدية للعرق (يتحدثون عن "البنى العرقية" و"فجوات التعاطف")، وغالباً لا يستطيعون تقبل أو فهم حالة التحفظ والخوف من المسلمين المولودين خارج الولايات المتحدة، الذين يعيشون في مناطق عرقية، ويكونون إما سكان غير مسجلين أو غير مواطنين، وبالتالي يترددون في المشاركة في الحصر السكاني أو أي حملة عامة. كافح مكتب الإحصاء لبناء ثقة مع المجتمعات المسلمة الأمريكية منذ أوائل التسعينيات. في عام 2009م، أكد ممثلو التعداد لجماهير المسلمين، في اجتماعات البلدية، في الإعلانات الإعلامية، وخلال الزيارات المنزلية، أن البيانات التي يجمعها التعداد لن يتم تبادلها مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو وكالة المخابرات المركزية، أو وزارة الأمن الداخلي، أو أي وكالة أخرى.

تشكك مسلمو أمريكا. فقد كانوا يعلمون أن مثل هذه التأكيدات لم تمنع مكتب الإحصاء من مشاركة بياناته الديموغرافية مع إدارة بوش. قدمت وزارة الأمن الداخلي في عام 2002م، طلباً إلى مكتب الإحصاء لمشاركة بيانات السلالة العربية المُجدولة التي ينظمها الرمز البريدي. (لم يكن مثل هذا الطلب غير قانوني حينها، حيث إن قانون التعداد يحظر فقط الكشف عن معلومات يمكن التعرف عليها بشكل فردي). وفي يوليو 2004م، قام مركز أبحاث يعمل في مجال الحريات المدنية اسمه مركز معلومات الخصوصية

الإلكترونية (EPIC) باستخدام قانون حرية المعلومات للكشف عن تبادل بيانات بين وزارة الأمن الداخلي ومكتب الإحصاء. أذهل الإفصاح مجموعات المراقبة: فقد شارك مكتب الإحصاء البيانات الإحصائية مع وزارة الأمن الوطني بعد فترة قصيرة من إصداره اعتذاراً رسمياً (في عام 2000م) للسماح باستخدام بياناته الإحصائية المنزلية في تجميع بيانات اليابانيين-الأمريكيين من أجل اعتقالهم خلال الحرب العالمية الثانية. وفقاً لتقرير (EPIC)، أظهرت الجداول التي شاركها مكتب التعداد المدن - وكذلك الرموز البريدية - حيث يوجد ألف أو أكثر، أو عشرة آلاف أو أكثر من المستجيبين الذين أشاروا إلى سلاتهم العربية في استمارة التعداد. شجبت اللجنة الاستشارية العشرية علناً مشاركة البيانات الديموغرافية، واصفة إياها بـ "المعادل المعاصر لمحاولات تحديد المجتمعات اليابانية الأمريكية عندما افتتحت معسكرات الاعتقال خلال الحرب العالمية الثانية". قام مكتب الإحصاء بتغيير سياسته حول المشاركة الإحصائية لمعلومات "المجموعات السكانية الحساسة" مع وكالات إنفاذ القانون أو وكالات الاستخبارات. بدورها أوضحت متحدة باسم وزارة الأمن الوطني أن الوكالة طلبت البيانات من أجل تحديد المطارات التي ستُنشر فيها الإشارات والكتيبات باللغة العربية.

لكن الضرر كان قد وقع. عندما انتشرت القصة في يوليو 2004م، قال جيم زغبي، رئيس المعهد العربي الأمريكي: "عندما ينتشر مثل هذا الأمر، فإن أي جهد لتشجيع الناس على الامتثال الكامل للتعداد سيذهب أدراج الرياح"، مضيفاً: "كيف بوسعك جعل الناس يمثلون عندما يعتقدون أن هذا الامتثال يعرض أمنهم الشخصي والأسري للخطر؟" وعندما انتشر متطوعو وناشطو التعداد السكاني في جميع أنحاء الأحياء العربية في عام 2010م، لتشجيع الناس على ملء استمارة التعداد، مشيرين إلى أن الإحصاء سي جلب المزيد من أموال الدولة، الخدمات وحماية الحريات المدنية، أجاب الناس في الشارع بأن الإحصاء لن يؤدي إلا إلى المزيد من التدقيق وانتشار المخبرين. (في منتصف عام 2011م، أثبتت هذه المخاوف صحتها عندما كشفت وكالة أسوشيتد برس أن شرطة نيويورك كانت تقوم بمراقبة المجتمعات والمجموعات الطلابية المسلمة منذ عدة سنوات، وأنها استخدمت بيانات التعداد لرسم خريطة وتحديد أحياء عرقية مختلفة تحت أنظار المدعي العام مايكل موكاسي).

كان مراقبو حملة وضع الأقلية قد حذروا من رد فعل سياسي في أوائل الربيع، أي قبل أشهر من ظهور الجدل حول مسجد "جراوند زيرو" الذي أصبح قضية وطنية في أغسطس 2010م. وفي شهر مايو انفجرت قنبلة أنبوية في مسجد يقع شمال فلوريدا. أصدر دان قانييلي، المرشح الجمهوري

في فلوريدا، إعلاناً سياسياً يُنادي بتصنيف الرجال الشرق أوسطيين. ومن القثير للاهتمام أن الحركة المناهضة للمساجد بدأت مع بدء حملة التعداد. بدأت معارضة بناء المساجد بالانتشار عبر الجنوب إلى تينيسي، كنتاكي، كنساس، تكساس وفلوريدا. تحولت الحملة المناهضة للمساجد إلى غضب، ووصلت الولايات الشمالية بعد أن أبدى الرئيس أوباما دعمه لبناء مركز إسلامي في مانهاتن السفلى. وسرعان ما بدأت تظهر إعلانات "اترك الإسلام" على الحافلات وسيارات الأجرة في المدن الأمريكية الكبرى ("هل ترهبك الفتوى بقطع رأسك؟ هل تهددك غائلتك؟ أتريد أن تترك الإسلام؟ أديك أسئلة؟ احصل على إجابات"). كانت للاحتجاجات ضد المساجد ثيمات مألوفة: سيظهر أعضاء حزب الشاي المحليين في صلاة الجمعة مع لافتات اعتصام مكتوب عليها "لا شريعة في أمريكا"، معهم كلابهم بينما تتعالى هتافاتهم بأغنية "وُلِد في الولايات المتحدة الأمريكية" للفنان بروس سبرينغستين. تحولت النقاشات المحتدمة إلى أعمال عنف. تم قذف قنابل أنبوبية على المساجد في تينيسي وفي ولاية نيويورك. تم رمي لحوم الخنازير على المصلين؛ ومُزق الحجاب عن رؤوس النساء.

كان تدفق الحقد والعنف ضد المسلمين في صيف عام 2010م أسوأ مما حدث أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر عندما أعلن الرئيس بوش أن "الإسلام دين سلام"، محذراً من جعل "جيراننا المسلمين" كبش فداء بينما يعانق زعماء المسلمين في العلن. كان موقف الحزب الجمهوري المفاجئ والقاسي جداً من الإسلام استراتيجية انتخابية في الأساس. ومع استعداد مرشحي الحزب الجمهوري في جميع أنحاء البلاد للانتخابات النصفية، سعوا إلى إدخال قضية المساجد في سباقاتهم المحلية ضد الديمقراطيين، وتخلوا إلى حد كبير عن "معانقة بوش لمسلمي أمريكا في الفترة التي تلت الحادي عشر من سبتمبر"، وإصراره، الذي كان دائماً مثار جدل داخل الحزب، على "أن الإسلام دين سلام". كانت سياسة الحزب الجمهوري الجديدة تجاه الإسلام الأمريكي بمثابة رد فعل متأخر على انتخاب أوباما، الذي قام عند توليه المنصب بتغيير الإطار البلاغي للدبلوماسية الأمريكية، متحدثاً عن "مكافحة التطرف العنيف" بدلاً عن "الحرب على الإرهاب"، و"الدول ذات الأغلبية المسلمة" بدلاً عن "العالم الإسلامي"، ومفاهيم افتراضية أخرى أثارت غضب القاعدة الجمهورية.

استقطب حراك حملة الجمهوريين وحزب الشاي ضد المساجد الحراك المُنادي بوضع الأقلية مهما كانت الأسباب وراء ذلك. رأى النشطاء الأصغر سناً في الجدل المصاحب لحرق المساجد والقرآن فرصة لتشكيل قضية وضع الأقلية بصورة علنية. كانت الحملة في آخر الأمر جزءاً من "الاستراتيجية الجنوبية"

الخاصة بالحزب الجمهوري، التي استغلت القلق العنصري، واستهدفت الشُّود، المهاجرين من أصل إسباني، والآن المسلمين لحصد الأصوات. كما جادلوا بأن حراك "حزب الشاي" -القسم الأكثر ديناميكية ضمن القاعدة الجمهورية- يمثل نزعة قومية بيضاء متجددة تستهدف المسلمين، لذا فهذا هو الوقت المثالي للتحديث بعلانية ووضوح حول سبب عدم رغبة المنحدرين من أصول إيرانية وعربية أن يُصنّفوا ضمن البيض. حذّر الناشطون والقادة الأكثر تمرساً من أن هذه هي أسوأ لحظة للاحتجاج السياسي: فالانفعالات العنصرية لن تؤدي إلا إلى زيادة حادة في جرائم وخطابات الكراهية ضد المسلمين. جعلت حملة مناهضة المساجد التي استمرت لأشهر المسلمين أكثر خوفاً وتشككاً في التعداد.

من المفارقات أن حركة مناهضة المساجد كانت عنصراً قوياً في حراك مكافحة التعداد. بعيداً عن العمال غير المسجّلين والأجانب المقيمين، فإن الجزء الآخر من المجتمع الأمريكي الذي كان شديد الارتباب في التعداد كان حزب الشاي. فأتثناء ضغطهم من أجل تشريع مناهض للشرعية، وقوانين تقسيم المناطق لحظر بناء المساجد، كان نشاط حزب الشاي، وتحت شعار "قاوموا، لا تشاركوا في التعداد"، يضغطون من أجل سحب التمويل من استبيان مسح المجتمع الأمريكي، لأنهم رأوه كتطفل لن يقدم سوى دليل على حقيقة أن البيض أصبحوا أقلية.

كانت هيلين سمحان جالسة في مكتبها في واشنطن العاصمة الذي يطلُّ على شارع كي ستريت في وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام يوليو 2010م الصيفية. كان التعداد جارٍ في تلك الأثناء. وبينما جلست محاطة بالصناديق وأكوام الورق يلتهمها الصداح، قالت محدثة نفسها: "لا مزيد من أسئلة السلالة، سنُصنّف ضمن البيض حتى لو كتبنا "عربي"، وسُحرق المساجد". تتنهد، ثم تبتسم: "سأتقاعد في غضون بضعة أسابيع". ضغطت هيلين لأكثر من عقدين من الزمان من أجل الحصول على وضع الأقلية القانوني -خانة مخصصة للأميركيين الشرق الأوسط- ومن أجل معايير أفضل للتعداد؛ لقد أصبحت بطلّة شعبية في أوساط الناشطين الشباب العرب والمسلمين الأميركيين. وبسبب جهودها، قام مكتب الإحصاء عام 1995م بتخصيص مقعد داخل اللجنة الاستشارية لتعداد سكان عام 2000م من أجل العرب الأميركيين، المجموعة الوحيدة من غير الأقليات التي حصلت على تمثيل داخل الأقليات.

"أعلم أنه من الناحية المثالية، يجب حصر وضع الأقلية على الأميركيين من أصل أفريقي والأمريكيين الأصليين، أولئك الذين عرفوا تمييزاً تاريخياً. ما

أقاومه هو حقيقة أن جميع المهاجرين من خارج أوروبا باستثناءنا يعتبرون أقليات - الآسيويون، الأفارقة، والأمريكيون اللاتينيون، جميعهم يعتبرون من غير البيض ويمكنهم التنافس على قروض مخصصة للأميركيين الأفارقة. يتمتع الآسيويون الجنوبيون، الباكستانيون مثلاً - الذين تتقارب تجربتهم مع العرب اقتصادياً وجغرافياً - بوضع الأقلية. يمكن لباكستاني أميركي أن يتنافس في الحصول على قرض أعمال صغيرة، لأنه من آسيا، بينما ليس بمقدور الأميركي العراقي ذلك؟ "من الذي قرر أن العراق لا تقع في غرب آسيا؟" (كثيراً ما يشير المدافعون عن وضع الأقلية في الولايات المتحدة إلى أن الإحصاء الكندي يعتبر العرب، الأفغان والإيرانيين شعوباً تقع في "غرب آسيا"، ويصنفهم بالتالي على أنهم "أقلية مرئية").

ومضت قائلة: "لقد تغيرت تركيبة الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة بالمعنى الحرفي والمجازي، أصبح لدينا اليوم عدد أكبر من اللاجئين، لدينا المزيد من العرب المسلمين، وعرب كثر من السود. لديك العرب النوبيون والعرب السودانيون الذين يتم إحصاؤهم كبيض، وهذا يدل على غباء وجمود نظامنا للتصنيف العرقي. لو أنهم ولدوا هنا، سيكونون أميركيين من أصل أفريقي". ثم تقول بينما تسحب جدولاً يُظهر أرقاماً مفصلة من النموذج السلافي (موجود حالياً)، "لدينا تعريف متسع للعرب هنا في المعهد العربي الأمريكي - فنحن نُحصي الناس من جميع دول الجامعة العربية - الصوماليون، السودانيون، موريتانيا، جيبوتي، إريتريا وحتى جزر القمر. نحن نُحصي أناساً من الدول الأفريقية، الذين يكتبون أنهم "عرب" في خانة السلالة، أناساً يصنفون كـ "عرب" بينما تقع بلدانهم الأصلية خارج تعريف خريطة مكتب الإحصاء لشمال إفريقيا. أنا أدرك تماماً أن حوالي خمس الأشخاص الموجودين هنا من العالم العربي لا يُصنفون كعرب. العديد من المسيحيين العرب لا يريدون أن يوضعوا ضمن فئة العرب الأميركيين - مثل الكلدان، الموارنة، الآشوريين". ثم تطبع رسالة غاضبة تلقتها من القادة الموارنة في ديترويت بعد أن أشارت إلى المارونيين على أنهم عرب أميركيون على موقع المعهد. "تفكر عماتي بالطريقة نفسها - يتحدثن العربية، لكنهن لا يرغبن في تحديد أنفسهن مع المجتمع العربي".

لخص تاريخ عائلة هيلين بعض التغييرات التي حدثت في المجتمع العربي الأميركي خلال القرن الماضي. كان جدها، سلوم موكارزل، أحد أبرز القادة المارونيين في الجيب السوري الصغير الذي ظهر في مانهاتن السفلى في مفتتح القرن العشرين، وهو مؤسس "العالم السوري"، أول جريدة تصدر باللغة الإنجليزية في المجتمع العربي الأميركي. كانت المقالات الافتتاحية لموكارزل في صحيفة نيويورك حاسمة في إقناع الإحصاء برؤية السوريين

على أنهم قوقازيون وليسوا أتراكاً أو آسيويين. "طالب جيل جدي أن يُصنّف ضمن العرق الأبيض لأنها قضية بقاء، لكن الوضع السياسي اليوم مختلف تماماً". تستعد هيلين لتمرير الشعلة إلى جيل جديد. "سأقاعد"، تبتسم: "أتمنى لهؤلاء الأطفال كل الخير في العثور على حلفاء في هذه الحملات. لسنا المجموعة الوحيدة التي تواجه هذه التناقضات".

بعد أن حققوا نجاحاً طفيفاً مع مكتب الإحصاء أو وسط كبار مجتمعهم المحلي، حوّل النشطاء العرب والإيرانيون اهتمامهم صوب الحصول على وضع أقلية على المستويين المحلي والولائي. في أوائل عام 2009م، أطلقت عدة مجموعات طلابية في جامعة كاليفورنيا -إيرانيون، عرب، أفغان وأرمن- حملة لإضافة خانة "جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا" (SWANA)، مع مجموعات فرعية مختلفة، إلى طلب الالتحاق بجامعة كاليفورنيا، حتى لا يتم تعريفهم كـ "بيض / قوقازيين". لقد اختاروا عمداً فئة "جنوب غرب آسيا" بدلاً من "الشرق الأوسط"، التي رأوها علامة على تصنيف المركزية الأوروبية. تؤكد هذه الحملة أيضاً على الحاجة إلى الإحصاءات. قال غسان، وهو طالب سوري أمريكي في جامعة كاليفورنيا: "إذا لم يكن لدينا إحصائيات فكيف نعرف حتى ما إذا كنا ممثلين تمثيلاً ناقصاً؟ لكن الأهم الآن هو الخروج فوراً من خانة البيض". تم تصميم هذا الاختبار على غرار حملة "كاونت مي إن" التي نظمها ائتلاف منطقة المحيط الهادي الآسيوية، والتي نجحت في نوفمبر 2007م بشكل كامل في إدراج ثلاث وعشرين فئة عرقية ضمن طلب التحاق جامعة كاليفورنيا، بما في ذلك همونغ، باكستانيون، هاوايون، وسامويون. جاءت حملات الحرم الجامعي المعنية بوضع الأقلية أيضاً كرد على مراقبة الشرطة لروابط الطلاب المسلمين. لا تزال إدارة الجامعة تتداول في الموضوع، مدعية أن فئة جديدة للشرق الأوسط قد تؤدي إلى انخفاض مفاجئ في مقدمي الطلبات من البيض في إحصاءات التسجيل (حيث سيُصنّف هؤلاء الذين كانوا في الماضي من "البيض" ضمن فئة أخرى)، وبالتالي سيُحفّزون احتجاج الجناح اليميني.

تصدرت هذه الحملة الطلابية عناوين الصحف الوطنية بالفعل. وبعد وقت قصير من تفجيرات بوسطن، وبتاريخ أبريل 2013م، ووسط دعوات أعضاء الكونجرس لتنميط المسلمين وفرض قيود على تأشيرات الطلاب، بدأت حركة صندوق SWANA مرة أخرى. تكتب مريم جريفيين، وهي محامية وطالبة دكتوراه في جامعة كاليفورنيا في سانتا باربرا، تعمل على تقديم المشورة لهذه الحملة، "قد لا يكون لديهم الوسائل المباشرة للنجاح في تحدي الاعتداءات القانونية والثقافية الممارسة ضدهم، لكن مشروع خانة الفئة الجديدة يوفر لهم طريقة تعامل مع هامشيتهم وبناء تضامن سياسي عاجل".

حوّل المدافعون عن وضع الأقلية جهودهم الحالية من الضغط على الحكومة إلى بناء علاقات مع مجتمعات ملونة أخرى على المستوى القومي.

جنّ وعصائر

للمسلمين العرب والباكستانيين حضورٌ كبيرٌ في مدن أمريكا الداخلية بسبب تملكهم محطات الوقود والمتاجر، خاصة في مدن الوسط الغربي مثل ديترويت، وشيكاغو، ومينيابوليس. بدأ المهاجرون السوريون في إنشاء متاجر بقالة في ديترويت منذ أوائل القرن العشرين. ازدادت المتاجر المملوكة للسوريين والعراقيين بعد رحيل البيض عقب أعمال الشغب في المدينة في عام 1967م. وفي فترة ما في منتصف التسعينيات، كان الكلدانيون يمتلكون ما بين 80 إلى 90 في المائة من محطات الوقود ومحلات البقالة في مدينة ديترويت الكبرى - وهم جماعة من الكاثوليك العراقيين (الذين شُح لهم كمسيحيين ببيع المشروبات الكحولية في العراق، وجلبوا خبرتهم هذه إلى الولايات المتحدة). لكن مع تزايد هجرة المسلمين من العراق ولبنان إلى ديترويت، انتقلت المتاجر إلى أيدي رجال الأعمال المسلمين. ظهرت مجموعة من الدراسات السوسولوجية التي تحاول فهم ظاهرة "أقلية الوسيط"، حيث تخلق الأقلية المهاجرة باستخدام روابطها القومية قطاعاً في عمل معين (محلات البقالة، محطات الوقود، مطاعم الوجبات السريعة)، وبالتالي ينتهي الأمر بوقوفها بين أغلبية السكان الذين يهيمنون على الاقتصاد، وبين زبائنها غير البيض، الذين هم من أصل عرقي مختلف عن أصلها. ومع ذلك، فإن وجود مسلمين يبيعون الخمر في المدن الداخلية الأمريكية يجلب بعداً جديداً لهذه المسألة.

يحكي فيلم المخرجة رولا ناشف الحائز على جوائز، "ديترويت أونلايد"، قصة حب بين شابين يضطران لقضاء ساعات في محطات غاز يمتلكها والديهما، يُطلقان عليها "القفص". يجسد الفيلم ببراعة العلاقات المتوترة بين مالكي محطة الوقود المنحدرين من الشرق الأوسط وزبائنهم من أصل أفريقي. سوف يرى المالك في كل زبون تهديداً محتملاً بسبب وجود محطة الغاز في مناطق حضرية فقيرة وعالية الجريمة، وبالتالي يستخدم فتحة صغيرة في الكاونتر المصنوع من زجاج مضاد للرصاص، يتناول عبره البضائع ويتلقى الأموال. يرى سكان الجوار في الزجاج المضاد للرصاص رمزاً للفصل والمسافة التي يرغب رجال الأعمال المسلمين في وضعها بينهم وبين زبائنهم، بينما يرى أصحاب المتاجر أن الزجاج البالغ حجمه بوصتين هو سجن افتراضي يحتجزون فيه لساعات طويلة كل يوم. ليس في الفيلم أي أشار، فهو يصور إنسانية السود واللاتينيين الذين يعيشون في هذه الأجزاء

القاحلة من المدن، ويُظهر كيف أن التفاعلات اليومية بين أصحاب المحلات والزبائن تتم داخل الحدود العنصرية والتقييدية للغيثو، كما يلتقط الحالة العرقية البينية للعرب الأمريكيين الشباب. يكره الأطفال اللبنانيون والعراقيون العمل في محطات الوقود، لكن يتعين عليهم التوسط بين آبائهم والزبائن من أصل أفريقي ولا تيني. تقول ناشف: "أرى القفص كمجاز. فمحل بيع الخمر، حيث يجد هؤلاء الأطفال أنفسهم يعملون بموجب أوامر آبائهم، هو كناية عن الفجوة بين الأجيال، القيود المتعددة التي تواجه الشباب العربي وموقع المجتمع العربي في الوسط بين السود والبيض".

تحولت العلاقات المضطربة بين رجال الأعمال المهاجرين ومجتمعات الأغلبية السود واللاتينية من حولهم، إلى أعمال عنف في بعض الأحيان، مثلما حدث أثناء أعمال شغب لوس أنجلوس عام 1992م. لم يحدث هذا في ديترويت، ولكن هذا الموقف الذي يشعر فيه صاحب المتجر المسلم المهاجر أنه مهدد من قبل زبائنه، ويرى الزبائن في التاجر "مصاص دماء" يستولي على الثروة من مجتمعهم، أدى إلى توتر وأعمال عنف عشوائية.

يقول خالد بيضون، من مواليد مدينة ديربورن، وخريج ثانوية فوردسون، يعمل الآن أستاذاً في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس: "ليس من المستغرب أن تكون علاقة أصحاب المحلات مع المجتمع المحيط متوترة. لقد استقر اللاجئون من مناطق العراق الريفية في أجزاء متدهورة تماماً من ديربورن وديترويت. وفي الغالب يتحدث أصحاب المتجر لغة إنجليزية هشة، ولا يفهمون الفوارق العرقية الدقيقة. ومع الوضع في الاعتبار أن ديترويت مدينة حادة الفصل العرقي سنحصل على الوضع الحالي. إن التعامل مع مالك محطة الوقود أو مالك محل بيع الخمر أمر حاسم خلال بحث المسلمين الأمريكيين على موقع ضمن تحالفات الملونين".

يرى ناشطو وضع الأقلية -بعضهم من أبناء باعة المتاجر اليمنيين واللبنانيين- أن موقع "الأقلية الوسيطة" الاقتصادي لمالك المتجر هو بمثابة عقبة تحول دون حصول الأقلية العربية والإيرانية على وضع الأقلية أو حتى دعم المجتمعات الملونة. إن المكانة العرقية للمنحدرين من شمال أفريقيا والشرق الأوسط لم تكن نتاج التصنيف القانوني للمكتب الإحصائي فحسب، بل أيضاً تصور المجتمع لهم. ولضمان وضع الأقلية يتحتم الحصول على دعم الأمريكيين من أصل أفريقي ولا تيني، الذين سيوقعون على الالتماسات المقدمة إلى مكتب الإحصاء ومكتب الإدارة والميزانية. إلا أن وجود البقال المسلم المنخرط بدرجة شديدة الوضوح في ممارسة الاستغلال -إلى جانب التجار المهاجرين الآخرين- يعزز صورة المهاجرين المسلمين باعتبارهم

منعزلين استراتيجياً ويستغلون الأقليات الأخرى. يؤكد نشطاء وضع الأقلية -مثل رولا ناشف- على العلاقة بين دور الوسيط الذي يقوم به صاحب البقالة ومكانة الشرق الأوسط العرقية البين بين؛ بالتالي تكون العلاقة بين "القفص" وخانة "الأبيض" المُقيّدة الموجودة في استمارة التعداد أكثر من مجاز.

إن وجود ثُجار مسلمين يبيعون الخمر في المناطق الداخلية من المدينة، حيث توجد منظمات إسلامية أفرو-أمريكية قوية يولد أيضاً صراعات بين المسلمين. تقول مي الحسن، وهي طالبة دكتوراه في جامعة جنوب كاليفورنيا، وواحدة من النشطاء العاملين في هذه القضية في منطقة خليج سان فرانسيسكو، إن وجود رجال أعمال مسلمين يبيعون لحم الخنزير، الكحول والوجبات السريعة، يشكل تحدياً مباشراً لسلطة منظمات الأمريكيين الأفارقة التي شكّلت تاريخياً "حارس قيم المجتمع الأفرو-أمريكي والارتقاء الاجتماعي"، والتي وجدت نفسها في وضع غير مريح بسبب انتمائها الديني المشترك مع أصحاب متاجر الخمر المسلمين. أكدت الجماعات الإسلامية الأمريكية الأفريقية منذ ثلاثينيات القرن العشرين على الحياة الصحية والنظام الغذائي الحلال؛ ووفقاً لنشطاء الأغذية المحلية في منطقة خليج سان فرانسيسكو وديترويت، فإن وجود صاحب محل بيع الخمر قد ساهم في أزمة صحية، وأثر على العلاقات العرقية.

أطلق نشطاء "العدالة الغذائية" المسلمون حملة لتزويد أصحاب المتاجر الإسلامية بالحوافز المالية لترك تجارة الخمر أو التحول إلى المنتجات الخضراء. في شيكاغو، أطلقت شبكة عمل المسلمين بالمدن الداخلية (IMAN)، وهي مجموعة خدمات اجتماعية مقرها منطقة شيكاغو لاون، برنامجاً للعدالة الغذائية يُطلق عليه اسم (Muslim Run)، يهدف إلى تقديم الطعام الصحي إلى مجتمعات السود واللاتينيين على الجانب الجنوبي. استندت حملات "Muslim Run" الخضراء هذه بشكل صريح على مبادرات "أمة الإسلام" و"القوة السوداء" التي استغرقت عقوداً من الزمان بهدف تزويد الأحياء بأنشطة تجارية صغيرة، قدم الكثير منها طعاماً حلالاً صحياً. واستناداً على دراسات قامت بها جامعة شيكاغو عن "صحاري الطعام" -أي مقاطعات الجانب الجنوبي التي لا يُتاح لها إلا القليل من المنتجات الطازجة- سيقوم منظمو المجتمع من (IMAN) بجوب الشوارع، وإجراء مُسوحات حول أصحاب المتاجر الإسلامية وعملاتهم، ثم مساعدة الباعة في الحصول على أموال الولاية المخصصة للطعام الطازج. أطلقت منى ساحوري، وهي منظمة مجتمعية، مبادرة مماثلة في فلينت بولاية ميشيغان، وصاغت "مذكرة تفاهم" حول الطريقة التي يجب أن يتعامل بها تجار البقالة المهاجرون مع عملائهم. توجد تحالفات بين شباب أمريكي من أصول عربية، إيرانية،

باكستانية وأفريقية في طليعة هذه الحملات الهادفة "لري الصحاري الغذائية"، وجلب المنتجات الطازجة إلى المناطق الحضرية ذات الدخل المنخفض. يلعب الفن والموسيقى دوراً مهماً في هذه المبادرات. تم استخدام الموسيقى لبناء المجتمع وزيادة الوعي بالتاريخ الطويل للتفاعل بين الأمريكيين من أصول أفريقية والمهاجرين المسلمين، سواء كان ذلك من خلال عقد (IMAN) حفلة موسيقية في مسرح أبولو في هارلم، أو تنظيم (بيتس، ريزم أند ريليف) -وهي منظمة غير حكومية تأسست مؤخراً في واشنطن العاصمة- لحفلات موسيقية حية في الأحياء الفقيرة وتقديم وجبات الغداء وحقائب الكتب المجانية.

تكشف ائتلافات "الدين الأخضر" هذه أيضاً عن اختلافات كبيرة بين الأجيال. يعتقد النشطاء أن تقليص المسافة الاجتماعية بين أصحاب المتاجر المنحدرين من الشرق الأوسط وجيرانهم أمر حاسم لدمج المسلمين في المجتمعات الملونة؛ ويقول نشطاء وضع الأقلية إن إزالة الحدود العرقية على أرض الواقع يمكن أن يساعد في تغيير التصنيف العرقي لدى الإحصاء الفيدرالي. فقد كان أبائهم، الذين فروا من المجتمعات المحافظة ذات المعايير الاجتماعية الخائقة والأنظمة الاستبدادية، يحلمون في كثير من الأحيان بامتلاك مشروع تجاري صغير - بيع منتجات حلال أو غير حلال - لذا لا يستطيعون فهم الجهد الذي يبذله أطفالهم لفرض أعراف إسلامية في حي أمريكي. وعندما سُئل ياسر سلام عن سبب بيعه الكحول، قال لراديو شيكاغو العام: "إنه أمر قانوني. لكنه مُحَرَّم في ديني. وحسابه يوم القيامة". الإجابة الشائعة دائماً هي: "بيع الكحول ليس ضد القانون في أمريكا"، أو "هذه ليست دولة شريعة". علاوة على ذلك، يتساءل أصحاب المتاجر لماذا لا يواجهون حملات حلال مماثلة في أحياء اللاتينيين. من جهة أخرى، فإن إنفاذ القواعد الإسلامية بالنسبة للقيادات المسلمة من أصل أفريقي، بما في ذلك حظر استهلاك وبيع المشروبات الكحولية، هو أمر حاسم لجلب النظام والأمن إلى المناطق الحضرية الفقيرة، وإعادة تأهيل الشبان. وكما يقول الإمام زايد شاكر من معهد الزيتونة، الذي يقود حملة في أوكلاند- كاليفورنيا، "لماذا لا يمكننا ربط المعدلات المرتفعة لمحلات [الخمر] في المجتمع مع معدلات التسرب المدرسية العالية، معدلات إدمان المخدرات ومعدلات السّجن العالية؟".

هناك خلاف بين النشطاء الشباب حول الأسلوب الأفضل للتعامل مع أصحاب محلات بيع الخمر: يحذر المتحفظون أن حملات إحراج أصحاب المتاجر العرب والباكستانيين وحملهم على تبني مفاهيم الأخضر أو الحلال لا تنجح دائماً. (ينظم الشباب أحياناً احتجاجات أمام متاجر الخمر التي يملكها المسلمون حاملين لافتات كتب عليها "النبي وليس الربح"، ويرددون "1-2-3-

4، لا نريد متاجر الخمر!". علاوة على ذلك، فإن أي محاولة لفرض المعايير الإسلامية في مكان عام في مدينة أمريكية يمكن أن يلهب الرأي العام في جميع أنحاء البلاد. حدث هذا في أواخر عام 2006م، عندما استند سائقو سيارات الأجرة الصوماليون في مطار سانت بول الدولي في منيابوليس على مبدأ حرية الدين، ورفضوا اصطحاب ركاب يحملون الكحول. إن الاستراتيجية الأكثر فاعلية، كما يقول النشطاء، هي التأكيد على مساهمة الصحاري الغذائية في تدهور الصحة، بالإضافة لتقديم حوافز مالية لتغيير السلوك. ويبدو أن نشطاء العرق المسلمين من أصول مهاجرة -من ناشطي وضع الأقلية الأمريكيين من أصول إيرانية إلى الباكستانيين- الأمريكيين العاملين في مجال الإيكو-حلال- قد توصلوا إلى نتيجة مفادها أنه في مواجهة سياسات الدولة العقابية والعداء المنظم، فإن الاندماج السياسي للمسلمين الأمريكيين من المرجح أن يحدث عبر هوامش المجتمع الأمريكي.

قوة في الهوامش

نشر شيرمان جاكسون، الباحث القانوني في جامعة جنوب كاليفورنيا والشخصية البارزة في الإسلام الأمريكي، كتاباً بعنوان "الإسلام والسود" (156) في عام 2005م، وهو دراسة للسلطة الدينية في أمريكا، والعلاقات بين المسلمين الأفرو-أمريكان "الأصليين" والمسلمين "المهاجرين". جادل المؤلف أن "السود الأصليين" كانوا يهيمنون على الإسلام في أمريكا قبل عام 1965م، ولكن تدفق المسلمين من آسيا والشرق الأوسط عقب إلغاء قانون الأصول القومية أدى لتهميش المسلمين الأميركيين الأفارقة، لأنهم افتقروا إلى إجادة اللغة العربية أو التمكن من النصوص الكلاسيكية لقيادة المنظمات الإسلامية الأمريكية. علاوة على ذلك، يقول جاكسون، إن "الإسلام المهاجر" لم يفهم الظروف الخاصة للأميركيين الأفارقة، والأسباب التاريخية لاعتناقهم الجماعي للإسلام، والأشكال الهرطقية للإسلام التي ظهرت في الحضر الأمريكي. واختتم جاكسون بحض المسلمين الأميركيين من أصل أفريقي على تطوير إتقانهم للتقاليد السنية الكلاسيكية وبناء سلطتهم الدينية الخاصة.

كان لكتاب جاكسون صدى بين أفراد ما يُطلق عليه الجيل الثاني، لأنهم بدؤوا بطرح أسئلة حول العرق والانتماء في السنوات التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأيضاً بسبب حدوث تحوّل سياسي كبير وسط المسلمين الأمريكيين. كان معظم أصحاب المهن القادمين من جنوب آسيا والشرق الأوسط الذين وصلوا إلى أمريكا بعد عام 1965م من المحافظين اقتصادياً، وبمجرد أن أصبحوا مواطنين، ظهروا كقاعدة موثوق بها للحزب الجمهوري.

فقد صوّت المسلمون الأميركيون المهاجرون بأغلبية ساحقة للحزب الجمهوري حتى عام 2004م، فقد حدث حينها تقارب سياسي بينهم والمسلمين الأفرو-أميركيين الذين صوتوا لصالح الديمقراطيين لعقود. إن سياسات الحزب الجمهوري المؤيدة لقطاع الأعمال والتأكيد على القيم العائلية، وموقف الرئيس بوش الأكبر المتشدد (نسبياً) تجاه سياسة إسرائيل الاستيطانية في عام 1992م جعلت ترشيح بوش الأصغر عام 2000م جذاباً للعديد من الأميركيين من أصل عربي وباكستاني. لكن قانون باتريوت وغزو العراق، من بين سياسات أخرى قدمها بوش، ستؤدي في عام 2004م إلى دفع المسلمين الأميركيين بشكل جماعي نحو الحزب الديمقراطي. صوت 90% من مسلمي البلاد لأوباما في عام 2008م (على الرغم من أن حملته أبعثت المسلمين على مبعدة منه)، وبحلول الوقت الذي اندلعت فيه حملات مناهضة المساجد والشريعة عام 2010م، كانت هجرة المسلمين الأميركيين من الحزب الجمهوري قد أوشكت على الاكتمال.

لكن إضافة إلى التحول في الصوت الانتخابي، فقد لاح تحول عرقي آخر في الأفق، حيث شكك الناشطون الأصغر سنّاً في قدرة الحزب الديمقراطي على تحقيق وعوده، زاعمين أن دمج المسلمين في المجتمع الأمريكي من المرجح أن يحدث من خلال القناة الخلفية لحركة الحقوق المدنية. وجادلوا أن العرق ليس مجرد فئة قانونية، بل أداة سياسية للتمكين، وموقع للنضال، وأن النشاط في أحياء الأقليات يمكن أن يجلب نوعاً من الانتماء والحماية السياسية. في إحدى أكثر فقرات كتاب شيرمان جاكسون إثارة، يقول: "إنه لم يحدث تجمع وحصر جماعي للمسلمين من الأفرو-أميركيين -يطلق عليهم جاكسون "الأمريكيون السود"- بعد الحادي عشر من سبتمبر مثلما حدث مع المسلمين "المهاجرين"، لأن "السود الأمريكي يُضفي على المسلمين طبقة عازلة تتعدى التعديل الأول". ويضيف جاكسون: "ومع ذلك، فإن هذه الطبقة العازلة تُمنح لهم طالما ينظر الأمريكيون السود إلى أنفسهم على أنهم يحتضنون -وبالتأكيد لا يعارضون- النظام الدستوري الأمريكي. وفي اللحظة التي يتوقفون فيها، على أساس الإسلام أو أي مصدر آخر، عن تحديد أنفسهم مع هذا الأمر، حينها لن يكون السود الأمريكي مصدرًا لمزيد من الطبقة العازلة للأمريكيين السود المسلمين". ليس من الواضح من أين تأتي "الطبقة العازلة الإضافية" الخاصة بالمسلمين من الأفرو-أميركيين، هل بسبب "عدم أهليتهم" أو من ولائهم للنظام الدستوري؛ لكن ما جذب المسلمين الشباب بعد الحادي عشر من سبتمبر إلى الإسلام الأفرو-أميركي والسياسة السوداء على نطاق أوسع هو بالضبط هذه "الطبقة العازلة الإضافية" التي يمكن أن يوفرها؛ وكذلك الاعتقاد بأنه مع فشل حماية الدولة، وبزوغ الحركات القومية

البيضاء، فإن الانضمام إلى تحالفات الحقوق المدنية والحصول على القبول وسط الحركات السوداء يمكن أن يجلب المزيد من الحرية.

ومع ذلك، فإن الأسئلة التي تواجه النشطاء المسلمين الأميركيين الشباب -مثل نظرائهم في كل مكان- هي كيفية تحقيق التوازن بين الولاء "للنظام الدستوري الأمريكي" وبين نقد الإمبراطورية، وما هو التوازن والمقايضة اللازمة بين الوطنية والتضامن الإسلامي العالمي. ينجذب الشباب المسلم إلى الإسلام الأفرو-أمريكي بسبب الروابط التي يوجدها بين المجتمع المحلي والعالم، وكذلك تضامن نوبل درو علي ومالكوم إكس مع المضطهدين في جميع أنحاء العالم، وهو عالم شامل يستهوي الشباب الأمريكي مع أقاربه في كشمير، الصومال، وغزة. وهنا كان جاكسون يجادل بأن الحقوق جاءت من خلال التماثل الدقيق مع الدولة القومية، ونصح الشباب المسلم بـ "احتضان أمريكا" وعدم الحكم على البلاد بسياساتها الخارجية. إذن، كيف يمكن -أو يجب- التحدث عن العرق والسياسة الخارجية؟ يدرك النشطاء الخضر ونشطاء وضع الأقلية الذين يجولون شوارع أوكلاند، واشنطن، شيكاغو، بروكلين وديترويت، أنهم يخوضون في علاقات محلية (بين "السكان الأصليين" و"المهاجرين") الذين لديهم تاريخ عابر للحدود من خلفهم، وبالتالي ينقسمون حول هذا السؤال. من ناحية، هناك نشطاء العرق الذين يريدون إحياء التضامن والتاريخ المناهض للإمبريالية في الستينيات. ومن جهة أخرى، هناك من يعتقدون أن نزعة قومية محلية قائمة على الدولة هي أكثر الطرق فعالية لحماية حقوق المسلمين الأميركيين. هذه المشاحنات في وسط المسلمين الأميركيين، بين أصحاب النزعتين "الدولانية" و"الأممية"، تتجسد وتبنى على النقاش داخل حركة الحقوق المدنية خلال السنوات الأولى للحرب الباردة بين القادة الأميركيين الأفارقة الذين أرادوا ربط المستنقع العنصري في البلاد بعملية إنهاء الاستعمار، وأولئك الذين حددوا وضع الأفرو-أمريكان كمسألة داخلية. كانت هناك شخصيات مثل بول روبسون، دو بوا ومالكوم إكس، الذين رأوا أن نضال الحقوق المدنية، كما قال مارتن لوثر كينغ في خطابه في ريفرسايد في أبريل 1967م، قد مضى إلى "تجاوز الولاء الوطني". في هذا السياق، ناشد مالكوم إكس الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية التي أنشئت حديثاً لحماية حقوق السود. وعلى الجانب الآخر كان هناك قادة مثل الدبلوماسي رالف بانش، بايارد روستين وآدم كلايتون باول، الذين ظنوا أن الأممية الراديكالية لأمة الإسلام، الفهود السود، ومالكوم إكس قد أعاقت نضال الحقوق المدنية. وقد كان روستن غير راضٍ عن الطريقة التي انتقد بها بول روبسون الولايات المتحدة أثناء وجوده في أوروبا، وقال: "هناك نوع من القواعد غير المكتوبة أنه في حال رغبت في

انتقاد الولايات المتحدة، فإنك تفعل ذلك داخل الوطن ... علينا أن نثبت أننا وطنيون".

تجري هذه المناظرات الآن وسط النشاط المسلمين من أصحاب التوجهات الأكثر دولانية، ويجادلون أنه بالنظر إلى ممارسات وقوانين المراقبة مثل "الدعم المادي" الذي يعاقب كل من يتحدث منتقداً السياسة الخارجية الأمريكية، فإن أفضل استراتيجية سياسية هي من نوع النشاط في قضايا اللامساواة العرقية. فمن خلال تبني العرق، يمكن أن يصبح "المهاجر" المسلم "أصلياً". وسوف يلاحظ هؤلاء المسلمون الأمريكيون من أصحاب النزعة الدولانية أن وطنية بايارد روستين وآدم كلايتون باول الاستراتيجية، والصبر على بناء ائتلافات هي التي تمكنت من انتزاع تنازلات مهمة في السياسة. بينما لا تقود المواقف الراديكالية في قضايا السياسة الخارجية سوى إلى إبعاد الحلفاء، وتلقي بظلال الشك على وطنية الجماعة. كما يجادلون بأنه من خلال التخطيط السياسي المحلي الحذر، وبناء تحالفات مع منظمات الشيخ والهندوس، تمكنت اللجنة العربية لمناهضة التمييز، في يونيو 2013م، من إقناع وزارة العدل بالاعتراف بالعرب كعرق متميز، بدلاً من اعتبارهم بيضا، وذلك في استمارة مكتب التحقيقات الفيدرالي الخاص رقم (699-1) الخاص بجرائم الكراهية. مشيرين إلى أنه بعد الارتفاع الكبير في جرائم الكراهية بعد تفجير بوسطن، وافقت وزارة العدل على إدراج العرب كعرق منفصل، متجاوزة المعارضة الشديدة لمكتب الإدارة والموازنة، التي أرادت من مكتب التحقيقات الفيدرالي استخدام فئات التعداد السكاني نفسه.

يجادل منتقدو النزعة الدولانية بأن ليس من واجب كل الكلام أو النشاط أن يكون موجهاً نحو السياسة العامة أو الدولة؛ قول الحقيقة له هدف أعلى، ويجب أن يتمتع المسلمون بحرية التعبير نفسها التي لدى الأمريكيين الآخرين. القضية هي ما إذا كان الحديث عن السياسة الخارجية يثير أيضاً قضايا لاهوتية معقدة للنشطاء المسلمين. يجادل النشطاء ذوو العقيدة الدينية، على وجه الخصوص، بأنه من واجب المسلم أن يرفع صوته ضد الظلم، خاصة عندما يتعرض المسلمون للهجوم. علاوة على ذلك، يجادل الأمميون الراديكاليون، بطريقة أخرى، أنه بغض النظر عن التجديد الحضري، يجب تذكير الناس بالصلات التي تربط حركة الحقوق المدنية والصراعات المعادية للاستعمار، من أجل دمج المسلمين في تحالفات الملونين للناس وتجسير المسافة بين مجتمعات "المهاجرين" والأفرو-أمريكيين. لكن هذه الجهود لتعبئة تاريخ الستينيات تثير الاحتقان كذلك. لأن كثيراً من الأمريكيين لا يريدون أن يتم تذكيرهم بالقوميين السود أو راديكاليي العالم الثالث. فقد يؤدي الحديث المناهض للإمبريالية إلى عزل حلفاء محليين

مهمين. ستتخذ بعض المنظمات - مثل القيادة الجماعية للأمريكيين من جنوب آسيا (SAALT) وائتلاف الشيخ - موقفاً وسطاً، يتحدثون عن العرق، لكنهم لا يمسون السياسة الخارجية.

يُمكن القيادة الأميركية المسلمة الأكبر سناً أن تفهم التحول السياسي بعيداً عن الحزب الجمهوري، ولكن ليس سياسة الهوية القائمة على العرق، أو الجهود الرامية إلى "إثارة" الستينيات. أدت ثورات عام 2011م، والاضطرابات في مصر، العراق وسوريا، والهجرة الخارجية اللاحقة لعشرات الآلاف من المسيحيين العرب من الشرق الأوسط إلى جعل الجيل الأكبر سناً أكثر تشككاً في حملة وضع الأقليات التي يقودها المسلمون في أوساط المجتمع العربي الأمريكي؛ شعرت العائلات المسيحية العربية الأكثر اندماجاً (التي تشكل العمود الفقري لمنظمات مثل المعهد العربي الأمريكي) بأن التحريض العرقي لن يؤدي إلا إلى إبعاد المتعاطفين مع المسيحيين العرب في الولايات المتحدة. لكن هناك مؤسسات أخرى، مثل المتحف العربي الأمريكي، استجابت بهدوء للتحولات الديموغرافية ومطالب الجيل الأصغر. يبدأ المعرض الرئيس للمتحف، الذي يقع في ديربورن، قصته العربية الأمريكية بالعبيد المسلمين القادمين من غرب أفريقيا، مثل عمر بن سعيد من ولاية كارولينا الشمالية، الذي كتب سرداً باللغة العربية؛ كما يسلط الضوء على العمل السياسي للناشطة الحقوقية علياء حسن، التي عملت مع مالكوم إكس؛ ويختتم بقسم يحمل عنوان "المجتمعات البادئة"، يسلط فيه الضوء على أحدث الوافدين العرب، السودانيين والصوماليين، الذين جاؤوا بأعداد أكبر منذ منتصف التسعينيات.

برزت حملات حول مسألة أمن البيانات، والتساؤل عن الفئات العرقية والخرائط التي تُعزّز استثمارات التعدادات الوطنية خارج الولايات المتحدة أيضاً. دعا النشطاء لمقاطعة التعداد الوطني في كندا في عام 2006م، عندما قررت الحكومة الاستعانة بمصادر خارجية (شركة لوكهيد مارتن) لمعالجة البيانات. كان المتظاهرون في كندا، وكذلك في المملكة المتحدة (حيث قام مكتب الإحصاء الوطني أيضاً بتوظيف شركة لوكهيد مارتن) يخشون من أن تقوم شركات الأسلحة الأمريكية - ملزمة بقانون باتريوت - بمشاركة البيانات مع وزارة الأمن الوطني. زادت هذه الشكوك بعد يونيو 2013م، حيث كُشف أن الولايات المتحدة، بريطانيا، كندا، أستراليا ونيوزيلندا، قد قاموا بتشكيل برنامج للمراقبة يسمى "تحالف العيون الخمسة"، حيث تبادلت وكالات تجسس مختلفة كميات هائلة من البيانات الوصفية (meta-data).

يناقش المسؤولون الحكوميون الأوروبيون كيفية الاستجابة للنشاط الذي يدور حول التعدادات، وكيفية إحصاء مجتمعاتهم الإسلامية المتنامية وتصنيفها. أطلقت الرابطة الوطنية للعرب البريطانيين في السنوات الأخيرة حملة ترفض وضعهم في فئة "البعض"، مستشهدة بالأسباب المألوفة التي مفادها أن "استبعادهم من الإحصاءات الرسمية" يجعل من الصعب تعقب حوادث التنميط والمضايقة، ومنادية كذلك بضم المجتمعات الممثلة تمثيلاً ضعيفاً مثل الصوماليين والسودانيين. ودعوا كذلك إلى وضع صندوق منفصل - وعلى عكس نظرائهم الأمريكيين، تمكنوا من ضمان "صندوق علامات" في الوقت المناسب قبل تعداد 2011م. إذا كان العرب البريطانيون يحتجون على "البياض الإلزامي"، فإن النشطاء والباحثين من جنوب آسيا طالما جادلوا بأن الإحصاء البريطاني متركز بشدة حول العرق؛ وجادلوا بأن البريطانيين الذين تلقوا تعليمهم في أمريكا استوردوا ثنائية أبيض/أسود في منتصف 1960م، جنباً إلى جنب مع مختلف قوانين المساواة العرقية، وأنتجوا نظام تصنيف لا يتصور تمييزاً لا يستند إلى اللون. وفي التسعينيات، جادل الناشطون الباكستانيون والبنغلاديش أنه تم وضعهم في "المكان الخطأ" ضمن فئات العرق، لأنهم كانوا يواجهون التمييز على أسس دينية. وفي يوليو 2000م، أصدر البرلمان البريطاني قانون تعديل التعداد، مما سمح "بسؤال الدين" في تعداد عام 2001م؛ بحيث يمكن للناس الإشارة إلى هويتهم الدينية في الاستبيان، وأخيراً أصبحت هناك إحصاءات رسمية متوفرة عن المجتمعات الدينية في بريطانيا.

كان الجدل حول وضع الأقليات حاداً بشكل خاص في فرنسا، حيث يحظر القانون المعلومات الإحصائية العرقية والدينية. إذا كان التعداد الأمريكي يسأل عن البيانات العرقية والإثنية، وليس الدين، فإن التعداد الفرنسي يحظر السؤال عن الثلاثة. يأتي الرد على النشطاء الأفارقة، العرب والفجر، الذين يطالبون الجمهورية بتحقيق هذا القانون، وإدخال "فئات ما بعد الاستعمار" على التعداد، والبدء في جمع الإحصائيات العرقية والإثنية، لمراقبة التمييز والتنميط بشكل أفضل، والسماح للأقليات ببناء الدعم من أجل التمييز الإيجابي، بأن هذا العد يتعارض مع الأيديولوجية الفرنسية المتجاهلة للون، وأن هذا سيؤدي إلى الطائفية، وسياسة هوية مثيرة للشقاق على الطريقة الأميركية. وقد أدت جهود السفارة الأمريكية في باريس لتعزيز الإحصائيات الإثنية إلى إثارة الرأي الفرنسي، خاصة بعدما جلبت النشطاء المسلمين الفرنسيين إلى واشنطن من أجل ورش عمل مع خبراء مكتب الإحصاء. وأدت إلى قيام الرئيس فرانسوا هولاند، في مايو 2013م، بحظر مصطلح "العرق" بالكامل من الدستور الفرنسي وقوانين البلاد، قائلاً أن ليس له أساس علمي. تجذب حملات وضع الأقلية في جميع أنحاء أوروبا معارضة مجتمعات

بأسرها. فعندما قال المسلمون الدنماركيون، في ذروة الجدل حول الرسوم الكاريكاتورية، إنهم كأقلية يجب أن يحميهم القانون من خطاب الكراهية، ذكر نقادهم أن المسلمين ليسوا أقلية، بل جزء من "أغلبية عالمية".

يخلق التحدي المتمثل في كيفية تعداد وتسمية المجتمعات الإسلامية في أوروبا وأمريكا الشمالية انقسامات سياسية داخل هذه المجتمعات. في الجذر هو اختلاف جوهرى حول كيفية الرد على العداء المنظم؛ فالمدافعون الشباب يدعون أن العرق يوطر القضايا السياسية ويحدد تخصيص الموارد، وأنه يجب على المسلمين أن يحتشدوا بناءً على ذلك؛ أما شيوخهم فيخشون من عواقب التحريض العرقي، ويشاركونهم في هذا المهاجرون الجدد، لذا يفضلون الاندماج مع الأغلبية، وبسبب عدم رغبتهم في أن يتم عدّهم أو وصفهم أو تصنيفهم.

الفصل التاسع

الضواحي الأمريكية

دعا بيل أوراييلي (157) الصحفية البريطانية إيموجين لويد ويبر إلى برنامجها "عامل أوراييلي" في مايو 2010م، لمناقشة قانون حظر النقاب في فرنسا. عارض رايلي استشهاد لويد ويبر بتقاليد فرنسا العلمانية كسبب للقانون، قائلاً إن السبب الحقيقي هو الخوف من (غيتوات المسلمين). "إن الفرنسيين قلقون للغاية من غيتوات المسلمين، خاصة خارج باريس؛ حيث يأتي المسلمون إلى فرنسا - وهم يفعلون ذلك في إنجلترا أيضاً - ولا يندمجون في المجتمع". تابع: "الشيء نفسه يحدث في لندن. توجد أحياء مسلمة تماماً في لندن، يتحدث سكانها العربية. وحين تتواجد في تلك الأحياء، تحسبن أنك في الكويت ولست في إنجلترا". بدت لويد ويبر مرتبكة، "لا أستطيع التفكير في أحد تلك الأحياء في لندن". قال أوراييلي، "حي كلافام!". ردت لويد ويبر، "حي كلافام مليء بأغنياء يدفعون عربات أطفالهم!" تجمد أوراييلي، "بولنديين؟" (158).

لا يحب الأوروبيون أن يتحدث الأمريكيون - علماء، دبلوماسيون ومذيعو فوكس نيوز- عن "الغيتوات" في القارة القديمة. الغيتوات هي شيء من الماضي بالنسبة للمحافظين في أوروبا، بينما مسألة "العرق" هي هوس أمريكي. في المقابل، غضب المثقفون اليساريون من الأحاديث الأمريكية حول فشل أوروبا في دمج مسلميها، بينما السياسة الخارجية للولايات المتحدة هي التي تشعل الرأي العام الإسلامي؛ واستأؤوا بشكل خاص من جهود قرض "أوهام العرق" (159). الأمريكية على أوروبا. يرفض لويد فاكون (160) -عالم اجتماع فرنسي يعمل في بيركلي- في كتابه "منبؤي الحضر"، هذه المقارنات السهلة عبر الأطلسي، مشيراً إلى أن الضواحي الفرنسية -وغيرها من الأماكن الحضرية في أوروبا الغربية- دمرت بسبب انسحاب الدولة وانهيار الأحزاب الشيوعية، ولكن تنوعها الاثنى وكثافتها المؤسسية، لا تشبه الغيتو الأمريكي، بمستوى الفصل العنصري داخله وانعدام الأمن المادي. مع ذلك، فقد كانت الحكومة الأمريكية قلقة من أن عزل المسلمين الأوروبيين سيؤدي إلى إضعاف الحلفاء الأوروبيين منذ أحداث الشغب الفرنسية عام 2005م. يتدخل الدبلوماسيون والعلماء الأمريكيون بطرق عديدة، ويحثون الدول الأوروبية على تبني سياسات العرق والأمن الأمريكية، وتمويل المنظمات الإسلامية، وإجراء دراسات حول الإسلام

"المعتدل"، والتشفع في الحروب الثقافية بين الفنانين المسلمين وحكوماتهم، بطرق أخرجت المسؤولين الأوروبيين وقسمت آراء المسلمين.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تحاول فيها الدبلوماسية الأمريكية أن تحظى بقبول لدى المسلمين في أوروبا. فقد بُث راديو ليبرتي وإذاعة أوروبا الحرة في ميونيخ خلف الستار الحديدي خلال الحرب الباردة، لاسترضاء مسلمي القوقاز وآسيا الوسطى، الذين أغضبهم الاحتلال السوفياتي. وجهت تلك الجهود الدبلوماسية نحو الاتحاد السوفياتي لأنه كان دولة معادية. إلا أن المبادرات الحالية تستهدف المسلمين في أوروبا الغربية، وهذا أمر جديد. تتمتع الدول الغربية بسجل طويل من التدخل في الأجزاء الإسلامية من أفريقيا وآسيا، لحماية وتمكين الأقليات الدينية. قام الفرنسيون في القرن التاسع عشر بإيواء الموارنة (161)، وساند الروس المسيحيين الأرثوذكس، وتودد المبشرون الأمريكيون للدروز في سوريا. لكن أحد أسباب محاولة القوى العظمى حماية هذه الأقليات الدينية هو توسيع نفوذها في المنطقة. وتستمر هذه الممارسة بأشكال مختلفة حتى يومنا هذا. لكن من غير المسبوق بالنسبة للدول الغربية الحليفة، أن تحاول إحداها التودد لأقليات أخرى. مع ذلك، تنفق الولايات المتحدة ملايين الدولارات لكسب قلوب وعقول المجتمعات المسلمة الأوروبية الساخطة، والتي تتضارب غالباً مع جهود التواصل المحلية الخاصة بالدول الأوروبية.

ليست السفارات الأمريكية وحدها من تتبع استراتيجيات التواصل مع المسلمين. تراقب المملكة العربية السعودية، إيران، تركيا، باكستان ومجموعة من الدول العربية، مهاجريها في أوروبا، تروج بقوة لتفسيرها للإسلام، وتحاول كسب تأييد السكان المسلمين في أوروبا. تدار اللعبة الكبرى للقرن الواحد والعشرين -وهي الصراعات الأيديولوجية والجيوسياسية، التي تتمحور حول أفريقيا ما بعد الاستعمار والشرق الأوسط- بشكل متزايد بأحياء المهاجرين في أوروبا، وقد دُفِعَ النشطاء المسلمون الشباب وقادة المجتمع للقيام بموازنات دبلوماسية حساسة.

إدارة التنوع

أكثر البرقيات الدبلوماسية المسربة للولايات المتحدة الأمريكية (162)، التي أثارت غضب معظم العواصم الأوروبية، هي تلك التي انتقد فيها الدبلوماسيون الأمريكيون، الحلفاء -فرنسا، بريطانيا وهولندا- لسوء معاملتهم لأقلياتهم المسلمة. أظهرت البرقيات، التي صدرت في أواخر ديسمبر 2010م، أن الدبلوماسيين الأمريكيين لم يتأثروا عموماً بالجهود

الأوروبية لمحاربة هذا "التهديد الجديد"، وكشفوا أن السفارات الأمريكية كانت تمول جماعات إسلامية متواجدة في مختلف المدن الأوروبية. بعثت السفارة الأمريكية بلندن برقية إلى واشنطن في أغسطس 2006م، تفيد بأن "تقدماً طفيفاً" قد تحقق في محاربة التطرف، وحذرت من تزايد التوترات بين الجالية المسلمة والحكومة. أكدت تقارير المتابعة أنه بينما شكل المسلمون 3 إلى 4 بالمائة فقط من سكان بريطانيا، فإن الوصول إلى هذا الجمهور كان أمراً حيوياً لمصالح الولايات المتحدة. أنشأت السفارة الأمريكية بعدها، مشروعاً بعنوان "عكس الراديكالية"، يركز على الشباب "المعرضين للخطر"، للمساعدة في "رفع مستوى الحوار حول التطرف، وتعزيز التفاهم بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية في بريطانيا".

نظمت السفارة الأنشطة الثقافية، بما في ذلك مهرجان رمضان -الذي عقدته السفارة الأمريكية في أمستردام لأول مرة- لإلقاء الضوء على تنوع المسلمين البريطانيين، ودعت إليه مختلف الفنانين المسلمين الأمريكيين. وشددت البرقيات على أهمية عروضهم. تشير إحدى البرقيات إلى أن: "الرسالة التي ستبعثها العروض -أنهم فخورون بكونهم "أمريكيين" و"مسلمين"- رسالة قوية، من شأنها أن تفتح عيون المسلمين البريطانيين على التنوع الثقافي والديني الأمريكي، وتشجع كذلك الجالية المسلمة البريطانية للتفكير في اتجاه إيجابي وذاتي". تشرح البرقية لماذا يجب دعوة الفرقة الكوميديّة "الله جعلني مضحكاً"، والتي مقرها الولايات المتحدة، فقد قال أحد الضباط إن "رسائلها الإيجابية" ستصل، على الأرجح، إلى "الآلاف من المسلمين البريطانيين، بما في ذلك عدد السكان الشباب المتزايد بشكل غير متناسب". تم عرض اندماج المسلمين الأميركيين -المتناقض مع فصل المسلمين في أوروبا- كدليل على أن أمريكا ليست في حالة حرب مع الإسلام.

تصف برقيات لندن، أيضاً، الجهود التي تبذلها السفارة للوصول إلى المجتمعات الإسلامية "المعتدلة"، والتي "تفتقر إلى البنية التحتية المؤسسية للتعبئة النشطة ضد التأثيرات الراديكالية". إلا أنه لا يوجد اتفاق جماعي على ما تعنيه كلمة "معتدلة". لم تكن الصحافة البريطانية راضية عن "الحملة السرية" التي تقوم بها السفارة لإبعاد المسلمين البريطانيين عنهم، خاصة مع وصول السفارة إلى المساجد التي تعتبر "متطرفة" في بريطانيا، مثل مسجد فينسبري بارك في شمال لندن، والذي يتردد عليه "الخاطف رقم عشرين" (163). زكريا الموسوي، و"مفجر الحذاء" (164) ريتشارد ريد. واجه السفير لويس سوسمان في ديسمبر 2010م، انتقادات البريطانيين المحافظين، والمسلمين البريطانيين العلمانيين، لزيارته -وتعبيره عن "إعجابه الكبير" بمسجد شرق لندن- الذي يُزعم أنه استضاف رجل الدين الأمريكي المتشدد

أنور العولقي قبل بضع سنوات- ودعوته الشباب للمشاركة في الرحلات التي تمولها السفارة إلى الولايات المتحدة. تصف الاستطلاعات حول السفارة الأمريكية في أمستردام، حالة مماثلة من الاستياء من قبل المسؤولين الهولنديين، وكذلك، قلق الزعماء الهولنديين المسلمين من أن برامج التوعية الخاصة بالسفارة تعتبر المسلمين الأوروبيين "مشكلة جمعية"، وتدمج التكامل مع مكافحة الإرهاب.

ربما ليس من المستغرب أن أنشطة وزارة الخارجية قد أثارت أكبر قدر من الغضب في فرنسا. فالبرقيات الواردة من باريس كانت صريحة في تقييمها: "الفرنسيون لديهم مشكلة معروفة جيداً مع التمييز ضد الأقليات". بعض البرقيات تبدو وكأنها تصف فترة ما قبل الحقوق المدنية في أمريكا: "لا تزال وسائل الإعلام الفرنسية بيضاء بشكل ساحق... من بين المؤسسات التعليمية الخاصة بالنخبة الفرنسية، نعرف فقط أن جامعة العلوم قد اتخذت خطوات جادة للإدماج". تزعم المراسلات أن النهج الفرنسي في الإدماج لم ينجح، بسبب "العمى الرسمي لجميع الاختلافات العرقية". "وكون المؤسسات" غير مرنة بما فيه الكفاية"، وغير قادرة على عكس الأمزجة المتغيرة في البلاد. والخوف ليس فقط أن المسلمين الفرنسيين الشباب سينجذبون نحو التطرف -فواشنطن تأخذ على محمل الجد التهديد العالمي المحتمل من الأقليات المحرومة في فرنسا- ولكن هذا الصراع العرقي سيضعف فرنسا. وتحذر برقيات أخرى أنه إذا لم تنجح فرنسا، على المدى الطويل، في منح الأقليات تمثيلاً سياسياً حقيقياً، "فإنها قد تصبح أضعف وأكثر انقساماً وربما تنجرف نحو الأزمات... وتصبح حليفاً أقل فعالية نتيجة لذلك".

اعترف موظفو السفارة الأمريكية بإحجام فرنسا عن قبول النموذج الأمريكي للتكامل أو "الشراكة" مع السفارة، لكن البرقيات تصف العديد من مشاريع التوعية، والتي تشمل برامج التبادل، المهرجانات، المؤتمرات والظهور الإعلامي، لزيادة الوعي بين ممثلي الدولة والمجتمع حول حركة الحقوق المدنية الأمريكية (165). ("مشاركة خبراتنا الأمريكية في إدارة التنوع"). من خلال هذه الجهود، وبالضغط على الحكومة الفرنسية، والمنظمات غير الحكومية، لتحسين أوضاع المسلمين الفرنسيين، حاولت السفارة تغيير المفاهيم الإسلامية الفرنسية عن الولايات المتحدة، لإظهار احترام أمريكا للإسلام، و "أنها تعمل من أجل الخير في العالم العربي الإسلامي". يهدف التواصل الذي تقوم به السفارة إلى شرح كيفية إدارة أمريكا للتنوع، ومساعدة فرنسا على الارتقاء إلى مبادئها حول المساواة. "وبينما من غير المحتمل أن تكون المساعدة الإنمائية المباشرة متاحة في فرنسا"، تشير إحدى البرقيات إلى أنه يجب أن تتوفر الأموال "لمعالجة عواقب التمييز

وإقصاء الأقليات في فرنسا"، من خلال برامج التبادل، المنح والتدخل الإعلامي. وتؤكد البرقية أنه بالنظر إلى الصورة الذاتية لفرنسا، "سيطلب هذا الجهد قدراً كبيراً من السلطة التقديرية، الحساسية واللباقة من جانبنا".

لم تلق هذه التصورات حول فرنسا كبلد متحامل، يحتاج إلى مساعدة ووصاية أميركية، ترحيباً حسناً. لطالما اعتبرت فرنسا نفسها محصنة ضد السياسات العنصرية على الطريقة الأميركية، حيث افتخرت دائماً بتوفير ملجأ للأمريكيين من أصل أفريقي، والفارين من التمييز منذ أواخر القرن التاسع عشر. كتبت البرقية التي أثارت أكثر ردود فعل المسؤولين الفرنسيين سخطاً بواسطة السفير كريغ ستابلتون، في ذروة الاضطرابات المدنية الباريسية، في نوفمبر 2005م، "المشكلة الحقيقية هي فشل فرنسا المسيحية البيضاء في رؤية مواطنيها ذوي البشرة الداكنة، والمواطنين المسلمين، كمواطنين لهم حقوقهم الخاصة". سخر رئيس الوزراء السابق دومينيك دوفيلبان من هذه البرقية في برنامج تلفزيوني قائلاً، "هذه [البرقية] تظهر حدود الدبلوماسية الأمريكية". وأضاف أن الدبلوماسيين الأمريكيين قرؤوا الأزمة الحضرية بشكل خاطئ، من خلال تاريخهم الخاص، ورأوا الأزمة الحضرية في فرنسا من خلال منظور ديني. في المقابل، أبدت وسائل الإعلام الفرنسية سخطها لدى اكتشاف أن الولايات المتحدة كانت منخرطة، بشكل عميق، في عملية التكامل منذ عام 2003م، وقد عمدت على تحويل الخطاب الإعلامي، لجعل القادة الفرنسيين يعيدون التفكير في مفاهيمهم، و"أطروهم الفكرية"، المتعلقة بالأقليات، لتوليد مناقشة عامة حول العمل الإيجابي، التعددية الثقافية والهوية الواصلة. ولإصلاح مناهج التاريخ الفرنسية، وتشجيع المتاحف الفرنسية لعرض مساهمات الأقليات. كما لاحظ الصحفيون الفرنسيون أن لهذه المبادرات الثقافية سوابق في الحرب الباردة.

حرب ثقافية على الإرهاب

خلال السنوات الأولى من الحرب الباردة، بدأت كل من القوتين العظميين، استخدام الإسلام كسلاح سياسي. فإن كان السوفييات يسلطون الضوء على الصراع العنصري في الجنوب الأمريكي لأغراض الدعاية، فإن إدارة أيزنهاور كانت تتطلع إلى "القوى الإسلامية المستضعفة" في موسكو، ورأت محنة المسلمين في أراضي آسيا الوسطى كنقطة ضعف لروسيا. اقترح مسؤول في إدارة أيزنهاور قبل مؤتمر باندونغ في عام 1955م، استخدام بعض أساليب "المكيا فيلية" لإحراج السوفييات في المؤتمر: "أتساءل إن كان بعض أصدقائنا في باندونغ قد أعدوا كشفاً في حقائبهم للممارسات "الاستعمارية" لروسيا خلال حكمها للشعوب المسلمة في دول الأوزبك وتركستان". وكرد أرسل

السوفيات المسلمين من مناطقهم في آسيا الوسطى إلى الحج، ليظهروا للعالم الإسلامي بأكمله أن المسلمين السوفيات يعاملون جيداً.

في خمسينيات القرن الماضي، لم يكن هناك جالية أمريكية مسلمة يمكن لإدارات ترومان وأيزنهاور-مثل السوفيات- الاستفادة منها في الدبلوماسية العامة، أو العمل الاستخباري. أكبر جالية مسلمة في ذلك الوقت كانت "أمة الإسلام" الهرطقية، التي كانت تعارض حكومة الولايات المتحدة. بدأ المسؤولون الأميركيون النظر إلى المسلمين من مناطق أخرى، وسرعان ما تم تجنيد الأوزبك، الشيشان والمسلمين الآخرين في آسيا الوسطى، للعمل في مكاتب راديو ليبرتي وإذاعة أوروبا الحرة، وبدؤوا البث للمسلمين خلف الستار الحديدي. بُثت البرامج الإذاعية في أوزبكستان، تركمان، كازاخستان، طاجيكستان، قرغيزستان، جورجيا، أذربيجان والشيشان-خاصة بعد حملة نيكيتا خروشوف على المؤسسات الإسلامية- وسلطت الضوء على سياسات موسكو القمعية تجاه الإسلام. في عام 1957م، أصدر مجلس تنسيق العمليات-وهي هيئة ضمت مسؤولين من وكالة الإعلام الأمريكية، وزارة الخارجية الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية- تقريراً يدعو إدارة أيزنهاور إلى تجاوز الإسلام التقليدي، و"تقوية المجموعات الإصلاحية"، مثل "جماعة الإخوان المسلمين"، التي نظر إليها على أنها مفتاح لمواجهة النفوذ السوفياتي في العالم الثالث. امتدت استراتيجيات الحرب الباردة هذه إلى أوروبا: ففي الستينيات، كانت الولايات المتحدة ترعى مؤتمراً إسلامياً لعموم أوروبا، وبدأت في مغازلة الجماعات الإسلامية، مثل "رابطة العالم الإسلامي"، و"الإخوان المسلمين" (الذين أسسوا مركزاً في جنيف)، وكل ذلك لأجل إنشاء "تحالف إسلامي مناهض للسوفيات" عابر للقارات.

تُظهر مؤرخة أكسفورد، فرانسيس ستونور سوندرز، في كتابها "الحرب الثقافية الباردة" (166): وكالة المخابرات المركزية وعالم الفنون والآداب، أن خطة مارشال، وإعادة إعمار ما بعد الحرب في أوروبا، شملت جهازاً ثقافياً أكثر تفصيلاً، كان أحد أهدافه الرئيسية، "تعزيز الادعاء بأن هذا الجهاز غير موجود". وكجزء من هجومها الثقافي ضد الشيوعية، قامت وكالة المخابرات المركزية-من خلال الكونغرس، ومن أجل الحرية الثقافية- بتغطية المعارض الفنية والجولات الفنية لأوركسترا بوسطن في أوروبا، ودفعت المال لتحويل رواية "مزرعة الحيوانات" لجورج أورويل إلى فيلم عام 1984م، وقامت بإنقاذ منشورات كانت على وشك التوقف مثل بارتيسان ريفيو (167). وكانيون ريفيو (168)، وأطلقت المجلة الأدبية والسياسية اليسارية الليبرالية إنكاونتر، تحت إشراف إرفنغ كرسنول (169). في عام 1953م. حتى إن الاستخبارات الأمريكية كانت تدعم "المجلة العربية"، التي تتخذ من ميونخ مقراً لها، والتي

نشرها المعهد المناهض للشيوعية لدراسة الاتحاد السوفياتي. لكن "الحرب على الإرهاب" في أوروبا الغربية، اليوم، لها جانب ثقافي أيضاً. وفي حين أنها أكثر سرية، وغالباً ما يتم تنفيذها من خلال الشراكات مع المنظمات غير الحكومية المحلية، والجهات الفاعلة في القطاع الخاص، فإن الهجوم الثقافي الحالي يعتمد على إطار الحرب الباردة، وهو مفهوم أن الحرب على الإرهاب هي معركة الأفكار والأيديولوجيات، والإيمان بأن تدفق المعلومات التي أسقطت الشيوعية يمكن أن يهزم الأيديولوجية الجهادية بالمثل.

دعمت الولايات المتحدة "داعمي الحرب الباردة"، عبر الطيف السياسي منذ منتصف الخمسينيات. وكما قال الصحفي الراحل أندرو كوبكيند: "دعمت وكالة الاستخبارات المركزية داعمي الحرب الباردة، الاشتراكيين، الفاشيين، البيض والسود. كان لكاثوليكية ومرونة عمليات وكالة الاستخبارات المركزية مزايا رئيسية، لكنها كانت تعددية صورية وكانت فاسدة تماماً". واليوم، تدعم الولايات المتحدة بالمثل، مجموعة من المنظمات الإسلامية والمواقع الإلكترونية التي تعتبر "معتدلة". كتب مايك ماكونيل، المدير الأمريكي السابق للاستخبارات الوطنية، الذي دعا إلى إعادة النظر في سياسات الرئيس أيزنهاور: "لكسب الحرب السيبرانية [في عصر الإرهاب العالمي]، انظر إلى الحرب الباردة". ألهمت الجهود التي تبذلها السفارة الأمريكية لتمكين المسلمين المعتدلين الرأي العام الفرنسي. وصف السفير الأمريكي موقع أمة.كوم، أحد المنظمات الإسلامية التي تدعمها السفارة الأمريكية، بأنه "موقع رائع". واتهم المحافظين الفرنسيين، الذين يرون الموقع متطرفاً بسبب تعاطفه المزعوم مع جماعة الإخوان المسلمين، اليمين الأمريكي، والمسلمين الفرنسيين، بالتحالف لتقويض العلم الفرنسي. في الواقع، فإن موقع أمة.كوم المدعوم من قبل وزارة الخارجية، ومغربية.كوم، الموقع الإخباري الذي أطلقتها القيادة العسكرية الأمريكية في إفريقيا (170) (AFRICOM)، كان يحاول مواجهة الجماعات الجهادية السلفية.

أثار مشروع "مينرفا" للأبحاث التابع لوزارة الدفاع جدلاً كبيراً. أعلن وزير الدفاع روبرت غيتس مبادرة "مينرفا" للأبحاث في أبريل 2008م، داعياً الجامعات في جميع أنحاء العالم لتقديم طلب للحصول على ما يقدر بـ 50 مليون دولار للبحث بالمجالات ذات أهمية لسياسة الأمن القومي الأمريكية. وبوضع "الكرملينولوجي" (171) كنموذج، أعلن غيتس أن "مينرفا" (التي سميت تيمناً بالهة الحكمة الرومانية، وراعية الفنون والتجارة والدفاع) ستدعم أبحاث العلوم الاجتماعية، في مجالات تشمل "الجيش الصيني والبحث التكنولوجي"، "دراسات المنظمات، والأيديولوجيات الإرهابية"، و"الاتجاهات الأيديولوجية المستقبلية في الإسلام" بهدف "حل تحديات الإرهاب"، كما

أملت المبادرة لتمويل دراسة للعراق في عهد صدام حسين (باستخدام مواد أرشيفية نقلت جواً من العراق الى واشنطن في عام 2003م). ناشد غيتس على وجه التحديد أقسام الأنثروبولوجيا المساعدة في هذا الجهد.

أثارت "مينرفا" نقاشاً بين علماء الاجتماع الأمريكيين: جادل البعض بأن الأكاديمية بحاجة إلى جعل معرفتها مؤثرة في المناقشات السياسية، في حين حذر آخرون من أن التمويل الحكومي سيحرف الأبحاث نحو ما وصفه البنتاغون بأنه "التهديد الأكبر" - الإرهاب ونهضة الصين - بعيداً عن قضايا مثل الفقر، وعدم المساواة وارتفاع درجة حرارة الأرض، الأمر الذي يشكل خطراً أكبر على حياة البشر. بحلول يوليو 2008م، كان أكثر من ألف عالم أنثروبولوجي قد وقّعوا تعهداً بعدم قبول تمويل البنتاغون، لإجراء بحوث "مكافحة التمرد" على المسلمين. وبما أن المبادرة البحثية تضمنت مكوناً يعرّف الشبكات الإسلامية "المعتدلة" في فرنسا، ألمانيا وبريطانيا العظمى، فإن "مينرفا" قسمت الرأي الأوروبي أيضاً، بمشاركة بعض الجامعات (في فرنسا والسويد)، ورفض البعض الآخر. وخوفاً من "البيانات الكبيرة" "سيتم استخدام المشروع للمراقبة، في ضوء اتفاقيات مشاركة البيانات الشخصية الأخرى بين وزارة الأمن الداخلي والاتحاد الأوروبي، التي تم تمريرها رغم معارضة البرلمان الأوروبي. تلقت جامعة العلوم بو، ومقرها باريس، على سبيل المثال، منحة من وزارة الدفاع للمشاركة مع جامعة ولاية أريزونا في مشروع بعنوان "العثور على حلفاء من أجل حرب الكلمات: رسم خريطة لانتشار وتأثير الخطاب الإسلامي المعادي للجنود". نأى علماء المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية (EHESS) بأنفسهم عن "مينرفا"، "[التي] تشجع البحوث الثقافية والسلوكية، للتعامل مع التلاعب المحتمل للحساسيات والرأي العام للسكان". كان النشطاء المسلمون في أوروبا والولايات المتحدة قد حذروا من "برنامج وكالة الاستخبارات المركزية العالمي (172)"، وهو برنامج مراقبة عالمي، استمر طوال عقد ما بعد 11 سبتمبر. عادت المخاوف في يونيو 2013م، وثار الجدل حول الأبحاث التي ترعاها الولايات المتحدة في أوروبا مرة أخرى، عندما عُرف أن وكالة الأمن القومي تقوم بجمع البيانات الشخصية للمواطنين الأوروبيين - مسلمين وغير مسلمين - من خلال شركات الإنترنت الكبرى التي كانت تعترض حركة مرور البيانات بين أوروبا والولايات المتحدة بالتعاون مع وكالة الاستخبارات البريطانية.

كانت المبادرات الأمريكية في أوروبا موجهة أيضاً نحو التأثير على الإنتاج الثقافي والفني. في أكتوبر 2007م، قامت فرح بانديث، الممثلة الخاصة لوزارة الخارجية للمجتمعات المسلمة، وغاريد كوهين، الخبير في الدبلوماسية الرقمية، وعضو هيئة تخطيط السياسات، بزيارة مدينة ليستر

الإنجليزية، والتي ستصفها بانديث بأنها موطن لأكثر المجتمعات الإسلامية محافظة الذي رأتة في أي مكان في أوروبا. "على الرغم من توافر العديد من البرامج الإيجابية في ليستر، فإن عزلة بعض أجزاء المجتمع الإسلامي كانت ملفتة للنظر"، كما جاء في إحدى البرقيات. "الفتيات اللواتي لم يبلغن الرابعة من العمر كن منقبات بالكامل". اقترح الدبلوماسيون فكرة استخدام أفلام بوليوود لجذب الشباب البريطاني المسلم بعيداً عن التشدد. التقى الثنائي بنجمة بريطانية تدعى هيوميرا أخترا، والمنتج محسن عباس، ومدير شركة إنتاج أفلام (آرتس فيرسا)، وفنانون آخرون، لمناقشة تطوير "نوع معادٍ للتطرف" من الأفلام البوليوودية. لا شك في أن الدبلوماسيين الأمريكيين أدركوا شعبية الأفلام الهندية بين المجتمعات البريطانية المسلمة، وفي الشرق الأوسط. في أيامنا هذه، غالباً ما يتم عرض أفلام بوليوود في دبي؛ يجري الآن بناء حديقة بوليوودية في تلك المدينة أيضاً. اعتمد المسؤولون الأميركيون، الذين يفكرون في كيفية "تسخير" القوة الناعمة" الهندية، مبادرة تستند إلى الأفلام، حيث سيشترك نجوم بوليوود المسلمين البريطانيين الشباب، ليتحدثوا عن التطرف، ويساعدوا أيضاً في إعادة إعمار أفغانستان.

يزعم صانعو السياسات -في الهند وأماكن أخرى- الذين يوصون باستخدام بوليوود لمواجهة التطرف، أن هذا النوع شائع في العالم الإسلامي لأسباب مختلفة: تعكس الأفلام قيماً عائلية محافظة، وناذراً ما تحتوي على مشاهد جنسية صريحة. هناك شخصيات مسلمة بارزة في بوليوود، مثل الممثل شاه روك خان والملحن أ. ر. رحمن، الذي فاز بجائزة أوسكار عن فيلمه "مليونير العشوائيات". كما أن أغاني هذا النوع من الموسيقى تتميز غالباً بالموسيقى الصوفية، والتي تتمتع أيضاً بشعبية واسعة. علاوة على ذلك، يقول المناصرون: إن هناك بالفعل فئة فرعية ناشئة تحاول استخدام الأفلام لتعزيز المصالحة بين مختلف الجماعات الدينية والعرقية في الهند. فيلم "مهمة كشمير" (2000م)، الذي يروي قصة يتيم يكبر لمعرفة أن والده بالتبني هو الرجل الذي قتل والديه. ويغادر المنزل ليعيش ويتدرب مع المقاتلين الكشميريين. ويعود بعد عقد من الزمان للانتقام لوفاة والديه، إلا أنه يقع في الحب مرة أخرى مع حبيبة طفولته، وهي فتاة تدعى صوفي، والتي تغير رأيه حول الانتقام.

بدأت السفارة الأمريكية في لندن متفائلة بعد اجتماع كوهين وبانديث مع القادة الثقافيين المسلمين في بريطانيا، "وافق ممثلو بوليوود والمدراء التنفيذيون على العمل مع الحكومة الأمريكية، للترويج للرسائل المناهضة للتطرف من خلال ممثلي جهات خارجية، وكانوا متحمسين لفكرة الشراكة المحتملة مع هوليوود كذلك". لكن الخطة لم تنته. بعد مرور عامين على

اجتماع لندن، تم إصدار عدد من الأفلام البوليوودية -نيويورك (2009م)، قربان (2009م)، اسمي خان (2010م) - والتي تناولت الحرب على الإرهاب، لكن ليس من وجهة نظر "مناهضة التطرف" كما كانت تأمل وزارة الخارجية. صورت الأعمال عموماً القلق والاضطراب الثقافي الذي تسببه السياسات الأمريكية تجاه جنوب آسيا والمسلمين الأمريكيين. على سبيل المثال، تناول فيلم "اسمي خان" قصة حب إسلامية هندوسية في الولايات المتحدة، قبل وبعد عام 2001م -مليئاً بمشاهد المغازلة، وسلاسل الرقص النابض بالحياة- كيف شارك المسلمون الأميركيون في مشاريع تجديد المدن، وساعدوا المجتمعات التي دمرها إعصار كاترينا، ولكن لا زالوا يعانون من ردود الفعل العنيفة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. بطل الفيلم، وهو مسلم هندي يدعى رضوان خان (يلعب دوره شاه رو خان)، والذي يعاني من متلازمة أسبرغر، يتم اعتقاله واحتجازه من قبل الشرطة. تقرر مقابلة الرئيس بوش وخليفته لإخبارهم، أن "اسمي خان وأنا لست إرهابياً". دفع تزايد الأفلام والمسرحيات من هذا النوع الدبلوماسية الأمريكية للتركيز على الموسيقى، وعلى "حروب الهيب هوب" في أوروبا.

الجهادي الرائع

إحدى الظواهر الأكثر غرابة في العقد الماضي، سماع نخب الأمن القومي، خبراء الإرهاب والدبلوماسيين المحترفين، يناقشون النقاط الأدق "للتدفق" و"اللمعان" و"سياسات الروعة". لقد عبر خبراء الإرهاب الأمريكيون والأوروبيون بشكل متزايد عن مخاوفهم بشأن "الهييب هوب المعادي لأمريكا"، وشددوا على التأثير الراديكالي لهذا النوع. كما لاحظوا أن حركة الشباب -الجماعة الإسلامية التي تتخذ من الصومال مقراً لها- تستخدم "الراب الجهادي" في مقاطع الفيديو الخاصة بالتوظيف. كتبت جيسيكا ستيرن الباحثة بجامعة هارفارد في مجلة فورين أفيرز (173): "اعتقد أطفال الجيل الأول والثاني من المسلمين الذين قابلتهم لدراسة مصادر الراديكالية في هولندا، أن الحديث عن الجهاد كان رائعاً، بالطريقة نفسها التي ينتشر عصابت الراب في بعض أوساط الشباب". دعا آخرون إلى تعبئة بعض الحلقات البديلة من موسيقى الهيب هوب ضد "الجهادية الرائعة". يتم إدراج الهيب هوب حالياً في هجوم أيديولوجي واسع لمواجهة التطرف الداخلي في أوروبا.

وكما هو الحال في أمريكا، فإن بعض أكبر النجوم على مسرح الهيب هوب الأوروبي هم من المسلمين، أطفال المهاجرين و/أو معتنقي الإسلام، الذين انخرط عدد منهم في جدل حول حرية التعبير، الهوية الوطنية والتطرف.

أصبحت بريطانيا أول دولة تتعامل مع قضية "الراب الإسلامي العدواني"، عندما تم إطلاق أغنية "الكفار القذرين" على الإنترنت بواسطة مجموعة الراب "الشيخ تيرا وسول صلاح كرو"، في عام 2004م. مدح الفيديو، الذي يجمع صوراً من العراق وفلسطين والشيشان أسامة بن لادن، وأدان بوش وتوني بليز وأرييل شارون وحسني مبارك والملك السعودي عبد الله، ودعاهم بـ "الكفار القذرين". جذبت الأغنية انتباه وزارة الداخلية، وتواب حزب العمال، الذين رأوا كلمات الأغنية وصورها كدعوة للعنف. أصدر آكي نواز، من فرقة التكنو هوب-فان-مومينتال الشهيرة، في عام 2006م، ألبوماً بعنوان "كل شيء حرب"، مع غلاف يصور تمثال الحرية مغشًى ومقيداً مثل سجين في أبو غريب، وضم الألبوم أغنية ("تشي بن") التي تقارن ابن لادن بتشي غيفارا. وقد دعا اثنان من النواب لاعتقاله.

أدرك تأثير الهيب هوب عندما أدخلت وزارة الداخلية، في أبريل 2007م، مبادرة "المنع"، لمنع الشباب المسلم البريطاني من الانجذاب إلى التطرف العنيف، فقد أكدت المبادرة أن موسيقى الهيب هوب برزت بشكل كبير. تلقت المنظمات الإسلامية في بريطانيا تمويل مبادرة "المنع" لتنظيم عروض الهيب هوب "سبيتنغ لايت"، حيث أبدى مغنو الراب الأمريكيون والبريطانيون الذين يدعمون "التفسيرات السائدة" للإسلام مواهبهم. كانت المبادرة موجهة إلى المسلمين الأصغر سناً، الذين ربما لم يكونوا مرتبطين بالمساجد أو المؤسسات الدينية الأخرى. ادعى المدافعون عن المنع أن الفن يمكن أن يوفر للمسلمين "متنفساً مقبولا للعواطف القوية". ولكن بالنظر إلى تورط برنامج "المنع" في الفنون، فإن قادة المنظمات الثقافية -التي استقطبتها السفارة الأمريكية والحكومة البريطانية- لم يكونوا مرتاحين لقبول أموال الدولة.

يقول حسن محمادي، مدير مسرح ومسؤول في مجلس الفنون في إنجلترا: "الفن ملهم، بإمكانه خلق محادثات لا يمكن أن نحصل عليها في الحياة الحقيقية، ويجب السماح للفنانين المسلمين بالتحدث عن أي شيء. لكن المنع في الواقع يضع قيوداً على خطاب الفنانين المسلمين، ويمول فقط أولئك الذين تعتبرهم الحكومة مسلمين [صالحين]".

تشعر الحكومات الأوروبية بالقلق من الهيب هوب والتطرف. وقد حاول مسؤولون حكوميون في ألمانيا توجيه الاتهام إلى مغني الراب ديسو دوغ، الذي تحول إلى السلفية، بسبب كلمات أحد أناشيده التي يُزعم أنها ألهمت كوسوفار الذي يبلغ من العمر 21 عاماً، بإطلاق النار على حافلة تقل الجنود الأمريكيين في فرانكفورت في مارس 2011م. لكن فيما يخص الحكومة الهولندية فهي محتارة حول أي نوع من الراب عليها دعمه.

حدث جدل في عام 2007م، بشأن النجم الهولندي المغربي صلاح الدين والفيديو الخاص به (هذا البلد)، والذي يصف فيه كونه مسلماً في هولندا المحافظة بشكل متزايد ويسرد ما يحبه وما لا يحبه حول البلاد. فهو لا يحب التنميط العنصري، ومنطقة الضوء الأحمر، "هذه الأرض التي تبيع النساء خلف ألواح النوافذ". يظهر المغني في بداية الفيديو وهو خليق ويرتدي قميصاً منقوشاً. وبينما يتقدم الفيديو، ينمو شعر وجهه أكثر حتى تصبح لحيته كثيفة ويرتدي بذلة سجن غوانتانامو. لم تقتصر الضجة على هذا المحتوى فقط، بل على حقيقة أن صلاح الدين تلقى منحة من وزارة الثقافة الهولندية لإنتاج الفيديو.

اشتكى الناحيون أن أموالهم الضريبية كانت تمول الراديكالية. شعر المسؤولون الحكوميون بالخداع، فقد قدموا لصلاح الدين المنحة معتقدين أنه "معتدل"، وتبين أنه "متطرف".

يراقب المسؤولون الأوروبيون (إلى جانب مسؤولي السفارة الأمريكية)، ممارسات الهيب هوب في أحياء المهاجرين، في محاولة لتقرير أي من فئتي الهيب هوب الإسلامي يستحق منحه الشرعية، ومن يتوجب إبعاده. يفتح النقاش حول موسيقى الهيب هوب التي تعتبر ثقافة الشباب المهيمنة في أوروبا، المساحة لجدل أكبر بكثير حول العرق، الهجرة والهوية الوطنية، وبسبب حقيقة أن العديد من نجومه الكبار مسلمين، فإن الخلافات حول أيهم "معتدل" أو "راديكالي" هي أيضاً خلافات حول نوع الإسلام الذي يسمح به في الفضاء العام. يدور هذا الجدل على أشده في فرنسا، البلد الذي يضم أكبر جالية مسلمة في أوروبا، وثاني أكبر سوق للهيب هوب في العالم، والمكان الذي تمنع تقاليده العلمانية التعبير عن الدين في الفضاء العام.

الحمد لله بخير

دعا الوزراء الفرنسيون في ثمانينيات القرن الماضي، رواد الراب الأميركيين، أمثال أفريكا بامباتا وفرقته أمة الزولو، للقدوم إلى باريس وإقامة ورش عمل، على أمل "توجيه تمرد الشباب" إلى جماليات الهيب هوب الأربعة -موسيقى الراب، تنسيق الموسيقى، الرقص والغرافيتي- وقد لعبت أمة الزولو دوراً أساسياً في نشر الثقافة في فرنسا. قال جاك لاغ، الذي كان وزير الثقافة في الثمانينيات: "أعتقد أنه حتى لو كان الهيب هوب مستوحى من أمريكا بداية، فقد وجد أصالته هنا في فرنسا". بحلول منتصف تسعينيات القرن الماضي، شعر الساسة بأنهم فقدوا السيطرة على موسيقى الراب. وحذر قادة اليمين مثل جان ماري لوبان من هذا الشكل الفني الخطير الذي نشأ في

الجزائر. جاء الهيب هوب ليلخص قلق فرنسا من الهيمنة الأمريكية والإسلام. أدى الخوف من الأمركة، وإدخال الكلمات والعبارات الإنجليزية من خلال الموسيقى، إلى إنشاء حصص وطنية لحماية اللغة الفرنسية. طالب قانون كارينيون (174) للإعلام الذي تم إطلاقه عام 1994م وبأن تكون 40%، على الأقل، من البرامج الموسيقية على المحطات الإذاعية للموسيقين الفرنسيين، و20% للفنانين الفرنسيين المعاصرين. شجعت هذه الحصة في الواقع، على انتشار الهيب هوب الفرنسي، حيث حولت المحطات الإذاعية قوائم التشغيل الخاصة بها من موسيقى البوب والروك التي يسيطر عليها الناطقون بالإنجليزية، إلى موسيقى الراب، حيث اعتقدوا أن حصص اللغة الفرنسية يمكن تلبيتها بسهولة أكبر. بدأت شركات التسجيلات الفرنسية في توسيع اهتمامها بموسيقى الهيب هوب وإرسال مستكشفي المواهب إلى الضواحي، بحثاً عن المواهب. ومن المفارقات، أن قانوناً صُمم لحماية "الهوية الفرنسية" من الأمركة ساعد في تعزيز الشكل الفرنسي لنوع أمريكي صَحَم أصوات الأقليات الدينية والإثنية التي ينظر إليها على أنها تهديد داخلي للهوية الوطنية.

ما زالت الحكومة الفرنسية تروج بنشاط لموسيقى الهيب هوب على المستوى المحلي والوطني كجزء من سياستها الثقافية، حيث تجلب مغني الراب إلى مسرح الأوبرا الوطنية في بوردو، وترعى الحفلات، وتمول المؤسسات المحلية في الأحياء المضطربة. تستثمر الحكومة الفرنسية في الهيب هوب، في محاولة للاعتراف بالثقافات والهويات المهمشة، ولكن أيضاً لتعزيز الهيب هوب الذي يفضي إلى التكامل. مع ذلك، فإن السؤال هو، أي نوع من الهيب هوب يساعد على التكامل بشكل أكبر؟ ومن هم مغنو الراب الذين يجب دعوتهم إلى القصر الكبير؟ كما يلاحظ عالم الاجتماع لويك لافارج، "سياسة الهيب هوب" في فرنسا تحاول اكتشاف الفنانين، والترويج لهم كقدوة لمراهقي الضواحي، لكن نادراً ما يود فنانو الهيب هوب أن يتم تصويرهم من قبل الساسة كنماذج للاندماج الناجح، لأن قبول الحكومة في كثير من الأحيان يفصلهم عن قاعدتهم. علاوة على ذلك، وكما يلاحظ، فإن "استغلال" ثقافة الهيب هوب يهدد بإفراغ هذا النوع من سلطته السياسية ويولد نوعاً مختلفاً من التنافس بين موسيقيي الراب الذين تدعمهم الدولة وأولئك الذين لا تدعمهم. تحدث هذه العملية في فرنسا على وجه التحديد، كما رأينا في التفاعل بين عبد الملك (175) وميدين (176).

من المحتمل أن يكون أشهر فنان هيب هوب فرنسي في العقد الأخير هو مغني الراب الفرنسي الكونغولي عبد الملك. عاش عبد الملك حياة قاسية في مشروع سكني خارج ستراسبورغ، حيث اعتنق الإسلام كمراهق، وانضم إلى

جماعة التبليغ الإسلامية. حقق بعض الشهرة مع مجموعة الراب "أفريكان بويتس" قبل أن يعتنق التصوف ويتحول من موسيقى الراب إلى شعر الكلمة المنطوقة (السلام⁽¹⁷⁷⁾). يمتزج شِعْرُ ملك بمقاطع من موسيقى الجاز وأغان فرنسية، ويتحدث عن قيمة العمل الجاد والتعليم، و"الروحانية". يمجّد ملك قيم الجمهورية في موسيقاه وسيرته الذاتية، (ليبارك الله فرنسا) -الحرية، المساواة، الإخاء، ويقول بضرورة إعادة تنشيطها. وهو يعتقد أن الشمولية الصوفية قادرة على استيعاب الفكرة الفرنسية للمواطن العلماني. فاز ملك بجميع أنواع الاستحسان الفني وغيره. وتعتبره النخب نموذجاً إسلامياً يحتذى به، ورمزاً لفرنسا متعددة الثقافات. في يناير 2008م، منحت وزارة الثقافة ملك وسام الفنون والآداب الفرنسي، أحد أرقى الأوسمة الثقافية في فرنسا. وفي الوقت الذي تحظى فيه موسيقى الهيب هوب بقبول الجمهور، وترتفع لمستوى الثقافة السامية، فإن النخب الثقافية والسياسية الفرنسية تراقب بعناية نوع الإسلام الذي يتم نشره على موجات الأثير، لكن موسيقى ملك المتأثرة بالصوفية تجسّد نوع التقوى الإسلامية التي يمكن السماح بها في الفضاء العام الفرنسي. كذلك فإن تصوف ملك هو أداة مواجهة مفيدة للإسلام السياسي الذي وضعه الفيلسوف طارق رمضان اليساري الذي وضعه كيري جيمس وميددين.

بينما لم تلامس موسيقى ملك أي مطالب سياسية، فإن منافسه المحبوب "ميددين"، فنان هيب هوب شعبي، مس كل القضايا التي يتهرب منها الشاعر المتصوف: الإقصاء الاجتماعي للشباب الفرنسي غير الأبيض، ظروف الضواحي، النهب الغربي للعالم الثالث. ميددين أصّلح ويطلق لحية كبيرة -يسمّيها "الأفرو تحت قكي" - ويقدم أغاني راب لاذعة حول الاستعمار، مالكوم إكس، أفغانستان، قانون باتريوت، وحشية الشرطة والفصل العنصري. تعرض مقاطع الفيديو خاصته صوراً للحرب، احتجاجات الشوارع والإيهاّم بالغرق⁽¹⁷⁸⁾. كما أن انتقاداته للنموذج الفرنسي للدمج حادة وقوية. وعلى عكس ملك، لا يتحدث ميددين بشكل خاص عن تدينه، ويتحدث أكثر عن حقوق المسلمين. إلا أن وسائل الإعلام الرئيسية تجاهلته إلى حد كبير، وقاطعته بعض المحطات الإذاعية، قائلين إنه يروج للطائفية. يعود الاحتفال بملك بشكل أكثر علانية جزئياً لأنه يعلن محبته للجمهورية، ويرى أن الهوية الإسلامية متطابقة مع قيمها، وفي الوقت الذي يشير فيه إلى ماضي البلاد الاستعماري، فإنه لا يغضب من الدولة الفرنسية. مع ذلك، فإن أسلوب ميددين الصدامي يلاقي صдаه لدى شباب فرنسا الساخط أكثر مما يفعل نهج ملك.

أدرجت السفارات الأمريكية نفسها ببطء في هذه الرقصة الرقيقة بين الحكومات الأوروبية ومناهضة الهيب هوب. فالراب في صميم تواصل

السفارات مع المجتمعات الإسلامية. تعتقد فرح بانديث، الممثلة الخاصة لوزارة الخارجية للمجتمعات المسلمة، أن الهيب هوب يمكنه تقديم "سرد مختلف" لمواجهة "الأيدولوجية العنيفة" الأجنبية، التي يتعرض لها الشباب. توصي إحدى البرقيات المرسلة من السفارة الأمريكية في لندن بعرض فيلمين، هما "نيو مسلم كوول" (179) و"دين تايت (180)"، وكلاهما يصف كيف اكتشف المسلمون اللاتين، والأميريكيون الأفارقة، الإسلام عبر الهيب هوب. يتم دعوة فناني الراب من المسلمين الأمريكيين بانتظام لأداء عروض في السفارات بأوروبا. كما يتم دعوة الفنانين المحليين أيضاً. يرعى السفير الأمريكي بفرنسا مؤتمرات الهيب هوب، ويدعو مغني الراب إلى مقر إقامته، بما في ذلك فنان الراب المثير للجدل كوماندو توكسيك، (الذي قدم التحية لصبيين قتلوا على يد الشرطة الفرنسية في نوفمبر 2007م؛ الحادث الذي أثار موجة من أعمال الشغب) في فبراير 2010م. أثار برنامج دبلوماسي الهيب هوب الخاص بالسفارة الغضب أيضاً، حيث تم نقل مغني الراب الفرنسيين إلى الولايات المتحدة لقضاء بعض الوقت في هارلم، والالتقاء بفنانين ونشطاء في مجال الحقوق المدنية. أحد الفنانين الذين دعتهم وزارة الخارجية هو مغني الراب إيكوي لابتيتي من لا رومور، إحدى المجموعات التي كان نيكولا ساركوزي كوزير للداخلية، قد رفع دعوى قضائية ضدها بتهمة التشهير، بسبب كلماتهم عن وحشية الشرطة الفرنسية وإفلاتها من العقاب.

تحاول سياسة الإدماج في فرنسا، كما في أي مكان آخر في أوروبا الغربية، الموازنة بين الصوفية والإسلاموية. ولهذا دعم المسؤولون الفرنسيون إنشاء المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية (الذي يملك بعض قاداته ميولاً إسلاموية) كهيئة استشارية وتمثيلية، لكنهم دعموا الصوفية في الثقافة الشعبية والحوار متعدد الثقافات. لكن مبادرة السفارة الأمريكية غالباً ما يكون لها حسابات مختلفة.

السلفيون المسلمون

بدأ صانعو السياسة الأمريكيون والأوروبيون، أواخر 2000م، بالتعبير عن شكوكهم حول سياسة المحافظين الجدد لدعم التصوف في أوروبا. بدأ مستشارو السياسات يعيدون تعريف جماعة الإخوان المسلمين على أنها "معتدلة". أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية في عام 2006م، تقريراً بعنوان "جماعة الإخوان المسلمين: ممثل محوري في الإسلام السياسي الأوروبي"، مشيدة بالديناميكية الداخلية المثيرة للإعجاب، التنظيم ووسائل الإعلام البارعة، مشيرة إلى أنه "من المحتمل أن تكون جماعة الإخوان

المسلمين محورية لمستقبل الإسلام السياسي في أوروبا". ومع الاعتراف بأن "المسلمين الأكثر تعددية، يتهمون [الإخوان المسلمين] بإعاقة التكامل الاجتماعي الإسلامي"، جادل التقرير بأن "الجماعات المرتبطة بالإخوان المسلمين تقدم بديلاً لحركات إسلامية أكثر عنفاً". وقد أصبحت تلك وجهة نظر إدارة أوباما، التي رفعت حظر السفر المفروض على طارق رمضان بسبب الروابط العائلية للعالم مع "جماعة الإخوان المسلمين". دعا مسؤولون أمريكيون في يناير 2009م، الناشطين المسلمين الألمان لزيارة المعهد الدولي للفكر الإسلامي الذي يتخذ من فيرجينيا مقراً له، وهي جماعة تأسست عام 1983م، على أيدي بعض المتعاطفين مع جماعة الإخوان المسلمين (والتي داهمها مكتب التحقيقات الفيدرالي من قبل في عام 2002م).

خلق تحرك إدارة أوباما لإعادة الاندماج مع مجموعات أوروبية مسلمة أكثر محافظة انقسامات داخل الحكومة الأمريكية. وكما كتب الصحفي إيان جونسون، فإن الجهود المبذولة للتحديث مع المنظمات المنتسبة إلى جماعة الإخوان المسلمين "خلقت المشهد الغريب للذراع القانونية للحكومة التي تحاول بشكل يائس مقاضاة هذه الجماعات، وفي الوقت نفسه، الذراع الدبلوماسية التي حاولت إعلاء شأنهم كنماذج للاندماج". صدمت الرغبة الأمريكية في الانخراط مع الجماعات المرتبطة بالإخوان المسلمين السياسيين الأوروبيين كذلك. في عام 2007م، على سبيل المثال، دعمت القنصلية الأمريكية في ميونيخ إنشاء أكاديمية إسلامية في مدينة بنزيرغ البافارية. لكن حزب المحافظين، الذي كان حينذاك في السلطة، عارض المشروع لأن المدرسة كانت مرتبطة بـ "مللي غوروش" (181)، وهي نسخة تركية من "جماعة الإخوان المسلمين". أحد أسباب استياء الساسة الألمان من دعم الأمريكيين لهذه المنظمة هو أنه بحلول منتصف عام 2000م، بدأ القادة الألمان (والهولنديون والبلجيكيون) في رؤية الحركة الصوفية "غولن" كبديل للجماعة السلفية والجماعات المرتبطة بالإخوان المسلمين.

تتمتع حركة "غولن" بحضور قوي في المجتمع التركي في ألمانيا وتدير 24 مدرسة في برلين وحدها. أكثر ما يلفت النظر هو أن هذه المنظمة الصوفية لديها مهمة خدمات اجتماعية وتجديد حضري تميز الجماعات الإسلامية. ولكن على عكس الحركات الإسلامية لا تهدف "غولن" إلى "إضفاء الطابع الإسلامي" أو تطهير المجتمع، بل إلى دمج المسلمين في المجتمع الأوسع. يقول نهاد ساريير الذي يرأس مركز "غولن" في الضاحية الشمالية الذي يدعى (منصة باريس)، "نحن لا نخرج لدعوة الناس لاعتناق الإسلام. كل ما نفعله هو تقديم الخدمات، نحن نذهب إلى حيث هناك حاجة للخدمات. ونؤمن مترجمين أترك وعرب في المدارس الحكومية، للمساعدة في

التواصل بين الآباء والمدرسين. المدارس الفرنسية لا توفر المترجمين، لذلك نحن نساعد الدولة. إن حركة "غولن" لا تتناقض أبداً مع الدولة المضيفة". وقد رحبت الدول الأوروبية التي تعاني من ضغوط مالية بمساعدة غولن. وأمل بعض المسؤولين أنه بصعود تركيا، فإن هذه الحركة الصوفية النادرة، الملتزمة بالتنمية الحضرية، يمكنها مواجهة الانفصال السلفي. غير أن النقاد يشككون فيما إذا كانت هذه الحركة التركية -التي تدعى أنها غير سياسية وتتبع "استراتيجية الصمت" عندما يتعلق الأمر بالسياسة الخارجية الأمريكية- يمكن أن تساعد بمكافحة التطرف. بينما يستطيع أعضاء غولن الوصول إلى رأس المال ويؤمنون إيماناً راسخاً بالتعليم والمشاركة المدنية، فإنهم لا يمتلكون الرسالة المعادية للمؤسسة والمضادة للإمبريالية، وبرامج الإصلاح الذاتي الشاملة التي لدى السلفيين.

بحلول عام 2008م، بدأت التحالفات غير المتوقعة في الظهور بين المسؤولين الأمنيين والمثقفين ذوي الميول اليسارية، الذين يدعون إلى الارتباط بالمجموعات السلفية. جادل علماء مثل عالم الأنثروبولوجيا الهولندي مارتين دي كوننغ بأن السلفيين، في انفصالهم ورفضهم لليبرالية، ليسوا مختلفين عن المسيحيين أو اليهود المتشددين. ومع أن أولئك يُمنحون مساحة في المجتمعات الغربية، فإن السلفيين يتعرضون للاضطهاد باستمرار، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى مزيد من التطرف. علاوة على ذلك، فإن صعود السلفية هو نتيجة للشراكة المستمرة بين بريطانيا وأمريكا مع المملكة العربية السعودية، واستمرار السعودية في نشر أيديولوجياتها. في المقابل، يرى مسؤولو الأمن الأوروبيون نفوذ السلفيين (غير الجهاديين) ومصادقيتهم في الشارع كميزة في المعركة ضد التطرف العنيف. وأنه من الضروري منح النشاط السلفيين المجال السياسي للتحدث بقوة ضد السياسات الخارجية الأمريكية والبريطانية، لأن ذلك يمكن أن يعزز مصادقيتهم في شجب العنف. كان روبرت لامبرت، مدير وحدة الاتصال الإسلامية في سكوتلاند يارد، هو المؤيد الرئيس لهذا الرأي في أوروبا، وهو الذي لفت الانتباه إلى المجتمع السلفي في جنوب لندن وتحالفه مع شرطة العاصمة. ويبدو أن الدور الإيجابي الذي لعبته المساجد وقادة الجالية المسلمة في حماية الممتلكات وتقييد الشباب خلال أعمال الشغب التي وقعت في لندن في أغسطس 2011م -والتي حدثت في شهر رمضان- تدعم الرأي القائل بأن الوسطاء الإسلاميين يمكنهم الحفاظ على السلام الاجتماعي.

ساد تفكير مماثل عبر المحيط الأطلسي، ويرجع ذلك جزئياً إلى أفكار كوينتان ويكتوروفيتش، عالم الاجتماع الأمريكي الذي كتب على نحو متسع حول الحركات السلفية في الشرق الأوسط قبل أن يصبح أكاديمياً مقيماً في

السفارة الأمريكية في لندن ليدرس التطرف بين المسلمين البريطانيين. أجرى ويكتوروفيتش مقابلات مع المئات من الإسلاميين في بريطانيا، ومن خلال مشورته أطلقت السفارة الأمريكية مشروع "التطرف العكسي"، حيث قامت بتمويل عدد لا يحصى من المنظمات غير الحكومية والمراكز المجتمعية في محاولة لبناء "سرد مضاد" للسلفية الجهادية. عاد ويكتوروفيتش إلى أمريكا عام 2010م وعمل في البيت الأبيض كعضو في مجلس الأمن القومي، ومستشاراً لجون برينان، قيصر مكافحة الإرهاب. ردد ويكتوروفيتش أفكار لامبرت حول وجوب إيجاد فضاء سياسي لـ "التطرف اللاعنفي"، أي القادة المسلمين الذين يرفضون السياسات الأمريكية، وحتى القيم الليبرالية، بينما يعارضون الجهاد ضد الولايات المتحدة. وقد قدم برنامجاً في عام 2011م لمواجهة التطرف العنيف يدعى "الشراكة المجتمعية"، الذي استلهم من "برنامج المنع" في بريطانيا. لكن على عكس الإلهام البريطاني، لم يدعم البرنامج الأمريكي بشكل علني بعض المؤسسات الإسلامية ضد الآخرين. بدلاً من ذلك، كان الهدف هو تحديد الأصوات "الموثوقة" داخل المجتمع الأمريكي المسلم وبناء "تحالف حركات الشباب" كحصن ضد التطرف.

يستمر الجدل حول كيفية التعامل مع السلفية. تتمتع السلفية اليوم بحضور ضئيل في الولايات المتحدة، لكن المسؤولين الأمنيين ما زالوا يحاولون تكوين شركاء سلفيين للحوار، لأنهم قد يكونون أفضل مكان لتعليم الشباب المسلمين أن الشريعة الإسلامية لا تسمح بالعنف ضد الحكومة الأمريكية. تحاول سلطات إنفاذ القانون زرع قادة كياسر القاضي، الذي كان يشجب المتصوفة والشيعة ويصفهم بالهراطقة في شبابه، ويدير اليوم "معهد المغرب" في تكساس ويصف نفسه بأنه "سلفي سلمي"، يحاول بناء مجتمع "السلفيين الأصليين" في تكساس، مشابه للجالية اليهودية الأرثوذكسية في بروكلين. يحاول قاضي تطوير علم اللاهوت الذي يوازن بين الولاء للإسلام والولاء لأمريكا لأجل المسلمين الشباب في الشتات، الذين يسألون دائماً، ما الذي يأمرك به الإسلام عندما يموت شعبك على أيدي الغرب؟ ويعلم تلاميذه أنه من الضروري التمسك بقانون الأرض، ويحث أتباعه الصغار على التصويت، ودفع الضرائب، وأن لا يخدموا في الجيش، نظراً إلى الوضع في العراق وأفغانستان. وهو يدين السياسات الأمريكية "الإمبريالية الجديدة"، لكنه يقول للطلاب إن "الجهاد الهجومي" -وهو نشر دولة إسلامية بالقوة- لا يجوز إلا إذا أمر به خليفة شرعي، أو حاكم مسلم عالمي، والذي لا وجود له اليوم، وأن الانضمام للجماعات المسلحة التي تحارب أمريكا تشكل خيانة وخرقاً للعقد مع الحكومة الأمريكية، التي تسمح للمسلمين بالعبادة بحرية. يظهر قاضي كمثال علي ما يصفه المسؤولون الأمريكيون بأنه "سلفي معتدل". لأنه رجل دين مسلم أمريكي يشجع على المشاركة السياسية لكنه لا

يزال يحتفظ بلغة السلفية المتميزة للتصحيح الذاتي والهدوء: فهو مغرم بالقول إن التغيير لا يمكن أن يأتي من التشدد ولكن "يبدأ في القلب والوطن، وسيصل في نهاية المطاف إلى الشوارع ويهز أسس الحكومة".

عدل الكونغرس قانون سميث-موندت (182) لعام 1948م، المعروف منذ فترة طويلة باسم "قانون مكافحة الدعاية" جزئياً للتأثير على المناقشات التي تجري بين شباب المسلمين الأمريكيين، في يوليو 2013م.

تم تمرير قانون سميث-موندت في وقت شك فيه الكونغرس أن وزارة الخارجية كانت مليئة بالشيوعيين، وحظر المواقع الإلكترونية ووسائل الإعلام التي تمولها الحكومة الأمريكية -مثل قناة الحرية العربية- من البث الأرضي، لمنع الحكومة من ترويج الدعاية لمواطنيها. أدى تحديث قانون سميث-موندت لإلغاء هذا الحظر، مما سمح بنشر المعلومات الحكومية التي تم إنتاجها للجمهور الأجنبي داخل الولايات المتحدة؛ وهكذا يمكن الآن أن تقوم محطات الإذاعة المحلية بنقل البرامج التي تنتجها إذاعة صوت أمريكا، وإذاعة أوروبا الحرية / راديو ليبرتي، وشبكات البث في الشرق الأوسط، والكيانات الأخرى التي يسيطر عليها مجلس أمناء البث (183)BBG.

سرعان ما حذر العلماء والصحفيون من مخاطر الدعاية المحلية. كما أثارت صحيفة واشنطن بوست قصة برنامج "مكافحة الدعاية" الذي يديره البنتاغون والذي استهدف صحافياً صومالياً أمريكياً في مينيابوليس، عن طريق إغراق موقعه على الإنترنت -الصومال المتحدة- بتعليقات من القراء المناهضين لحركة "الشباب". وقد أوضح المقال "إن البنتاغون ممنوع قانوناً من القيام بعمليات نفسية داخل الأراضي الأمريكية، أو استهداف الجماهير الأمريكية بالدعاية، باستثناء" حالات الطوارئ الداخلية"، مضيفاً أن قواعد وزارة الدفاع تمنع أيضاً الجيش من استخدام العمليات النفسية "التي تستهدف مواطني الولايات المتحدة في أي وقت، وأي مكان على مستوى العالم، أو تحت أي ظرف من الظروف". يقول المدافعون عن تعديل قانون سميث-موندت بدورهم، إن قوانينهم لا تغطي سوى برامج المعلومات التي تنتجها وزارة الخارجية ومجلس أمناء البث، وليس البنتاغون أو وكالة الاستخبارات المركزية، الذين يخضعون لقوانين مختلفة. لم يكن هذا مطمئناً بالنسبة للقادة المسلمين الأميركيين.

عندما تولى أوباما منصبه في عام 2008م، استمرت مبادرات الدبلوماسية الثقافية تجاه المجتمعات المسلمة، وتم تجميد المحاولات العدوانية لإدارة بوش من أجل حشد الصوفية وإثارة "الإصلاح الإسلامي". ولكن بحلول

منتصف عام 2013م، ورداً على الطائفية التي أطلقتها الثورات العربية، بدأت الحكومة الأمريكية مرة أخرى لعب دور أكثر نشاطاً في صياغة الخطاب الإسلامي. لم يتم تعديل "قانون مكافحة الدعاية" فقط، ولكن في يوليو 2013م أنشأت وزارة الخارجية مكتباً للمبادرات المجتمعية الإيمانية للتعاطي مع "الفاعلين الدينيين"، ثم في سبتمبر -بعد أيام من شن حركة الشباب هجوماً مروعا على مركز ويست غايت (184) للتسوق في نيروبي- أعلنت الولايات المتحدة وتركيا عن إنشاء برنامج بقيمة 200 مليون دولار لمحاربة التطرف، أطلق عليه اسم "صندوق المشاركة المجتمعية والمرونة". عبر النقاد من لندن إلى إسلام آباد على الفور عن قلقهم أنه من خلال "المشاركة، سوف تكون الحكومة الأمريكية طرفاً في المناقشات الدينية، وستحدد من هو "المعتدل"، وما هي مجموعات التمويل التي لن تدعمها في الداخل.

شجعت الاضطرابات - التي دارت في شمال أفريقيا والحرب الأهلية السورية والضغط من المملكة العربية السعودية- العناصر السلفية في بلجيكا وفرنسا وألمانيا. يقول مايكل بريفوت من "الشبكة الأوروبية لمناهضة العنصرية"، ومقرها بروكسل: "لقد تفوق السلفيون على جماعة الإخوان المسلمين في أوروبا تماماً. المركز ضعيف، وهذه هي المشكلة. في الستينيات، كان الإخوان المسلمون البديل الوحيد، وعمل الإخوان مع السلفيين لسنوات، لكنهم فقدوا السيطرة عليهم. كان لدى السعوديين مشروع مارشال (185) الخاص بهم لأوروبا، وربحوا كل المعارك الثقافية، واليوم، في عام 2013م، ما زالوا يربحون".

تم تعبئة التحالف الذي تشكل في منتصف العقد الأول من القرن الحالي في المملكة المتحدة، بين المسلمين الليبراليين، النسويات العلمانيات والمحافظين الذين يعارضون التعددية الثقافية، واعتقدوا كلهم أن السلفية -الهادئة أو الناشطة- تقوض التماسك الاجتماعي، وتعوق اندماج المسلمين مرة أخرى، وغضبوا من أن الولايات المتحدة، التي اتخذت إجراءات صارمة ضد السلفية في الداخل، تحثهم الآن على التعامل مع الإسلاميين في أوروبا. في يونيو 2011م، بعد معركة سياسية مطولة داخل الحكومة البريطانية بين نيك كليغ، نائب رئيس الوزراء الليبرالي، الذي رأى التطرف اللاعنفي كحصن ضد التطرف، ورئيس الوزراء ديفيد كاميرون، الذي جادل بأن أيديولوجيات التطرف اللاعنفي -مثل السلفية- تمهد الطريق للتطرف العنيف، تم الكشف عن برنامج المنع الجديد، الذي عكس وجهة نظر رئيس الوزراء. لقد عرّف المنع الجديد "التطرف" بشكل واسع ليشمل مجموعات اعتبرت لاعنفية، لكنها فشلت في أن "تعكس قيم التيار الرئيس البريطاني". ثم شرعت الحكومة في خفض التمويل لبرامج الشباب، مثل "شارع المملكة المتحدة" في بريكستون،

بسبب ارتباطه بالمساجد السلفية. حذر النقاد من أن هذه السياسة الإسلامية الجديدة لن تؤدي إلا إلى دفع الجماعات المتطرفة إلى الخفاء. في الواقع، بعد بضعة أيام من إطلاق برنامج المنع الجديد، بدأت الملصقات الصفراء بالظهور بأجزاء من شرق لندن، تم لصقها على أعمدة الإنارة ومحطات الحافلات: "أنت تدخل منطقة تسيطر عليها الشريعة الإسلامية، تطبق القواعد الإسلامية"، "لا قمار"، "لا موسيقى أو حفلات"، "لا إباحية أو دعارة"، "لا مخدرات أو تدخين"، "لا كحول".

"سننتصر"

نفذت السفارات الأميركية برامج "إدارة التنوع"، في الوقت الذي أعلن فيه ديفيد كامرون، نيكولا ساركوزي وأنجيلا ميركل أن التعددية الثقافية قد ماتت. تشرح ديورا ماكلين، وهي مسؤولة دبلوماسية عامة في السفارة الأميركية في كوبنهاغن، في إشارة إلى حدث ثقافي نظمته في الدنمارك: "أردنا تشجيع هؤلاء الشباب على إدراك أنه من المقبول أن يكونوا مختلفين". غضب المسؤولون الأوروبيون من الانتقادات الضمنية التي تقول إن الأوروبيين لا يستطيعون التعامل مع الاختلاف، وأنهم غارقون في أزمة حضارية لم تصل أبداً إلى الأراضي الأميركية. صار بإمكان الساسة الأمريكيين الآن القيام بجولة في أحياء أوروبية "الحساسة". قال مساعد الكونغرس كيفن كيسي ضاحكاً للصحافة الفرنسية بعد رحلة مشابهة إلى ضاحية سين سان في شمال باريس في مايو 2008م: "أعتقدون أن هذا غيتو؟ يتوجب عليكم رؤية برونكس - سألتقط صوراً لأريها لأصدقائي".

أعرب الصحفيون الفرنسيون عن غضبهم من محاولة استخدام "القوة الناعمة" الأميركية، قائلين إن "غسل أدمغة" الزعماء المسلمين المستقبليين يشكل "تدخلاً مباشراً" ينتهك السيادة الفرنسية، ويقوض سلطة المؤسسات الفرنسية. استاءت وسائل الإعلام الفرنسية عندما أحضر السفير الأمريكي تشارلز ريفكين، المسؤول التنفيذي السابق في هوليوود، الممثل سامويل إل جاكسون لزيارة مركز مجتمعي في ضواحي بوندي في شمال باريس في أبريل 2010م، وخاطب جاكسون مجموعة من الشباب، مقارناً نضالاتهم بالصعوبات التي واجهها في طفولته في ولاية تينيسي في فترة الفصل العنصري. كانت هناك لحظة محرجة أخرى عند إزاحة الستار عن لوحة جدارية مرسومة لمارتن لوثر كينغ في كلية مارتن لوثر كينغ في فيليبس لو بيل - وهي ضاحية باريسية مضطربة أخرى - عندما وقف مجموعة من الأطفال الأفارقة والعرب حول السفير ريفكين وغنوا: سننتصر".

تصوير تواصل وزارة الخارجية مع المسلمين كاستجابة لـ "تصاعد الأهلانية" (186) في أوروبا، يغضب اليمين الذي يرى مبادرات واشنطن المبتذلة على أنها تنتهك سيادتهم، لأنهم أكثر حذراً خيال ولاء مواطنيهم المسلمين. نشرت صحيفة لو باريزيان اليومية قصة على الصفحة الأولى في أبريل 2008م، حول مبادرات وكالة الاستخبارات المركزية المزعومة في الضواحي. لكن المرجح في يومنا هذا، أن تشير عناوين الأخبار إلى أنشطة وكالة الأمن الوطني.

إذا كان المسلمون الأوروبيون غالباً ما يُتهمون بأنهم موالون لأرضهم الأصلية، أو إلى بعض الحركات الإسلامية العابرة للحدود؛ فقد صاروا يُرَوّن الآن كطابور خامس للولايات المتحدة، (تماماً مثل الأقليات الدينية في العالم الإسلامي). يتحدث اليمينيون الفرنسيون عن "حصان طروادة" المستلم، في مقارنة بين الرحلات التي ترعاها وزارة الخارجية لإرسال المسلمين الفرنسيين الشباب إلى الولايات المتحدة، بالرحلات التي تمت برعاية الاتحاد السوفياتي في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، والتي أخذت المثقفين الفرنسيين إلى روسيا لتجربة فوائد الاشتراكية. وعلى الرغم من أن هذا الخطاب قد يبدو محموماً للغاية، إلا أنه من الواضح أن مبادرات الولايات المتحدة لمكافحة التمرد في العراق والصومال وأفغانستان لديها الآن مماثل طبيعي أكثر لطفاً، موجة نحو الأطراف الحضرية في غرب أوروبا.

المفارقة أنه وعلى الرغم من الضجة التي يثيرها الصحافيون والسياسيون، فإن الشباب المسلم الذين هم أهداف هذه المبادرات ممتنون للغاية. إذا كان الهدف من "برامج الأقلية" هو خلق انطباعات إيجابية حول الولايات المتحدة، فإن الأمر ناجح. قدر النشطاء الأوروبيون المسلمون الصراحة الوحشية لبرقيات ويكيليكس. ازدادت الآراء الإيجابية حول الولايات المتحدة في فرنسا بشكل حاد منذ عام 2008م. لكن الشباب المسلم يدرك السياسات الحساسة المرتبطة بقبول العروض الأمريكية. قالت وداد كتفي، وهي مدونة في السابعة والعشرين من عمرها شاركت في برنامج ترعاها السفارة، إنها تعرف أن السفارة الأمريكية استهدفتها بسبب خلقيتها الجزائرية المسلمة، لكنها أضافت: "ما يضايقني هو أن أكون هدفاً للدولة الفرنسية". يعتقد النشطاء المسلمون ورجال الأعمال أن علاقتهم بالسفارة الأمريكية يمكن أن تساعد في الحصول على تنازلات أفضل من حكوماتهم، رغم استيائهم من مراقبة وكالة الأمن القومي واستيراد وسائل الشرطة الأمريكية إلى المدن الأوروبية. يقول إبراهيم عكروة، وهو محام في حركة مناهضة العنصرية ومعاداة السامية وكره الأجانب (MRAX) في بروكسل: "يمكننا أن نطلب من الحكومة البلجيكية المساعدة، دون رد. ولكن إذا حصلت على

مساعدة من السفارة الأمريكية، فسيستجيب المسؤولون البلجيكيون ويقدمون الدعم".

وبالنظر إلى جميع الحكومات والحركات الاجتماعية التي تقدم المساعدة الآن في المحيط الحضري الأوروبي، فإن اتخاذ قرار بشأن رقص أو قبول الأموال، وقبولها من أي جهة، يتضمن بعض المخاطر. ظهرت السفارات الأمريكية ودول الخليج كملاذ أخير للتمويل منذ الانهيار المالي في عام 2008م. في عام 2012م، قررت قطر استثمار خمسين مليون يورو في الضواحي الفرنسية لتشجيع رواد الأعمال؛ ولكن بعد غضب "الجهة الوطنية"، التي قال قادتها إن المال كان يهدف إلى "أسلمة" الشباب الفرنسي، قرر القطريون تقسيم الأموال لتشمل باريس ذاتها وليس فقط الضواحي.

قبول الأموال من السفارة الأمريكية يمكن أن يؤدي إلى فقدان المصداقية أيضاً. يقول سامي وقاص، الذي يدير مركزاً للشباب في برلين: "إذا أخذت مالا من سفارة الولايات المتحدة، فلن تتمكن من الظهور في تجمع سياسي يحتج على السياسة الخارجية الأمريكية. سوف يسميك الناس الدمية الأمريكية. ولكن إذا ظنت السفارة الأمريكية أنك معتدل، فستظن السلطات المحلية أنك معتدل وتتركك وشأنك".

يغضب آخرون من صفة "الاعتدال". المصطلح بالنسبة للعديد من المسلمين هو علامة سيطرة تعني في الأساس الإذعان، والحركات التي لها جاذبية بين الشباب المسلم تعرف أنها قد تفقد مصداقيتها بمجرد أن يتم احتضانها من قبل السلطات المحلية، أو من قبل سفارة معينة. في يناير 2011م، قبل إصدار برنامج المنع الثاني، كان المعلقون البريطانيون يناقشون "السلفية المعتدلة"، وأنتجت صحيفة الغارديان فيلماً وثائقياً قصيراً عن كيفية مراقبة السلفيين البريطانيين للتطرف في وسطهم. غضب عبد الرحمن، الزعيم السلفي المحنك من لوتون، عندما أثني المحاور على اعتداله. "لماذا تدعوني مسلماً معتدلاً الآن؟ أليس هذا اسماً مؤقتاً فقط حتى نقوم بعملك اليومي من أجلك، ونزيل شر المهاجرين [جماعة مسلحة تحظرها الحكومة البريطانية]؟ ثم ستعود لتصفنا بماذا؟ المتطرفين؟ المسلمين الأصوليين؟" ومن ثم سأل بنبرة محترمة جداً، "لماذا تصفنا الآن بالمسلمين المعتدلين؟ فانا ما زلت أؤمن بحكم الإعدام، وما زلت أعتقد أن المثلية الجنسية غير صحيحة من الناحية الأخلاقية، وما زلت أعتقد أنه يجب قطع يد السارق. فهل أنا حقاً مسلم معتدل؟"

الفصل العاشر

العامل إكس

في أبريل 2010م، أرسلت وزارة الخارجية مجموعة الراب "تشن لو أند ذا ليبريشن فاميلي(187)" ومقرها بروكلين- لتقديم أداء في دمشق. عقب انتهاء العرض سأل مذيع شبكة سي بي إس نيوز، هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية آنذاك، حول احتضان الدبلوماسية الأمريكية للهيپ هوب مؤخراً. فقالت: "الهيپ هوب هو أمريكا"، مشيرة إلى أن موسيقى الراب، وغيرها من الأشكال الموسيقية، يمكن أن تساعد في (إعادة بناء صورة الولايات المتحدة). "تعلم أن هذا قد يكون تفاؤلياً قليلاً، فأنا لا أستطيع أن أشير إلى تغيير في السياسة السورية بسبب تقديم تشن لو أند ذا ليبريشن فاميلي عرضاً هناك. لكنني أعتقد أنه يتعين علينا استخدام كل ما متاح من أدوات". وعلى عكس الدول الأوروبية التي تروج لأنواع معينة من موسيقى الهيپ هوب على غيرها، فإن مبدأ الحكومة الأمريكية في الهيپ هوب -في الداخل- إلى حد كبير (دعه يعمل دعه يمر)(188). لكن على المستوى الدولي، تعتبر دبلوماسية الهيپ هوب الأمريكية أكثر تدخلية، ويستخدم الهيپ هوب لإعادة صياغة صورة أمريكا، تعزيز الديمقراطية والتنمية الاقتصادية، وتغيير سلوك الدول الأخرى أيضاً. قالت كلينتون: "في النهاية عليك أن تراهن، أنك إن أعطيت الناس الخيار، سيختارون الحرية على الاستبداد"، مشيرة إلى أن الدبلوماسية الثقافية هي لعبة معقدة كـ "الشطرنج متعدد الأبعاد". "هل يمكن أن يكون الهيپ هوب قطعة شطرنج؟" ردت وزيرة الخارجية، "بالأكيد!".

عندما برز الهيپ هوب كقوة سياسية بين الشباب في العقد الماضي، تدخلت الأنظمة لترويج بعض الأنماط الفرعية وتهميش البعض الآخر، في محاولة لتحقيق أهداف سياسية. قامت وزارة الثقافة الكويتية في عام 2002م بتأسيس وكالة الراب الكويتية، ومجلة موفيمينت، لخلق هيپ هوب ثوري يعطي صوتاً لـ "مضطهدي العالم"، وللتأكد من أن الأغاني المشتبه بـ "انحرافها الأيديولوجي" لن تثبت على الهواء. قام الرئيس القنزويلي هوغو شافيز بتمويل مدارس الهيپ هوب في جميع أنحاء البلاد، ودعا مغني الراب البوليفيين إلى برنامج التلفزيوني (ألو سيدي الرئيس)(189). في الولايات المتحدة، حاول مايكل ستيل، وهو أول أمريكي من أصل إفريقي يشغل منصب رئيس اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري، أن يغير توجه الحزب الجمهوري نحو "الهيپ هوب"، ويحول أفكارهم تجاه "استخدام الهيپ هوب في المناطق الحضرية - الضواحي". كما استخدم الجيش الأمريكي، بالشراكة

مع مجلة ذا سورس، ثقافة الهيب هوب في حملته "لنخرج إلى الشارع"، لتجنيد "المراهقين الحضريين". ولكن في الحرب على الإرهاب، وفي تعامل الدول الغربية مع المدن ذات الأغلبية المسلمة والمسلمين في أوروبا، فإن تعبئة الحكومة للهيب هوب ملحوظة أكثر. ففي حين أن الدول الأوروبية تستخدم هذا النوع لدمج سكانها المسلمين، فقد جعلت الولايات المتحدة الهيب هوب جزءاً من تواصلها مع العالم الإسلامي. الموسيقى نفسها التي تم لومها على مجموعة من العزل الاجتماعية في الوطن-العنف، كره النساء، النزعة الاستهلاكية وضعف الأداء الأكاديمي- يتم نشرها في الخارج على أمل جعل أمريكا آمنة ومحبوبة أكثر.

برز الجدل حول الهيب هوب والسياسة الخارجية الأمريكية في عام 2011م، عندما أعجب الصحفيون بدور الراب في الثورات العربية. في أوائل يناير من ذلك العام، عندما انتشرت الاحتجاجات الجماهيرية عبر تونس، اقتحمت الشرطة منزل حمادة بن عمور، مغني الراب البالغ من العمر 22 عاماً والمعروف باسم الجنرال. ظل نظام الرئيس ابن علي يتحرش بمغني الراب منذ فترة طويلة، وحظر إذاعة أغاني علي محمد جندوبي، المعروف باسم سايكو-إم على موجات الأثير لأنه اعتُبر فناناً يتعاطف مع الإسلاميين. لكن موسيقى الجنرال تجاوزت الرقابة. فأغنيته "ريس البلاد"-وهي خطاب مفتوح إلى ابن علي، انتقد فيه غياب الحرية في تونس، والقوانين المناهضة للحجاب- أصبحت النشيد غير الرسمي للثورة. ثم القبض على ابن عمور واعتقل لثلاثة أيام؛ ومنعت السلطات الأغنية، وحظرت صفحته على موقع ماي سبيس، وأوقفت خدمات هاتفه الجوال. لكن قناة الجزيرة كانت قد استولت على التسجيل بالفعل: وبث التسجيل من ميدان التحرير في مصر إلى دوار اللؤلؤة في البحرين.

كانت وسائل الإعلام الفرنسية تتحدث عن "ربيع الراب". أعطت مجلة التايمز عنوان "الغضب، الراب والثورة" لقصة غلافها حول "الشباب العربي". وقد سمت المجلة حمادة بن عمور كأحد أكثر 100 شخصية مؤثرة في عام 2011م، ووضعت في مرتبة أعلى من الرئيس باراك أوباما. كما زعمت الإذاعة الوطنية العامة أن "توباك شجع الربيع العربي". صحيح أنه في الوقت الذي عمت فيه قوات الأمن الشوارع، كان الفنانون في تونس والقاهرة وبنغازي وحمص يكتبون كلماتهم ويجمعون لقطات الاحتجاج والإيقاعات والقوافي التي حملت على خوادم بروكسي. عزفت الأغاني المرتجلة في التجمعات ومسيرات التضامن، في لندن ونيويورك وواشنطن؛ استجابت جماعات المعارضة المنفية والجاليات المسلمة بالتحايا الموسيقية. قام خمسة مغني راب مسلمون أمريكيون، بزعامة عمر أوفیوند، بأداء أغنية "25 يناير" دعماً

للمتظاهرين في ميدان التحرير، في 6 فبراير. تلقت الأغنية أربعين ألف زيارة على يوتيوب خلال الليل. غنى عمر: "لقد سمعتمهم يقولون إن الثورة لن تكون متلفزة، وأثبتت قناة الجزيرة خطأهم؛ وشلهم موقع تويتر". توسعت حلقة الرباب بين المحتجين وشباب الشتات الإسلامي على جانبي المحيط الأطلسي، لكن لا ينبغي المبالغة في دور الموسيقى. لم يتسبب الهيب هوب في حدوث الثورات أكثر من تويتر أو فيسبوك، فالبلدان التي تتمتع بمشاهد هيب هوب أكثر حيوية كالمغرب والجزائر، لم تشهد ثورات. أنتشار الحركات الشعبية عبر الحدود ليس ظاهرة جديدة في العالم العربي. حدثت انتفاضات عام 1919م، التي اجتاحت مصر وليبيا وتونس، قبل ظهور الإنترنت أو وسائل الإعلام الاجتماعية أو الرباب بفترة طويلة.

يبدو أن الثورات تنتعش وتتفاعل مع عصور الثورات السابقة. فقد أثارت الانتفاضات في شمال أفريقيا، وحركة "احتلوا" (190) في أوروبا، والمواجهات بين الولايات المتحدة وإيران اهتماماً بالاستينيّات وعصر إنهاء الاستعمار، مستعيدة شخصيات كتشي غيفارا، وعلي شريعتي. هذا الاهتمام، غالباً، بسبب التشابه بين "الحرب العربية الباردة" في عام 1960م -التي حرضت مصر عبد الناصر وحلفاءه الاشتراكيين لمناهضة المملكة العربية السعودية والملكيّات المحافظة، بدعم من الولايات المتحدة- و"الحرب الباردة الحالية في الشرق الأوسط" بين السعودية وحلفائها، وإيران وحلفائها (سوريا والعراق وحزب الله). شكلت منافسات عام 1960م بين مصر والمملكة العربية السعودية، وكفاح الحرية الأسود في الولايات المتحدة، معاً، المجتمعات المسلمة في الغرب بطرق لا يزال يتردد صداها. صناع السياسة في أوروبا والولايات المتحدة يلاحظون التشابه بين التشدد العرقي في عام 1960م في أمريكا، والتشدد الإسلامي اليوم. وأصبح المسؤولون الأمريكيون يعتقدون أن الدبلوماسية الثقافية تتمحور حول العرق والتنوع، ويمكن لحركة الحقوق المدنية أن تكسب الشباب المسلم.

مع ذلك، فإن تنظيم الاحتجاجات الثقافية السوداء -سواء كانت موسيقى الهيب هوب أو كلمات مالكوم إكس- لمواجهة التشدد الإسلامي، أمر مثير للسخرية. حذرت الولايات المتحدة، قبل نصف قرن، من الكيفية التي يمكن بها للعنف العرقي أن يجد قضية مشتركة مع قومية العالم الثالث، ودعمت الحركات السنّية المحافظة باعتبارها ثقلاً موازناً للإسلام القومي الأكثر راديكالية الذي وضعه إليجا محمد ومالكوم إكس. ونظراً لأن العديد من التناحرات بين الدول وداخل المسلمين تعد في الغرب، فإن الإسلام الأميركي الأفريقي جزء من المنافسة الأيديولوجية، باستثناء أن المسؤولين الأميركيين يقومون بنشر التاريخ الأسود اليوم لمواجهة الإسلام.

الدبلوماسية السليمة

أصدرت اللجنة الاستشارية للدبلوماسية الثقافية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، في عام 2005م، تقريراً ذكرت فيه أن: "الدبلوماسية الثقافية هي محور الدبلوماسية العامة. ففي الأنشطة الثقافية يتم تمثيل فكرة الأمة حول نفسها بشكل أفضل. ويمكن للدبلوماسية الثقافية تعزيز أمننا القومي بطرق خفية وواسعة النطاق ومستدامة... لأن القيم المتضمنة في تقاليدنا الفنية والفكرية تشكل حاجزاً ضد قوى الظلام". في العام نفسه تم إحياء مبادرة الجاز التي أنشئت خلال الحرب الباردة، في برنامج يدعى "طريق الإيقاع" (191)، وهو شراكة بين وزارة الخارجية، جاز أت لينكولن سنتر (192)، أكاديمية بروكلين للموسيقى ومركز كينيدي. قدمت وكالة وزارة الخارجية للدبلوماسية العامة كارين هيوز البرنامج بعد أن صدق عليه الرئيس جورج دبليو بوش في أعقاب إنشاء أبو غريب وعودة حركة طالبان. منذ نشأتها، شملت موسيقى "طريق الإيقاع" موسيقى الجاز والموسيقى "الحضرية / الهيب هوب"، واعترفت بدور الهيب هوب باعتباره "لغة موسيقية عالمية". ويدعو البرنامج اليوم فرقاً موسيقية تؤدي ألواناً أخرى لتجارب الأداء - كالبلوغراس (193)، الكانترى (194)، الغوسبل (195)، الكيجون (196)، الزايدكو (197) والفولك (198) — لكن المبادرة لا تزال تعتمد بشكل كبير على الموسيقى السوداء.

في عام 2005م، بدأت وزارة الخارجية بإرسال "مبعوثي موسيقى الهيب هوب" -الرابرز، الراقصين ومنسقي الموسيقى- لتقديم عروض في أجزاء مختلفة من أفريقيا، آسيا والشرق الأوسط. كان الشاعر توني بلاكمان أول سفير لهواة موسيقى الهيب هوب. وتم إرسال مجموعات أخرى كتشن لو أند ذا ليبريشن فامبلي، ليغاسي، ذا ريمبايندرز، نيتيف ديين وكوكايي. غطت الجولات جزءاً واسعاً من العالم الإسلامي، وأقامت عروضاً في السنغال وكوت ديفوار، عبر شمال أفريقيا، الشام، الدول العربية، وامتدت إلى منغوليا وباكستان واندونيسيا. قام الفنانون بتقديم عروض مسرحية، وأقاموا ورش عمل؛ تحدث سفراء الهيب هوب المسلمين إلى وسائل الإعلام المحلية، عن كونهم مسلمين في أمريكا، وحاولوا "تصحيح سوء الفهم السائد بأن المسلمين مضطهدين في الولايات المتحدة".

موسيقى الهيب هوب، باختصار، هي الموسيقى المفضلة لـ "إدارة المعرفة" و"التواصل الاستراتيجي" مع الشباب المسلم، بسبب علاقة الهيب هوب الأمريكي الطويلة بالإسلام. لكن لا يتمتع الهارد روك (199) أو الهيفي ميتال (200) بالجاذبية نفسها. وغالباً ما اتهم فنانون الهيفي ميتال، في الدول

ذات الأغلبية المسلمة -بسبب شعورهم الطويلة، وملابسهم السوداء- أنهم "عبدة شيطان"، وأكلو قطط. وارتاب الناس من هذا النوع في العقد الماضي، أكثر، لأنه استخدم لتعذيب المحتجزين في العراق وأفغانستان وغوانتانامو. يشرح جوناثان بيسلاك في كتابه "أهداف سليمة"، كيف تم استخدام موسيقى الميتال في التحقيقات في العراق، ليس فقط بسبب أن "مسنن مضاعفة السرعة في الغيتار" يمكن أن يسبب "الحرمان الحسي"، ولكن أيضاً لأن الضباط الأمريكيين عرفوا أن العراقيين وجدوا هذا النوع "مسيئاً ثقافياً"، "شيطانياً"، و"كفرياً". أصبح صوت "الغيتارات الإلكترونية" مرتبطاً أيضاً بدوريات عسكرية في العراق وأفغانستان، حيث كان الجنود الصغار يتجولون في سيارات الهامفي (201) وهم يشغلون موسيقى الروك. بدأ المتمردون العراقيون بدورهم في نشر أشرطة فيديو محلية الصنع للجنود الأمريكيين المتورطين في أعمال عنف بمرافقة هذه الموسيقى الصاخبة، من أجل تجنيد الناس في حركة التمرد. نادراً ما تذكر الدراسات التي أجريت حول الموسيقى والاستجواب في العراق وأفغانستان الهيب هوب. باستثناء أغنية إيمينيم "White America"، كانت الأغنيات التي تستخدم لكسر المحتجزين من الروك والميتال فقط، مثل أغنية "Angel of Death" لفرقة سلاير، و"Let the Bodies Hit the Floor" لفرقة دراوينغ بوول، و"Fuck Your God" لفرقة ديسايد. تتصدر قوائم التشغيل في التحقيقات. لكن استخدم الهيب هوب أكثر للإقناع الثقافي.

لم يكن اختيار موسيقى الجاز أثناء الحرب الباردة بسبب جاذبيتها الدولية. وكما تقترح بيني فون إيشين، فقد شعرت وزارة الخارجية الأمريكية في خمسينيات القرن الماضي، أن ثقافة الأميركيين-الأفارقة يمكنها "نقل الشعور بالمعاناة المشتركة، فضلاً عن الاقتناع بأنه يمكن تحقيق المساواة في ظل النظام السياسي الأمريكي" للشعوب التي عانت من الاستعمار الأوروبي. يدعم تفكير مماثل مبادرة "دبلوماسية الهيب هوب". إن اختيار موسيقى "الهيب هوب"، التي تصنف بشكل كبير على أنها "إباحية"، لتمثيل الولايات المتحدة في جزء محافظ من العالم ليس أمراً بديهياً. ومع ذلك، فإن مخططي وزارة الخارجية الذين ينادون بـ "الاستفادة من الهيب هوب" في السياسة الخارجية الأمريكية يؤكدون على "أهمية الإسلام في جذور الهيب هوب في أمريكا". ويشير تقرير "بروكنغز" الذي أعده مهندسو البرنامج إلى أن موسيقى الهيب هوب تلقى صدى لدى الشباب المسلم المهمش في جميع أنحاء العالم. لأن موسيقى الهيب هوب تعبر عن "ألم" يتخطى حواجز اللغة، من الغيتوات الباريسية إلى فلسطين إلى قرغيزستان. علاوة على ذلك، فقد لاحظوا أن رواد الهيب هوب كانوا مسلمين من وسط المدينة "يمارسون تقليداً إسلامياً أميركياً إفريقياً من الاحتجاج ضد السلطة، مثله مالكوم إكس

بأقصى قوة". ويختتم التقرير بالدعوة إلى "تسخير أكبر لهذا الموصل الطبيعي للعالم الإسلامي".

يتلاءم برنامج سفراء الهيب هوب مع جهد أكبر لعرض نموذج دمج أمريكا للمسلمين، ويوضح الكتاب الذي نشرته وزارة الخارجية "المسلمون في أمريكا" (2009م)، أن المسلمين الأمريكيين لديهم الحريات والامتيازات نفسها مثل الأمريكيين الآخرين. بدأت وزارة الخارجية في أواخر عام 2002م، بإصدار إعلانات الخدمة العامة، والتي تحدث فيها المهنيون الأمريكيون المسلمون عن التسامح الديني في أمريكا؛ تم عرض الإعلانات في البلدان ذات الأغلبية المسلمة. كان الهدف هو إيضاح حقيقة أن أمريكا لم تكن في حالة حرب مع الإسلام، بل مع "الإرهاب"، من خلال إظهار كيف شكل السكان المسلمون-الأمريكيون فسيفساء غنية، وأن "مخاوف وشكوك" ما بعد الحادي عشر من سبتمبر قد تضاءلت، وأن الاندماج مستمر. يفترض الكتاب أن "التمييز الذي ربما يلوح في الأفق في أماكن أخرى (مخفف) في أمريكا، بسبب التعددية العميقة التي تميز المجتمع الأمريكي". يتضمن كتاب "المسلمون في أمريكا" ملصقاً صغيراً يعرض الفنانين الأمريكيين المسلمين من أصول إفريقية: الممثل الكوميدي ديف تشابيل؛ مغني الراب كيو-تيب، رزا من ووتانغ كلان، موس ديف؛ عازف البيانو أحمد جمال؛ ورونالد بيل من كول أند ذا غانغ.

إن التسويق للمسلمين الأميركيين من أصل إفريقي من أجل إظهار أن المسلمين متكاملون اقتصادياً وسياسياً في أمريكا هو أمر مثير للسخرية على العديد من المستويات. يشكل الأمريكيين من أصل إفريقي الشريحة الأقل ثراء في المجتمع الأميركي المسلم، وهم الأكثر من الناحية الجغرافية، حيث تتركز أعداد كبيرة منهم في المناطق الداخلية من المدينة، وفي السجون. وقد تم تصوير هذا المجتمع -على الأقل منذ وثائقي مايك والاس 1959م "الكراهية التي أنتجت الكراهية" (202)- على أنه متطرف، انفصالي، غير ليبرالي، و"غير مسلم". لكن وعلى مدى العقد الماضي، بدأ الدبلوماسيون الاحتفال بالمسلمين الأمريكيين من أصل إفريقي، ربما لإدراكهم أن ما يشته به في الداخل يمكن أن يؤدي إلى أرباح في الخارج، ويساعد على الاندماج في الداخل كما هو الحال مع جولات الجاز. عندما تم إرسال فناني الجاز، سارغ مسؤولو وزارة الخارجية في الداخل لمنع صور الجولات من الوصول لممارسي الفصل العنصري في الجنوب. ومن المفارقات أنهم كانوا مدعومين في هذه المهمة بقانون سميث-موند لعام 1948م، الذي منع توزيع إنتاج وكالة الإعلام الأمريكية داخل الولايات المتحدة.

إدارة المعرفة

ارتفعت المواقف المتباينة بين الليبراليين في وزارة الخارجية والمسيحيين الجنوبيين تجاه الإسلام إلى الصدارة خلال الجدل الذي دار حول مكافحة المساجد في عام 2010م. ركز النشطاء المسلمون طاقتهم السياسية منذ سبتمبر 2001م على تحدي قمع الدولة، سياسات الترحيل، الترحيل السري، التنميط والتنصت على المكالمات الهاتفية. لكن الحملة المناهضة للمساجد، التي قادها حزب الشاي، دفعتهم إلى تغيير التوجهات. فأطلقوا حملة لرفع الوعي حول الوجود الإسلامي في أمريكا، بدءاً من تاريخ العبيد المسلمين الذين جلبوا إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر وما تلاه. وحكى قادة المجتمع أن جورج واشنطن كان لديه امرأتان أفريقيتان مسلمتان -أم وابنة، "فاطمة" و "ليتيل فاطيمر"- في منزله في ماونت فيرنون. في المسيرات المتعددة (والمواجهات المضادة) في غراوند زيرو، أظهرت لافتة معلقة في الجهة "المؤيدة للمساجد" صورة أحد الأفارقة في رداء أبيض بجانب رسم لسفينة العبيد، تحت حروف حمراء كبيرة، "وجد الإسلام في نيويورك منذ 400 عام". أشار النشطاء إلى موقع مدفن أفريقي تم اكتشافه في عام 1991م، في برودواي وشارع ريد، على بعد بضعة مبانٍ من موقع المسجد بروبوسد، وسردوا قصة محمد باكواكا، وهو بحار وعبد، هرب عام 1847م من سفينة برازيلية رست في مانهاتن السفلى، حتى إنهم كتبوا السيرة الذاتية لمحمد غاردو باكواكا، وهي قصة مهمة حول هذا العبد، تبدأ بتوصيف نشأته المسلمة في بيرغو (شمال بنين الآن).

أرسل الإمام فيصل عبد الرؤوف -في خضم غضب المساجد- الذي كان آنذاك قائد مركز برك 51، في جولة دبلوماسية في الخليج الفارسي، بكلمات البيت الأبيض: "لتقديم وجهة نظر معتدلة للجمهور الأجنبي حول وضع الأئمة المسلمين في أمريكا". تم تجنيد رؤوف في فبراير 2006م، بواسطة كارين هيوز، قيصر الدبلوماسية العامة، وقد سافر على نطاق واسع في الشرق الأوسط وآسيا، وحاور مجموعات محافظة مثل حزب التحرير من خلال توجهه الصوفي، وزعم أن الليبرالية الأمريكية تتفق مع أساسيات الشريعة. ورأى رؤوف، مثل غيره من سفراء النوايا الحسنة للمسلمين، أن تمثيل الولايات المتحدة في الخارج قد يؤدي إلى إضعاف المشاعر المعادية للمسلمين في الداخل، وخلق دعم سياسي لمشاريعه المختلفة في نيويورك (على الرغم من خدماته الدبلوماسية، وعندما حان الوقت، طلب هيوز من الإمام أن ينقل المسجد كـ "علامة على الوحدة" و"المجاملة"). وقد قسمت الدبلوماسية العامة للإمام -ومشروع مسجده- مجتمع المسلمين الأمريكيين، على طول خطوط الشمال والجنوب، وكره الكثيرون دفاعه عن الليبرالية

الأمريكية في الخارج بينما يعانون من القسوة السياسية الشديدة التي أثارها مشروعه، جزئياً. ولم يساعد بيان ديفيد باترسون حاكم ولاية نيويورك في دعم مسجد رؤوف. قال باترسون لتلفزيون سي بي أس، "المجموعة التي أسست هذا المسجد، تُعرف باسم المسلمين المتصوفة. إنهم ليسوا مثل الشيعة". "إنهم هجين، وغربيون تقريباً". استاء المسلمون في الجنوب من إصرار رؤوف على بناء مركز قريب من غراوند زيرو، بينما هم تحت خط ماسون-ديكسون، يتحملون عبء رد الفعل العنيف. غرد الشاعر الشاب ريمي كنازي "أعزائي المسلمين: يريد الإمام رؤوف أن تعرفوا أنكم محظوظون. بينما هو في جولات وزارة الخارجية، يتم اختراق مساجدكم، اقبلوا الأمر!".

زار مبعوثو الهيب هوب أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، بينما تجول الإمام رؤوف في الخليج. في يوليو 2010م، كان راقصو البريك دانس الممولون من وزارة الخارجية يقومون بعروض في المغرب والجزائر. في سبتمبر قدم مغنيا الراب فيفتي تايسون وكوماسي أداءً في إندونيسيا. تم عرض أفلام عن الإسلام والهيب هوب داخل أمريكا في السفارات الأمريكية في آسيا وأفريقيا إلى جانب تلك الجولات. عرض فيلم نيو مسلم كويل، عن مغني الراب البورتوريكي، الذي اعتنق الإسلام، في السفارات الأمريكية في الأردن والعراق وأنغولا والبحرين. عُرض فيلم "الأمير بين العبيد" في السنغال وغامبيا وبنغلادش، والذي يروي قصة غير عادية عن إبراهيم عبد الرحمن، الذي ولد في عام 1762م لملك تيمبو، حاكم شعب فولبي في غينيا اليوم. تولى الأمير قيادة جيش والده عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، وتم أسره في الحروب عبر المحيط الأطلسي، لينتهي به المطاف في مبنى المزداد في ناثشيز بولاية مسيسيبي. وقد أدت خلفيته الملكية وتعليمه إلى تحريره في عام 1828م، فسافر إلى الشمال وتحدث إلى جمهور كبير عن تحوله إلى المسيحية، وكتب باللغة العربية ليسحر سكان الشمال لكي يجمعوا الأموال لشراء حرية أطفاله. بالإضافة إلى الأفلام، تُعرض الروايات الفعلية للمسلمين المستعبدين في أمريكا - في مخطوطات مكتوبة باللغة العربية - في البؤر الاستيطانية الدبلوماسية. عرضت السفارات الأمريكية في نيجيريا وقطر النص العربي المكون من ثلاث عشرة صفحة الذي كتبه بيلالي محمد في عام 1829م، في مجموعة من الأغطية الجلدية؛ بينما عرضت البعثة الأمريكية في الأمم المتحدة نص عمر بن سعيد من 1836م. من المثير للسخرية أن آخر مرة لفتت هذه الكتابات انتباه الحكومة إليها كانت في منتصف القرن التاسع عشر، عندما سعت الجمهورية الأمريكية الشابة إلى شق طريقها إلى الأجزاء الإسلامية في أفريقيا، وبالتحديد الساحل البربري والمنطقة التي ستصبح ليبيا. فقد حصل الأمير إبراهيم على حريته لأن الرئيس جون كوينسي ادامز، ووزير الدولة هنري كلاي، وجمعية الاستعمار

الأمريكية (التي تبنت قضيته) ظنوا أن تحريره قد يزيد من مصالح الولايات المتحدة. اعتقد كلاي أنه بالإمكان إعادة إبراهيم بعد تحريره إلى المغرب واستخدمه كورقة مساومة لإطلاق سراح الأمريكيين المحتجزين لدى السلطان عبد الرحمن الثاني.

كان اهتمام جمعية الاستعمار الأمريكية بالعبيد المسلمين استثنائياً. هذه المنظمة التي أسسها كلاي في عام 1817م من أجل "إعادة" العبيد الأفارقة إلى ليبيريا، رأت العبيد المسلمين المتعلمين كأداة قيمة لفتح غرب أفريقيا على المصالح الاقتصادية والدينية الأمريكية. نُظر إلى المسلمين الأفارقة في أمريكا على أنهم وسطاء طبيعيين في التعامل مع المسلمين والوثنيين في ساحل غرب أفريقيا. كان العبيد المسلمون (اسمياً) قد اعتنقوا المسيحية، وكانوا مدينين للولايات المتحدة بحريتهم الجديدة، ويمكن أن يساعدوا في نشر الإنجيل والحضارة الأمريكية في أفريقيا. وعندما نمت حركة إعادة إلى الوطن، اكتسب العبيد المسلمون المتعلمون، وقصصهم، أهمية سياسية أكبر في الولايات المتحدة. فقد تنافس بعضهم على التحول إلى المسيحية، وأرسلتهم جمعية الاستعمار الأمريكية (أو شركة أفريقيا الملكية) إلى ليبيريا وسيراليون بكتب مقدسة باللغة العربية.

بينما تحاول الولايات المتحدة اليوم تعزيز موقعها عبر حزام الصحراء، يظهر المسلمون الأمريكيون من أصل أفريقي مرة أخرى كوسيط. ولكن من الغريب أن تتبنى واشنطن هذه السياسة في وقت يشك فيه العديد من الأمريكيون بأن أول رئيس أسود في البلاد مسلمٌ سرّاً، وينضمون إلى الحملات لحظر الشريعة في المدن الأمريكية، وتقييد بناء المساجد والمدارس الإسلامية. وكما هو الحال في جولات الجاز في الخمسينيات، فإن المحافظين الذين حذروا من "الشريعة الزاحفة" قد يغضبون اليوم لمعرفة أن وزارة الخارجية تعرض قصص الرقيق العرب لإظهار وجود المسلمين في أمريكا منذ القرن السادس عشر، وتضع صور فرقة وو تانغ كلان في منشوراتها، وأن فعاليات السفارة الأمريكية تسلط الضوء على خلفية أوباما الإسلامية. لكن فكرة "الأمريكيين الأفارقة" كوسيط مع العالم الإسلامي لا تقتصر على الدبلوماسية العامة، فقد كتب الناقد الأدبي مصطفى بيومي، "يظهر الأمريكيون الأفارقة في الثقافة الشعبية كقادة للأمة والإمبراطورية الأمريكية"، مشيراً إلى مجموعة فرعية من الأفلام: "الحصار" و"المملكة" و"الخائن"، ومسلسل "الخلية النائمة" الذي يعرض على شبكة HBO، والذي يصور "السود على رأس" الإمبريالية الليبرالية الأمريكية، وعلى أنهم يستطيعون، بسبب معاناتهم السابقة، تحقيق مستوى من التواصل البشري مع العرب والمسلمين لا يستطيع البيض تحقيقه.

بدأت الدول الأوروبية بإرسال فناني الهيب هوب المسلمين لتقديم عروض في البلدان ذات الأغلبية المسلمة. أرسل المجلس الثقافي البريطاني، مرتين، ثنائي الهيب هوب "مكه تو مدينة"، لتقديم أداءات في شمال نيجيريا، وهي منطقة بها توترات طائفية عالية. وقد أشاد بهما رئيس شرطة الأخلاقيات علناً بعد أن قدموا أداء عام 2007م في كانو، واحدة من اثنتي عشرة ولاية نيجيرية تحكم بموجب الشريعة الإسلامية، ووصفهما بأنهما غريبان لكن ورعان. كما بدأ المجلس الثقافي البريطاني بتنظيم ورش عمل الهيب هوب في طرابلس، والترويج لفرقة إلكتروك ستابس، "فرقة الهيب هوب الوحيدة في ليبيا"، كوسيلة لتشجيع الإصلاح السياسي في ذلك البلد. ورعى الاتحاد الأوروبي منذ عام 2011م مهرجان (السلام عليكم) السنوي في نواكشوط، موريتانيا، على أمل أن يساعد "مشروع موسيقى الهيب هوب" في تحقيق الاستقرار في منطقة الساحل.

أمريكا ضد السرد

ينتهي النقاش الأمريكي حول التطرف والعنف الجهادي إلى مدرستين فكريتين تقريباً. هناك تحالف في أحد المعسكرات، بين الواقعيين واليساريين، وحركات ما بعد الاستعمار، الذين يعتقدون أن التطرف هو استجابة لسياسة، أو مجموعة من السياسات الأمريكية، وعلى الجانب الآخر -المحافظون الجدد والليبراليون الدوليون- الذين يعتقدون أن العنف الإسلامي ينمو من الأيديولوجية والسرد، وليس مجرد معارضة للعمل الأمريكي. يشرح فريد زكريا، أحد مؤيدي وجهة النظر الأخيرة هذه: "احتالت السياسة الخارجية للولايات المتحدة -على مر السنين- على العديد من البلدان في أمريكا اللاتينية، وقتلت ملايين الفيتناميين، مع ذلك لم نر الإرهاب ينبثق من تلك الأوساط". إن كان الواقعيون يدافعون عن سياسة خارجية أقل تدخلاً -"التوازن في الخارج"- بطريقة ما، لمنع التطرف، فإن المحافظين الجدد، الذين يعتقدون أن جذور العنف إما ثقافية أو لاهوتية، هم الأكثر دعوة إلى التدخل العسكري، ويبدلون قدراً كبيراً من الجهد لدراسة القرآن الكريم والتقاليد الثقافية، لإيجاد طريقة لتعطيل "السرد". وهنا تكمن جذور الدبلوماسية العامة الجديدة -الدبلوماسية العامة 2.0- التي تنشر الموسيقى والفن والشبكات الاجتماعية وخطاب التنوع.

عندما ظهر الموسيقيون -من بينهم موسيقيو الهيب هوب- كأصوات معارضة خلال الثورات العربية، بوجود قادة محاصرين مثل الرئيس السوري بشار الأسد، يدعمون "الراب المؤيد للاستقرار" ويضيقون الخناق على الفنانين المناهضين للحكومة، قامت وسائل الإعلام الغربية بتصوير الهيب هوب، الذي

رأوه، إلى جانب وسائل الإعلام الاجتماعية، كقوة إيجابية معتدلة مركزية لحركة "مكافحة الجهاد"، وعلامة على أن الأطفال المسلمين قد تبناوا "ثقافتنا". تجاهل الصحفي روبن رايت في كتابه "روك القصة" (203): الغضب والتمرد عبر العالم الإسلامي، مجموعة من الأشكال الموسيقية المشاركة في الاحتجاج على مدى العقد الماضي، قائلاً: إن "الهييب هوب كان أول صوت للمعارضة السياسية، حتى قبل احتجاجات الشارع في عام 2011م". جادل آخرون بأن مبادرات الهييب هوب التي قامت بها وزارة الخارجية منذ منتصف عام 2000م قد "زرعت بذور الربيع العربي". تحدثت السفيرة سوزان رايس، من لجنة الهييب هوب والسياسة العالمية في البعثة الأمريكية لدى الأمم المتحدة، بحماس، في فبراير 2012م، حول زيارتها لأستوديوهات الهييب هوب في ليبيا في ذروة الحرب الأهلية.

شعر الدبلوماسيون الذين دافعوا عن "الكفاءة السياسية في القرن الحادي والعشرين"، وقاموا بتوظيف غوغل وتويتر وياهو! لتدريب النشطاء، بأنهم يدعمون الربيع العربي. دعا جاريد كوهين -الذي كان يعمل سابقاً في وزارة الخارجية، وصار يقود جهود مكافحة التطرف في غوغل أيدياز- إلى "بدائل جديدة غنية بالمحتوى"، لصرف الشباب الصوماليين واليمنيين عن التطرف، وتناظرية رقمية "لإلقاء النشرات الإعلانية من الطائرات". نظر البعض إلى نشر الثقافة والتكنولوجيا الأمريكية على أنه نجاح، وظهرت المزيد من الدراسات التي تشرح كيف يمكن استخدام الهييب هوب بشكل أكبر في الإقناع الثقافي و"رسائل مكافحة". كذلك جلبت السفارة الأمريكية في تونس مجموعة من مغني الراب من لوس أنجلوس إلى عاصمة شمال أفريقيا بعد بضعة أشهر من إسقاط الرئيس ابن علي، وبالتعاون مع الفنانين المحليين، أنتجوا أغنية لتكريم محمد البوعزيزي (204). بعنوان "شرارة شاب".

كان المراقبون الأوروبيون أقل تفاؤلاً بشأن الهييب هوب. كتب الباحث والمدون الفرنسي إيف غونزاليس كويجانو بغضب: "الإسلام السياسي لن يذوب في الهييب هوب!". شعر صانعو السياسة الأوروبيون بالقلق من أن الثورات ستثير الاضطرابات في مدنهم -بحلول منتصف عام 2011م، حدثت أعمال تضحية بالنفس (205) في أمستردام وباليرمو ومارسيليا- وخشيت الحكومات من سيل اللاجئين. بدأ القادة قلقون من تدفق الشعوب عبر البحر المتوسط، كما كان الحال مع التدفقات الموسيقية. قامت إذاعة بي بي سي راديو إكسترا بشطب عبارة "حرروا فلسطين" من أغنية مغني الراب ميك ريشوس، قائلة إن ذلك كان "لضمان الحفاظ على النزاهة". عندما اندلعت أعمال الشغب في لندن في أغسطس 2011، وضع المعلقون البريطانيون اللوم بشكل مباشر على الراب ووسائل التواصل الاجتماعي (بلاكبيرري ماسنجر على

وجه الخصوص)، ولكن ليس الإسلام، حيث قال المراقبون إن التقاليد الإسلامية - خاصة رمضان - هي التي أبقّت الشباب المسلم في البيت أثناء الاضطرابات.

أنا مالكوم إكس

قال صاحب متجر في القاهرة لصحيفة "الأخبار"، في أغسطس 2011م، إنه ومنذ سقوط مبارك، أصبحت مذكرات تشي غيفارا ومالكوم إكس بين أكثر الكتب مبيعاً. أحيت الثورات العربية الستينيات. بينما احتل الآلاف ميدان التحرير في القاهرة في يناير من ذلك العام، كانت محطات الإذاعة العربية من بروكسل إلى الدوحة تبث ساعات من الكلاسيكيات الخاصة بأمر كلثوم، ولم ينقطع البث إلا لتلقي مكالمات هاتفية من مستمعين متأثرين. غنت الأيقونة الثقافية المصرية بصوتها المرتعش "أنا الشعب، لا أعرف المستحيلاً ولا أرتضي بالخلود بديلاً". عادت على ما يبدو، الأيام العنيفة لإنهاء الاستعمار: ثار الشباب ضد نظام الدولة الظالم المدعوم من الغرب. اتجه الشباب المسلم إلى أمثال تشي غيفارا، فرانتس فانون، سيد درويش، علي شريعتي ومالكوم إكس -الذين خلدوا الآن على موقع يوتيوب- للحصول على التوجيه. ما رأي علي شريعتي في الصراع السني الشيعي؟ ما رأي مالكوم إكس في وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة؟ تحركت الدبلوماسية الأمريكية بسرعة للاستفادة من المزاج الثوري. نظمت السفارة الأمريكية في تونس في مايو 2011م، مناظرة عامة للشباب الذين يريدون أن يكونوا مثل مالكوم إكس، "هل أنت مارتن لوثر كينغ القادم؟ جمال عبد الناصر القادم؟ مالكوم إكس القادم؟ هل تستطيع أن تلهم وتحرك الناس بكلماتك؟" حتى إن وزارة الخارجية أنتجت أغاني راب لتمجيد الثورات العربية، "مدينة كومبتون، ثورية معتدلة، مثل مارغوس غارفي / بوب مارلي، سيكو توري، باتريس لومومبا، مالك شاباز، كوامي نكروما / الثورة حررتني مثل محمد البوعزيزي!"

أحد الجوانب الأكثر إثارة للاهتمام في الدبلوماسية العامة الجديدة هو الإشارة المتكررة إلى مالكوم إكس بوصفه تأثيراً راديكالياً (ومناهضاً للراديكالية). كان الدافع وراء اهتمام الحكومة بزعيم "أمة الإسلام" هو قضية جون ووكر ليند، وهو شاب أمريكي وجد خلف خطوط العدو في أفغانستان في أكتوبر 2001. كيف انتهى الأمر بهذا الصبي من الطبقة الوسطى من مقاطعة مارين بالانضمام إلى حركة طالبان؟ يقول خبراء على الإنترنت، إن ما قام بكتابته على الإنترنت يقدم الإجابة؛ غالباً ما كان ليند يتظاهر بأنه أسود في غرف دردشة الهيب هوب، واعتمد اسم دودو أو البروفيسور ج.

وقد كتب مرة، "ليس سوادنا هو ما يجعل البيض يكرهونا، إنها عنصريتهم هي التي تسبب الكراهية". تتبع الخبراء "رحلة" الشباب نحو التطرف التي بدأت في سن الثانية عشرة، عندما أخذته أمه لرؤية فيلم المخرج سبايك لي "مالكوم إكس"، بعدها قرأ السيرة الذاتية التي كتبها أليكس هالي عن مالكوم إكس، وبدأ بالاستماع إلى موسيقى الهيب هوب. لاحظ المسؤولون الأميركيون والأوروبيون، بعدها، مركزية مالكوم إكس في سياسات الشباب المسلم، وقالوا إن الفهم "المعتدل" لـ "سرد مالكوم إكس" أمر حاسم لحماية الشباب المسلم "المعرض للخطر".

يمثل مالكوم إكس عدة أشياء للشباب المسلم. فإن كان الإسلام هو الدين غير الرسمي لثقافة الهيب هوب، فإن مالكوم إكس هو النبي، أو على الأقل الشفيع؛ فقد اقتبسوا خطاباته، قلدوا ملبسه وسلوكه. وإن احتفلت موسيقى الهيب هوب بظهور الغرباء، فإن مسار ذلك الناشط في أمة الإسلام من نضال الشارع إلى الساحة العالمية، والارتفاع فوق أي/كل ولاية، متحرراً من أغلال الوطنية والولاء الوطني، وخوفه من الله فقط، كان جاذباً للشباب المسلم (وغير المسلم)، الواقعين تحت سيطرة الدولة في الأحياء الفقيرة، أو الضواحي، أو مؤسسة السجن. ففي شخص مالكوم إكس تتقاطع قوى الإسلام والتاريخ الأسود، وثباته هو الدليل على حيويتهما واستمرار انتشارهما. وكما هو الحال مع كارل ماركس والماركسية -حيث أنتج الفيلسوف الألماني عدة مقالات في العديد من المدارس الفكرية- يفتخر حقل "المالكومولوجي" بمجموعة من التفسيرات لمالكوم إكس على أساس خطاب معين أو مقابلة أو لحظة في حياته. شدد بعض العلماء على شخصية مالكوم إكس الانفصالية المبكرة، ووعدوه بالحصول على الحقوق "بأي وسيلة ضرورية"؛ وشدد آخرون على مالكوم إكس العالم السني، في أعقاب تأديته فريضة الحج. ينجذب المسلمون الشباب إلى الأهمية الراديكالية لمالكوم إكس، ويتبنون الهوية السياسية التي تتجاوز الدولة القومية؛ بينما يجادل المسلمون الاندماجيون الأكبر سناً أنه في نهاية حياته -عندما ألقى خطابه "بطاقة الاقتراع أو الرصاصة"- كان قد توصل إلى اتفاق مع أمريكا والدولة القومية. وهكذا، يقول الباحث شيرمان جاكسون، الذي شعر بالقلق من المواقف المناهضة للدولة في أوساط الشباب المسلم: "إن كان مالكوم حياً اليوم، فسيكون قادراً، وبضمير حي، كمسلم سني، أن يتخلى عن رفضه السابق والإعلان دون تردد، "نعم، أنا أمريكي"، مضيفاً أن الزعيم الأفريقي الأمريكي "كان سيلتف دائرة كاملة... من مالكوم إكس إلى "ابن تيم-إكس".

اهتم المسؤولون الأميركيون والبريطانيون بشكل خاص بشريط فيديو أفرج عنه تنظيم القاعدة بعد فوز أوباما الانتخابي في عام 2008م بفترة قصيرة،

احتفل بتشدد مالكوم إكس، ووصف الرئيس المنتخب بأنه "عبد منزل". بدأت السفارات الأمريكية في رعاية فعاليات خلال شهر التاريخ الأسود، وذكرى ميلاد مالكوم إكس، تحتفل بأوباما ومالكوم إكس معاً، وتبرز صعودهما إلى الساحة الدولية وعلاقتهم بالإسلام، وتشدد على أن مالكوم إكس كان، "رمزاً لأمريكا منفتحة وحيوية"، مما جعل فوز أوباما ممكناً. كما بدأت الحكومة البريطانية بتمويل المنظمات الإسلامية التي لديها فهم "معتدل" لمالكوم إكس، مع التركيز على تغيير تفكيره بعد الحج. كما جادل بيتر ماندا فيلي، وهو عالم سياسي وعضو في فريق هيلاري كلينتون لتخطيط السياسات، بأن الاهتمام المتجدد بمالكوم إكس، كما رأينا في الكلمات "العدوانية والصدامية" لمغني الهيب هوب البريطاني المسلمين، له تداعيات على الأمن القومي. وأشاد ماندا فيلي بعمل الحكومة البريطانية في تمويل مشروع "مكافحة التطرف" الذي جمع بين "المنح الإسلامية التقليدية والوعي الاجتماعي مع الهيب هوب" وسعى إلى حشد الشباب البريطاني الموسيقي حول "النزعات العالمية لمالكوم إكس بعد انفصاله عن أمة الإسلام ورحلاته العالمية اللاحقة".

أثارت مبادرة "أنا مالكوم إكس" لمكافحة التطرف التي ترعاها الحكومة البريطانية والسفارة الأمريكية في لندن ردود فعل متباينة، حيث قام العديد من فناني موسيقى الراب المسلمين من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة بتقديم أغان حول زعيم الحقوق المدنية. خلال أحد عروض "أنا مالكوم إكس" في لندن في مارس 2009م، أدخل كوما سي، مبعوث الهيب هوب الأمريكي، الشهادتين في عرضه، قال نصف الشهادة ("لا إله إلا الله") وطلب من الجمهور قول النصف الآخر ("محمد رسول الله")، مما أثار غضب جانبي المحيط الأطلسي. شكك صهيب ويب، وهو إمام أمريكي يعمل في بوسطن، ومنسق موسيقي سابق، وغالباً ما يعلق على المسائل الثقافية الشعبية، في فكرة "الهيب هوب الإسلامي"، وقد علق صهيب على أن تغني مبعوثي الهيب هوب الأمريكيين بالشهادتين في لندن يبدو كـ "شر متدفق سيصدع الإسلام". وقال: "إن القرآن والهيب هوب لا يختلطان ببساطة". وأعترض آخرون على استخدام مالكوم إكس لإضفاء الشرعية على مهرجان "الهيب هوب الإسلامي". وكتب أحد الحضور: "لم أعتقد أبداً أنني سأعيش لأرى اليوم الذي يرقص فيه شخص على خشبة المسرح على جملة لا إله إلا الله، ويغنيها بصحبة آلات موسيقية". "كان الناس في الواقع يفكرون أنه أمر جيد لأن كل شيء كان باسم مالكوم إكس، وأن الفنانين والمنظمين مسلمين". وأكد آخر أنه في حين أن مالكوم إكس في شبابه ربما استمتع بموسيقى الجاز ورقصات "ليندي هوب"، لكنه كان ليجد خلط الهيب هوب والقرآن غير مقبول بعد أدائه للحج.

عندما يتقاطع مبعوثو وزارة الخارجية للهييب هوب مع مغني الراب السلفيين المستقرين في السعودية -مثل لون ونابليون- والذين يجوبون أوروبا أيضاً، في محاولة للتأثير على الرأي الإسلامي الأوروبي، يمكننا رؤية السياسة الصوفية الأمريكية، والاستراتيجية السلفية للسعودية، في مواجهة صارخة. تقوم وزارة الخارجية الأمريكية بنشر إسلام متصوف لمواجهة التشدد الإسلامي -السلفي غالباً- في حين ترسل المملكة العربية السعودية المتحولين السلفيين الأمريكيين لمواجهة الصوفية والشيعة وثقافة الهييب هوب بشكل عام. قدم المبعوثون الأمريكيون مالكوم إكس كمؤيد للموسيقى متعددة الثقافات؛ وتحدث السلفي الذي يتخذ من السعودية مقراً له عن مالكوم إكس بعد أدائه الحج وتركه للموسيقى. يوضح الصراع حول إرث مالكوم إكس الجهد الكبير من جانب الدول والحركات الاجتماعية لإثبات الأهمية السوداء، ويذكرنا بأوائل الستينيات، عندما سعت الولايات والحركات المختلفة -في ذروة الحرب الباردة- إلى جذب القائد الأفريقي الأمريكي إلى معسكرهم.

نشر الإيمان

في صباح أحد أيام فبراير 2012م، قرعت جرس باب في شقة تطل على نهر إيست في غراس تراس، على الجانب الشرقي من مانهاتن. أجاب رجل مبتسم، ذو شعر رمادي في الثمانينيات من عمره، وقادني إلى غرفة معيشة مزينة بالقطع الأثرية واللوحات من آسيا والشرق الأوسط. لقد جئت لمقابلة ريتشارد مورفي، الدبلوماسي المتقاعد الذي بدأ حياته المهنية كنائب للقنصل في السفارة الأمريكية في روديسيا (زيمبابوي)، في منتصف خمسينيات القرن الماضي، وشغل منصب سفير في سوريا والمملكة العربية السعودية وموريتانيا والفلبين. كنت أقوم ببحوث في الأرشفة الوطني في ماريلاند، ووجدت عدداً من برقيات السفارة -"airgrams" كما كانت تسمى- من أول الستينيات، والتي تحدثت عن مالكوم إكس، "الإسلام الأسود"، ورابطة العالم الإسلامي السعودية، وغالباً ما تم التوقيع عليها من قبل "ريتشارد دبليو مورفي"، وبعثت إلى القنصلية الأمريكية في جدة.

تحدث البرقيات بشكل دائم عن صورة أمريكا في الشرق الأوسط، في ضوء احتجاجات الحقوق المدنية والاضطرابات الحضرية التي تتكشف في الداخل، والتغطية المحلية لزيارات مالكوم إكس إلى المنطقة. تشير إحدى البرقيات من السفارة في جدة في 7 أبريل 1964م إلى أنه "خصص الصحفيون السعوديون في الأسابيع الأخيرة مساحة كبيرة لسرد متعاطف مع "المسلمين السود" في الولايات المتحدة، يظهر نقص المعلومات ذاته الذي أظهره زملاؤهم في البلدان العربية الأخرى. كما تعرض تقارير وكالات الأنباء

أخباراً عن الحركة بشكل شبه يومي، خاصة بعد أن أعلن ملاكم الوزن الثقيل كاسيوس كلاي عن "إسلامه". وبالمثل، علّقت إحدى البرقيات على تغطية اغتيال مالكوم إكس في 2 مارس 1965م، "غطت الصحافة المحلية اغتياله بدقة، وألمح أحد الكتاب إلى أنه لم يتم العثور على القتلة الحقيقيين. مع ذلك، وللمرة الأولى على المستوى المحلي، تم توضيح الطابع العنيف لتعاليم مالكوم حيث أعادت الصحافة نشر تعليقات وكالات الأنباء حول هذا الموضوع".

تعكس البرقيات قلق البلد خلال الحرب الباردة الأولى. سعى الدبلوماسيون الأمريكيون إلى تسخير الإسلام لمواجهة الاتحاد السوفياتي والأفكار الشيوعية في القارة الأوروبية، وكان المسؤولون في واشنطن قلقون من انتشار الشيوعية داخل المنظمات السوداء مثل أمة الإسلام. ادعى الإيجا محمد أنه رفض الشيوعية، لكنه ناشد علانية الدول الإسلامية - بما في ذلك الدول المتعاونة مع السوفيات - لتقديم الدعم للأراضي الإفريقية والإسلامية. في عام 1959م، سافر زعيم أمة الإسلام إلى تركيا، لبنان، الأردن ومصر (حيث التقى بناصر والسادات)، ثم المملكة العربية السعودية، على أمل الحصول على منفذ إيديولوجي ومالي لمنظمته. حاول المسؤولون الأمريكيون إقناع هذه الدول ذات الأغلبية المسلمة بإدانة أمة الإسلام بسبب لغتها الهرطقية والانفصالية. واتصلت وكالة المخابرات المركزية بسفير الجمهورية العربية المتحدة مصطفى كمال، على أمل حمله على إلغاء رحلة الإيجا، لكن السفير لم يسحب دعوة عبد الناصر لزعيم أمة الإسلام. بدأت الدول المستقلة حديثاً، والتي كانت قد رأت القوى الاستعمارية تتوحد إلى أقليتها منذ فترة طويلة، في فعل الشيء نفسه، وناشدت الأقليات في الغرب بمجرد الحصول على الاستقلال. في وقت مبكر من عام 1956م، أعلن عبد الناصر -وهو عنصرٌ رئيس في حركة عدم الانحياز- تضامنه مع الأمريكيين من أصل أفريقي، الذين يعانون من "الديمقراطية البيضاء الصرفة" للولايات المتحدة، وقدم منحاً دراسية للطلاب السود في الجنوب. وأعلنت إحدى الصحف المصرية "تحية للزواج الأحرار من مصر الحرة، ومن جميع الرجال الأحرار".

مع اشتداد "الحرب الباردة العربية"، صعد عبد الناصر من هجماته الخطابية على الأنظمة الملكية المتحالفة مع أمريكا. وأرسل قواتٍ إلى اليمن لمساعدة الضباط الجمهوريين على الإطاحة بملك البلاد المدعوم من السعودية في عام 1962م. وفي العام نفسه، أطلق السعوديين هجومهم الأيديولوجي الخاص لمعارضة نفوذ ناصر، وأسسوا رابطة العالم الإسلامي. كانت الرابطة تهدف إلى توحيد مختلف الجماعات الإسلامية وهابيين، سلفيين، إخوان مسلمين

وجماعة إسلامية- في حركة إسلامية عابرة للحدود، للدفاع عن القضية الفلسطينية، ومكافحة انتشار الاشتراكية والقومية العربية العلمانية.

أرادت رابطة العالم الإسلامي إرسال مبعوثين حول العالم لنشر الإسلام السلفي داخل المجتمعات الإسلامية في الغرب. تظهر البرقيات الدبلوماسية من أوائل ستينيات القرن الماضي أن محمد سرور، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، طلب من السفارة الأمريكية في جدة الحصول على إذن لإنشاء مكتب فرعي في الولايات المتحدة "لنشر الإيمان"، و"المساعدة في رفع مستوى التعليم الإسلامي في الولايات المتحدة، ولا سيما في حركة المسلمين السود، التي كانت "نظرياتها" متناقضة بشكل تام مع تعاليم الإسلام". استاء الدبلوماسيون الأمريكيون بدورهم من "القصص المتعاطفة" التي كانت تدور حول مالكوم إكس، و"الإسلام الأسود" بشكل عام في الصحافة العربية. بينما قلق آخرون من التغطية السلبية للاضطرابات العرقية في الولايات المتحدة. تشير إحدى البرقيات الواردة من السفارة في جدة إلى أنه في أعقاب أحداث الشغب في واتس، في أغسطس 1965م، وصفت صحيفة (البلاد) السعودية اليومية "الأمريكيين البيض" بـ "الجزارين الهمجيين" الذين ارتكبوا "فظائع لا توصف بحق الزوج الأبرياء". بعدها، بدأ المسؤولون الأمريكيون يرون رابطة العالم الإسلامي باعتبارها ترياقاً للتطرف المسلم الأسود.

كان ريتشارد مورفي قائماً بالأعمال في السفارة الأمريكية في جدة، والتقى بمالcolm إكس عندما زار الأخير السفارة في سبتمبر 1964م. ويبدو أن زعيم الحقوق المدنية قد ترك انطباعاً إيجابياً على مورفي، الذي وصف الناشط بأنه "ثابت، غير عنيف، متحرر الفكر وسلمي". (وذكر مالcolm إكس بدوره في مذكراته كم كان من المفاجئ أن يكون السيد مورفي مفيداً للغاية). وفقاً لمورفي فإن مالcolm إكس قلل من أهمية دوره كناشط سياسي، وقال إنه سعيد بأن يكون "بعيداً عن السياسة". و"أسهب في رغبته لجلب التقدير الأسمى للإسلام لدى الأمريكيين الزوج". تذكر مورفي أن محمد سرور الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، قد رعى زيارة الناشط عام 1964م، كطريقة "لإبعاد" مالcolm إكس عن نفوذ ناصر. يقول مورفي: "لقد دعا السعوديون مالcolm إكس كرد فعل على سياسات عبد الناصر، وكان ذلك جزءاً من المنافسة مع مصر". "في ذلك الوقت، كنا نظن أن الإسلام صديق محتمل في التعامل مع المجتمع الأسود الراديكالي. كان لدينا موقف جيد تجاه ما نسميه الإسلام الوهابي، ويفضل السعوديون تسميته السلفية. لقد رأينا أن السعوديين متدينون وغريبون لكن ليسوا خطرين. ظنت واشنطن أن الفهم الأفضل للإسلام يمكن أن يساعد في التعامل مع بعض النزعات العنيفة في

المجتمع الأميركي الأسود. فكلما أصبحوا مسلمين أفضل [المسلمين السود] كلما صاروا أقل عنفاً عندما يعودون إلى ديارهم. كان مالكوم إكس مثلاً رئيساً. فقد رأى أن إلابجا محمد ودعوته للعنف لم تكن هي الطريقة المناسبة".

لدى الشباب الأميركي المسلم اليوم اهتمامٌ شديد بالتفاعلات بين الأميركيين الأفارقة والمهاجرين المسلمين في حقبة الحقوق المدنية، وغالباً ما تسمع نظرية واحدة في المجتمع الأميركي المسلم حول استخدام الحكومة للمهاجرين المسلمين لمواجهة أو "ترويض" المنظمات الإسلامية السوداء في الستينيات. قال شيوخ المجتمع إن وزارة الخارجية لعبت دوراً رئيساً في تنظيم العلاقات بين المسلمين الأميركيين الأفارقة و"المهاجرين المسلمين". على سبيل المثال، يتذكر الراحل هشام جابر، إمام محترم من نيويورك، نيو جيرسي في مذكراته "دفنت مالكوم"، المناخ المتوتر في نيويورك في الأيام التي تلت مقتل الأخير في قاعة أودوبون، ويدعي أن وزارة الخارجية "منعت" الأمة الأجانب من أداء "الطقوس الأخيرة" على مالكوم إكس، أو حتى حضور جنازته، لأن وجودهم يمنح الزعيم المقتول شرعية إسلامية إضافية، وربما يجلب الانتقام.

من الصعب التأكد من دقة هذه الادعاءات، بالنظر إلى أن الآلاف من وثائق مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية حول مالكوم إكس ما زالت سرية. رأى برنامج التجسس المضاد COINTELPRO الذي أنشاه مكتب التحقيقات الفيدرالي لمراقبة وتخلل الجماعات الشيوعية، ومنظمات الحقوق المدنية- أن أمة الإسلام تمثل "تهديداً عرقياً حقيقياً"، وأراد تغيير فلسفة الحركة "إلى التوجيه الديني والتحسين الذاتي، وحذف الكراهية العرقية وجوانب الأمة المستقلة"، وقد قضت سلطات تطبيق القانون بشكل واضح وارث محمد كخليفة لإلابجا (على أخوه جابر هربرت محمد). لكن لا يوجد دليل يشير إلى أن المسلمين المهاجرين كانوا يستخدمون لتوليد "الحزبية" أو لتعزيز موقف وارث. ووفقاً لبيانات وزارة الخارجية الأمريكية عن تلك الفترة ورواية السفير مورفي، فإن ما حدث كجزء من استراتيجية الحرب الباردة الأوسع، كان سماح الدبلوماسيين الأميركيين لرابطة العالم الإسلامي بإنشاء مكتب فرعي في الولايات المتحدة. وإرسال معلمين لنشر تعاليم الإسلام السني وسط الجاليات المسلمة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وقد كان ذلك جزئياً "لتلطيف" التشدد الأسود. كما دعمت الأخبار الصحافية من تلك الحقبة هذه الفكرة. في مايو 1964م، نشرت صحيفة واشنطن بوست مقابلة -تتم الإشارة إليها حتى يومنا هذا- مع محمود شواربي، وهو مصري الجنسية ومدير المركز الإسلامي في نيويورك، درّس

مالكوم إكس تعاليم الإسلام السني وساعده على الذهاب إلى الحج. ردد "شواربي"، "الرجل الذي [روض] مالكوم"، كما وصفت الصحيفة الاعتقاد الذي صدقة الدبلوماسيون أمثال مورفي في أوائل الستينيات: أن الإسلام السني يمكن أن يحدد منظمات المسلمين السود. "بدأ الدكتور شواربي واثقاً من أن مالكوم سيتخلى عن دعوة الزنوج لتسليح أنفسهم، وتشكيل نوادي بنادق". وتوقع الدكتور المصري أيضاً أنه إذا تعامل مالكوم "مع الأمور بهدوء أو بطريقة إسلامية"، فإن العديد من البيض سوف ينضمون إلى حركته. "وبهذه الطريقة، سيخدم بلده بأكمله، ومجموعته الخاصة، وديانته الجديدة ويضع مثلاً جيداً عن المسلم الحقيقي للشعب الأمريكي".

في أوائل السبعينيات، افتتحت رابطة العالم الإسلامي مكاتب في كوبنهاغن ولندن وموسكو وباريس وروما وفيينا ونيويورك وواشنطن العاصمة. وجدت أمة الإسلام نفسها تحت رقابة مكثفة مع وصول المزيد من المهاجرين المسلمين السنة، وبدأ ممثلو رابطة العالم الإسلامي والإخوان المسلمون بإنشاء منظمات مؤسسية مثل جمعية الطلاب المسلمين في عام 1963م، والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية. كان رد الإيحاء هو التقرب من مصر، والنأي بنفسه عن السعوديين: "لم ترسلني جدة ولا مكة! أنا مرسل من الله وليس من الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي". لقد أدى ارتياحه لعبد الناصر الذي اعتبر راديكالياً آنذاك - إلى المزيد من التردد من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي، وانتقاده من قبل القادة السود الرئيسيين، الذين ظنوا أن هياج المسلم الأسود قد أعاق حركة الحقوق المدنية بأكملها. في عام 1959م، وصف ثيرغود مارشال أمة الإسلام بأنها "تديرها مجموعة من البلطجية نظمت من السجون، ويمولها ناصر أو بعض المجموعات العربية بالتأكيد". (رد مالكوم إكس على ذلك بالاستهزاء من بشرة المحامي الشهير الفاتحة وعادة الشرب خاصته: "مارشال + عبد الناصر يبدو أن كأخوين، إلا أن ناصر لونه أغمق من مارشال، وأسمع أن ناصر لم يشمل أبداً [أو حتى يأخذ شرباً]). حاول الإيحاء الحصول على دعم الزعماء المسلمين السنيين أيضاً، وناشد رجال الدين السنة في باكستان للحصول على التصديق الديني، حتى إنه أعاد تفسير رسالة أمة الإسلام لتتفق مع الطريقة السنية.

عندما انفصل مالكوم إكس عن أمة الإسلام، بدأ يتجول في تيارات الحرب الباردة العربية، ويُقيم الدول القومية أو الحركات السياسية الموائمة لمنظمته الجديدة، منظمة المسجد الإسلامي المحدودة (206)، وقدم نفسه كجسر بين معسكرات متنافسة. فقد انجذب إلى مشروع عبد الناصر للعروبة واشتراكية العالم الثالث - تماماً كما كان مع الوحدة القومية الثورية لكوامي نكروما - لكنه كان حذراً من علمانيتهما. كانت رابطة العالم الإسلامي والإخوان المسلمين

تتوّد لمالكوم إكس، وتنافسوا على سحبه إلى مدرسة الإسلام السني. في سبتمبر 1964م، بعد أن خضع لتدريب في مكة، وتم تعيينه ممثلاً رسمياً للمنظمة، نظر مالكوم في تأسيس منظمة المسجد الإسلامي المحدودة في هارلم باعتبارها "الفرع القانوني لرابطة العالم الإسلامي".

مع ذلك، فقد عبر عن عاطفته لمصر وناصر، وفكر في إنشاء فرع لجامعة الأزهر في الولايات المتحدة. وقد شرح مالكوم في رسالة إلى محمد توفيق عويضة، الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر، لماذا يبني علاقات مع رابطة العالم الإسلامي والإخوان المسلمين، وهما حركتان يمثلان لعنة للنظام الناصري. "قلبي في القاهرة"، كتب زعيم الحقوق المدنية، مشيراً إلى أن أكثر القوى الاجتماعية تقدمية في العالم الإسلامي مقرها العاصمة المصرية، ولكن "يمكنني أن أكون أكثر فائدة وأكثر قيمة" لهذه القوى التقدمية من خلال وجود قوي، ويضيف، "عندما مررت عبر جنيف، أخذت وقتاً للتحدث مع [زعيم الإخوان المسلمين المنفي] سعيد رمضان، حتى أتمكن من معرفة ما كان يفكر فيه دون أن أسمح له بمعرفة ما كنت أفكر فيه حقاً".

مع ذلك، بينما كان مالكوم إكس معجباً بالمحافظة الاجتماعية لهذه الحركات، ورأى أن عقيدتهم السنية هي الترياق لعلم التوحيد في أمة الإسلام، فقد كان حذراً من عدم إدراكهم لقضايا العرق الأمريكي. في سنواته الأخيرة، احتضن مالكوم إكس الإسلام السني، ولكن الأيديولوجية أو الدولة التي كان يؤيدها، هي اليوم، موضوع نقاش حاد، حيث يشرح المراقبون ميولهم الأيديولوجية في مساره المستقبلي.

بعد عامين من وفاة مالكوم، انتهت الحرب العربية الباردة. ومع هزيمة جانب ناصر في حرب 1967م، رسمت جغرافيا المنطقة السياسية، لتغير اتجاه الحركات السوداء والمسلمة في الولايات المتحدة. وجد إايجا محمد نفسه محروماً من حليف رئيس. وبما أن الدول العميلة للاتحاد السوفياتي دخلت تدريجياً إلى مدار أمريكا، فقد سحبت دعمها للحركات اليسارية الأفريقية الأمريكية. في عام 1973م، جذدت الجزائر علاقاتها مع الولايات المتحدة التي قطعت منذ عام 1967م- وطردت الفهود السود (207). بالمثل، عندما غادر أنور السادات المعسكر السوفياتي، تخلى بسرعة عن لغة سلفه حول الوحدة الأفريقية، وتضامن العالم الثالث. (وإذا وصف عبد الناصر نفسه بـ "العملاق الأسمر")، فقد أخبر السادات، رئيس الدولة النوبي في مصر، الصحفية بريارا والترز أنه لم يعجب أبداً بالطريقة التي تعامل بها السوفيات مع مصر، وكأنها "دولة وسط أفريقية". ستواصل السعودية نشر السلفية مع استمرار تدفق

عائداتها بعد الحظر النفطي الذي فرضته منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك)، بحيث إنه في أوائل الثمانينيات، تلقت ست وعشرون جماعة في الولايات المتحدة خدمات المدربين الذين أرسلتهم رابطة العالم الإسلامي.

بعد وفاة إايجا محمد في عام 1975م، قام ابنه وارث بتفكيك "أمة الإسلام"، والتخلي عن موقف والده المناهض للحكومة واعتماد الإسلام السني، مع الاحتفاظ بفكرة "أمة الإسلام" الخاصة بالمساعدة الاقتصادية الذاتية. وقد عكس قرار وارث الظروف المحلية المتغيرة: فقد تم حظر الفصل العنصري، وفتحت حركة الحقوق المدنية الفرص للأميركيين الأفارقة، كما أن أتباعه -بفضل الاستثمارات التجارية التي تقوم بها أمة الإسلام- قد تحسنت أحوالهم الاقتصادية. لكن كان هناك أيضاً وضع جيوسياسي جديد. فبعد اتفاقية كامب ديفيد وتوطيد التحالف المصري السعودي -الذي أصبح المحور الأساس للقوة الأمريكية في العالم العربي- وجدت الجماعات المسلمة السوداء ذات الميول اليسارية نفسها دون دعم اقتصادي وسياسي. سحب السعوديون دعمهم لمنظمة المسجد الإسلامي المحدودة، عقب وفاة مالكوم إكس. جلب وارث محمد، الذي درس في الأزهر في الستينيات، وكان على معرفة بالسادات شخصياً، ببطء حركته، وهي أكبر منظمة إسلامية إفريقية أمريكية، التي أعيد تسميتها بـ "البعثة الإسلامية الأمريكية"، إلى المدار المصري السعودي. صنفت المملكة العربية السعودية وقطر وأبو ظبي وارث محمد "المستشار والوصي الوحيد" لتوزيع أموالهم على المنظمات الدعوية الإسلامية في الولايات المتحدة في عام 1978م.

لدى الدبلوماسية الأمريكية الآن زعيم مسلم "سني"، للاستفادة منه في البعثات الدبلوماسية. استفاد وارث محمد من علاقاته في الشرق الأوسط للمساعدة على إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان في الثمانينيات. كان محمد هو الزعيم الوحيد لمنظمة وطنية مسلمة تصادق على الحرب التي تقودها الولايات المتحدة ضد العراق لتوضيح مدي اختلافه مع سياسات والده المناهضة للإمبريالية خلال حرب الخليج الأولى. في أيلول 1990م، أخبر وارث الإذاعة الوطنية السعودية، "أنا مرتاح للقرار الذي اتخذته السعودية للدفاع عن حدودها وقبول دعم أصدقائها، ليس أميركا فقط، بل وأصدقاء آخرين، أمم مسلمة، وبلدان صديقة غير مسلمة. وبصفتي أميركياً، أشيد بحكومتني على حماية مصالحها، ومصالحه الشعب الأمريكي، والمصلحة العالمية، ووديتها مع المملكة العربية السعودية، واحترام دين الإسلام". تسبب خطاب وارث في نزاعات مع غيره من المنظمات الإسلامية الأمريكية، التي لم تدعم الحرب؛ وبالفعل، فإن المنظمات الإسلامية التي لم تدعم وجود القوات

الأمريكية في شبه الجزيرة العربية سرعان ما رأوا تمويلهم يتوقف من المملكة العربية السعودية.

نجح اليمين الإسلامي، الذي تمت تعبئته كجزء من استراتيجية الحرب الباردة، في دفع حركة المسلمين السود نحو العقيدة السنية، والتخلي عن انتقاداتهم الراديكالية للسياسة الخارجية الأمريكية. وقد تم ملء الفراغ السياسي المتبقي من قبل فراخان عندما أحيى أمة الإسلام في عام 1981م، بحجة أن الإسلام التقليدي الذي يدرسه المهاجرون المسلمون السنة لا يمكن أن يعالج احتياجات الفقراء السود. وعلى الرغم من جهوده، في أواخر التسعينيات، فقد وجد فراخان نفسه مهمشاً بشكل متزايد بسبب خطابه المتعصب، وظل حليف "أمة الإسلام" الوحيد هو الديكتاتور الليبي معمر القذافي، آخر رئيس دولة إسلامي لا يزال يتكلم بلغة الستينيات الأقريقية، وتضامن العالم الثالث.

"لقد عادت باندونغ، يا عزيزي!"

كانت نهاية القذافي المشينة في أكتوبر 2011م بمثابة نهاية حقبة وبداية حقبة أخرى. كانت الدول الإسلامية الراديكالية قد دعمت الحركات القومية السوداء منذ أمد بعيد، بينما دعمت الدول الحليفة للولايات المتحدة "المعتدلة" الحركات الإسلامية المحافظة. لكن الربيع العربي، في إعادة رسمه لخريطة السياسة وتحويل التحالفات، وجد مصلحة جديدة في باندونغ، وحركة الحقوق المدنية، والتضامن العابر للحدود. وفي الوقت الذي كانت طائرات الناتو تقصف ليبيا في صيف عام 2011م، كان سوكانت تشاندان، الصحفي الشاب الذي يدير مجموعة "أبناء مالكوم" التي تتخذ من لندن مقراً لها، يقدم تقارير من طرابلس عن تأثير الحرب على المدنيين الليبيين. هذه المجموعة، التي تهدف إلى محاربة الاستعمار الجديد "بأي وسيلة ضرورية"، ليست شاذة. فقد كان مالكوم إكس هو محور الوعي السياسي للشباب المسلم في الغرب، ومع الانتفاضات العربية، لم يتساءل الشباب المسلم عن "ماذا سيقول مالكوم؟"، وإعادة ترتيب رحلاته وبياناته فقط، لكن الأنظمة المختلفة أيضاً حاولت أن ترتدي عباءته الأخلاقية.

طالبت إيران في عام 1984م بإرث مالكوم إكس، حيث أصدرت طابعاً بريدياً تكريماً له، للترويج لليوم العالمي للصراع ضد التمييز العنصري (قبل خمسة عشر عاماً من إصدار الولايات المتحدة ختم مالكوم الخاص بها). بدأ نظام الخميني بمواجهة الفكر الديني السعودي بالشيوعية الثورية بعد عام 1979م بوقت قصير. واتهمت دراسة بتكليف من الحكومة الإيرانية عام 1982م حول

الإسلام في أمريكا، الدعاة السعوديين أنهم متعاونون مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وقالوا عن المسلمين الأمريكيين من أصل أفريقي إن الجميع "لا يريدون سوى استخدامهم لأسباب شخصية خاصة بهم، وهم يرزحون تحت أقدامهم". بعد غزو العراق عام 2003م، وبينما بدت إيران صاعدة، جادل عدد من النشطاء المسلمين الشباب بأن الشيعة كانت أفضل طريقة لمواجهة السلفية. وظهرت حركة شيعية صغيرة في أوروبا بحجة أن الشيعة، بتقاليدها الاحتجاجية ووعي الأقليات فيها، كانت أكثر ملاءمة للمسلمين في الغرب من الإسلام السني. تبنى مالكوم لطيف شباز، حفيد زعيم الحقوق المدنية، الذي اعتنق الإسلام الشيعي وانتقل إلى سوريا في عام 2007م، هذه الحجة أيضاً. أصبح هذا الشاب البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً محبوباً بشكل كبير بين الشباب المسلم في أوروبا والولايات المتحدة، حيث كان يحاضر ويتألق في مقاطع فيديو هيب هوب سياسية، ولكنه أثار ضجة في حدث في ديترويت في عام 2011م، عندما تحدث سلباً عن الصحابة، وقال لو كان جده حياً، لأصبح شيعياً. وقد رأى أحد القادة في ديترويت تحول مالكوم جونيور إلى الشيعة كنتيجة "للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط"، قائلاً إنه عندما ذهب الشاب إلى سوريا للدراسة، "وضعة النظام في برنامج شيعي 101 في مسجد السيدة زينب".

شهد ربيع عام 2011م، أيضاً، نشر سيرة جديدة لمالكوم إكس، يبلغ عددها خمسمائة صفحة، والتي سرعان ما وضعت في السياسات الثقافية للثورات. تفترض السيرة الجديدة بين جملة أمور، أن مالكوم إكس ربما كان متأثراً بالشيعة وألهم بموت الحسين المأساوي في كربلاء. يكتب المؤرخ مانغ مارابل: "مثل الحسين، اتخذ مالكوم القرار الواعي بعدم تجنب الموت أو الهروب منه. وربما، مثل حسين، أراد أن يكون موته رمزياً، وعاطفياً ليمثل معتقداته". في الولايات المتحدة، أحييت هذه الكلمات جدالات بعيدة حول أصول أمة الإسلام، وقدمت الدعم لأولئك الذين جادلوا أن فرد محمد، مؤسس الجماعة، كان شيعياً إسماعيلياً وليس أحمدياً. لقد جادل هذا المخيم لفترة طويلة بأن مفاهيم أمة الإسلام حول التوقيت الدوري، الأعداد، والنسب الإلهية للقادة ("العلماء")، والإيمان بالباطنية - أي إن النصوص الدينية لها معنى خفي لا يمكن تفسيره إلا من قبل علماء مدرّبين دينياً (مثل رئيس أمة الإسلام) - تبين جميعها، تأثير الشيعة الإسماعيلية. كتاب "مارابل" الذي نشر في أبريل 2011م، مع ارتفاع التوترات الطائفية، وقيام الشباب في أوروبا بتنظيم مجموعات قراءة حول هذا الكتاب، بدا أنه يدعم الحجة التي قدمها مالكوم جونيور.

عادة ما يشير المبشرون السلفيون كـ "نابليون" -والذين يتخذون من السعودية مقراً لهم، ويظهرون على التلفزيون السعودي بشكل منتظم- إلى مالكوم إكس، بالطريقة نفسها التي يستخدمها سفراء الهيب هوب الأمريكيين المسلمين الذين أرسلتهم وزارة الخارجية. بعد فترة وجيزة من وصول أوباما إلى السلطة، عينت الحكومة السعودية رجلاً أسود، هو الشيخ عادل كلباني، كإمام لمسجد مكة الكبير، بحيث إذا احتفلت الدبلوماسية الأمريكية للمسلمين بأصول أوباما المسلمة، فإن السعوديين سيذيعون صوت كلباني -ووجهات نظره المحافظة للغاية- عبر القنوات التلفزيونية الفضائية، لمئات الملايين من المسلمين في جميع أنحاء العالم. وقد قال كلباني لقناة "العربية" الإخبارية: "تعييني أكثر أهمية من انتخابات أوباما"، مشيراً إلى أن الانتخابات الأمريكية تمثل بلداً واحداً، في حين أن المسجد الكبير هو "مكان جميع المسلمين".

حتى الدول التي لم تشارك مباشرة في المواجهة بين السنة والشيعة أو الولايات المتحدة وإيران، تطالب بإرث مالكوم إكس، وتقليد الأهمية السوداء. يؤكد القوميون السودانيون أن مالكوم إكس والحركة الإسلامية الإفريقية الأكبر حجماً، تأثرت بالسلفية السودانية، من خلال الباحث السوداني أحمد حسون، الذي ترأس حركة أنصار السنة في الخرطوم قبل إرساله من قبل رابطة العالم الإسلامي إلى نيويورك عام 1964م، حيث أصبح مستشاراً مقرباً لمالcolm إكس. لقد اكتسب سؤال ما إذا كان مالcolm إكس أكثر تعاطفاً مع جماعة الإخوان المسلمين أو الحركة السلفية معني جديداً، لأن هذه الحركات حققت مكاسب انتخابية وحصلت على مقاعد برلمانية عبر شمال أفريقيا في عام 2012م. رفض الداعمون للإخوان المسلمين ادعاءات السلفيين والشيعة حول مالcolm إكس؛ ولم يقارنوا موت زعيم الحقوق المدنية باستشهاد الحسين، ولكن بمقتل مؤسس جماعة الإخوان حسن البنا، الذي اغتيل هو الآخر، مدعين أن الأميركي الأفريقي قد أصبح أقرب إلى جماعة الإخوان المسلمين من الحركة السلفية في أيامه الأخيرة، وأنه في يوم مقتله، كانت هناك رسالة موضوعة على مكتب مالcolm إكس موجهة إلى سعيد رمضان في جنيف. يدعي المسلمون الليبراليون، أيضاً، أن مالcolm إكس ينتمي إليهم. يقول عادل عبد العاطي -سياسي سوداني، يرأس الحزب الديمقراطي الليبرالي في السودان- أن اليساريين الذين يدعون انتماء مالcolm إليهم منذ زمن بعيد، يتجاهلون مدى تأثيره بالسلفية؛ لكنه أضاف: "أنا مقتنع أن مالcolm إكس إن عاش لمدة عام أو اثنين إضافيين، لكان ترك السلفية، كلياً، وربما الفكر الديني بشكل عام، وركز على النشاط السياسي لإنماء الأمريكيين جميعاً".

اتخذ الحديث الإسلامي حول أهمية مالكوم بعد خمسين عاماً على وفاته، منعطفاً لاهوتياً مميزاً، وأصبح "الإمام شبار" تدريجياً، شخصية قديسة، ولياً، تقدم حياته إرشادات شخصية وروحية. يناقش الشيوخ الآن جوانب مختلفة من حياة مالكوم إكس، وجهات نظره حول الموسيقى، الزواج، الأبوة والأمومة، المشاركة السياسية وما إلى ذلك. ويناقش رجال دين بارزون مثل عمران حسين من ترينيداد، آراءً حول ما إذا كان مالكوم إكس تلقى مالا من دوبيدي مقابل نشر سيرته الذاتية في عام 1964م وإن كان ذلك يعتبر ربا. عادة ما يظهر شباب مسلمون أوروبيون أمام مقبرة مالكوم، راكعين وواضعين إحدى يديهم على شاهد قبره والأخرى على شاهد قبر زوجته بيتي، على أمل الحصول على البركة. عندما شرع الشيخ حبيب عمر، الباحث اليميني الشهير والعالم الصوفي، في جولة محاضراته داخل الولايات المتحدة في أبريل 2011م، كانت أولى محطاته في نيويورك هي مدافن فرينكلين في هارتسدايل، على بعد بضعة أميال إلى الشمال من برونكس. وقف الشيخ تحت المطر المتساقط، محاطاً بأتباعه، وهو يدعو الله أن يبارك الشهيد.

موسيقى تصويرية للنضال

يرى المحللون الليبراليون أن جولات الجاز في الخمسينيات والستينيات كانت ناجحة. قامت دبلوماسية الجاز بمواجهة الدعاية السوفياتية، وأوجدت انطباعات إيجابية عن الولايات المتحدة، من خلال عرض التقدم العرقي. ويجادل البعض أنه إن نجحت الموسيقى في الستينيات، فيمكنها النجاح في عام 2010م. لكن موسيقى الهيب هوب ليست موسيقى الجاز؛ ونجوم موسيقى الراب اليوم ليسوا عظماء موسيقى الجاز في الخمسينيات والستينيات. ورغم جميع أوجه التشابه التي تم رسمها، فإن الحرب على الإرهاب ليست الحرب الباردة. لاقت جولات الجاز صدى لدى الناس في جميع أنحاء أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا، لأن الولايات المتحدة بعد الحرب كانت تعتبر قوة معادية للاستعمار، وثقل موازن للهيمنة الفرنسية والبريطانية والإيطالية؛ ولأن الولايات المتحدة صدت التوجهات الاستعمارية الأوروبية في ليبيا في عام 1950م، ومنطقة قناة السويس في عام 1956م. علاوة على ذلك، فقد دوى الكفاح من أجل الحقوق المدنية على الصعيد العالمي؛ كانت حركة التحرر السوداء ترى كحليف في عالم إنهاء الاستعمار. كان لأغانيها -موسيقى الجاز، على وجه الخصوص- جاذبية أخلاقية قوية، حيث كتب موسيقيو الجاز، الذين تأثروا بخطاب الوحدة الأفرو-آسيوية في باندونغ وأمة الإسلام، مؤلفات مثل "أوهورو أفريكا" و"جناح الحرية الآن" التي ربطت بين حركة الحقوق المدنية والصراعات المعادية للاستعمار في آسيا وأفريقيا. لكن انتهى شهر العسل مع أمريكا ببطء، حيث أدت سياسات

الحرب الباردة إلى تدخلات لا تعد ولا تحصى، وحروب بالوكالة، وأصبحت الولايات المتحدة داعمة، تدريجياً لنظام الدولة القمعي الممتد من الساحل البربري إلى باكستان إلى جانب فرنسا وبريطانيا. ومع تغير علاقة الولايات المتحدة بالمنطقة، وبدء حرب فيتنام، وجد سفراء موسيقى الجاز أنفسهم يهاجمون أكثر من جانب الجمهور المحلي، بشأن دورهم في مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية. تصف بيني فون إيشن حادثة وقعت في الجزائر العاصمة في أبريل 1967م، عندما سأل الشباب الجزائريون سفراء الجاز بصفتهم أميركيين أفارقة، كيف يمكنهم أن يمثلوا بلداً "يرتكب الفظائع" في فيتنام.

استمرت جولات الجاز في الكتلة السوفياتية خلال السبعينيات، واستمر بث موسيقى الجاز من خلال إذاعة صوت أمريكا خلف الستار الحديدي. ولم تفقد الأممية السوداء جاذبيتها في العالم الإسلامي. لقد قدر الأفارقة والآسيويون الذين يعيشون تحت الحكم الاستبدادي تصريحات التضامن من لجنة تنسيق الطلاب اللاعنفة، وترانس أفريقيا، ألفهود السود، جيسي جاكسون، راندال روبينسون، وغيرهم من القادة السود. كان الناس العاديون يصومون قبل معارك محمد علي الكبيرة. ومع ظهور موسيقى الهيب هوب، فإن نغماتها وكلماتها ستتناغم بسرعة مع الشباب المسلم، كما لاحظ خبراء الدبلوماسية العامة بشكل صحيح. لكن الموسيقى التي كانت محببة أكثر هي موسيقى الهيب هوب الأفروسنترية التي كانت واعية من الناحية السياسية في الثمانينيات وأوائل التسعينيات، والتي أثنت على أفريقيا وآسيا والإسلام. في وقت ما من منتصف التسعينيات، أهمل الهيب هوب "الواعي" بسبب الهيب هوب التجاري، وهو شكل أكثر اهتماماً بتحصيل الثروة من التضامن مع عالم ما بعد الاستعمار؛ ما زال النقاد يتجادلون حول التوقيت الدقيق.

وبينما تحشد الإشارات إلى الإسلام، فهي ليست بالضرورة سياسية أو جيدة. ظهرت ليل كيم في ديسمبر 2002م، على غلاف مجلة (ون وورلد) وهي ترتدي البرقع والبيكيني، ونقل عنها قولها "اللعة على أفغانستان". وكان هناك أيضاً أغنية فيفتي سنت "Ghetto Qu'ran" التي كانت تتحدث عن تجارة المخدرات والسرقة. كما سحرت فوكسي براون البعض وأغضبت البعض الآخر بأغنياتها "Hot Spot" حيث قالت، "مغنو الراب يريدون أن يأكلوني ولكننا في رمضان". ولكن الأكثر إرباكاً كانت الأغنية المصورة "Hard" للنجمة ريهانا، حيث ظهرت وهي ترتدي الزي العسكري، ومدججة بالسلاح في منطقة حرب في الشرق الأوسط، ووشم بحروف عربية يمكن رؤيته تحت حمالة صدرها البرونزية يُقرأ "الحرية في المسيح"؛ وعلى الجدار آية قرآنية (إنا لله وإنا إليه راجعون) (208)، والتي عادة ما تتلى لتكريم الموتى، ولا يعد وضعها

كنقش على جدار شائع في المجتمعات المسلمة التي مزقتها الحروب. النقطة هي أنه ليس كل الهيب هوب الذي يلمح إلى الإسلام يلقي صدى لدى الشباب المسلم. إن نجوم الهيب هوب الأمريكيين -لوبي فياسكو، موس ديف وراكيم- المحبوبون بين الشباب المسلم، يحظون بالتقدير لأنهم يعملون على هويتهم الإسلامية في فنهم، ولأنهم ينتقدون السياسة الخارجية للولايات المتحدة. يغني لوبي في أحدث ألبوم له، "تم حرق قطاع غزة / ولم يقل أوباما شيئاً"، لكن من غير المحتمل أن تتم دعوة أي من هؤلاء السادة في جولة لوزارة الخارجية.

لم تكن جولات الجاز في الحرب الباردة محبة بين المثقفين السود التقدميين. استاء فرانتس فانون والمؤرخ والتر رودني، من كيفية استخدام لويس أرمسترونغ وآخرين "كمبعوثين لصوت أمريكا"، وكيف تحولت موسيقى "السود المظلومين" إلى "دعاية". كذلك رأى المفكرون المسلمون المنتمون إلى العالم الثالث موسيقى الجاز كجزء من إمبراطورية أميركية متوسعة. كان علي شريعتي، عالم الاجتماع الإيراني الذي تعامل مع أفكار فانون وليوبولد سنغور، حذراً من موسيقى الجاز كأداة للإمبريالية الثقافية، وكان يدرك أن التاريخ الاستعماري قد أنتج "ثلاثة أعراق متميزة: عرق يمكنه أن يفكر، الأوروبيون... وعرق يمتلك الإحساس ويكتب الشعر وهم الشرقيون، الذين لا يملكون سوى الأحاسيس الغامضة والغنوسية، والعرق الأسود الذي يستطيع أن يرقص، ويغني، ويعزف الجاز الجيد". وبالمثل، عندما جاء جلال آل أحمد، الروائي الإيراني ومؤلف كتاب غرب زدكي (209) (Westoxification) للمشاركة في الندوة الصيفية الدولية لجامعة هارفارد، في عام 1965م -بدعوة من هنري كيسنجر- أخبر رالف إليسون، الذي أصبح يعرف وقتها بصوت الكونية الأمريكية، "أعتقد أن مشكلة السود الأمريكيين تأتي من ملاذين قاموا بنائهما لأنفسهم: المسيحية والجاز".

يتم توجيه انتقادات مماثلة لبرنامج دبلوماسية الهيب هوب اليوم -ومعظمها من العلماء والنقاد خارج الولايات المتحدة-. جدير بالذكر أن سفراء الهيب هوب قد واجهوا بعض المخاطر الشخصية. ففي يوليو 2007م، كجزء من برنامج "طريق الإيقاع"، أتت طوني بلاكمان في عربة مدرعة، محاطة بقافلة من الشاحنات التي تحمل جنود الأمم المتحدة، لتقدم عرضاً في الجزء الشمالي المسلم الذي يسيطر عليه المتمردون بكوت ديفوار. كذلك أثناء قيامها بقرض في الهواء الطلق في مدينة ميدان، بإندونيسيا عام 2006م، اقتحم الحفل حشد من الرجال على دراجات نارية تحمل ما وصفته صحيفة نيويورك تايمز بـ "لافتات معادية لأمريكا"، وصعدوا على خشبة المسرح، ودفعوا بلاكمان جانباً، وبدؤوا يطلقون تصريحات معادية لأمريكا في

الميكروفون. كانت فرقة تشن لو أند ذا ليبريشن فاميلي تقدم عرضاً في البحرين في أوج الانتفاضة، حيث كانت الولايات المتحدة تقوم بتسليم شحنات عسكرية لنظام خليفة في أغسطس 2011م. تم اعتقال فرقة "كولكتيف كوليكشن"، وهي فرقة رقص هيب هوب من شيكاغو، في باكستان، وتم الضغط على منظم الحفل في لاهور لإلغاء عرضهم في نوفمبر 2011م. غالباً ما يُنظر إلى الحفلات الموسيقية على أنها محاولة لتلطيف ("تلميع") السياسات التي لا تحظى بشعبية، ويسأل فنانون الراب الأمريكيين الأفارقة عن دورهم الجديد كسفراء نوايا حسنة. إن مبعوثي الهيب هوب المسلمين يدركون بشكل خاص، الطريقة التي يُنظر بها إليهم في الخارج. أعرب أحد أعضاء "نايتف ديين" عن التناقض الذي شعر به عندما اتصلت به وزارة الخارجية لأول مرة: "هل ينبغي لنا أن نفعل ذلك؟ أم يجب ألا نفعل ذلك؟ بعض الناس كانوا يقولون، "ستكونون دمي، وستذهبون إلى تلك الأماكن وتقولون: كل شيء على ما يرام إننا نقصف بلدك، لكن لدينا مسلمين أيضاً!".

لدى الواقعيين واليساريين القليل من الوهم حول الدور الذي يمكن أن تلعبه موسيقى الهيب هوب في سياسة القوة. حذر صموئيل هنتنغتون، في عام 1996م، صانعي السياسة من الإيمان الشديد بـ "البدع الثقافية": "في بعض المناطق في الشرق الأوسط، يمكن لستة شباب ارتداء الجينز وشرب الكوكاكولا والاستماع إلى موسيقى الراب، وبين صلواتهم يمكن أن يضعوا قنبلة لتفجير طائرة أمريكية". شكك إريك هوبسباوم أيضاً حول إمكانات الهيب هوب الجغرافية. "لديّ غمّي أو بالأحرى أذن مسدودة تجاه موسيقى الراب والهيب هوب، ولا أعرف سوى القليل عن هذه الأشكال من ثقافة الشباب، ربما لأنني كبير بما يكفي لأصبح الجد الأكبر لأولئك الذين يمارسونها". قال التسعيني الراحل ساخراً في أواخر عام 2010م: "ملاحظتي الوحيدة هي أنني أشك فيما إذا كانت الحكومة الأمريكية في وضع يمكنها اليوم من شن هجمات ثقافية منتظمة في جميع أنحاء العالم، كما فعلت في الحرب الباردة -أو ما إذا كانت ستنجح كما نجحت في ذلك الوقت؟" وكما كان الحال مع جولات الجاز، فإن الدوليين الليبراليين هم الذين يؤمنون بالإمكانات الجيوستراتيجية للموسيقى. لكن لا يزال من غير الواضح كيف سيؤثر "الهيب هوب المسلم" تأثيراً معتدلاً: هل سيفضي الأداء الذي تقدمه مجموعة إسلامية أمريكية أفريقية إلى "تهدئة" معينة، وتدفع الشباب المسلم بعيداً عن الأفكار المتطرفة؟ ما هي "السرديات المختلفة" التي تقدمها مجموعات مثل ليغاسي؟ ليس من الواضح ما الذي يشكل "الهيب هوب الإسلامي": هل حقيقة أن بستا رايمز مسلم سني يجعل من موسيقاه "إسلامية"؟

أكثر ما يثير الفضول هو الزعم الرسمي بأنه في الوقت الذي يجسد فيه الجاز وينشر القيم الديمقراطية، تعمل دبلوماسية الهيب هوب في العالم الإسلامي على تعزيز الديمقراطية وتشجيع المعارضة، لأن الموسيقى تعرب عن تقاليد الاحتجاج الإسلامي الأفرو-أمريكي، الذي جسده مالكوم إكس. إنه أمر مثير للسخرية، لأن مالكوم إكس، في "دبلوماسيته الشخصية"، قد نفى صراحة ادعاءات وزارة الخارجية بالتقدم العرقي في الداخل. في الواقع، كان هذا جزءاً من نزاعه المستمر مع الدبلوماسي رالف بانس، الذي كان يعتقد أن الأميركيين من أصل أفريقي لديهم دور خاص يلعبونه في الدبلوماسية الأمريكية، "بسبب قدرتهم الفريدة على اكتساب ثقة السكان الأصليين بسهولة أكبر". رفض مالكوم إكس في المقابل "دعاية" وكالة المعلومات الأمريكية ووكلاء المعلومات، وادعاءات بانس نفسه. علاوة على ذلك، تجنب دبلوماسيو الهيب هوب القضايا السياسية في الأداءات التي يقدمونها في سفاراتهم؛ وقامت السلطات المحلية، لا سيما في العالم النامي، بتمشيظ الكلمات بعناية في وقت مبكر. إلا أن ماورا بالي، مساعدة وزيرة الخارجية الأمريكية للشؤون التعليمية والثقافية، تدعي أنه عندما يدخل الشباب اليمني أبواب السفارة في صنعاء، ويبدأ عرض الهيب هوب، فإن التجربة هي "فتح العقول" وتغيير المفاهيم. ويشير النقاد إلى أنه بعد العرض، لا يزال الشباب اليمني على دراية بأن طائرات بدون طيار تسقط على بلادهم. (بعد حدث احتفل بميلاد مالكوم إكس في مايو 2013م - حيث عرض موظفو السفارة في صنعاء ملصقات للقائد تقول: "عيد ميلاد سعيد لمالcolm إكس، الذي وقف بشجاعة ضد الظلم والكرهية" - كتب يمني على صفحة السفارة على فيسبوك، "أتمنى لو أن السفير الأمريكي كان شجاعاً مثل مالcolm إكس الذي وقف بشجاعة ضد الاضطهاد". وهذا هو جوهر الجدل المتنامي حول دبلوماسية الهيب هوب. يدعي المناصرون أن الهيب هوب يمكن أن يكون له الأثر التحرري والانفتاحي نفسه كما فعل الجاز في عام 1950م، بينما يتجاهل البعض تحالفات واشنطن الوثيقة مع الأنظمة الاستبدادية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. يمكن للولايات المتحدة استخدام موسيقى الجاز "لتسويق" أمريكا وراء الجدار الحديدي وتشجيع المعارضة في الأنظمة المدعومة من السوفيات، لكن هل تستطيع "القوة الناعمة" الأمريكية أن تحرر الناس في ظل الاستبداد المدعوم من الولايات المتحدة؟ قد تكون مبادرات الهيب هوب أكثر نجاحاً في توليد النوايا الحسنة في أوروبا، حيث يتم تهميش المسلمين ولكن تظل حقوقهم السياسية محفوظة، أو في ديكتاتورية غير مسلحة مثل بورما، حيث يخضع فنانون الراب للرقابة الشديدة، مقارنةً بالأنظمة الاستبدادية المدعومة بالقوة الصارمة للولايات المتحدة.

لقد أثارت مبادرات دبلوماسية الهيب هوب جدلاً حاداً حول هدف موسيقى الهيب هوب: سواء كانت "موسيقى احتجاج" أو "موسيقى حفلات"، "موسيقى تصويرية للكفاح" (مثلما عنون مغني الراب لو-كاي ألبومه الأخير)، أو أحادية قطبية أمريكية؛ هل يجب قبول مساعدات السفارة أم لا؛ وما يعنيه أن الحكومات -وليس الشركات فقط- قد دخلت لعبة الهيب هوب. ناشطو الهيب هوب الذين يرغبون في استخدام الموسيقى لإنشاء مساحات اجتماعية بديلة كانوا مهتمين منذ زمن بعيد بكيفية حماية فنهم من قوة الشركات، لكن الآن بعد أن تم استخدام الموسيقى في الدبلوماسية، فقد تحولت الأحداث. يقول لو-كاي: "إن موسيقى الهيب هوب في أفضل حالاتها تفضح السلطة، وتتحدى السلطة، ولا تخدم السلطة. لكن عندما تحب حكومة الولايات المتحدة مغني الراب أنفسهم الذين تحبهم أنت، فأى المصالح هي تلك التي يخدمها فنانون الراب هؤلاء؟" لقد أثارت مبادرات وزارة الخارجية بعض الجدل داخل مجتمع الهيب هوب الأمريكي أيضاً، حيث يقول المناصرون إنهم يقومون بعمل دبلوماسي، وإن مبعوثي الهيب هوب، مثل سفراء الجاز، يمكنهم انتزاع تنازلات سياسة في الوطن؛ من ناحية أخرى، يسأل النقاد كيف يمكن أن يكون لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي "وحدة عمليات راب" مكلفة بمراقبة مشاهير الهيب هوب وحركات الراب بينما تقوم الذراع الدبلوماسية للحكومة بنشر هذا النوع لأغراض السياسة الخارجية.

من المفارقات، أن متخصصين في تطبيق القانون ومكافحة الإرهاب أثاروا تساؤلات حول شرعية "دبلوماسية الهيب هوب". تساءل صموئيل روسكوف، وهو باحث قانوني في وحدة الاستخبارات في شرطة نيويورك، عما إذا كان نشر الحكومة للفنانين المسلمين للانخراط في "معركة الأفكار" الإسلامية من خلال طرح الإسلام الأمريكي الخاص، والفهم الليبرالي لعلاقة الإسلام بالموسيقى لا يتعارض مع بند التأسيس. علاوة على ذلك، يتم تحميل العروض الخارجية عبر الإنترنت، حيث يمكن مشاهدتها والتعليق عليها من قبل الجماهير الأمريكية؛ ما لم يصرح الكونغرس بذلك صراحة، فإن مثل هذه التفاعلات عبر الإنترنت -بين الأمريكيين وغير الأمريكيين- قد تنتهك أيضاً قانون "الدعاية" في الاتصالات الاستراتيجية. فعلى سبيل المثال، تم تصميم موقع الويب الخاص بالشؤون الإفريقية الذي ترعاه وزارة الدفاع بحيث لا يسمح بـ "الاتصالات ثنائية الاتجاه" بين الأفراد.

"إمبراطورية التنوع"

تظهر هذه الرؤى المتضاربة حول موسيقى الهيب هوب في مدن العالم الثالث، كتونس وإل ألتو وبوليفيا، وفي أحياء المهاجرين في الغرب. منظمات

الهييب هوب غير الحكومية التي تستخدم الموسيقى في علم التربية، والنضال ضد الحرب، واستقرار الأحياء، والدبلوماسية الشعبية، مثل جانجواي بيتز من برلين، وإكسستينس إذرسيستينس التي مقرها بروكلين، وريبييل دياز في جنوب البرونكس، والذين يدعون الفنانين والشباب من الأحياء المهمشة في البلدان الأخرى، يعملون في المناطق نفسها التي تدفع فيها السلطات المحلية والسفارات الأجنبية لمبادرات الهييب هوب الخاصة بهم. يعد ريبيل دياز أول مركز مجتمعي للهييب هوب في البرونكس يدافع عن المهاجرين، ويقود الاحتجاجات المناهضة للحرب، فقد نظموا، على سبيل المثال، حفل راب خارج مدرسة للأمريكيين في جورجيا. كذلك تتلقى ريبيل دياز بعض المال من شركة النفط "الفنزويلية" Citgo، التي توفر النفط المدعوم إلى برونكس. وعلى مسافة ليست بعيدة عن مقر ريبيل دياز، ترسل مبادرة "القوة الخارقة" في متحف برونكس التي تمولها وزارة الخارجية سفراء ثقافيين إلى دول، من بينها فنزويلا، لتحسين صورة أمريكا.

لم يؤد النقاش حول الهييب هوب والقوة الناعمة في الولايات المتحدة إلى رد فعل عنيف ضد هذا النوع، لكنه أدى فقط إلى انتقاد الهييب هوب الأمريكي والادعاء المتكرر بأن مغني الراب غير الأمريكيين هم حاملو ثقافة الراب الحقيقيين. قدم المغني الأسطوري وعضو فرقة "بابليك إينيمي" تشاد دي، الحجة القائلة بأن مغني "الهييب هوب" العالميين أكثر إخلاصاً لمهمة الموسيقى من نظرائهم الأمريكيين. كما كتب "الأب الروحي للهييب هوب" رسالة مفتوحة لاذعة لمغني الهييب هوب الأمريكيين في يناير 2011م، أثناء زيارته لجنوب أفريقيا، منتقداً النخبة لماديتهم وعدم التزامهم المجتمعي، مشيراً إلى أن توازن القوى قد تحول. "تعاذل العالم الآن وربما تجاوز [الولايات المتحدة] في جميع الركائز الأساسية للهييب هوب".

الهييب هوب اليوم في كل مكان، على عكس الجاز في الستينيات. وهو متاح بسهولة عبر الإنترنت، وهناك مشاهد غنية للهييب هوب في جميع أنحاء العالم. ونتيجة لذلك، لا يتمكن مبعوثو الهييب هوب الأمريكيين من جذب الحشود التي جذبها "الجامباسادور". أقر المسؤولون الذين ينظمون جولات الهييب هوب بأن كوكايي وفايس فيرسا ألابنس لا يتمتعون بقوة نجومية غيليسيبي وأرمسترونغ وإلينغتون، لكنهم أصرّوا أيضاً على أن هؤلاء الفنانين يصورون جانباً غير مرئي من أمريكا، وأن التنوع الذي يجسدونه يمكن أن يغير التصورات. "التنوع" هو الكلمة الطنانة لدبلوماسية الهييب هوب، التي تمت مواجعتها مراراً وتكراراً في التقارير والخطابات. بالنسبة لمسؤولي وزارة الخارجية، فإن نماذج الهييب هوب الملونة التي ترسل إلى الخارج تمثل حلماً أمريكياً ما بعد عرقي أو ما بعد حدثي.

لكن من غير الواضح كم هي مقنعة هذه الصور العرقية. أظهر استطلاع أجرته مؤسسة بيو في عام 2012م، أن الآراء حول الولايات المتحدة في الدول ذات الأغلبية المسلمة، لم تتحسن منذ آخر عام من الفترة الرئاسية لجورج دبليو بوش. كما هو الحال مع جولات الجاز، فإن الجهود الأخيرة التي بذلتها وزارة الخارجية الأمريكية لإظهار نموذج دمج المسلمين الأمريكيين، ونشر رأس المال الأخلاقي والرمزي لحركة الحقوق المدنية، قد وقعت على خلفية صور إعلامية غير مواتية (وعنصرية) عن حرق القرآن، ومظاهرات ضد المساجد، وجلسات استماع في الكونغرس طالبت بها حركة حزب الشاي، وهي واحدة من أكثر الموجات إثارة للقلق في التاريخ الأمريكي الحديث. ومما يثير السخرية أنه إن كانت الدبلوماسية الثقافية الحالية مستوحاة من مبادرات من حقبة الحقوق المدنية، فإن بعض السياسات الأمنية التي تستهدف المسلمين الأمريكيين هي: وضع برنامج استطلاع قسم شرطة مدينة نيويورك على غرار برنامج مخبر الغيتو الذي وضعه مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) في الستينيات من القرن الماضي لمراقبة أحياء السود. ولعل المفارقة العظيمة هي أنه بينما كان المسؤولون في وزارة الخارجية يروون الآثار التحررية لموسيقى الهيب هوب وفيسبوك على الشباب المسلم، كانت وكالة الأمن القومي تستخدم هذه التقنيات ذاتها للمراقبة. كانت الأهداف الأربعة الأولى لبرنامج باوندلس إنفورمانت (210)، وهو برنامج جمع البيانات التابع لوكالة الأمن القومي، هي الدول ذات الأغلبية المسلمة، إيران وباكستان والأردن ومصر، لكن ذلك لم يساعد أيضاً. تراجعت استطلاعات الرأي أكثر في عام 2013م. عندما أصبح المفاهيم ضعيفة، يكون ذلك بسبب السياسة الخارجية، وكذلك السياسات المحلية التي تستهدف المسلمين بشكل متزايد.

إن "الحديث عن التنوع"، واستخدام الثقافة السوداء كقوة ضعيفة، قد لفتا الانتباه أيضاً إلى العلاقة المعقدة بين التنوع والإمبراطورية. في كتابها "يوم الإمبراطورية" (211)، تقول آمي تشوا إن كل هيمنة عالمية -منذ الإمبراطورية الأخمينية في بلاد فارس- كانت تعددية بشكل غير عادي حسب معايير عصرها، وتمارس "التسامح الاستراتيجي" خلال سموها. الولايات المتحدة نموذج، فقد صعدت إلى الهيمنة العالمية في عقود ما بعد الحرب بعد أن سمحت أحداث مثل براون ضد مجلس التعليم وحركة الحقوق المدنية للبلاد بالتطور إلى "واحدة من أكثر المجتمعات المنفتحة إثنية وعرقية في تاريخ العالم". لكن من المفارقات، أن تشوا حذرت من أن هذا التسامح والتنوع هو الذي يثير الخلاف والصراع ويزرع بذور الانحدار الإمبراطوري. وأضافت إنه من أجل البقاء على قيد الحياة، يجب أن تجد "القوى العظمى" طرقاً لتأمر بولاء، أو على الأقل رضوخ السكان الأجانب الذين تهيمن عليهم؛ إن القوة العسكرية ليست كافية أبداً -تحتاج الهيمنة إلى "حزمة ثقافية". لقد أصبح

المسلمون الأميركيون عنصراً حاسماً في الذخيرة الثقافية للإمبراطورية
الأمريكية، وجزءاً من حزمة أكبر تضم خطاباً للتنوع، "ما بعد العرقية"،
وحركة الحقوق المدنية... وسواء ساهمت الموسيقى السوداء والإسلام
الأمريكي في إعادة صياغة صورة الأمة، أو إثارة المزيد من الشقاق، أو
كلاهما، فلا يزال يتعين رؤيتها.

الفصل الحادي عشر

عندما بكى الكمان

بدأت لين مونتي غناء موال، بعينين مغلقتين، وجبين مُقَطَّب، صَوَّرَ صوتها الحزين كلَّ حرفٍ كما لو أنه يَبْقُلُ مسارَ الوقت. بَاحَثْ، "غَيْثٌ عليكم أو خَلِيَّتْ داري"، "وعندما أفكر بكم جميعاً تحترق ناري". توقفت، وبدأ "موريس المديوني(212)" -عازف البيانو ومؤلف أغانيها لعقود- بعزف بضع نوتات بيده اليمنى كما يحدث في استخبار أسلوب غناء النوبة الأندلسية. هزت رأسها، وتذكرت منزل طفولتها الذي أصبح مهجوراً الآن. "تدفقت الدموع، وتركت ندوبها على وجنتي وجلدي". طلبت المغفرة من الذين تركتهم وراءها.

عندما فتحت مونتي في النهاية عينيها المغرورة بالدموع بكى الكمان بحنان؛ توسلت المغنية للقدير أن يرحمها ويأخذها إلى أحبائها. "يا ربي العليّ، حنّ عليّ". باللغة العربية تعني كلمة compassion "الحنين"، وتعني أيضاً "الحب" و"الحنين إلى الماضي". امتدت يدها اليمنى نحو جنة مفقودة، وارتفع صوتها حتى وصل إلى النوتة المثالية حول الحب والشوق. ثم توقفت فجأة؛ وبدأت الفرقة بعزف تانغو-الفالس بقيادة الأكورديون بدلاً من النوبة التقليدية. غنت مونتي المقطع الافتتاحي من أغنياتها للجزائر. "أنا أحب جميع المدن، وباريس أكثر قليلاً" - تبتسم - "ولكن ليس بالطريقة التي أحب بها الجزائر". أسعدت الجمهور في مسرح الشانزليزيه بينما تغني بالفرنسية واللهجة العربية الجزائرية، وتتحدث عن شوارع العاصمة الجزائرية حيث كانت تلعب وهي طفلة. ترنمت مونتي خلال انحسار الموسيقى، "قلبي مليء بالحزن، ولكنني ما ننساكش". رغم قلبها المفطور، لن تنسى الجزائر أبداً لأنه وكما كما أعلنت في النهاية، "البعد يعلمنا ما هو قيم".

ظلت لين مونتي سيدة الموسيقى العربية-اليهودية حتى وفاتها في 2003م. وُلدت باسم فورتوني سيرفاتي عام 1926م لعائلة يهودية بتونس، وترعرعت في العاصمة الجزائرية، حيث درست في المعهد الموسيقي في المدينة وأحبت إتيديث بياف. كانت تغني باسم ليلي فاتح في مراهقتها، وتبنت الاسم المسرحي "لين مونتي" عندما انتقلت إلى فرنسا في أوائل عام 1950م. تظهر أغلفة الألبومات من سنوات ما بعد الحرب فتاة ذات شعر داكن، طيبة العينين، وأصابعها متشابكة بتوسل. سرعان ما أصبحت لين نجمة في مشهد "فرانكو-أورينتال" المزدهر في باريس، وغنت في الملاهي الليلية في كارتيتيه لاتين، مما جذب انتباه منتجين وفنانين مثل تشارلز أزناقور. يتذكر الأصدقاء

أنها كانت تستطيع حث أي عاطفة تريدها على خشبة المسرح. يظهر الفيديو المُحِبُّ بالأسود والأبيض لين مونتي في مسرح الشانزليزيه في عام 1981م بتأثيرها الكامل - وربما يكون الفيديو الوحيد المتوفر لهذه الفنانة. كانت تخطر في المسرح بتؤدة، متنقلة من غناء نوبة العصور الوسطى إلى الباسو دوبلي الإسباني، متنقلة بسهولة عبر القرون والقارات والألسن. غنّت عن الفتى الأندلسي ذي العيون الداكنة الذي أحبته، ومالت نحو بيانو المديوني وشرعت في رقع ورقها - وهي حركتها المميزة. كانت تلف سلك الميكروفون بينما تعدّ أن تأخذه لرؤية هوليوود - بل أمريكا كلها. غمزت، "سوف أخذك إلى كوبا وأعلمك الرومبا". ظلت لين مونتي شخصية مركزية في مشهد "الموسيقى الشرقية" في فرنسا حتى أواخر عام 1990م، وعندما توفيت دفنت في مقبرة بير لاشيز إلى جانب إيديث بياف ومارسيل بروسست.

تبتسم بيرث نيخمان بحرارة حين تتذكر مونتي. نيخمان هي صاحبة مكتبة "التقدم" لبيع الكتب في الحي اليهودي التاريخي "ماري" في باريس. كانت المطربة ترتدي قبعة بيضاء واسعة وتتجول في المكتبة خلال أيام الأحاد مع حفيدتها جوانا المطربة الطموحة. "لقد كانت رائعة" تقول نيخمان البالغة من العمر خمسة وثمانين عاماً، والتي تملك عائلتها - في الأصل من روسيا - هذا المتجر منذ عام 1904م. تباع مكتبة التقدم الأدب اليهودي والموسيقى اليديشية منذ أكثر من قرن لزبائنهم من المهاجرين البولنديين والروس الذين استقروا في المنطقة منذ عام 1900م؛ وفي مرحلة ما من الستينيات، أصبحت المكتبة من أكبر موزعي الموسيقى اليهودية العربية في أوروبا. وقّع زوج نيخمان الراحل - يهودي بولندي - في حب موسيقى شمال أفريقيا التي سمعها في ملاهي باريس مثل "كباريه الجزاير" و"مطعم الكتكوت الأزرق"، وبدأ في جمع التسجيلات. وعندما أرسلت الحرب الجزائرية الأقدام السوداء(213) واليهود الجزائريين إلى فرنسا، أصبح صديقاً لبعض نجوم الموسيقى المغاربيين. تذكر أرملته أعظم شخصيات الموسيقى العربية - اليهودية التي ارتادت متجرها: قارع الطبول البدين، أزرق العينين، الكحلاوي تونسي، الذي أسس شركة دنيا للتسجيلات ومقرها باريس، وسجل لهؤلاء الفنانين المنفيين؛ زينات الوهرانية(214)، المغنية العمياء وعازفة العود التي منحها وزير الثقافة جاك لانغ وسام الفنون والآداب في عام 1989م بسبب معرفتها بالشعر الأندلسي؛ بلان بلان(215)، الأمهق الفكاهي وعازف الدف في فرقة زينات الوهرانية، ببذلاته البيضاء وأحذيته الكوبية المزينة بالألماس؛ لوك شرقي(216)، عازف الغيتار ذو الشعر الأبيض، والذي كان يفضل الجينز وأحذية رعاة البقر حتى بلوغه الثمانين عاماً. كان الشيخ رايموند(217)، الموسيقار الرئيس في قسنطينية من الزوار المنتظمين في الخمسينيات - وتسبب اغتياله في عام 1961م جزئياً إلى نزوح جماعي لليهود المدينة.

تذكرت بيرث تراجع المبيعات خلال الحرب العالمية الثانية، وارتفاعها مجدداً عقب عام 1945م، وتراجعها مرة أخرى خلال الثورة الجزائرية، عندما أغلقت دوريات الشرطة معظم الكباريات العربية في المدينة. نشطت الموسيقى في أوائل عام 1960م مع وصول الأقدام السوداء. "كان زوجي يقف لساعات يشغل الغراموفون لعملائنا". انتقلت الموسيقى العربية-اليهودية بحلول أوائل الثمانينيات من الملاهي إلى عروض مسرحية متفرقة وبعض العروض الخاصة. أغلقت شركة دنيا للتسجيلات أبوابها، وقام الكحلاوي التونسي -وغيره من بائعي الأسطوانات- بتسليم مجموعاتهم إلى أسرة نيخمان، التي قامت بتخزين الكاسيت والأسطوانات.

لكن كانت هناك انتعاشة قادمة. تقول نيخمان: "صارت الموسيقى اليهودية-العربية تحظى بشعبية مرة أخرى. تباع أسطوانات لين مونتي بغزارة، ولم تتبق لدينا نسخ من أسطوانات سليم هلاي. يشبه الوضع الستينيات، فالشباب وكبار السن من أمريكا والمغرب العربي وإسرائيل يشترونها كلها. قبل خمسة عشر عاماً أعطانا رجل مجموعته الكاملة، والآن يريد شراءها مرة أخرى".

كانت الموسيقى الأندلسية هي موسيقى المنفى والنوستالجيا لمسلمي شمال أفريقيا ويهودها منذ أوائل القرن الخامس عشر، ومثلت فقدان إسبانيا. ومع انتهاء الاستعمار ونشوب الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، استدعت الموسيقى الأندلسية منفى مزدوجاً. ذكرت هذه الموسيقى المسلمين بفقدان إسبانيا وسقوط فلسطين في أيدي الصهيونية. (كتب الشاعر محمود درويش في قصيدته أن صوت الكمنجات الأندلسية "يُدمي المدى"). بينما لم تذكر يهود شمال أفريقيا -اليهود العرب، كما يسمى البعض أنفسهم- بسفارد (218) فقط، بل بالأوطان الأفريقية التي تم نفيهم منها. تنزف هذه الذكريات والمناطق الجغرافية المتخيلة في بعضها البعض. وعندما تغني لين مونتي عن الأزقة والمنازل المهجورة، ليس من الواضح ما إذا كانت تشير إلى الجزائر العاصمة أو غرناطة.

بالنسبة للجيل الأصغر من المسلمين الفرنسيين الذين يعيدون النظر في المخزون اليهودي العربي، فإن الأندلس تعني شيئاً آخر. إن وصف ليلي بونيش (219) ويوسف حيدج الخصب لشمال أفريقيا وربطهم لجنوب إسبانيا بالجزائر وتونس لا يثير النوستالجيا فقط؛ بل له آثار على الهوية الإسلامية ومكانتها في المجتمع الفرنسي اليوم. وفي عصر يتصاعد فيه التوتر والصراع الأيديولوجي الحاد بين المسلمين واليهود، يعتقد الليبراليون المسلمون أن كلمات وأصوات لين مونتي وسليم هلاي تقدم دليلاً صوتياً على التعايش

بين المسلمين واليهود، وتاريخاً من التوافق الأندلسي الذي يمكن أن يساعد المسلمين في العثور على مكان في أوروبا اليوم. وإن كانت الهجرة تزعج مشهد الذاكرة الأوروبية، كما يقولون، فيمكن لتاريخ من الحميمية الموسيقية أن يتسبب بالشفاء. لكن الانعاش الموسيقي الحالي، ومحاولات إنقاذ هذا المخزون أتت أيضاً نتيجة زعر ثقافي وسياسي، وهو الإحساس بأن وفاة عمالقة الموسيقى اليهودية العربية هؤلاء (حيث شهد العقد الأخير رحيل لين مونتي، سليم هالالي، ليلي بونيش، راؤول جورنو، رينيه بيريز وسامي المغربي)، يتكهن بنهاية الحضارة العربية اليهودية. في حاضرتنا صارت المجتمعات اليهودية الناطقة بالعربية في شمال إفريقيا بالكاد موجودة، ويتزامن انقراضها التدريجي مع ظهور "الغيتو المسلم" في أوروبا. وتجد أغاني المنفى اليهودي صدى لدى المسلمين الفرنسيين الشباب الذين يحاولون فهم وضعهم كأحر "جديد" في أوروبا.

"العشرينيات الهادئة"

قدم معرض العالم (L'Exposition Internationale) الذي افتتح في باريس في مايو 1937م ثقافة 46 دولة، بما في ذلك فرنسا ومناطقها الاستعمارية البعيدة. وقدم معرض شمال أفريقيا نسخة طبق الأصل من شارع عربي، قصر بربري، فناء به خيام، صناع، حرفيين، وسينما، وكلها مصممة لإظهار التقدم الذي تحقّقه بعثة الحضارة الفرنسية في المغرب والجزائر. لكن الترفيه في قسم شمال أفريقيا كان جذاباً للزوار بشكل خاص: أوركسترا عربية وراقصات قدمن عروضهن للضيوف بينما يستمتعون بالشاي وكعك العسل، ومسابقات جمال وأفلام عن شعوب شمال أفريقيا. أتى المعرض إلى باريس بمجموعة من الموسيقيين الناطقين بالعربية الذين كان لهم تأثير لا يُمحى على المشهد الموسيقي في المدينة، وأصبحوا مركزيين للحياة الثقافية في بلدانهم الأصلية بعد الاستقلال.

من خلال معرض باريس التقى سليم هالالي (اسمه الحقيقي سيمون) -شخصية بارزة في موسيقى الكباريه الفرنسية العربية- بمنافسيه محمد الكامل (220)، ومحي الدين بشطارزي (221). ولد هالالي عام 1920م لعائلة يهودية من عنابة شرقي الجزائر. في عام 1934م، وجد مغني الفلامنكو البالغ من العمر أربعة عشر عاماً طريقه إلى الجزائر، ثم تسلل لسفينة فرنسية كانت ذاهبة إلى مرسيليا. توجه هالالي إلى باريس على أمل العمل في الجناح الجزائري لمعرض العالم، بعد أن جرت حظه في المدينة الساحلية. وسرعان ما التقى بكامل وبشطارزي. كان الأخير مدير أول جمعية موسيقية أندلسية في المغرب، "المطربية"، وقد أحضر واحد وثلاثين موسيقياً إلى المعرض.

وصل بشطارزي إلى فرنسا عام 1926م، عندما تم افتتاح المسجد الكبير في باريس؛ ولأنه كان معروفاً بصوته القوي، فقد دُعي لأداء أول أذان للصلاة. أقامت "المطربية" حفلة موسيقية في عام 1931م في المعرض الاستعماري، الذي عُقد في باريس لعرض فوائد بعثة الحضارة الفرنسية ودحض ادعاءات ألمانيا المنافسة بأن فرنسا كانت "تستغل المجتمعات الاستعمارية". وصف بشطارزي الأداء في معرض عام 1931م، حيث تم تمثيل السكان الأصليين (indigènes) من أفريقيا وآسيا في قرية أقيمت خصيصاً، على أنه "مهين". ولكنه عاد إلى معرض باريس في عام 1937م، وسرعان ما أصبح سليم هلالى جزءاً من فرقته المسرحية، وصحبه في جولة في فرنسا وإيطاليا.

في أوائل الثلاثينيات، كان محمد الكامل الأكثر طموحاً وإثارة بين ثلاثتهم، حيث أسس فرقة مسرحية خاصة به في باريس أسماها "جاز الكامل"، دمج فيها بين أسلوبين، الأوركسترا الموسيقية وموسيقى القاعة "le music hall". كان كامل يرتدي ربطة عنق ويعتمر قبعة، بينما ينقر بقدميه على خشبة المسرح، متغنياً بأغانٍ على أسلوب القودفيل (222). باللغتين الفرنسية والعربية تدور حول العاطلين عن العمل خلال فترة الكساد الكبير، وعن بائع سجاد في باريس، حتى إنه كان يؤدي أغنية مشهورة عن التلفون. لم يتمكن فنانون شمال أفريقيا في فترة ما بعد الحرب في باريس من الوصول إلى دار الأوبرا أو فولي بيرغير (223). أو قاعات الموسيقى الكبرى الأخرى بالمدينة - لذا كانوا يقدمون عروضهم في الملاهي الليلية وفي مقاهي العمال الجزائريين. ظهرت هذه المقاهي العربية في العاصمة الفرنسية حين ازدادت الهجرة من الجزائر إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى. منحت السلطات الفرنسية للمسلمين الجزائريين حرية السفر لأنها كانت تواجه نقصاً في العمالة وحاجة للجنود، كما خففت من قانون حقوق المواطنة الذي قيدهم في الكوميونات المسجلة. ولد صوت الكباريه الفرنسي العربي في هذه المقاهي، حيث دمج كل من الكامل وهلالى وآخرون موسيقى باريس ما بين الحزبين - الفرق الكبرى، الرومبا، البوليرق، التانغو، والفلامنكو - مع موسيقاهم الأندلسية. تميّز هلالى بنطاقه الصوتي وحضوره المسرحي، وإدخاله مقاطع باللغة الإسبانية في أغانيه العربية. ألّف الكامل سلسلة من الأغاني العربية لكي يغنيها سليم على طراز الفلامنكو - مثل "لا سيفيلانا"، و"الأندلسية"، و"تعالى" - التي تجمع بين العود، آلة الماراكس، والصنجات. عندما افتتح ملحن جزائري آخر "محمد أجوبروشين" ملهى "الجزائر" في شارع دي لا هوشيت، أصبح النجم هو هلالى، "الصبي صاحب الصوت العملاق". في أواخر أربعينيات القرن العشرين، اشتهر شارع دي لا هوشيت بالمشهد الموسيقي "الشرقي". كما تم افتتاح كباريهات أخرى مثل (القصبه، شمس الجزائر، ليالي لبنان)، مما جذب الطلاب العرب ورجال الأعمال وأصحاب المتاجر والسياح الذين سحرهم

الرقص الشرقي وديكور الليلة العربية. ومع تنقل كل من الكامل وبشطارزي وهلالي جيئةً وذهاباً بين فرنسا وشمال أفريقيا لتقديم عروضهم، بدأ بث أغانيهم على إذاعة الجزائر وراديو تونس. كان هؤلاء الفنانون الثلاثة يغيرون المشهد الموسيقي على جانبي البحر الأبيض المتوسط.

لم يكن الجميع سعداء لرؤية أو سماع مخزون الجزائر الأندلسي يدمج في الحياة الليلية الباريسية، أو مزج قصائد القرون الوسطى بالتانغو لتأديتها في الكباريه. بالنسبة للحركات المناهضة للاستعمار في الجزائر والمغرب، كانت الموسيقى الأندلسية هي الإرث الحي لإسبانيا الإسلامية التي تستحضر قصائدها تاريخاً قُمت فيه بواسطة النظام الاستعماري الفرنسي، والتي يمكن لشعرها أن يلهم الحركة من أجل الاستقلال.

"أنساب الأندلس"

لاحظ المؤرخ "دوايت رينولدز"، أنه حتى أوائل القرن العشرين كان معظم العرب قد اختبروا الثقافة الأندلسية من خلال الموسيقى، والأغنية على وجه الخصوص. توجد في العالم العربي أنواع موسيقية متنوعة موصوفة محلياً باسم "الأندلسية"، ويُعتقد أنها تطورت من الثقافة الموسيقية في إسبانيا الإسلامية في القرون الوسطى. تتنوع هذه الأنواع المحلية على نطاق واسع. وما يربطها معاً هو أصلها المزعوم في إيبيريا العصور الوسطى، واستخدامها المتكرر للموشح والزجل؛ وهما شكلان شعريان قويان ظهرا في إسبانيا الإسلامية.

قصة أصول الموسيقى الأندلسية هي قصة يكبر كل طفل عربي على سماعها. فقد ظهر موسيقي اسمه زرياب (224) في قرطبة في بلاط عبد الرحمن الثاني في حوالي عام 822م. كان هذا المغني الموهوب من أصل أفريقي ("زرياب" يعني "الشحرور") جاء لاجئاً من بغداد العباسية، بعد أن أجبره معلمه إسحاق الموصلي على الرحيل بسبب الغيرة؛ هرب زرياب إلى جنوب إسبانيا، وتصدع ليصبح أحد الموسيقيين المفضلين لدى الخليفة. مضى زرياب قدماً لجعل قرطبة مركزاً عالمياً، وعمل على تطوير تركيبة النوبة الموسيقية بأربع وعشرين طريقة مختلفة، واحدة لكل ساعة من اليوم. وقدم قواعد جديدة للمطبخ والأزياء وفن الذوق العام. وقد لاحظ المؤرخ "ماكاري" في القرن السابع عشر أنه قبل وصول زرياب كان أهل الأندلس يقسمون شعرهم من المنتصف ويسدلونه على أكتافهم؛ ولكن بعد أن رأوا تصفيفة شعر زرياب "تخلوا عن تصفيفة شعرهم القديمة، واعتمدوا تلك التي قدمها"، حيث قصوا

شعرهم من الأمام حتى حاجبيهم، مع تجعيدات صغيرة تخرج من جانبي أذنيهم.

عندما سقطت إسبانيا الإسلامية في عام 1492م، هرب اليهود والمسلمون واستقروا في مدن شمال أفريقيا، حَامِلِينَ ذكرياتهم ونوبتهم معهم. ووفقاً للتقاليد المحلية، فقد أحضر لاجئو قرطبة موسيقاهم إلى تلمسان في غرب الجزائر، وأحضر لاجئو إشبيلية موسيقاهم إلى تونس، وأحضر القادمون من فالنسيا وغرناطة موسيقاهم إلى فاس وتطوان. وحتى يومنا هذا، ترتبط الأنواع الأندلسية في المغرب العربي - سواء في المغرب أو الجزائر أو تونس - بالمراكز الحضريّة القديمة، وتتركز على النوبة، الجناح الموسيقي الذي طوره زرياب. إن ذكرى زرياب كسلف موسيقي مرموق، وإسبانيا الإسلامية باعتبارها نبع عظمة موجودة في كل أنحاء العالم الناطق بالعربية اليوم؛ ولكن في شمال أفريقيا، فإن القرب من إسبانيا، وتدفقات الهجرة، وتداول الموسيقى بين إسبانيا والمدن الساحلية في طنجة، تطوان، وهران والجزائر العاصمة، والوجود الاستعماري الإسباني المستمر في المغرب، يعني أن دور إسبانيا في الخيال الموسيقي المغربي والجزائري معقد بشكل خاص، وهو حقيقي بقدر ما هو متخيل.

تلقى جميع الفنانين الجزائريين الذين حققوا النجاح في مسرح القاعة الموسيقية في باريس في ثلاثينيات القرن الماضي تدريبهم في المعاهد الموسيقية التابعة للجزائر في فترة ما بين الحربين، وهو وقت كان يطالب فيه كل من الحكام الفرنسيين الاستعماريين والحركات القومية بنسب الموسيقى الأندلسية. في خمسينيات القرن التاسع عشر، أولى المسؤولون الفرنسيون في الجزائر اهتماماً بالتحف الرومانية وإرث روما في شمال أفريقيا أكثر من اهتمامهم بما يُطلق عليه التراث الإسباني-الموريسكي، لأنه يمكن اعتباره مقدمة للوجود الفرنسي. في الواقع، حظر الإذاريون الاستعماريون الفرنسيون جميع التقاليد الموسيقية الجزائرية، بما في ذلك الأندلسية، كما حُظرت اللغة العربية وأصبحت اللغة الفرنسية وسيلة التعليم.

ظهرت حركة في الجزائر وتلمسان في أوائل القرن العشرين، تهدف إلى إنقاذ الموسيقى الأندلسية من النسيان، كاستجابة للسياسة الفرنسية وقرون من الهيمنة العثمانية. بدأ الناس بتدوين نصوص النوبة وتأسيس جمعيات مكرسة للمحافظة على هذا المخزون. قام إدموند يافيل (225)، وهو يهودي جزائري درس على يد عميد الموسيقى الأندلسية في ذلك الوقت محمد بن علي سفنديجا، بنشر أول مجموعة من نصوص النوبة في عام 1904م. ولا يزال كتابه المعنون "مجموعة من الأغاني والألحان من كلمات الأندلس" يُعتبر

مرجعاً للموسيقين إلى يومنا هذا. كتب يافيل في مقدمة كتابه: "لقد طبعنا هذه المجموعة لأننا رأينا فن وكلمات الأندلس تختفي وتتضاءل كل يوم". ثم أسس جمعية "المطربية" في عام 1912م، وهي أول جمعية في شمال أفريقيا مكرسة للمحافظة على الموسيقى الأندلسية وتأديتها. بالنسبة إلى يافيل وغيره من القوميين الجزائريين، ترمز الموسيقى الأندلسية إلى تاريخ تم قمعه من قبل الحكم الاستعماري؛ وتُجسّد التقاليد والهوية، وقد تلهم الوعي القومي: من خلال ترسيخ الهوية الوطنية الجزائرية في ماضي إسبانيا المسلمة في العصور الوسطى، يمكن للموسيقى أن تشير إلى مستقبل حرّ ومستقل. امتدّ هذا الشعور خارج الجزائر، نحو المغرب وتونس. وكما كتب المؤرخ جوناثان جلاس: "بالنسبة للعديد من سكان شمال أفريقيا الذين يبحثون عن هوية تتجاوز الاستعمار - وربما تتجاوز ما بعد الاستعمار أيضاً - فإن الموسيقى الأندلسية هي شارة الأصالة التي تشير إلى الوراء عبر القرون".

استمرّ رفض الفرنسيين للموسيقى الأندلسية ونبذها إلى خانة "فولكلور" حتى بعد الحرب العالمية الأولى. ومع اكتساب حراك الجمعية قوة، فقد أولتها السلطات الاستعمارية اهتماماً أكبر، أملاً في السيطرة على هذا النوع. بحلول ثلاثينيات القرن الماضي، صارت الموسيقى الأندلسية محل نزاع سياسي بين الحركة القومية والسلطات الاستعمارية والجمعيات الموسيقية المتنوعة وطرحت كل جهة وجهة نظر مختلفة حول هدفها. على سبيل المثال، بعد وفاة يافيل في عام 1928م، عاد بشطارزي - الذي درس على يد الموسيقار اليهودي - من فرنسا لقيادة "المطربية". لكن جولاته الأوروبية ومشاركته في موسيقى الكباريه لم تعجب بعض أقرانه؛ لهذا انشقت مجموعة من أعضاء المطربية لتأسيس جمعية جديدة تُدعى "الأندلس"، ونصّت بشكل قاطع على أن هدفها هو "نشر الموسيقى الكلاسيكية العربية-الأندلسية الحقيقية التي أدى إدخال نغمات الفوكستروت وحفلات المقاهي إلى تشويهها". وسرعان ما ظهرت روابط أخرى، تعطل عملها بسبب الحرب العالمية الثانية ونظام فيشي (226).

"عرب الإيمان اليهودي"

لدى موريس المديوني مزاجٌ مرخٌ ودمث على خشبة المسرح وخارجها؛ فهو يمزح، يتصنع اللكنات، يُقيل الزوار على جباههم. تملأ الحيوية موسيقاه أيضاً. ولا تزال أغنيته "أهلاً وسهلاً، فرحتو قلبي" التي كتبها قبل خمسين عاماً، تُستخدم لافتتاح حفلات الزفاف في شمال أفريقيا وحفلات الميتزفة (227) حول العالم حتى يومنا هذا. يفضل عازف البيانو العالمي التحدث عن الأغاني

التي كتبها للين مونت، وكيف أنه عمل كخياط في الصباح وموسيقي في المساء لعقود، بدلاً من تذكر سنوات الحرب، بينما يجلس في غرفة المعيشة في شقته في مرسيليا، حيث عاش هو وزوجته جوليت لمدة خمسة وأربعين عاماً.

قال وهو يهز كتفيه متذكراً وهران، الجزائر في أوائل الأربعينيات: "لم يكن بإمكاننا الذهاب إلى المدرسة. كنت أقضي اليوم بأكمله في مقهى العم سعود، أعزف البيانو وأشرب عصير الرمان". كان مديوني فتى يبلغ من العمر اثني عشر عاماً عند المصادقة على قوانين فيشي في الجزائر. "ما حدث لا يزال غامضاً". فجأة وجد الصبي البالغ من العمر اثني عشر عاماً نفسه وأصدقاءه خارج المدرسة في وهران بسبب إصدار تشريع في باريس يجرد هؤلاء الصبية من الجنسية الفرنسية.

أصبح يهود الجزائر مواطنين فرنسيين في عام 1870م مع صدور مرسوم كريميو (228). وقد فصل هذا القانون السكان اليهود الأصليين من ناحية قانونية عن العرب المسلمين والبربر في الجزائر، الذين كانوا يعيشون في ظل نظام قانوني مختلف، ومنحهم الحقوق السياسية نفسها التي يتمتع بها المستوطنون الأوروبيون في شمال أفريقيا. جاء المرسوم نتيجة ضغط فعال من قبل المنظمات اليهودية في باريس التي كانت قلقة من القيود التي يواجهها أتباعها، ودخل حيز التنفيذ رغم معارضة المستوطنين الأوروبيين في الجزائر. لكن مع تولي فيشي السلطة في فرنسا في يونيو 1940م، عارض المسؤولون الاستعماريون "القانون اليهودي للحكومة المتعاونة"، وألغى مرسوم كريميو، وقاموا بتجريد اليهود الجزائريين من وضعهم كمواطنين فرنسيين. كما هو الحال في فرنسا، تم استبعاد يهود المدن الجزائرية من الخدمة العامة ومختلف المهن؛ وطرد الطلاب اليهود والمعلمين من نظام المدارس العامة. روى الروائي الجزائري المولد ألبيرت كامو كيف تم طرد صديقه أندريه بينيشو من وظيفته كمدرس في مدرسة ثانوية، واستبدلت صفة "مواطن فرنسي" في جواز سفره بـ "يهودي أصلي". وبالمثل، لن ينسى الفيلسوف جاك دريدا المولود في الجزائر إلى الأبد كيف تم إبعاده هو وأشقائه من المدرسة الابتدائية في سن العاشرة، ولم يُسمح لهم بالعودة إلا مع مجيء القوات الأمريكية في عام 1942م.

زعزع فيشي المشهد الموسيقي كذلك. ظهرت المسارح وقاعات الموسيقى كصوت احتجاج بالجزائر في ثلاثينيات القرن الماضي، لدرجة أن المسؤولين الفرنسيين كانوا يراقبون عن كثب العروض العامة. في عام 1937م، منعوا أحد كتيبات أغاني محي الدين بشطارزي بزعم أنها تحرض المشاعر المعادية

للفرنسيين. وضع نظام فيشي قيوده الخاصة على الموسيقيين. تقلصت أنشطة الجمعيات، وخاصة "المطربية" و"الأندلسية"، التي ضمت عدداً كبيراً من الأعضاء اليهود. كان أحد أساطير موسيقى ما قبل الحرب الجزائرية هو سعود المديوني (229). عم مورييس المديوني. درب الموسيقار الوهراني الشيخ سعود أجيال من الطلاب، من بينهم زينات الوهرانية ويلي بونيش، وامتلك "المقهى الموريسكي" الشهير في شارع الحرية في وسط المدينة، حيث تسكع مورييس في صباه.

يقول مديوني: "كان العم سعود محبوباً جداً، وقد ذهب إلى فرنسا لتقديم أداء في عام 1937م. تغنى بأغنية جديدة كتبها. لا زلت أتذكر عنوانها "عزيزتي، كم أحبك". استقبلت الأغنية بشكل جيد جداً - وقرر البقاء في باريس، حيث افتتح مقهى في شارع بيرغير كان يعزف فيه مساءً".

يصمت مديوني قليلاً. "أتذكر ذلك اليوم. خطف النازيون عمي من شوارع مرسيليا في 23 يناير 1943م ولم نره مرة أخرى، فقد أرسل إلي معسكر سوبيبور في بولندا. حينها كنت في الرابعة عشرة".

يتذكر الموسيقيون الذين عاشوا سنوات فيشي في الجزائر تلك السنوات بوضوح. سافر عازف الغيتار لوك شرقي، وهو أسطورة حية أخرى للموسيقى الجزائرية، مع أمه وأشقائه الأربعة إلى باريس في صيف عام 1940م، عندما دخلت الدبابات النازية إلى المدينة. يقول شرقي: "تركث المدرسة في سن السادسة ولم أعد أبداً، لهذا لا أكتب بشكل جيد، ولدي كثير من الأخطاء الإملائية! وأناضل الآن لإتمام كتابي". لدى شرقي البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً فصل في مذكراته التي يكتبها بعنوان "الطفل المُخبأ"، يصف فيه كيف ارتدى نجمة صفراء لمدة سبع سنوات، وكيف أرسلته والدته عبر مجلس المدينة للعيش مع أسرة مسيحية في باريس، ثم تم تهريبه إلى الجزائر العاصمة. "قام جيراننا المسلمون بمساعدتنا. ولأن اسم عائلة أمي هو بن حمو فقد ساعدنا أيضاً، لأنه لقب جزائري مشترك".

ليلة في تونس

عندما هبطت القوات الأمريكية في وهران في 8 نوفمبر 1942م، كان مورييس المديوني عازف بيانو مُبعد عن المدرسة، وعمره 14 عاماً، يعزف في مقاهٍ مختلفة من أجل بعض الإكراميات. كان دريدا في الثانية عشرة من عمره يتسكع في الجزائر العاصمة؛ وقد كتب لاحقاً: "عند الفجر، بدأنا نسمع صوت إطلاق النار، ثم في فترة ما بعد الظهر... رأينا أمام منزلنا جنوداً بخوذات لم

نشدها من قبل. لم تكن خوذات فرنسية. قلنا لأنفسنا: إنهم ألمان. ولكن اتضح أنهم أمريكيون". هبطت قوات الحلفاء في الدار البيضاء، وهران والجزائر العاصمة كجزء من هجوم شمال أفريقيا ضد قوى المحور، وتحركت بسرعة شرقاً حتى تم تحرير تونس في مايو 1943م. "في ذلك المساء، وصل الأمريكيون بشكل جماعي، وكما هو الحال دائماً، فقد قاموا بتوزيع السجائر، العلكة، الشوكولاتة، وبدأ الأطفال بالذهاب إليهم".

كان مديوني أحد هؤلاء الأطفال. وحتى يومنا هذا يروي - في الواقع يُمثل - لجمهوره لقاءاته الأولى مع الجنود البورتوريكيين والأميركيين الأفارقة، الذين علموه عزف الرومبا والراغتايم. يحكي مديوني بصوت بحار ثمل: "رأيت هؤلاء الجنود سُمر البشرة يحملون البانجو والماراكاس في وهران - كانوا بورتوريكيين، وكانوا يقولون، (مهلاً، يا مدام، يا مدام، هل يمكنك أن تعزفي لي "لا كوكاراشا" (230)؟" لم أعرف كيف أعزفها. لكن الجنود اللاتينيين علموني أن أغني أغنية "لا كوكاراشا" و "ربما، ربما". كما علمني الجنود السود "بوغي ووغبي" (231). يعزف عازفو البيانو بيد واحدة في المغرب العربي - اليد اليمنى. بينما بالكاد تتحرك اليد اليسرى. أما الجنود فقد عزفوا بيدهم اليسرى". ولتأكيد كلامه، عزف إيقاع النوبة بيمينه؛ ثم أدخل بيسراه مقطوعة سكوت غوبلين الكلاسيكية "الفنان".

كان للوك شرقي تجربة مماثلة في هذه الأثناء في الجزائر العاصمة. فعندما كان في التاسعة، كان هو وأخوه الأكبر رفائيل ينتقلان من مقهى إلى مقهى يغنيان بالإنجليزية للجنود الأمريكيين والبريطانيين.

يضحك شرقي وهو يقول: "إنه طريق طويل إلى تيبزاري، إنه طريق طوييييل جداً!"، كان يغني النشيد الوطني البريطاني في الحرب العالمية الأولى. "لم نملك فكرة عما نقوله، فقط أردت وأخي رفائيل الحصول على بعض العملات لشراء الطعام. في أحد الأيام، أعطاني مطرب بورتوريكي غيتاراً، ومن ثم بدأت العزف - كانت تلك آتني الموسيقية الأولى.

حررت عملية (المشعل) - كما أطلق عليها - المسلمين واليهود من هيمنة فيشي، وأطلقت العنان لسلسلة من الإبداعات الموسيقية. استمر لوك شرقي في تطوير مزيج من موسيقى الفلامنكو والموسيقى العربية، وهو ما أطلق عليه "ديسكورينتال". تعلم "مديوني" بدوره عزف ألحان الرومبا والجاز بيده اليسرى، بينما عزف في الوقت نفسه أنماط النوبة الأندلسية بيده اليمنى، في مزيج عربي-لاتيني-جاز سماه "ديسكارجا أورينتال". هذان الفرعان هما نتيجة غريبة وطريقة للقاء أمريكا مع في المغرب العربي المغاربية، ولقاء

الجنود اللاتينيين مع هواة الموسيقى الشباب في المقاهي المغاربية في الجزائر. بالنسبة للأميركيين من ذلك الجيل، فإن الأغنية التي ستستدعي حملة شمال أفريقيا إلى الأبد، وتستحضر صوراً مغربية لشمال إفريقيا تذكرنا بفيلم "كازابلانكا"، هي أغنية ديزي غيليسي "ليلة في تونس". غيليسي، الذي قام بتجريب اللغة اللاتينية وإيقاعات الشمال الإفريقي لبعض الوقت، قال إن أغنية البيبوب هذه أسميت بذلك الاسم- "يا حساسها اللاتيني، وحتى الشرقي" - لأن "تونس كانت حيّة في ذهن الجميع في الحرب العالمية الثانية". اشتهرت الأغنية بقوة، وأداها آرت بلاكي، إيلا فيتزجيرالد، وفنانو وزارة الخارجية الذين جابوا أفريقيا. وكما كتب أحد نقاد موسيقى الجاز عن جولات الجاز في أفريقيا، "إذا فشل [الأفارقة] في فهم أي شيء آخر، فقد أحبوا تلك الأغنية".

كان عازف العود المغربي الشاب حسين السلاوي (232) نظير غيليسي في شمال أفريقيا، وقد كتب أغنية "لماريكان" - عن الهبوط الأمريكي وإعجاب المسلمين بالقوة الأمريكية. كان السلاوي موسيقي كناوي يبلغ من العمر ثماني عشرة عاماً، ويعزف على الكمبري في سوق الرباط عندما "تم اكتشافه" بواسطة مستكشف مواهب يعمل في شركة باثي ماركوني، العلامة الموسيقية الفرنسية، ودعاه لتقديم عرض في الجناح المغربي في معرض باريس عام 1937م. تقول القصة إن السلاوي كان في باريس يستمع إلى بث جديد من إذاعة القاهرة عندما سمع عن الهبوط الأمريكي في الدار البيضاء، فصعد على متن سفينة وعاد إلى الوطن وألف الأغنية بنغمات بسيطة على أوتار العود، وطبل الدربة، وكورس من النساء، وصف فيها الطفرة الاقتصادية والتلف الثقافي الذي اجتاحت المجتمع المغربي عندما هبط لماريكان.

"الزين والعين الزرقة/ جاءنا بكل خير"، غنى السلاوي، مشيراً إلى الساعات والسجائر والعلكة التي كان يوزعها الجنود الأمريكيون أثناء دورياتهم في شوارع الدار البيضاء. لكنه حذر من الجرأة التي أصابت الناس، خاصة النساء. حيث بدأت بعضهن بتجريب تسريحات شعر جديدة، بينما هجرت أخريات أزواجهن - "حتى العزيزات اليوم يشربوا الرّم"، بينما تنشد الجوقة "عطينا، عطينا دولار"، و"أوكي، أوكي / كامون، باي باي!". تمثل هذه الأغنية لقطة موسيقية لوصول أمريكا كقوة عظمى إلى العالم العربي، والتغيير الاجتماعي الذي أحدثه ذلك، ومثل "ليلة في تونس" فقد أعيد مزج الأغنية كثيراً في المغرب، وأُستُخدمت في تمثيلات ومسرحيات موسيقية، وتم بثها بعد حرب الخليج عام 1990م، ثم بعد غزو العراق عام 2003م، ومؤخراً بعيد النشطاء الشباب النظر إليها بوصفها تأريخاً للحرب العالمية الثانية.

زخرفة العالم

يبدأ فيلم "بلديون" (233) (2006م) في عام 1943م بعد وقت قصير من الهبوط الأمريكي، ويُظهر جزائريين فقراء، يرتدون زياً عسكرياً أمريكياً، ويصطفون للانضمام إلى الجيش الفرنسي الحر في ديغول. يتطوع أحد الشباب لكي يهاجر إلى فرنسا، وآخر من أجل الراتب المتواضع، بينما يعتقد ثالث أن القتال من أجل فرنسا يضمن مستقبلاً أفضل للمسلمين في الجزائر. ما يقرب من ربع الجيش الفرنسي الحر - حوالي ثلاثمائة ألف جندي - تكون من مواطني المستعمرات الفرنسية؛ يتتبع الفيلم فوج المشاة الجزائري السابع وهم يقاتلون لشق طريقهم نحو إيطاليا ويهزمون الفيرماخت في مرسيليا (في معركة تاريخية قتل فيها عشرات المقاتلين الجزائريين في أسبوع واحد) ومنطقة الألزاس، كل ذلك وهم يواجهون التمييز الشديد داخل الجيش، ومحاولة استمالتهم من خلال المنشورات النازية باللغة العربية لحثهم على الانضمام إلى الجانب الآخر. يختتم الفيلم في يومنا هذا، وتظهر شخصية عبد القادر في مقبرة حرب في الألزاس، يزور قبور رفاقه المسلمين الذين سقطوا. ثم يعود إلى شقته الصغيرة المتداعية.

صدر الفيلم في الولايات المتحدة باسم "أيام المجد"، ورشح لجائزة الأوسكار لعام 2007م كأفضل فيلم أجنبي، وأثار الكثير من الجدل في فرنسا حول دور القوات المسلمة في الحرب العالمية الثانية. في اليوم الذي أعقب عرض "بلديون" لأول مرة، أعلن دومينيك دو فيلبان، رئيس الوزراء آنذاك، أن الحكومة سترفع قيمة معاشات الجنود الأحياء الذين يصل عددهم إلى 80 ألفاً من المحاربين القدامى الفرنسيين من مستعمراتهم السابقة. يعد الفيلم جزءاً من اتجاه أكبر: يحاول النشطاء الأوروبيون - المسلمون وغير المسلمين - رفع الوعي بالدور الذي لعبته الأقليات وقوات المستعمرات في تحرير أوروبا. كما يحاول النشطاء في بريطانيا الحصول على اعتراف لقدامى المحاربين النيجيريين الذين قاتلوا في الجيش البريطاني في بورما في عام 1943م. تحاول الأقليات أن تصبح جزءاً من الدولة القومية في أنحاء أوروبا الغربية، وتدرك مدى أهمية الحرب العالمية الثانية لهوية أوروبا الحديثة. كما تؤمن هذه المجموعات أنه بسرد قصص الأفارقة، المسلمين والهنود، الذين قاتلوا بشجاعة في فرنسا وبريطانيا، والجيش البلجيكية، رغم اعتبارهم من الدرجة الثانية، فقد تظهر كيف كانت هذه المجتمعات حاضرة في تأسيس أوروبا الحديثة، وبالتالي يمكن اعتبارهم "شعوباً أصلية" ضمن سكان القارة.

قام نشطاء الأقليات في أمريكا أيضاً بالضغط لتكريم آبائهم وأجدادهم باعتبارهم أعضاء في "الجيل الأعظم" (234). واجهت "جمعيات المحاربين

القدامى اللاتينية" و"تجمع أعضاء الكونغرس من أصل لاتيني" صانع الأفلام كين بيرنز في عام 2007م لتجاهله مساهمة ثلاثمائة ألف جندي من أصل لاتيني في فيلمه الوثائقي "الحرب" الذي عرض في بي بي إس (235). يحتوي المتحف العربي الأمريكي في ديربورن على معرض دائم للأميركيين العرب الذين خدموا في فترة الحرب، مع صور فوتوغرافية، مذكرات يومية، وأعداد من مجلة فرسان سانت جورج، المنشور الذي سمح للجنود السوريين واللبنانيين بالتواصل مع أسرهم وأصدقائهم. تدرك الحكومات الأوروبية بشكل متزايد مساهمة "قوات المستعمرات" ولو أن الأمر متأخر ورمزي: في عام 2007م، تم تنظيم معرض في متحف الحرب الإمبراطوري الشمالي في مانشستر بإنجلترا، تكريماً للقوات الأفريقية التي حاربت من أجل الإمبراطورية البريطانية. وفي 14 يوليو 2010م - يوم الباستيل (236) - عبّر الرئيس نيكولا ساركوزي أمام كبار الضباط العسكريين الأفارقة في القصر الرئاسي عن "امتنانه الأبدي" لقوات المستعمرات الأفريقية.

يقوم النشطاء المسلمون بالكثير من العمل الثقافي الذي يدور حول ذاكرة الحرب بسبب علاقتهم المعقدة بالحرب العالمية الثانية واليهود في أوروبا، وخاصة في فرنسا، منذ اندلاع الانتفاضة الثانية في عام 2000م، حيث تحولت خطابات الكراهية لشجارات في الشوارع، أعمال تخريب عشوائية، ومآسٍ كإطلاق النار في مدينة تولوز في شهر أبريل 2012م، عندما أطلق محمد مراح البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً الرصاص في مدرسة يهودية وقتل حاكماً وثلاثة أطفال. إن الصراع بين المسلمين واليهود داخل أوروبا إلى حد كبير امتداد للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي الذي بلغ ذروته في لحظات مثل حرب لبنان عام 2006م، أو حرب غزة عام 2009م. كذلك كان صعود السلفية بين الشباب المسلم الأوروبي منذ تسعينيات القرن الماضي يعني أن وجهات النظر المتعصبة تجاه غير المسلمين قد أصبحت أكثر انتشاراً، وكذلك إنكار الهولوكوست. جادل غلبرت أشكار مؤخراً إن "الإنكار" الموجود في الخطاب السياسي العربي والإسلامي اليوم، هو جزء من الصراع العربي الإسرائيلي حول السرديات، الذي اندلع في لحظات الحرب، وكثيراً ما نُشرت كرد فعل على إنكار النكبة - أي إنكار النكبة الفلسطينية عام 1948م. في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، كان القوميون العرب هم من رفضوا الهولوكوست، لأنهم رأوا فيه تبريراً لاحتلال فلسطين. ظن هؤلاء القوميون أنهم يقوضون القضية الصهيونية بإنكار "شواها" - واعتبروا أنها لم تكن أزمة حقاً لو أنها حدثت فعلاً. كانت الجماعات الإسلامية تشارك في هذه الممارسة، منذ صعود الإسلاميين في أواخر السبعينيات، وقد استخدم قادة مثل محمود أحمددي نجاد إنكار الهولوكوست لأغراض سياسية.

رفض النشطاء المسلمون في أوروبا هذا الخطاب البغيض. وزعم القادة المسلمون الاندماجيون أن خطاب الدعاة الإسلاميين العشوائيين المعادي للسامية -الذي يدفع الصحفيين والدبلوماسيين الأمريكيين إلى التحذير من أن معاداة السامية تعود مرة أخرى إلى القارة الأوروبية- ضار للغاية، ويقوض جميع محاولات الإدماج. تقول سامية الصبا المعلمة في مدرسة ثانوية فرنسية-مغربية في نويزي سيك، والتي انزعجت من خطاب الكراهية الذي سمعته من طلابها عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ما دفعها لتدشين حملة عن تاريخ معاداة السامية موجهة للشباب الفرنسي المحروم من الامتيازات. "إن المعركة ضد معاداة السامية أمر حاسم في اندماجنا، ومن أجل اكتساب المواطنة الكاملة. بمحاربة معاداة السامية نسلح شبابنا ضد التعصب بشكل عام". يدرك القادة المسلمون الأصغر سناً أن "قضية المسلمين" الحالية في أوروبا و"قضية اليهود" التاريخية ترتبطان ارتباطاً وثيقاً، وغالباً ما ينظر إلى قضية التكامل الإسلامي في ضوء تاريخ أوروبا من معاداة السامية. ويعرف القادة الأصغر سناً أن الصحفيين الأوروبيين يترددون في التحدث عن "غيتوات المسلمين" لأنها تستحضر ذكريات غيتوات اليهود، وهذا سبب أساس وراء معارضة أكثر المثقفين الفرنسيين اليساريين للتصنيف العرقي والإحصاءات العرقية بسبب استخدام نظام فيشي لها من أجل تحديد مكان اليهود وتجميعهم في المعسكرات. علاوة على ذلك، يدركون أنه من حيث المفاهيم العامة، حين يُنظر إلى زعيم أو منظمة أوروبية مسلمة على أنها "معتدلة" أو "راديكالية" فإن ذلك يعتمد في كثير من الأحيان على مواقفهم تجاه الهولوكوست وإسرائيل. كما تقول الصبا "إن الاعتراف العام بالهولوكوست ليس أساسياً فقط من الناحية الأخلاقية، ولكنه ضروري أيضاً من أجل النضج السياسي للمسلمين الفرنسيين". باختصار، إذا أدرك الأميركيون المسلمون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن احتضان المعاناة السوداء أمر حاسم يساعد في دمجهم، وحاولوا إبراز دورهم في حركة الحقوق المدنية، فإن أصوات المسلمين الليبراليين في أوروبا تجادل بأن أي جهد يجب أن يقدم الاحترام لذكرى الحرب العالمية الثانية وتاريخ المعاناة اليهودية على الأرض الأوروبية. علاوة على ذلك، ظهر في العقد الأخير خطاب المحافظين الجدد الذي يربط صراحة الحركات الإسلامية بالنازية، مشدداً على التأثير الفكري المزعوم لأمين الحسيني، مفتي القدس المتعاطف مع النازية، على الفكر الإسلامي المعاصر. وصم العرب والمسلمين بـ "التعاطف مع النازية" ليس أمراً جديداً؛ فقد أسقطت تصرفات الحسيني وغيره ممن رأوا في ألمانيا النازية وإيطاليا موسوليني حلفاءً في النضال ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي والحركة الصهيونية على العرب والمسلمين بشكل عام. لكن في العقد الأخير، اكتسب مسلسل

"النازية العربية" توسعاً أكثر، وتكرر في العديد من الكتب والمقالات المنشورة في الولايات المتحدة وأوروبا.

أصبح من الضروري بالنسبة للمسلمين الشباب الذين حوصروا بين الخطابة المتعسفة المنبثقة من داخل مجتمعهم، وخطاب المحافظين الجدد عن "اليورابيا"، و"الفاشية الإسلامية"، و"التعاون العربي"، أن يظهروا كيف ساعد المسلمون في تحرير أوروبا من النازية، بل وكذلك التعايش التاريخي بين المسلمين واليهود، وأنه لا توجد كراهية فطرية تجاه اليهود في الحضارة الإسلامية. ولتحقيق هذه الغاية، نظر النشطاء المسلمون إلى الأندلس وتحدثوا عن "العصر الذهبي" للمسلمين الأيبيريين، لرفع الوعي بالثقافة الدينية الثلاثية في الأندلس. كما عمل المرشدون السياحيون الشباب في أنتويرب على تقديم جولات "أندلسية" في أحياء المسلمين واليهود في المدينة. وأقامت مدينة تولوز مهرجانات التعايش؛ وفي نيويورك جمعت مبادرة "قرطبة" القادة الشباب المسلمين واليهود من أجل الحوار. لكن هذا ليس بالأمر الجديد أيضاً؛ فعندما يحاصر المسلمون، فإنهم يعودون دوماً إلى إسبانيا الإسلامية. بدأ القوميون العرب يصفون إسبانيا الإسلامية بأنها "يوتوبيا الأديان" بعد حرب 1967م، حيث تمتع اليهود بالمساواة أثناء الحكم الإسلامي، مجادلين أن الصراع الديني لم يبدأ إلا مع صعود الصهيونية. ورداً على هذه "الأسطورة الأندلسية"، ظهرت أسطورة تاريخية مضادة تطرح ما وصفه المؤرخ مارك كوهين بنظرة "لاشمورية جديدة" للتاريخ اليهودي-العربي، ترى أن الحياة اليهودية في الأراضي الإسلامية كانت تتميز بالاضطهاد والعنف القاسي، كما هو الحال في الغرب المسيحي.

تعتبر كتابات المثقفين اليهود الأوروبيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر مهمة للنشطاء المسلمين اليوم، لأنهم أشادوا بتسامح العالم الإسلامي، وخاصة إسبانيا الإسلامية. بالنسبة إلى هؤلاء العلماء اليهود الذين تم استبعادهم من المجتمع الأوروبي خلال عصر التنوير، فإن محاكم التفتيش الإسبانية، وطرد جماعات يهودية بأكملها من قبل دول مسيحية أخرى في العصور الوسطى لم يكن لها ما يوازيها على الجانب الآخر من البحر المتوسط. كما كتب كوهين، "لم يكن هناك نظير لهذه التجاوزات في الإسلام". ومع حلول القرن التاسع عشر استخدمت أسطورة اليوتوبيا الدينية الإسلامية لتحدي "أوروبا المسيحية الليبرالية لدفعها للوفاء بوعدها السياسي بمساواة" اليهود. سرعان ما صار "العصر الذهبي" لإسبانيا الإسلامية مرجعاً متكرراً في الكتابة اليهودية الأوروبية عندما أشاد الدبلوماسيون والعلماء، كحسبي بن شبروت، وصموئيل بن نجريل، ويهوذا هاليفي، بأروقة المحاكم الإسبانية-الإسلامية. يدقق الشباب المسلم اليوم في

كتابات هؤلاء العلماء اليهود الألمان لأسباب مختلفة. تتحدث نصوص القرن التاسع عشر التي تتناول الحياة على هامش المجتمع، الإقصاء الحضري والحياة في المنفى، بينما تمدح إسبانيا الإسلامية، بصوت عال المثقفين المسلمين الشباب، الذين يفكرون في أسئلة حول وضع الأقليات والشتات ويحاولون الرد على اتهامات الولاء المزدوج والولاء لقانون مختلف-الإشاعات نفسها التي سوغت ضد اليهود لقرون.

علاوة على ذلك، وهناك طريقة أفضل لمواجهة المسلمين المعادين للسامية وحديث المحافظين الجدد عن اليهود وفوييا الإسلامية سوى الاستشهاد بكلمات هؤلاء المفكرين اليهود الذين أشادوا بالتعددية الإسلامية؟ لذلك، نجد اليوم مدونين مسلمين يناقشون أعمال مؤرخين متعاطفين مع المسلمين عاشوا في القرن التاسع عشر مثل المجري إغناك غولدزيهر، الذي صلي في مسجد في القاهرة؛ وهاينريش غرايتز، الذي أثنى عمله الكلاسيكي "تاريخ اليهود" (1891م) على الحياة اليهودية في الجزيرة العربية؛ والشاعر الرومانسي الألماني هاينريش هاينه الذي كتب مسرحية المنصور في عام 1819م، بعد أن دمرت موجة من العنف المعادي لليهود عدداً من المدن الألمانية. تجري أحداث المسرحية في إسبانيا في القرن السادس عشر، عندما كان المسيحيون يجبرون المسلمين على تغيير دينهم، وانتهت بشكل مأساوي عندما اختار البطل، "المنصور"، وحبيبته القفز نحو حتفهما بدلاً من الخضوع للمسيحيين.

من الغريب والمثير للدهشة أن نجد المفكرين الشباب يدرسون حالياً فكر اليهود الأوروبيين، قبل وبعد التحرر، على أمل أن تتمكن أصوات هؤلاء العلماء اليهود الذين غادروا الشتيل (بلدة أو قرية يهودية صغيرة في شرق أوروبا) من مساعدة المسلمين على إيجاد طريقهم للخروج من الغيتو. لكن هؤلاء "اليهود المؤيدين للإسلام"، كما وصفهم بيرنارد لويس، تعرضوا لانتقادات شديدة في أواخر الستينيات، ومؤخراً من الكتاب المحافظين الجدد الأصغر سناً. ينظر المحافظون الجدد إلى هؤلاء المفكرين اليهود على أنهم باحثون متحيزون، أدى إحباطهم بسبب استبعادهم في أوروبا، إلى تطوير هذه "الأسطورة الأندلسية" عن اليوتوبيا الدينية. أما النشطاء المسلمون، فهم اليوم أكثر تطوراً عندما يتذرعون بإسبانيا الإسلامية أكثر من أسلافهم في الستينيات؛ فهم لا يتكلمون عن اليوتوبيا، لكنهم يجادلون أنه على الرغم من القيود المفروضة على غير المسلمين، فقد حظي اليهود تحت حكم المسلمين الأيبيريين بقدر أكبر من الأمن والاندماج من يهود أوروبا المسيحية. تحظى النصوص الألمانية من القرن التاسع عشر بجاذبية وسط الشباب المسلم حالياً. ولدى أغنيات المغنين اليهود العرب وحبهم للأندلس لها

جاذبية أوسع وأكثر فورية؛ رغم أن الجدل حولهم لا زال قائماً بواسطة الجدليين.

أركيولوجيا الصدمة

في سبتمبر 2003م، كانت الجزائرية صافيناز بوصبيعة صاحبة الـ 21 عاماً، والتي تدرس في جامعة أكسفورد، تتجول عبر قصبة الجزائر العاصمة مع صديقها، ودخلت متجراً للمرايا. وأثناء حديثها مع صاحب المتجر محمد فرقيوي البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً، لاحظت صورة باهتة بالأبيض والأسود على سطح مكتبه لمجموعة من الموسيقيين يرتدون بذلات قاتمة وطرابييش، بعضهم يضع كماناً على ركبته، وآخرون يحملون آلة العود.

شرح فرقيوي، "ترجع هذه الصورة إلى عام 1956م، عندما عزفنا في دار الأوبرا الجزائرية. اعتدتُ عزف الأكورديون مع الأوركسترا، ويا الله! كنتُ أراقص آلي كما لو كانت امرأة عندما يبدأ الفالس".

فُتِنَتْ صافيناز بصورة الفنانين المسلمين واليهود - تلاميذ المايسترو الراحل الحاج محمد العنقة (238) - الذين كانوا يؤدون الموسيقى الأندلسية معاً في حفلات الزفاف، المقاهي والمسارح المحلية. شرعت في تحديد منزل كل موسيقي حي موجود في الصورة، البحث في السجلات المحلية، وزيارة أرشيف البلدية المحلي. تشرح بوصبيعة، "أردتُ فقط مقابلة هؤلاء الفنانين، وسؤالهم عن ذكرياتهم في جزائر خمسينيات القرن العشرين. كانوا مبعثرين في جميع أنحاء البلاد، عندما التقيت بهم كلٌّ على حدة، كنتُ أرغب في جمع شملهم. عندما رأيتُ رد فعلهم تجاه بعضهم، وكيف كانوا يحبون بعضهم، وهذا المزاج للموسيقى، قررتُ صنع فيلم عنهم".

يتتبع فيلم المزاج "الغوسطو" (2011م) تاريخ شكل شائع من الموسيقى الأندلسية يُطلق عليه "الشعبي"، وذلك منذ ظهوره في الميناء البحري وقصبة الجزائر العاصمة خلال الأربعينيات، حيث كان الفنانون المحليون يقيضون السجائر مقابل آلة البانجو (239) مع الجنود الأمريكيين خلال اندلاع الثورة الجزائرية. فرقت حرب الاستقلال الموسيقيين، لأن "جبهة التحرير الوطني" (240) (FLN)، والمليشيا الفرنسية السرية التي حملت اسم "منظمة الجيش السري" (241) هددوا اليهود والمسلمين الذين كانوا يؤدون معاً. يمزج الفيلم سماء الساحل الجزائري المذهلة، صور القصبات المتداعية، المقاهي والمنازل التي ترعرع فيها الموسيقيون، مع عروض ومقابلات لكبار الموسيقيين الجزائريين: الحاج العنقة، رشيد البركاني، أحمد برناوي، رضا

الجلالي، وكذلك الموسيقيين اليهود الذين يقيمون الآن في فرنسا - لوك شرقي، مورييس المديوني، يوسف حجاج، رينيه بيريز، وروبرت كاستل. ويُختتم بحفل لم شمل قوي في مرسيليا، حيث التقى الموسيقيون - الذين تتراوح أعمارهم الآن بين خمسة وسبعون وخمسة وتسعون عاماً - بعد مرور خمسين عاماً. كانت مشاهد الموسيقيين المقيمين في فرنسا وهم يعانقون أصدقاءهم على أرصفة مرسيليا مؤثرة بشكل مهيّب.

بدأت صافيناز بتنظيم حفلات موسيقية لهذه الفرقة المسلمة اليهودية التي تعود إلى خمسينيات القرن العشرين؛ فقدّموا عروضاً عبر أوروبا، آسيا والمغرب. قالت بابتسامة: "هذه موسيقى ما قبل الثورة. إنها بمثابة نسخة جزائرية لنادي بوينا فيستا الاجتماعي". أدى هذا الفيلم إلى وقوع المخرجة - التي جاءت صدفة إلى السينما - في أتون حرب ذاكرة مستعرة بين فرنسا والجزائر. لم يُسمح بعرض فيلم الغوسطو في الجزائر العاصمة. تقول صافيناز إن "السلطات رفضت العرض؛ وخلال عرض خاص لمسؤولين حكوميين، خرج ستة أشخاص من الصالة عندما ظهر المعبد اليهودي بالعاصمة على الشاشة. يا للسخافة!". أثارت محاولتها لإحياء الموسيقى العربية-اليهودية تصدعات عميقة في الذاكرة الجمعية.

ازدهرت الموسيقى الأندلسية الشعبية في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية. التحق مديوني بالمعهد الموسيقي في وهران، وأصبح متدرباً لدى أحمد وهبي (242) (الأب الروحي لموسيقى الراي). يتذكر مديوني بفخر، "كنت أؤدي بشكل منتظم في دار الأوبرا في المدينة. كان محي الدين بشطارزي يقود جزءاً من الأوركسترا". أصبحت لين مونتي - التي كانت لا تزال ليلي قاتح - تلميذة للشيخ ساسي في الجزائر. وزينات - التي كانت لا تزال تعرف باسم سلطانة داوود - تلميذة مصطفى إسكندراني. أما لوك شرقي فقد التحق بـ "المعهد الموسيقي الجزائري"، مع المايسترو عبد الغني بلقايد، جاره الآن في باريس. في سنوات ما بعد الحرب، ظهر ليلي العباسي كعملاق موسيقي في الجزائر والمغرب الكبير، وقاد فرقة موسيقية في إذاعة الجزائر مع محمد العنقة. كان عازف الكمان والملحن وابنه روبرت البالغ من العمر 12 عاماً، (الذي أصبح الآن عضواً في الغوسطو)، يستقلان القطار من الجزائر إلى الدار البيضاء، ويتوقفان في القدن لتقديم عروض لهواة الموسيقى من المسلمين واليهود ابتداءً من عام 1946م.

يتذكر شرقي: "انتهت الحرب الكبرى - وبدأ كل شيء ممكناً؛ كان شهر رمضان رائعاً، وغنينا الشعبي كل مساء في مقاهي قصبة الجزائر العاصمة حتى الساعة الثالثة صباحاً".

تم افتتاح العديد من الكباريهات الشرقية في الحي اللاتيني بفرنسا في فترة ما بعد الحرب، مثل "الجزائر، شمس الجزائر، القصبة، لي تام تام، ليالي لبنان، بغداد، وغيرها". استقر النجوم الجزائريون أمثال أحمد وهبي، سليمان عازم (243)، وشيخ الحسناوي في باريس، وجرت جميع أنواع التعاون مع الموسيقيين العرب الذين أتوا إلى فرنسا من مصر ولبنان، وحتى مع فنانين الجاز الأمريكيين.

كان يوسف حجاج، اليهودي التونسي الذي وصل إلى فرنسا عام 1946م في وسط هذا المزيج الموسيقي، وحصل على وظيفة في كبارهيه الجزائر. يقول حجاج، الذي يبلغ الآن ثلاثة وتسعين عاماً: "لقد عزفنا للجميع - لبنانيين، مصريين، فرنسيين، وسياحاً أمريكيين. لقد عزفت ذات مرة مع فرقة لويس أرمسترونغ عندما جاء إلى باريس".

ذات ليلة في عام 1950م، أطلق حجاج بالصدفة مهنة واحدة من أعظم الأصوات في العالم العربي. قرر حجاج أثناء أدائه في مطعم "لو تام تام" في شارع دي لا هوشيت (يشير اسم "تام تام" إلى أحد أنواع الطبول ولكنه كان أيضاً مختصراً لتونس - الجزائر - المغرب)، أن يقدم أغنية كتبها مؤخراً عن والدته إلى ابنة صاحب الملهى البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً. كانت الطفلة الصغيرة وردة تغني أحياناً بضع أغان قبل أن تنام في العاشرة مساءً. كان أدائها "يا أمي" في تلك الليلة استثنائياً، وسرعان ما أصبحت الفتاة نجمة الأطفال، ولقبت بـ "عندليب شمال أفريقيا". وبدأت تستضيف برنامجاً للأطفال في راديو الشرق، وترعرعت لتصبح "وردة الجزائرية"، واحدة من أفضل مطربي العالم العربي، ومغنية لن تنسى جذورها في مشهد الكباريه الباريسي.

مع انتشار الهياج المناهض للاستعمار في جميع أنحاء المنطقة المغاربية، كان الموسيقيون العرب-اليهود متفائلين، وسافروا بشكل متكرر بين فرنسا وشمال إفريقيا. توقف الملك محمد الخامس ملك المغرب في باريس في نوفمبر 1955م، بينما كان عائداً من منفاه الفرنسي في مدغشقر إلى وطنه. سمع سامي المغربي (قائد جوقة ترثيل مغربي ومايسترو للشعر الأندلسي) ولوك شرقي - الذي صادف أنه كان يزور فرنسا - بوصول الملك. وذهب الاثنان إلى ملهى محلي، حيث سجل المغربي أغنية تحتفل بإطلاق سراح الملك بعنوان "ألف هنية وهنية". يتذكر شرقي، "سجل سامي الأغنية في الظهيرة، في الطابق السفلي من كبارهيه "شمس الجزائر"، واستقلينا المترو وأخذنا نسخة إلى جلالة الملك. أتذكر أنه كان يجتمع مع الناس في فندق سكريبت". أصبحت الأغنية نشيداً قومياً في المغرب ما بعد الاستعمار. استمر هؤلاء الفنانون العرب اليهود في تقديم عروضهم -يوسف حجاج في "كباريه

الجزائر" و"لي تام تام"، وزينات في "المقهى الموريسكي" الذي افتتح مؤخراً في شارع القديس مارك- عندما قصفت الطائرات الفرنسية، البريطانية والإسرائيلية مصرفي نوفمبر 1956م.

راقبت الشرطة في فرنسا المقاهي والمسارح بسبب الموسيقى المناهضة للاستعمار منذ ثلاثينيات القرن الماضي. اجتذبت المسرحيات الهزلية وعروض القودفيل التي يقدمها الكامل اهتماماً خاصاً. دعا مسؤول إحدى المدن السلطات إلى اتخاذ جميع التدابير اللازمة لحماية القوات الفرنسية وعمال شمال أفريقيا من "التأثيرات الخبيثة" لصوت الكامل بعد جولة قام بها في شرق فرنسا في أغسطس 1938م. عندما توفي الكامل في عام 1953م، كان مجتمع باريس الجزائري قد بلغ نحو 120.000، وكانت حركة المسرح الكوميدي التي بدأها قد صارت قوية. كان العمال يجتمعون بعد العمل في المقاهي ويستمعون إلى أغنيات ومسرحيات تدور حول البلد القديم. كانت الشرطة موجودة أيضاً، وفي حال رأت أن الأغنية ذات فحوى سياسية، تطلب من المؤدي استبدالها بأغنية أخرى. بدأ الموسيقيون بدورهم في غناء حكايات رمزية. قدم سليمان عازم، الموسيقار البربري، الذي وصل إلى باريس عام 1937م، مخزوناً من الأغاني الاحتجاجية، مما أثار قلق السلطات الفرنسية؛ كان أشهرها "الجراد": "أيها الجراد أرجوك اترك حقلي". كان يعزف على البانجو بينما رجال الشرطة يراقبون. وتم حظر تسجيلاته لاحقاً.

بعدها اندلعت الحرب الجزائرية في عام 1954م، وأصبحت الملاحية في الحي اللاتيني مواقع محتدمة للصراع. قامت الشرطة بتفتيش مفاجئ ولاحقت مالكي المقاهي في كل ليلة. ظهر متشدّدو "جبهة التحرير الوطني"، وحذروا الراقصات الشرقيات من الشرب أو الرقص مع الفرنسيين. كانت الراقصة الجزائرية المتقاعدة شهرزاد (في منتصف السبعينيات من عمرها حالياً) واحدة من الراقصات الخمس والعشرين اللواتي قدمن عروضاً ليلية في "كباريه الجزائر". تتذكر شهرزاد التوتر السياسي، "بصفتنا راقصات [جزائريات]، لم يكن لنا الحق في احتساء الشراب مع الفرنسيين. وفي حال اشترى لي رجل فرنسي الشراب، سيتم استدعائي في اليوم التالي بواسطة (جبهة التحرير الوطني)". طالب حزب "جبهة التحرير الوطني" الراقصات، مثل شهرزاد التي كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً حينها، بحمل شعار الحركة خلال المسيرات. كانت التظاهرة تتحول إلى أعمال عنف غالباً. شقّ قائد الشرطة سيئ السمعة مورييس بابون حملة على مسيرة في شارع سان ميشيل القريب من شارع لا هوشيت في 17 أكتوبر 1961م، تاركاً أكثر من مائتي قتيل جزائري. تقول شهرزاد إن الحياة الليلية لم تتوقف أبداً، لأنه لا "جبهة التحرير الوطني" ولا منافسها "الحركة الوطنية الجزائرية" أرادوا

إغلاق الكباريهات؛ كل ما أرادوه هو أن يدفع مالكو النوادي مبالغ مالية بانتظام.

توقفت الموسيقى في الجزائر

في البداية شعر موسيقيون مثل شرقي ومديوني بالضغط من منظمة الجيش السري، وليس من جبهة التحرير الوطني الجزائرية. يقول شرقي: "عندما بدأت الحرب، هددتني منظمة الجيش السري، وأخبرتني ألا أغني باللغة العربية. قالوا، نحن نقاتل المسلمين، وكمواطن فرنسي لا ينبغي لي أن أتغني بالعربية، أو أغني مع المسلمين". كانت منظمة الجيش السري تتذرع بـ "مرسوم كريميو"، الذي منح الجنسية الفرنسية لليهود في عام 1870م (سحب من قبل فيشي وأعيد في عام 1943م). عندما تم إقرار هذا القانون، توقف يهود الجزائر قانونياً عن أن يكونوا "شعباً أصلياً" في الجزائر، وبعد ذلك أدرجوا في فئة الأقدام السوداء مع المستعمرين الأوروبيين، وكان لديهم حقوق مختلفة عن العرب الجزائريين والبربر. (استمر الارتباك حتى يومنا هذا في الخطاب العام الفرنسي، حيث يوصف اليهود من أصول جزائرية بأنهم أقدام سوداء). من الناحية العملية، وضع المرسوم يهود الجزائر كوسطاء، كـ "مجتمع عازل" بين الدولة الاستعمارية الفرنسية والأغلبية المسلمة. عندما بدأت حرب الاستقلال في عام 1954م، اعتبرت "منظمة الجيش السري" الفرنسية التي يقودها المستوطنون، وفصيل من "جبهة التحرير الوطني"، اليهود جزءاً من الاستعمار الفرنسي. يقول شرقي: "لقد ولدت وترعرعت في القصة. كان أقرب أصدقائي مسلمين. عندما بدأ قذف القنابل، اختبئت في القصة وغنيته هناك. لم أكن أجرو على الغناء في مقاهي المدينة". في مذكراته، يشير شرقي إلى المقاتلين الشباب - بما فيهم علي لابوانت (244)، الذي حُلب في فيلم "معركة الجزائر" - باعتبارهم أصدقاءه من القصة. يقول ضاحكاً، "كنت أعرف جميع الثوار. كان علي لابوانت صديقاً جيداً. كان يحب الموسيقى - كان لطيفاً جداً معي. تسكعنا مع الإخوة هاشمي في مقاهم. ورغم عدم وجود مشروبات كحولية إلا أنني بقيت هناك".

وجد يهود الجزائر أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه مع تدهور الوضع السياسي. يقول شرقي: "كيهود كنا محاصرين في الوسط. لقد اختبرنا التمزق".

أدت إقامة دولة إسرائيل في عام 1948م، وتشريد سبعمئة ألف فلسطيني، إلى تدهور العلاقات بين المسلمين واليهود عبر شمال أفريقيا. وعندما وصل عبد الناصر إلى السلطة في مصر في عام 1952م، أعلن تضامنه مع "جبهة

التحرير الوطني"، وخيَّب أمل ديغول بدعمه "حركة التحرير الجزائرية" سياسياً وعسكرياً. كان هذا أحد الأسباب التي جعلت فرنسا تنضم إلى بريطانيا وإسرائيل في هجومها على مصر في أكتوبر 1956م بعد تأميم عبد الناصر لقناة السويس. أثار مشهد الطائرات الفرنسية والإسرائيلية التي تضرب مصر الغضب تماماً كما فعل قصف الطائرات الفرنسية للجزائر. أدى تصويت إسرائيل ضد استقلال الجزائر في الأمم المتحدة، وتزويدها فرنسا بمعلومات استخباراتية عن إمداد "جبهة التحرير الوطني" بالأسلحة من مصر، بل وتأسيسها لقوة خاصة في الجزائر ([الإطار]، المكونة من اليهود الجزائريين، الذين كانوا أيضاً جنود الاحتياط في الجيش الفرنسي)، إلى إثارة استياء أكبر ضد الجاليات الفرنسية واليهودية في شمال أفريقيا، التي أصبحت غير متميزة سياسياً تدريجياً. عندما زار ديغول الجزائر في ديسمبر 1960م، اندلعت اشتباكات بين المسلمين الجزائريين والأوروبيين، وأضرمت النيران في السيارات والبيوت والمباني في باب الواد، ونُهب المعبد اليهودي الكبير في قصبة الجزائر العاصمة.

علانيةً نبذت قيادة "جبهة التحرير الوطني" أعمال العنف، وفي خطاب مفتوح بتاريخ مايو 1961م خاطبت يهود الجزائر مؤكدة أن الحكم الاستعماري الفرنسي وضع اليهود في مواجهة المسلمين بمنح اليهود حقوقاً أكبر، وأن المسلمين يحمون اليهود من اضطهاد فيشي. جاء في الخطاب، "ألم تحاول السياسة الدعائية والاستعمارية باستمرار جعلنا ننسى حقيقة أن اليهود كانوا في الجزائر منذ أكثر من ألف سنة، وأنهم جزء لا يتجزأ من الشعب الجزائري". اعتقد اليهود الجزائريون، الذين رفضوا كلاً من "جبهة التحرير الوطني" والتطرف الأوروبي، أن بمقدور التراث الأندلسي المشترك للأمة والمحفوظ في الموسيقى، أن يحفظ البلاد. كما كتب أحد القادة اليهود في مايو 1961م في رسالة مفتوحة إلى مسلمي الجزائر، "أليس المغني والموسيقي [شيخ] رايموند ذا قيمة لقلوب المسلمين؟ إنهم يحبونه لأنه ساهم في حفظ وإثراء الفلكلور الجزائري الذي أراد المستعمر إخماده". اعتقد الكثيرون أن الموسيقيين المحترمين مثل الشيخ رايموند ومحي الدين بشطارزي بإمكانهم استخدام المخزون الأندلسي لربط المسلمين واليهود.

لكن التهديدات ضد الموسيقيين من قبل مقاتلي "جبهة التحرير الوطني" و"منظمة الجيش السري" جعلت من الصعب التئام شمل الجماعات اليهودية-الإسلامية. فقد تم تقجير قاعات الموسيقى والمقاهي واستهداف الفنانين. لكن المفارقة المريرة التي أحاطت بالرسالة المفتوحة للقائد اليهودي، التي أملت أن يلعب الشيخ رايموند دوراً توفيقياً، هو أنه بتاريخ 22 يونيو 1961م - بعد أسابيع قليلة من نشرها - قتل رايموند البالغ من العمر 48 عاماً على يد

متشدد في "جبهة التحرير الوطني" أثناء تسوقه مع ابنته في سوق العيسر في قسنطينة. وسواء كان مستهدفاً لأنه، كما قالت أسرته في وقت لاحق، كان رمزاً للتعايش أو لأنه كان يؤمن بجزائر فرنسية، فقد بدأ نزوح الطائفة اليهودية من قسنطينة على الفور بعد وفاته. قامت "منظمة الجيش السري" بقتل ويليام ليفي، الأمين العام لاتحاد الحزب الاشتراكي في الجزائر في نوفمبر 1961م. ومع ازدياد موجة العنف بدت الكتابات التي أنتشرت على الجدران وكأنها تقدم لذوي الأقدام السوداء أحد الخيارين: "الحقبة أو التابوت"، اختار معظم اليهود الجزائريين البالغ عددهم 1300,000 شخص الخيار الأول، على الرغم من محاولات "جبهة التحرير الوطني" طمأنة اليهود حتى اللحظات الأخيرة وتشجيعهم على الانضمام إلى "إخوتهم المسلمين". نشر الصحفي البارز في الشؤون الخارجية سيرج برومبرغر مقالة في صحيفة لوفيفارو في يناير 1962م تدعي أن إسرائيل كانت تدرب وحدات من "منظمة الجيش السري"، مما زاد من شحنة التوترات. غادر غالبية يهود الجزائر إلى فرنسا في الأشهر التي تلت ذلك. غادر لوك شرقي إلى باريس بعد وفاة الشيخ رايموند. "غادرت مع حقيبتين، معبأتين بالوثائق والسجلات وملابس قليلة جداً. مندها لم أعد".

يقول مورييس المديوني أن ما حدث، "كان مصيبة"، مستخدماً الكلمة العربية التي تعني calamity: "لقد تركنا أحشاءنا في الجزائر. عشنا جيداً في الجزائر - كان هناك حليب، كان هناك عسل. لم تكن لدينا رغبة في المغادرة؛ لم يكن لدينا سبب للرحيل".

اغرورقت عينا زوجته جولييت بالدموع وهي تتذكر العودة إلى الوطن.

العصر الذهبي

استقل مئات الآلاف من "الأقدام السوداء" السفن وتوجهوا إلى المدن الفرنسية. بدأ الموسيقيون الجزائريون الذين انتهى بهم الأمر في باريس - العباسي، مديوني، شرقي، بلان بلان، زينات - بالتجمع بانتظام في مطعم "الكتكوت الأزرق" في شارع فوبورغ مونمارتر، على الجانب المقابل لقاعة فولي بيرغير. وقد صار اليوم مطعم "كوشر" (245). يقول مديوني: "كنا نبحت عن بعضنا، ووجدنا بعضنا البعض في مطعم الكتكوت الأزرق". لقد قدم لهم المطعم فرصة هرب من العطالة والعداء الذي يواجهونه يومياً. تجمع الموسيقيون حول عازف الكمان "ليلي العباسي" (246)، الذي كان في أواخر الستينيات وتوفيت زوجته بسبب قصور القلب بعد بضعة أشهر من وصولها إلى الشواطئ الفرنسية. قدّمت المجموعة جلسات موسيقية مسائية، كان

المديوني يعزف على البيانو، وبلان بلان على الدف، وشرقي على الغيتار، وزينات على العود، ويغني سامي المغربي ويعزف على آلة الماراكاس. يحتدم الجدل حتى يومنا هذا ما إذا كانت العروض المقدمة في "مطعم الكتكوت الأزرق" أفضل من تلك التي قدمت في كباريهات شارع دي لا هوشيت، حيث سيطرت لين مونتي وسليم هالالي. ليس هناك وجه مقارنة بالنسبة للشاب روبرت كاستل، الذي كان يرافق والده العباسي. "كانت الملاهي الليلية مفعمة بالحيوية، وتعمل لجذب السائحين في دي لا غرينادين - لكن "مطعم الكتكوت الأزرق" كان يمثل التراث والتقاليد لعشاق الطرب الأندلسي الحقيقيين".

سرعان ما بدأ ظهور موسيقى المنفى الجميلة. ألف مديوني أغاني حول أزقة وهران وسماء باريس البائسة، ومنحها للين مونتي لتغنيها. تكررت ثلاث عواطف في الأغاني - الغربة، الفراق والوحشة. الأغنية التي تجسد نفي هذا المجتمع المنبوذ من النعيم هي "أنا الورقة"، وهي أغنية تانغو خالدة للمطرب ليلي بونيش. يغني بونيش بصوت متهدج: "اعتدت على الرفرفة أعلى الفروع، والآن سقطت". قي هذه الأغنية، وغيرها من الأغاني المشابهة، انتقل بونيش من إيقاع التانغو الأرجنتيني إلى النوبة الأندلسية، مع الحفاظ على النغمة الحزينة نفسها. ويقول: "أنا الورقة المسكينة المنسية، جافة ومشوشة، تدفعني الرياح من مكان إلى آخر".

بدأ استخدام مصطلح "الموسيقى اليهودية العربية" خلال هذه الحقبة لوصف الفنانين المبعدين وموسيقاهم، وهو مصطلح كرهه ليلي بونيش منذ البداية. قال ذات مرة: "هل سبق أن قلنا إن المسلم يلعب الموسيقى الإسلامية العربية؟ أنا أعزف الموسيقى العربية، هذا كل ما في الأمر". حاول بونيش إعطاء معنى لفكرة إبعاد اليهود عن العالم العربي من خلال مؤلفاته (يسأل في إحدى المقاطع الموجهة إلى مواطنيه المسلمين، "غير رب واحد، أنت تصلي جالس، وأنا بصلي واقف، عlish ما تحبني؟")، لذا بالنسبة له فإن إضافة البادئة "يهودي" إلى "الموسيقى العربية" يعدّ قبولاً وتشريعاً للفصل. ربما قبل عام 1962م لم يكن هناك أي شيء مميز في المساهمات اليهودية في الموسيقى الأندلسية، ولكن النوع الذي ظهر في فرنسا حاول بوضوح أن يتعامل مع تناقضات كونه يهودياً بتراث عربي في الغرب الذي ينظر إلى اليهودي باعتباره نقيض العربي. سجل سليم هالالي بعد حرب 1967م مباشرة نسخة عربية من أغنية "أمي اليديشية" لإبراز هذه النقطة. كتبت الأغنية الأصلية في عام 1925م أثناء ازدهار المسرح والموسيقى اليديشية في نيويورك، لتعرب عن التوق إلى حياة "العالم القديم"، التي ترمز إليها الأم اليهودية، والقلق من الاستيعاب في المجتمع الأمريكي. قدمت النسخة العربية من أغنية هالالي شيئاً مماثلاً، وأعربت عن توقه لعالم قديم مختلف،

لماضٍ يتحدث بالعربية؛ فقد غنى عن الليالي الأرقّة، تذكر طفولته، وذرف الدموع على والدته: "يا أمي اليديشية، قلبك ظل عليا". تفسر الأغنية القلق من العالم الجديد باللغة العربية، وتعكس لحظة مغادرة الجاليات اليهودية العالم العربي بأعداد كبيرة. يقول لوك شرقي: "ما زلت أتذكر الليلة التي غنى فيها سليم لأول مرة "أمي اليديشية" - لقد أدى أغنية أصلها من وسط أوروبا بأسلوب الاستخبار الأندلسي وأبهر الجمهور".

في تلك السنوات كان صوت لين مونتي الحزين يستحوذ على المستمعين الفرنسيين. فقد نجحت في الكباريه في أواخر الخمسينيات عندما كانت تغني أغاني كتبها تشارلز أرنافور، ثم ذهبت إلى أمريكا على أمل تحقيق نجومية أكبر. غنت في "قاعة كارنيغي" في عام 1962م. ورافقت أرنافور عندما غنى هناك في عام 1967م. (صرّحت صحيفة محلية، "جلبت المغنية باريس إلى مكة"). كما قدمت أداء في "أوه باريس" في شارع ثلاثة وخمسين الشرقي. وأدّت لشهور في "لو بتيت باريس" في واشنطن العاصمة ضمن برنامجهم "ليلة في المغرب" مع الثلاثي اللاتيني الذين يؤدون البوليرو(247) وأغنيات إديث بياف. وصفتها واشنطن بوست بأنها "مغنية شقراء صغيرة وصلت لتوها من باريس مع 17 حقيبة". كان هناك اهتمام مفاجئ بالموسيقى الإسرائيلية والمزراحية(248) في أمريكا بعد حرب 1967م؛ على سبيل المثال، قام المغني المغربي جو عمار بجولة في المعابد بجميع أنحاء البلاد لأداء "أغاني النصر". لكن لين مونتي حلمت بهوليوود والشهرة الدولية. في عام 1982م ظهرت لين في فيلم عن الجريمة المنظمة في ميامي اسمه "المغفرة الكبرى" وهي تؤدي أغانيها وأغنية يوسف حجاج "يا أمي". تتذكر الجالية الجزائرية اليهودية الفرنسية إلى الآن الفيلم وأداء لين الاستثنائي، ويروون كيف لوت المغنية كاحلها أثناء التصوير واضطرت للعودة إلى باريس.

كانت الفترة من 1962م حتى وفاة ليلي العباسي في عام 1969م فترة معاناة وخسارة، ولكن أيضاً فترة وفرة موسيقية - وتستحضر اليوم بوصفها العصر الذهبي. تركّز الموسيقيون المنفيون في منطقة باريس؛ وقام الكحلاوي تونسي بتأسيس "شركة دنيا للتسجيلات"، حيث سجل لحسن الحظ أسطوانات أشهر موسيقيي شمال أفريقيا. كان المشهد في باريس يغذي الهياج الموسيقي في الجزائر، حيث كان الاستقلال قد أشعل نهضة يقودها محمد العنقة. وضعت "جبهة التحرير الوطني" الحاكمة سياسة ثقافية رسّخت القومية الجزائرية في ماضي إسبانيا الإسلامية، وجعلت الموسيقى الأندلسية مستقلة عن الموسيقى الكلاسيكية الجزائرية.

قريباً سيجد نوع من الموسيقى الأندلسية طريقه إلى التيار الفرنسي الرئيس في الستينيات، لكن ليس على يد لوك شرقي أو لين مونتي أو أي من نجوم "مطعم الكتكوت الأزرق". بث التلفزيون الفرنسي بتاريخ الخامس من أكتوبر 1962م فيلماً وثائقياً عن مغرٍ يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً يدعى إنريكو ماسياس (249)؛ أجعد الشعر، ذو رموش طويلة داكنة، ويعزف على غيتاره ويغني أغنية (وداعاً يا بلدي) مستلهماً أسلوب الموال العربي. كانت الأغنية عن البحر، الشمس والأصدقاء الذين تركهم ماسياس في الجزائر. وفي بضعة أيام بيعت أكثر من خمسين ألف نسخة، ليتحول الفيلم الوثائقي إلى هوس وطني.

كان ماسياس يعرف باسم غاستون غريناسيا قبل أن يحصل على اسمه الاستعراضي الإسباني. وهو سليل عائلة يهودية بارزة في قسنطينة، درس في عهد الشيخ رايموند، وتزوج ابنة المايسترو. غادر الجزائر بعد وقت قصير من اغتيال الشيخ، وعلى ما يبدو فقد كتب "وداعاً يا بلدي" على متن القارب إلى مرسيليا. حاول ماسياس ووالده أداء الموسيقى الأندلسية التقليدية عند وصولهم في عام 1962م، ولكن رد فعل الجمهور الفرنسي على الكلمات العربية كان معادياً جداً، فتحول الابن إلى موسيقى الفاريتيك المتوسطة، الممزوجة بأدوات "شرقية". سرعان ما احتضن ماسياس صوت حركة الأقدام السوداء، وعبرت موسيقاه عن ألمهم وخسارتهم، وأصبح حتى يومنا هذا الوجه الأكثر شهرة للموسيقى اليهودية العربية.

كان ماسياس مثيراً للجدل منذ البداية أيضاً. فقد سافر إلى إسرائيل وانضم إلى قوات الدفاع الإسرائيلية في سيناء وقناة السويس خلال حرب عام 1967م؛ وكان من أوائل اليهود الذين صلوا عند حائط المبكى مع الجنرال موشيه ديان ونشرت صورته في الصحف الفرنسية. عاد مرة أخرى للقتال مع القوات الإسرائيلية في سيناء خلال حرب أكتوبر عام 1973م؛ وتم حظر تسجيلاته في وقت لاحق في العديد من الدول العربية، بما في ذلك الجزائر. على مدى السنوات الخمسة وعشرين التالية، باع ماسياس نحو 60 مليون تسجيل في جميع أنحاء العالم بينما كان يقدم تصريحات سياسية متناقضة وجدلية. فقد كتب أغنيات حول منفاه بعنوان "اليهودي الإسباني" و"الغريب"، قائلاً إن المنفى ساعده على التعاطف مع اللاجئين الفلسطينيين، لكنه أصر على أن إسرائيل لم تقتلهم؛ ودعم الدولة الفلسطينية، لكنه أراد أن تبقى القدس عاصمة إسرائيل.

في أواخر التسعينيات، عندما ظهرت حركة سياسية عربية فرنسية، أصبح ماسياس محورياً فيما يخص العلاقات بين المسلمين واليهود. تم تشكيل

حركة "البور" (250) على نموذج يشبه حركة الحقوق المدنية الأمريكية في عدة نواح، للمطالبة بالحريات المدنية وبرامج العمل. أثار الهياج السياسي فورة موسيقية شمال أفريقية بين الشباب الفرنسي، وشهدت التسعينيات ظهور نجوم الراي مثل شاب خالد وشاب مامي، ممن قرؤوا من الحرب الأهلية في الجزائر واستقروا في فرنسا. أحييت الموجة الثقافية في شمال أفريقيا مسيرة ماسياس المتعثرة عندما رأى تحول الاهتمام داخل الموسيقى العربية من موسيقى البوب المتوسطية إلى الموسيقى الأندلسية، أو ما أسماه "المرجع المقدس" لسنوات شبابه.

سجل ماسياس ألبوماً مع عازف الكمان الجزائري توفيق بستانطي، حفيد الشيخ عبد الكريم بستانطي في عام 1999م. هدف مشروعهما إلى إحياء الشراكة الموسيقية لليهود والمسلمين في الجزائر. بعد حفلتهما الموسيقية الأولى، في بوج ببلجيك، قال ماسياس "لجمهوره: "منذ هذه الليلة ستتفق وتتوحد مجتمعات اليهود والمسلمين". لكن في خضم الانتفاضة الفلسطينية ثم في أكتوبر 2000م، قدم ماسياس أداء في مسيرة مؤيدة لإسرائيل في باريس، وتوقف أثناء غنائه وشجب الإعلام الفرنسي ومحاولاته تأييد الفلسطينيين، قائلاً إنه يفضل الإعلام الأمريكي في تغطيته لأحداث الشرق الأوسط. اصطف متظاهرون خارج مسرح روبيه خلال أحد عروضهم، وهم يهتفون، "حرروا فلسطين، أوقفوا المجزرة!!"؛ كانت حركة الشباب العربي التي خلقت مساحة جديدة لماسياس تنادي الآن بمقاطعته. يمكن لحركة "بور" أن تتجاهل تصريحاته السياسية باعتبارها هذياناً لرجل في منتصف العمر طالما ظل يغني البوب الفرنسي لذوي الأقدام السوداء؛ ولكن عندما يبدأ بغناء الأغاني الأندلسية الثمينة للمغاربة، بينما يهتف لجيش الدفاع الإسرائيلي خلال النوبة، فلن يصمت النشاط الشباب أكثر من ذلك.

في العقد الماضي استغرق ماسياس بشكل أعمق في المخزون الغنائي الأندلسي، وغنى باللغة العربية، بينما انحرف أكثر إلى اليمين، مما جعل عروضه تجربة ناشزة إلى حد ما: كان يغني التراكيب الأندلسية الكلاسيكية باللغة العربية على خشبة المسرح، ثم يتحول إلى الأناشيد القومية الإسرائيلية باللغة العبرية. أظهر ماسياس دعمه لساركوزي في عام 2007م، وأشاد بالرئيس بوصفه "إنسانياً"، وكان سيرافقه في زيارة للجزائر، لكن احتجاجات عامة اندلعت في الجزائر العاصمة، حيث عارض مختلف الزعماء الإسلاميين والمحافظين زيارة ماسياس المقترحة، متسائلين عن سبب احتفاء الحكومة الجزائرية برجل كرمته وزارة الدفاع الإسرائيلية قبل بضعة أشهر "لدعمه الدائم" للجيش الإسرائيلي. يمكن لليهود الجزائريين وذوي الأقدام السوداء السفر بحرية إلى الجزائر؛ لكن ماسياس، بسبب منصبه

كسفير نوايا حسنة للأمم المتحدة وخطابه المؤيد لإسرائيل، أصبح عالماً الآن في خضم الرمزية والذاكرة السياسية التي تخيم على العلاقة الفرنسية الجزائرية. طالبت الجزائر باعتذار رسمي من فرنسا عن "جرائم" ارتكبت في الجزائر خلال 130 عاماً من الهيمنة الاستعمارية، وعن حرب أسفرت عن مقتل نصف مليون جزائري. عندما زار ساركوزي الجزائر في ديسمبر 2007م، قال إن الاستعمار "متجحفاً"، لكنه رفض التعبير عن أي ندم. بدلاً من ذلك، ولدى عودته إلى باريس، أقام حفل استقبال في الإليزيه للإعلان عن تعويضات الحركيين (251). (الجزائريين الذين حاربوا في الصفوف الفرنسية ضد الجزائر). وقال ضيف الشرف ماسياس لقناة "فرنسا 2" إنه ينبغي على فرنسا ألا تعتذر عن الاستعمار "بشكل قاطع"، وأن كلا الطرفين يحتاجان إلى التعبير عن أسفهما على تصرفاتهما خلال الحرب.

لطالما اعتبر ماسياس نفسه حاملاً لمخزون الغناء الأندلسي ورمزاً للقومية اليهودية العربية. وقال عندما ألغيت رحلته إلى الجزائر عام 2007م، "لقد كنت رمزاً للمنفى منذ عام 1962م. وكان بإمكانني أن أصبح رمزاً للمصالحة لجميع أطفال الجزائر". يجادل المؤرخون الموسيقيون في الجزائر أن ماسياس ليس له وزن وأنه استفاد من علاقته مع "العم رايموند". في سبتمبر 2008م، أقيم حفل موسيقي تكريماً للراحل ليلى بونيش يحتفل بمجموعته الموسيقية، لكن لم يكن هناك أي ذكر لماسياس. دعم ماسياس للسياسات اليمينية ووجهات نظره شديدة المحافظة بخصوص الاستعمار الفرنسي جعلته مصدر سخرية في الفقرات الكوميديّة والثقافة الشعبية. يرى النشطاء الشباب المهتمون بالحوار بين المسلمين واليهود ماسياس عقبة أمام عملهم. كما أن مواقفه لم تقتصر فقط باليهود الجزائريين، بل موارد هم الموسيقية، ومع الاستعمار الفرنسي وإسرائيل، الأمر الذي يعقد الأمور بالنسبة لنشطاء مثل صافيناز بوسبيقة، التي حاولت جلب الغوسطو إلى الجزائر العاصمة. حيث قالت: "ولد ماسياس الكثير من المعارضة في الجزائر، وجعل عملنا صعباً حقاً". يبحث جيل الشباب حالياً عن رمز بديل للتعايش؛ موسيقي آخر يستطيع مواجهة هيمنة ماسياس التي دامت خمسين عاماً.

"شيندلر مسلم (252)؟ فالنبرغ عربي (253)؟

بعد أسابيع قليلة من عرض فيلم بلديون (2006م)، الذي يدور حول القوات المسلمة التي قاتلت النازيين، نشر روبرت ساتلوف، مدير معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINERP)، كتاباً بعنوان: "بين الأخبار: قصص ضائعة عن وصول الهولوكوست إلى الأراضي العربية". كان الهدف من الكتاب، كما أوضح الكاتب، "محاربة الكراهية الناتجة عن أحداث الحادي عشر من

سبتمبر" من خلال إظهار كيف أن "الهولوكوست كانت قصة عربية أيضاً". تقول أطروحة ساتلوف الرئيسية إنه في الفترة من يونيو من 1940م إلى مايو 1943م، عندما كانت ألمانيا النازية تسيطر على شمال أفريقيا، قام النازيون بوضع اليهود في مائة أو أكثر من معسكرات العمل المنتشرة في أنحاء المنطقة المغاربية. كتب ساتلوف: "لم يكن العرب في هذه الأراضي مختلفين تماماً عن الأوروبيين: مع الحرب التي تدور حولهم، كان معظم العرب يقفون جانبا ولم يفعلوا شيئاً. شارك كثيرون بالكامل وطواعية في اضطهاد اليهود؛ وقد ساعدت قلة قليلة شجاعة على إنقاذ اليهود. كان المتعاونون العرب في كل مكان... فبدون مساعدة العرب المحليين، كان اضطهاد اليهود مستحيلاً عملياً". امتدت الخيانة إلى عالم الموسيقى. زعم ساتلوف أن محمد الكامل، المغني القومي المعادي للاستعمار انضم إلى إذاعة برلين، "جهاز الدعاية النازي"، متخلياً عن شريكه سليم هلاي، الذي وجد ملجأ في المسجد الكبير في باريس. يختتم المؤلف بتعريف عدد قليل من "العرب الأخيار" الذين كانوا يحمون اليهود (من بينهم سي قدور بن غبريط (254)) مؤسس مسجد باريس الكبير (255)، وأكد أنه كتب الكتاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر كإيماءة مصالحة "لأصدقائه العرب"، آملاً أن تجعل الدراسة من "الهولوكوست مصدراً للفخر يستحق التذكر بدلاً عن تجنبه أو إنكاره". أطلق ساتلوف بعد ذلك مبادرة لجعل نصب ياد فاشيم التذكاري في إسرائيل يعترف بـ "العرب الأخيار".

لم يكن كتاب ساتلوف مقبولاً في شمال أفريقيا. استنكرت الصحف المغربية هذا الكتاب "الوحشي" الذي هاجم الذاكرة الثقافية للبلاد، وقالت صحيفة ماروك إيبندو (256) أن ساتلوف يرسم صورة "عدد قليل من المغاربة الشجعان، بينما يصور الملايين الآخرين على أنهم متعطشون للدماء ومعادون للسامية"، في الوقت الذي يطالب فيه بـ "الاعتراف بالخطأ". وأشار آخرون إلى المعاناة التي لحقت بالمسلمين بواسطة نظام فيشي، وأن المعسكرات النازية نفسها استخدمت بواسطة المستعمرين الفرنسيين بعد الحرب لاعتقال وسجن المسلمين. كان المراقبون محتارين بشكل خاص من توقيت الكتاب: في لحظة تسبب فيها المحافظون الجدد في الولايات المتحدة بأضرار هائلة في الداخل والخارج (فقد شرد غزو الولايات المتحدة للعراق مليون شخص وأطلق حرباً أهلية دموية؛ وأصبح المجتمع الأمريكي في عهد بوش مستقطباً ومترنحاً اقتصادياً)، وكانت إسرائيل تقصف لبنان، فلماذا يكتب المؤلف المحافظ كتاباً يتهم العرب - ليس فقط مفتي القدس، بل السكان عامة - بالتعاون مع النازيين؟ مدد ساتلوف شبكة ذنب الهولوكوست فوق رؤساء الدول وكذلك الشعوب، من بلاد الشام إلى المحيط الأطلنطي وعمق الصحراء الكبرى. اعتبر استهلال الكتاب بعبارة "رسالة لأصدقائي العرب" مثيراً

للسخرية بشكل خاص؛ وقال أحد المراجعين الجزائريين: "إذا كان ساتلوف يحاول فهم الكراهية التي أنتجت الحادي عشر من سبتمبر، فيمكنه أن يفحص السياسة الأمريكية والإسرائيلية على مدى الخمسين سنة الماضية". بينما رفض آخرون هذا الكتاب باعتباره محاولة أخرى من جانب اللوبي الإسرائيلي للتدخل في الحياة السياسية للعالم العربي، مشيرين إلى أن وصف "الأخيار" قد مُنح لشخصيات عربية تدعم الأنظمة التي تعتبر "معتدلة" (ففي نهاية المطاف WINERP هي أحد فروع AIPAC) (257).

جاء ردُّ أكثر اعتدالاً في حفل استقبال كتاب ساتلوف في القاهرة في يناير 2007م. أوضح الباحث المصري البارز عبد المنعم سعيد أن المناقشات حول الهولوكوست في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تتشكل من الذاكرة الجمعية للإمبريالية والتاريخ السياسي للمنطقة، موضحاً أن الهولوكوست هو "غطاء أخلاقي" للاستثنائية الإسرائيلية، من تقسيم فلسطين وصولاً إلى حق الدولة اليهودية في امتلاك أسلحة نووية. تعكس هذه النقطة حجة قدمها إدوارد سعيد في أواسط تسعينيات القرن الماضي، عندما انزعج من المواقف العربية تجاه الهولوكوست، "في رأيي، ليس هناك أي سبب على الإطلاق لعدم الاعتراف برعب وهلع بمأساة حاقت بالشعب اليهودي"، مضيفاً: "يجب أن نعترف بحقائق الهولوكوست ليس باعتباره شيكاً مفتوحاً للإسرائيليين لإساءة معاملتنا، ولكن كعلامة على إنسانيتنا، وقدرتنا على فهم التاريخ، وحاجتنا لأن يعترف بمعاناتنا أيضاً". بعد قرابة عقدين من الزمن، لم يتم الاعتراف بالمعاناة؛ لم تعترف إسرائيل بعد بأي دور في النكبة الفلسطينية، وظلت النظرة للهولوكوست كـ "شيك مفتوح" للسياسات الأمريكية والإسرائيلية للتدخل على نطاق واسع في الدول ذات الأغلبية المسلمة وفي المجتمعات المسلمة في أوروبا.

في ديسمبر 2012م، نظمت جمعية دراسات الشرق الأوسط مائدة مستديرة بعنوان "مناقشة الهولوكوست: الفاشية ومعاداة السامية في دراسات الشرق الأوسط"، ضمت مؤرخين عرب وإسرائيليين وألمان. ركز الحوار على الدراسة التي نشرها مؤخراً الباحث في جامعة لندن، غيلبرت أشقر، بعنوان "العرب والهولوكوست". اتفق أعضاء اللجنة والحضور إلى حد كبير مع حجة أشقر الرئيسية بأنه على الرغم من وجود صلة تاريخية بين الهولوكوست والمأساة الفلسطينية - فقد دفعت السياسات النازية اليهود الأوروبيين إلى الفرار إلى فلسطين عندما رفض الحلفاء منحهم ملاذاً آمناً، كما وفرت إسرائيل ملجأً للناجين اليهود بعد الحرب - إلا أنه لا يمكن مقارنة الكارثتين: إبادة السكان لا تكافئ من الناحية الأخلاقية انتزاع الملكية الجماعي. وبالمثل، لم يكن لدى اختصاصيي التوعية الأوروبيين من الحضور مشكلة مع اقتراح أشقر بأنه في

ضوء الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الجاري في العالم الإسلامي، يجب تدريس الهولوكوست وتاريخ النكبة الفلسطينية. وأن أي محاولة لتدريس الهولوكوست دون الإشارة إلى النكبة سيتم اعتباره دعاية. وافق الحضور على ذلك، وأشار أحدهم إلى أنه بسبب انتشار "النازية" بين المسلمين الأوروبيين على نطاق واسع، يجب على المعلمين في المدارس الألمانية التي تضم عدداً كبيراً من الأتراك أن يُضمّنوا قصص المسلمين الأتراك الذين أُووا اليهود.

بدأ الجدل عندما قال أشقر إن هناك "اختلافاً نوعياً" بين "عنصرية المظلوم" و"عنصرية الظالم": لا يمكن للمرء أن يساوي معاداة السامية الألمانية مع العداء العربي لليهود، والذي يعد رداً على السياسة الإسرائيلية وإنكار النكبة. وقد لاقى هذا الإدعاء رداً حاداً من غودرون كرامر، رئيسة اللجنة والمؤرخة في "الجامعة الحرة" في برلين، قائلة إن أشقر يتحدث بتعال. وقالت: "يمكن للضحايا أن يكونوا عنصريين أيضاً. إذا قلت إن معاداة السامية العربية هي رد فعل إزاء الظلم، فهذا تحامل، ويمكن للإسرائيليين أن يقولوا الشيء نفسه: لقد تعرضنا للقمع". انقسم الجمهور: اتفق نصفهم مع أشقر، مستشهدين بحجة فرانز فانون بأن عنصرية المُستعمر ليست مثل عنصرية المُستعمر، بينما جادل آخرون بأن جميع أشكال العنصرية تستحق الشجب من الناحية الأخلاقية. تعرض الحاضرون الأميركيون لنقاش سياسي أوروبي متفاقم وأكثر استقطاباً في هذا المائدة المستديرة المتوترة إلى حد ما. عبّر المؤرخ الراحل توني جودت عن الأمر بإيجاز: "لقد أصبحت الذاكرة المستعادة لليهود الموتى في أوروبا هي التعريف الوحيد للإنسانية المستعادة للقارة". سأل جودت كيف يمكننا التوفيق بين تلك الذاكرة التاريخية في أوروبا ما بعد الحرب حيث "لا يواجه اليهود أي تهديدات أو تحيزات مماثلة لأهوال الماضي"، بينما يصبح المسلمون "الآخر" الداخلي الذي يواجه حركات كراهية الأجانب، سياسات الحرب على الإرهاب، ويصبح عرضة لنداء الإسلام الراديكالي؟

عدد قليل من النشطاء المسلمين أو قادة المجتمع يرغبون في المشاركة في هذه المناقشات الحساسة، أو الرد على كتب مثل كتاب ساتلوف، خوفاً من أن يؤدي الانخراط العلني في هذه القضية إلى إثارة المزيد من الإهانة ضد مجتمعهم. بينما يتطلع آخرون إلى الموسيقى الأندلسية للحصول على إجابات.

"أبناء زرياب"

في أحد أيام الأربعاء من شهر سبتمبر 2011م، أفتتح فيلم Les Hommes Libres في المسارح الفرنسية (عُرض في الولايات المتحدة باسم الرجال الأحرار). يروي الفيلم قصة عن "المسجد الكبير" في باريس، الموجود على الضفة اليسرى للمدينة، والذي منح ملجأ وشهادات هوية إسلامية لعدد صغير من اليهود، مما سمح لهم بالتهرب من الترحيل خلال عهد فيشي. يدور الفيلم حول شخصيتين واقعتين: سي قدور بن غبريط وسليم هلال. الأول كان رئيس "المسجد الكبير" خلال الحرب العالمية الثانية. شوهه ابن غبريط في الفيلم وهو يُقدّم جولات للجنود الألمان وزوجاتهم في المسجد بينما يأوي الأطفال اليهود في الطابق السفلي. في أحد المشاهد يتوقف الجنود النازيون الذين يتجولون في فناء المسجد المُغطى بالقرميد لمشاهدة شاب جزائري، يشعر أسود مصفّف بعناية وصدارة حمراء مطرزة، يغني في مقهى المسجد المغاربي. (تم تشييد المقهى والحمام كجزء من مجمع المسجد في عام 1926م لإعطاء الزوار الفرنسيين طعم المشرق). كان الشاب هو سليم هلال، مغني الكباريه الجزائري الأنيق، وأحد اليهود الذين أفلتوا من الترحيل بسبب عثوره على ملجأ في المسجد. يروي فيلم الرجال الأحرار كيف أن رئيس المسجد منح المُغني أوراقاً تثبت هويته المسلمة، حتى إنه وضع اسم والد هلال على شاهد أحد القبور في المقبرة الإسلامية في بوييني، وذلك لإبعاد النازيين عن الفنان الشاب. يرسم مشهد الكباريهات العربية في أربعينيات باريس الخلفية الصوتية للمكائد السياسية. بينما نسمع الشخصية التي تؤدي دور هلال تُغني داخل المسجد وفي كباريه اسمه الأندلسية، يحاول المسلمون واليهود التهرب من قوانين فيشي، وتتنافس الفصائل الجزائرية المختلفة - الشيوعيون ونشطاء "جبهة التحرير الوطني الجزائري" و"الحركة الوطنية الجزائرية" - على الساحة السياسية.

لم تكن التعليقات الأولية حول فيلم "الرجال الأحرار" قاسية. قالت لو فيغارو إن الفيلم "يعيد تشكيل مناخ وفترة رائعة". اعتقد هؤلاء النقاد أن هذا كان جانباً من التاريخ الفرنسي الذي يجب التحدث عنه، ووجدوا أن القصة دقيقة. كانت باريس في الأربعينيات موطناً لأكثر من مائة ألف من سكان شمال أفريقيا، بما في ذلك الآلاف من اليهود الناطقين بالعربية، الذين حملوا أسماء وتقاليد مشابهة لنظرائهم المسلمين؛ كذلك بإمكان الرجال اليهود أن يعتبروا مسلمين، لأن كلاهما مختون. اعتبر الفيلم مؤيداً للحوار والمصالحة ("مثالي للعروض المدرسية"، كما ورد في صحيفة إكسبريس)، ودُعي مئات الطلاب من المدارس الثانوية في الضواحي إلى جلسة خاصة للأسئلة والأجوبة مع المخرج إسماعيل فروخي (258). والممثلين. بدأ فروخي الضغط على وزارتي الثقافة والتعليم لعرض الفيلم في المدارس، ووضع لوحة تذكارية في المسجد الكبير لتكريم ابن غبريط. وقال إن "الفيلم يشيد بأفراد

مجهولين في تاريخنا. ويظهر حقيقة أن المسلمين واليهود كانوا يعيشون في سلام". كان الفيلم أيضاً محاولة لإحياء سليم هلالى، وتصويره رمزاً للتعايش الأندلسي بين اليهود والعرب، وكيف أن رؤيته الكونية أكثر شمولية وأقل إثارة للانقسام من إنريكو ماسياس.

لم يستمر النقد الإيجابي طويلاً، حيث بدأت الهجمات، أولاً من المؤرخين الفرنسيين الذين قالوا إنه في حين قام المسجد "بإنقاذ" سليم هلالى، هناك القليل من الأدلة الأرشيفية تشير إلى أن المسجد الكبير كان مركزاً للمقاومة. جادل النقاد بأن خط القصة كان محملاً أكثر بالسياسة المعاصرة والجدل الإسرائيلي-الفلسطيني بدلاً عن التاريخ الفعلي (خاصة بالنظر إلى أن شخصية هلالى كان يلعبها الممثل الإسرائيلي العربي محمود شلبي). أجاب بنجامين ستورا، وهو مؤرخ يهودي من شمال أفريقيا عمل مستشاراً للفيلم، أن الفيلم لم يشر أبداً لدور المسجد كـ "مركز للمقاومة"، لكنه يحكى بطريقة خيالية قصة رئيس المسجد والذين قام بحمايتهم. قال ستورا إن "الكثير قد كُتب عن تعاون المسلمين مع النازيين. لكن لا أحد يعرف أن المسلمين ساعدوا اليهود. لا تزال هناك قصصٌ لتروى وتكتب". قال بعض النقاد إن هناك حاجة لمزيد من الأدلة التاريخية فيما يتعلق بقضية هلالى، قبل أن يتمكن معهد ياد فاشيم من جعل سى قدور بن غبريط واحداً من "الآخيار". وإذا كان ابن غبريط قد قام بحماية سليم هلالى، فلماذا لم يأو شقيقته بيرت فالايكس (هلالى)، التي تم ترحيلها إلى معسكر أوشفيتز في أغسطس 1943م؟ من الواضح أن فروخي يعتقد في قدرة رواية قصة سليم هلالى على المساعدة في جلب المسلمين إلى الذاكرة الوطنية الفرنسية؛ لكن أكثر ما أثار الغضب كان الكتيب التعليمي الذي تم توزيعه على الطلاب في العرض الخاص، والذي وصف كيف يمكن للفيلم أن "يضيء" ذكريات الحرب العالمية الثانية.

لا يتعلق الصراع بين اليهود والمسلمين في فرنسا - وأوروبا الغربية على نطاق أوسع - بوظائف العمل أو الموارد، بل بالتاريخ والخطابات المتضاربة. يحتشد المسلمون ليقدموا أطروحات بديلة عن الاستعمار وسياسات الشرق الأوسط، وهذا يثير المعارضة. علاوة على ذلك، ومع ظهور الطبقة الدنيا من المسلمين في أوروبا، فإن تحولاً تاريخياً ما زال جارياً: يحل المسلمون مكان اليهود بصفتهم "الآخر" الداخلي القديم في القارة، وغالباً ما ينتقلون إلى الجيوب الحضرية والمشاريع السكنية نفسها التي تجتمع فيها اليهود في يوم من الأيام - وهذا أيضاً منفرد سياسياً. يتشكل هذا النوع من الطبقة الدنيا على خلفية الصراع المستمر في الشرق الأوسط، وكلما شعر الشباب المسلم الأوروبي باستبعاد أكثر، كلما أصبح "غيتو غزة" أكثر تلخيصاً لوضعهم الخاص والحصار الذي يعانيه الإسلام على الصعيد العالمي (كونهم

"محبوسين، محجوزين ومقيدين"، على حد تعبير شاب مسلم من لندن). بالنسبة لبعض الشبان المسلمين، يرتبط الاستياء من اليهود في الخارج مع الاستياء من اليهود في الوطن؛ وسيتحدثون عن مواطنيهم اليهود كمؤيدين للسياسة الإسرائيلية وممثلين للإمبريالية الدولية. "إن تجربة المسلمين [في فرنسا] تصبح مثلاً لما يقال إن المسلمين يختبرونه على المستوى الدولي، وترتبط باستمرار بصور الهيمنة الإسرائيلية على الفلسطينيين، والعنف الذي يلحق بالشعب العراقي من قبل الأميركيين". يشرح عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل ويفيورك كيف أن "معاداة الغيتو للسامية تشكل مفارقة تاريخية: أولئك الذين كانوا يعيشون في الغيتو في الماضي... وعانوا من الكراهية العنصرية، تحولوا اليوم، على نحو مثير للإعجاب، إلى الجذور المتخيلة للشروع التي عانوا منبداً الصحفيون الفرنسيون يحذرون من تزايد معاداة السامية بين المسلمين في الضواحي في أوائل عام 2000م، في أعقاب الانتفاضة الثانية، ("الأراضي المفقودة من الجمهورية"، على حد تعبير أحد المراقبين)، مشيرين إلى الصعوبات التي يواجهها المعلمين في المدارس الثانوية أثناء تدريس الهولوكوست للشباب المسلم - ولا سيما الأولاد - الذين يسألون لماذا لا يتم تدريس التاريخ الفلسطيني كذلك. سرعان ما بدأ زعماء يهود وليمبراليون مسلمون بتنظيم مؤتمرات حول التصورات الإسلامية للهولوكوست في أوروبا، مؤكدين أن احترام الهولوكوست يعد أمراً حاسماً لدمج المسلمين. تعتقد الأصوات المسلمة الليبرالية مثل المدرسة سامية الصبا، والمخرج إسماعيل فروخي، أن إحدى طرق تحدي هذه المواقف المتعصبة هي تدريس الهولوكوست مع التأكيد على التحام التاريخ والدور الذي لعبه "المسلمون الأخيار" في إيواء اليهود. أخذ هؤلاء القادة المسلمون طلاب المدارس الثانوية لزيارة معسكرات الاعتقال ومتاحف الهولوكوست، وكذلك المقابر التي دفن فيها الجنود المسلمين الذين قاتلوا النازيين. في الجولات التي يريها "مشروع علاء الدين"، وهي مبادرة أطلقتها المؤسسة الفرنسية لذكرى الهولوكوست، تأخذ الصبا طلابها لزيارة أوشفيتز ومتحف الهولوكوست في واشنطن. كذلك تدعم الحكومة الفرنسية العمل الثقافي لفروخي والصبا، على الرغم من أن حديثهما عن معاناة المسلمين من النازية والمسيحية اليهودية قبل عام 1948م يزعج المحافظين الجدد. حازت الصبا على إشادة من مسؤولين فرنسيين ومنظمات يهودية أمريكية، وفي يونيو 2013م حصلت على وسام جوقة الشرف.

إذا تم انتقاد فيلم "الرجال الأحرار" من قبل المحافظين الجدد حول دقته التاريخية، فقد أثار الفيلم أيضاً انتقادات من اليساريين المسلمين، الذين جادلوا بأن فروخي - مثل غيره من المسلمين الليبراليين - قد "استبطن أجندة صهيونية"؛ وأنه إذا كان اليهود ومنظمات المحافظين الجدد ينظرون

إلى المسلمين من خلال منظور الهولوكوست، فهذا لا يعني أن على المسلمين النظر إلى أنفسهم من خلال هذه العدسة. وحقيقة أن المسلمين الليبراليين يكافحون من أجل إظهار أن هناك "شيندلر مسلم" تعني أنهم قبلوا زعم ساتلوف بالتضامن الإسلامي النازي. المفارقة هي أن فيلم فروخي مستوحى بالفعل من كتاب ساتلوف الذي اقترح أن سليم هلالي كان محمياً من قبل المسجد، وأن شريكه محمد الكامل كان متعاوناً. أجرى ساتلوف مقابلة في عام 2006م مع الإمام دليل بوبكر، الرئيس الحالي لـ "المسجد الكبير"، الذي قال إنه خلال عهد فيشي أصدر الجامع ما يصل إلى مائة شهادة هوية إسلامية لحماية اليهود، حتى إنه أحضر رسالة مبعوثة من وزارة الخارجية الفرنسية، بتاريخ 24 سبتمبر عام 1940م، تظهر كيف أن السلطات الألمانية حذرت رئيس المسجد في ذلك الوقت من تسليم شهادات إسلامية لليهود. قال الإمام بوبكر: "حتى لو أنقذ ذلك حياة يهودي واحد، فهذا بحد ذاته أمر مهم". ينظر اليساريون المسلمون إلى هذه المسألة بشكل مختلف: أولاً رئيس المسجد سيّ قدور بن غبريط، الذي يريد ساتلوف والمسلمون الليبراليون تكريمه في "ياد فاشيم"، بالكاد يمكن اعتباره بطلاً، فقد عارض استقلال الجزائر حتى وفاته في عام 1954م، وأراد وجود جزائر فرنسية. علاوة على ذلك، فهم يرون البحث عن "شيندلر مسلم" - في وقت تنفجر فيه الثورات في شمال أفريقيا، ويعيش المسلمون الفرنسيون ظروفًا قاسية - بمثابة ممارسة لا طائل منها تخدم فقط مصالح المنظمات الصهيونية. يرد المسلمون الليبراليون على أن ضرورة إدراج المسلمين أنفسهم في ذاكرة أوروبا التاريخية، وأن قصص "المسلمين الأخيار" مثل ابن غبريط يمكن أن تساعد في تحقيق ذلك.

إن مباراة الذاكرة التي يدور رحاها في فرنسا - بين المسلمين واليهود، والمسلمين الليبراليين والإسلاميين، والحركات الاجتماعية والحكومة - تظهر في مناطق أخرى من أوروبا. في العقد الماضي، ظهرت مجموعة من الحركات اليسارية - "الرابطة العربية الأوروبية" في بلجيكا، "بانتارارنا" (الفهود السود) في السويد، "السكان الأصليين للجمهورية" في فرنسا - لتحدي القادة المسلمين الليبراليين. ترفض هذه الحركات الجديدة، التي تصف نفسها بأنها "مناهضة للاستعمار"، اللغة التكاملية الليبرالية في الاتحادات الإسلامية الأوروبية السائدة، وخطاب الإسلاميين الديني، وتثير حرباً ثقافية تذكرنا بأمريكا في ستينيات القرن الماضي، وبحركة القوى السوداء، التي نشأت بسبب الاستياء من حركة الحقوق المدنية الأمريكية.

الفصل الثاني عشر

متلازمة شمال أفريقيا

كان فرانز فانون (259)، الفيلسوف المناهض للاستعمار، مفتوناً بالموسيقى الأندلسية. وطأت أقدام الشاب القادم من الأنتيل شمال أفريقيا لأول مرة كمقاتل متطوع في قوات الحلفاء الفرنسية الحرة في المغرب في مارس 1944م. واعتقاداً منه أن "الحرية غير قابلة للتجزئة"، انضم الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً إلى قوات ديغول في منطقة البحر الكاريبي الفرنسية، وصعد على متن سفينة تابعة للبحرية متجهة إلى أفريقيا. نُقل فانون ورفاقه من الدار البيضاء إلى وهران في الجزائر، استعداداً للعبور إلى فرنسا. قاتل في معركة الألزاس، وأصيب في كولمار، وحصل على وسام صليب الحرب جزاء خدمته العسكرية. في عام 1953م عاد فانون إلى الجزائر بشهادة في الطب النفسي، وأصبح مديراً طبياً في مستشفى بليدة-جوينفيل للطب النفسي. أثار فهم المسلمين للأمراض العقلية اهتمامه، وكتب ملاحظاً إن "أي مرض طبي قد فُسر على أنه عمل من الجن الشرير". بالنسبة لفانون فإن الإيمان بالجن - وهو أمر منتشر على نطاق واسع في "الحياة التخيلية" للمنطقة المغاربية - هو طريقة للتصدي لعنف استعماري مُستوعب داخل الذات. وعلى خلاف كلود ماکاي، زميله من جزر الهند الغربية، لم يقد الاهتمام بالجن فانون إلى الكناوة، بل إلى الجهد القومي لاستعادة الموسيقى الأندلسية.

بدأ فانون بتجريب طرق شفاء جديدة في جناح مستشفى بليدة. نزع السلاسل والقيود عن المرضى، ومحا رسومات مريم العذراء ودلائل التاريخ الاستعماري الفرنسي من جدران المستشفى. في أحد أيام عام 1954م، أتى اثنان من الموسيقيين، المغني الشعبي عبد الرحمن عزيز والكوميدي محمد طوري، لتقديم عرض في المستشفى. لاحظ فانون أن المرضى - النساء الجزائريات - استجابوا للموسيقى بالتصفيق والزغاريد (التي وصفها بأنها "أشكال قصيرة، عالية النبرة، ومتكررة"). سأل فانون عزيز، الذي كان من الجزائر العاصمة، الانتقال إلى البليدة ومساعدته على استخدام الموسيقى الشعبية في العلاج بالموسيقى. كان عزيز، وهو طالب في الطب النفسي، جزءاً من فرقة محي الدين باشطارزي منذ عام 1939م، ولكن ولأنه ذو اتجاه قومي يكتب أغاني عن "الفن" و"الشعر" في "إسبانيا العربية"، لم يعجبه استخدام رئيسه للموسيقى الأندلسية في المسرح الكوميدي. وافق عزيز على الانضمام إلى فانون بشرط أن يتعلم المرضى اللغة العربية حتى يتمكنوا من

المشاركة في النماذج التي يؤديها. كما أخبره أنهم بحاجة إلى مكان للعبادة. أعطاه فانون غرفة لاستخدامها مسجداً، وقام عزيز بتعليم المرضى كيفية الوضوء والصلوات الأساسية وأحضر إماماً محلياً لإقامة الصلاة. بدأ فانون بتلقي دروس لغة عربية لمدة خمس عشرة دقيقة يومياً مع عزيز. كانوا يجلسون في مقهى على الطراز المغاربي مع حصائر أرضية، كراسٍ وطاولات منخفضة، حيث يقوم الرجال بشرب الشاي، لعب الدومينو، والاستماع إلى موسيقيين يؤدون الموسيقى الشعبية.

استمرت هذه السهرات الموسيقية حتى بعد اندلاع الحرب، حيث بدأ فانون في علاج ضحايا التعذيب من الجزائريين وتزويد مقاتلي جبهة التحرير الوطني بالإمدادات الطبية. طور فانون صداقات وثيقة مع زملائه المسلمين واليهود في المستشفى، وحاول بشكل يائس تجسير الروابط بين هذه المجتمعات عندما تدهور الوضع العام. أصرّ فانون أن عدداً قليلاً من اليهود الجزائريين على علاقة بالنظام الاستعماري، وقال إن "الغالبية العظمى" هي "كتلة عاتمة وشديدة العرنية وذات معرفة ضعيفة باللغة الفرنسية، كما تعتبر نفسها - بالتقليد وأحياناً باللبس - أهالي أصليين". حتى بعد طرده من البلاد في يناير 1957م، أشاد فانون بمناشدة جبهة التحرير الوطني للجلالية اليهودية، وأمل بـ "جزائر متعددة الأعراق" مستقلة للجميع: "كل شخص جزائري يعيش في مدينة شيدتها جبهة التحرير الوطني".

توفي فانون بسبب اللوكيميا في عام 1961م. حفز كتابه "معذبو الأرض" (260)، الذي نُشر بعد فترة وجيزة من وفاته، والفيلم الذي استلهم منه - "معركة الجزائر" للمخرج الإيطالي جيلو بونتيكورفو- الطلاب الأمريكيين واليسار خلال سنوات الستينيات والسبعينيات. يختلف الأمر في الوقت الحاضر. وفي واحدة من علامات العصر، بات فيلم "معركة الجزائر" من ضرورات المشاهدة لدى ضباط العمليات الخاصة في البنتاغون. وأطلقت دار الأزياء "نوم دو غير" التي يقع مقرها في نيويورك مجموعة صيفية بعنوان "Combat Continues"، وهي عبارة عن مجموعة من القمصان الكاكية مع كتافات، سراويل تمويه وعمائم عملاقة مستوحاة من فيلم المخرج بونتيكورفو. أثارت نزعة فانون الإنسانية الراديكالية، وأفكاره بخصوص العرق والإمبراطورية، حركات سياسية جديدة في أوروبا. إن النشاط المسلمين الأوروبيين الذين يحيون ذكرى فانون الآن هم أقل اهتماماً به كشخصية ضمن ثورة العالم الثالث، من كونه جعل شمال إفريقيا مركزية في العالم الإفريقي، وكيف يمكن أن تساعد كتاباته المسلمين الشباب على الدخول إلى الغرب عبر بوابة حركة "الحرية السوداء".

تقول حورية بوتلجة، المتحدث باسم حزب [أهالي الجمهورية]، "لقد اجتمعنا بعد فترة وجيزة من تمرير قانون غطاء الرأس لعام 2004م. كان خطاب العرق في فرنسا مثيراً للشفقة، المنظمات الإسلامية جبانة والحزب الاشتراكي لم يكن ليتحدث عن العرق. أردنا أن نبدأ حركة تدافع عن سكان فرنسا بعد الاستعمارية، لذلك أنشأنا حزباً سياسياً أطلقنا عليه "أهالي الجمهورية".

جئت لمقابلة حورية في مقهى في حي "ستالينغراد" للطبقة العاملة في وسط باريس، ووجدتها رفقة اثنين آخرين من أعضاء الحزب وطلاب الفلسفة في جامعة السوربون. جلس الثلاثة يدخلون الشيشة. في السنوات الأخيرة برزت حورية كأكثر صوت فصيح لحركات "تفكيك الاستعمار" في أوروبا. وأصبح ظهورها على شاشات التلفزيون، وغطاء رأسها الرياضي الملون، ونقاشها البارد مع شخصيات سياسية عن "قوانين الذاكرة" الفرنسية، مادة أسطورية وسط الشباب الفرنسي. (حمل أحد الهواة شريط فيديو حولها بعنوان "أحبها حتى الموت"، وهو مقطع عزف غيتار منفرد ممزوج مع صور لمعظم المقابلات التلفزيونية التي أجرتها حورية).

وبدلاً من التكامل والدمج، يدعو مانيفستو "حزب الأهالي" إلى "إنهاء استعمار" فرنسا، بمعنى أن على المؤسسات العامة والخاصة أن تعكس التركيبة السكانية المتغيرة للبلاد. تهدف الحركة إلى تعبئة المواطنين الفرنسيين من أصل ما بعد استعماري (شمال أفريقيا، غرب أفريقيا، الأنتيل، اليهود، المسلمين والآسيويين). يتبدى تأثير قانون بوضوح. يشير مصطلح أهالي "indigène" في اسم الحزب إلى النظام القانوني، أي قانون نظام الأهالي، الذي استخدم لحكم السكان الأصليين في مستعمرات فرنسا. يرى "حزب الأهالي" أزمة فرنسا الحضرية، ومحنة الأقليات في الضواحي، باعتبارها فصلاً جديداً في قصة استعمارية لم تنته بعد.

تقول حورية: "لقد ساعدتنا الأحداث. عندما أطلقنا الحزب في أوائل عام 2005م، أكد بياننا على الاستمرارية بين العنصرية في الفترة الاستعمارية والتمييز الذي تواجهه الأقليات في فرنسا اليوم. وبعد بضعة أشهر بدأت أحداث شغب عام 2005م، واستجابت الدولة الفرنسية بسنّ قوانين الطوارئ التي لم تستخدم منذ الحرب الجزائرية. لقد أثبتت استجابة الحكومة إلى حد كبير موقفنا، وحصلنا على المزيد من الدعم".

إن سياسة الهوية التي يطرحها "حزب الأهالي" تواجه بشكل مباشر أيديولوجية الجمهورية الخاصة بتجاهل لون البشرة، وغالباً ما يتعرضون للهجوم بسبب استيراد سياسة عرقية على الطراز الأمريكي. تقول كادر

الحزب ستيلا ماغلياني-بلقاسم وهي تنفث دخان الشيشة: "من المضحك ألا يُتهم سوى غير البيض بالطائفية. إذا جلس ثلاثة من السود سوياً يحتسون القهوة هذه طائفية، إذا كانوا ثلاثة عرب هذه طائفية، أما إذا كانوا ثلاثة من البيض، حسناً فهم مجرد أصدقاء يتناولون فاتح للشهية".

مبتدئون هم أولئك النقاد الذين يقولون إن حزب الأهالي مُتأثرٌ بالأفكار الأمريكية: فحركة "تفكيك الاستعمار" الفرنسية - مثل الحركات الأخرى المُستندة على مفهوم العرق في أوروبا - مستوحاة من حراك "القوة السوداء" ونظرية العرق النقدية الأمريكية". ولكن كذلك هم خصومهم. إن المحافظين الفرنسيين الجدد، بمعارضتهم للتعددية الثقافية، وتبنيهم خطابات صدام الحضارات، ومواقفهم السياسية الخارجية المُتشددة، يستلهمون أيضاً مما وراء المحيط الأطلسي. برز "حزب الأهالي" كمعارض هائل لمحافظي فرنسا الجدد، في أزدرائه لمفهوم الاندماج، وتأكيدهِ على العرق والتاريخ الاستعماري. إن الصدامات المستمرة بين المحافظين الجدد و"مُفككي الاستعمار" في أوروبا اليوم تذكرنا بأمريكا الستينيات، والفرق هو أن المحافظين الجدد في الولايات المتحدة نشؤوا جزئياً كردّ فعل على حراك "القوة السوداء"، بينما بدأ النشطاء الفرنسيون ببناء حركة عرقية كردّ فعل على المحافظين الجدد. بوش أولاً ثم ساركوزي.

كانت الجغرافيا نقطة الخلاف الفاضحة في هذه الحروب الثقافية الأوروبية. بالتحديد الخط الفاصل بين أفريقيا والشرق. لطالما نظر الخيال السياسي الغربي إلى منطقة جنوب الصحراء الكبرى على أنها خط يفصل "أفريقيا" عن "الشرق". عارضت حركات تفكيك الاستعمار في أوروبا هذه الخرائط بشدة، ورأت في الصحراء جسراً وليس هوة حضارية. إن الهوية العابرة للحدود الوطنية التي تطرحها هذه الحركات لشمال أفريقيا كجزء من عالم أفريقي، يشكل بدوره جزءاً من عالم أكبر بعد استعماري، تثير الغضب مثلما أغضبت بلاغة العالم الثالث اليميني الأمريكي في الستينيات تماماً. بالنسبة للمراقب العادي، فإن صدام السرديات الحالي و"الجغرافيات الأخلاقية" بين نشطاء العرق والمحافظين الجدد في أوروبا، واشتباك "الفهود السود الفرنسيين" مع "أعضاء رابطة الدفاع عن اليهودية" في باريس، ومحاولة مسؤولين حكوميين بريطانيين إغلاق المدارس التي تديرها "أمة الإسلام" في جنوب لندن، يبدو وكأنه تكرار غريب لسنوات الستينيات بأمريكا، حتى يتذكر المرء أن الأمر لا يقتصر فقط على أن هذه الحركات الأمريكية قد تعولمت، فالسفارات الأمريكية تعمل بنشاط على تصدير حركة الحقوق المدنية، وتدريب القادة المسلمين الأوروبيين الشباب على "إدارة التنوع"، تماماً مثلما تحاول المنظمات الأمريكية، من "الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين

[NAACP]" إلى "اللجنة اليهودية الأمريكية"، توجيه المسلمين الأوروبيين حول كيفية التفاوض على التاريخ والذاكرة القوميتين.

قلق مؤكّد

انتقل فانون إلى تونس بعد طرده من الجزائر، حيث عمل طبيباً نفسياً ومحرراً لصحيفة "المُجاهد" التابعة لـ "جبهة التحرير الوطني". في عام 1960م عينته الحكومة المؤقتة في الجزائر سفيراً لها في غانا. توفي فانون في ديسمبر 1961م، قبل بضعة أيام من نشر كتاب "مُعذِّبو الأرض". تحركت الشرطة الفرنسية بسرعة لمصادرة نسخ الكتاب؛ واعتبرت المؤلف خائناً انحاز إلى "إرهابيين" جزائريين. على أي حال، ألهم مؤلّف فانون حركات التحرر على طول العالم الثالث وكذلك السياسات الراديكالية في الولايات المتحدة، وألهم القادة السود مثل إيلدريدج كليفر، أميرى بركة، مالكوم أكس، وحتى مارتن لوثر كينغ، الذي أجاب كتابياً على حجج فانون حول العنف الثوري. أدى الإنزال الأمريكي عام 1942م إلى جلب شمال أفريقيا ومازقها الاستعماري إلى الخيال الأفرو-أمريكي. حيث كتب هارولد كروس (261)، الذي أصبح فيما بعد باحثاً نافذاً، قصة قصيرة رائعة عن لقاء حدث بالصدفة خلال خدمته العسكرية في وهران عام 1942م، عندما سألته امرأتان جزائريتان عن أسلافه، مما قاده إلى التفكير في الحرب، العرق وتاريخ الامبريالية. زار عدد من المفكرين الأمريكيين من أصل أفريقي الجزائر بعدما بدأت الحرب الجزائرية، وقاربوا أوجه الشبه بين الانتفاضة الجزائرية ونضالات الوطن، مثلما قارنوا القصة بالغيتو الأمريكي.

ردّ القادة الجزائريون هذا الجميل والدعم بمجرد استقلالهم. التقى أحمد بن بيلا، أول رئيس للجزائر، بمارتن لوثر كينغ لعدة ساعات بنيويورك في أكتوبر 1962م عندما ذهب لحضور حفل التعريف ببلده في الأمم المتحدة. (جاء عنوان نيويورك تايمز الرئيس: "ابن بيلا يوحد المظالم ويخبر د. كينغ أن الفصل العنصري يرتبط بالاستعمار"). التقى ابن بيلا أيضاً آدم كليتون بويل ومالكوم أكس في الكنيسة المعمدانية الإثيوبية في هارلم. بعدها بعامين زار مالكوم أكس الجزائر العاصمة، وقام بجولة في القصبة بمعجّة "إخوة الدم" الجزائريين. وبعد ظهور الترجمة الإنجليزية لـ "مُعذِّبو الأرض" في عام 1965م أصبحت الجزائر أسيرة أكثر فأكثر. أشار إيلدريدج كليفر إلى الكتاب باعتباره "الإنجيل الأسود"، وجعل من الجزائر مقر حزب "الفهد الأسود". لم تميز الأصوات الأممية السوداء في هذه الحقبة بين شمال أفريقيا وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، حيث أصبحت مدن شمال أفريقيا موطناً للفنانين والكتاب الأفارقة الأمريكيين: استقر راندي ويستون وعازفو الجاز المسلمين في

طنجة، انتقلت شيرلي غراهام، دو بوا ومايا أنجلو إلى القاهرة، وأنشأ اليهود السود قاعدة في الجزائر العاصمة. بدأ بزوغ قوة السود، وتوافقها مع أفريقيا - بما في ذلك "أفريقيا العربية" - بزعة العلاقات بين اليهود والسود في الولايات المتحدة.

كان الأمريكيون اليهود، كما هو معروف، منخرطين بشكل كبير في حركة الحقوق المدنية: انضم الطلاب اليهود الشباب إلى "راكبي الحرية" (262)، عارض المحامون قوانين جيم كرو ودعم المانحون مؤسسات مثل "الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين" و"مؤتمر المساواة العرقية". تعرّض التحالف اليهودي-السود للتوتر مع انتقال الصراع في مجال الحقوق المدنية من الجنوب إلى الشمال، وبدء تبلور حركة "قوة السود". ازداد السخط الأسود بحلول منتصف الستينيات من القرن الماضي، حين فشل تشريع الحقوق المدنية في تحسين ظروف الحرمان الحضري. في أعقاب مقتل مالكوم إكس ومارتن لوثر كينغ، اندلعت أعمال شغب في جميع أنحاء البلاد واستحكم المزاج الانفصالي. في كتابه "أزمة المثقف الزنجي"، وهو مجلد مؤلف من ستمئة صفحة نُشر عام 1967م، التقط المؤلف هذه الحالة الذهنية، ونبذ فكرة الاندماج ("اندماج مع من؟")، ودعا السود إلى إنشاء مؤسساتهم الخاصة. تحول النشاط اليهود من رفاق سلاح في الجنوب، لنخبة اقتصادية متحصنة في الغيتو بالنسبة لقدامى محاربي النضال الجنوبي مع تحرك الحركة شمالاً. بحلول عام 1966م، كان نشاط الحقوق المدنية السابقون يرددون استياء مالكوم إكس من التجار اليهود في الأحياء السوداء، ووصفوا اليهود بالاستغلاليين "مصاصي دماء"، يحاولون الحصول على مكانة الزعيم المقتول. على سبيل المثال، عمل ستوكلي كارمايكل بشكل وثيق مع نشاط يهود في الجنوب، ولكنه أصبح ينتقد بشدة الوجود الاقتصادي اليهودي في مجتمعات السود عندما قام بتوسيع لجنة تنسيقية طلاب من أجل اللاعنق [SNCC] في المناطق الحضرية الشمالية.

أدى الصراع الفلسطيني الإسرائيلي إلى زيادة حدة التوتر.

كان أبرز القادة الأفارقة الأمريكيين في القرن الماضي - ماركوس غارفي، دبليو. دو بوا، بول روبسون، رالف بانشي، ومارتن لوثر كينغ، في الأصل من الملتزمين بفكرة الصهيونية. لطالما أعجب الأمريكيون الأفارقة بمذهب الخروج التوراتي [Exodus]، ومعاناة العبرانيين المحررين من فرعون في رحلة عودتهم إلى أرض إسرائيل. في أوائل القرن العشرين اعتبر العديد من الزعماء الأميركيين الأفارقة الصهيونية نموذجاً لتحرير الشتات الأفريقي والعودة إلى أفريقيا. كان ماركوس غارفي يشيد "بالحراك المدهش". ولكن

بحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، بدأ الرأي الأسود يتبدل -بين الفنانين والمثقفين أولاً، ثم وسط بقية الناس- بسبب النفوذ الذي حققته بيانات مؤتمر باندونغ المناهضة للاستعمار والوحدة الأفريقية التي نادى بها جمال عبد الناصر وكوامي نكروما. وجاءت الريادة -من بعض النواحي- مع تحول آلاف الأفارقة الأميركيين إلى الإسلام بعد نهاية الحرب. كتب ديزي غيليسبي في مذكراته المَعنونة "أن تكون موسيقي بوب أو لا تكون"، "خلق الحراك بين عازفي موسيقى الجاز صوب الإسلام ضجة كبيرة، لا سيما مع صعود الحركة الصهيونية" مضيفاً، "نشأ الكثير من الصدام بين اليهود والمسلمين، واتخذ شكلاً يشبه المقاطعة في نيويورك لموسيقى الجاز ذوي الأسماء الإسلامية. وقرب نهاية الأربعينيات، شعرت الصحف بالقلق حيال ما إذا كنت أتحول إلى الإسلام".

حولت حرب السويس في عام 1956م الرأي العام. شهد عام 1964م زيارة مالكوم أक्स -الذي كان في البداية يرى في الصهيونية وسياسة الشتات اليهودية نموذجاً للأميركيين الأفارقة- إلى مخيم خان يونس للاجئين في غزة، ومُنذها توقف عن استخدام إسرائيل كمثال، وبدأ في التحدث عن الشتات الصيني. سبب هذا توترات مع الجالية اليهودية.

تحولت التوترات إلى صراع مفتوح بعد حرب عام 1967م، حيث تبنت "قادة القوة السوداء" موقفاً صريحاً مؤيداً للفلسطينيين. وبعد أيام من انتهاء الحرب، أصدرت لجنة تنسيقية طلاب من أجل اللاعنف تصريحاً يدين "الصهيونية". كما شرع كارمايكل في جولة حول العالم الثالث، شملت زيارة مخيم لاجئين فلسطينيين. وفي معرض الإعراب عن "الجغرافيا الأخلاقية" السوداء للحقبة، أعلن كارمايكل: "لا يمكن أن ندعم سوى العرب، لأن إسرائيل تنتمي إليهم، تنتمي للعرب، وفي عام 1917م منحها البريطانيون لمجموعة من الصهاينة... لا يقتصر الأمر على ذلك. ف [الصهاينة] يتحركون لاحتلال مصر. مصر هي وطننا الأم - إنها في أفريقيا. مصر ملك لنا منذ أربعة آلاف عام، ونحن نجلس هنا لندعم الصهاينة!". وبينما كان القوميون السود يتخذون موقفاً معادياً للصهيونية، أصبح النزاع الفلسطيني الإسرائيلي جزءاً من المنافسة السياسية بين الزعماء الأميركيين الأفارقة، بين الانفصاليين والاندماجين الليبراليين. يشرح المؤرخ كلايرون كارسون هذا الوضع: "إن انتقادات إسرائيل التي عبّر عنها كارمايكل وغيره من أعضاء SNCC، كانت جزءاً من الجهود التي بذلها نشطاء الحقوق المدنية السابقين لنبد علاقاتهم السابقة مع الليبراليين اليهود، وبالتالي المطالبة بأدوار كقادة للتمرد الأسود الحضري". سرعان ما تطورت دورة مألوفة في السياسة الأمريكية: أصدر المغاوير السود المسلحون تصريحات معادية للصهيونية، ثم طلب القادة

اليهود من قادة التيار الأسود الرئيس أن يدينوا علانية كلماتهم - لم يكشف الأمر بالنسبة للقوة السوداء سوى خضوع الزعماء الاندماحيين.

أدى تزايد كفاح السود المسلح وحرب 1967م إلى حدوث تغييرات أيديولوجية داخل المجتمع اليهودي أيضاً. منذ أوائل الستينيات، قلق الليبراليون اليهود من تشدد السود، ودعوا للعمل الإيجابي. قامت "حركة الوعي الأسود" (263) في ستينيات القرن الماضي بتحقيق يقظة اليهود السياسية في السبعينيات. وفي أعقاب النزاع على مدارس منطقة أوشن هيل - براونزفيل في مقاطعة بروكلين في عام 1968م، أنشأ الحاخام مئير كاهانا "رابطة الدفاع اليهودية" على غرار "الفهود السود". شكّلت هذه المجموعة تحدياً للقيادة اليهودية الليبرالية يشبه ما طرحه الانفصاليون السود على الاندماحيين السود. عكس ارتفاع التوتر بين اليهود والسود خيبة أمل سوداء من الحركات السياسية الاندماجية، وغذى صعود الوعي والهوية المجتمعية داخل المجتمعين. يلاحظ كارسون، "كانت القوة السوداء والقوة اليهودية على جانبيين مختلفين من النقاش الإسرائيلي - الفلسطيني، لكنهما اتفقا على أن على مجموعتيهما ممارسة قدر من السيطرة السياسية المحصورة في الأمور التي تنطوي على مصالح المجموعة الحيوية".

عبر المحافظون الجدد عن هذا الوعي السياسي اليهودي الجديد. على الرغم من كل ما كتب حول المحافظين الجدد في العقد الأخير، لم يذكر سوى القليل عن الكيفية التي برزت بها هذه الأيديولوجية كاستجابة جزئية على التشدد الأسود وخطاب التضامن الإفريقي-العربي الذي طرحه اليساريون الأميركيون الأفارقة. بالنسبة للمحافظين الجدد - معظمهم من اليساريين في شبابهم - فإن تشدد القوة السوداء، والدعوات للمحاصرة العرقية، واضطهاد الاتحاد السوفياتي لليهود السوفييات، واعتناق اليسار الراديكالي للقضية الفلسطينية، عززت فقط من معارضتهم للشيوعية ودفاعهم عن الليبرالية المفرطة. سيقوم باحثون مثل ناثن غلازر، الذي طالما كان حذراً من المسلمين السود، وغيره (نورمان بودهورتز، إرفنغ كريستول، ميدج ديكر) بتلخيص استجابة المحافظين الجدد لحراك القوة السوداء على صفحات مجلة كومنتري. وكما قال بودهورتز، فإن انتصار عام 1967م أدى إلى إحساس بالبهجة و"شغف بالتضامن" مع إسرائيل في وقت كان فيه الضعف اليهودي في إسرائيل مشتبهاً مع القلق اليهودي في الداخل، ودفع العديد من اليهود الأمريكيين لمحاربة التشدد الأسود واليسار الراديكالي، والنظر إليهما معاً على أنهما "عدوا القيم الليبرالية" ومهددان للأمن اليهودي. ومن سخرية القدر أنه خلال هذه الفترة البهيجة لأعوام ما بعد 1967م، اكتسب عديد من الأميركيين اهتماماً بموسيقى اليهود المزרחيين (يهود الشرق). ففي فبراير 1968م، دُعي

إنريكو ماسياس للأداء في قاعة كارنيجي لأول مكانت دعوات القوميين السود والمسلمين الأمريكيين الأفارقة للتضامن مع العالم العربي، ووصفهم الإسلام كدين يتعالى على اللون، وصمتهم عن تجارة الرقيق عبر الصحراء، أمراً قاسياً بشكل خاص على المحافظين الجدد. تساءل برنارد لويس: "يمكنني أن أفهم لم تخلى العديد من السود عن اسم ولغة الرجال البيض الذين اشتروهم كعبيد، لكن لم تبنوا اسم ولغة العرب الذين باعواهم للعبودية؟". من مكتبه في جامعة لندن، كان لويس، وهو باحث بريطاني متخصص في الإسلام، يراقب بحذر صعود الإسلام وسط الأمريكيين من أصل أفريقي. في عام 1970م قام بنشر كتابه "العرق واللون في الإسلام" (264) الذي رأى بشكل مباشر رؤية مالكوم إكس للإسلام على أنها متعالية على اللون، وتشكك في الترحاب الذي اختبره إكس في الحج. كتب لويس أنه على الرغم من أن "مالكوم إكس كان مراقباً فطناً وحساساً... إلا أن المعتقدات [الإسلامية] التي اعتنقها... منعت من إدراك التأثير الكامل "لأنماط الألوان" التي شاهدها في العالم العربي. يجادل لويس أنه بدلاً من "اليوتوبيا البين-عرقية"، أظهرت قراءة سريعة لكتاب ألف ليلة وليلة "خصائص الألامية" و"طبعة جنوبية" للحياة العربية. سيواصل لويس نشر كتب لاحقة تنتقد إدوارد بليدن، عزّاب "الوحدة الأفريقية"، بسبب خلقه "أسطورة البراءة العرقية الإسلامية"، التي "أسطرت لإسلام مثالي، وجعلته دعاة يمكن من خلالها التغلب على إخفاقات الغرب"، مثلما فعل المستشرقون اليهود الأوروبيون في القرن التاسع عشر، عندما "نشدوا عصراً ذهبياً أسطورياً في إسبانيا المسلمة".

في هذه الأثناء كانت الحكومة الأمريكية تحاول فصل حركة "القوة السوداء" عن مؤيديها الدوليين. أرادت الجزائر تجديد العلاقات مع الولايات المتحدة التي توقفت منذ حرب 1967م. وكان تطبيع العلاقات يتوقف على تخلي الجزائر عن دعمها للراдикаليين السود. أفاد اجتماع عام 1972م بين وزير الشؤون الخارجية الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، ووزير خارجية نيكسون، ويليام روجرز، أن "بوتفليقة قال إن حكومة الجزائر تهتم بتطوير العلاقات مع الولايات المتحدة، وإن "الفهود السود" لا يقدمون أي مساهمة فعالة للجزائر من وجهة نظر ثورية وأيديولوجية وأخلاقية". ومع أملها في خطة تبلغ قيمتها مليار دولار لتصدير الغاز الطبيعي إلى الولايات المتحدة، سحبت الحكومة الجزائرية دعمها للفهود السود. غادر الفهود الجزائرية العاصمة إلى فرنسا، حيث قاتلوا ضدّ ترحيلهم إلى الولايات المتحدة. حدث الأمر نفسه في مصر، عندما قام أنور السادات بعد توليه سدة الحكم في عام 1970م بالتخلي عن توجه "الوحدة الأفريقية" الخاص بسلفه ناصر آملاً في مغادرة المعسكر السوفياتي. تم تحييد راديكالية السود في الولايات المتحدة بسبب

النفوذ الذي اكتسبه الإسلام المتشدد والحركة السلفية في مناطق المدن الداخلية، واستهداف أجهزة إنفاذ القانون منظمات الشُّود الراديكالية. اليوم، وبصرف النظر عن فورات لويس فرخان العرضية، فإن التوترات بين قوميات الشُّود واليهود، التي تفاعلت وشكلت بعضها البعض منذ أواخر القرن التاسع عشر، خفت إلى حد كبير. أعاد صعود بوش والمحافظين الجدد في العقد الأول من القرن الحالي إحياء الراديكالية السوداء عبر الجانب الآخر للأطلسي.

إنهاء الاستعمار الأوروبي

في فبراير 2000م، أسس 12 بلجيكياً من أصل لبناني ومغربي منظمة تدعى الرابطة [Al Rabita] مقرها بروكسل. كان الهدف من المجموعة تعزيز العلاقات العربية الأوروبية ومصالح المجتمع المسلم في بلجيكا. بعد بضعة أشهر انتقلت المنظمة إلى أنتويرب، وتوحدت مع اتحاد الجمعيات المغاربية [FMV]، وهو مظلة فدرالية للمهاجرين، وغيّرت اسمها إلى "الرابطة العربية الأوروبية [AEL]". بحلول نهاية عام 2003م كانت "الرابطة العربية الأوروبية" واحدة من المنظمات الشبابية الأكثر تنظيماً وتشدداً في أوروبا الغربية. أملت الرابطة، التي تملك أتباعاً في العديد من البلدان، بتعبئة الشباب المسلم عبر الحدود، والضغط على الحكومات لجعل اللغة العربية واحدة من اللغات الرسمية للاتحاد الأوروبي، والحصول على تمويل حكومي للمدارس الإسلامية. وبغض النظر عن لغتها التصادمية والأناركية، فإن ما لفت انتباه المراقبين هو الصبغة الأمريكية لهذه الحركة الموجودة في أنتويرب، وكم كانت مرتكزة بقوة على نموذج حركة "القوة السوداء". نظمت الرابطة دوريات "شرطة الشرطة" على طراز الفهود السود، مع مجموعات من الشباب غير المسلحين الذين ارتدوا ملابس سوداء وتبعوا أفراد شرطة أنتويرب وبروكسل، بينما حملوا كاميرات فيديو ونشرات مكتوبة عليها "الشرطة الفاسدة: AEL تراقبكم". يشبه علم الرابطة، ذي اللون الأحمر، الأسود والأخضر، وفي منتصفه هلالين متشابكين علم حركة "الوحدة الأفريقية الغارفية" (نسبة إلى ماركوس غارفي).

يقول زعيم الحركة "دياب أبو جهجه" لصحيفة نيويورك تايمز، "إننا حركة حقوق مدنية ولسنا نادرًا لمتعصبين أصوليين يريدون القيام بتفجيرات؛ تعمل منظمات المهاجرين كالعنصر (265) في أوروبا. لكننا نريد أن نستقطب الناس، نزيد من حدة النقاش ونكشف عن الأسطورة القائلة إن النظام ديمقراطي حتى بالنسبة لنا". سرعان ما بدأت وسائل الإعلام تشير إلى هؤلاء الشبان باسم "الفهود العرب"، وتطلق على زعيم الحركة المولود في لبنان اسم

"مالكوم العربي". لم يتوان أبو جهجه عن اعتناق الدور. وظهر في المناسبات الإعلامية مُحافظاً بحراسه الشخصيين، متحدثاً بعبارات خاطفة قصيرة، ليعلن أن الاندماج "مهيّن"، ويطالب الحكومة البلجيكية بـ "حقوق كاملة"، والاعتراف بجزيرة ثلاثين عاماً من التمييز؛ كما حذر من أن المسلمين الأوروبيين سيحصلون على حقوقهم "عبر أي وسيلة ضرورية!"

اعترفت "الرابطة العربية الأوروبية" صراحةً بدينها لفانون، ومالكوم إكس. قام قادة المجموعة بالتنقيب عن تاريخ تضامن الأممية السوداء مع العالم الإسلامي. أشار أبو جهجه إلى قانون باعتباره "مرشده". لا يزال موقع "الرابطة العربية الأوروبية" يعرض صور مالكوم إكس مع الرئيس ناصر في مصر، لكن الحقيقة هي أن المنظمة لم تبدُ أبداً شبيهة بحركة "القوة السوداء". فقد بدأت كمنظمة محلية للدفاع عن المهاجرين، ثم نمت لتصبح أكثر راديكالية وذات صبغة عرقية عقائدية رداً على حزب "فلامس بلوك"، اليميني المتطرف الذي استولى على السلطة في فلاندرز. تغذت راديكالية الرابطة أيضاً بالتطورات الدولية - الانتفاضة الفلسطينية، وغزو العراق - فضلاً عن رد فعل الحكومة البلجيكية على الحركة.

منذ البداية أغضبت لغة الرابطة الصدامية، ودورياتها الخاصة بمراقبة الشرطة، قوى إنفاذ القانون. ففي أوائل عام 2003م استندت السلطات البلجيكية إلى قانون صدر في ثلاثينيات القرن العشرين يمنع تكوين ميليشيات لكي تحظر الدوريات التابعة للرابطة. رداً على ذلك غيرت الرابطة تكتيكاتها، ودعت أعضاءها للتصويت والمشاركة السياسية ورفض أسلوب الجماعات السلفية في عدم المشاركة. اكتسبت الحركة مؤيدين عبر الحدود في هولندا، وبدأت قيادة الرابطة بتصور حركة عابرة للحدود الوطنية من شأنها الانتظام في دول مختلفة. قامت السلطات الهولندية في مارس 2003م بمنع الرابطة من إنشاء فرع محلي، على الرغم من شعبيتها بين الشباب الهولندي المسلم. يقول أستاذ علم الإنسان الهولندي في جامعة رادبود، مارتين دي كونينغ: "لم ترغب الحكومة الهولندية بوجود حركة إسلامية يسارية متطرفة في البلاد، وانتهى الأمر بمزيد من التطرف بين الشباب المسلم ودفعهم إلى السلفية. كما أن منع الحكومة لتأسيس فرع للرابطة في هولندا دفع بعض الشباب إلى الجماعات الجهادية. البديل الراديكالي الوحيد المتبقي".

هدأت "الرابطة العربية الأوروبية" من لهجتها الانفصالية، وبحلول عام 2005م حاولت أن تصبح حزباً سياسياً "الحزب الإسلامي الديمقراطي". لكن الحكومات البلجيكية والهولندية واصلت جهودها لسحق الحركة. سرعان ما

وجدت "الرابطة العربية الأوروبية" نفسها مطوقة سياسياً، وهدفاً للعديد من الدعاوى القضائية. عزز الخطاب المناهض للصهيونية الذي يمارسه قادة الرابطة وتشددتهم تجاه الجالية اليهودية في أنتويرب من الرقض. فقد أعلن أحد الأعضاء أن "أنتويرب هي معقل الصهيونية في أوروبا، لذا يجب أن تصبح بمثابة مكة للمؤيدين لفلسطين". في فبراير 2006م، نشرت الرابطة رسوماً عن الهولوكوست على موقعها الإلكتروني، ردّاً على الجدل الدانماركي حول الرسوم الكاريكاتورية والمناقشات العامة حول التجديف وحرية التعبير، مما زاد من حدة الإجراءات القانونية الموجهة ضدها. أصدرت الرابطة تصريحاً: "كل ما نحاول القيام به هو مواجهة أوروبا بنفاقها الخاص (وأخلاقها المزدوجة) باستخدام السخرية والرسوم". وقد ثبت أن هذه الحلقة هي المسمار الأخير في تابوت الحركة.

نظم آلاف الشبان في حي باريس بشمال باريس مسيرة بتاريخ 8 مايو 2012م -اليوم الذي أعقب انتخاب فرانسوا هولاند رئيساً لفرنسا- ارتدى الطلاب قمصاناً تحمل عبارات لفرانز فانون وإيمي سيسير (وحملوا لافتات عليها وجوه الزعماء الأفارقة المقتولين توماس سانكارا، ستيف بيكو، وآخرين). حمل نشطاء اللواء المناهض للزنجوفوبيا، الذين ارتدوا الزي الأسود وأحذية الجنود، وأعضاء من حزب "أهالي الجمهورية" ملصقات باللونين الأسود والأصفر كتب عليها "الجرائم الاستعمارية: سطيف، قالمة، مدغشقر، تياروي الكامبيرون، دير ياسين"؛ "جئنا إلى هنا لأنكم كنتم هناك". جذب هذا التجمع الذي نظمه حزب "أهالي الجمهورية" مجموعات من الجماعات السوداء والنسوية ومناهضي الحرب، وعُقد في يوم تاريخي لفرنسا والجزائر: (8 مايو 1945م، يوم النصر، عندما أعلن ديغول نهاية الحرب العالمية الثانية، ولكنه أيضاً اليوم الذي قتل فيه الجيش الفرنسي الاستعماري مئات المتظاهرين في مدينة سطيف الجزائرية). جمعت هذه المسيرة ائتلاقاً من الجماعات التي قاطعت الانتخابات الرئاسية، بهدف تذكير فرنسا بتاريخها الاستعماري، وتذكير الرئيس المنتخب بأن هناك حركة شبابية تقف على اليسار من حزبه الاشتراكي.

نشأ حزب "أهالي الجمهورية" في فرنسا في الوقت الذي تداعت فيه "الرابطة العربية الأوروبية"، ويبدو أنه تعلم من أخطاء الأخير. لدى الأهالي نداءً أوسع، فهو يدافع عن حقوق جميع مجموعات ما بعد الاستعمار السكانية وليس فقط المسلمين أو العرب. كما أن "أهالي الجمهورية" أكثر ذكاءً باستخدام وسائل الإعلام من الرابطة. يعمل مجموعة من أساتذة الاجتماع من جامعة بيركلي وجامعة يورك في كندا ضمن اللجنة الاستشارية للحزب، وتساعد في وضع "استراتيجية محلية"، الأمر الذي يعزز مصداقية بيانات

الحزب. تزخر منشورات الحزب بالإشارات إلى ستوكلي كارمايكل، هيوي نيوتن، وعلماء اجتماع أمريكيين معاصرين متخصصين في الدراسات العرقية مثل تومي شيلبي، كورنيل ويست، وكيمبرلي كرينشو. لكن المُعلّم الفكري للحزب هو عالم السياسة التونسي صديري خياري، الذي كان ناشطاً في الحزب الشيوعي في تونس لعقود من الزمن قبل أن تنفيه حكومة ابن علي إلى فرنسا. عمل "حزب الأهالي" على مقاطعة الانتخابات، والتركيز بصراحة على "نشاط خطابي" يهدف إلى تغيير الخطاب السياسي الفرنسي. ومن أجل الحفاظ على مسافة نقدية من "حلبة السياسة البيضاء"، تجنب "أهالي الجمهورية" أيضاً الاشتباكات مع رجال الشرطة التي دمّرت سمعة "الرابطة العربية الأوروبية". كذلك استند الحزب على فكرة مالگوم إكس وفرانز فانون الخاصة بربط العالمين الأفريقي والشرقي، وعلى وجه الخصوص رؤى فانون حول التسلسل الهرمي الاستعماري كطريقة لتجاوز الاختلافات العرقية في المحيط الحضري لأوروبا.

عندما تمركز فانون البالغ من العمر تسعة عشر عاماً خارج الدار البيضاء مع فرقته التابعة لقوات فرنسا الحرة، لاحظ الترتيب الهرمي لهذه الفرقة: في القمة متطوعون أوروبيون ومقاتلون من مستعمرات الهند الغربية (مثل فانون نفسه)، المشاة السنغاليون ومجموعات شبه الصحراء في الأسفل، بينما القوات المغربية والجزائرية في الوسط. لاحظ فانون أيضاً أن المقاتلين الأوروبيين حصلوا على قبعات وخيم ذات جودة أفضل. في بعض الأحيان، كان القادة الفرنسيون "يبيضون" الجيش ويخرجون منه القوات السنغالية، بينما يأخذون المقاتلين المغاربة والجزائريين، أو جماعات التمرد الفرنسية. الممارسات العنصرية التي شهدتها فانون داخل الجيش - كان يطلق على الأفارقة اسم "نيغرو [Nègres]" أو "أسود [bougnoles]"، والجزائريون اسم "[indigènes] واطنين" - دفعته إلى الدعوة إلى نزعة وحدوية أفريقية مناهضة للإمبريالية. أما اليوم، فإن البنية العرقية الوهمية لشمال أفريقيا، المتموضعة بين بياض أوروبا وسواد جنوب الصحراء الكبرى، هو ما تحاول أفكار وسياسات تفكيك الاستعمار إزالته بشكل صريح (بطرق تعيد إلى الذهن حملات وضع الأقلية في الولايات المتحدة).

تقول حوريّة: "دافع علماء الاجتماع الفرنسيون الذين يدرسون العرق في فرنسا عن المجتمعات الكاريبية، وضغطوا لصالح قانون توبيرا لعام 2005م" - الذي اعترف بالعبودية كجريمة ضد الإنسانية - "لكنهم لم يريدوا التعامل مع حركتنا. وهذا لأننا نتحدث عن الجزائر - الأمر الذي لا يزال محظوراً في فرنسا؛ وعن فلسطين [المحظور الرهيب]. وأيضاً لأننا نجتمع شمال أفريقيا مع أفارقة جنوب الصحراء. نحن المنظمة الوحيدة في فرنسا - باستثناء

السلفيين - الذين يجمعون البربر، العرب والسود معاً. وهذا أيضاً أمر مثير للجدل. أعتقد أن فرنسا تفضل السلفيين، الذين يفصلون أنفسهم عن المجتمع، عن مجموعة مثلنا تحشد جميع الأقليات عبر الفئات المختلفة". ومُتتبعة خطى فانون، تقول ناشطة "إنهاء الاستعمار": إن مصطلح [bougnoles]، الذي يعني "أسود" في لغة الولوف، كان يستخدم في القرن التاسع عشر كمصطلح للإشارة إلى مجموعات غرب أفريقيا، ولكنه يستخدم اليوم للإشارة إلى سكان شمال أفريقيا أيضاً، في إشارة إلى مدى السرعة التي تم بها تخفيض المنزلة العرقية للعرب والبربر في فرنسا - ودفعهم بعيداً عن البياض.

في يوليو 2010م ظهرت حركة أخرى تندرج ضمن تيار القوى السوداء بفرنسا حيث تم تأسيس حزب "الفهود السود" في باريس على يد كيمي سيبا، الناشط الشاب الذي درس بلوس أنجلوس على يد الراحل خالد محمد من جماعة "أمة الإسلام". بدأ "الفهود السود" يظهرون في زوايا الشوارع في باريس وهم يرتدون ملابس وقبعات سوداء، ويثقفون الناس حول "معركة الذات" [connaissance de même]، ويدعون إلى الوحدة بين "معذبي الإمبريالية". ناهضت المجموعة الحركة السلفية - الذين أطلقوا عليهم "العنصريين العرب" - والتيار الرئيس للمجلس التمثيلي لجمعيات السود في فرنسا [CRAN]، الذي تأسس بعد فترة وجيزة من أحداث الشغب عام 2005م. أشار سيبا إلى الزعماء السود في التيار الرئيس في فرنسا بوصفهم "العم توم"، وقال في المقابلات التي أجراها: "أريد أن أعيش وأموت مثل ستوكلي كارمايكل". بدأ الفهود يطالبون بحقوقهم في إدارة مراكز مجتمعية للأطفال السود في فرنسا حيث يمكنهم تعليم أفكار "الزنوجة" استجابة لخطاب ساركوزي الشهير في السنغال، الذي أعلن فيه أن "الأفارقة لم يدخلوا التاريخ أبداً". "نريد أن نصيغ مصيرنا". لدى المجموعة العشرات من الأتباع، ولكن مثلما هو الحال مع "الرابطة العربية الأوروبية"، فإن خطابهم المعادي للصهيونية والولع بالمشاحنات يجذبان القمع الحكومي. (تنازع الفهود مع أعضاء "رابطة الدفاع عن اليهودية" الفرنسية؛ تواجه الجانبان بعنف، وتراشقا السباب حول ما إذا كان الإسلام عنصرياً أم لا). لم يقدم اليسار الفرنسي دعمه لهذا الفرع المحلي؛ على الرغم من دعمه "رابطة الفهود السود الأمريكية" خلال السبعينيات في باريس ورفضه تسليمهم للولايات المتحدة.

بلوز الصحراء

منذ أربعينيات القرن العشرين شعر الفرنسيون بالقلق من تأثير الثقافة الأفريقية الأمريكية على أقلياتهم. وصف جيمس بالدوين في كتابه "بلا اسم في الشارع" (266)، رد الفعل "المضطرب" إزاء "ادعائه القرابة" مع الجزائريين

الذين يعيشون في باريس عند زيارته لها في سنوات 1948م -1949م. "لم تكن حقيقة أنني لم أزر القصة الجزائرية أقل أهمية من حقيقة أن الجزائريين لم يروا هارلم قط. لقد كنت أنا والجزائريون ضحايا هذا التاريخ [الوجود الأوروبي في أفريقيا] على حد سواء". عندما دُعي مالكوم إكس لمخاطبة اتحاد الطلاب الأفارقة في باريس في فبراير 1965م ثم منعه من الدخول، لأن حكومة ديغول رأت وجوده "غير مرغوب فيه" وقد "يثير التظاهرات". اليوم حين يتحدث معظم الشباب الفرنسي عن العرق ومالكوم إكس، يدين أغلب المحافظين الفرنسيين ذلك، ويرون فيه "سياسة الضحية" على الطريقة الأمريكية. نشر المحافظ الفرنسي باسكال بروكنر كتابه "استبداد الذنب" (267) في عام 2011م، منتقداً أفكار التعدد الثقافي وكره الشباب الفرنسي "من أصول مهاجرة بعيدة" لفرنسا "رغم أنهم لا يملكون مكاناً آخر يذهبون إليه". المثير في الأمر أن نقد بروكنر للتعددية الثقافية الفرنسية وعقدة الذنب الغربية مستوحاة من التيار المحافظ الأمريكي، وهو دالٌّ على اتجاه أوسع: يقرأ المحافظون الأوروبيون الجدد مؤلفات الأمريكيين لفهم مواطنيهم المسلمين، معتقدين أن المراقب الأمريكي لديه نظرة متميزة لمشكلة المسلمين في أوروبا بسبب تاريخ بلاده العرقي. نشر المحافظون الأمريكيون عدداً من الكتب منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر - "بينما أوروبا نائمة، أيام أوروبا الأخيرة، تهديد أوروبا، تأملات في ثورة داخل أوروبا، آخر فرصة للغرب - تحذر جميعها من غزو إسلامي لأوروبا ضعيفة استرضائية، وقد وجدت الأعجاب من قراء عبر طرفي المحيط الأطلسي.

ترسخ مصطلح وفكرة "أورابيا" (268) بسبب الحرب الباردة، ومن خلال ذكرى هياج المسلمين السود والاضطرابات العرقية في الستينيات أيضاً. كتب مراقب أمريكي بخصوص المشهد الفرنسي: "إنها مشكلة فاراخانية. فالمساجد تنفذ الشباب من الانحراف، الكسل، وغيرها من الأمراض. ولكن لدى قيامها بذلك، تصبح سمسارة قوة في المناطق التي يتم فيها حل جميع النزاعات تقريباً عن طريق العنف. تستدعي هذه الجماعات قدرتها على خلق بيئة عنيفة - وليس سجل الخدمات الاجتماعية - عندما تطرح مطالب على المجتمع الأوسع. يسري هذا القلق بشأن شعبية الثقافة الأمريكية الأفريقية ("ثقافة الخصم") وسط المسلمين الأوروبيين في الكثير الأدبيات.

كتب ديفيد بروكس في عموده في صحيفة نيويورك تايمز، متأملاً الهويات البديلة المتاحة للشباب المسلم في أوروبا: "أدرك الجميع أنه سيكون هناك جدل حول مستقبل الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر. لكننا لم نعرف أن الجدل سيكون بين أسامة بن لادن وتوباك شاكور". تلقي هذه الكتابات اللوم على عالم اللاهوت المصري السويسري طارق رمضان. أحد الأسباب، أن جد

رمضان كان مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. كما أن هذا الباحث الأنيق، المتنقل حول عديد من دول العالم، ويحظى بشعبية كبيرة بين الشباب المسلم في جميع أنحاء العالم، يستحضر شبّح مالكوم أكس. كتب بول بيرمان، يساري أمريكي آخر تحول إلى أتباع نظرية المؤامرة "أورايبا"، سيرة مختصرة من ثمانية وعشرين ألف كلمة عن أستاذ جامعة أكسفورد نشرتها نيو ريبابليك، "يبدو أن رمضان قد تأثر بنموذج مالكوم أكس في الولايات المتحدة، أو على الأقل بمالكوم في نسخة سبايك لي"، لكنه أكّد أن "لدى رمضان شيء من الكرامة الحساسة لمالكوم، ولكنه لا يملك سلوك التهديدات غير المعلنة لمالكوم".

تجلت مخاوف الستينيات من الإسلام والعالم الأفريقي من جديد في أمريكا بطرق مثيرة للدهشة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. بدأت الحملة الأولى المناهضة للمساجد - التي ستتصاعد إلى حركة مُناهضة للشريعة والمساجد في عام 2010م - في أوائل عام 2003م بمعارضة قيام مسجد في شارع مالكوم أكس في قسم روكسبوري في بوسطن. (فُتح المسجد أبوابه في نهاية المطاف في عام 2009م). قاد هذه الحملة تشارلز جاكوبس، المحافظ الثري الذي أسس في عام 1994م مشروع مكافحة الرق لمراقبة ممارسات الرق في المناطق الحدودية الصحراوية. أطلق مشروع ديفيد لمراقبة أقسام دراسات الشرق الأوسط عبر الولايات المتحدة بسبب انحيازها ضد إسرائيل في عام 2002م، رداً على زيادة النشاط العربي والإسلامي في الحرم الجامعي. وعندما بدأ النظام السوداني بقمع تمرد إقليم دارفور بوحشية، أطلق جاكوبس حملة "أنقذوا دارفور" بالشراكة مع الوكالة اليهودية الأمريكية العالمية. في أبريل 2004م، أصدر المتحف التذكاري للهولوكوست في الولايات المتحدة "تنبيهاً للإبادة الجماعية" حول دارفور - وهو الأول من نوعه في تاريخ المؤسسة - وتحولت "أنقذوا دارفور" إلى واحدة من أكبر الحملات الإنسانية بخصوص صراع أفريقي. جمع التحالف مجموعة من الجماعات والمنظمات. عقدت التجمعات في العديد من المدن، وقام الأطفال بتحديث وضعهم على الفيسبوك إلى "أنقذوا دارفور"، وأنتجت قناة MTV أفلاماً وثائقية عن دارفور، كما رعت لعبة فيديو تحت اسم "دارفور تموت"، وانتشرت الوقفات الاحتجاجية في حرم الجامعات على طول البلاد، بينما ارتدى الطلاب قمصاناً خضراء على أمل البدء في حملة تصفية الاستثمارات في السودان مماثلة لتلك التي شُنت ضد جنوب أفريقيا في حقبة الفصل العنصري. أقام متحف الهولوكوست شراكة مع "غوغل إيرث" لتقديم خدمة تعهيد جماعي (269). (crowd-sourced) عبر الإنترنت لرسم خرائط عن الفظائع والأعمال الوحشية في دارفور.

واحدة من الموضوعات المتكررة في هذه التجمعات كانت أن حملة دارفور وفرت فرصة تاريخية لإعادة إحياء تحالف السود-اليهود القديم الذي يرجع إلى ماضي حركة الحقوق المدنية؛ فقد كان السودان، الواقع عند تقاطع أفريقيا والشرق الأوسط، هو المكان حيث تتداخل الأمميتين الأفريقية الأمريكية واليهودية الأمريكية. (قال تشارلز جاكوبس عندما سُئل عن سبب انفعاله بالصراع في السودان إن، "من يقومون بهذا الفعل ضد سكان دارفور هم أنفسهم الذين يزرعون قنابل في مطاعم البيتزا في إسرائيل"). عاجلاً بدأت المنظمات التي تقود الحملة بترتيب رحلات للقادة الأميركيين الأفارقة لزيارة كل من دارفور وباد فاشيم. كانت منظمات التيار الرئيس للأفارقة الأميركيين، مثل "الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين"، وجماعات الضغط الأفريقية الكبيرة، مثل "أكشن أفريكا"، غائبة بشكل ملحوظ عن التحالف مثلها مثل المنظمات الإسلامية والعربية. كانت هذه الجماعات حذرة من الدعوات إلى تغيير النظام التي طرحت في هذه التجمعات، كما تشككت في الهوس الغريب بالسودان في الوقت الذي كانت صراعات عديدة تدور رحاها في جميع أنحاء أفريقيا. أعلن قطب الهيب هوب راسل سيمونز في اجتماع حاشد بخصوص دارفور في واشنطن بتاريخ أبريل 2006م، "أريد أن أذكر الجميع بأن 3 ملايين شخص لقوا حتفهم في الكونغو مؤخراً. لا أريد أن ننسى معاناة الجميع في أنحاء القارة". كذلك حافظت معظم المنظمات الإسلامية على مسافة من تحالف إنقاذ دارفور بسبب قلقها من أن قضية دارفور كانت تُستخدم لمجابهة النشاط الفلسطيني في حرم الجامعات، والمماثلة بل والطعن فيها من خلال تأطير الصراع داخل أفريقيا كصراع بين "المستوطنين العرب" و"السكان السود الأصليين". ونتيجة ذلك، انتهى الصراع الذي تتصادم فيه الهويات العربية والأفريقية، والذي كان من المفترض أن يقود إلى تشكيل تحالف الجاليات الأفريقية-الأميركية والمسلمة-الأمريكية، إلى كونه قضية بيضاء، يهودية-مسيحية.

شعر المراقبون الأوروبيون عبر المحيط الأطلسي بالحيرة من استحواذ هذا الركن من شمال شرق أفريقيا على الخيال الأميركي. سأل أحد المراسلين جورج كلوني في نسخة مهرجان كان السينمائي لعام 2007م، حيث كان الممثل يجمع التبرعات لضحايا الصراع، "لماذا دارفور؟"، "لماذا ليس الكونغو؟ أو الشيشان؟ أو لبنان؟". أشار نجم هوليوود إلى إمكانية وصول العاملين في المجال الإنساني إلى منطقة دارفور. كان المراقبون الأوروبيون والأفريقيون مفتونون بقدرة السياسة الداخلية على جعل دارفور تلقى صدى قوياً في الولايات المتحدة، وكيف أصبح يُنظر إلى موقع السودان - والمناطق الحدودية الصحراوية - على أنها "صدع حضاري". ومع ذلك كان هناك سابقة لهذا النوع من التفكير. إذا كان المحافظون الأمريكيون الجدد في الستينيات

والسبعينات من القرن الماضي مستأؤون من تقارب الراديكالية السوداء مع الإسلام، فقد قلق المحافظون الجدد (الأمريكيون والأوروبيون) في عام 2001م من ميل جيل الشباب المسلم المُسيّس للتمسك بالراديكالية السوداء، والتضامنيات الجديدة التي تتشكل بين الإسلام والوحدة الأفريقية. وهكذا تم إحياء قضية "العبودية العربية"، في كثير من الأحيان بواسطة ذات المُحرّضين السياسيين لسنوات الستينيات. ففي أوائل عام 2000م، أصبح المؤرخ برنارد لويس، الذي استنكر قبل أربعين عاماً نظرة مالكوم أكس المثالية عن العالم الإسلامي، مستشاراً لدك تشيني، وكتب عن السودان و"معاداة السامية الجديدة". أما ناقد موسيقى الجاز، نات هينتوف، الذي كتب مُنتقداً حراك "القوة السوداء" وجاذبية الجزائر، فقد أصبح مُناصرًا لدارفور.

سرعان ما انتقلت حملة "أنقذوا دارفور" إلى فرنسا، مع تأسيس "تعاونية طوارئ دارفور" التي ضمت شخصيات عامة مثل برنار كوشنير، برنار هنري ليفي، وأندريه غلوكسمان، والتي دفعت باتجاه التدخل في السودان. حذر الصحفيون الفرنسيون من أن نشاط دارفور يمكن أن يشعل الضغائن في الوقت الذي استخدم فيه الناشطون اليهود حملة دارفور لمقاومة النشاط الإسلامي بخصوص فلسطين. ومثلما هو الحال في الولايات المتحدة، ستؤدي "تعاونية طوارئ دارفور" إلى تقسيم الرأي العام الأفريقي والمسلم، حيث ترى الجماعات الإسلامية الليبرالية أن من مصلحة المجتمع المسلم أن يكون جزءاً من هذا "التحالف الأخلاقي"، في حين رفض النشطاء اليساريون هذه "الحركة الصهيونية العابرة للأطلسي" بأجندتها المتطابقة مع أفكار المحافظين الجدد. سرعان ما بدأ تحالف معاكس يتشكل ضد تحالف دارفور الفرنسي بقيادة النشطاء الأفارقة والمسلمين اليساريين الذين حاولوا انتزاع قضية دارفور والصراع المسلم-المسلم بعيداً عن أيدي المحافظين الجدد.

لاحظ العالم السياسي إي. إي. شاتشنايدر، أن الصراع شيء جوهري من أجل ترتيب الأولويات في الديمقراطيات. وفي يومنا الحاضر، يدور الصراع الإسلامي اليهودي في أوروبا حول القضايا التي سيتم التحدث عنها بشكل علني. ما يثير الدهشة هو كيف أصبحت الصحراء موقع وكالة لحروب الأجندة هذه. ففي الوقت الذي يتواصل فيه النشطاء المسلمون عبر الصحراء الكبرى لتشكيل تحالفات تجمع مواطني جنوب الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا، وتبني حركة وحدة أفريقية موالية للإسلام، يستجيب خصومهم السياسيون بالحديث عن "تجارة الرقيق في الصحراء الكبرى" في الخطاب العام، أو من خلال تسليط الضوء على النزاع في المناطق الحدودية الصحراوية، حيث يهيمن الأفارقة العرب على الأفارقة غير العرب. يشهد

تاريخ الولايات المتحدة أنه عندما تكون العلاقات بين السود واليهود جيدة، يتم تخيّل الصحراء كفجوة تشبه المحيط. بينما تكون بمثابة "جسر حضاري" عندما تتوتر هذه العلاقة. في أوروبا تتشكل تمثيلات منطقة الصحراء الكبرى أيضاً عن طريق السياسة الداخلية والجغرافيا السياسية. كلما ازدادت محاولات "أفريكوم" لـ "تهدئة" منطقة الصحراء الكبرى - مالي، موريتانيا، النيجر، وجنوب الجزائر - كلما أشعلت هذه التوغلات العسكرية نار الهوية الإسلامية في مناطق أوروبا الحضرية، لا سيما بين الجماعات السلفية. وكلما ارتفعت وتيرة الهجرة من شمال أفريقيا إلى أوروبا، وعلا بالتالي صوت السلفيين، امتدّ ذنب الهولوكوست أعمق نحو الصحراء؛ وكلما ازدادت جاذبية الوحدة الأفريقية وسط عرب شمال أفريقيا والبربر في فرنسا وفي الأماكن الأخرى، كلما زاد استخدام موضوع تجار الرقيق العرب في أفريقيا لفصل شمال أفريقيا "الأبيض" عن سكان الكاريبي وجنوب الصحراء الكبرى. أصبحت "تجارة الرقيق العربية" - وبدرجة أقل "تجارة الرقيق الأفريقية" - ميمات (270) متكررة في السياسة الأوروبية، تماماً مثلما برزت كقضية داخلية في الولايات المتحدة منذ أواخر الستينيات وما بعدها.

يقول سانديو هيرا، عالم الاجتماع السورينامي الذي يرأس المعهد الدولي للبحث العلمي، وهي منظمة مقرها أمستردام وتعمل في قضايا "تفكيك الاستعمار": "في كل مرة نحاول فيها بناء تحالفات بين شباب الكاريبي والشباب في شمال أفريقيا، يسرع اليمين للحديث عن تجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى... يذهب هؤلاء الناس حرفياً إلى ذلك الطفل السورينامي الواقف على زاوية شارع، ويخبرونه (لقد استعبد أسلاف صديقك المغربي أجدادك). لذا نحاول بناء سردية مضادة، لكي نوضح لشبابنا كيف أن العبودية في أفريقيا ليست هي تجارة الرقيق الأطلنطية".

في مناخ الاتهام هذا ليس من الواضح ما الذي يمكن أن تحققه الموسيقى. ولكن مرة أخرى، فإن المسلمين الليبراليين واليهود الليبراليين ينشرون الموسيقى الأندلسية بكافة أنواعها.

أعرف أنهم يحبونني

أنا من بلد غريب

ومن سلالة غريبة

سليم هلالي

عندما عرض فيلم "الرجال الأحرار" في أكتوبر 2011م، كان سليم هلالى قد مات منذ ست سنوات، وكان قد مضى ثلاثون عاماً على آخر مقابلة إعلامية معه. ومع ذلك أصبح المغني أكثر شعبية مما كان عليه في الستينيات. تقول بيرث ناخمان صاحبة مكتبة التقدم: "لقد بعنا جميع تسجيلات سليم، ولم تنبَق سوى أشرطة الكاسيت". إن الاستماع إلى أغنية "عشقت طفلة أندلسية"، واحدة من أغاني الفلامنكو التي كتبها سليم في خمسينيات القرن العشرين وأشاعها فيلم "الرجال الأحرار"، وهي تتدفق من مكبرات صوت المتجر في حي ماريه في ربيع عام 2012م، مُجفِل بعض الشيء ولكنه لا يثير الدهشة. عاش المغني في هذا الحي في أربعينيات القرن العشرين، في شارع فرانسوا ميرون القريب من متجر ناخمان. امتلك المغني المغربي ومايسترو الموسيقى الأندلسية والملحن، سامي المغربي، متجر تسجيلات متخصصة في موسيقى شمال أفريقيا أسفل الطريق من منزل سليم، في شارع ديسي كوف. ظل حي ماريه - الملقب ببيتزل ("المكان الصغير" في لغة اليديشي) - بشوارعه المرصوفة بالحصى والمباني التاريخية، مركزاً للحياة اليهودية في باريس طوال قرون. ومنذ الثمانينيات أصبحت المنطقة معروفة أيضاً بثقافة المثليين، لذلك من المألوف اليوم رؤية حانات تحمل أعلام قوس قزح بجوار مباني عصر النهضة ودور العبادة. إن حضور صوت سليم الصالح الناعم وهو يملأ جدران حي ماريه القديم في أوائل القرن الواحد والعشرين، بينما دورية الشرطة المسلحة تُمشط الحي، يبدو ملائماً بشكل غريب. فقد مزج سليم بين الثقافات والهويات بسهولة كبيرة، وهي حقيقة لم تغب عن شباب اليوم الذين يحاولون إحياءه كفنان عربي يهودي، أيقونة للمثليين ورمزٍ للتعايش.

افتتح سليم كباريه عند شارع مونتين بعد الحرب العالمية الثانية وأطلق عليه اسم "إسماعيلية فوليس". لكن في عام 1949م، انتقل هو ورفيقه بيير إلى الدار البيضاء وافتتحا ملهى "الديك الذهبي" الشهير، الكباريه الذي سيصبح أسطورة في التقاليد الموسيقية لشمال أفريقيا. يقع الملهى في قلب المدينة على الجانب الآخر من قبر لاله ستي القادرية، شيخة يجلها أتباع طريقة الجلالى الصوفية، وبالقرب من منزل الحاخام حاييم بينتو، حاخام الدار البيضاء الأكبر. منذ إنشائها كان لدى النادي أوركسترا وزبائن مسلمون ويهود. يستذكر زبائنه مدخله الذي يشبه القاعات الفيكتورية، مزداناً بالسجاد الفارسي الأحمر، والثريات الكريستالية، ولوحات ذات طابع شرقي. "كان بيير سوف مسؤولاً عن الجانب المالي، بينما أدار سليم المطبخ، للتأكد من أن كل طاجين خروف احتوى على قطع البرقوق"، يضحك لوك شرقي الذي استقل القطار من الجزائر إلى الدار البيضاء في عام 1951م، وأمضى أسابيع في النادي.

تبدأ الأوركسترا في عزف الموسيقى الشعبية المغربية والأغنيات المصرية، في كل ليلة عند العاشرة مساءً (عدا أيام الجمعة). سمح سليم للفنانين الشباب الطموحين باغتلاء المسرح لبضع ساعات. وحوالي منتصف الليل يسمع الزبائن صوتاً مألوفاً يهزم آذانهم: "أنتم حثالة العالم، العرق الأخير، أسوأ ما في الإنسانية"، ومن ثم يهبط الدرج المعدني الحلزوني، بينما الميكروفون في يده. كان سليم يعبر الحشد المولول، يداعب أصدقاءه ويُقبلهم، بينما يغني موالاً شرقياً مُستغرقاً في النوستالجيا سواء كان في بدلة سهرة سوداء، أو بزي أمير شرقي بثوب من الآساتان، أو ماتادورا إسبانياً بسرwal ذي خيوط ذهبية، وجوارب تبلغ منتصف الساق، وقلنسوة، "يا حسرة على ديك ليام"، حتى يبلغ المسرح، ليشدو أغنيته المميزة "سيدي حبيبي فين هوا".

كان سليم يغني لساعات متواصلة، يمزج بين العربية المغربية والمصرية، والفرنسية، والإسبانية. يتذكر مورييس المديوني، "كان سليم بركاناً على المسرح! ينزل على السلم أثناء الغناء، يتجول في المكان، ينظر إلى عيون المرأة، ثم عيون زوجها. ويلعن الجحيم في وجه كل من يجروء على الحديث بينما يغني". طار لوك شرقي، لين مونتي وبلان بلان (أليير رويمي) من شارع دي لا هوشيتي في باريس للأداء في ملهى سليم. أما عمالقة الموسيقى العربية الحديثة، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، فقد أتوا من مصر وشهدوا على عصر الدار البيضاء الذهبي. اليوم عند السؤال عن "الديك الذهبي"، يتسم زبائنه في خمسينيات القرن العشرين وهم يقولون "يا حسرة". يستعيدون تلك الليلة عندما وقعت عينا سليم على فتاة أمريكية بينما يتسكع على خشبة المسرح، ليشرع المُغني العاطفي بالغناء للأمريكانية، مرتجلاً "العين الزرقا"، التي من شأنها أن تصبح واحدة من أغنياته الخالدة. يتذكر ميشال كاكون، وهو رجل أعمال عمره 74 عاماً نشأ في الدار البيضاء، تلك الليالي في منتصف الخمسينيات. "نصل المكان عند التاسعة مساءً ونغادر في الصباح. وفي كل ليلة تقريباً ينتهي الأمر بسليم عازفاً على الدربة".

تتردد هذه القصة كثيراً: كان سليم مطرباً، ولكنه عازف إيقاع بارع. قبل ساعة الفجر بقليل كان يمسك بدربكته الموشاة بالذهب والسيراميك تحت إبطيه ويركع على ركبتيه، ويضرب الآلة بشغف حتى ينفجر جلدّها، بينما يهتف الحشد بعنف. ويتم استبدال جلد الدربة استعداداً لعرض الليلة التالية.

في أوائل الستينيات أُغْلِقَ ملهى "الديك الذهبي" فجأة. لا أحد يعرف السبب: يدّعي البعض أن حريقاً دمر المكان، بينما يقول آخرون إن سليم قد حقق مسعاه، وهو الشهرة في أرجاء المنطقة المغاربية. هذا التوقف المفاجئ وغير المبرر أضاف الكثير إلى أسطورة الرجل. عاد سليم إلى فرنسا وبدأ تسجيل

الأغاني مرة أخرى - أغاني عن الحب والفراق، والأرض المفقودة؛ معظمها باللغة العربية تروي عن الليالي السحرية التي قضاها في الدار البيضاء، وطنجة، وتونس. أغلفة ألبومات تلك الفترة التي سجلها مع بوليدور، مُغرقة في التفاصيل الشرقية. يُظهر سليم على غلاف ألبوم "دورت الصحرا" جالساً على الأرض في ثوب وردي وآلة العود في يده، وبجانبه صندوق كنز مُغطى برداء حريري أسود، بينما زوج من النعال ذات ألوان سوداء وذهبية تبرز من تحته. يظهر غلاف "سليم هلالى أون بابليك" المُغني في روعة استشرافية كاملة: ممدداً على سرير مكتظ بالوسائد، يقابله بساط منسوج عليه طيور وطاووس، بينما سليم حافي القدمين، مزداناً بثوب أحمر من الساتان مع طية صدر ذهبية، ويظهر جزء من ساقه.

كان سليم منفتحاً على جنسانيته وحبّه للرجال أكثر من هويته الدينية، حيث كان يستمتع بالفضول، بل حتى يُشجّع، البحث عن خلفيته ومزاعم تحوله إلى الإسلام؛ يصوم رمضان في حضرة المسلمين، ويصوم يوم الغفران (يوم كيبيور) وسط اليهود. في واحدة من أغنياته المُفعمة بالحيوية "ارجع لبلادك"، المكتوبة في الستينيات مع تزايد الهجرة من شمال أفريقيا، يناشد سليم من يغادرون بلادهم للعودة. يتجادل المستمعون حتى يومنا هذا حول ما كان يقصده عندما غنى "قل أنا عربي مسلم". هل كان يخاطب اليهود الذين يغادرون المنطقة المغاربية صوب إسرائيل؟ لكن حينها لم تكن الهجرة الإسلامية قد بدأت بحدية بعد. يتمتع سليم باهتمام متجدد اليوم لأنه كان أيضاً الأكثر توهجاً وسط تلويحة من الموسيقيين العرب اليهود. كان فنه متفاخراً، ولكنه كان أيضاً مليئاً بقلق عميق حول الذات والوجود. سجّل أغنية "أمي البديشية" باللغة العربية بعد وقت قصير من غناء توم جونز نسخة إنجليزية ضمن ألبومه لعام 1967م (Live at the Talk of the Town). رغم أن سليم تفوق على المغني الويلزي بتصوير فيديو للأغنية، يُعتبر الأول من نوعه في التاريخ الفرنسي. يظهر سليم في الفيديو وهو يرتدي بذلة سهرة سوداء يمشي بين الصخور والجسور داخل الاستوديو؛ بينما نستمع في أسلوب أوبرالي لتنهيدة كمان كئيب مثل صوته يتوق إلى الماضي.

في مذكراته، كتب المُغني والمسرحي الجزائري محي الدين بشطارزي، الذي توفي في عام 1992م، عن سليم أنه "صاحب أجمل صوت رجالي عربي في حقبة ما بعد الحرب". كان الأخير قد "اكتشف" سليم في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي، وشاهد حفلاته الجماهيرية على مَرِّ العقود. غنى سليم بشكل حصري تقريباً باللغة العربية، وفاز أيضاً بمديح أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب. كما دخلت براعته قلوب العديد من المستمعين العرب، حيث امتزجت مفردات أغنياته مع حديثهم اليومي. ومع اندلاع الحروب بين العرب

واليهود، كان يكرر هذا المقطع الأندلسي الذي يعود إلى العصور الوسطى، آملاً أن يتمكن الشعر من التوفيق بين الشعبين: "إن أطفال الأندلس يفهمون أن المسيحيين هم الذين لا يعرفون إلا الحرب". في أوائل السبعينيات سجل سليم نسخة مذهلة لأغنية "Los Piconeros" الكلاسيكية التي شددت بها في الثلاثينيات من القرن الماضي مغنية الفلامنكو إميريو أرجنتينا. أعجب محبوه بلكنته الإسبانية، لكنهم أندھشوا من اختياره أغنية لفنانة أرجنتينية سافرت إلى ألمانيا عام 1938م، وغنت أمام هتلر، ووصفت الفوهرر بأنه "رجل شديد الجاذبية". ردّ سليم: "لا يعرف قلبي أي آفاق أو حدود، إن أغنية الغيتار تُغيّر روحي.. وطني هو الحب".

تلاشى سليم من الرأي العام. في أوائل ثمانينيات القرن الماضي انتقل هو وبيير إلى قصر في مدينة كان على ساحل المتوسط، مزخرفاً بديكور ألف ليلة وليلة مثل ملهاة قي الدار البيضاء، وحديقة يتجول فيها اثنان من النمر الأليفة. في أواخر عام 1992م ذهب بزيارة إلى المغرب وتونس لأداء عروض في الأفراح الخاصة وحفلات الزفاف، لكنه لم يقم بمقابلات صحفية وطلب عدم تصويره. أراد للناس أن يتذكروه بسنوات مجده. تلاشت نجومية سليم، على مدار عشرين عاماً تقريباً، من عام 1980م إلى عام 2000م، عندما شاخ الجيل الذي نشأ على موسيقاه. ثم بين ليلة وضحاها بدأت موسيقاه تجذب انتباه جيل الشباب. أغنية "سيدي حبيبي"، وهي أغنية شعبية قديمة اشتهرت بصوت سليم، صدر لها نسخ عديدة بلغات مختلفة، بما في ذلك نسخة لمغني الروك مانو تشاو. في عام 2005م، بعد بضعة أشهر من وفاة هاللي، نُظّم مهرجان موسيقي في المغرب للاحتفال بإرثه. يكتشف الشباب الآن سليم ويرون فيه رجل الوقت الحاضر: زرياب العصر الحديث، مقاوم النازية، رجل مُفعم بالحيوية، صريح في مثليته الجنسية، وتجسيد للكوزموبوليتية الأندلسية. يعرض فيلم "الرجال الأحرار" شخصية سليم وهو يؤدي في ملهى أندلسي، متحدياً المرسوم الصادر في يونيو 1942م والذي يمنع اليهود من اعتلاء المسرح، ثم يغوي رجلاً يرقص أمامه على المسرح تحت أنظار مسؤولي حكومة فيشي. يعتقد شباب اليوم الذي يعيد اكتشاف سليم أن موسيقاه قد تساعد بطمس الحدود التي رسمها المتعنتون. ولا ضير أن المغني ظل متسامياً عن الصراع المسلم اليهودي، فهو لم يذهب إلى إسرائيل أبداً، وعشق شباب الضواحي.

أثارت محاولات إحياء سليم ردود فعل متباينة. في المغرب - حيث كان سليم جزءاً من المشهد الموسيقي منذ الإنزال العسكري الأمريكي - اتفق المصلحون الليبراليون مع نظرائهم في فرنسا: إن إحياء موسيقاه قد يساهم في زيادة الوعي بتاريخ العلاقات بين العرب واليهود، وأن يقاوم تهمة

التعاون مع الاحتلال، ويُحسّن صورة البلاد، ويُعزّز السياحة، ويبني علاقات أفضل مع أوروبا. ومع ذلك، تعتقد النخبة الثقافية التي تعتبر نفسها حارسة الموسيقى الأندلسية، أنه على الرغم من أن سليم يبدي تعاطفاً أكثر من إنريكو ماسياس، فإنه لا يزال مغنياً شعبياً، ولا يمكن مقارنته بعمالقة مثل عبد الكريم الرايس، الذي حفظ ونقل عشرات الأغاني التي ترجع إلى موسيقى النوبة الأندلسية في العصور الوسطى. قال الراحل سيمون ليفي، أستاذ الدراسات الإسبانية في جامعة محمد الخامس بالرباط، "لا أفهم هذا التركيز على سليم هلال، لماذا نحتفل بمغني ملهى شعبي لم يسبق له أن كتب أغنية واحدة عندما يكون لدينا ليلي العباسي وسامي المغربي؟". وبالطبع فإن المحافظين دينياً عبر المنطقة المغاربية يترددون في أن يصبح مغني كباريه مثلي رمزا للحضارة الأندلسية.

يأتي معظم الاعتراض أيضاً من حقيقة أن الإحياء الحالي للموسيقى اليهودية العربية ينظر إليه كمحاولة لاسترضاء المحافظين الجدد في أمريكا وفرنسا. كان كتاب روبرت ساتلوف "بين الخيار"، الصادر عام 2006م، هو من عرّف القراء الفرنسيين والأمريكيين بقصة سليم هلال، واقترح أن صديقه محمد الكامل كان متعاوناً مع الاحتلال، إلا أن اهتمام الشباب المسلم بالموسيقى العربية اليهودية كان قد بدأ قبل عقد من الزمن تقريباً بسبب تزايد التوتر بين المسلمين واليهود في أوروبا، والاختفاء البطيء للمجتمعات اليهودية في شمال إفريقيا. في يوليو 1997م، نشرت المجلة الأسبوعية المغربية ماروك إيبدو عدداً بعنوان: "لماذا يهجرنا يهودنا؟"، متسائلين عن أسباب انخفاض الجالية اليهودية في البلاد من ثلاثمائة ألف عند الاستقلال عام 1956م إلى نسبة تدنو من 5% من ذلك الرقم. لكن مع الحملة المستمرة لإيجاد "شندلر مسلم"، والحصول على تعويضات لليهود في شمال أفريقيا، ليس من المستغرب أن الاهتمام الأمريكي والفرنسي الحالي بالموسيقى العربية اليهودية يعتبر محاولة أخرى من جانب اللوبي الإسرائيلي للتدخل في الحياة الموسيقية للعالم العربي. (يتذكر الناس كيف أوقفت مكدونالد في يوليو 2001م إعلان المطرب المصري شعبان لساندويتش "ماك فلافل" بعد أن احتجت اللجنة اليهودية الأمريكية على موقفه المعادي لإسرائيل). بينما أدى النزاع المستمر بين الجزائر وفرنسا حول وجوب اعتذار الأخيرة عن الاستعمار، وكذلك دور الموسيقى إنريكو ماسياس في المسألة، إلى أن ينظر الكثيرون لإحياء هذه الموسيقى بعين الريبة. في عام 2010م نشر المؤرخ الجزائري فوزي سعد الله كتاباً مشاكساً يتساءل عن السبب في توجيه الكثير من الاهتمام للموسيقين اليهود الجزائريين الذين نسوا اللغة العربية وانفصلوا عن جذورهم الثقافية لعقود، في الوقت الذي يوجد فيه عشرات

الموسيقيين المسلمين في جميع أنحاء المنطقة المغاربية يقودون الأوركسترا الأندلسية.

في فرنسا أصبحت هذه الموسيقى نقطة خلاف بين الإسلام الليبرالي والإسلام اليساري، ويرجع ذلك جزئياً إلى كيفية استخدام أفلام مثل "الغوسطو" و"الرجال الحرار" للترويج لـ"التناغم بين المجتمعين" و"تفكيك جذور التطرف". تقول صافيناز بوصبيعة حول فيلمها "الغوسطو"، "لا يتناول فيلمي موضوع المصالحة. صنعتُ الفيلم لأنني وقعت في حب هؤلاء الفنانين وشغفهم بالموسيقى. ومع ذلك يواصل الصحفيون والنقاد وصفه بأنه (مشروع للمصالحة). إذا أدى ذلك إلى المصالحة حسناً - وإن لم يحدث فلا مشكلة".

ترى قيادة "حزب أهالي الجمهورية" في الفن جزءاً هاماً من مشروع إنهاء الاستعمار. وغالباً ما يكتب ناقد الموسيقى المنتمي للحزب عن الموسيقى - خاصة الموسيقى الأندلسية - باعتبارها ضرورية لتمكين المسلمين الأوروبيين، لكنه لا يرى سبباً لإبراز البعد العربي اليهودي للموضوع. تقول حورية: "المسلمون الفرنسيون مهووسون باليهود بصورة فيها كثير من المبالغة". "ماذا لو قام المسلمون بحماية اليهود خلال الهولوكوست؟ هل علينا صنع أفلام عن ذلك؟ والآن تُعرض أفلام مثل "الرجال الأحرار" و"الغوسطو" في الضواحي للترويج لفكرة أن المسلمين كانوا متسامحين، ولكنهم تغيروا". يرد المسلمون الليبراليون الفرنسيون بأنه يجب رواية قصة سليم هلالي لمواجهة التصورات السائدة، ويجادلون أن التحالفات مع المنظمات اليهودية الليبرالية ضرورية لإدماج المسلمين في المجتمع الفرنسي.

تلوح أفكار وتاريخ حركة الحقوق المدنية الأمريكية في أفق هذه المناقشة، حيث يناقش النشطاء الطريق الذي يجب أن يُسلك، بايارد روستين أو هارولد كروز. بالنسبة إلى دعاة الاندماج، يرى المعجبون بروستين في التحالف بين القوى الفاعلة في حراك الحقوق المدنية السود واليهود بمثابة سمة أساسية من سمات النضال الأمريكي، وهو ما أبقى النشطاء المناهضين للصهيونية تحت السيطرة، ودفع بنجاح في تمرير التشريعات. لكن نشطاء العرق غير مقتنعين بهذا الجدل. في هذا الوقت يراقب كلا الجانبين عن كثب الأحداث عبر المحيط الأطلسي. يقول اليساريون إنه حتى في الولايات المتحدة نادراً ما نجحت الائتلافات بين المسلمين واليهود؛ ورغم أن الإمام فيصل عبد الرؤوف من مدينة نيويورك نأى بنفسه عن المسلمين المحافظين وتحالف مع جماعات يهودية ليبرالية، فقد عملت منظمات صهيونية محافظة على منع قيام مسجده "غراوند زيرو"؛ كما أن محاولة معلمة من بروكلين إنشاء

مدرسة ثانوية عربية أمريكية، "أكاديمية خليل جبران"، هُزمت بسبب حملة "أوقفوا المدرسة"، رغم دعم الزعماء اليهود الليبراليين. وعندما أُقيمت مؤسّسة المدرسة ديبى المنتصر من منصبها في أغسطس 2007م، قال الحاخام مايكل بيلي، زعيم محلي ذو نزعة تقدمية داعم للمدرسة، إن الحملات التي تنم عن كراهية الأجانب ستنتج ببساطة مجتمعا عربيا أمريكيا أكثر عزلة "مثل فرنسا". في هذا الوقت كان الناشطون في فرنسا يراقبون الدراما قي بروكلين ويرون عبثية تنظيم حوار الأديان.

يتردد صدى انتقادات "تفكيك الاستعمار" الموجهة للسياسة الصهيونية بعمق بين الشباب المسلم، لأن المنظمات الصهيونية تُنمي سياسات ضارة بالفلسطينيين، وتتدخل في سياسات شمال أفريقيا لتدعم رؤساء الدول "المعتدلين"، كما تطالب بإزالة القادة "الراديكاليين"، ودعم غير العرب ضد العرب في منطقة الصحراء الكبرى، وغيرها. لكن دعاة الاندماج يحذرون من أن الانتقاد - بل الحديث علانية عن الصهيونية - سيزيد من عزلة الجالية المسلمة. "تسعة وتسعون بالمائة من الأمريكيين يؤمنون بالصهيونية. إذا انتقدنا الصهيونية سنبعد على الفور هؤلاء المتعاطفين معنا. إننا نضع القضايا الدولية فوق الاهتمامات المحلية، وبالتالي سنظل فاقد الصلة بالسياسة الراهنة"، كما يقول مازن الأصبحي، وهو محام مقيم في شيكاغو وسياسي ينتمي للحزب الديمقراطي، عَمَل مسؤولاً عن تواصل أوباما مع المجتمع الأمريكي المسلم في عام 2008م.

ينبذ دُعاة "تفكيك الاستعمار" هذه المراوغة السياسية والفكرة القائلة بأن دعم اليهود والتحالف مع المنظمات الصهيونية (الليبرالية) ستساعد في دمج المسلمين ضمن التيار الرئيس. وبتريديهم أفكار هارولد كروس الذي رفض فكرة "اليهودي الأمريكي كوسيط سياسي بين الزوج والأنجلوسكسون"، تبني نشطاء العرق الفرنسيين نظرة مبهمة مماثلة بخصوص اليهود العرب كـ "جسر"، ورأوا في هذه الائتلافات وسيلة لتقسيم المجتمع الإسلامي وتحويل الأجندة الإسلامية إلى أهداف محددة من قبل الخارج. جزء من هذا التحذير جاء كردّ فعل على أنشطة "تفكيك التطرف" التي تقوم بها المنظمات اليهودية الأمريكية في الضواحي حول قضية دارفور، حيث يؤخذ الشباب المسلم في رحلات إلى أوشفيتز وياد فاشيم، وهي مبادرات تهدف، وفقاً للفرع الفرنسي للكونغرس اليهودي الأمريكي إلى "تجاوز التعاطف ما بعد الاستعماري". ولكن على نطاق أوسع، فإن الفرق الرئيس بين المسلمين الليبراليين والمسلمين اليساريين في أوروبا هو أن الليبراليين، مع جميع تحفظاتهم (الخاصة) حول السياسات الصهيونية، يرون الكثير مما يمكن الاستفادة منه بخصوص الأسلوب اليهودي في التعامل مع مسألة الاندماج.

يدرس القادة المسلمون الليبراليون - وصانعو السياسات - عن كُتب تاريخ التحرر اليهودي، كما يمعنون النظر في المؤسسات التي أنشئت خلال القرن التاسع عشر لربط السلطات الدينية اليهودية بمؤسسات الدولة. (كثيراً ما رأى رئيس الوزراء الفرنسي السابق ميشيل روكار، الذي أنشأ أول مجلس شورى إسلامي في الدولة الفرنسية، توازياً بين وضع المسلمين الحالي وموضوع اليهود في فرنسا في القرن التاسع عشر، وسلط الضوء على أهمية دفع نابليون للسلطات الدينية اليهودية لجعل القانون المدني أعلى من القانون الديني).

من ناحية أخرى، يُفضّل دعاة "تفكيك الاستعمار" حراك الحرية السوداء، وسيتشهدون بتعريف العالم البريطاني ستيفارت هول للشتات على أنه أكثر ارتباطاً بهُجّة هوية ما بعد الاستعمار من فكرة "قبائل مبعثرة لا يمكن ضمان هويتها إلا في علاقتها مع أرض مقدسة يجب العودة إليها مهما كان الثمن، حتى لو عني ذلك رمي آخرين في البحر". سوف يستعيد مفككو الاستعمار أصوات باحثين وزعماء أفارقة أمريكيين كانوا متعاطفين بشكل علني مع مسلمي فرنسا، مثل جيمس بالدوين الذي عاش في فرنسا قبل نصف قرن. سيتم استدعاء السلطة المعنوية لهذه الأصوات السوداء لتعزيز انتقادات "تفكيك الاستعمار" لأفكار الاندماج، والعلمانية، والإمبراطورية. ليس من المستغرب ألا يرى نشطاء العرق أهمية كبيرة في استدعاء أصوات شعراء الأندلس من العصور الوسطى، أو المستشرقين الألمان، أو المطربين العرب اليهود كشهداء على تسامح المسلمين. في الواقع يسخر هؤلاء النشطاء من كل هذا البحث عن التعايش والنوستالجيا الأندلسية. "يأتي هذا التوق الأندلسي من عقدة النقص"، تقول حورية بوتلجة. "نريد كمسلمين الادعاء بأن الحضارة الأندلسية تتناسب مع العظمة المفترضة للحضارة الغربية. نحن نفضل ترسيخ تاريخنا في الزمن الأندلسي أو العصر الفرعوني، وهي حضارة يعترف بها الغربيون، بدلاً من الاعتراف بأننا قادمون من قرية صغيرة في مالي".

يثير التاريخ العابر للقومية الارتباك؛ فهو يزعزع السرديات الوطنية والمساومات التي جاءت بشق الأنفس بين الحكومات والمجموعات الاجتماعية. في جميع أنحاء أوروبا تطفح سياسات مُشاكسة حول ذاكرة الحرب العالمية الثانية والماضي الاستعماري. في ديسمبر 2011م اعتذرت هولندا لإندونيسيا عن المذابح التي ارتكبت في عام 1947م خلال حرب الاستقلال. وبعد بضعة أشهر رفض الرايخستاغ اقتراحاً قدمه الحزب اليساري الألماني يدعو الحكومة الألمانية إلى الاعتراف بالمذابح التي ارتكبتها القوات الألمانية في ناميبيا منذ قرن مضى واعتبارها إبادة جماعية.

بين عامي 2001م و2007م، رفض المجلس البريطاني المسلم إحياء ذكرى يوم محرقة اليهود، ودعا بدلاً من ذلك إلى يوم تذكاري للإبادة الجماعية يكرم الموتى في البوسنة، فلسطين ورواندا. رفض مسئول حكومي من "لجنة المساواة العرقية" هذه المطالب، قائلاً إنها تخاطر بتميع رسالة هذا اليوم باللجوء إلى "وفرة من التاريخ". وانتقد المسلمون البريطانيون الليبراليون المجلس الإسلامي البريطاني بشدة، ووصفوا المقاطعة بأنها "بغضة أخلاقياً" (وغبية استراتيجياً). يقول دعاة الاندماج الليبراليين في بريطانيا، مثل نظرائهم الفرنسيين، إن على المسلمين تقديم تقدير لا لبس فيه لمحرقة اليهود، ولكنهم يطالبون الحكومة بتكريم المسلمين الذين حاربوا النازيين، مثل نور عنايات خان، وهي امرأة مسلمة هندية كانت جزءاً من العمليات الخاصة التابعة لتشرشل، قبل أن يُلقى القبض عليها وترسل إلى داخاو.

مع تكثيف هذه الحروب الثقافية، ليس من الواضح ما إذا كانت ذاكرة الحرب العالمية الثانية ستتسع لتشمل أحداثاً خارج أوروبا أو إذا ظهرت مخطوطات ذاكرة أخرى إلى جانب أحداث الحرب. ينظر مسؤولو الدولة في كيفية الرد على هذه الأسئلة؛ كثيراً ما يكون رفض الإنكار السلفي أسهل من الرد على حركات العرق الجديدة التي تعتبر المحرقة ذروة سياسة استعمارية أعادها الرايخ الثالث إلى أوروبا - تيمناً بفانون وحنّا أرندت. كان المؤرخ البروفيسور في جامعة أكسفورد تيموثي غارتون آش، أحد المؤلفين المشاركين في تقرير مجلس أوروبا حول التنوع والاندماج، قد أوصى بإلغاء جميع قوانين الذاكرة (التي تجرم إنكار المحرقة والإبادة الجماعية للأرمن)، ولكن رفض هذا المقترح من قبل المفوضية الأوروبية، التي رأت أنه "هراء" وطالبت بإعادة كتابة التاريخ الأوروبي بطريقة تظهر القرون الوسطى كعصور تعايش وتبادل فكري، وصلت فيها الفلسفة الكلاسيكية أوروبا الغربية عبر الأندلس.

"الكثير من التاريخ"

"إنك تنظر إلى آخر الموهيكيين"، يقول موريس المديوني في إشارة إلى نفسه، لوك شرقي وروبرت كاستل. الثلاثة هم الوحيدون الأحياء من العصر الذهبي للموسيقى العربية اليهودية التي ظهرت في قصبات الجزائر بعد الحرب قبل أن تهاجر إلى ملاهي فرنسا الليلية. منذ عام 2008م يتجول الثلاثة الذين بلغوا العقد الثامن من دون توقف مع فيلم "الغوسطو"، حيث يؤدون أمام جمهور ابتاع جميع التذاكر في أوروبا، آسيا والولايات المتحدة، إلى جانب فرقة موسيقية من أربعين عضواً تضم بعض أكبر الأسماء في الموسيقى الجزائرية المعاصرة. تُفتتح كل حفلة بصلوات يتلوها حاخام يهودي وإمام مسلم، يقرأ فيها الحاخام صلاة جزائرية قديمة تطلب من الله

أن يحمي اليهود والمسلمين من عدوهم المسيحي. ثم يغني كاستيل وهو يعزف على الكمان الذي ورثه عن أبيه نغمات كتبها ليلي العباسي قبل سبعين عاماً تقريباً. ويؤدي شرقي على الغيتار مقطوعات ألفها في عام 1951م عندما قام بجولة في المغرب مع سليم هلال. لكن مديوني هو من يستولي على العرض. يُقدّم باسم "شيخنا مديوني"، ويبدأ عزف البيانو - الذي يحظى بالاحترام لأنه الأقدم في الموسيقى الأندلسية حالياً - بأداء صولو طويل لمعزوفة نوبة أندلسية على البيانو، ثم يبدأ بالأغنية التي اشتهر بها "أهلاً وسهلاً". يأخذ مديوني - قائد الاوركسترا الفعلي في فيلم الغوسطو - الحضور في رحلة عبر المغرب الكبير لمدة ساعتين، ينشد خلالها أغنيات عن الحب والحرمان من جنوب المغرب إلى شرق تونس. ويختتم بأغنية حسين السلاوي "لما ريكان" التي تسخر من السلطة الأمريكية، فيجعل الجمهور المتحمس يقف على أقدامه تلا كل. يؤدي حماس مديوني المتعطش، ورعشاته الفاتنة، وعزفه المغالي، إلى جعل الحشد الذي على دراية تامة بغطرسه وهوس ونفاق القوة الأمريكية، يغرق في مزاج صاخب. يردد الجمهور وراءه: "أوكي، أوكي، يلا، باي، باي".

في صباح كل أحد، ولعقودٍ خلت، يخرج المديوني من شقته في شارع برير في مدينة مرسيليا ويتمشى -عاقداً يده خلف ظهره- حتى مقهى لا ساماريتين في الميناء القديم بالمدينة، على الجانب الآخر مباشرة من سوق السمك. يلتقي هناك بالموسيقيين والباحثين الشباب الذين يأتون من الجزائر للتحديث معاً عن ماضي بلدهم. (يبتدر حديثه: "لقد طردنا الإسبان في عام 1492م - نحن المسلمين واليهود - وكل ما أخذناه من إسبانيا كان حقيبة من الأغاني.") لم يعد المديوني إلى الجزائر، منذ أن غادر وهران في عام 1962م، وتعهدت بعدم القيام بذلك؛ مع ذلك كان نشيطاً جداً في المشهد الموسيقي الجزائري، حيث عمل مع فنانين في حركة التجديد الحالية، مثل الشرقيات (ذا أوزينتالز)، وهي فرقة تتكون من ثلاث نساء، أصدرت في عام 2004م ألبوماً بعنوان "ذا ميوزك هال أوف ألجيريا"، يضم أغاني لين مونتي، ليلي بونيش والمديوني نفسه؛ تعاون أيضاً مع شاب خالد في أغنيته إنها الحياة (سي لا في) التي أطلقها في عام 2012م تكريماً لسليم هلال ورينيه بيريز. اكتسب المديوني وزملاؤه المزيد من الاهتمام منذ إطلاق فيلم "الغوسطو".

بعد الكثير من الجدل السياسي تم عرض فيلم "الغوسطو" في الجزائر العاصمة في سبتمبر 2012م. حصلت المخرجة صافيناز بوصبيعة على تصفيق حار عند نهاية الفيلم، ولكن خلال المؤتمر الصحفي وقف عبد القادر بينداماشي، وهو مسؤول في وزارة الثقافة ومؤرخ السياسة الموسيقية لـ "جبهة التحرير الوطني الجزائرية"، وهاجم الفيلم بزعم عدم دقته التاريخية.

تقول صافيناز: "قال إن الفيلم مبني على الأكاذيب، وأنه أعطى انطباعاً بأن موسيقى الشعبي اخترعها اليهود؛ كما تسائل لمَ كان على الفيلم أن يذكر أن علي لا بوائت كان قواداً؟". استفادت الحكومة الجزائرية من الاهتمام بالموسيقى الأندلسية الذي ولده فيلم "الغوسطو" في الداخل والخارج على الرغم من مشاعرها المتناقضة حيال الفيلم، وأنشأت متحفاً جديداً للموسيقى الشعبية في الجزائر العاصمة، ومهرجاناً للفن الشعبي، بل وأوركسترا وطنية للفن الشعبي.

إن الجهود التي تُبذل الآن في شمال أفريقيا لاستعادة الموسيقى الأندلسية - ولا سيما الأغنيات اليهودية العربية - تذكرنا بشكل مدهش بالحركات التي سعت إلى الحفاظ على هذا النوع وسط لغط سياسي هائل منذ قرن من الزمان. إذا كان الوطنيون في عام 1904م مثل إدمون يافيل يكتبون ويوزعون نسخاً مطبوعة من أغنيات النوبة لإلهام حركة قومية وتاريخية مُترسّخة في إسبانيا الإسلامية، يقوم ناشطون اليوم بتحميل أسطوانات فونوغراف قديمة على يوتيوب، ويكتبون المدونات، ويصنعون أفلاماً وثائقية عن الموسيقى العربية اليهودية في فترة من الاضطراب السياسي على أمل أن هذه الموسيقى، التي تبرهن على الصداقة الموسيقية بين المسلمين واليهود، يمكن أن تستحث نموجاً قومياً متعددًا.

ظهرت الموسيقى باعتبارها سلاحاً في النقاشات الجارية حول الهوية والذاكرة الوطنية في شمال أفريقيا. تلاحظ جودي بارسالو، أن النشاط في مصر يضغطون من أجل إصلاح الكتب المدرسية وإنشاء متاحف جديدة، مستخدمين الروايات التاريخية و"تخليد الذكرى" للترويج لأجندتهم في اللحظة التي تحدّ فيها الدولة من الوصول إلى المواد التاريخية (الكتب، الصور، الفيديو والتسجيلات الصوتية) التي قد تسبب المزيد من الجدل في تفسير التاريخ المعاصر للبلاد. إذا رفض مسؤولو الدولة جعل هذه التسجيلات الحساسة متاحة للجمهور، وامتنعت المحطات المملوكة للدولة عن بثّ أغنيات الفنانين اليهود القومية من العقود الماضية لأسباب سياسية، سيتجاوز أفراد جماعات المجتمع المدني والناشطين الدولة، وسينشرون مقاطع على الإنترنت تعود إلى نصف قرن لتحدي التأريخ الرسمي. بالنسبة للجيل الأصغر الذي لم يقابل اليهود العرب إلا من خلال موسيقاهم، فإن أسطوانات الفينيل التي ترجع إلى خمسينيات القرن الماضي، والتي يتم تحميلها الآن على موقع يوتيوب، توفر نافذة لماضٍ رائع وإشكالي. يرى النشطاء الجزائريون والمغاربية الشباب في كل أغنية سجلها ليلى العباسي أو سامي المغربي مستودعاً للذاكرة يمكنها تقديم أدلة على ما حدث لحظة تأسيس دولة ما بعد الاستعمار.

إن الاهتمام بالموسيقى العربية-اليهودية عبر شمال أفريقيا اليوم ينطوي على سؤال أكبر يثير تأملات ذاتية كثيرة: لماذا اختفت مجتمعات يهود شمال أفريقيا البالغ عمرها ألفي سنة؟ إلى جانب المصنّفات الموسيقية الجديدة والأفلام التجارية التي تحقق في تاريخ الكباريه في باريس، تُنشر مجموعة من الكتب والأفلام الوثائقية حول مغادرة هذه المجتمعات. تعمل الحركات الديموقراطية الآن على التدقيق في الرواية القائلة إن اليهود في المغرب، الجزائر وتونس، كانوا صهاينة مُلتزمين، وهاجروا بشغف إلى إسرائيل (مثل السرد القائل إن اليهود العرب بعد حرب 1967م كانوا كبش فداء وأُجبروا على الفرار). لا ينكر هؤلاء النشطاء الشباب أن اليهود تعرضوا لرد فعل عنيف، لكنهم يريدون أن يروي السجل التاريخي الحقائق: ما هو الدور الذي لعبته الأنظمة المحلية في هذا الرحيل؟ لماذا لم تحم الأنظمة ما بعد الاستعمارية في المغرب وتونس المجتمعات اليهودية من الاضطهاد؟ ما الدور الذي لعبته إسرائيل في إثارة العنف ضد المجتمعات المحلية اليهودية العربية، مثل عملية شوشانة سيئة الذكر عام 1954م، عندما زرع عملاء إسرائيليون قنابل في القاهرة لتأخير الانسحاب البريطاني والفرنسي من قناة السويس، ومن ثمّ تسريع هجرة اليهود؟ ما الدور الذي لعبته المنظمات الصهيونية الأمريكية والفرنسية خلال هذه الفترة من الاضطراب؟ هل حصل رؤساء الدول على دفعات مالية من المنظمات اليهودية الأمريكية في مقابل السماح للمجتمعات اليهودية المحلية بالمغادرة إلى إسرائيل؟

تحدث هذه المناقشات حول الأقليات والهوية الوطنية في الوقت الذي تعمل فيه السعودية وقطر ضد حركات الشباب اليسارية مستخدمة نزعة إسلامية ليست مؤيدة للموسيقى وغير مغرمة بغير المسلمين. تثار تساؤلات حول كيفية تدخل المنظمات الصهيونية في مرحلة ما بعد الاستقلال في شمال إفريقيا، علماً أن هذه المنظمات، التي لا تتأثر بالتغيير السياسي الحالي، تشرع في جولة جديدة من التدخلات. مثل معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، الذي ما زال يحاول جعل المحرقة جزءاً من الذاكرة الوطنية في شمال أفريقيا، وهو الآن متورط في نزاع مع سياسيين تونسيين حول مادة في الدستور التونسي حول تطبيع العلاقات مع إسرائيل. في خريف 2012م، كان المؤتمر اليهودي العالمي يضغط على الأمم المتحدة للحصول على تعويضات لليهود من الدول العربية، في حين قطعت الحكومة العراقية تعاونها الأركيولوجي مع الولايات المتحدة بعد أن رفضت وزارة الخارجية الأمريكية إعادة محفوظات السجلات التاريخية الخاصة بالجالية اليهودية في العراق التي عثرت عليها القوات الأمريكية في مقر رئاسة الشرطة في بغداد عام 2003م ونقلتها جواً إلى واشنطن. يتطرق الجدل حول من يمتلك التاريخ العربي اليهودي للموسيقى بالطبع. اعترض ناشطون طلاب في المغرب على

قيام باحثين من لجنة التوزيع المشتركة اليهودية الأمريكية بشراء مجموعات من السجلات القديمة وأشرطة الكاسيت لفنانين يهود مغاربة، ما أدى إلى رفع الأسعار محلياً وحرمان الطلاب من هذه المواد الأولية.

إن الماضي الذي طال صمته يطالب الآن بالاهتمام على جانبي المتوسط. وقد بدأ يظهر من جديد غرافيتي يحمل شعار "الحقبة أو الثابوت" الذي كان موجهاً فيما مضى ضد المستعمرين الأوروبيين في الجزائر داخل أحياء المسلمين. يحاول فرانسوا هولاند تهدئة "حروب التاريخ". فقد صرح في يوليو 2012م، بأن فرنسا تتحمل مسؤولية قتل الآلاف من اليهود الذين اعتقلتهم الشرطة الفرنسية في فرنسا وتم ترحيلهم إلى معسكرات النازية. في 17 أكتوبر 2012م، بعد واحد وخمسين عاماً بالضبط من إطلاق الشرطة النار على مسيرة مؤيدة للاستقلال في باريس، مما أسفر عن مقتل مئتي جزائري، قام هولاند بتكريم الضحايا "الذين قتلوا خلال القمع الدموي". لكن حزب "الاتحاد من أجل حركة شعبية" انتقده على الفور بدعوى أنه يقوض "التماسك الوطني"، ويثقل كاهل الجمهورية بمزيد من الذنب والمسؤولية السياسية. ويستمر العداء. بعد إطلاق النار في تولوز قامت الحكومة الفرنسية باتخاذ إجراءات صارمة ضد الأئمة السلفيين، لكن تفجيرات التخريب المعادية للسامية تواصلت. كانت حورية بوتلجة تغادر مكتبها في معهد العالم العربي، بعد ظهر أحد الأيام في أكتوبر 2012م، عندما تعرضت لاعتداء من قبل أحد مقاتلي "رابطة الدفاع اليهودية". يتصادم متشددون "رابطة الدفاع اليهودية" الفرنسيون بانتظام مع الشباب المسلم و"حزب الفهود السود الجديد". وفي إحدى المناسبات، نظم حزب الفهود مسيرة إلى منطقة ماريه، في شارع Rue des Rosiers، على بعد أمتار قليلة من مكتبة بيرث ناخمان، بهدف التشاجر مع أعضاء "رابطة الدفاع اليهودية".

ليس من المستغرب عدم حصول فرقة "الغوسطو" على إذن لتقديم أداء بالجزائر في هذا المناخ. فالأداء العلني لفرقة مسلمة-يهودية بارزة قد يرمز إلى المصالحة. لكن طالما استمر استعباد الفلسطينيين، ولم تعرب الدولة الفرنسية عن ندمها على قرن ونصف من الهيمنة الاستعمارية - لتسييد اليهود على المسلمين، وشن حرب وحشية ضد "جبهة التحرير الوطني" - سوف تبدو إيماءة المصالحة كفعل سابق لأوانه بواسطة شرائح واسعة من الرأي العام الجزائري. ترى الحكومة الجزائرية فوائد رعاية حفلات "الغوسطو" في الخارج - في مركز كينيدي في واشنطن على سبيل المثال - لكن ليس في الجزائر العاصمة. تقول صافيناز: "تحدثت مع عشرات المسؤولين في وزارة الثقافة ووزارة الشؤون الخارجية. وفي يوليو 2012م، حصلت على موعد مع رئيس الوزراء، كان لطيفاً للغاية، وأثنى على عملنا، وقال إنه سيفكر في الأمر.

بمجرد أن غادرت مكتبه، اتصل مساعده، وقال إن الغوسطو يمكن أن يؤديوا في الجزائر، ولكن الأعضاء المسلمين فقط". خلال حفلهم التالي في باريس، استدعت صافيناز أعضاء الأوركسترا - جميع الموسيقيين الاثنيين وخمسين- بعد البروفة وأخبرتهم بعرض رئيس الوزراء. وتذكر قائلة: "قررنا التصويت. وصوت كل الموسيقيين بـ "لا". لن يؤديوا في الجزائر العاصمة دون زملائهم اليهود. جلست وبكيت".

هذا التصويت على الثقة، تأكيد الانتماء، كان عاطفياً للغاية بالنسبة للموسيقيين اليهود الثلاثة، وخاصة المديوني. عاد كاستل إلى الجزائر مراراً وتكراراً، وينوي شرقي العودة، لكن المديوني تعهد - منذ عام 1962م - بعدم العودة أبداً. ويقول: "أنا أعرف أن جيلي يحبني، لكنني لا أعرف عن الجيل الأصغر". لكن يبدو أن استعادة التواصل مع أصدقاء من الخمسينيات، وتمتن الروابط مع الموسيقيين المسلمين أثناء جولات "الغوسطو" قد خففت حدة موقفه. وصار يتحدث الآن عن زيارة الجزائر "من أجل أصدقائي الجدد".

يبدو هؤلاء الفنانون الثمانينيون رابطي الجأش بينما تدور السياسة حولهم - الثورات العربية، الحركات اليمينية في فرنسا، الإسلاميين والفهود السود. إنهم غير منزعين من أن أغاني المنفى اليهودي - التي سجلت تجاربهم الحياتية - تؤثر الآن إلى جيل مسلم أصغر سناً. وقف كاستل على خشبة المسرح، ووضع جاكيتته بين أسنانه، بينما حرك خصره؛ ووقف محمد الفرقاوي، عازف الأكورديون، أمامه وفعل الشيء نفسه. بينما ترك مديوني البيانو وبدأ بهزّ بطنه. يقول كاستل مبتسماً: "هذه الموسيقى ستعيش؛ لست قلقاً". يبدو أن همهم الرئيس هو كيفية رؤيتهم في أرض ميلادهم. بدا كاستل واثقاً من أن الجزائريين يحبونه، ولديه رسالة تقدير من الرئيس بوتفليقة أعلن فيها أن والده عملاق للموسيقى الأندلسية. وكما كتب في مذكراته، "أعتقد (في الواقع، أو من) أن الجزائريين يحبونني قليلاً. أعتقد أنني أعرف السبب. حسناً، سأطلعك على سر: لقد أخبرني الرئيس بوتفليقة شخصياً وكتابياً. لكنني لم أعلن ذلك لو وكالة الأنباء الفرنسية أو رويترز أو سي إن إن". ليس من الواضح لماذا لم ينشر هذه الرسالة. وبالمثل، لدى شرقي رسالة تقدير من ملك المغرب لمساهماته في الموسيقى الأندلسية لكنه غير متأكد ما إذا كان سينشرها في مذكراته القادمة.

في نهاية كل حفلة للغوسطو، قبل أن ينزل الستار، يصطف الشيوخ لتقديم انحناءة جماعية - توفي أربعة موسيقيين منذ أن بدأت الفرقة الجولة - وبينما يلوح لهم الجمهور، ويبدأ الكثيرون بالبكاء، يشعر المرء أنهم - وكذلك الموسيقيين - يدركون أن هذه ليست جولة وداع عادية؛ فقد حصلوا على

لمحة من الماضي بالإضافة إلى مستقبل بديل - ما كان يمكن أن يكون - كما يعرفون أنهم يشهدون بالفعل نهاية حضارة.

يقول لوك شرقي، "أستمع إلى راديو الجزائر كل ليلة على مدى الخمسين سنة الماضية". كان لدي برنامج خاص بي في المحطة، في عام 1951م، عندما كنت في السابعة عشرة من عمري. منذ ذلك الحين، أذهب إلى النوم كل ليلة لأستمع إلى إذاعة الجزائر، على أمل أن أسمع أحدنا مرة أخرى."

شكر وتقدير

لست متأكداً أين تكمن أصول هذا الكتاب. ربما يعود إلى أيامي كطالب دراسات عليا، وعندما عملت كصحفي يغطي أخبار هارلم وبرونكس من أجل New Africana و Africana.com التي مقرها لندن، أو ربما في وقت لاحق، خلال عام ما بعد الدكتوراه في مركز ديفيد سي. دريسكل لدراسات الشتات الأفريقي بجامعة ميريلاند، عندما بدأت أفكر بجدية في مسألة العرق والإسلام والاممية. ما هو واضح في إنتاج هذا الكتاب هو أنني قد راكمت علاقات على جانبي البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. أخذني هذا المشروع إلى العديد من المدن. وتحدثت وتعلمت من عشرات الزملاء من باريس إلى ساو باولو إلى بيركلي، وأجريت مقابلات مع موسيقيين وصحفيين وراقصين ودبلوماسيين وأئمة ومنسقي موسيقى وموظفين في الكونغرس. ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أشكر الجميع.

خلال كتابتي لـ "موسيقى التمرد"، كنت محظوظاً بأن أكون جزءاً من مجتمع فكري رائع في جامعة كولومبيا - في كلية الشؤون الدولية والعامّة، ومعهد البحوث في الدراسات الأفريقية الأمريكية، ومعهد الدراسات الأفريقية. لقد أثرتني المحادثات مع زهير علي، ريتشارد بيتس، سليمان بشير دياجني، مامادو ديوف، نجم حيدر، عثمان كين، برينكلي ميسيك، خوسيه مويّا، آل ستيبان وستيف سيستانوفيتش. في الوقت الذي أمضيته في جامعة كولومبيا، كطالب ومحاضر، اعتمدت على عدد من الأشخاص، لكنني مدينُ بشكل خاص لليسا أندرسون، محمود ممداني والراحل مانغ مارابل، لتوجيههم ودعمهم الثابت على مر السنين. كتبت بعض فصول هذا الكتاب في الأصل على شكل أوراق بحثية للندوات التي عقدتها مع بول غيلروي (في جامعة ييل) وروبن كيلى (في جامعة كولومبيا). أنا ممتن جداً لكل من بول وروبن لتوجيهاتهم. وأريد أن أشكر الأصدقاء الذين قرؤوا الفصول، أو المخطوطة في مجملها، وقدموا تعليقاتهم: شكراً لجويل غوردون، بول سيلفرستين، كريست توينسينغ، دانييل شروتر، كامبيز غانيباسيري، ديفيد

ليفيرينغ لويس، فيليب شولر، تشارلز هيرشكيند، زرينا غريوال ورامي نشاشيبي.

علماء آخرون يتحملون بعض المسؤولية عن الذكاء الذي قد يحتوي عليه هذا الكتاب: تيد سويدنبرغ بجامعة أركنساس؛ شيرمان جاكسون بجامعة جنوب كاليفورنيا. أمينة مكلود وجون كرم في ديول. باولو بينتو وخورخي دي لا باري بجامعة فلومينينسي الفيدرالية بريتو دي جانيرو؛ فرناندو كونسيساو وجواو خوسيه ريس بالجامعة الاتحادية في باهيا؛ برنابي لوبيز غارسيا بجامعة مدريد المستقلة؛ ريفا كاستوريانو ولويس مارتينيز بمعهد الدراسات السياسية بباريس؛ فانيسا بالوما بجامعة السوربون. الراحل سيمون ليفي بجامعة محمد الخامس بالرباط؛ إيمان لشكر ونادية فاضل بجامعة لوفان. مارتين دي كوننغ بجامعة رادبود. فريد حافظ بجامعة فيينا. بالإضافة إلى ذلك، أشكر: توماس ويتكومب، عبد الله بورو، غوستافو تشاكرا، أليس شرقي، تيم فوسون، آرون كونداني، عائشة حسن، زين عبد الله، راسل ميللر، إريك لوف، لويس كرسنتو، أراش دافاري، مريم غريفيين، أوليفر وانغ، كيث فيلدمان، شهيد حسن، مايانثي فرناندو، فريد العسري، سارا كرافتس، براين كارل، هارولد موراليس، قاسم رشيد، جنيد رنا، ليث أولبي وحمادة الزهاوي.

دعاني عدد من العلماء في أمريكا وأوروبا لتقديم أجزاء من بحثي. يجب أن أشكر الزملاء في مركز ديفيد سي. دريكسل في جامعة ماريلاند في كوليدج بارك - روبرت ستيل، داريل ويليامز والراحل كلايد وودز - الذين دعوني للتحديث حول الأهمية السوداء وشمال أفريقيا في أبريل 2005م. ممتن أيضاً لحاتم بازيان ومنير جيوا لدعوتي إلى بيركلي؛ صلاح حسن لدعوتي إلى جامعة ولاية ميشيغان؛ جوليان هامر لدعوتي إلى جامعة جورج ميسون. وروزماري هيكس لدعوتي إلى جامعة تافتس. علي الجانب الأوروبي، أشكر بيتر موزي وأمينة ياكين علي دعوتي إلى مؤتمر "تأطير المسلمين" في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في نوفمبر 2009م؛ جانيت جويلي وأنا ليس موريس لدعوتي إلى مؤتمر "الأصوات العلمانية، الأصوات الإسلامية" في معهد أمستردام لبحوث العلوم الاجتماعية في أكتوبر 2010م؛ تريسا كيتون لإشراكي في مؤتمر "فرنسا السوداء" الرائع الذي أقيم في باريس، بمناسبة ذكرى أيمي سيزير وميشيل فابر.

من بين النشطاء وقادة المجتمع الذين قابلتهم، أود أن أشكر داؤود وليد من مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية في ديترويت. زيد شاكر من كلية الزيتونة. المعلم عبد الله وأسد جفري من شبكة العمل الإسلامي للمدينة الداخلية في شيكاغو. مبین بوت من تحالف الشباب الآسيوي في لندن؛ أحمد

فيرسي من أخبار المسلم، ونديم كاظمي من مؤسسة الخوئي، وشايبستا جوهيز من شبكة النساء المسلمات، وجميعهم في لندن؛ ماجد الجرودي وفاتي تانريفييري من أدايف في باريس. أولاد عدن من جانجواي بيتز في برلين. بتول يلماز من أصوات المسلمين، أيضاً في برلين. إيكو مالي من كيف، ومراد بكور من "نوف سعيد"، كلاهما في أنتويرب. مايكل بريفوت من الشبكة الأوروبية لمناهضة العنصرية (ENAR) في بروكسل، وإبراهيم عكروخ من حركة نبذ العنصرية ومعاداة السامية وكره الأجانب في العاصمة البلجيكية؛ نائلة تازي من شركة ريزو للإنتاج في الدار البيضاء؛ أنطونيو كارلوس فوفو من "إيلي أي" في سلفادور، باهيا؛ الشيخ عبد الحميد أحمد من المركز الثقافي الإسباني في باهيا. جانينا فاري في مركز كارنيفال التذكري في ريو؛ وفرناندو غاسادو كانكي من مركز الشراكات من أجل التنمية في برشلونة.

لم يكن هذا المشروع البحثي ممكناً بدون دعم مؤسسة كارنيغي بنيويورك ومؤسسة المجتمع المفتوح. قي كارنيغي، أشكر باتريشيا روزنفيلد وهيلاري فيزنر. وبصفتي عضواً في مؤسسة المجتمع المفتوح، تمكنت من الوصول إلى شبكة استثنائية عابرة للقارات من العلماء والمتخصصين، وقد دعمني موظفو المجتمع المفتوح في كل شيء من ترتيب المقابلات مع قادة المجتمع إلى تقديم خطابات التأشيرة. أنا ممتن بشكل خاص لفريق نيويورك: لينى برناردو، ستيفن هوبل، آريه ناير، بيباشا راى، هرنان بونو، ليسينا ديسانتييس، وكريستين سيسون. في لندن، شكر خاص للغاية لنازيا حسين، مديرة برنامج مؤسسة المجتمع المفتوح في أوروبا، لمساعدتي على التواصل مع عدد من الفنانين وقادة المجتمع. كما أشكر هيلين إرفنغ على تنظيم حدث ريتش ميكس حول الفن والثقافة الإسلامية في أوروبا. في مكتب بروكسل، أعرب عن امتناني لترانا أحمدوفا، هيذر غرابي، إلين ريتوت، وجاكلين هيل. في مكتب بالتيمور، أشكر ديانا موريس. وفي مكتب واشنطن، أشكر راشيل نيلد وأكوي أموسو. على مدى السنوات القليلة الماضية، استفدت أيضاً من ارتباطي بمعهد السياسة الاجتماعية والتفاهم، وعملهم مع المسلمين الأميركيين. أشكر فريد سنزاي، سوار بزري، مزمل أحمد ومازن أصبحي.

لقد قضيت عدة أشهر في واشنطن العاصمة، أجري أبحاثاً في الدبلوماسية العامة وأنا ممتن للدبلوماسيين المتقاعدين - شاس قريمان وريتشارد مورفي وفرانك ويسنر- لمشاركتهم معرفتهم بالمناورات الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط خلال الستينيات. أنا ممتن بشكل خاص للموظفين الحكوميين المسلمين والعرب الأميركيين والمسؤولين الحكوميين الذين شاركوا أفكارهم حول كل شيء بدءاً من تصنيف التعداد إلى المشاركة

السياسية: شاهد أمان الله، ريما دودين، ريتا استيفان، يسرا فازيلي، سابا غوري، سهيل خان، مواس مصطفى، أحمد الرميحي، مريم سيفي وجهاد صالح وليامز. في هارلم، أنا ممتن لكل من عائشة العدوية وستيفن فولود بمكتبة شومبرغ. شارون هاريس بمعهد البحوث في الدراسات الأفريقية الأمريكية في كولومبيا كان أيضاً دعماً كبيراً. ظهرت بعض أبحاثي في مجلة سولز وتقرير الشرق الأوسط. أنا ممتن إلى باربرا رانسبي وفريق التحرير بسولز، وإلى كريس تونسينغ، المحرر الاستثنائي لشركة مشروع الشرق الأوسط للأبحاث والمعلومات. في بروكلين، كانت جلسات ظاهر علي "الفنانون والمثقفون" حلقة دراسية مستمرة حول ثقافة الشباب المسلم: أشكر سعاد عبد الخبير، أرشد علي، نيساء علي، نسينجان، نزينجا نايت وكوثر عمر. تحية خاصة لجميع الفنانين الشباب اللامعين: عمر أوفيندوم، أوتلانديش، مليكة زارا، إبراهيم فريغان، كريستي زد، خورخي بابون، توني بلاكمان، حمزة بيريز، محمد يحيى وبويتك بيلجريم، مكة تو مدينة، بن هرسون وماجي مكلفين من نوماديك واكس، هوبا هوبا سبيريت، ذا نارسيسيسست، الكوميناس، ذا ريمابندرز، تومي إيفانز، علي جمال شباز (خافو)، أونوري الأمين عوضق وبوس هوسا.

شكراً جزيلاً لوكيلتي الأدبية، جين جيلفمان، التي شجعتني أولاً على كتابة كتاب عن الشباب المسلم. كما أشكر محررتي، شيلي وينغر، ومساعدتها، جوهيا كيم، في بانثيون.

في هذا الكتاب، كنت مدعوماً بحب الأصدقاء والأقارب. أنا ممتن بشكل خاص لـ "عاطفة شاه"، فهي وحدها تعرف مقدار اعتمادي عليها. كما أنني ممتن لرفاقي رامبو أسانيا، نيومان هورتون، مومي موليدي وكارلوس سواريز. في باريس، ممتن لمساعدة صافيناز بوصبيعة، عمي عمر وخالتي فريدة. في طنجة، أشكر عبد الله الكورض من دار كناوة على الأمسيات السحرية في المدينة. وأشكر أيضاً جيرانه، بيرنابي لوبيز غارسيا وسيسيليا فرنانديز سوزور من معهد سرفانتس على كرم ضيافتهم. أنا ممتن لأمي، رشيدة على أشياء كثيرة، لكن في هذه الحالة، ببساطة لكونها راوية، ولأنها حاولت دائماً نقل معرفتها الواسعة بالموسيقى المغربية لي ولأخواتي.

أخيراً، شكر خاص إلى الشيوخ الموسيقيين الذين كانوا كريمين جداً في ذكرياتهم وتسجيلاتهم: راندي ويستون، مورييس المديوني، يوسف لطيف، عبد الله الكورض، كيني غامبل، روبرت "كول" بيل، أحمد جمال، لوك شرقي، إرا كوهين، مارسيل أبيتبول، روبرت كاستل، جاك مويال، مورييس أهواسي ومحمد الفركاوي. اثنان منهم سكنا أفكارني خلال الكتابة بشكل خاص، وهما

راندې ويستون وموريس المديوني. كنت أسرُّ دائماً عند يرن الهاتف وأسمع "معك ويستون" أو "هذا موريس!" الآن، وهما في أواخر عقدهما الثامن، لا تزال جذوة إنسانيتهم وإبداعهما متوهجة. لقد نشطتني المحادثات التي أجريتها مع راندې وموريس، وشكلت قصص حياتيهما مسار هذا الكتاب.

نوفمبر 2013م

هارلم
الولايات المتحدة الأمريكية

هوامش

(1) المورو أو المور والجمع الموريون أو الموريسكيون، مصطلح ذو استخدام شعبي وعامي يطلق على كل سكان شمال أفريقيا من المنطقة المغاربية. كما أنه يمكن أن يشير بالتحديد إلى مغربي. يطلق الاسم دون تمييز عرقي أو ديني أو ثقافي واضح. حسب الموسوعة البريطانية "بريتانكا" فالموري (بالإنجليزية Mour) هم السكان المسلمون لشبه الجزيرة الإيبيرية أي الأندلس أو ما بات يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال.

(2) تيلينوفيل هو مصطلح يطلق على مسلسلات الدراما الشعبية التلفزيونية التي تعرض في كل قنوات الدول الناطقة باللغة الإسبانية في كل من أمريكا اللاتينية، البرتغال، الفلبين، إسبانيا وأمريكا الشمالية ولا سيما المكسيك والولايات المتحدة. وتتكون الكلمة من مختصر كلمتين مركبتين هما: تيلي اختصار بالإسبانية والبرتغالية لكلمة تلفزيون، ونوفيل كلمة إسبانية برتغالية تعني رواية فكلمة تيلينوفيل هي رواية تلفزيونية.

(3) لويس إيناسيو لولا دا سيلفا (ولد في 27 من أكتوبر 1945م)، رئيس البرازيل الخامس والثلاثون. انتخب رئيساً عام 2002م، انتخابه س0 أن فاز بـ 60% من الأصوات.م الرئاسة الأولى في 1 من يناير 03م وحتى 1 من يناير 2011م.

(4) غيلبرتو فريري (15 مارس 1900 - 18 يوليو 1987م) (بالبرتغالية Gilberto Freyre)، عالم اجتماع وكاتب ومؤرخ وصحفي ورسام.

(5) غيتوليو دورنيليس فارغاس من مواليد ساو بورجا 19 أبريل 1882 - ريو جراندي دو سول وتوفي في 24 أغسطس 1954م في مدينة ريو دي جانيرو كان سياسياً، ثورياً ورئيساً للبرازيل أربع مرات، وكان يلقب بـ "أب الفقراء". انتحر بطلقة رصاص في القلب في قصر دو كاتيبي في مدينة ريو دي جانيرو.

(6) ديلما فانا روسيف (ولدت 14 ديسمبر 1947م)، هي سياسية برازيلية ورئيسة البرازيل السادسة والثلاثين منذ الأول من يناير عام 2011 حتى 31 أغسطس 2016م. وأول امرأة برازيلية في المنصب، وهي عضو في حزب العمال البرازيلي

(7) فيرناندو أنريك كاردوسو (18 يونيو 1931م)، الرئيس الرابع-والثلاثون للبرازيل من 1 يناير 1995 إلى 31 ديسمبر 2002م. وهو مدرس جامعي، وكاتب وسياسي تخرج من جامعة ساو باولو. يعتبر من مؤسسي حزب (ب س د ب - حزب الحركة الديمقراطية البرازيلية).

(8) النيويورك (بالإنجليزية: The New Yorker) وتعني بالعربية النيويوركي، أو الشخص الذي يسكن في مدينة نيويورك، وهي مجلة أمريكية تعتمد على الربورتاج والتعليق والنقد والمقالات والقصص والفكاهة والرسوم الكاريكاتيرية والشعر. تصدرها دار كوند نست للمطبوعات (Condé Nast). بدأت كمجلة أسبوعية عام 1925م، وتصدر النيويورك 47 عدداً في السنة، خمسة من هذه الأعداد تغطي فترة أسبوعين. بالرغم من أن نقاشاتها وتغطياتها للأحداث تدور حول الثقافة في مدينة نيويورك، إلا أن النيويورك تستقطب الكثير من القراء من خارج نيويورك.

(9) زواج الأقارب.

(10) الديستوبيا أو عالم الواقع المرير (بالإنجليزية: Dystopia) هو مجتمع خيالي، فاسد أو مخيف أو غير مرغوب فيه بطريقة ما. وقد تعني الديستوبيا مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، فهو عالم وهمي ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض.

(11) منطقة حدودية بين البرازيل والأرجنتين وكولومبيا.

(12) بالإنجليزية: The Young and the Restless

(13) محاكم التفتيش ((باللاتينية: Inquisitio Haereticae Pravitatis)، حرفياً: التحقيق في البدع الهرطوقية)، ديوان أو محكمة كاثوليكية نشطت خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقتهم. إن محاكم التفتيش هي "سلطة قضائية كنسية استثنائية" وضعها البابا غريغوري التاسع لقمع جرائم البدع والردة وأعمال السحر في جميع أنحاء العالم المسيحي، من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر. يمكننا أن نضيف على هذا أن محاكم التفتيش، التي أنشئت أصلاً لمحاربة الهرطقة: الكاثار، والوالدان باتارينس (cathares, vaudois et patarins)، كانت ضد البدع الأخرى والسحر. وفي إسبانيا - حيث بقيت لفترة طويلة - كانت ضد اليهود والمسلمين المتحولين. وكما أنها استخدمت في كثير من الأحيان كأداة

سياسية (على سبيل المثال، في فرنسا، استخدمها الملك فيليب لوبيل ضد فرسان الهيكل.

(14) دون بيدرو الثاني من مواليد مدينة ريو دي جانيرو في 2 ديسمبر 1825 وتوفي في 5 ديسمبر 1891م في مدينة باريس، كان ثاني وآخر إمبراطور علي البرازيل. كان الابن السابع لدون بيدرو الأول من أم نمساوية الأصل. هو أيضاً حفيد جواو السادس. توج دون بيدرو الثاني في 18 يوليو 1840م وبعد سنة بدأ مملكة لتنتهي بجمهورية. كان يختلف عن أبيه دون بيدرو الأول فكان يهتم بالحضارات والثقافة المختلفة والعلوم، وكان يمارس كتابة الشعر والرسم. تزوج من تيريزا كريستينا ماري دي بوربون-دواس سيسيليا في 4 سبتمبر 1843 وكانت إيطالية الأصل وأنجب منها أولاده الأربعة.

(15) كلمة السودانين هنا يقصد بها العبيد الذين تم استجلابهم من منطقة السودان الغربي؛ وهو اسم أطلقه الأوروبيون على منطقتي نهر السنغال والنيجر. أما بالنسبة للجغرافيين والمؤرخين والرحالة المسلمين، فقد كانت بلاد السودان تعني لهم منطقة أوسع بكثير، تمتد جنوب الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي إلى بلاد النوبة على نهر النيل.

(16) سقوط الأندلس كما تطلق عليه المصادر الإسلامية أو حروب الاسترداد أو حروب الاستعادة (بالإسبانية: Reconquista) كما تُعرف في المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر التاريخية (نسبة إلى استرداد الإسبان لأراضيهم من المستوطنين المسلمين) هي فترة في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، والتي تمتد ما يقرب من 770 عاماً بين المرحلة الأولى من الغزو الإسلامي لإسبانيا والبرتغال عام 710 وسقوط غرناطة، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أدت إلى توسيع الممالك المسيحية في عام 1492. انتهى الاسترداد فوراً قبل إعادة اكتشاف الأوروبيين الأمريكتين و"العالم الجديد" الذي بشر به في عهد البرتغالية والإمبراطوريات الاستعمارية الإسبانية.

(17) الولوف وهي مجموعة عرقية تتواجد في غرب أفريقيا في كل من السنغال وموريتانيا وغامبيا وهم في غالبيتهم مسلمون بنسبة 90% ويتكلمون اللغة الولوفية.

(18) الفولان شعب يقطن مواطن عديدة في غرب أفريقيا ووسط أفريقيا والساحل الأفريقي، والحجاز ويشكلون أقلية في كل دولة يسكنوها

(باستثناء غينيا)، لذا يتحدثون لغات أخرى بجوار لغتهم الأم، ولديهم ثقافة خاصة مميزة. وجلهم من المسلمين.

Sylviane A. Diouf, (1998), Servants of Allah (19).

(20) الهوسا أو هوساوة (شعب هَوْسَا، هَوْسَاوَة) هي أحد أكبر المجموعات الإثنية في أفريقيا. يعد شعب الهوسا متنوعاً ولكنة في الوقت نفسه متجانس ثقافياً، ويعيشون في المقام الأول بمنطقة الساحل ومنطقة السودان نواحي الدورا بشمال نيجيريا وجنوب شرق النيجر، كما تعيش أعداد كبيرة أيضاً في أجزاء من الكاميرون، وكوت ديفوار، وتشاد، وتوغو، وغانا، والسودان، والغالابون والسنغال.

(21) البريفيريا، بالبرتغالية (periferia) والمقصود بها الضواحي.

Posse Hausa (22).

Sidney Mintz, (1985), sweetness and power (23).

(24) الهيب هوب (بالإنجليزية: Hip hop) هو أحد أنواع الموسيقى والثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبر حركة ثقافية للسود أو الأمريكيين الأفارقة. نشأ الهيب هوب منذ عام 1970م كرد فعل لما تعرضوا له من عنصرية وكنوع من التعبير عن النفس ضد المشاكل المجتمعية مثل الفقر والبطالة والعنصرية والظلم ليصبح ثقافة وفناً مستقلاً فيما بعد.

(25) الفانك، بالإنجليزية: Funk نوع من الموسيقى الأفرو-أمريكية ظهرت في الولايات المتحدة نهاية ستينيات القرن العشرين وسط حركة الهارد بوب التي انتشرت خلال حقبة الستينيات والسبعينيات. استوحى الفانك من موسيقى السول والجاز وهو يختلف عنهما بسيطرة الجزء الإيقاعي (غيتار، البيس والدرمز) مصحوباً بتوقفات موسيقية مع تواجد آلات النفخ النحاسية والساكسوفون بكثرة خلال "الريفات".

(26) الأشخاص الذين يحبون أو يستمتعون فقط بموسيقى الفانك.

(27) تأسست المجموعة الأفرو-برازيلية إيلي آيي في عام 1974م من قبل أنطونيو كارلوس "فوفو" و أبولونيو دي جيسوس في حي ليبرداي، أكبر منطقة سكانية سوداء في سلفادور، بأهيا، البرازيل. التعبير ينبع من اللغة

اليوروبا (ilê - المنزل؛ aiyê - الحياة) ويمكن أيضاً أن يفسر على أنه "الجنة الأبدية".

(28) في إطار بحثه عن عالم عادل وأفضل تطغى فيه مفاهيم العدالة والحرية والمساواة قرر ميشال ألفتر يادس وضع مقاربة جديدة اجتماعية وفلسفية وحتى سياسية وثقافية لأمة جديدة أطلق عليها اسم "نويرستان" (أرض اللامكان).

(29) باتريوت آكت أو قانون مكافحة الإرهاب، أو قانون الوطنية هو قانون قد تم إقراره بعيد اعتداءات 11 سبتمبر 2001م، وهو خاص بتسهيل إجراءات التحقيقات والوسائل اللازمة لمكافحة الإرهاب، مثل إعطاء أجهزة الشرطة صلاحيات من شأنها الاطلاع على المقتنيات الشخصية للأفراد ومراقبة اتصالاتهم والتنصت على مكالماتهم بغرض الكشف عن المؤامرات الإرهابية.

(30) الغيتو أو المَعزِل يشير إلى منطقة يعيش فيها، طوعاً أو كرهاً، مجموعة من السكان الذين يتم اعتبارهم خلفية لعرقية معينة أو لثقافة معينة أو لدين. أصل الكلمة يعود للإشارة إلى حي اليهود في المدينة، مثل الغيتو في مركز مدينة روما. يشار إلى الغيتو في الدول العربية بـ "حارة اليهود". الغيتو أيضاً درج على وصف الأحياء الفقيرة الموجودة في المناطق المدنية الحديثة.

(31) توباك أمارو شاكور (16 يونيو 1971 - 13 سبتمبر 1996م) (بالإنجليزية: Tupac Amaru Shakur) كان مغني هيب هوب، وشاعر، وممثل أمريكي، ولد في هارلم في مدينة نيويورك شرقي مانهاتن.

(32) أوت-لوز بالإنجليزية: Outlawz (المعروفة سابقاً باسم Outlaw Immortalz و Dramacydal) مجموعة هيب هوب أمريكية أسسها توباك شاكور في أواخر عام 1995م بعد إطلاق سراحه من السجن.

(33) أكابيلاراب هو أحد فروع الفن الاستعراضي الذي يدعى (أكابيلاراب) وهو فن استعراضي سمعي بصري يستغني عن المصاحبة الموسيقية بالآلات ويستعين بدلاً منها بالصوت البشري من كل الطبقات من السوبرانو إلى الباص، وهو لون يشكل تحدياً لألوان الغناء المألوف، ويحتاج إلى دراسة متعمقة لعلم الأصوات البشرية وعلم التأليف الموسيقي «هارموني» و«كونتر بوينت»؛ وذلك لفهم طبيعة ومساحة صوت المؤدي.

(34) الريغي روتس هو أحد فروع الريغي التي تتعامل مع الحياة اليومية وتطلعات الفنانين المعنيين، بما في ذلك الجانب الروحي من الراسنفاري

وتكريم الرب، الذي يدعى جاه في الرستفارية. كما أن له علاقة بحياة من يعانون في الغيتو، والفقراء الريفيين. وتشمل المواضيع الغنائية الروحانية والدين والفقر والاعتزاز الأسود والقضايا الاجتماعية ومقاومة الحكومة والقمع العنصري والعودة إلى أفريقيا.

(35) (“!gotcha!” “there’s gonna be a paaaaartay!,” and “uh-uh-uh”)

(36) نصير بن أولو دارا جونز المعروف باسمه الفني ناز هو مطرب راب وممثل أمريكي من أصل نيجيري مولود في مدينة نيويورك من أب نيجيري كان يشتغل عازف جاز. بدأ حياته الفنية باسم "ناستي ناز" ثم اشتهر بعد ذلك بطبيعة كلمات أغانيه التي رغم استعمالها لغة الشوارع إلا أنها توصف بأنها تحمل شاعرية كبيرة وحكمًا بالغة.

(37) نوتوريوس، بي. آي. جي. بالإنجليزية: The Notorious B.I.G، واسمه الحقيقي كريستوفر جورج لوثر والاس المعروف أيضاً باسمي بيغي سمولز وفرانك وايت. كان والاس مغني راب أمريكي مشهور سطع نجمه في التسعينيات والذي ولد عام 1972 وتوفي عام 1997م، الحروف B.I.G والتي تنتج المعنى لكلمة (كبير) باللغة الإنجليزية هي حروف مختصرة للجملة Business Instead of Game ومعناها (العمل بدل اللعب) وبعد موته أصبحت تعود إلى Books Instead of Guns والتي تعني (الكتب بدل المسدسات).

(38) جاي-زي الاسم الحقيقي هو شون كوري كارتر (Shawn Corey Carter) ولد عام 1969م في بروكلين في نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، أحد مغني الراب القاطنين بنيويورك مسقط رأسه، أسطوانات جاي زي هي أحد أكثر الأسطوانات مبيعاً في الولايات المتحدة فقد حصد ألبومه كوليجن كورس (Collision Course) مع الفرقة لينكين بارك، وتسجيلات ال Roc-a-Fella ما يقارب 320 مليون دولار.

(39) باد بويز ريكوردز Bad Boy Records (المعروفة أيضاً باسم Bad Boy Entertainment) هي شركة تسجيل أمريكية تأسست عام 1993 بواسطة Sean Combs. واليوم، تعمل الشركة كصورة لـ Epic Records، وهي قسم من Sony Music Entertainment. واحد من أكثر الفنانين البارزين كان نوتوريوس بي آي جي.

(40) رف رايدرز بالإنجليزية Ruff Ryders هي شركة تسجيلات أسسها جواكين "وااه" دين ودارين "دي" دين وشيفون دين. وهي تعمل كشركة تابعة لشركة يونيفرسال، وتوزعها شركة فونتانا ديستريوشن.

(41) القوالي هي إحدى أشكال الموسيقى الدينية الصوفية في جنوب آسيا. هذا القلب شائع في البنجاب والسند في باكستان وفي الكثير من المناطق في الهند بما في ذلك حيدر أباد ودلهي والكثير من المناطق في بنجلاديش. يعد القوالي جزءاً من تقليد موسيقي يمتد إلى 700 سنة.

(42) رابطة العالم الإسلامي منظمة إسلامية عالمية جامعة مقرها مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية تقوم بالدعوة للإسلام وشرح مبادئه وتعاليمه.

(43) الريذم أند بلوز نوع موسيقي تولّد من التقاء روافد البلوز والجاز والغوسبل. اخترع هذه التسمية الصحفي جيرى وكسلر.

(44) البلوود، والمعروف أيضاً باسم (OBF) الأصل عائلة بلوود، هي عصابة شوارع أفريقية أمريكية تأسست في لوس أنجلوس، كاليفورنيا. تُعرف العصابة على نطاق واسع بسبب تناقضها مع عصابة الكريس. يتم تمييزها باللون الأحمر الذي يرتديه أعضاؤها ورموز عصابة معينة، بما في ذلك علامات اليد المميزة بينما تتميز الكريس باللون الأزرق.

(45) ال ال كول جي (بالإنجليزية: LL Cool J) واسمه الحقيقي "جيمس تود سميث الثالث" ممثل ومغني راب أمريكي شهير ولد في نيويورك سنة 1968م. ال ال كول جي هي اختصار للجملة الإنجليزية: Ladies Love Cool James.

(46) الإزار أو الفستانيل (للتهجئة بلغات مختلفة) هو الثوب التقليدي الذي يشبه التنورة والذي يُشار إليه أيضاً باسم النقبة التي يرتديها رجال العديد من الدول في البلقان (جنوب شرق أوروبا). في العصر الحديث ، الفستانيل هو جزء من الفساتين الشعبية البلقانية.

(47) كينيث غامبل، بالإنجليزية: Kenneth Gambl (من مواليد 11 أغسطس 1943م، فيلادلفيا ، بنسلفانيا) هو منتج وكتاب أغان أمريكية يُنسب الفضل إليه في تطوير نوع موسيقى سمي سول فيلادلفياً (المعروف أيضاً باسم صوت قبلي) في السبعينيات.

(48) البريك دانس، بالإنجليزي Breakdance وهي رقصة التفسير تكون على موسيقى الهيب هوب أو الراب وتطورت باعتبارها جزءاً من ثقافة الهيب هوب. وأيضاً يمكن تعريفها أنها التعبير الجسدي لموسيقى الراب.

(49) سورة الحجر، الآيات 28-30.

(50) أفريكا بامباتا، ولد باسم لانس تايلور. 17 أبريل 1957م، هو منسق أغان أمريكي ومغني وكاتب أغان ومنتج من ساوث برونكس، نيويورك. ويعد بامباتا "الأب الروحي" لموسيقى الهيب هوب.

(51) ذا سورس، بالإنجليزية: The Source هي مجلة شهرية مقرها الولايات المتحدة تغطي المواضيع المتعلقة بموسيقى الهيب هوب والسياسة والثقافة. تأسست في عام 1988م.

(52) بابليك إنيمي، بالإنجليزية: Public Enemy هي مجموعة هيب هوب أمريكية تأسست في لونغ آيلاند، نيويورك، في عام 1986م، وهي معروفة بموسيقاها المشحونة سياسياً والنقد لوسائل الإعلام الأمريكية.

(53) الأمة الخمس في المائة، التي يشار إليها أحياناً باسم NGE أو NGE، أمة الآلهة والأرض، أو الخمسة بالمائة، هي حركة تأسست في عام 1964م في قسم هارلم في حي مانهاتن، في مدينة نيويورك، من قبل عضو سابق من أمة الإسلام (NOI)، كلارنس 13 إكس، الذي كان اسمه عند الولادة كلارنس إدوارد سميث، والذي أصبح في نهاية المطاف يعرف باسم الله الآب.

(54) إريك فرانسيس شرودي (من مواليد 18 أغسطس 1969م)، والمعروف باسمه المسرحي "إفرلاست"، هو مغني راب أمريكي، وكاتب أغان، مشهور بأغنيته الفردية "What It's Like"، والمغني الرئيسي في مجموعة الراب House of Pain. في عام 2000م، حصل على جائزة غرامي لأفضل أداء روك من قبل ثنائي مع الفنان اللاتيني كارلوس سانتانا عن أغنية "Put Your Lights On".

(55) المقصود بالإيوانية الأشخاص ذوو البشرة الداكنة.

(56) البيت بوكس هو فن عمل صوت الطبول والإيقاع والأصوات الموسيقية وتقليد أصوات بعض الحيوانات و صوت الروبوت باستخدام الفم واللسان والشفيتين وممر الأنف والحنجرة، وفي بعض الأحيان يستخدم الفنانون أيديهم أو أي أجزاء أخرى من أجسادهم لتوسيع نطاق المؤثرات الصوتية والإيقاع (على سبيل المثال: الأسلوب الذي ينطوي على امتصاص الهواء حول الأصابع لإنتاج حركة بشكل وصوت واقعي جداً يسمى (Scrach). ويمكن أن يتضمن البيت بوكس الغناء أيضاً والعزف بالآلات موسيقية بجانب عزف الفم.

(57) مسيرة المليون رجل التي قادها زعيم أمة الإسلام لويس فاراخان وجابت واشنطن قبل عشرين عاماً مستنكرة العنصرية والحيثف الاقتصادي.

(58) لويس فاراخان محمد ولد لويس يوجين والكوت في 11 مايو 1933م في حي برونكس في نيويورك، هو زعيم التنظيم السياسي والديني أمة الإسلام منذ عام 1981م. اشتهر بتنظيم مسيرة المليون شخص في واشنطن العاصمة عام 1995م.

(59) Daniel Patrick Moynihan, Nathan Glazer, (1963), Beyond the Melting Pot

(60) هوراشيو ألجر الابن، بالإنجليزية: Horatio Alger, Jr، هو روائي أمريكي اشتهر بكونه مؤلفاً لقصص الأطفال. ويُعتبر ألجر أبرز كتّاب الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، فقد لاقت رواياته رواجاً كبيراً في زمانه. بشكل عام تدور رواياته حول قصص أطفال فقراء تمكنوا من الخروج من ربقة الفقر والبؤس وتحسين أوضاعهم المعيشية عبر المثابرة والعمل الجاد مع التحلي بالفضيلة والتمتع بالحظ، محققين ما بات يُعرف اليوم باسم الحلم الأمريكي. ومن أشهر أعمال ألجر، قصة "ديك الأشعث" Ragged Dick التي صدرت لأول مرة في 1867م وسلسلته القصصية "توم المهلهل" Tattered Tom في عام 1871م.

(61) الرستفارية، راستا، أو الحركة الرستفارية، (بالإنجليزية: Rastafari movement) هي الديانة التي تعتبر الإمبراطور هيلا سيلاسي الأول، الإمبراطور السابق لإثيوبيا، كتجسيد للرب والذي يطلقون عليه اسم جاه (بالإنجليزية: Jah). كما يراه متبعو تلك الديانة كجزء من الثالوث المقدس بوصفه المسيح المذكور في الإنجيل. الاسم رستفاري يأتي من راس وتعني الرأس (وهو اللقب الإثيوبي المعادل لمرتبة دوق) والجزء الثاني هو راس تافاري ماكونين، اسم قبل التتويج للإمبراطور هيلا سيلاسي الأول.

(62) البانك روك (punk rock) هو نوع موسيقي متفرع من موسيقى الروك. بدأ هذا النوع من الموسيقى بالظهور بشكل كبير في عام 1976-1977م في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وبعد ذلك في أستراليا قبل أن ينتشر في أرجاء العالم، هو عبارة عن ثورة ضد المبادئ الموضوعة وهو يفضل التعبير الصريح والعفوي.

(63) الريغي روتس هو أحد فروع الريغي الذي يتعامل مع الحياة اليومية وتطلعات الفنانين المعنيين، بما في ذلك الجانب الروحي من الرستفاري وتكريم الرب، الذي يدعى جاه في الرستفارية. كما يهتم الريغي روتس بحياة

من يعانون في الغيتو، والفقراء الريفيين. وتشمل المواضيع الغنائية الروحانية والدين والفقر والاعتزاز الأسود والقضايا الاجتماعية ومقاومة الحكومة والقمع العنصري والعودة إلى أفريقيا.

(64) برنارد لويس (31 مايو 1916 - 19 مايو 2018م) هو أستاذ فخري بريطاني-أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. وتخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب وتشتهر خصوصاً أعماله حول تاريخ الدولة العثمانية. من مواليد لندن.

(65) الطريقة النقشبندية هي واحدة من أكبر الطوائف الصوفية والتي تنتسب إلى محمد بهاء الدين نقشبند واشتق اسمها منه، ومن ثم عرفت به. الطريقة النقشبندية هي حيدة التي تدعي تتبع السلسلة الروحية المبهية النبي الإسلام محمد من خلال أبي بكر الصديق وبذلك تكون تلك الطريقة مرتبطة بطريق غير مباشر نا علي غنادق. تختلف بقية الطرق عن تلك الطريقة بأن سلسلتها خلال نا علي.

(66) إسلام فور يو كي، بالإنجليزية: Islam4UK كانت جماعة إسلامية متطرفة تعمل في المملكة المتحدة. تم حظر الجماعة كمنظمة إرهابية بموجب قوانين مكافحة الإرهاب في المملكة المتحدة في 14 يناير 2010م. قبل حظرها كان بقيادة أنجم شودري.

(67) داوننج ستريت، بالإنجليزية: Downing Street هو أشهر شارع في قلب لندن-إنجلترا، يطل عليه منزل رئيس الوزراء ومنزل وزير المالية. يسكن رئيس الوزراء في المنزل رقم 10، بينما يسكن وزير المالية في المنزل رقم 11. وقد أخذت التسمية من اسم السير جورج داوننج، الذي بنى العديد من المنازل المطلة عليه في أواخر القرن السابع عشر الميلادي.

(68) راديكال ميديل واي، بالإنجليزية: Radical Middle Way هي شركة اهتمامات اجتماعية لا تهدف للربح وتهدف إلى السماح للشباب المسلم - في المملكة المتحدة وحول العالم - بالتواصل مع عقيدتهم واستكشاف ما يعنيه الإيمان في القرن الواحد والعشرين. تأسست في أعقاب هجمات 7/7 على مترو أنفاق لندن، وتهدف إلى الترويج لفهم التيار المعتدل والإسلامي للإسلام الذي يمكن أن يرتبط به الشباب.

(69) تُعرف جماعة أولفاه الجماعية باسم الفرقة النسائية المسلمة الأولى، وهي عبارة عن مجموعة من النساء من خلفيات مختلفة جمعتن شركة

أولفاه آرتس. أغانيهن عالمية وتشمل أغنيات إسلامية تقليدية وأغاني من تقاليد دينية أخرى مثل الإنجيل وحتى الرب.

(70) The United Colours of Sufis.

(71) لد زبلين (بالإنجليزية: Led Zeppelin) كانت فرقة روك إنجليزية تشكلت في عام 1968م وتعتبر واحدة من أكثر فرق الروك نجاحاً وابتكاراً وتأثيراً في التاريخ، تكونت الفرقة من جيمي بايچ (غيتار)، روبرت بلانت (مغني)، جون بول جونز (عازف جهير (بيس) ولوحة المفاتيح) وجون بونهام (قارع طبول).

(72) فان هالين هي فرقة روك أمريكية تم تشكيلها في باسادينا ، كاليفورنيا ، في عام 1972م. من عام 1974 حتى عام 1985م، تألفت الفرقة من عازف الجيتار إيدي فان هالين ، المغني ديفيد لي روث ، لاعب الدرامز أليكس فان هالين ، وعازف القيثارة مايكل أنتوني.

(73) Salman Ahmad, (2010), Rock & Roll Jihad: A Muslim Rock Star's Revolution

(74) مغنو البانك الباكستانيون.

(75) تومي إيفانز، بالإنجليزية: Thomas Evans مغني هيب هوب سابق وجهادي بريطاني في حركة الشباب.

(76) إريك جون أرنست هوبسباوم: ولد في 9 يونيو 1917م، وتوفي في 1 أكتوبر 2012م. وهو مؤرخ ماركسي ومفكر ومؤلف. من بين أشهر أعماله ثلاثيته عن القرن التاسع عشر (عصر الثورة: أوروبا 1789-1848م، وعصر رأس المال: 1848-1875م، وعصر الإمبراطورية: 1875-1949م).

(77) Terry Pratchett, (1994), Interesting Times ..

(78) جورج غيرشوين (George Gershwin) (بروكلين، نيويورك 26 سبتمبر 1898 - هوليوود 11 يوليو 1937م) كان مؤلفاً موسيقياً أمريكياً، صاحب القطعة الموسيقية الشهيرة "رابسوديا بالأزرق" (Rhapsody in Blue) التي ألفها عام 1924م. قام جورج في أعماله بمزج موسيقى الجاز مع الموسيقى الرومانسية الكلاسيكية (تورغي ويس -Porgy and Bess-). من أعماله الأخرى: كونشرتو للبيانو (1925م)؛ أمريكي في باريس (1928م).

(79) نيو ستيتسمان بالإنجليزية: (New Statesman) هي مجلة سياسية وثقافية بريطانية تصدر أسبوعياً في لندن. تأسست في عام 1913م، وترتبط بأعضاء بارزين في جمعية فابيان الاشتراكية، كان للمجلة موقف يساري في الوسط السياسي. وقد كان كينغسلي مارتن (1930-1960م) رئيس التحرير الأطول خدمة في المجلة.

(80) Eric Hobsbawm, (1959), The Jazz Scene.

(81) المحمدانية كلمة استشرافية ذات أصول مسيحية قديمة، فحسب (قاموس أكسفورد الإنجليزي القصير 1973م) بدأ استعمال كلمة محمدي قبل عام 1682م. ظلت كلمة محمدي مستخدمة في الكتابات الغربية في أوروبا والولايات المتحدة بمعنى مسلم أو إسلامي حتى 1965م تقريباً (انظر مثلاً "A Dictionary of Modern English Usage" by HW Fowler, revised (Oxford, 1965 حيث حلت محلها بعد ذلك كلمة مسلم. وتستخدم اليوم كلمة مسلم بشكل عام، حيث أصبحت كلمة محمدي كلمة قديمة، وفي بعض الحالات مسيئة.

(82) كانت الهجرة الكبرى هي حركة 6 ملايين أمريكي من أصل أفريقي من المناطق الريفية في جنوب الولايات المتحدة إلى المناطق الحضرية الشمالية الشرقية والغربية الوسطى التي وقعت بين عامي 1916 و1970م. حتى عام 1910م، كان أكثر من 90% من السكان الأمريكيين من أصل أفريقي يعيشون في الجنوب الأمريكي. في عام 1900م، كان خمس الأمريكيين الأفارقة الذين يعيشون في الجنوب يعيشون في المناطق الحضرية. وبحلول نهاية الهجرة الكبرى، ظل 53 في المائة من السكان الأمريكيين من أصل أفريقي في الجنوب، بينما عاش 40 في المائة في الشمال، و7 في المائة في الغرب. بحلول عام 1960، من بين هؤلاء الأمريكيين الأفارقة الذين ما زالوا يعيشون في الجنوب، يعيش نصفهم الآن في المناطق الحضرية، وبحلول عام 1970م، كان أكثر من 80 في المائة من الأمريكيين من أصل أفريقي يعيشون في المدن.

(83) الجماعة الأحمدية (بالأردو: أحمدی) أو القاديانية: هم طائفة تؤمن بميرزا غلام أحمد (الذي ولد في بنجاب في القرن التاسع عشر الميلادي) رسولاً بعد محمد بن عبد الله، مما يخرجهم من الإسلام عند علماء المسلمين. لكن الأحمديين يؤمنون أنهم مسلمون ويرون أنهم هم مَن يؤمن بختم النبوة، وأن الرسول محمد ليس آخر الأنبياء، لذا ينكرون عودة المسيح، ويرون أن

بعثة المسيح الموعود لا تتعارض مع ختم النبوة، "لأن الخادم ليس بمنفصل عن مخدومه ولا الفرع بمنشَق عن أصله".

(84) شروق شمس المسلم (The Muslim Sunrise) هي مجلة فصلية تنشرها جماعة الأحمدية الإسلامية من الولايات المتحدة. تأسست في عام 1921م بواسطة المفتي محمد صادق في ديترويت، ميشيغان، وهي أقدم مطبوعة إسلامية تصدر في الولايات المتحدة. أخذت اسمها من قول النبي محمد أنه في الأيام الأخيرة "تشرق الشمس من الغرب".

(85) الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين (بالإنجليزية: National Association for the Advancement of Colored People) وتُدعى اختصاراً (NAACP). هي منظمة حقوق مدنية للأمريكان ذوي الأصول الأفريقية في الولايات المتحدة. تشكلت في عام 1909م على يد مورفيلد ستوري، وماري وايت أوفنقتن، ودو بويز. مهمة المنظمة هي ضمان المساواة السياسية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية بين جميع الأعراق والقضاء على التمييز العنصري.

(86) شبكة ديش-بالإنجليزية (Dish Network) هو مزود خدمة البث الفضائي المباشر في الولايات المتحدة. توفر الشركة قنوات تلفزيونية فضائية وبرامج سمعية وخدمات تلفزيونية تفاعلية للعملاء التجاريين والسكنيين في الولايات المتحدة.

(87) كان الدكتور مفتي محمد صادق أحد أصدقاء الميرزا غلام أحمد، وهو أول مبشر أحمدي في أمريكا وقد قام بإدخال أكثر من سبعمائة أمريكي إلى الإسلام الأحمدي بشكل مباشر، وأكثر من ألف أمريكي آخر بطريقة غير مباشرة. كان هدفه كممثل لحركة الأحمدية هو إدخال الأمريكيين إلى الأحمدية وتوضيح المفاهيم الخاطئة العامة حولها.

(88) مالكوم إكس (19 مايو 1925 - 21 فبراير 1965م)، واسمه عند مولده: مالكوم ليتل، ويُعرف أيضًا باسم الحاج مالك الشباز، هو داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان، أمريكي من أصل أفريقي.

(89) تأسست الرابطة العالمية لإنماء الزنوج (UNIA) بواسطة ماركوس غارفي في جامايكا في عام 1914م. وهي مشابهة للرابطة الوطنية للنهوض بالملونين (NAACP) كحملة ضد الإعدام خارج نطاق القانون، وقوانين جيم كرو، والحرمان من التصويت والتمييز العنصري.

(90) ماركوس غارفي (1887-1940م) هو أحد القوميين السود البارزين خلال أوائل القرن العشرين، ولد غارفي في جامايكا لكنه أمضى أنجح سنوات عمره في الولايات المتحدة. كان رأسقالي متحمس ومن المؤمنين بأن على الأمريكيان الأفارقة وغيرهم من السود حول العالم أن يقوموا بجهد موحد لتشكيل مؤسسات تستطيع أن تجمع الثروة والسلطة في أيديها. ولهذا السبب أنشأ ضمن منظمات أخرى، الرابطة العالمية لإنماء الزنوج.

(91) كانت نيفرو وورلد بالإنجليزية (Negro World) صحيفة أسبوعية، تأسست عام 1918م في مدينة نيويورك، وكانت بمثابة صوت الرابطة العالمية لإنماء الزنوج ورابطة المجتمعات الأفريقية، وهي منظمة أسسها ماركوس غارفي وإيمي آشود في عام 1914م.

(92) دوسة محمد علي (بالإنجليزية: Duse Mohamed Ali). (21 نوفمبر 1866 . 25 يونيو 1945م) هو ناشط سياسي وممثل وكاتب مسرحي ومؤرخ وصحفي مصري سوداني بريطاني. اشتهر بنزعتة المتحمسة إلى القومية الأفريقية، وأسس جريدة "أفريكان تايمز أند أورينت ريفيو" (بالإنجليزية: African Times and Orient Review) في لندن في يوليو 1912م. ولد دوسة في الإسكندرية لأب مصري وأم سودانية في 21 نوفمبر 1866م، وقضى معظم حياته العملية في إنجلترا، كما أمضى فترات في الولايات المتحدة ونيجيريا، حيث أسس في نيجيريا جريدة "ذا كوميت" (الشهاب) في مدينة لاغوس.

(93) ولد والاس فرد محمد سنة 1893م، وكان واعظاً دينياً ومؤسس منظمة أمة الإسلام (NOI) التي ظهرت في ديترويت سنة 1929 بخلفيات غامضة وأسماء متعددة، أنشأ أول مسجد لهذه المنظمة في مدينة ديترويت، ميشيغان في سنة 1930م، وسماه المعبد رقم 1. اختفى فرد في طريقه من ديترويت إلى شيكاغو في يونيو 1934م، من دون أثر. يذكر أنه عاش حتى عام 1960م، ومما يدعم ذلك المعلومات التي نشرت وفقاً لقانون حرية المعلومات الأمريكي والتي تؤكد أن ملفاً باسم والاس فرد ما زال مفتوحاً حتى عام 1960م.

(94) معبد العلوم الموريسكية: هو منظمة وطنية ودينية أمريكية أسسها نوبل درو على. واستند إلى فرضية مفادها أن الأميركيين من أصل أفريقي هم من نسل الموابيين وبالتالي هم مغاريبون بالجنسية ومسلمون بالفطرة. وضع على عناصر من التقاليد الرئيسية لتطوير رسالة للتحويل الشخصي من خلال التعليم التاريخي والاعتزاز العرقي والارتقاء الروحاني. كانت عقيدته تهدف

أيضاً إلى تزويد الأميركيين الأفارقة بشعور بالهوية في العالم وتعزيز المشاركة المدنية.

(95) كان تيموثي درو، المعروف باسم نوبل درو علي (8 يناير 1886 - 20 يوليو 1929م) زعيماً أمريكياً مغاربياً أسس معبداً للعلوم الموريسكية في أمريكا. ويعتبره أتباعه نبياً، كما أنه أسس المنظمة الإسلامية الأمريكية الأولى في عام 1913م في نيوارك، نيوجيرسي، قبل أن ينتقل إلى شيكاغو، حيث حصل على الآلاف من الأتباع. بعد مقتل زعيم معبد مغاربي للعلوم العلمانية، ألقى القبض على درو علي (لكن لم يتم اتهامه) وأرسل إلى السجن. توفي في عام 1929م، بعد وقت قصير من إطلاق سراحه.

(96) إايجا محمد يشار إليه بالشريف إايجا محمد (ولد إايجا بول، في 7 أكتوبر 1897 - وتوفي في 25 فبراير 1975م)، زعيم منظمة أمة الإسلام منذ 1934 حتى وفاته في سنة 1975م. دفن في مقبرة جبل غلينوود في ثورنتن، إلينوي.

(97) في 28 أبريل 1955م عقد "مؤتمر باندونغ"، والذي حضرته وفود 29 دولة أفريقية وآسيوية، واستمر لمدة ستة أيام، وكان النواة الأولى لنشأة حركة عدم الانحياز. عقد المؤتمر في مدينة باندونغ الإندونيسية وشارك فيه الرئيس عبد الناصر بالإضافة إلى رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو وجوزيف تيتو رئيس يوغسلافيا والرئيس السوداني إسماعيل الأزهرى. تبنت المؤتمر مجموعة من القرارات لصالح القضايا العربية ضد الاستعمار.

(98) محمد مارمادوك بكتال أو مارمادوك بكتال (بالإنجليزية: Mohammed Marmaduke Pickthall) (لندن 19 مايو 1875 – 1936م) هو بريطاني راحل مختص في الدين الإسلامي، اشتهر بترجمته لمعاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية والتي كتبها بأسلوب أدبي شعري. مارمادوك بكتال كان روائياً وصحفيًا وقيادياً دينياً وسياسياً. وقد أعلن تحوله من المسيحية إلى الإسلام بشكل درامي مثير عقب تقديمه لخطاب حول "الإسلام والتقدم" في 29 نوفمبر، 1917م.

(99) سلواركاميز أو شالوار قميص (بالإنجليزية: Shalwarkameez)، أحد أكثر الأزياء شيوعاً بين رجال ونساء باكستان، ويتكون من سروال واسع فضفاض وقميص خارجي فضفاض، وهو منتشر في مناطق أخرى في شبه القارة الهندية، مثل الهند وبنغلاديش وسيريلانكا ونيبال، يرتدى في الريف الباكستاني في الأفراح والمناسبات.

(100) رالف والدو أليسون، Ralph Ellison من مواليد (1، مارس، 1914 وتوفي في 16، أبريل، 1994م) عرف أليسون بأنه روائي أمريكي من أصول أفريقية، وأديب وكاتب مرموق. ولد في ولاية أوكلاهوما. شهرة أليسون جاءت بعد روايته المشهورة الرجل الخفي، التي فازت [ب](#) [ا](#) [ت](#) [ي](#) [ا](#) [ط](#) [ن](#) [ي](#) [ة](#) للكتاب 1953م، وكتب أيضاً الظلام وا

(101) خط ماسون ديكسون هو خط أنشأه الفلكيان والماسحان الإنكليزيان تشارلز ماسون (1730-1787م) وجرمايا ديكسون (مات 1777م) بين عامي 1763 و1767م بطول 375 كم كحد يفصل بين مستعمرتي ماريلاند وبنسلفانيا وذلك لفك النزاع القائم (والذي حدث بعد منح بنسلفانيا إلى وليام بين عام 1681م) بين آل بالتيمور وآل تين ملاك ماريلاند وبنسلفانيا. أصبح الحد لاحقاً علامة على الحدود بين ولايات الرق والحرية، ولا يزال اليوم يستخدم كعلامة حدودية تشترك فيها أربع ولايات.

(102) (1) ظهر مصطلح قانون جيم كرو لأول مرة في عام 1904م وفقاً لقاموس اللغة الإنكليزية الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك على الرغم من أن هناك بعض الأدلة على استخدام المصطلح قبل ذلك الحين. وغالباً ما تنسب عبارة "جيم كرو" إلى أغنية "اقفز يا جيم كرو"، وهي أغنية ورقصة كاريكاتيرية ساخرة من السود الأمريكيين، وهي من أداء الممثل الأبيض رايس توماس، وظهرت الأغنية للمرة الأولى عام 1832م وكانت تستخدم للسخرية من سياسات أندرو جاكسون الشعبوية. ونتيجة لشهرة رايس، صار تعبير "جيم كرو" هو الوصف التحقيري لزوج أمريكا خلال عام 1838م، ومن هنا عرفت قوانين الفصل العنصري باسم قوانين جيم كرو.

(103) قانون الهجرة لعام 1917م (المعروف أيضاً بقانون التعليم وفي كثير من الأحيان بقانون المنطقة الشاذة في آسيا) أكثر قوانين الهجرة التي وضعتها الولايات المتحدة صعوبة حتى ذلك الوقت. وكان أول مشروع قانون يهدف إلى تقييد (تنظيم) المهاجرين، وتميز بميله نحو الأهلائية. وفرض القانون اختبارات محو الأمية على المهاجرين، وأنشأ فئات جديدة من الأشخاص غير المقبولين، ومنع الهجرة من منطقة آسيا والمحيط الهادئ.

(104) قانون الهجرة لعام 1917م (المعروف أيضاً بقانون التعليم وفي كثير من الأحيان بقانون المنطقة الشاذة في آسيا) أكثر قوانين الهجرة التي وضعتها الولايات المتحدة صعوبة حتى ذلك الوقت. وكان أول مشروع قانون يهدف إلى تقييد (تنظيم) المهاجرين، وتميز بميله نحو الأهلائية. وفرض القانون

اختبارات محو الأمية على المهاجرين، وأنشأ فئات جديدة من الأشخاص غير المقبولين، ومنع الهجرة من منطقة آسيا والمحيط الهادئ.

Dizzy Gillespie, (1979), To Be or Not to Bop: Memoirs of Dizzy (105).
Gillespie

(106) بيبوب أو بوپ (بالإنجليزية: bebop أو bop) نوع من الجاز تطور في الفترة ما بين أوائل ومنتصف أربعينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة، ويختص بأغان تتميز بإيقاع سريع وتعاقب تألفي معقد ذي تبديل التألف السريع وتبديلات مقام عديدة ومهارة تقنية آلية عالية وابتداه مبني على مزيج من الهيكل الاثتلافي واستعمال السلالم الموسيقية وإشارات نادرة إلى اللحن.

(107) بوكر تي واشنطن ولد عبداً في مزرعة بمقاطعة فرانكلين (فيرجينيا) في 5 أبريل 1856م وتوفي بمدينة توسكيجي في 14 نوفمبر 1915م هو كاتب ومدافع عن حقوق الأميركيين السود. وأصبح واحداً من أكثر المفكرين تأثيراً في أواخر القرن التاسع عشر. في عام 1881م، أسس معهد توسكيجي، مدرسة للأمريكيين الأفارقة في ألاباما مكرسة لتدريب المعلمين، وشغل منصب مستشار الرئيس ثيودور روزفلت وويليام هوارد تافت.

Booker T. Washington, (1901), Up from Slavery . (108)

(109) إيميت بوب تيل (يوليو 1941 - أغسطس 1954م) صبي أفريقي أميركي اغتيل في مسيسيبي في سن الـ 14 بعد أن مزح مع امرأة بيضاء في أحد المتاجر. ينحدر تيل من شيكاغو، إلينوي.

(110) قضية براون ضد مجلس التعليم في توبيكا، 347 الولايات المتحدة 483 (1954م)، أعلنت فيها المحكمة أن قوانين الدولة التي تنص على إنشاء مدارس عامة منفصلة للطلاب السود والبيض غير دستورية. أدى القرار فعلياً إلى إلغاء قرار بليسي ضد فيرغسون عام 1896م، والذي سمح بالتمييز العنصري المدعوم من الدولة، بقدر ما ينطبق على التعليم العام.

(111) لويس دانييل أرمسترونغ (4 أغسطس 1901 - 6 يوليو 1971م)، الملقب بـ ساتشمو، ساتش، وبوبس، عازف بوق أمريكي وملحن ومغني وممثل استعراضى، كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في موسيقى الجاز. امتدت حياته المهنية لخمس عهود، من 1920 إلى 1960م، وخلال عصور

مختلفة من تاريخ موسيقى الجاز. تم إدراجه في قاعة مشاهير الأرائد بي في عام 2017م.

(112) في إشارة إلى سفراء موسيقى الجاز.

(113) تستخدم الكلمة للإشارة إلى هجمات انتحارية قام بها الطيارون اليابانيون ضد سفن الحلفاء في الجزء الأخير من حملة المحيط الهادي إبان الحرب العالمية الثانية. حيث كان الطيارون الانتحاريون (الكاميكازي) يصطدمون بسفن الحلفاء عمداً بطائراتهم المحملة بالمتفجرات والطوربيدات وخزانات الوقود المملوءة بهدف تفجيرها. أصبحت الكلمة تدل على كل العمليات التي يضحي فيها منفذها بنفسه بشكل.

(114) كوميناس فرقة موسيقى بانك روك شكلت في عام 2005م من قبل اثنين من الأمريكيين من أصل باكستاني من وورستر، ماساتشوستس.

(115) Michael Muhammad Knight, (2004), TheTaqwacores.

(116) حركة "أمة الخمسة في المئة" (Five Percent Nation) -وهي مجموعة إسلامية خاصة بالمجتمع الأمريكي الأسود-، وضعها جاي إلكترونيكا، وفي لحظة عابرة، ظهرت موسيقى الهيب هوب كما كانت في السابق: قوية، قاصرة على السود، وذات طابع إسلامي.

(117) سكا-بانك نوع من الاندماج بين موسيقى سكا وموسيقى الروك بانك معاً.

(118) جون وليام كولترين (يُعرف أيضاً باسم "ترين" عاش في الفترة من 23 سبتمبر 1926 وحتى 17 يوليو 1967م) كان عازفاً لموسيقى الجاز وعازف ساكسفون وملحن أمريكي.

(119) الكمبري (القمبري أو الگمبري) "الهجهوج"، "السنتير"، هو آلة موسيقية وترية قديمة وتقليدية تصنع أساساً من الحطب ووبر الجمل، وأوتارها الثلاثة من أمعاء الماعز، خاصة بموسيقى الكناوة (الديوان)، مصدرها شمال أفريقيا ابتكرها الأمازيغ. كمبري اسم أصله يعود للتوارغ ومعناه يحكي قصة الآلة التي صنعها المستعدون من غينيا في شمال أفريقيا.

(120) الهارد بوب، بالإنجليزية: Hard bop هو أحد أنواع الجاز التي هي امتداد لموسيقى البيبوب (أو "bop"). بدأ الصحفيون وشركات التسجيل باستخدام

المصطلح في منتصف خمسينيات القرن العشرين لوصف تيار جديد داخل موسيقى الجاز التي أدرجت التأثيرات من الريذم أند بلوز والموسيقى الإنجيلية والبلوز، خاصة في العزف على الساكسفون والبيانو.

(121) كان فيستوس كلوديوس "كلود" ماكاي (15 سبتمبر 1889 - 22 مايو 1948م) كاتباً وشاعراً جامايكياً، وشخصية بارزة في عصر النهضة في هارلم.

(122) "الكنّانة" أو "الْعَنانة" أو "القنانة" هم مجموعة إثنية في المغرب ينحدرون من سلالة العبيد الذين استجلبوا في العصر الذهبي للإمبراطورية المغربية (نهايات القرن السادس عشر الميلادي) من أفريقيا السوداء الغربية، التي كانت تسمى آنذاك السودان الغربي أو إمبراطورية غانا (دولة مالي الحالية، على الخصوص). وتسمية كنانة هي تحريف لحق الاسم الأصلي الذي كان هو "كينيا" (غينيا)، أو عبيد غينيا كما كانوا دائماً يُسمون، قبل اندماجهم التام في المجتمع المغربي، وما تزال "الطريقة الكنانة" متواجدة في العديد من المدن والقرى المغربية، حتى اليوم، خصوصاً في مدن مراكش والصويرة والرباط ومكناس. وتحظى مدينة الصويرة بمقام المدينة الروحية للطائفة داخل المغرب، فقد كان الميناء البحري للمدينة منذ القرن السابع عشر مركزاً تجارياً مهماً على ساحل المحيط الأطلسي، ونقطة تبادل تجاري مع تمبكتو، عاصمة أفريقيا السوداء المسلمة آنذاك، ومنها كان العبيد يفدون مع الذهب إلى المغرب. ويعتبر ضريح "سيدي بلال" الموجود غرب مدينة الصويرة بمثابة المرجع الأعلى، ومقام الأب الروحي لكنانة، وداخل ضريح ذلك الولي توجد الزاوية التي تحتضن في العشرين من شهر شعبان الموسم السنوي للطائفة الكنانة. وعلى إيقاع الموسيقى القوية والحارة للمجموعات المنتسبة إلى الطائفة، تخرج نخبة من الأتباع في جولات بين المدن لجمع الهبات والصدقات للزاوية، مرتدية لباسها الفلكلوري المميز ذي الألوان الحية، خصوصاً الحمراء والزرقاء. إن شهرة «كنانة» كموسيقيين تجاوزت الحدود المغربية، لتعانق العالمية منذ شرع في تنظيم مهرجان سنوي لـ«كنانة» وموسيقى العالم» بمدينة الصويرة في شهر يونيو. يكمن السر في أنها ليست مجرد موسيقى عادية، بل موسيقى ذات إيقاعات قوية محملة بثقل الأساطير والمعتقدات الموغلة في القدم، ومشحونة بالإرث الحضاري الأفريقي والبربري والعربي.

(123) القراقب هي آلة موسيقية كبيرة تشبه صنجة الحديد تستخدم في إيقاع موسيقى الكنانة.

(124) عائشة قنديشة (تحريف محتمل للقب السيدة النبيلة عائشة الكونتيسة (contessa)، عيشة مولات المرحلة (سيدة المستنقعات) لالة عيشة، عيشة السودانية أو عيشة الكناوية جنية في الفلكلور الشعبي المغربي. تعتبر عيشة قنديشة من أكثر شخصيات الجن شعبية في التراث الشعبي المغربي حيث تتناولها الأغنية الشعبية ويزعم أنه حتى مجرد النطق بلقبها الغريب والمخيف قنديشة يجر اللعنة على ناطقها.

(125) فرقة ناس الغيوان هي فرقة موسيقية مغربية، تأسست في ستينيات القرن الماضي بالحي المحمدي، أحد أفقر أحياء الدار البيضاء وأكثرها شعبية، وله حمولة تاريخية واجتماعية.

(126) التكناويت: هي الموسيقى التي يمارسها الكناوة.

(127) قصبة الجزائر، المعروفة باسم القصبة، تتوافق مع مدينة الجزائر القديمة أو المدينة العتيقة، عاصمة الجزائر، والتي تعتبر من مواقع التراث العالمي لليونسكو منذ عام 1992م. وتقع إدارياً في بلدية القصبة داخل ولاية الجزائر. يعود تاريخها إلى العصور القديمة، حيث إنها أول ميناء بونيقية، ثم الأمازيغ وأخيراً الرومان.

(128) حركة نيو نيجرو بالإنجليزية: New Negro هي حركة أسسها هوبير هاريسون بين عامي 1916-1917م. كانت للحركة مطالب متعلقة بالمساواة السياسية، ووضع حد للفصل العنصري والإعدام بلا محاكمة وكذلك الدعوات للدفاع المسلح عن النفس عند الاقتضاء.

(129) موسيقى الراغتايم هو نوع موسيقي يستخدم اللحن الرخيم القوي مع الإيقاع المتسق المنتظم. تصاحب المقطوعات الموسيقية المعزوفة على البيانو نغمات إيقاعية منتظمة من الجانب الأيسر، ولحن شديد الاتساق من الجانب الأيمن. أصبح مصطلح الراغتايم يستخدم تدريجياً للأشكال الأولى من موسيقى الجاز.

(130) المقصود بالتعامي هنا هو عدم العنصرية ضد السود.

(131) توماس وودرو ويلسون (28 ديسمبر 1856 - 3 فبراير 1924م) هو سياسي وأكاديمي أميركي شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة من عام 1913 إلى 1921م.

(132) هوت كلوب دي فرانس بالفرنسية هو تنظيم فرنسي لعشاق موسيقى الجاز مخصصة للترويج لموسيقى الجاز التقليدية والسوينغ والبلوز. تأسس في عام 1931م في باريس من قبل خمسة طلاب من لاييس كارونت.

(133) كان هنري أوساوا تانر (21 يونيو 1859 - 25 مايو 1937م) فناناً أمريكياً وأول رسام أفريقي أميركي يحصل على شهرة دولية. انتقل تانر إلى باريس في عام 1891م للدراسة، وواصل العيش هناك بعد قبوله في الأوساط الفنية الفرنسية.

(134) فريدريك بول باولز (بالإنجليزية: Paul Bowles) (30 ديسمبر 18-1910 نوفمبر 1999م) هو مؤلف ومترجم أمريكي مغترب، قضى معظم حياته في المغرب، حيث استقر منذ سنة 1947م بطنجة، ولحقته زوجته جين باولز عام 1948م، وباستثناء الخمسينيات من القرن الماضي حيث كان يقضي فصل الشتاء في سريلانكا (المعروفة آنذاك باسم سيلان)، فقد قضى الـ 52 عاماً المتبقية من حياته في طنجة.

(135) مارتينيك (بالفرنسية: Martinique) هي جزيرة تقع في شرق البحر الكاريبي إلى الشمال من ترينيداد وتوباغو. مساحتها 1128 كم2 وعدد سكانها 398000 نسمة (2005م). وهي من مجموعة جزر الأنتيل الصغرى. تعتبر أحد الأقاليم الستة والعشرين المكونة للأراضي الفرنسية.

(136) نحن نصر! هو ألبوم موسيقى صدر عن سجلات كانديد في عام 1960م. يحتوي على مجموعة موسيقية للملحن والعاظف ماكس روتش، وشاعر الغناء أوسكار براون. يشير الغلاف إلى اعتصام حركة الحقوق المدنية.

(137) . (Freedom Now Suite)

(138) . Uhuru Afrika

(139) الحرب الأهلية النيجيرية تعرف أيضاً بحرب بيافرا، كانت عبارة عن نزاع مسلح استمر من 16 يوليو 1967 حتى 13 يناير 1970م في محاولة من ولايات الجنوب الشرقي النيجري للاستقلال عن الدولة الاتحادية في نيجيريا وإعلان جمهورية بيافرا.

(140) الهيبستر هو تعبير جديد ولد في الأربعينيات في الولايات المتحدة لوصف محبي الجاز وخصوصاً البيبوب. ويتعلق الأمر بشباب من الطبقة

الوسطى، وعادة البيض الذين يحتذون بأسلوب حياة عازفي موسيقى الجاز الأميركيين من أصل أفريقي.

(141) تانجاز هو مهرجان دولي لموسيقى الجاز يقام سنوياً في طنجة، المغرب منذ عام 2000م.

(142) أوركسترا باريس الوطنية (ONB) هي مجموعة موسيقى فرنسية تأسست في عام 1995م في باريس، وبصورة أدق في منطقة باريس من حيث تأخذ اسمها.

(143) كناوة ديفيوشن بالإنجليزية (Gnawa Diffusion) هي فرقة موسيقى كناوة جزائرية مقرها في غرونوبل، فرنسا. المغني الرئيس للمجموعة الأمازيغية هو ابن الكاتب والشاعر الجزائري كاتب ياسين. على الرغم من وجود تأثير قوي لموسيقى الكناوة، إلا أن الفرقة معروفة بمزيجها من موسيقى الريغي والجدور. تحظى الفرقة بشعبية كبيرة في الجزائر ومعروفة أيضاً في العديد من البلدان الأخرى بما في ذلك المغرب وتونس وفرنسا. كلمات أغاني الفرقة مكتوبة باللغة العربية الجزائرية والأمازيغية والفرنسية والإنجليزية. بدأت الفرقة مسيرتها المهنية في عام 1993م مع صدور ألبوم *Légitime difference*.

(144) أمازيغ (الاسم الذاتي الحالي) أو بربر هم مجموعة إثنية من شمال أفريقيا وتحديداً بلاد المغرب. يتحدثون لغات ذات صلة تنتمي إلى عائلة اللغة الأفروآسيوية. يتواجد الأمازيغ اليوم في المغرب والجزائر وليبيا، بالإضافة إلى نسب متفاوتة في تونس موريتانيا، مصر، مالي، النيجر أما الشتات الأكبر فيعيش في دول المهجر مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا وكندا وبلدان أخرى.

(145) جورج أورسن ويلز (10 مايو- 1915 أكتوبر 1985م) المعروف بأورسن ويلز. كان مخرج أفلام ومؤلفاً وممثلاً نتأمل عمل في مجال السينما والمسرح والتلفزيون والراديو. امتاز بإنتاجاته الدرامية المبتكرة وبصوته المميز وشخصيته. يعتبر ويلز أحد أهم فناني الدراما في القرن العشرين.

(146) جيمي هندريكس، (27 نوفمبر 1942 - 18 سبتمبر 1970م) عازف بلوز وروك أمريكي من أصل أفريقي، عرف بمهارته في عزف الغيتار الكهربائي. توفي في سن مبكر (27 عاماً)، ولكن كان له تأثير كبير على التغييرات في موسيقى الروك أند رول. كما ساهم في تطوير آلة الغيتار الكهربائي وإدخال بعض الخواص عليه.

(147) تأسست فرقة «جيل جلاله» الموسيقية في المغرب عام 1972م، وعملت مع المخرج المغربي الطيب الصديقي. والتزمت الفرقة بتطوير الموسيقى الأندلسية والأغاني الشعبية المغربية التي تخدم القضايا الاجتماعية والسياسية تعتمد الآلات الإيقاعية والوثنية.

(148) لمشاهب هي مجموعة موسيقية مغربية تأسست عام 1974م في حي المحمدي الدار البيضاء، اشتهرت الفرقة بجرأة نصوصها التي انتقدت فيها تجاوزات وقى الذي أدخلت عليه آلات كهربائية عصرية تجسدت في نمط أغانيها الغربي الذي اعتمدت فيه على المزج بين أنماط موسيقية عديدة في الغالب متضادة مثل الروك والموسيقى الأمازيغية. وقد حققت فرقة لمشاهب نجاحاً كبيراً منذ السبعينيات إلى الثمانينيات

(149) تفجيرات ماراثون بوسطن 2013م هما تفجيران متتاليان وقعا بعد ظهر يوم 15 أبريل 2013م في مدينة بوسطن الأمريكية قرب خط نهاية ماراثون بوسطن 2013م، الذي شارك فيه أكثر من 27 ألف شخص واحتشد عشرات الآلاف من المتفرجين على جانبي الشارع لمتابعة الماراثون.

(150) شقيقان من أصل شيشاني، جوهر تسارنايف (19 عاماً) وتامرلان تسارنايف (26 عاماً). اشتبكت الشرطة الجامعية التابعة لمعهد ماساتشوستس مع المشتبه بهما في ليلة الـ 18. فُقتل شرطي جامعي في الاشتباك ومات أحد المشتبه بهما بالمستشفى في الصباح التالي نتيجة للإصابات البالغة التي أصيب بها في الحادث.

(151) كومنتري هي مجلة شهرية أمريكية مهتمة بالأمور السياسية واليهودية والمجتمع والثقافة. أسست سنة 1945م من قبل اللجنة اليهودية الأمريكية.

(152) جريدة يتم نشرها مرة أو مرتين في الأسبوع.

(153) Omi, Michael; Winant, Howard (1986), Racial Formation in the United States (1st ed.), New York: Routledge

(154) عبد الرحمن منيف، (1984)، مدُن الملح.

(155) حركة حزب الشاي أو حركة حفلة الشاي، بالإنجليزية: Tea Party Movement هي حركة أميركية شعبية وسياسية معترف بها عموماً من قبل المحافظين والليبراليين، قامت باحتجاجات سياسية عدة منذ عام 2009م. لكن الحركة لم تنظم حزباً سياسياً، لكنها أيدت بعض المرشحين الجمهوريين،

فأصبح لها تمثيل في مجلس النواب ومجلس الشيوخ في الولايات المتحدة من خلال الأعضاء المرشحين في الحزب الجمهوري الأمريكي. تظهر استطلاعات الرأي أن معظم أعضاء حركة الشاي يعتبرون أنفسهم جمهوريين.

Jackson, Sherman. Islam and the Blackamerican: Looking toward the (156). Third Resurrection. New York: Oxford University Press, 2005

(157) بيل أوراييلي، بالإنجليزية: Bill O'Reilly مذيع وإعلامي أمريكي محافظ ولد في 10 سبتمبر 1949م. يقدم برنامج عامل أوراييلي The O'Reilly Factor على شبكة فوكس الإخبارية. يعتبر أحد أبرز الرموز المحافظة في أمريكا، وكثيراً ما يخوض جدالات ونقاشات مع اليسار الأمريكي، وقادة الحزب الديمقراطي.

(158) لعب المقدم على تشابه الكلمتين polish people و posh people الأولى تعني "الأغنياء"، والثانية "البولنديين".

(159) بالإنجليزية: Racecraft هو مصطلح ألفته الكاتبتان كارين إي. فيلد وباربرا جاي. فيلد ومعناه (وهم العرق الذي أنتجته ممارسة العنصرية).

(160) لويك فاكون، بالفرنسية: Loïc Wacquant ولد عام 1960م، وهو عالم اجتماع متخصص في علم الاجتماع الحضري، الفقر الحضري، عدم المساواة العرقية، الجسد، النظرية الاجتماعية والإثنوغرافيا.

(161) الموارد هي مجموعة دينية تقطن في سواحل بلاد الشام وخاصة في لبنان وتتبع الكنيسة المارونية. تعود تسميتهم إلى مار مارون الراهب السرياني الذي عاش في شمال سوريا خلال القرن الرابع وانتقل اتباعه لاحقاً إلى جبل لبنان ليقترن أسمهم به منذ القرن العاشر الميلادي مؤسسين بذلك الكنيسة المارونية.

(162) تسرب البرقيات الدبلوماسية للولايات المتحدة الأمريكية هي حادثة تسرب معلومات سرية لمراسلات بين وزارة الخارجية الأمريكية وبعثاتها الدبلوماسية حول العالم بدءاً من 28 نوفمبر 2010م على موقع ويكيليكس وخمس صحف عالمية رئيسية أخرى، ومن المخطط الانتهاء من نشر جميع الوثائق البالغ عددها 251,287 على مدار عدة أشهر. يعد تسرب الوثائق هذا الثالث من سلسلة "التسريبات الضخمة" للوثائق السرية على موقع ويكيليكس لسنة 2010م بعد تسريب وثائق حرب أفغانستان في يوليو وحرب العراق في أكتوبر. وظهرت أول 291 وثيقة من إجمالي 251,287 وثيقة سرية

بتاريخ 28 نوفمبر على صفحات كل من الباييس الإسبانية ولوموند الفرنسية ودير شبيغل الألمانية الغارديان البريطانية ونيويورك تايمز الأمريكية في وقت واحد. ومن إجمالي الوثائق يوجد حوالي 130,000 وثيقة غير سرية؛ و100,000 وثيقة مصنفة بخاص و15,000 مصنفة بسري وليس من بينها أي وثيقة بها ختم "سري للغاية". وتخطط ويكيليكس لنشر جميع البرقيات والوثائق على مراحل خلال الأشهر التالية.

(163) ذكرى الموسوي أحد المتهمين بالوقوف خلف تفجيرات برج التجارة العالمية في نيويورك عام 2001م.

(164) ريتشارد ريد متهم بمحاولة تفجير طائرة ركاب أمريكية في رحلتها بين باريس وميامي بواسطة العبوة التي كان يخبئها في حذائه.

(165) حركة الحقوق المدنية هي حركة اجتماعية في الولايات المتحدة كان هدفها تجريم التمييز العنصري ضد الأمريكيين الأفارقة وإعادة حق التصويت لهم. كان أبرز نشاط لهذه الحركة بين عامي 1955 و 1968م وعلى وجه الخصوص في جنوبي الولايات المتحدة.

(166) Frances Stonor Saunders, (1999), The Cultural Cold War.

(167) كانت مجلة Partisan Review عبارة عن "مجلة صغيرة" فصلية صغيرة تتعامل مع الأدب والسياسة والتعليقات الثقافية المنشورة في مدينة نيويورك. تم إطلاق المجلة في عام 1934م من قبل الحزب الشيوعي، والنادي جون ريد في الولايات المتحدة، وكان في البداية جزءاً من المدار السياسي الشيوعي.

(168) <https://www.kenyonreview.org>

publications like the Partisan Review and the [Kenyon Review](#), and in "1953"

(169) إرفنج كرسطول (بالإنجليزية: Irving Kristol) (1920 – 2009م) هو مؤرخ، واجتماعي، وصحفي من الولايات المتحدة الأمريكية. ولد في مدينة نيويورك. وهو عضو في الحزب الجمهوري، وعضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم..

(170) القيادة العسكرية الأميركية في إفريقيا (USAFRICOM) هي وحدة مكونة من قوات مقاتلة موحدة تحت إدارة وزارة الدفاع الأمريكية وهي مسؤولة عن العمليات العسكرية الأمريكية وعن العلاقات العسكرية مع 53 دولة أفريقية في أفريقيا عدا مصر، التي تقع في نطاق القيادة المركزية الأمريكية. وكانت القيادة الأفريقية قد تأسست في 1 أكتوبر، 2007م، كقيادة مؤقتة تحت القيادة الأمريكية لأوروبا، والتي كانت مسؤولة لأكثر من عقدين عن العلاقات العسكرية الأمريكية مع أكثر من 40 دولة أفريقية. وقد بدأت القيادة الأفريقية نشاطها رسمياً في 1 أكتوبر، 2008م، من خلال احتفال في وزارة الدفاع حضره ممثلون عن الدول الأفريقية في واشنطن دي سي.

(171) الكرمينولوجي (Kremlinology) هو دراسة وتحليل للسياسات الروسية، يستخدم المصطلح أحياناً ليعني أي محاولة لفهم منظمة أو عملية سرية، مثل خطط المنتجات أو الأحداث القادمة، من خلال تفسير الأدلة غير المباشرة.

(172) برنامج وكالة الاستخبارات المركزية العالمي COINTELPRO عبارة عن سلسلة من المشاريع السرية، وفي بعض الأحيان غير قانونية، والتي نفذها مكتب التحقيقات الفيدرالي في الولايات المتحدة (FBI) والتي تهدف إلى الاستطلاع، والتسلل، وتشويه سمعة المنظمات السياسية المحلية.

(173) فورين أفيرز (بالإنجليزية: Foreign Affairs) هي مجلة أميركية تصدر كل شهر عن مجلس العلاقات الخارجية، وهو خلية تفكير مستقلة متخصصة في السياسة الخارجية.

(174) ألان كارينيون، المولود في 23 فبراير 1949م في فيزيل (إيزير)، سياسي فرنسي محافظ. رئيس بلدية غرونوبل من عام 1983 إلى عام 1995م، أصبح وزيراً مبتدئاً مسؤولاً عن القضايا البيئية في حكومة شيراك الثانية. في عام 1986م اقترح تشريعات ضد المخاطر الإشعاعية الكبرى. ثم أصبح وزيراً مكلفاً بالإعلام والاتصالات في حكومة بالادور، لكنه اضطر إلى الاستقالة من هذا المنصب عندما أصبحت إدانته بالفساد أمراً لا مفر منه. وحكم عليه في وقت لاحق بالسجن لمدة أربع سنوات، قضى فيها 29 شهراً، وهو الأطول على الإطلاق لسياسي فرنسي أدين بالفساد.

(175) عبد الملك، المولود ريجيس فايت-ميكانو (ولد في 14 مارس 1975م في باريس)، مغني راب فرنسي وفنان محكي من أصل كونغولي. قام بتأليف كتب باللغة الفرنسية، وأخرج قيلمًا يتكيف مع أحد كتبه.

(176) ميدين زاويزش (مواليد 24 فبراير 1983م في لوهافر)، المعروف باسمه المسرحي "ميدين"، مغني راب فرنسي جزائري. كان من أفراد فرقة الهيب هوب "البوصلة - La Boussole" منذ عام 1996م، تتحدث العديد من أغانيه عن المصاعب التي يواجهها من يعيشون تحت خط الفقر -مهاجرون، مظلومون ومسلمون- في الغرب.

(177) الصلام هو فن كلامي ظهر سنة 1986م في الولايات المتحدة، ويعتبر الشاعر الأمريكي مارك سميث أول من مارس هذا النوع من الفن.

(178) هو أحد الوسائل العنيفة التي تستخدمها الجهات المعنية بالتحقيق مع الشخص المستجوب للتأثير عليه لإرغامه على الاعتراف أو الإدلاء بمعلومات ما، وتعتبرها كثير من منظمات حقوق الإنسان وسيلة من وسائل التعذيب المحرمة.

(179) New Muslim Cool.

(180) Deen Tight.

(181) مللي غوروش بالتركية Milli Görüş، ومعناها "الرؤية الوطنية"، هي حركة سياسية دينية ومجموعة من الأحزاب الإسلامية مستلهمة من نجم الدين أربكان. أطلق عليها اسم "منظمات الشتات التركية الرائدة في أوروبا"، ووصفت بأنها أكبر منظمة إسلامية تعمل في الغرب. تأسست في عام 1969م، وأعلنت الحركة في عام 2005م أن لها 87.000 عضو في جميع أنحاء أوروبا، منهم 50.000 فقط في ألمانيا.

(182) يعتبر قانون الولايات المتحدة لتبادل المعلومات والتثقيف لعام 1948م (القانون العام 80-402)، المعروف باسم قانون سميث-موندت، هو الترخيص التشريعي الأساس لأنشطة الدعاية التي تقوم بها وزارة الخارجية الأمريكية، والتي يطلق عليها أحياناً "الدبلوماسية العامة". تم تقديم هذا القانون لأول مرة من قبل عضو الكونغرس كارل م. موندت (R-SD) في يناير 1945م في المؤتمر 79. ثم تم تمريره من قبل الكونغرس الثمانين ووقع عليه الرئيس هاري ترومان ليصبح قانوناً في 27 يناير 1948م.

(183) مجلس أمناء البث (BBG) هو وكالة مستقلة تابعة لحكومة الولايات المتحدة. ووفقاً لموقعها على الويب، فإن مهمتها هي "إعلام الناس حول العالم وإشراكهم وتوصيلهم لدعم الحرية والديمقراطية".

(184) [حادثة القتل الجماعي في المركز التجاري ويست غايت هو هجوم إرهابي وقع بين 21 سبتمبر و24 سبتمبر 2013م، في المركز التجاري ويست غايت في نيروبي عاصمة كينيا، بين عناصر من حركة الشباب المجاهدين والقوات المسلحة الكينية إضافة إلى خبراء إسرائيليين.](#)

(185) [مشروع مارشال هو المشروع الاقتصادي لإعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الذي وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الأميركي أثناء الحرب العالمية الثانية، ووزير الخارجية الأميركي منذ يناير 1947م، والذي أعلنه بنفسه في 5 يونيو من ذلك العام، في خطاب أمام جامعة هارفارد، حيث كانت الهيئة التي أقامتها حكومات غرب أوروبا للإشراف على إنفاق 12.9925 مليار دولار أميركي قد سميت " منظمة التعاون والاقتصادي الأوروبي"، وقد ساهمت هذه الأموال في إعادة إعمار وتشغيل الاقتصاد والمصانع الأوروبية.](#)

(186) [الأهالية هي نهج سياسي يقوم على حماية مصالح أهل البلاد الأصليين وتقديمها على مصالح المهاجرين.](#)

(187) [تشن لو أند ذا ليبريشن فاميلي، بالإنجليزية: Chen Lo and the Liberation Family هي فرقة راب أمريكية جندت بواسطة وزارة الخارجية الأمريكية في جولات الهيب هوب التي بدأت عام 2010م.](#)

(188) [عدم التدخل من التعبير الفرنسي Laissez-faire ويعني حرفياً "دعه يعمل دعه يمر"، وهو مصطلح يشير في الاقتصاد إلى ترك الحكومة التجارة دون التدخل فيها، وهو مبدأ رأسمالي تدعمه الليبرالية الاقتصادية حيث ترفض التدخل الحكومي في السوق. ويعتقد الليبرтариون أن عدم التدخل في السوق يحقق ازدهاراً اقتصادياً أكبر للدولة مقارنة مع النظم الاقتصادية الأخرى كما تعتبر حرية التملك الفردية المطلقة عندهم جزءاً من الحرية الشخصية.](#)

(189) [آلو سيدي الرئيس Alô Presidente: كان برنامجاً حوارياً يقدمه الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز. تم بثه على محطات التلفزيون والإذاعة الفنزويلية الحكومية كل يوم أحد في تمام الساعة 11:00 صباحاً. لم يكن للبرنامج وقت انتهاء محدد، ولكنه عادة ما ينتهي بحلول الساعة الخامسة مساءً، أو كما تسمح ديناميات البرنامج. دعم البرنامج "الثورة البوليفارية"، وألقى باللوم على جارتهم الشمالية، الولايات المتحدة، أنها سبب المشاكل الاقتصادية التي يمرون بها. العديد من الفنزويليين كانوا يتابعون البرنامج لأن تشافيز كان](#)

معروفاً بإزاحة الستار عن عروض مساعدات مالية جديدة في نهاية كل أسبوع.

(190) حركة احتلوا أو احتجاجات احتلوا هي حركة احتجاجات عالمية، بدأت بحركة احتلوا وول ستريت في مدينة نيويورك الأمريكية، في 17 سبتمبر 2011م، ثم توسعت تدريجياً لتشمل كامل الولايات المتحدة الأمريكية، قبل أن تتحوّل إلى حركة عالمية في 15 أكتوبر.

(191) طريق الإيقاع بالإنجليزية: American Music Outroad هو برنامج تبادل ثقافي بقيمة 1.5 مليون دولار سنوياً للموسيقيين الذين يرعاهم جزء من مكتب الشؤون التعليمية والثقافية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية. هذا البرنامج شراكة مع جاز آت لينكولن سنتر. ويوفر البرنامج فرصة للموسيقيين الأمريكيين للوصول إلى مناطق في العالم لا يحبز فيها المجتمع الأمريكي وثقافته بشكل خاص. منذ إنطلاقه في عام 2005م، شارك 150 موسيقياً في طريق الإيقاع، وسافروا إلى أكثر من 100 دولة. ترسم وزارة الخارجية صلة مباشرة بين هذا البرنامج وبرنامج سفراء الجاز خلال فترة الحرب الباردة، عندما شارك أساطير موسيقى الجاز مثل ديزي غيلبسي، لويس أرمسترونغ ودايف بروبيك في جولات عالمية نيابة عن وزارة الخارجية.

(192) يعد Jazz at Lincoln Center جزءاً من مركز لينكولن للفنون المسرحية في مدينة نيويورك. تأسس في عام 1987م وافتتحت في أكتوبر 2004م. ويتنون مارساليس هو المدير الفني وزعيم موسيقى الجاز في مركز لينكولن الأوركسترا.

(193) موسيقى بلوغراس أو موسيقى بلوكراس (بالإنجليزية: bluegrass) هو شكل من أشكال موسيقى الجذور الأميركية، ونوع متصل بموسيقى كانتري. يتأثر البلوكراس بموسيقى منطقة الأبالاش وجذوره ضاربة في تقاليد إيرلندا وسكوتلندا وإنجلترا الموسيقية وتأثر كذلك بموسيقى الأميركيين الأفارقة بإدراج عناصر موسيقى الجاز.

(194) موسيقى الريف (بالإنكليزية: Country Music) هو نوع من الموسيقى الأمريكية الشعبية المرتبطة بالثقافة الريفية والإقليم الجنوبي من الولايات المتحدة. تطورت في القرن التاسع عشر الميلادي من دمج عدة عناصر شملت الموسيقى الشعبية البريطانية، وموسيقى البلوز للريفيين في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، والأغاني الشعبية لآخر القرن التاسع عشر الميلادي، إلى جانب الموسيقى الدينية.

(195) الغوسبل "الغناء الإنجيلي: غناء ديني مسيحي، تطوّر في الثلاثينيات عند الأمريكيين الأفارقة بدايةً، وبيض جنوب الولايات المتحدة ثم غزا بقية العالم. معنى كلمة غوسبل بالإنكليزية "الإنجيل" أو "البشارة". وهو أسلوب يعتمد على أصوات الجوقة وصفق الأيدي وما إلى ذلك. أمّا المواضيع فمأخوذة من العهد الجديد.

(196) موسيقى الكيجون هي موسيقى رمزية من لوزيانا، متجذرة في أغنيات الأكاديميين الكنديين الناطقين بالفرنسية. غالباً ما يتم ذكر موسيقى الكيجون بالترادف مع موسيقى الزايدكو المبنية على الكريول، وكلاهما أثر على الآخر بطرق عدة. أثرت أصوات لوزيانا الفرنسية هذه على الموسيقى الشعبية الأمريكية لعدة عقود، خاصة الموسيقى الريفية، وأثرت على ثقافة البوب من خلال وسائل الإعلام، مثل الإعلانات التلفزيونية.

(197) الزايدكو هو النوع الموسيقي الذي تطور في جنوب غرب لوزيانا من قبل المتحدثين بالفرنسية الكريولية. وهو يمزج بين البلوز والريثم بلوز، والموسيقى الأصلية في لوزيانا.

(198) الفولك أو الموسيقى التقليدية تمثل مجموع الموسيقى المرفقة إلى ثقافة وطنية أو جهوية أو إلى منطقة جغرافية. الموسيقى الشفهية، أو الشعبية استرسلت بالأذن، لكن بعض الفرق والموسيقيين الحاليين يفضلون نقلها على أجزاء، كي يتم ترجمتها وتصنيفها. الموسيقى الشعبية تختلف عن تلك الفولكلورية لأنها لا تركز على إظهار ماضي الموسيقى، بل تركز على إحياء الموسيقى المرتبطة بالتراث الثقافي الشعبي في حالته.

(199) هارد روك Hard rock موسيقى غربية مشتقة من موسيقى الروك، انتشرت في منتصف ستينيات القرن الماضي. يمكن تمييز موسيقى الهارد روك من اللحن الصاخب نوعاً ما للغيتر الكهربائي والباس غيتار والدرامز.

(200) الهيفي ميتال Heavy Metal أو فقط ميتال Metal للاختصار، لون من ألوان موسيقى الروك تطور خلال سبعينيات القرن العشرين عن البلوز والهارد روك. يمتاز الميتال بقوة الموسيقى وحررتها من القيود، ويمتاز أيضاً بصوت الغيتار القوي الذي يكون عالي التشويش، مع استعمال الدرامز والباس غيتار. وتختلف كلمات الأغاني من نوع إلى آخر، وتحدث في المجمل عن الموت وقصص الفنتازيا وميثولوجي الحروب والحزن وخصوصاً المشاكل الاجتماعية والسياسية وغيرها الكثير.

(201) الهامفي، بالإنجليزية: Humvee هي سيارة عسكرية أمريكية متعددة المهام وعالية الأداء، والأكثر استخداماً لدى القوات الأمريكية على الإطلاق. ولقد صنعت أساساً لحاجة الولايات المتحدة لاستبدال عدد من سياراتها العسكرية القديمة بأخرى حديثة عالية الأداء.

(202) فيلم "الكراهية التي أنتجتها الكراهية بالإنجليزية: The Hate That Hate Produced هو فيلم وثائقي تلفزيوني عن "القومية السوداء" في أمريكا، يركز على "أمة الإسلام"، وبدرجة أقل "الحركة القومية الأفريقية المتحدة". تم إنتاجه في عام 1959 من قبل مايك والاس ولويس لوماكس.

(203) . Robin Wright, (2012), In Rock the Casbah .

(204) طارق الطيب محمد البوعزيزي (29 مارس 1984 - 4 يناير 2011م)، هو شاب تونسي قام يوم الجمعة 17 ديسمبر عام 2010م بإضرام النار في نفسه أمام مقر ولاية سيدي بوزيد احتجاجاً على مصادرة السلطات البلدية في مدينة سيدي بوزيد لعربة كان يبيع عليها الخضار والفواكه لكسب رزقه، وللتنديد برقض سلطات المحافظة قبول شكوى أراد تقديمها في حق الشرطة فادية حمدي التي صفعته أمام الملاء وقالت له: بالفرنسية: Dégage أي ارحل (فأصبحت هذه الكلمة شعار الثورة للإطاحة بالرئيس وكذلك شعار الثورات العربية المتلاحقة). أدى ذلك لانتفاضة شعبية وثورة دامت قرابة الشهر أطاحت بالرئيس زين العابدين بن علي، أما محمد البوعزيزي فقد توفي بعد 18 يوماً من إشعاله النار في جسده. أضرم على الأقل 50 مواطناً عربياً النار في أنفسهم لأسباب اجتماعية متشابهة تقليداً لاحتجاج البوعزيزي. أقيم تمثال تذكاري تخليداً له في العاصمة الفرنسية باريس.

(205) التضحية بالنفس هي أن يضحي الشخص بنفسه دون تدخل شخص آخر. وهي وسيلة مطبقة منذ العصور القديمة ونجدها في الثقافات المختلفة. استخدمت في القرن العشرين كوسيلة احتجاج ووسيلة ضغط سياسية واجتماعية.

(206) المسجد الإسلامي أو منظمة المسجد الإسلامي المحدودة هي منظمة إسلامية تم إنشاؤها على يد الحاج مالك الشباز (المعروف باسم مالكوم إكس) في 12 مارس 1964م، بعد أربعة أيام من خروجه عن منظمة أمة الإسلام. وقدمت هذه المنظمة الكتب والمقتنيات الإسلامية. وقد حلت هذه المنظمة بعد فترة قصيرة من اغتياله في عام 1965م.

(207) الفهود السود، بالإنجليزية: Black panther حركة حقوقية لسود الولايات المتحدة، نشأت بعد مقتل مالكوم إكس وما عقبه من توترات راح ضحيتها أكثر من 300 مواطن أسود، مما جعل جمعيات سوداء تؤسس ما يسمى بمنظمة الفهود السود للدفاع عنهم. وقد كانت المنظمة تحمل السلاح ولا تنبذ العنف، ودخلت في اشتبكات عديدة مع الشرطة، مما جعل الكثير يصنفها كإرهابية آنذاك.

(208) سورة البقرة، الآية 156.

(209) غرب زدكي (بالعربية: نزعة التغريب) هو كتاب للكاتب الإيراني جلال آل أحمد والذي نُشر في عام 1962م في إيران. يعرف جلال آل أحمد نزعة التغريب (غرب زدكي بالفارسي) بأنها مجموعة الأعراض الغربية التي تطرأ على الحياة في جوانبها الثقافية والحضارية والفكرية من دون أن يكون لها أية جذور في التراث أو أي عمق في التاريخ وبدون أن يكون دخولها تدريجياً يسمح بالاستعداد لها.

(210) باوندلس إنفورمانت، بالإنجليزية: Boundless Informant هو نظام تحليل البيانات الضخمة، وعرض البيانات التصورية، الذي تستخدمه وكالة الأمن القومي (NSA) الأمريكية لإعطاء المديرين العاملين لديها ملخصات لأنشطة جمع البيانات التي تقوم بها وكالة الأمن القومي حول العالم. وقد ورد له وصف في مذكرة غير مصنفة تحت عنوان الأسئلة الأكثر تكراراً للاستخدام الرسمي فقط نشرتها صحيفة الغارديان. ووفقاً لعرض المخطط الحراري السري للغاية الذي نُشر أيضاً في صحيفة الغارديان والذي تم إعداده بواسطة برنامج باوندلس إنفورمانت، فإن ما يقرب من 3 مليارات عنصر من عناصر البيانات من داخل الولايات المتحدة قد تم جمعها بواسطة وكالة الأمن القومي على مدى فترة زمنية بلغت 30 يوماً، وانتهت في مارس 2013م.

(211) Amy Chua, (2007), Day of Empire .

(212) موريس المديوني مغني جزائري ولد في 18 أكتوبر 1928م في وهران غرب الجزائر ويؤدي الأغنية الرايوية البدوية أو الوهرانية عاش وتعلم في الجزائر حتى الاستقلال حين غادرها ليعيش في فرنسا بعد هجرة اليهود الجزائريين.

(213) الأقدام السوداء (بالفرنسية: Pieds-Noirs) تسمية تطلق على المستوطنين الأوروبيين الذين سكنوا أو ولدوا في الجزائر إبان الاحتلال

الفرنسي للجزائر (1830-1962م). أغلبيتهم تنحدر من أصول فرنسية أو إيطالية أو إسبانية أو مالطية وحتى من أوروبا الشرقية.

(214) زينات الوهرانية مغنية راي جزائرية فرنسية من يهود الجزائر واسمها الحقيقي سلطانة داود ولدت في 1915م في تيارت غرب العاصمة الجزائرية وتوفيت في 17 نوفمبر 1998م في باريس.

(215) بلان بلان مغنّ جزائري من يهود الجزائر، اسمه الحقيقي ألبير رويمي ولد في تلمسان غرب الجزائر حوالي 1920م وكان يؤدي الأغنية الرايوية الوهرانية القديمة التي سمعها العرب واليهود في الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي، هاجر إلى فرنسا بعد استقلال الجزائر.

(216) لوك شرقي هو مغنّ فرنسي من يهود الجزائر ولد سنة 1936م في جيجل شرق العاصمة ويغني الأغنية الأندلسية التي كان يؤديها العرب واليهود على حد سواء، هاجر إلى فرنسا بعد استقلال الجزائر.

(217) رايموند ليريس (بالفرنسية: Raymond Leyris) المعروف بالشيخ رايموند أو الشيخ ريمون ولد عام 1912م بمدينة قسنطينة؛ موسيقي يهودي جزائري، يعتبر من رواد الأغنية العربية الأندلسية المعروفة بالمالوف، ويعزف على العود، وهو مغنّ ذو سمعة طيبة من طرف العرب واليهود. ولد من أب يهودي جزائري من باتنة وأم فرنسية. تركته عائلته في خضم الحرب العالمية الثانية وتبنته عائلة يهودية فقيرة. سجل أكثر من ثلاثين ألبوماً ما بين 1956 و 1961م. اغتيل الشيخ رايموند في 1961م برصاصة في العنق بينما كان يتجول مع ابنته فيفان في سوق قسنطينة المعروف بسوق العصر، وذلك بسبب موقفه المناهض لاستقلال الجزائر من فرنسا. كان لاغتياله أثر بليغ على الطائفة اليهودية الجزائرية التي بدأت منذئذ بالهجرة نحو فرنسا.

(218) سفارد (بالعبرية: 7650) اسم مدينة في آسيا الصغرى تربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ، فترجمت الكلمة في الترجمات (الترجمة الآرامية لأسفار موسى الخمسة) إلى «إسباميا»، و«سباميا»، أما في البشيطا (الترجمة السريانية لأسفار موسى الخمسة) فهي "إسبانيا". وابتداءً من القرن الثامن الميلادي، أصبحت كلمة "سفارد" هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا. وتستخدم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا.

(219) ليلي بونيش (إيلي بونيش، 1921 - 6 مارس 2008م) كان مغنياً جزائرياً للموسيقى الأندلسية العربية. كان بونيش وريثاً لتقليد ثقافي له قرون ضمن الأغنية الجزائرية وأحد أعمدة الموسيقى الفرنسية.

(220) محمد الكامل، واسمه الحقيقي محمد هامل، من مواليد 1919م في الجزائر وتوفي في باريس عام 1956م، كان مغنياً وممثلاً وكاتب أغاني.

(221) محي الدين بشطارزي (5 ديسمبر 1897م في الجزائر العاصمة - 6 فبراير 1986م بالجزائر) كان مخرجاً، ومؤلفاً جزائرياً. بدأ حياته قارئاً للقرآن الكريم في مساجد الجزائر العاصمة، وشارك مع طلبة المدارس الإسلامية في تمثيل عدة مسرحيات. شكل محي الدين بشطارزي مع مجموعة من الهواة قرقة "المطربية" التي كانت تقدم أعمالاً مسرحية ممزوجة بالغناء والرقص.

(222) القودقيل (بالفرنسية: Vaudeville) هو نوع مسرحي من وسائل الترفيه المتنوعة وكان شعبياً خاصة في الولايات المتحدة وكندا منذ بداية الـ 1880 حتى أوائل الـ 1930م، نوعية أداء القودقيل تتكون من سلسلة من فصول وأعمال لا علاقة لها ببعضها يجمعها قانون مشترك، أنواع الأعمال تتضمن أعمال الموسيقيين الشعبية والكلاسيكية والمغنين والراقصين والكوميديين والحيوانات المدربة والسحرة والأكروبات والأغاني المصورة واللاعبين، ومسرحيات من فصل واحد أو مشاهد من مسرحيات ورياضيين والمنشدين والأفلام، وغالباً ما يشار إلى أداء القودقيل على أنه "القودقيل".

(223) فولي بيرغير (بالفرنسية: Folies Bergère) وهي قاعة كباريه موسيقية تتواجد في مدينة باريس عاصمة فرنسا بنيت في سنة 1869م وهي واحدة من أشهر القاعات في العالم والتي تقدم الموسيقى والرقص.

(224) زرياب (789 – 857م) (173 - 243 هـ). هو أبو الحسن علي بن نافع الموصلي، موسيقي ومطرب عذب الصوت من بلاد الرافدين من العصر العباسي (عاصر الخليفة العباسي هارون الرشيد). كانت له إسهامات كبيرة وعديدة وبارزة في الموسيقى العربية والشرقية. لُقّب بزرياب لعذوبة صوته ولون بشرته الداكن.

(225) إدموند ناثن يافيل (1874 - أكتوبر 1928م) مؤلف جزائري.

(226) فرنسا الفيشية (بالفرنسية: Régime de Vichy، نظام فيشي)، رسمياً الدولة الفرنسية (بالفرنسية: État Français). استمرت بين يوليو 1940 وسبتمبر 1944م، وقد خلفت الجمهورية الثالثة وأعلن قيام حكومتها

المارشال فيليب بيتان وذلك عقب سقوط فرنسا بيد ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية، وانتخبت تلك الحكومة من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ 10 يوليو 1940م مع منحها صلاحيات واسعة لبيتان كرئيس للحكومة.

(227) [ميتزفة](#) (بالعبرية: ברמצוה) هو حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره، أي عندما يُعتبر مكلفاً بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة اليهودية (الهالاخاه). هذا الحفل تلتزم به جميع الطوائف اليهودية وهو شائع حتى لدى اليهود العلمانيين.

(228) [مرسوم كريميو](#) (بالفرنسية: [krɛmjø]) قانون يمنح الجنسية الفرنسية لغالبية السكان اليهود في الجزائر الفرنسية (حوالي 35,000)، الذي وقعته حكومة الدفاع الوطني في 24 أكتوبر 1870م خلال الحرب الفرنسية البروسية. تم تسمية المرسوم على اسم المحامي الفرنسي اليهودي ووزير العدل أدولف كريميو، الذي أسس التحالف الإسرائيلي العالمي قبل عقد من الزمان.

(229) [مسعود المديوني](#)، المعروف باسم "سعود لأورانييس" (وهران 25 نوفمبر 1886م – معسكر الاعتقال سوبيبور بعد 23 مارس 1943م) كان زعيم الفرقة اليهودية-الجزائرية المشهورة ومالك مقهى وهران الأصلي.

(230) [لا كوكاراشا](#) La Cucaracha "الصرصور" هي أغنية شعبية تقليدية إسبانية، مشهورة في المكسيك، وهي غير معروفة عندما ظهرت الأغنية. تصف الأغنية الأساسية صرصور لا يستطيع المشي.

(231) [بوغى ووغى](#) هو نوع من الموسيقى التي أصبحت شعبية خلال أواخر 1920م، وانتشرت في المجتمعات الأميركية الأفريقية في 1870م.

(232) [الحسين بن بوشعيب](#)، الملقب والمعروف فنيًا بالسلامي نسبة إلى مدينة سلا، حيث يرجع أصله ومسقط رأسه، التي رأى فيها النور سنة 1921م.

(233) [بلديون أو إنديجان](#) فيلم فرنسي للمخرج الجزائري رشيد بوشارب.

(234) [أولئك الذين نشؤوا في الولايات المتحدة أثناء فترة الكساد العظيم](#)، ثم ذهبوا للقتال في الحرب العالمية الثانية، وكذلك أولئك الذين أدت إنتاجيتهم داخل الجبهة الداخلية للحرب إلى مساهمة مادية حاسمة في المجهود الحربي.

(235) بوبليك برودكاستينغ سيرفيس (بالإنجليزية: Public Broadcasting Service) وتعرف اختصاراً (PBS)، هي محطة الشبكة التلفزيونية الأمريكية، أسست سنة 1952م، ولها أكثر من 354 محطة تلفزيونية وإذاعية في كافة الولايات المتحدة الأمريكية، وتتوفر باللغة الإنجليزية وبعض المحطات باللغة الإسبانية.

(236) العيد الوطني الفرنسي أو يوم الباستيل: هو عيد وطني فرنسي، يقام كل عام في 14 يوليو منذ سنة 1880م. وهو احتفال بانتهاء الحكم الملكي بالمطلق، والذكرى السنوية الأولى لاقتحام سجن الباستيل. وهو يوم عطلة رسمي في فرنسا.

(237) الهولوكوست (من اليونانية ὁλόκαυστος holókaustos: حيث hólós تعني "الكل" وkaustós تعني "محروق")، تعرف أيضاً باسم شواه (عبرية: השואה تلفظ هاشواه وتعني "الكارثة")، هي إبادة جماعية وقعت خلال الحرب العالمية الثانية قُتل فيها ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي على يد النظام النازي لأدولف هتلر والمتعاونين معه. يستخدم بعض المؤرخين تعريف الهولوكوست الذي يضم الخمس ملايين إنسان الإضافيين من غير اليهود الذين كانوا أيضاً من ضحايا القتل الجماعي للنظام النازي، ليصبح المجموع الكلي إلى ما يقرب الأحد عشر مليون إنسان. جرت عمليات القتل في جميع أنحاء ألمانيا النازية والمناطق المحتلة من قبل ألمانيا في أوروبا.

(238) الحاج محمد العنقة (الجزائر العاصمة 20 مايو 1907م، الجزائر العاصمة، 23 نوفمبر 1978م) رائد الأسلوب الشعبي (نوع من الموسيقى الجزائرية)، وأصبح من أكبر الملحنين الجزائريين بالإضافة إلى أن أجيالاً من الفنانين الجزائريين تخرجوا على يديه.

(239) البانجو Banjo آلة موسيقية وترية. يتكون جسمها من طبلة صغيرة من جلد حيواني أو بلاستيك رقيق مشدود حول إطار دائري أشبه بالدف، وغالباً ما يكون مغنّياً، متصلاً برقبة أو زند على شكل ضلع طويل تمر فوقها أوتار موصلة بمفاتيح شد داخل علبة الملاوي.

(240) جبهة التحرير الوطني (جتو) وتعرف بالاختصار FLN لاسمها (بالفرنسية: Front de libération nationale)، أمينها العام الحالي جمال ولد عباس خلفاً لعمار سعيداني. هو حزب سياسي اشتراكي في الجزائر، كان يمثل الجناح السياسي لجيش التحرير الوطني قبل الاستقلال. بدأ نشاطه بشكل سري قبل 1 نوفمبر 1954م، وهو تاريخ اندلاع الثورة التحريرية

المجيدة التي استشهد فيها أكثر من مليون ونصف شهيد. وحدث الجبهة الشعب الجزائري للحصول على استقلال الجزائر من الاستعمار الفرنسي.

(241) منظمة الجيش السري، بالفرنسية (L'Organisation de l'Armée secrète) OAS هي منظمة إرهابية فرنسية أسست في 11 فبراير 1961م. وهي تضم الموالين لأطروحة الجزائر الفرنسية l'Algérie française بالاعتماد على العمل المسلح. أول ظهور لعلامة OAS كان على جدران الجزائر العاصمة مصحوبة بشعارات «الجزائر فرنسية وستبقى فرنسية». «L'Algérie est française et le».

(242) أحمد وهبي (1921-1993م) أحد مؤسسي الأغنية الوهرانية الحديثة الطابع رفقة بلاوي الهواري، وسميت آنذاك بالعصرية. نشأ العصري إبان أربعينيات القرن العشرين متأثراً بالموسيقى العربية، خاصة المصرية وكبار فنانها كمحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش. أعطى أحمد وهبي للأغنية الوهرانية طابعاً عصرياً، حافظ على الكلمات والإيقاعات الوهرانية مع نكهة مشرقية.

(243) سليمان عازم (1918 . 1983م) هو مغنٌ وشاعر قبائلي أمازيغي جزائري، يؤدي الموسيقى الشعبية الجزائرية والموسيقى القبائلية.

(244) علي لا بوانت 14 مايو 1930م في مليانة - 8 أكتوبر 1957م في عين الدفلى. شهيد جزائري وأحد أبطال الثورة الجزائرية.

(245) مطعم كوشر هو المؤسسة التي تقدم الطعام الذي يتوافق مع القوانين الغذائية اليهودية (طعام حلال).

(246) ليلى العباسي (1897 - 1969م) مغنٌ يهودي جزائري. أصله من مدينة سيدي بلعباس. اشتهر بغناء الموسيقى على الطراز الشعبي الجزائري.

(247) بوليرو هو نوع من الموسيقى اللاتينية بطيئة الإيقاع.

(248) اليهود المزراحيون أو مزراحيים מזוראים مصطلح عبري لليهود الشرقيين وتعني باللغة العبرية مشرقى وتطلق هذه الكلمة على اليهود القادمين أو المتحدرين من سلالة يهود الشرق الأوسط وبعض البلدان الإسلامية.

(249) إنريكو ماسياس Enrico Macias (اسمه الحقيقي هو غاستون غريناسيا). هو مغنٌ يهودي فرنسي من أصل جزائري. ولد في 11 ديسمبر 1938م،

بقسنطينة، الجزائر في حي الشارع وهو الحي اليهودي في المدينة. وعين رسول سلام تابعًا للأمم المتحدة.

(250) بور (Beur) هو مصطلح عامي في فرنسا يطلق على الأشخاص المولودين في فرنسا لوالدين مهاجرين من شمال أفريقيا. أيضًا يستعمل المصطلح في دول أوروبا الغربية الأخرى كبلجيكا، هولندا والمملكة المتحدة. يأتي مصطلح بور من عكس حروف كلمة arabe والتي تعني الشخص العربي بالفرنسية.

(251) هم نوعان: الفئة الأولى هم من الجزائريين الذين كانوا مجندين في صفوف الجيش الفرنسي إبان الثورة الجزائرية، استعملتهم فرنسا من أجل قمع المجاهدين الجزائريين والتجسس عليهم، حيث عند انطلاق الثورة التحريرية كانوا ملزمين بإتمام الخدمة الوطنية في الجيش الفرنسي. والفئة الثانية هم مجموعة من الجزائريين اختاروا الانضمام إلى الجيش الفرنسي طواعية، أي دون إكراه وكان معظمهم قد شارك في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو حرب الهند الصينية إلى جانب فرنسا.

(252) أوسكار شيندلر (بالألمانية: Oskar Schindler)، من مواليد 28 أبريل 1908م، وتوفي بتاريخ 9 أكتوبر 1974م، هو رجل أعمال ألماني ومؤسس مصنع أدوات منزلية وعضو الحزب النازي الذي انضم إليه عام 1939م. اشتهر شيندلر بسبب إنقاذه لأرواح ما يربو على 1200 يهودي من الهولوكوست في بولندا خلال فترة الحرب العالمية الثانية عن طريق تشغيلهم في مصانع الميناء والذخيرة بعد إقناع القيادة النازية بالفائدة الاقتصادية العائدة من تشغيل اليهود.

(253) راؤول فالنبرغ (بالإنجليزية: Raoul Wallenberg) كان دبلوماسياً سويدياً. قام بمحاولات جادة لإنهاء ما عرف بمشكلة اليهود الأوروبيين مع الهولوكوست.

(254) سي قدور بن غبريط. أو عبد القادر بن غبريط، ولد في سيدي بلعباس في الجزائر عام 1868م وتوفي في باريس عام 1954م، كان يعمل مسؤولاً في متحف أورسيه بباريس، ومؤسس المعهد الإسلامي مسجد باريس الكبير.

(255) مسجد باريس الكبير من أكبر مساجد فرنسا، شُيّد من قبل مهاجري شمال أفريقيا الأوائل في فرنسا، الذين كان أغلبهم من الجزائريين والمغاربة، تكريماً للجنود المسلمين الذين دافعوا عن فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، بتمويل فرنسي، حيث خصصت فرنسا 500.000 فرنك فرنسي، وساهم

سلطان المغرب في إنشاء وقف إسلامي لإنهاء البناء، ودشن في يوم 15 يوليو 1926م من طرف الرئيس الفرنسي آنذاك دومارغ والسلطان المغربي مولاي يوسف بن الحسن.

(256) ماروك إيبو الدولية، أو ماروك إيبو، هي جريدة أسبوعية مغربية لمعلومات عامة باللغة الفرنسية، أنشئت في نوفمبر 1991م من قبل محمد السلهامي ويقع مقرها في الدار البيضاء.

(257) لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية تسمى اختصاراً أيباك بالإنجليزية: American Israel Public Affairs Committee.

(258) إسماعيل فروخي من مواليد مدينة القنيطرة يوم 26 يونيو 1962م، مخرج مغربي له عدة أفلام من بينها فيلم الرحلة الكبرى.

(259) فرانز عمر فانون (20 يوليو 1925 - 6 ديسمبر 1961م) طبيب نفسي وفيلسوف اجتماعي من مواليد فور دو فرانس - جزر المارتينيك، عرف بنضاله من أجل الحرية وضد التمييز والعنصرية.

(260) Frantz Fanon, (1961), The Wretched of the Earth.

(261) كان هارولد رايت كروس (8 مارس 1916 - 25 مارس 2005م) أكاديمياً أمريكياً كان ناقداً اجتماعياً صريحاً ومعلماً للدراسات الأمريكية الأفريقية في جامعة ميتشغان حتى منتصف الثمانينيات. "أزمة المثقف الزنجي" (1967م) هو أشهر كتاب له.

(262) كان راكبو الحرية من نشطاء الحقوق المدنية الذين ركبوا الحافلات بين الولايات في جنوب الولايات المتحدة في عام 1961م والسنوات اللاحقة للطعن في عدم إنفاذ قرارات المحكمة العليا للولايات المتحدة مورغان ضد فرجينيا (1946م) وبينيتون ضد فرجينيا (1960م)، التي قضت بأن الحافلات العامة المعزولة كانت غير دستورية. كانت الولايات الجنوبية قد تجاهلت الأحكام ولم تفعل الحكومة الفيدرالية أي شيء لفرضها. غادرت رحلة الحرية الأولى واشنطن العاصمة في 4 مايو 1961م، وكان من المقرر أن تصل إلى نيو أورلينز في 17 مايو.

(263) كانت حركة الوعي الأسود (BCM) حركة ناشطين ضد التفرقة العنصرية ظهرت في جنوب أفريقيا في منتصف الستينيات من الفراغ السياسي الناجم عن سجن وحظر المؤتمر الوطني الأفريقي وقيادة

الكونغرس الأفريقي بعد مذبحه شاربيل في عام 1960م. تمثل BCM حركة اجتماعية للوعي السياسي.

(264) Bernard Lewis, (1971), Race and color in Islam.

(265) العم توم هو الشخصية الرئيسة في رواية "كوخ العم توم" للكاتبة هيريت بيتشر ستاو والتي نُشرت عام 1852م. أصبحت عبارة "العم توم" أيضاً رمزاً للشخص الخانع والخاضعة بشدة لرموز السلطة، وخاصة الشخص الأسود الذي يتصرف بطريقة خاضعة للبيض، أو أي شخص ينظر إليه على أنه مشارك في القمع ضد مجموعته. هذه الصفة السلبية هي نتيجة لأعمال لاحقة مستمدة من الرواية الأصلية.

(266) James Baldwin, (1972), No Name in the Street.

(267) Pascal Bruckner, (2010), The Tyranny of Guilt: An Essay on Western Masochism.

(268) المقصود بها "أوروبا العربية".

(269) التعهيد الجماعي بالإنجليزية: Crowdsourcing هو عملية جمع، أو استيراد، أو الاستعانة بالجمهور بغية الحصول على المعلومات.

(270) الميم هو مصطلح يقصد به فكرة أو تصرف أو أسلوب والذي ينتشر من شخص لآخر داخل ثقافة ما غالباً بهدف نقل ظاهرة معينة، أو معنى متمثلاً في الميم. يعمل الميم كوحدة لحمل الأفكار الثقافية أو الرموز أو الممارسات، والذي يمكن أن ينتقل من عقل إلى آخر من خلال الكتابة أو الحديث أو الإيماءات أو الطقوس أو أي ظاهرة أخرى قابلة للتقليد يربط بينها صورة عامة.